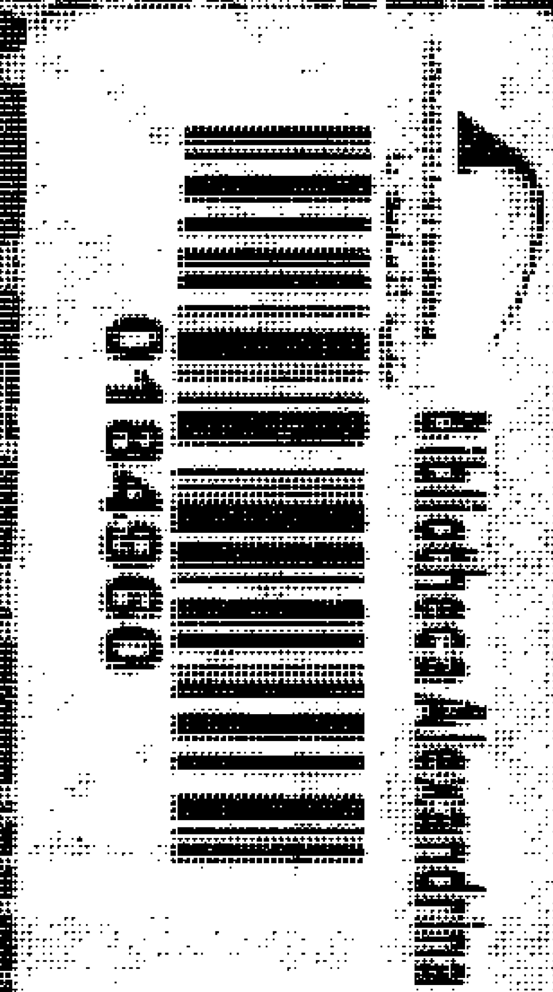
عرفان محمد حمور

مواسم العرب الكبرى

تاريخ المواسم العامة في بلاد العرب و القواعد التي
كانت عليها و أشهر أخبارها و مآثرها

الجزء الثاني





عنوان الكتاب

مواسم العرب الكبرى

المؤلِّفُ : عرفان محمد حمُّور

الناشِر والموزِّع

مؤسسة الرِحَاب الحديثة

للطباعة والنشر والتوزيع

المدير المسؤول : **أحمد فوَّاز**

هاتف : ٠٣/٣٥٩٧٨٨

ص.ب : ١١/٣٨٤٧

بيروت ـ لبنان

التنضيد والإخراج

مؤسسة غَوْر بِرِسْ

هاتف : ٠١/٦٥٢٣٤٨

العنوان : البربير ـ بناية كاملة ـ ط ٤

بيروت ـ لبنان

تصميم الغلاف

د. هدال عرفان حمُّور

الطبعة الأولى ١٩٩٩

عرفان محمد حمّور

مواسم العرب الكبرى

تاريخ المواسم العامة في بلاد العرب و القواعد التي قامت عليها و اشهر اخبارها و ءاثارها

الجزء الثاني

مواسم بلاد العرب و الشام و العراق



مؤسسة الرحاب الحديثة
بيروت - لبنان

الجزء الثاني

مواسم الأسواق والحجّ والأعياد في بلاد العرب

الباب الأول

مواسم الأسواق بين القدماء والمُحْدَثين
عرض وموازنة وتحقيق

ـ الفصل الأول: مواسم الأسواق في موارد القدماء

١ ـ محمد بن إسحاق ٢ ـ محمد بن سعد ٣ ـ محمد بن حبيب
٤ ـ أبو الوليد الأزرقي ٥ ـ اليعقوبي ٦ ـ أبو الفرج الأصفهاني
٧ ـ ابن جرير الطبري ٨ ـ الهمداني ٩ ـ أبو حَيَّان التوحيدي
١٠ ـ أبو على المرزوقي ١١ ـ ياقوت الحموي ١٢ ـ زكريا القزويني
١٣ ـ القلقشندي ١٤ ـ عبد القادر البغدادي * الخلاصة

ـ الفصل الثاني: مواسم الأسواق العامة في كتب المحدثين ـ عرض ومناقشة ونقد.

١ ـ بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب للآلوسي
٢ ـ تاريخ التمدن الإسلامي لزيدان
٣ ـ تاريخ آداب العرب للرافعي
٤ ـ عكاظ والمربد لأحمد أمين
٥ ـ أسواق العرب لسعيد الأفغاني
٦ ـ المفصل في تاريخ العرب لجواد علي
٧ ـ في منزل الوحي لهيكل
٨ ـ موقع عكاظ لعبد الوهاب عزام
٩ ـ الأطلس التاريخي للدولة السعودية
١٠ ـ الشعراء الصعاليك ليوسف خليف
ـ الخلاصة.

ـ الفصل الثالث: تصنيف المواسم العامة المعروفة في بلاد العرب والشام والعراق



مواقع الأسواق من شبه جزيرة العرب كما عيّنها المتقدّمون

الفصلُ الأوَّلُ

مواسِمُ الأسواقِ في موارِدِ القدماءِ
عرضٌ وموازنةٌ وتحقيقٌ

يبدو من مُتَابَعةِ أخبار العرب في عصر الجاهلية، أنهم كانوا يَعْقِدُونَ كثيراً من المواسم العامَّة الكبرى، في مختلف أنحاءِ بلادهم، ولا سيما ما كان منها للعبادة والحجِّ والتجارة معاً، فضلاً عن تَنَاوُلِها شؤونَ حياتهم على تعدُّدِ وجُوهها. غير أنه لم يظهرْ بعدُ حتى اليوم، فيما اطَّلعتُ عليه من كُتُب التراث، مُصَنَّفٌ قديمٌ، أُفْرِدَ كلُّه، أو بعضُه، للحديث عن تلك المواسم، نجِدُ فيه وصْفاً وافِياً لها، يُحيط بعدَدها كم كان، ومَوَاضِعِها أين كانت، ومَوَاقيتِ انعقادها من السنة متى كانت تأزِفِ، ومتى كانت تنقضي، ويُحْصي ما كان يجري فيها، ومَن كان يَشْهدُها من القبائل والتجار والأجانب، ويُؤَرِّخ زمنَ نُشوئها وانْدِثارها... وكلُّ ما وجدتُه من هذه الأمور إشاراتٌ قليلةٌ، وبضعةُ فصولٍ صغيرةٍ، في كُتبِ بعض المؤرخين وأهل الأخبار، أشارت إلى تلك المواسم بإيماء خَجُولٍ، أو تحدَّثتْ عنها حديثاً قصيراً مُقْتَضَباً، فضَمَمْتُها إلى شَذَراتٍ من الأخبار المتفرِّقَةِ، والروايات المختلفة، التي وجدتُها مَنْثُورةً في ألوف الصفحات، بعدما غُصْتُ عليها بطونَ العشرات من المراجع والموارد القديمة، أسْتَقْصيها، وألْتَقِطُها خبراً من هنا، وحكايةً من هناك، حتى جمعتُها، ثم عَكَفْتُ عليها أُقَلِّبها ذاتَ اليمين وذاتَ الشمال،

أُحَقِّقُ فيها، وأُفَاضِلُ بينها، وأَسْتَقرِئُها، حتى اسْتَوَتْ بين يديَّ موضوعاً مُتَماسِكاً، يَشُدُّ بعضُه أَزْرَ بعض، لِيُقَدِّمَ صورةً جَلِيَّةً واضحةً عن تلك المواسم، ويكشفَ من خلالها وجهاً مُشْرقاً من حضارة العرب في عصر الجاهلية، يوم كانوا خير أُمَّةٍ أُخرِجتْ للناس.

وإذا كان بعضُ مواسم الأسواق العامَّة إنما أُشِير إليه اتِّفاقاً في موارد القدماء، فجاء ذِكْرُهُ ناقصاً من كلِّ تفصيل عن مواقيته ووقائعه، فإن الفصول التي عقدها بعضُ المؤرِّخين والأخباريين للحديث عن هذه المواسم، لم تكن أَحْسَنَ حالاً في جُمْلة عناصرها، فقد جاءت شَحِيحَةً، مُتباينةً في عَدِّ ما كان معروفاً من المواسم وقتئذٍ. وسنكتفي في هذا الفصل بذكر ما عثرنا عليه عند هؤلاء وأولئك، كما عَدُّوه أو أشاروا إليه، مع التحقيق فيه والتعقيبِ عليه كلما اقْتَضَى الحال.

* * *

المطلب الأول ـ محمد بن إسحاق:

لعلَّ أقْدمَ إشارةٍ إلى مواسم العرب في الجاهلية هي ما قال فيها ابنُ إسحاق[1]: «وكان بَدْرٌ موسماً من مواسم العرب، يجتمعُ لهم به سوقٌ كلَّ عام...»[2]، وذلك في حديثه عن غزوة بَدْرٍ الكبرى، من غير أن يذكر لنا موعداً لانعقاده، أو مُدَّة قيامه، أو شيئاً عن موقعه. ونعتقد أن البحث يمكن أن يؤدِّي بنا إلى معرفة ما غمض علينا من أمره.

---

(١) ابنُ إسحاق: محمد بن إسحاق بن يَسَار، من أهل المدينة. جَدُّهُ يَسَار من سَبْي عين التمر في شمال بادية الشام، يُعَدُّ من أقْدم مؤرخي العرب، وله السيرةُ النبوية التي عُرِفت بسيرة ابن هشام وقد رواها عنه. توفي سنة (١٥١ هـ = ٧٦٨ م).

(٢) السيرة النبوية لابن هشام: ٦١٨/١.

ونُقِل عنه أيضاً قولُه: وكانت **مجنَّةٌ** بمَرِّ الظَّهْران، إلى جبلٍ يُقال له الأصْفَرُ، وكانت **عكاظُ** فيما بين نَخْلَةٍ والطائف، إلى بلدٍ يُقالُ له الفُتُقُ، وكان **ذو المجاز** ناحيةَ عَرَفَة، إلى جانبها. . . وهذه المواضعُ الثلاثةُ كانت من أسواق العرب في الجاهليَّة، وأعظمها شهرة[1].

وبذلك عَدَّ ابن إسحاق من مواسم العرب أربعةً هي: بدرٌ، وعكاظٌ، ومجنَّةٌ، وذو المجاز، ولم يُعيِّنْ مَوْضعَ سوق بدر، ولا مواعيدَ هذه المواسم.

* * *

المطلب الثاني ـ محمد بن سعد:

ثمَّةَ إشارةٌ قديمةٌ أُخرى، ذكر فيها «ابنُ سعد»[2] أن هاشم بن عبد مناف، خرج في عِيرٍ لقُرَيْش، تحمل تجاراتٍ، «وكان طريقُهم على المدينة، فنزلوا بسوق **النَّبَط**، فصادفوا سوقاً تقومُ بها في السنة، يحشدون لها، فباعُوا واشْتَرَوْا. . .»[3].

ولم نعثر على أية معلوماتٍ، فوق هذا النصِّ، يُمكن أن نستدلَّ بها في تَعْيينِ موضع سوق النَّبَط من مدينة يثرب، أو معرفةِ موسم قيامه وانقضائه!

---

(١) موقع عكاظ: ٤٤.

(٢) **ابن سعد**: هو أبو عبد الله، محمد بن سعد بن منيع الزهري، المُتَوَفَّى سنة ٢٣٠ هـ. درس الحديث على كبار الأئمة. أهم تصانيفه «الطبقات الكبرى»، وهو تأريخ لسيرة الرسول ﷺ والصحابة والتابعين حتى عصره. وقد نشرت كتاب الطبقات مطبعةُ بريل في لندن سنة ١٣٢٢ هـ، ولجنةُ نشر الثقافة الإسلامية، سنة ١٣٥٨ هـ.

(٣) الطبقات الكبرى: ١/٧٨.

وكل ما نعرفه أن الأنباط، أو النَّبَطَ، شعبٌ عربيٌّ قديم، أقام دولةً مُتقدِّمَةً بين الحجاز والشام، عاصمتُها مدينةُ الرَّقِيمُ، وهي البتراءُ، ومن مُدُنهم: بُصْرى، وصَلْخَدَ، والحِجْرُ، وكانوا تُجَّاراً مَهَرةً، يَجُوبون بمتَاجِرهم البلادَ القريبةَ والبعيدة[1]، وكانت لهم تجارةٌ مع المدينة، يحملون إليها دقيقَ القمح الأبيض والزيتَ وغيرَهما[2]. . . ويبدو أنهم كانوا يُتَاجِرون في موضعٍ مُعيَّن من أسواق يثرب، فعُرِفَ ذلك الموضعُ بسوق النَّبَط، وكان موعدُ قدومهم إليه موسماً يقومُ مرةً في السنة، فيجتمع إليه التجار للبيع والشراء[3].

ولا نعتقدُ أننا نملُكُ من المعلومات ما يسمح لنا بالذهاب في شأن هذا الموسم إلى أبعد مما فعلنا.



المطلب الثالث ـ محمد بن حبيب:

ولعلَّ ابن حبيب[4]، فيما وصل إلينا، أوَّلُ من عَقَد فصلاً، من نَحْوِ خمس صفحات، في كتابه «المحبَّر»، للحديث عن مواسم أسواق العرب المعروفة في زمن الجاهلية، وقد عَدَّ فيه منها اثنَتَيْ عشرة سوقاً، فذكر مواضِعَها ومواقيتها، وأشار إلى أنها كانت: «أسواق العرب المشهورة في الجاهلية. . .»، وهي كما سَرَدَها:

---

(١) فيليب حتي ـ تاريخ سورية ولبنان وفلسطين: ١/ ٤١٧ ـ ٤١٨.

(٢) لسان العرب: ٧/ ٣٤٤ (ضفط).

(٣) المفصَّل: ٧/ ٣١٣.

(٤) **ابن حبيب**: أبو جعفر، محمد بن حبيب البغدادي، الهاشميُّ بالولاء. عَلَّامةٌ بأخبار العرب، وأنسابهم، واللغة والشعر. وُلد ببغداد، وتُوفي بسَامُرَّاء (٢٤٥ هـ = ٨٦٠ م). له مُصنَّفاتٌ كثيرةٌ، أشهرُهَا كتابُه المحبَّر.

سوق «دُومَة الجَنْدل»[١]، ومَوضِعُها بين الشام والحجاز، وقيامُها في أول يوم من شهر ربيع الأول إلى النصف منه، ثم تَرِقُّ، فلا تزال قائمةً إلى رأس الشهر، ثم يفترقون عنها إلى مثلِها من قابِلٍ[٢]. . . ثم يرتحلون منها إلى «المُشَقَّر»[٣] بِهَجَر، فتقومُ سوقُها أول يوم من جُمادَىٰ الآخِرةِ إلى آخر الشهر. . . ثم سوق «صُحَار»[٤] بعُمَان، وكانت تقومُ أولَ يومٍ من رجب خمسَ ليالٍ. . . ثم سوق «دَبَا»[٥]، وهي إحدى فُرْضَتَيْ العرب بعُمان، فيقومُ سوقُها آخِرَ يومٍ من رجب. . . ثم سوق «الشِّحْر»[٦]، شِحْرِ مَهْرَةٍ، فتقوم السوقُ تحت ظلِّ الجبل الذي عليه قبرُ النبيّ هُودٍ عليه السلام، وكان قيامُها للنصف من شعبان. . . ثم سوق «عَدَن»، وكانت تقومُ أولَ يومٍ من شهر رمضان إلى عشر ليالٍ يَمضِينَ منه. . . ثم سوق «صنعاء»، وكانت تقوم في النصف من شهر رمضان إلى آخره. . . ثم سوق «الرابيَة» بحضرموت، وسوق «عكاظ» بأعلى نَجْدٍ قريباً من عرفات، وكانتا تقومان في يوم واحد، للنصف من ذي القعدة إلى آخر الشهر، فكان بعض الناس يأخذ إلى الرابية، وبعضٌ إلى عكاظ. . . ثم سوق «ذي المجاز»، وهي قريبةٌ من عكاظ، فتقومُ أولَ يوم من ذي الحجَّة إلى يوم التَّرْوِيَة، وهو الثامنُ من ذي الحجَّة، ثم يصيرون

---

(١) دُومَةُ الجَنْدل: حِصْنٌ وقُرى لبني كلب، تقعُ في واحة الجوف، شمالَ الحجاز، على منتصف الطريق بين الحجاز والشام والعراق.

(٢) القابِلُ: إسمٌ للعام المُقْبِل.

(٣) المُشَقَّرُ: حِصْنٌ لبني عبد القيس بمدينة هَجَرَ البحرين (الأَحْسَاء).

(٤) صُحَار: قَصَبَةُ عُمَان مما يلي الجبل، والقَصَبَةُ: أعظمُ مدُن الإقليم.

(٥) دَبا: مدينة عربية قديمة، كانت قصبةَ عُمَان، ومَرْفَأها. والفُرْضَةُ: مَحَطُّ السفُنِ من البحر.

(٦) الشِّحْرُ: صُقعٌ في الجنوب، على ساحل بحرالعرب بين عُمَان وحضرموت، ومَهْرَة: قبيلة عربية كانت منازلُها في الشِحْر فأُضِيف إليها، والشِحْرُ في لغة الجنوب معناه الساحل.

إلى «مِنَى» لقضاء مناسك الحجِّ... ثم سوق «نَطَاة»[1] بِخَيْبَر، وسوق «حَجْر» باليمامة، وكانتا تقومان يومَ عاشُوراءَ إلى آخر المحرَّم[2]...

وإذا نظرنا في حديث الأسواق كما ذكره ابن حبيب، وجدنا الملاحظات التالية:

١ ـ التتابُع في شُهود الأسواق:

الملاحظة الأولى في حديث ابن حبيب أنه سَرَدَ مواسم الأسواق مُتَتابِعَةً، على مواقيت قيامها، فقال بعد كلامه على سوق دُومة الجندل: «ثم يرتحلون منها إلى المشقَّر...»[3]، وطَفِق بعد ذلك يستعملُ حرفَ «ثُمَّ» في الإشارة إلى انتقالهم من سوقٍ تَنفضُّ، إلى أخرى تنعقِدُ، وهو حرفٌ يُستعملُ عادةً للتَّشْرِيك في الحُكم والترتيب[4]، فكأنهم كانوا في رحلةٍ تجاريةٍ تظلُّ قائمةً طولَ السنة، ما خلا أربعةَ أشهُرٍ منها خَلَتْ من المواسم، وهي: صَفَرٌ، وشهرُ ربيعٍ الآخِرُ، وجُمادَى الأُولى، وشَوَّالٌ... غير أنها، على ما أرى لم تكن خاليةً تماماً، فبعضُها كانت الرحلةُ في الطرق البعيدة تَسْتغرِقُه، والبعض ربما كانت تنعقد فيه مواسمُ أخرى غفل عنها ابنُ حبيب.

٢ ـ غلطه في تعيين موعد صُحَار، والانتقال من هجَر إلى عُمَان:

إذا كانت سوقُ المشقَّر بهَجَر ينفضُّ موسمُها آخِرَ شهر جُمادى الآخِرة، وكانت سوقُ صُحَار بعُمَان يقومُ موسمُها أولَ يومٍ من رجب، كما زعم ابنُ

---

(١) نَطَاة: حِصْنٌ وعينُ ماء بخَيْبَر، وهي ضاحِيةٌ على أربعة أيام من يثرب، فيها مزارع ونخيل.

(٢) المحبَّر: ٢٦٣ ـ ٢٦٨.

(٣) المحبَّر: ٢٦٥.

(٤) عبد الغني الدقر ـ معجم النحو: ١٢٤.

حبيب، مع قوله بالتتابُع في الانتقال من سوقٍ إلى أُخرى بعدَها، فكيف كانوا يرتحلون من هَجَرٍ إلى عُمَانَ في ليلةٍ واحدة، مع أن الطريق بينهما طويلٌ و «شَاقٌّ يصعبُ سلوكُه»[١]، ويقتضي السفرُ فيه مسيرةَ شهرٍ تقريباً على الإبِل[٢]، وربما نصفَ المدَّة إذا كان السفرُ بالبحر؟. . . وهذا ما يدفع إلى الشك في صحة الميقات الذي عيَّنه لقيام سوق صُحَار، وبعض المواقيت الأُخرى، أو يَدْفعُ إلى رفضِ قوله بارتحال الناس من موسمٍ يَنْفضُّ إلى موسمٍ يَتبعُه، لِشُهود المواسم جميعاً، فَلعلَّهم كانوا يختارون منها ما يريدون شُهودَهُ، فيرتحلون إليه ليكونوا فيه وقتَ قيامه.

٣ ـ الانتقال بالبحر من عُمَان إلى الشحْر وعَدَن:

إن المواقيت التي عيَّنها لقيام مواسم الشِحْر وحضرموت وعَدَن، تجعلُنا نميلُ إلى الاعتقاد بأن انتقال الناس بينها كان بالبحر، فطريقُ البحر أقصَرُ، وطريقُ البرِّ طويلةٌ وشَاقَّةٌ، ومواعيدُ قيام هذه المواسم قريبٌ أحَدُها من الآخر، فمَوْسِمُ سوق دَبا بعُمان يقومُ وينتهي آخرَ يوم من رجب، ثم ينعقد بعده موسمُ سوق الشِحْر في النصف من شعبان، ثم يليه موسمُ سوق عَدَن في الأول من شهر رمضان[٣]. . . وبين عُمَانَ والشِحْرِ مسيرُ شهرٍ[٤]، وبين الشِحْر وعَدَن مثلُ ذلك[٥]، فكان لا بُدَّ للتجّار من ركوب البحر لبُلوغ المواسم في مواعيدها. . . ويُؤيِّد هذا الاعتقادَ أن ابنَ حبيب قدَّم سوقَ صُحَار

---

(١) معجم البلدان: ٥/ ١٨٨.
(٢) المرجع نفسه: ١/ ٣٤٧، وقلائد الجُمان: ١٧ ـ ١٨.
(٣) المحبَّر: ٢٦٦.
(٤) معجم البلدان: ٥/ ٢٣٤.
(٥) بلوغ الأرب: ١/ ١٨٦، وقلائد الجُمان: ١٧ ـ ١٨.

في ترتيب القيام على سوق «دَبَا»، مع أن «دَبَا» تقعُ على طريق القادم من البحرين إلى عُمَان أولاً، وتقع صُحَارُ ثانياً، ولكن الطريق رأساً إلى صُحَار أقصَرُ، فهو طريق مستقيم، وهذا سَبَبٌ في التقديم، أما السببُ الآخَرُ فهو أنه لم يكن للمرتحلين بُدٌّ من الانتهاء إلى «دَبَا» كيفما كانت رحلتُهم، وذلك للقاءِ تُجَّار البحر فيها، والارتحالِ من مينائها إلى شِحْرِ مهرة، وكانت «دَبَا» من موانىء العرب المشهورة وقتئذٍ.

٤ ـ غَلَطُه في تعيين موقع عكاظ وربما في موعدها:

إن قوله بقيام موسم عكاظ للنصف من ذي القعدة، بأعلى نجْدٍ قريباً من عرفات، قولٌ غيرُ دقيق، ولا تطمئنُّ النفسُ إليه، فهنالك كما رأينا شكٌّ في بعض المواقيت التي عَيَّنَها، ومنها ميقاتُ عكاظ، ثم إن موقع السوق ربما كان حقّاً بأعلى نجْدٍ، ولكنه لا يمكن بذلك أن يكون قريباً من عرفات، فعرفاتُ ليست من نجدٍ بل من الحجاز. وقد أراد المحقِّقُ الفاضلُ الشيخُ حَمَدٌ الجاسِرُ أن يلتمسَ له عُـذْراً في غَلَطه فقال: ولعله سقطتْ من كتاب ابن حبيب، أو من الأصل الذي نقل عنه عبارةُ «وذو المجاز» بعد كلمة نَجْد[١]. . . ولكن يبدو لي أن العِبَارةَ جاءت كذلك في الأصل، بدليل أنه جعل بعدئذٍ موقعَ ذي المجاز قريباً من عكاظ[٢]، مع أنه إلى جانب عرفات، وهي قريةٌ كانت فيها مزارعُ وخُضَرٌ ومَبَاطِخُ، ودُورٌ حَسَنةٌ لأهل مكة، يَنْزِلونها يومَ عَرَفَة[٣]، في التاسع من ذي الحجَّة.

* * *

---

(١) موقع عكاظ: ٤٧، (أي: وسوقُ عكاظ بأعلى نجد، وذو المجاز قريبٌ من عرفات)، وعبارة ابن حبيب ليست هكذا. . وأعلى نَجْد هو الجنوبُ الغربيُّ من نجْد.

(٢) المحبَّر: ٢٦٧.

(٣) معجم البلدان: ٤/ ١٠٤.

المطلب الرابع ـ أبو الوليد الأزرقي:

وقد أشار «أبو الوليد الأزرقيُّ»[1]، في كتابه «أخبار مكة»، إلى أربع أسواق فقط من مواسم العرب في الجاهلية، ثلاثٌ منها ذكرها لأنها كانت في مواسم الحجِّ وشُهوره، وهي: عكاظ، ومجنَّة، وذو المجاز، والرابعةُ: سوقُ حُبَاشَة، ذكرها عَرَضاً. . .

ونقل عن ابن الكلبي[2] أن الناس كانوا إذا خرجوا إلى مواسم الحجِّ أصبحوا في «**عُكاظ**» يومَ هلال ذي القعدة، فأقاموا به عشرين ليلةً، تقومُ فيها أسواقُهم بعكاظ، فإذا مضَتِ العشرون، انصرفوا إلى «**مجنَّة**» فأقاموا بها عشراً، أسواقُهم قائمة، فإذا رأَوْا هلالَ ذي الحجَّة، انصرفوا إلى «**ذي المجاز**» فأقاموا به ثمانَ ليالٍ، أسواقُهم فيها قائمةٌ حتى اليوم الثامن، وهو يومُ التَّرْوِيَة، إذ تَنفضُّ أسواقُهم، ويخرجون من ذي المجاز إلى «عَرَفَة» حيث يُباشِرون مناسِكَ الحجّ. . . وإنما سُمِّي ذلك اليومُ يومَ التروية لِتَروِّيهم فيه من الماء بذي المجاز، لأنه لا ماءَ بعَرَفَة ولا بالمُزْدَلِفَة يومئذٍ، وكان يومُ التروية آخِرَ أسواقهم، فقد كانوا يتأثَّمون من الجمع بين التجارة والحجِّ في وقت واحد، فكانوا لا يتبايعون في عَرَفة، ولا في مِنىً وهي من مواسم الحج[3]. . .

ثم زاد أبو الوليد الأزرقي على ما نقله عن ابن الكلبي، فعيَّن مواضعَ هذه الأسواق بقوله: «وعكاظُ وراءَ قرنِ المنازل[4]، بمرحلةٍ، على طريق

---

(١) سبقت ترجمته .

(٢) **ابن الكلبي**: أبو المنذر، هشام بن محمد بن السائب الكلبي، عالم بأنساب العرب وأخبارهم وأيامهم، من أهل الكوفة، له تصانيف كثيرةٌ، توفي سنة (٢٠٤ هـ).

(٣) أخبار مكة: ١/ ١٨٧ ـ ١٨٩ .

(٤) **قرن المنازل**: ميقاتُ أهل نجد والطائف واليمن، على يوم وليلة من مكة، أي نحو خمسين ميلاً وبينها وبين الطائف ستةٌ وثلاثون ميلاً «معجم البلدان: ٤/ ٣٣٢».

صنعاء، في عمل الطائف على بريدٍ منها، وهي سوقٌ لِقَيْسِ بن عَيْلان وثقيفٍ، وأرضُها لِنَصْر، ومجنَّةٌ سوقٌ بأسفل مكة، على بريد منها، وهي سوقٌ لكنانة... وذو المَجازِ سوقٌ لِهُذَيْل، على يمين الموقف من عَرَفة، قريبٌ من كبكب، على فرسَخٍ من عَرَفَة...»[١]. والمعنى في هذا القول أن سوق عكاظ كانت لقبائل قيس بن عَيْلان، وأرضُها من أعمال الطائف، على مسافة إثني عشر ميلاً منها، وهي لبني نصر بن معاوية، من هَوازِن، من قيس بن عيلان، وكانت تقعُ على طريق المسافر إلى صنعاء، بعد قرن المنازل، بنحو أربعةٍ وعشرين ميلاً، أو مسيرةِ يومٍ واحد، بينما تقع سوقُ مجنَّة على مسافة اثنَيْ عَشَر ميلاً شمالَ مكة، وذو المجاز على بُعْد ثلاثة أميال من عَرَفة، قريباً من جبل كبكب. ولا شك في أن تحديد مواقع هذه الأسواق، يُعَدُّ سَبْقاً للأزرقي.

وقد تفرَّد الأزرقيُّ كذلك بالإشارة إلى سوقٍ لقبيلة الأزد، كانت تقومُ في تهامة، بين مكة واليمن، بديارِ بارقٍ، على ستِّ ليالٍ من مكة، وهي سوق «حُبَاشَة»، وهي آخِرُ سوق خَرِبتْ من أسواق الجاهلية. وذكر أنه إنما ترك ذِكْرَ حُبَاشَة مع أسواق عكاظ ومجنَّة وذي المجاز، لأنها لم تكن في مواسم الحجِّ، ولا في أَشْهُره، وإنما كانت في شهر رجب، تقومُ فيه ثلاثة أيام مُتَواليةٍ من أوَّله[٢].

ويجب أن نلاحظ هنا، أن الأزرقي جعل أسواق عكاظ ومجنَّة وذي المجاز من مواسم الحجِّ عند عرب الجاهلية، وأنه كان دقيقاً في تعيين مواضعها وموافيتها.

* * *

(١) أخبار مكة: ١/ ١٩٠ ـ ١٩١.

(٢) المرجع نفسه: ١/ ١٩١ ـ ١٩٢.

المطلب الخامس ـ اليعقوبي:

ذكر «اليعقوبي»[1] في تاريخه أن أسواق العرب المعروفة في الجاهلية كانت عشراً فقط، فأغفل ممّا عدَّدَهُ ابنُ حبيب سوقَيْ نَطَاةٍ بخَيْبَر، وحَجْرٍ باليمامة، واتفق معه في سائرها، بأسمائها ومَواضِعِها ومواقيتها، إلا موسمَ المشقَّر، خالفه في موعده، وجعله شهرَ جُمادَى الأولى... هذا، وقد أصاب كلمةَ «دَبَا» في كتاب اليعقوبي تصحيفٌ جعلها «رَيَّا» بالراء والياء المشدَّدة، فنقلها البعضُ، على تَصْحيفها، مع أنها غلطٌ صوابُه: دَبَا[2]...



المطلب السادس ـ أبو الفرج الأصفهاني:

ويبدو أن «الأصفهاني»[3] انفرد في كتابه «الأغاني» بالإشارة إلى موسمٍ غفل عنه الآخَرون، كان ينعقد في «الحِيرة»، وهي حاضِرةُ ملوك العرب في العراق، وذلك في حديثه عن أخبار حاتم بن عبد الله الطائي[4]، فقال إنه: «كان بالحيرة سوقٌ يجتمعُ إليها العربُ كلَّ سنة»[5]، ولكنه لم يُعيِّنْ لنا موقعها من مدينة الحيرة، ولا موعدَ قيامها من السنة. وإذا كانت معرفة

---

(١) سبقت ترجمته.

(٢) تاريخ اليعقوبي: ١/ ٢٧٠.

(٣) **الأصفهاني**: أبو الفرج علي بن الحسين القرشيُّ الأمويُّ، من كبار العلماء في الأدب والتاريخ والأنساب والمغازي. وُلد بأصفهان (٢٨٤ هـ)، ونشأ ببغداد، وتوفي فيها (٣٥٦ هـ). له مؤلَّفات كثيرة، أعظمها شهرةً كتاب الأغاني.

(٤) **حاتم الطائي**: أبو عَدِيّ، فارس، شاعر، جواد من أهل الجاهلية، يُضرب المثلُ بجوده، أخباره كثيرة، ولا سيما في الكرم والمروءة والنجدة. توفي نحو سنة (٥٧٨ م).

(٥) الأغاني: ١٧/ ٢٨٣.

موقعها من مدينة الحيرة صعبةً، فترجيحُ قيام موسمها في وقت معيَّن، ربما كان ممكناً مع شيءٍ من البحث والتحقيق، وهو ما سنحاول أن نفعله عندما نتكلم على مواسم العراق.

* * *

المطلب السابع ـ محمد بن جرير الطبريُّ:

لم يَعْرِضِ «الطبريُّ»[(١)] في تاريخه إلى موضوع مواسم الأسواق في الجاهلية، إلا ما كان من أخبار الرسول عليه السلام في مواسم عكاظ. ولكنه في حديثه عن غزاة الأنبار، أشار إلى مَوسميْن لقبائل العرب، كانا يقومان في طرَف العراق، قريباً من مدينة الأنبار، وهما: **سوقُ الخَنَافِس، وسوقُ الكَبَاث**[(٢)]. وسنحاول معرفة موعد قيام كلٍّ منهما في كلامنا على مواسم العراق.

* * *

المطلب الثامن ـ الحسن بن أحمد الهمدانيُّ:

ذكر «الهمدانيُّ»[(٣)] في كتابه «صفة جزيرة العرب» إحدى عشرةَ سوقاً، عدَّها من أسواق العرب القديمة. وقد نظرتُ فوجدتُ سبعاً منها سُبِق إلى ذكرها، وهي: عكاظ، مجنَّة، ذو المجاز، بَدْرٌ، حَجْرُ اليمامة، عَدَن، هَجَر

---

(١) سبقت ترجمته.

(٢) تاريخ الطبري: ٣/ ٤٧٣ ـ ٤٧٥.

(٣) سبقت ترجمته.

البحرين. ولا أرى داعِياً إلى التعليق عليها، إلا بكلمة على سوق هَجَر البحرين. فيبقى أربعٌ أظن أنه سَبَقَ إلى ذكرها، وهي: مِنَى، مكّة، نجران، الجَنَد[1]، ولا بدَّ أن نقول فيها بعض الملاحظات. على أن للهمدانيّ فوق ذلك كلامٌ جيِّدٌ في تعيين موقع عكاظ، سنذكره في موضعه من حديثنا عن سوق عكاظ في الباب التالي.

١ ـ موسم هجر البحرين:

إن قوله: هجر البحرين، إنما أراد به موسمَ المشقَّر، الذي كان ينعقد بمدينة هَجَر، فالمشقَّرُ قاعدةُ هَجَر، وهَجَرٌ قاعدةُ البحرين، أي الأحْسَاء وقَصَبتُها. وقد أضافها إلى البحرين تمييزاً لها من مُدنٍ أخرى، كهَجَرِ نجران، وهَجَر جازان وغيرهما[2]. والقصدُ في ذلك أن هنالك موسماً واحداً بهَجَر البحرين هو موسمُ المشقَّر.

٢ ـ موسم مِنَى لا يجوز فيه الجمع بين الحجِّ والمتاجرة:

مِنَىً موضعٌ جبليٌّ في شرق مكَّة، على طريق عَرَفَة، وكانت في الجاهليَّة من مواسم الحجِّ التي يمتنعُ العربُ فيها من المتاجرة، لأنهم كانوا لا يتبايعون في «يوم عَرَفَة وأيام مِنَى»[3]، ويتأثَّمون خلالها من الجمع بين مناسك الحجِّ والمتاجرة، إلى أن أباح لهم الإسلامُ ذلك، فلعلَّها صارت حينئذٍ سوقاً.

---

(١) أسواق العرب: ٢١١، عن صفة جزيرة العرب للهمداني.
(٢) معجم البلدان: ٥/ ٣٩٣.
(٣) أخبار مكة: ١/ ١٨٨.

٣ ـ سوق مكة غير موسمية:

لم تكن سوقُ مكة في الجاهلية موسميَّةً، فتُذْكر في عِدَادِ الأسواق الموسميَّة، بل كانت سوقاً تجاريَّةً دائمةً، ومحطةً كبرى من محطات القوافل، ويقال: إن المتاجرة فيها كانت تمنعُ أيامَ الحجِّ، ولذلك كان أهلها يتعاونون على إطعام الحاجِّ وسِقَايتهم ما داموا مُقِيمينَ بمكة في موسم الحجّ. وعلى ذلك لا يمكن أن نَعُدَّها في الأسواق الموسميَّة.

٤ ـ سوق الجَنَد موسمها غير معروف:

كانت الجَنَدُ من مُدُنِ اليمن الكبرى، تقع بين عَدَنٍ وتَعِزَّ(١)، على اثني عشر ميلاً شمالَ تَعِزَّ، وعلى ستة أيام من صنعاء(٢). ولم يُحدِّثنا أحدٌ عن موسم كان يقوم بها، إلا الهمدانيّ، ولكنه لم يذكر لنا شيئاً يُعينُنا على تعيين موعد قيامها من السنة، أو معرفة بعض ما كان بها، وبذلك لا يمكن لنا أن نزيدَ على ما قلناهُ فيها شيئاً.

٥ ـ سوق نَجْران:

المعروف أن نجرانَ مدينةٌ مشهورةٌ، تقعُ شمالَ صنعاء، في منتصف الطريق إلى بيشة(٣)، ومع أن الهمدانيَّ لم يذكر شيئاً يُفيد في معرفة موسمها، إلا أن البحث فيها، على ما أرى، مُوصِلٌ إلى بعض ذلك، ويمكن أن نتحدَّث عنها في كلامنا على مواسم اليمن.



---

(١) تاج العروس: ٧/ ٥٢٤ (جَنَد)، ومهد العرب: ١٠٩ ـ ١١٠.

(٢) صبح الأعشى: ٥/ ١٣.

(٣) بيشة: قريةٌ غنَّاءُ في وادٍ كثير الأهل، من جهة اليمن، فيها بطون من قبائل العرب كثيرةٌ، من خَثْعَم وهلال وسُوَاءَةَ وسَلُول والضِّبَاب وقريش.

المطلب التاسع ـ أبو حَيَّان التوحيديُّ:

عَرَضَ «التوحيديُّ»[1] في كتابه «الإمتاع والمؤانَسَة» لموضوع أسواق العرب المعروفة في عصر الجاهلية، فذكر منها عَشْراً، ضَربها مَثَلاً «على تحضُّرِهم في باديتهم، وتَبدِّيهم في حواضرهم، وتَحلِّيهم بأشرف أحوال الأَمْرَيْن...»[2]، ونَقَصَ ممَّا ذكره ابنُ حبيب سوقين هما: نَطَاةُ خَيْبر، وحَجْر اليمامة، مثلما فعل اليعقوبي. ولم يَبْدُ في حديثه أنه أراد أن يُحقِّق شيئاً في مواعيد تلك المواسم، بقدر ما كان مُهْتَمّاً بإبراز الجوانب الحضاريَّة فيها[3]. غير أن هذا لا يعني خَلاءَ نصِّه من بعض المعلومات، أو غَنَاءَهُ عن بعض الملاحظات...

١ ـ تعيينه موضعَ سوق دومة الجندل وموعدَها:

عيَّن موضعَ دُومة الجندل في منتصف الطريق بين العراق والشام، وكان ابنُ حبيب عيَّنَهُ فيما بين الشام والحجاز، وكلاهما واحد. واتفق مع الآخَرين في قيام موسمها شهرَ ربيع الأول إلى آخره.

٢ ـ الارتحالُ عن دُومَة في ربيع الآخر، وهَجَرٌ هي المُشقَّرُ:

ثم أَتْبَعَ التوحيديُّ كلامَه على سوق دُومَة الجندل وموقعِها وموعد قيامها، بنصٍ جَيِّدٍ قال فيه: «... ثم ينتقلون إلى سوق هَجَر، وهو المُشَقَّر، في شهر ربيع الآخِر، فتقومُ أسواقُهم»[4]... وههنا ملاحظتان:

---

(١) سبقت ترجمته.

(٢) الإمتاع والمؤانسة: ١/ ٨٣.

(٣) المرجع نفسه: ١/ ٨٣ ـ ٨٥.

(٤) المرجع نفسه: ١/ ٨٤.

الأولى: أن الارتحال من دُومة الجندل إلى مدينة هَجَرٍ بالأَحْسَاءِ، هو الذي يكون في ربيع الآخِر، وليس قيامَ الأسواق بهَجَرٍ! فقد كان التوحيديُّ يعلم قطعاً أن الانتقال بين البلدين يحتاجُ إلى شهرٍ في الطريق على الأقلّ، كما كان يعلمُ أن ابن حبيب قال بقيام المشقَّر في جُمادى الآخِرة، وأن اليعقوبيَّ جعله في جُمادَى الأولى، فأمْسَكَ هو عن تعيين موعدٍ مُحدَّدٍ لقيامها، وهو ما فعله في سائر الأسواق، مُكْتفياً بالنصِّ أن أسواق عكاظ وذي المجاز كانت تقوم في الأشهُر الحرُم[1].

الثانية: تأكيده على أن سوق هَجَر هي المُشَقَّر، وأنه لم يكن في مدينة هَجَر سوى موسمٍ واحدٍ هو موسمُ المُشَقَّر. وهذا ما عَناهُ ابنُ حبيب أيضاً لمَّا ذكر سوق المشقَّر، فقال: «والمشقَّرُ بهَجَر...»[2]، مُشيراً إلى أن السوق التي كان موسمُها ينعقد في مدينة هَجَر، كانت تقوم في المشقَّر قاعدةِ هَجَر.

٣ ـ تقديمه سوق دبا على سوق صُحَار:

لاحظنا أن التوحيديَّ قدَّم سوقَ دَبَا على سوق صُحَار في القيام، بقوله: «... ثم يرتحلون نحو عُمَان، فتقومُ سوقُهم بديَارِ دَبَا، ثم بصُحار»[3]! وربما كانت العِلّةُ في هذا المذهب اعتقادَهُ بأن القادم من البحرين، لا بُدَّ له أن يأخذَ إلى دَبَا، لأنها تقع أوّلاً على الطريق إلى عُمَان. ولكن الصوابَ ما ذهب إليه ابنُ حبيب في تقديم صُحَار، لأن التجار يسافرون عند انتهاء مواسمهم بعُمان من مرفأ دَبَا إلى أسواق الشحْر وعَدَن.

---

(١) الإمتاع والمؤانسة: ١/ ٨٥.

(٢) المحبَّر: ٢٦٥.

(٣) الإمتاع والمؤانسة: ١/ ٨٤.

٤ ـ **تَعْيينُه موضعَ سوق الشحر في مدينة إرَم:**

لا شك في أن التوحيديَّ قد أحْسَنَ صُنعاً حيث نصَّ أنهم كانوا يرتحلون من عُمَانَ، فينزلون «إرَمَ» وقرى الشِّحْر، فتقوم أسواقُهم بها أياماً[١]. . .

إن تحديده قيامَ موسمها أيَّاماً فقط، يجعلني أعتقد أن أصْلَ النصِّ هو: إرَمُ من قرى الشحر، فذلك يعني أن موضعَ سوق الشحر كان مدينةَ إرَم، فالشِّحْر بلادٌ واسعةٌ وهي تقع بين ظفار ومِرْباط شرقاً، والأحقاف شمالاً، وحضرموت والمكلاَّ غرباً، وبحر العرب جنوباً، وإرَمُ جزءٌ منها. وكان ابنُ حبيب اجْتَزَأ بأنها كانت «تقومُ تحت ظلِّ الجبل الذي عليه قبرُ النبيّ هود عليه السلام»[٢]، ثم تابعه اليعقوبيُّ على القول نفسه[٣]. على أن قبر النبي هود يقع على مَقْربةٍ من إرَم، كما سنبيِّنُ في كلامنا على أسواق الجنوب.

٥ ـ **الملاحظة الأخيرة:**

لاحظنا أن ابن حبيب جعلَ شُهودَ موسم صنعاءَ لازماً للجميع، قبل أن يأخذَ بعضُهم إلى سوق الرابية بحضرموت، والبعضُ إلى عكاظ[٤]. . . بينما جعل التوحيديُّ الناس تفترقُ بعد انقضاء موسم عَدَن، فيأخذُ بعضُهم طريقَه رأساً إلى حضرموت، «ومنهم مَن يَجُوزُها ويَرِدُ صنعاءَ. . .»[٥]، وبهذا يكون موسمُ صنعاء عنده غيرَ لازمٍ إلا لمن يريدون الارتحالَ إلى عكاظ وما بعدها.

* * *

---

(١) الإمتاع والمؤانسة: ١/ ٨٤.

(٢) المحبَّر: ٢٦٦.

(٣) تاريخ اليعقوبي: ١/ ٢٧٠.

(٤) المحبَّر: ٢٦٧.

(٥) الإمتاع والمؤانسة: ١/ ٨٥.

المطلب العاشر ـ أبو علي المرزوقي:

وبعد ذلك جاء «المرزوقيُّ»[1] فأحْصَى من مواسم العرب في الجاهلية ثماني عشرة سوقاً، فزاد على ما ذكره ابنُ حبيب منها سِتًّاً، إحداها سوقُ «مجنَّة»، وقد سبقه الأزرقيُّ إلى ذكرها، والثانية «مِنَى»، وهي التي أَقْحَمها الهمدانيُّ قبله في عِداد مواسم أسواق الجاهلية، والأربعُ الأُخَرُ تفرَّدَ بذِكْرهنَّ في مواسم الجاهلية، وهي: سوقُ «**الأَسْقَى**»[2] في اليمن، وأسواقُ «**بُصْرَى**[3]، **ودَيْر أَيُّوب**[4]، **وأَذْرِعَات**[5] . . .» في بلاد الشام، فتَميَّز بأنه أولُ من أشار إلى مواسم الشام، بين مَن سَبقه مِن أهل الأخبار، مثلما تَميَّز بأنه أول من ذكر لنا معلوماتٍ قَيِّمةً، أَغْنَتْ موضوع الأسواق الموسميَّة، وأفادَتْنا، على قِلَّتِها، في كثير من جوانبه، مع أنه كان كغيره من سائر أهل الأخبار، لم يُوفِ الموضوعَ حقَّه من البحث والتحقيق والإحاطة، واكتفى غالباً بتعيين مواقيت بعض المواسم، ومَواضِعها، وذِكْرِ أشياءَ يسيرةٍ مما كان يَدورُ فيها، ولم يَشْغَلُ حديثُه عنها سوى عَشْرِ صفحاتٍ من كتابه «الأزمنة

---

(١) **أبو علي المرزوقي**: أحمد بن محمد بن الحسن، الأصفهاني. عالم بالأدب والفَلَك وأخبار العرب، من أهل أصفهان، وكان معلم أبناء بني بُوَيْه فيها. أشهرُ كتُبه: الأزمنة والأمكنة. توفي سنة ٤٢١ هـ.

(٢) **الأَسْقَىٰ أو الأسْقَه**: مدينة يمانية، كانت تقع إلى الجنوب من نجران، جاء ذكرها في إحدى الحملات الرومانية على جزيرة العرب، أواخر القرن الأول قبل الميلاد.

(٣) **بُصْرَى**: من كُبْرَيَات المدن التاريخية في بلاد الشام، وهي قصبةُ حوران، تقع في الجنوب الشرقي منها، وما تزال باديةً فيها آثار سوقها وشوارعها وحوانيتها القديمة.

(٤) **دير أيوب**: مدينة كان لها شأن كبير في عصر الجاهلية وصدر الإسلام، موقعها حيث تقع اليوم قريةُ الشيخ سعد بحوران.

(٥) **أَذْرِعات**: هي اليومَ مدينةُ درعا في الشام، وهي من المدن التاريخية، تقع غربيَّ حوران، بالقرب من البلقاء.

والأمكنة»[1]، لاحظنا فيها مُشَابَهةً، كادت تكون تامَّةً، بين كثير من عِبَاراته وعِبَارات ابن حبيب في حديثه عن المواسم، على ما أصاب بعض نصوص المرزوقي، من سُقوط كلمةٍ وتصحيفِ أُخرى، وسُوءِ نَقْلٍ وطباعةٍ أَزْرَىٰ بمُعْظم الكتاب! ويبدو لنا هذا واضحاً في الفصل الذي عقده ابنُ حبيب للحديث عن «أئمَّة العرب في مواسمهم، وقُضاتِهم بعُكاظ»[2]، وقد جعله المرزوقيُّ جُزْءاً من كلامه على سوق عكاظ، ولكنه أُصِيبَ بحذفٍ أَنْقَصَ عددَ القُضَاة وخَلَط الأسماء، وصَحَّفَ بعضَ الكلمات، وغَيَّر معانيها[3]. . . فكان عند ابن حبيب أَوْثَقَ، وأكثَرَ دِقَّةً وضَبْطاً، وهو أمرٌ يحملُ تَبِعَتَهُ مَنْ حَقَّقُوا الكتابَ، ومَن تَولَّوا ضبطَهُ وتصحيحَ تَجارب الطباعة. وفيما خلا ذلك ثمَّة بعضُ الملاحظات على ما جاء به المرزوقي. . .

١ ـ مُوافَقتُه ابنَ حبيبٍ في كل ما ذكره عن مواقيت قيام الأسواق، ومَواضِعِها إلا في أربعة أمور، سنذكرها تباعاً. . .

الأول: أنه اتفق معه في قيام سوق «دومة الجندل» أولَ يومٍ من شهر ربيع الأول، ولكنه تفرَّد عنه، وعن سائر أهل الأخبار، بالذهاب إلى أنها كانت أوَّلَ أسواق الجاهلية قياماً[4]، وهو ما جعلنا في شكّ من أمر الشهر الذي كانت تُفتَتَحُ به السنةُ في عصر الجاهلية، ولا سيما أن المرزوقي كان صاحب علم بالأزمنة والنجوم، وقد ذهب في كتابه إلى «أن أول السنة عند أهل الشام كان تشرين الأول (أكتوبر)، وأنه يُصادِفُ ابتداءَ فصل الوسْميّ عند

---

(١) الأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦١ ـ ١٧٠.
(٢) المحبَّر: ١٨١ ـ ١٨٣.
(٣) الأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٧، ١٦٨.
(٤) المرجع نفسه: ٢/ ١٦١.

العرب، وهو شهرا ربيع، ولعلَّ العرب كانت قد ابتدأت السنة على مثل ذلك، وجعلت مُفْتَتَحها في أول الوسميّ، أي في شهر ربيع الأول»[1]. وهذا غَلطٌ من المرزوقي، فالوَسميُّ عند العرب هو الخريفُ، ويُسمُّونه الربيعَ الأوَّلَ، لكنه غيرُ شَهريْ ربيعٍ، وهو سابقٌ لهما في الزمن، ومَوْقعُه شهرا صَفَر.

الثاني: صَوَّبَ الموعدَ الذي عيَّنَهُ ابنُ حبيب لقيام سوق «صُحَار» بعُمَان، وهو الأول من شهر رجب[2]، وكنت أشرتُ إلى هذا الغلط في تعليقي على حديث ابن حبيب... فقد أكَّد المرزوقي أن سوق «المشقَّر» كانت تَنْفَضُّ بانقضاء شهر جُمَادَىٰ الآخِرة، وقال: «ثم يرتحلون منها إلى صُحَار، أولَ يوم من رجَب... فيَقْدَمُونها لعشرين يوماً تمضي من رجب...»، فيشترون ويبيعون بها خمسةَ أيام[3]... أي أنهم كانوا يرتحلون من المشقَّر في الأول من رجب، فيصلون إلى صُحَار في العشرين منه، فتقوم سوقُهم هنالك في الواحد والعشرين، خمسةَ أيامٍ، يرتحلون بعدها إلى دَبا. وهذا في اعتقادي هو الصواب، إذ ليس من الممكن أن ينتقل الناسُ من المشقَّر في هَجَر، إلى صُحَار بعُمان، في ليلة واحدة كما يُفهم من نصِّ ابن حبيب، فالانتقالُ بالبحر يَقْتَضِيهم من خمسةَ عَشَرَ إلى عشرين يوماً، أما في البرِّ فيلْزَمُهم السفرُ نحوَ شهرٍ غالباً.

الثالث: وفي النصِّ نفسه الذي ذكرناه عن قيام سوق صُحَار قال المرزوقي: «... فيُوافيهم بها مَنْ لم يشهدْ ما قبلها من الأسواق، ومَن شُغِلَ بحاجةٍ ولم يكن له أَرَبٌ فيما يُباع في الأسواق التي قبلها...»، وفي موضعٍ

---

(١) الأزمنة والأمكنة: ١/١٦٧، ١٧٢.

(٢) المحبَّر: ٢٦٥.

(٣) الأزمنة والأمكنة: ٢/١٦٣.

آخَرَ ذكر أن الناس كانوا يرتحلون من سوق الشِحْر إلى عَدَن، «إلا تُجّارَ البحر، فإنه لا يرتحل منهم إلا مَنْ بقيَ من بَيْعه شيءٌ ولم يَبِعْهُ»، فيُوافي سوق عدن مَن بقي معه من تجار البحر شيءٌ، ومَن لم يكن شَهِدَ الأسواق التي كانت قبلها[1]. . . وهي نصوصٌ تُعَدُّ في الواقع حُجَّةً قويَّةً، فبالرغم من استعمال المرزوقي حرفَ «ثم» في إشارةٍ منه إلى مُتابَعَة الناس ارْتحالَهم، بتَتَابُع قيامِ المواسم، مثلما فعل ابنُ حبيب، غير أنه تفرَّد بهذا التوضيح، وأكَّد أنّ المواسمَ، وإن كانت تقومُ تِبَاعاً، لم يكن من اللازم متابعةُ شُهودِها جميعاً، فقد كان للمرء أن يختار ماله أَرَبٌ في شُهوده فيشهده.

الرابع: لم يُحدِّدْ ميقاتاً معلوماً لقيام سُوقَيْ «نَطَاة» بخيبر، و «حَجْرٍ» باليمامة[2]، وقد جعله ابنُ حبيب في العاشر من المحرَّم. ويبدو لي أن العلة في ذلك سقوطُ جزء من النص في كتاب المرزوقي، لأنه جعلهما مع سوق ذي المجاز عنواناً، ثم تحدَّث عن ذي المجاز وعكاظ وأسواق الشام، ولم يتحدَّث عنهما بشيءٍ[3]. . .

٢ ـ والملاحظةُ الثانيةُ أن المرزوقي لم يَزِدْ في حديثه عن «مجنَّة»، على أنها سوقٌ للعرب في الجاهلية، كانت تقعُ بمَرِّ الظهران، قريبةً من ذي المجاز. ولم يذكر عن سوق «الأَسْقَى» سوى أنها تقعُ خلفَ حضرموت[4]، ولم يقُلْ شيئاً عن «مِنَىً». . .

٣ ـ أما أسواقُ الشام فقد عيَّنَ مَوَاقيتَها، ومَواضِعَها، من غير أن يذكر

---

(١) الأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٤.

(٢) المرجع نفسه: ٢/ ١٦١.

(٣) المرجع نفسه: ٢/ ١٦٥.

(٤) المرجع نفسه: ٢/ ١٧٠.

لنا مواقِعَها من تلك المواضع، أو معادلةً بين أزمنة الشام وأزْمنة العرب، واجْتَزَأَ بالنصِّ أنَّ أهل الشام كانوا يُقيمون أسواقَهم، بانقضاء خمسةٍ وعشرين يوماً على أُفُولِ الثريَّا مع غروب الشمس، فتقومُ سوق «دير أيوب»، وهي أولُ أسواقهم، فإذا انْقَضَّتِ اعْتَدُّوا سبعين يوماً، ثم تقومُ سوق «بُصْرى»، ونَقَل أن قيامها أيامَ الأُمَويِّين كان ثلاثين إلى أربعين يوماً، وأيامَ العَبّاسِيِّين خمسةً وعشرين. . . فإذا انقضت اعتدُّوا سبعين ليلةً، ثم تقومُ سوقُ «أَذْرِعات»[1]. . .

وسأفصِّل معنى هذا النصِّ في حديثي عن أسواق الشام، وسيَرِدُ طرفٌ منه في تعليقي على ما ذكره في هذا الأمر بعضُ المُحْدَثين.

٤ ـ والملاحظة الأخيرة على المرزوقي أنه عيَّن موقع عكاظ في أعْلَىٰ نَجْد، وأضاف أنه قريبٌ من عرفات[2]، مثلما فعل ابنُ حبيب، ممّا يؤكِّد أنهما نَقَلا عن مَوْردٍ واحد، كان به هذا الغَلَطُ، فأثْبَتَاهُ كما وجداهُ.



المطلب الحادي عشر ـ ياقوت الحموي:

ليس من اليَسِير أن نَتتبَّعَ حديثَ الأسواق عند ياقوت[3]، لكنَّ البحث عن مواقع بعض المواضع التي كانت تقومُ فيها المواسمُ، أَوْقَعَنا في كتابه «معجم البلدان» على بعض المعلومات المفيدة. . .

(١) الأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٩ ـ ١٧٠.

(٢) المرجع نفسه: ٢/ ١٦٥.

(٣) سبقت ترجمته.

١ ـ ذكر في مقدمة كتابه أنه سُئل، في أحد المجالس، عن كلمة «حباشة»، إن كانت بضَمّ الحاء أم بفتحها، فأجاب: أنها بالضمّ، ومعناها الجماعةُ من الناس مِن قبائلَ شتَّى، وهي اسمُ «سوقٍ من أسواق العرب في الجاهلية»... فانبَرىٰ له رجلٌ وقال: إنما هي حَباشَةٌ بالفتح، وصَمَّم على ذلك، وكابَرَ من غير حُجَّة، فأُلْقِيَ في رُوعِ ياقوتَ حينئذٍ افتقارُ الناس إلى كتاب في هذا الشأن يكون مُتْقَناً مَضْبوطاً، فعزم على جمعه وتأليفه، وكانت سوق حُبَاشة أول البواعث، كما ذكر في مقدمته، لتصنيف معجم البلدان[١]... ومع ذلك لم نظفر منه بشيءٍ عن موقع هذه السوق، وموضع قيامها، إلا أنها كانت بتهامة[٢]، وتهامة أوسعُ من أن تُحَدَّ! ولا شك في أن الأزرقيَّ ذكر عن سوق حُباشَة ما هو أكثر إحاطةً وفائدة.

٢ ـ نقل عن «الأصمعي»[٣] أن «دَبا» سوقٌ من أسواق العرب بعُمان، وهي غيرُ «دَمَا»، ودَمَا أيضاً من أسواق العرب[٤]... ثم ذكر ياقوتُ أن «دَمَا» كانت بلدةً من نواحي عُمَان، يَرِدُ ذِكْرها مع مدينة دبا، وهي من أسواق العرب المشهورة[٥]، تقعُ في أول بلاد عُمَان من جهة الشمال[٦]، ولعلَّها كانت بالقُرْب من «بَيْنُونَة» على الحدود بين عُمَانَ والأَحْسَاء[٧]... وقد جاء

---

(١) معجم البلدان: ١/ ١٠.
(٢) المرجع نفسه: ٢/ ٢١٠ ـ ٢١١.
(٣) **الأصمعي**: أبو سعيد، عبدُ الملك بن قُرَيْب الباهلي، راويةُ العرب، ونابغةُ الدنيا في الحفظ. طاف بلاد العرب، وتلقَّى أخبارها وعلومها، فوعاها ورواها، وأتْحَفَ بها الناسَ والملوك. مولده ووفاته بالبصرة (١٢٢ ـ ٢١٦ هـ).
(٤) المرجع نفسه: ٢/ ٤٣٥.
(٥) المرجع نفسه: ٢/ ٤٦١.
(٦) المرجع نفسه: ٥/ ٤٤٨.
(٧) المرجع نفسه: ١/ ٥٣٦، و ٥/ ٤٤٧.

في الكامل أن «دَمَا» من أعمال عُمَان، كانت على مسافة أربعة أيام من صُحَار[1]، أي ما يُقَدَّر بنحو مئة ميل تقريباً... ولا أرى أننا نملك من المعلومات زيادةً تسمح لنا بالعودة إلى البحث في سوق دَما، وعندي اعتقادٌ بأن تصحيفاً وقع على كلمة «دبا» في الكامل فجعلها «دما»، لأن الأولى هي التي تقع على أربعة أيام تقريباً من صُحَار.

٣ ـ وذكر ياقوت أيضاً أن «**الخَنَافِسَ**» أرضٌ للعرب، تقعُ في طرف العراق، قربَ الأنبار، من ناحية البَرَدان. وكانت تُقام بها سوقٌ للعرب[2]... وهو ما سبق للطبريّ روايتُه.

٤ ـ وأشار كذلك إلى موضعٍ بالجزيرة، شمال العراق، يُسمَّى «**الكَبَاث**»، وهو لبني تغلب، «كان يُقام به سوق في الجاهلية»[3]، وهو ما سبق للطبري أيضاً الحديثُ عنه.

٥ ـ وذكر عن «**عَدَنٍ**» أنها مرفأُ المراكب القادمة من الهند، وأن التجار كانوا يجتمعون فيها لأجل ذلك، ونقل عن الهمداني أنها «أقدمُ أسواق العرب»[4].

٦ ـ ونقل عن الأصمعي أن «**عكاظ**» إسمُ سوقٍ من أسواق العرب في الجاهلية، وهو موضعُ نخْلٍ، يقعُ في وادٍ، بينه وبين الطائف ليلة، أي أربعة وعشرون ميلاً. وبينه وبين مكة ثلاثُ ليالٍ، أي نحو اثنين وسبعين ميلاً، وبه كانت تقام سوقُ العرب، بمكانٍ منه يُقال له: الأُثَيْدَاءُ... وأن «**مجنَّة**» إسمُ

(١) الكامل في التاريخ: ٨/ ٦٤٧.
(٢) معجم البلدان: ٢/ ٣٩١.
(٣) المرجع نفسه: ٤/ ٤٣٣.
(٤) المرجع نفسه: ٤/ ٨٩.

سوق للعرب في الجاهلية أيضاً، كانت بمَرِّ الظهران، قربَ جبل الأصفر، بأسفل مكة، على قدر بريد منها، أي اثنيْ عشرَ ميلاً، وكانت تقومُ عشرة أيام من آخر ذي القعدة، والعشرون منه قبلها سوقُ عكاظ، وبعد مجنة سوقُ ذي المجاز، ثمانية أيام من ذي الحجة، ثم يُعَرِّفون في التاسع إلى عرفة[1]. . . وذو المجاز موضعٌ به ماءٌ، ينبعُ من أصل جبل كبكب، خلفَ عرفة، على قَدْر فرسخٍ منها، أي ثلاثة أميال، والسوق تقومُ على ناحيةٍ من كبكب[2]. . .

ونقل عن الواقديِّ[3] قوله: «عكاظٌ بين وادي نخلة والطائف، وذو المجازِ خلفَ عرفة، ومجنَّةٌ بمرِّ الظهران، وهذه أسواقُ قريش والعرب، ولم يكن فيها أعظم من عكاظ. . . وقالوا: وكانت العرب تُقيم بسوق عكاظ شهر شَوَّال، ثم تنتقلُ إلى سوق مجنة، فتُقيم فيه عشرين يوماً من ذي القعدة، ثم تنتقل إلى سوق ذي المجاز، فتُقِيم فيه إلى أيام الحج. . .»[4]. والمعلوم أن شهر شَوَّال كان «من شُهور الحجِّ عند العرب. . .»[5]، يقضيه في السفر إلى مكة، مَن أراد شُهُودَ مواسمها، ولا سيما موسم الحجِّ الأكبر إلى بيت الله في الكعبة، ولعلَّ الواقديَّ حَسِبَ تَوافُدَ الناس إلى عكاظ في شوَّال قياماً لموسمها حينئذٍ، وإنما هو استعدادٌ لانعقاد السوق، ذلك أن سوقاً كبرى كسوق عكاظ، «كانت أعظم أسواق العرب»[6]، بما كانت تحفلُ به من

---

(١) معجم البلدان: ٥/ ٥٨ ـ ٥٩.

(٢) المرجع نفسه: ٥/ ٥٥.

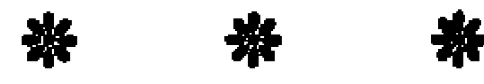
(٣) الواقديُّ: (١٣٠ ـ ٢٠٧ هـ = ٧٤٧ ـ ٨٢٣ م). أبو عبد الله، محمد بن عمر بن واقد. من أقدمِ المؤرخين وأشهرِهم، ولد بالمدينة ونشأ بها، ثم انتقل إلى بغداد في أيام الرشيد، فوليَ القضاءَ فيها، حتى تُوفي. له مصنَّفاتٌ كثيرة.

(٤) معجم البلدان: ٤/ ١٤٢.

(٥) تفسير ابن كثير: ١/ ٤١٨.

(٦) المحبَّر: ٢٦٧.

مختلف قبائل العرب ووُفُود العجم، وبما كانت تعالجه من مختلف الشؤون والشجون والحاجات، لا يمكن أن تقومَ في ساعة، أو أن تُعْرضَ فيها العُروضُ والسِّلَعُ والأمتعةُ في يوم!... إلى أن إجماع المؤرخين وأهلِ الأخبار كان على قيام موسمها في شهر ذي القعدة.



المطلب الثاني عشر ـ القزويني:

وقد عثرنا على بضع إشارات متفرقات عند «القزويني»[(١)] في كتابه: «عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات»، جاء فيها ذِكْرُ ثمانية أسواقٍ موسمية كانت تقومُ بالشام، وذلك في أثناء كلامه على الشهور السريانية، فزاد على ما أَثْبَتَهُ المرزوقيُّ منها خمسةً، ولكنه سَرَدَها على النحو التالي:

«**أذْرِعات**» وتقوم في الثالث عشر من تشرين الأول (أكتوبر)، «**تُوما**»[(٢)] بدمشق، وتقوم في اليوم الأول من كانون الأول (ديسمبر)، و«**الأُرْدُنّ**»، وتقومُ في الحادي عشر من كانون الأول، و«**فلسطين**» وتقوم في الحادي والعشرين من نيسان (أبريل)، و«**دير أيوب**» بالشام، وتقوم في الثالث والعشرين من نيسان، و«**بُصْرَى**»، وتقوم في العاشر من تموز (يوليه)،

---

(١) **زكريا بن محمد الأنصاري**: (٦٠٥ ـ ٦٨٢ هـ = ١٢٠٨ ـ ١٢٨٣ م). اشتُهِر بالقزويني لمولده بقزوين، ثم رحل إلى الشام والعراق. كان مؤرِّخاً وجغرافيّاً، وصنَّف كتُباً منها: آثار البلاد وأخبار العباد، وكتاب عجائب المخلوقات.

(٢) **تُومَاء**: قريةٌ كانت بغوطة دمشق، وهي اليوم ضاحيةٌ كبيرة منها، وإليها يُنسَبُ باب تُوماء، وهو من أبواب دمشق التاريخية القديمة.

و «عَمَّان»، وتقوم في العاشر من آب (أغسطس)، و «مَنْبج»[1]، وتقومُ في اليوم الأول من أيلول (سبتمبر)... ثم أكَّد على مَوْسميَّة تلك الأسواق بقوله: «... فهذه أمورٌ تتكرَّرُ في كل سنة، على رأي أصحاب التجارب، في الأوقات المذكورة»[2]، ولكنه لم يذكرلنا شيئاً عمَّن كان يشهدُ تلك الأسواق، وإن كنا نميلُ إلى أن تجار العرب، في الجاهلية، كانوا يشهدون منها أسواق بصرى ودير أيوب وأذرعات خاصةً، بدليل اهتمام المرزوقي بذكرها دون غيرها من أسواق الشام. ولم يذكرالقزويني كذلك شيئاً عمَّا كان يجري فيها، ولا أشار إلى مدة قيام كلٍّ منها! كما أنه لم يُعيِّن موقعَ سُوقَيْ الأردن وفلسطين، على كثرة ما فيهما من الكُوَر والقُرَىٰ والنواحي... وأخيراً، لا بُدَّ أن نلاحظ أنه عيَّن مواعيدَ الأسواق، على مذهب أهل الشام في السنة الشمسية، بالشهور السريانية، خلافاً للمرزوقي الذي أثْبَتَها على مذهب العرب في اعتماد طلوع النجوم وسُقُوطها لمعرفة الأزمنة، وبينما ذكر المرزوقي أن سوق دير أيوب، التي يقوم موسمُها في نيْسان (أبريل)، كانت أول أسواق الشام قياماً، ذكر القزويني أن أوَّلها إنما هي سوقُ أذْرِعات، التي ينعقدُ موسمها في تشرين الأول، ذلك أن السنة كانت وقتئذٍ تُفْتَتح عند أهل الشام، كما عند كثير الأمم، في شهر تشرين الأول[3]، أي في مطلع الخريف، وتُفْتَتَح أيضاً عند بعض الأمم في شهر نيسان، موعد انعقاد سوق دير أيوب، لأنه كان شهرَ الربيع، وكان القدماءُ يُقدِّسُونَه، ويعُدُّونَه رأسَ السنة الدينية[4]، ولذلك نصَّ المرزوقيُّ أنها كانت أول الأسواق قياماً.

---

(١) منبج: مدينة كانت تقع إلى الشمال والشرق من حلب، على طريق رئيسةٍ تمتد من أنطاكية إلى حلب، وتمرُّ بها. وكانت مركزاً قديماً لعبادة الإلّه «حَدَد».

(٢) عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات: ١١٥ ـ ١٢٠.

(٣) الأزمنة والأمكنة: ١/١٦٧، ١٧٢.

(٤) أسماء الشهور في العربية: ٢٩، ٣٨ ـ ٣٩.

المطلب الثالث عشر ـ القَلْقَشَنْديُّ:

ثم جاء «أبو العباس القلقشندي»[1]، فذكر في كلٍّ من كتابَيْهِ: صُبْح الأعْشَى، ونهايةِ الأَرَب، ثمانية أسواق من مواسم العرب في الجاهلية، ولم يأتِ بجديدٍ في هذا الموضوع، ولعلَّه نقلَ معظمَ عباراته عن أبي حَيَّان التوحيدي، ولكنه أغفلَ ذِكرَ سوق «ذي المجاز» بينها، وأطلق على سوق المشقَّر بهَجَر إسمَ سوقِ هجر بالبحرين، مثلما فعل من قبله الهمدانيُّ، وجعل سُوقَيْ «صُحَار ودَبَا» سوقاً واحدةً سمَّاها سوقَ «عُمَان»[2]، وجعل عُمَانَ مرفأً بلاد البحرين، تنتهي إليه مراكبُ الهند والسند والزَّنْج[3]... وهو ما أوْقَعَ الباحِثينَ المُحدَثين في وَهْمٍ، ظَنُّوا معه أنهم وقعوا على جديدٍ في مواسم العرب، فأضافوا إليها سوقاً أُخرىٰ، هي سوقُ عُمَان!. ومع أن الرجل وضَعها مَوْضِعَ سُوقيْ صُحار ودَبا، ومن غير أن يُعيِّن لها موسماً، فإنهم عَيَّنُوا لها موسماً يقومُ في شهر جُمادى الأولى حتى آخِره[4]... ولم أجد في مختلف المراجع التي اطلعتُ عليها سنداً يُثْبِتُ صحةَ ذهابهم هذا المذهب، فضلاً عن أن حديث الأسواق عند القَلْقَشنديّ جاء واحداً، مُتطابقاً في النصِّ والمضمون، في كلٍّ من كتابَيْهِ: صبح الأعشى ونهاية الأَرَب، إلا ما كان من تصحيف ربما أصاب أحدهما أكثر من الآخَر.

* * *

---

(١) سبقت ترجمته.

(٢) صبح الأعشى: ١/ ٤٦٨، ونهاية الأرب: ٤٦٤.

(٣) نهاية الأرب: ٩١، وصبح الأعشى: ٣/ ٢٥٥.

(٤) بلوغ الأرب: ١/ ٢٦٥، وأسواق العرب: ٢٥٦، ٢٦٢، ٢٦٥، وتاريخ التمدن الإسلامي: ٢/ ٣٦ ـ ٣٧، وتاريخ آداب العرب: ١/ ٩٥، والمفصَّل: ٧/ ٣٧٤، ٣٧٦...

المطلب الرابع عشر ـ البغدادي:

وأخيراً تعرَّضَ «عبد القادر البغدادي»[1]، في كتابه الشهير «خزانة الأدب»، إلى حديث أسواق العرب في الجاهلية، فعدَّ منها عَشْراً، عيَّن مَواضِعَها ومواعيدَها، فجاءت مُتَّفقةً مع ما ذكره ابنُ حبب، إلا في أمرين:

الأول: إغفالُ البغدادي ذِكْرَ سوقَيْ دَبَا بعُمان، وعَدَنٍ باليمن.

الثاني: جَعْلُه قيامَ موسم صُحَار في العاشر من رجب[2]، وليس في الأول منه كما فعل ابنُ حبيب، ولا في الواحد والعشرين منه كما فعل المرزوقي، وقد تبيَّن لنا بالتحقيق أن الصواب ما ذكره المرزوقي. وقد ذكر «بروكلمان» أن البغدادي استفاد في تأليف كتابه من مَصادِرَ قديمةٍ لم تصل إلينا[3].



(١) عبد القادر بن عمر البغدادي: (١٦٢٠ ـ ١٦٨٢ م)، عالم بالأدب والتاريخ والأخبار، وُلد وتأدَّبَ في بغداد، وأُولع بالأسفار، فرحل إلى دمشق ومصر وأدرنه، وجمع مكتبةً نفيسةً، وتوفي بالقاهرة. أَشْهَرُ كتبه: خزانةُ الأدب في أربعة مُجلَّدات، طُبع بمصر (١٢٩٩ هـ).

(٢) خزانة الأدب: ٤/ ٣٦٠.

(٣) تاريخ الأدب العربي: ١/ ٨٦.

* **الخُـلاصَــة:**

إذا أردنا أن نَخْتصِرَ ما بَسَطناهُ من أقوال المُصَنِّفين القدماء، في مواسم الأسواق الكبرى، التي كانت معروفةً في بلاد العرب والشام والعراق قديماً، قلنا فيها ما يلي:

١ ـ ذكر ابنُ إسحاق أربعة مواسم فقط، هي: عكاظ، ومجنَّة، وذو المجاز، وبَدْرٌ.

٢ ـ وذكر ابنُ سعد موسماً واحداً هو: سوق النَّبَطِ بيَثْرِبَ.

٣ ـ وذكر ابن حبيب اثنَيْ عَشَر موسماً، جديدُه فيها: دومةُ الجندَل، والمشقَّر بهَجَر، وصُحَار، ودَبَا، والشِّحْرُ، والرابيةُ، وعَدَنٌ، وصنعاءُ، وحَجْرُ اليمامة، ونطاة.

٤ ـ وذكر الأزرقيُّ أربعة مواسم، الجديدُ فيها: سوقُ حُبَاشة.

٥ ـ وذكر اليعقوبيُّ عشرة مواسمَ، لا جَديدَ فيها، وإنما ذكرها من جاء قبله.

٦ ـ وذكر الأصفهانيُّ موسماً جديداً هو موسمُ سوقِ الحيرة.

٧ ـ وذكر الطبريُّ موسمين جديدين هما: الخَنَافِسُ والكَبَاث بالعراق.

٨ ـ وذكر الهمدانيُّ أحَدَ عَشَر موسماً، الجديدُ فيها خمسةٌ هي: هجر البحرين، وقد حقَّقْنا أنه المشقَّرُ نفسُه، فليس بجديد، ومِنىً، وهي موسمٌ داخِلٌ في مَنَاسِكِ الحجِّ ومَجامِعِهِ، ومكَّةُ، ولم تكن سوقُها موسميَّةً، والجَنَدُ، ولا نملك عنه من المعلومات شيئاً مُفيداً، وأخيراً نَجْرانُ اليمن.

٩ ـ وذكر التوحيديُّ عشرةَ مواسمَ لا جديد فيها، سوى أنه سَمَّىٰ سوقَ الشِّحْرِ في بلاد مَهَرَة سوقَ إرَمٍ.

١٠ ـ وذكر المرزوقيُّ ثمانية عَشَر موسماً، جَديدُه فيها أربعةٌ هي: الأسْقَىٰ باليمن، وليس لدينا معلومات عنها، وأسواقُ دير أيُّوب، وبُصْرى، وأذْرِعَات بالشام.

١١ ـ وذكر ياقوت معظمَ المواسم المذكورة آنفاً، لكنَّ الجديد عنده سوقُ دَمَا بعُمان، ولم يذكرعنها شيئاً أكثر من ذلك، يُفيدنا في تحديد موضعها أو تعيين موسمها.

١٢ ـ وذكر القزوينيُّ ثمانية مواسمَ، كانت تقوم بالشام، الجديدُ فيها خمسةٌ هي: عمَّان، وفلسطينُ، والأردنُّ، وتوماءُ، ومنبج.

١٣ ـ وذكر القلقشنديُّ ثمانية مواسمَ، جديدهُ فيها موسمٌ سمَّاهُ سوقَ عُمَان، حقَّقْنا أنه أراد به قطعاً سُوقَيْ صُحَار ودَبَا بعُمانَ، فلا يجوز أن يُضَافَ إلى المواسم.

١٤ ـ وأما البغدادي فلم يأتِ بجديدٍ، بل نَقَص من المواسم سوقَيْ دَبَا بعُمَان، وعَدَنٍ باليمن. . .

فيكون بذلك مجموعُ ما أحْصَيْناهُ عند هؤلاء المُصَنِّفِينَ المتقدِّمين، ستَّةً وثلاثين موسماً عامّاً، فإذا نَقَصْنا منها تسعةً، لم يَثْبُتْ بالتحقيق وُجُودُها، أو إمكانُ البحث فيها، وهي النَّبَطُ وهَجَرُ البحرين ومِنَى ومكة والجَنَد والشِحْر والأسْقَىٰ ودَما وعُمَان، بقيت لدينا سبعةٌ وعشرون موسماً، معروفةٌ مواعيدُ ومواضعُ مُعْظمِها، ويمكن معرفةُ باقيها، وهي مُوزَّعةٌ على النحو التالي:

١ ـ جزيرة العرب:

وفيها سَتَّةَ عَشَرَ موسماً هي: «عكاظ، مجنَّة، ذو المجاز، بدر، حُبَاشَة، حَجْر اليمامة، نَطاة، دُومَةُ الجنْدَل، المُشقَّر، صُحَار، دَبَا، إرَمُ

الشِحْر، عَدَن، صنعاء، نَجْرانُ، الرابية».

٢ ـ بلاد الشام:

وفيها ثمانيةُ مواسمَ هي: «بُصرى، أذْرِعات، دَيْرُ أَيُّوب، عمَّان، الأُرْدُنُّ، فلسطينُ، تُوماءُ، مَنْبِج».

٣ ـ بلاد العراق:

وفيها ثلاثةُ مواسمَ هي: «الحيرة، الخنافس، الكَبَاثُ»، يُضَافُ إليها «سوقُ المِرْبَد»، وإن لم تكن موسميّة، لما كان لها من الآثار العميقة في علوم العربية، وآدابها، فتكون جُملةُ ما حقَّقنا من أسواق العراق أربعةً.

فهذه جميعاً كانت مواسمَ عامّةً كِبَاراً، تقومُ فيها أسواقٌ للتجارة، ويكونُ فيها غالباً مجامِعُ للشعر والخطابةِ والمُفَاخَرةِ والمُمَاجَدةِ واللهْوِ واللعِبِ، وقد يكونُ فيها نسكٌ وعبادةٌ، إلى ما هنالك من شؤون العرب ومجتمعاتهم، إلا ما كان من المواسم في بلاد الشام بعيداً عن وُصُول العربِ إليه. . . ولنَنْتقلْ إلى الفصل التالي لعلَّنا نلتمسُ جديداً، حقَّقهُ بعضُ المتأخِّرين في موضوع المواسم.

جدول المواسم العامَّة
حسب ما انتهى إليه تحقيقُنا في موارد القدماء

	مواسم جزيرة العرب	
	المَوْضِعُ	موعد قيامه وانقضائه
١	عكاظ في نجد	الأول من ذي القعدة، عشرون يوماً
٢	مجنة في مكة	بقية ذي القعدة
٣	ذو المجاز بجانب عرفة	الأول من ذي الحجة ثمانية أيام
٤	حَجْر اليمامة	العاشر من المحرَّم إلى آخره
٥	نطاة خَيْبر	العاشر من المحرَّم إلى آخره
٦	دومة الجندل بنجد	شهر ربيع الأول إلى آخره
٧	المشقَّر بهجر	شهر جمادى الآخرة بتمامه
٨	حُبَاشة بتهامة	ثلاثة أيام من أول رجب
٩	صُحَار بعُمان	العشرون من رجب خمسة أيام
١٠	دبًا بعُمان	اليوم الأخِر من رجب
١١	إرَم أو شِحْر مَهرة	أيامٌ من منتصف شعبان
١٢	الرابية بحضرموت	النصف من ذي القعدة إلى آخره
١٣	عدن باليمن	الأول من رمضان عشرة أيام
١٤	صنعاء باليمن	من منتصف رمضان إلى آخره
١٥	نجران باليمن	؟. . .
١٦	بَدْر بالحجاز	؟. . .

	مواسم بلاد الشام	
	المَوْضِعُ	موعد قيامه وانقضائه
١٧	أذرعات	تشرين الأول
١٨	توماء بدمشق	كانون الأول
١٩	الأُردنّ	كانون الأول
٢٠	فلسطين	نيسان
٢١	دير أيوب	نيسان
٢٢	بصرى	تموز
٢٣	عمَّان	آب
٢٤	منبج	أيلول

	مواسم العراق	
٢٥	الحيرة	؟. . .
٢٦	خنافس	؟. . .
٢٧	الكباث	؟. . .
٢٨	المِرْبَد	على مدار السنة

الفصل الثاني

مواسم الأسواق في كتب المحدثين
عرض ومناقشة ونقد

● مقدمــة:

إذا اسْتَثنينا «سعيدَ الأفغانيّ»، الذي نَشر سنة (١٩٣٧ م) كتابه «أسواق العرب في الجاهلية والإسلام» فكان أوّلَ من صَنَّفَ كتاباً مُسْتَقِلاً في الأسواق الموسمية، قَدَّم فيه، على قَدْرِ ما في وُسْعِهِ، من أحاديثها وأخبارها، فإن سائر مَن كتَبوا في هذا الموضوعِ اجْتَزؤُوا بنقل ما وجدوه في موارد الأَوَّلين، فأَثْبَتُوه في بضع صفحاتٍ من بعض مُصَنَّفاتهم، مختَصَراً غالباً، أو مجموعاً بعضُه إلى بعض أحياناً، من غير أن يبحثوا فيه، أو يَسْتقرِئُوا شيئاً من وقائعه!

وعلى ذلك لن أتحدَّث عن أولئك جميعاً، فليس فيما فعلوا ما يستحقُّ التعليق عليه، وإنما سأكتفي بعَرْضِ ما كتبه بعضُهم في هذا الشأن، ووَضْعِهِ في ميزان النقد، للتحقُّقِ منه، ومُناقَشتِهِ، والكشفِ عمَّا قَدَّمَهُ من جديدٍ إلى موضوع المواسم في عصر الجاهلية.

* * *

المطلب الأول ـ بُلوغُ الأَرب في مَعْرفة أَحْوَال العرب:

لعلَّ أوَّلَ المُحَدَثين الذين تعرَّضُوا لمواسم الجاهلية هو «محمود

شكري الآلوسي»[1]، فكتب فيها فصلاً من نَحو سبع صفحات، في كتابه «بلوغ الأرب»، نقل فيه ما تَيسَّر له من حديث الأسواق، عن الموارد التي كانت مُتَوافرةً في أيامه، للقُدامى كالأزرقي والقلقشندي والبغدادي[2]، فأحْصَى خمسَ عشرةَ سوقاً، بدا من سِيَاق حديثه عنها أنه يَعُدُّها بعضَ مواسم العرب في الجاهلية، لا كلَّ المواسم. . . وقد عيَّن مواضِعَها، وبيَّن مواقعَ بعضِها، ومواعيدَ مُعْظَمِها، وشرح طرائق بُيُوعها، وذكر شيئاً من وقائع عكاظ، وأشار إلى أن العرب كانوا يحضرونها بما عندهم من المآثِر والمفاخر، وينتقلون من بعضها إلى بعض[3]. . .

ولو رجعنا إلى مواسم الأسواق في جزيرة العرب، كما انتهى إليه تحقيقنا، في خُلاصَةِ الفصل الأول، لوجدنا أن الآلوسيَّ نَقَصَ منها ثلاثةً هي: دَبا ونَجْرانُ وبَدْرٌ، وأقحم عليها اثنين سمَّاهُما: سوقَ هجر، وجعل قيامَها في شهر ربيع الآخِر، وهَجَرٌ عنده إسمٌ لجميع بلاد اليمن، وسوقَ عُمَان، زعم أنها تقوم بأرض البحرين إلى أواخر جُمادى الأولى[4]. . . وإلى

(١) محمود شكري بن عبد الله الآلوسي: عالم بالأدب والتاريخ والدين، مولده ووفاته في بغداد (١٨٥٧ ـ ١٩٢٤). أشهرُ كتُبه: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، نال به جائزة لجنة اللغات الشرقية في استكهولم. طُبع في بغداد، ونُشِر أولَ مرةٍ سنة (١٨٩٨) في بغداد.

(٢) نُشِر كتابُ «المحبَّر» لابن حبيب أولَ مرةٍ سنة (١٩٤٢ م)، وكتابُ «أخبار مكة» للأزرقي سنة (١٨٥٨)، ثم حقَّقَهُ ونشره رشدي مَلْحَس سنة (١٩٣٣)، و «تاريخُ اليعقوبي» سنة (١٨٨٣) في ليدن، ثم في النجف سنة (١٩٣٩)، وكتابُ «الإمتاع والمؤانسة» للتوحيدي بين (١٩٣٩ ـ ١٩٤٤)، وكتابُ «الأزمنة والأمكنة» للمرزوقي سنة (١٩١٨)، وكتابُ «صبح الأعشى» للقلقشندي بين (١٩١٠ ـ ١٩٢٠)، وكتابُه «نهاية الأرب» سنة (١٩١٣) في بغداد و (١٩٥٩) بمصر، وكتابُ «خزانة الأدب» للبغدادي سنة (١٨٨١).

(٣) بلوغ الأرب: ١/ ٢٦٤ ـ ٢٧٠.

(٤) المرجع نفسه: ١/ ٢٦٥.

ذلك لم يُعيِّن مدَّةَ قيام سُوقِ حُبَاشَة في رجب[1]، وعيَّن موقعَ سوق مجنَّة قربَ مكةَ من غير تحديد، وقيامَها قُبيل موسم الحجّ، من غير أن يذكر يوماً ولا مُدَّةً معروفة لقيامها[2]. . . كما أنه جعل قيام موسم صُحَار بعُمان في العاشر من رجب، خمسة أيام[3]، مُتَّبِعاً مذهبَ البغدادي، مع أن الصوابَ ما عيَّنَهُ المرزوقي لقيامها بانقضاء عشرين ليلةً من رجب. وذكر كذلك أن في قيام سوق عكاظ أقوالاً مختلفةً، منها أنها كانت تقومُ أوَّل شهر ذي القعدة إلى العشرين منه، ومنها أن العرب كانوا، حين يَقْدَمُونها في مَوْسِمِها، يقيمون بها جميع شهر شوَّال، أو من نِصْف ذي القعدة إلى آخره. . . وردَّ التبايُنَ في ذلك «لاختلاف العادة في السنين، أو لاختلاف القبائل في الإقامة في هذا الموسم»[4]. . . وقد أخَذَ بالقول الذي يجعلُ موقعَ عكاظ وراء «قرن المنازل» بنحو أربعة وعشرين ميلاً في الطريق إلى صنعاء، بين وادي نخلة والطائف في مكانٍ يُقال له «الأُثَيْداء»، وهو إلى الطائف أقربُ، بينهما عشرة أميال[5].

وهكذا يكون الآلوسيُّ أَغْفَلَ موسماً من مواسم الجاهلية هو سوقُ «دَبَا» بعُمان، على ما كان من خطره، وبالرغم من إطْباق الموارد القديمة على عَدِّه في مواسم العرب الكبرى، فضلاً عن إغفاله مَوْسميْ بدر ونجران. . . كما أَقْحَم في مواسم الجاهلية مَوْسِمين سمَّاهُما: سوقَ هجَرٍ وسوقَ عُمَان، من غير نصٍّ أو دليل على وُجُودِهما حقّاً، ويبدو أنه أخذهما عن القلقشنديّ أخْذاً

(١) بلوغ الأرب: ١/ ٢٦٧.
(٢) المرجع نفسه: ١/ ٢٦٦.
(٣) المرجع نفسه: ١/ ٢٦٦.
(٤) المرجع نفسه: ١/ ٢٧٠.
(٥) المرجع نفسه: ١/ ٢٦٧.

هَيِّناً من غير تَدبُّر! وكنتُ ذكرتُ في ملاحظاتي على القلقشنديّ أنه أخذ حديث الأسواق عن التوحيديّ، فلئن أَطلق على سوق المشقَّر إسمَ سوق هجر، لقد كان يعلم قطعاً أنهما سوقٌ واحدة كانت في البحرين، بدليل أنه أمْسَكَ، كالتوحيديّ، عن تعيين موعدٍ لقيام موسمها، وذكر أن الانتقال إليها من دُومَة الجندل إنما يكون في ربيع الآخِر، وهو شهرٌ يَسْلَخُهُ المرتحلون في الطريق إلى هجر، وهذا ما يُفهم من نصّه: «. . . ثم ينتقلون إلى سوق هجر من البحرين، في شهر ربيعِ الآخِر، فتقوم أسواقُهم بها»[1]، ولكن سَيَاق الكلام أنشأ لَبْساً، توهَّم معه الآلوسيُّ أنه وقع على موسمٍ آخَرَ في البحرين، غير موسم المشقَّر الذي يقوم في جُمادَى الآخرة، هو موسمُ هَجَر، وقد ظن أن قيامَهُ هو ما يكونُ في ربيعِ الآخِر، وليس الارْتحالَ إليه، فأَثْبَتَه على هذا النحو. . . والقـولُ نفسُه يُقـال فيما زعمه سوقـاً لعُمـانَ، فالتوحيدي ذكر أنهم كانوا «يرتحلون نحو عُمَان، فتقوم سوقُهم بديار دَبَا ثم بصُحَار»[2]، فاكتفى القلقشندي بالقول: «. . . ثم يرتحلون نحو عُمان بالبحرين فتقوم سوقُهم بها»[3]. فكان أولَ من أَغْفَل ذِكْر سُوقَيْ صُحَار ودَبَا، وسمَّاهُما معاً سوقَ عُمَان، فاعتقـد الآلوسيُّ أنها سـوقٌ أُخْرى، ولم يجـدْ لها موعداً، فعيَّن موسمها في شهر جُمادىٰ الأولى، ومَوْقعَها في أرض البحرين[4]، ذلك أن عُمَانَ عند القلقشندي مَرْفأُ بلاد البحرين[5]، بينما يذكر الآلوسيُّ في موضعِ آخَر من كتابه، أن أَحَدهما يبعدُ عن الآخَر مسيرة شهرٍ تقريباً في

---

(١) صبح الأعشى: ١/٤٦٨، ونهاية الأرب: ٤٦٤.
(٢) الإمتاع والمؤانسة: ١/ ٨٤.
(٣) نهاية الأرب: ٤٦٤، وصبح الأعشى: ١/ ٤٦٨.
(٤) بلوغ الأرب: ١/ ٢٦٥.
(٥) صبح الأعشى: ٣/ ٢٥٥، ونهاية الأرب: ٩١.

البَرِّ[1]... فإذا كان ما سمَّاهُ موسمَ هجرٍ، ينقضي بانقضاء ربيع الآخِر، وموسمَ عُمانَ يقومُ في جُمادَى الأولى، فكيف كان يَتَسنَّى لهم الانتقالُ في ليلة واحدة من مدينة هَجَرٍ إلى عُمَان؟ إلا إذا كان السفرُ يومئذٍ على البِسَاط السحري!

وأخيراً، فإن المُحدَثين الذين جاؤوا بعد الألوسي يبحثون في موضوع المواسم حسبوا ما ذكره مُحقَّقاً، فنقلوه عنه، وتابعوه على كثير مما ذهب إليه، ومنهم جرجي زيدان[2]، ومصطفى صادق الرافعي[3]، وسعيد الأفغاني[4]، وجواد علي[5]، وغيرُهم...

* * *

(١) بلوغ الأرب: ١/ ١٨٦.
(٢) تاريخ التمدن الإسلامي: ٢/ ٣٦ ـ ٣٧.
(٣) تاريخ آداب العرب: ١/ ٩٥.
(٤) أسواق العرب: ٢٤١، ٢٥١، ٢٥٦، ٢٦٢، ٢٦٥.
(٥) المفصَّل: ٧/ ٣٧٣ ـ ٣٧٤، ٣٧٦.

جدول بالأسواق الموسمية كما ذكرها الآلوسيُّ في بُلوغ الأَرَب		
	اسم السوق	قيامُ الموسم وانقضاؤه
١	دومة الجندل	أول ربيع الأول إلى نصفه وقد يمتد إلى آخره
٢	هَجَر	ربيع الآخِر (وهو من تَوَهُّم الباحث)
٣	عُمَان	إلى أواخر جُمادَى الأولى (وهو من تَوهُّم الباحث أيضاً)
٤	المشقَّر بالبحرين	أول جُمادَى الآخِرَة
٥	صُحَار	العاشر من رجب، خمسة أيام (وهو غلط)
٦	الشِحْر	النصف من شعبان
٧	عدن أَبْيَن	أيام من رمضان
٨	صنعاء	النصف من رمضان إلى آخره
٩	حضرموت	النصف من ذي القعدة
١٠	ذو المجاز	أول ذي الحجة ثمانية أيام
١١	مجنَّة	قُبيل أيام موسم الحجّ
١٢	حُبَاشَة	أيام من رجب
١٣	عكاظ	أول ذي القعدة إلى العشرين منه، أو من نصفه إلى آخره
١٤	نَطَاة	يوم عاشوراء إلى آخر المحرَّم
١٥	حَجْر	يوم عاشوراء إلى آخر المحرَّم

المطلب الثاني ـ تاريخ التمدُّن الإسلامي:

وقد تحدَّث «جرجي زيدان»[1] عن أسواق العرب في كتابه «تاريخ التمدُّن الإسلامي» مرَّتين، الأولى: في كلامه على «حكومة العرب في

(١) جرجي حبيب زيدان: (١٨٦١ ـ ١٩١٤). ولد في بيروت، ثم هاجر إلى القاهرة، وأنشأ مجلة الهلال، ودار الهلال للطباعة والنشر، وألَّف كثيراً من الروايات التاريخية والكتُب، أهَمُّها: تاريخ العرب قبل الإسلام، وتاريخ التمدُّن الإسلامي، وقد كان يفتقر إلى الدِقَّة العلمية والأمانةِ التاريخية في كتاباته. توفي بالقاهرة.

الجاهلية»[1]، ولم يأتِ فيه بشيءٍ يستحقُّ العرضَ والمناقشة، والثانية: لمَّا تكلَّم على «مجالس الأدب وسوق عكاظ»[2] في الجاهلية، فعدَّدَ اثنتَيْ عشرةَ سوقاً، عيَّن موسمَ واحدةٍ منها هي «دُومَةُ الجندل»، وتَركَ سائِرَها، ربما لاعتقاده أن الناس كانوا ينتقلون بينها دِرَاكاً[3]، إذا فرغوا من سوقٍ أسرعوا ليُدرِكوا ما بعدها، وهو اعتقادٌ لم تَثبُتْ لنا صِحَّتُه كما رأينا في الفصل السابق... وقد زعم أنه أخذها عن نسخةٍ مخطوطة من كتاب «نهاية الأرب» للقلقشندي[4]، ولكن زَعْمَهُ غيرُ صحيح، لأن القلقشندي لم يذكر سوى ثمانيةِ مواسمَ، كما مرَّ بنا، فمن أين جاء زيدانُ بالأربعة الأُخَر؟ والحقيقة أنه أخذ أسواقَه عن كتاب «بلوغ الأرب» للآلوسي، ونَقَصَ مما وجدهُ فيه ثلاثةَ مواسمَ هي: ذو المجاز ونَطَاةُ وحَجْرٌ، فلم يذكرها في كتابه، واكتفى بسَرْدِ البقيَّة عَدّاً، من غير أن يزيدَ عليها شيئاً آخَرَ، إلا بعضَ الأخبار عن سوق عكاظ، أخذها من الأغاني للأصفهاني، وبذلك لم يُحقِّق في تأريخه أسواقَ العرب جديداً، يُغْني الموضوعَ، وينفعُ الباحثين.

وقد كنا الْتَمَسْنا له بعضَ العُذْرِ في تَقْصيره لو أنه اشْتَكىٰ نُدرةَ الموارد، لكنه، فوق التقصير، قَلَّل من قيمة مواسم العرب، واسْتَهَانَ بها عندما قال: «ولا تزالُ أمثالُ هذه الأسواق تُقامُ إلى اليوم، في القُرَىٰ، أو في البلاد البعيدة عن التمدُّن الحديث...»[5]، ثم لمَّا شَبَّهها بأسواقٍ تنعقِدُ يوماً في الأسبوع،

---

(١) تاريخ التمدن الإسلامي: ١/ ٢٩.

(٢) المرجع نفسه: ٢/ ٣٦ ـ ٣٧.

(٣) الدِّرَاك: المُتَلاحِقُ والمُتَّصِلُ.

(٤) المرجع نفسه: ٢/ ٣٧، الحاشية (١).

(٥) تاريخ التمدن الإسلامي: ٢/ ٣٦.

«فيجتمع الناسُ إليها من الضواحي للبيع والشراء»[١]. . . !، يريدُ أن العرب كانوا يومئذٍ بعيدين من الحضارة والتمدُّن، مُفْتَقِرينَ إلى الأسواق التجارية الدائمة أو الثابتة، فكانت تُقامُ لهم تلك الأسواقُ للامْتِيَار[٢]، في مواسمَ مُعَيَّنَةٍ يجتمعون إليها، فجعل منها تعبيراً عن تخلُّفِهم، وهي في حقيقتها رمزٌ لِتَقدُّمِهم، مع أنه اطَّلَعَ غالباً على كثيرٍ مما كان يجري في بعض المواسم، وجُلُّهُ مَذكورٌ في كتاب الأغاني للأصفهاني، الذي نشرتْه بمصر مطبعةُ بولاق منذ سنة (١٢٨٥ هـ = ١٨٦٨ م)[٣]، وبعضُه مذكورٌ في كُتبٍ أُخْرى كانت متوافرةً وقتئذٍ، بدليل أنَّ الكُتُب الأدبيّة، التي كان مُقَرَّراً تدريسُها في المدارس الثانويَّة بمصر، مطلعَ القرن العشرين، كانت تشيدُ بأسواق العرب في الجاهلية، وتُنْصِفُها بإحْسَانِ وَصْفِها، ومنها كتابُ «أدبيَّات اللغة العربية»[٤] الَّذي نشرتْ المطبعةُ الأميريَّةُ بمصر طبعتَه الثانيةَ سنة (١٩٠٩ م)، ومماجاء فيه: «. . . فكانت هذه الأسواقُ أنْدِيَةً عِلميَّةً، ومجتمعاتٍ لُغَوِيَّةً أَدبيَّة، اهتدى بها العربُ إلى تهذيب لُغتهم لفظاً وأسلوباً، وجَعْلِ لُغةِ الشعر والخطابة لغةً واحدةً بين جميع القبائل، باذلين في ذلك جُهْدَ المستطيع، ومنها: مجنَّةٌ وذو المجاز وعكاظ. . . »[٥].

على أن زيدان عاد واعترف في موضعٍ آخَر بأن شأن العرب في موسم

---

(١) تاريخ التمدن الإسلامي: ٢/ ٣٧.

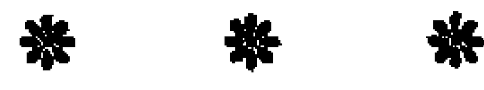
(٢) الامتيار: جمعُ الطعام والمُونَة. والمِيرَةُ: الطعامُ والمُونَة.

(٣) تاريخ الأدب العربي لبروكلمان: ٣/ ٧٠.

(٤) أدبيات اللغة العربية: أَلَّفَهُ الأساتذة محمد عاطف ومحمد نصار وأحمد إبراهيم وعبد الجواد عبد المتعال، ونقَّحهُ وصَحَّحه وزاد عليه الشيخ حمزة فتح الله مفتش اللغة العربية بوزارة المعارف في مصر.

(٥) أدبيات اللغة العربية: ١٢.

سوق عكاظ، كان كشأن الإغريق حينما كانوا يجتمعون في موسم «أُلِمْپُس»، يُمارسون الألعابَ الأُلِمْپِيَّةَ الرياضية، ويُقيمون الاحتفالاتِ الدينيَّةَ، وكان فيهم حينذاك فلاسفةٌ وشعراءُ وعلماءُ، فكانوا ينتهزون قيامَ الموسم، فيُقيمون فيه المناظرات والمحاورات، وينظمون الشعر، إلى غير ذلك من الأنشطة الثقافية والعلمية[1].



المطلب الثالث ـ تاريخ آداب العرب:

وقد عَرَضَ «مصطفى صادق الرافعي»[2] في كتابه «تاريخ آداب العرب» لموضوعِ أسواق الجاهلية، وبَحثَ دَوْرَها في تهذيب اللغة العربية، وسَمَّىٰ «آخِرَ الأَدْوارِ التي قامت فيها قريشٌ مقامَها في تهذيب العربية: الدَّوْرَ العُكاظيَّ»[3] نسبةً إلى سوق عكاظ. ثم عَدَّ من الأسواق ومواضعها ومواقيتها ما ذكره الآلوسيُّ، باستثناء سوقَيْن أغْفَلَ ذِكْرَهُما: سُوقُ نَطَاةٍ بخيْبر، وسوقُ حَجْرٍ باليمامة... وأشار إلى أسواقٍ ذكرها الجاحظُ، كانت بين دُورِ العرب ودُورِ العجم «يلتقون فيها للتسوُّق والبِيَاعات، وهي التي كانت أوسعَ أبواب الدَّخِيل والمُعَرَّب»[4] في العربيَّة، وهي: سوقُ الأُبُلَّة، وسوقُ بَقَّة[5]، وسوقُ

---

(١) تاريخ التمدن الإسلامي: ٢/ ٣٩.

(٢) **مصطفى صادق الرافعي**: (١٨٨١ ـ ١٩٣٧ م). أديب شاعر، يُعَدُّ نثرهُ في الطبقة الأولى من البلاغة والفصاحة، مولده ووفاته بمصر، كان مصاباً بالصَّمَم. أشهر كتُبه: حديث القمر، رسائل الأحزان، وحي القلم، وكتاب تاريخ آداب العرب في ثلاثة أجزاء.

(٣) تاريخ آداب العرب: ١/ ٩٥.

(٤) المرجع نفسه: ١/ ٩٦.

(٥) أصاب الكلمة تصحيفٌ في الطباعة فجاءتْ: لقَّة (باللام)، والصوابُ: بقَّة (بالباء) كما أثبتنا، وهي معروفة بالعراق.

الأَنْبَار، وسوقُ الحِيرة... وليس لدينا دليلٌ على مَوْسميَّةِ هذه الأسواق، سوى ما سبق أن ذكرناه في سوق الحيرة.



المطلب الرابع ـ عُكاظ والمِرْبَد:

ثم نَشَر «الدكتور أحمد أمين»[١] أبحاثاً في مجلَّة الرسالة القاهرية[٢]، تحدَّث فيها عن سُوقَيْ عكاظ والمربد[٣]، وحاول أن يُوضح آثارَهما في النواحي الأدبيَّة والاجتماعيَّة والاقتصاديَّة من حياة العرب... ولم يتعرَّضْ لسائر الأسواق بشيءٍ، إلا بِرَأيٍ قَسَم فيه تلك الأسواق طائفتين، **الأولى**: أسواقٌ مَحلِّيَّةٌ خاصَّةٌ، وهي كثيرة، كسُوقِ صنعاء، وسوق حضرموت، وسوق صُحَار، وسوق الشحر، يجتمع فيها غالباً أهلُها وأقربُ الناس إليها. **والأُخْرى**: أسواقٌ عامَّة، لقبائلِ العربِ جميعاً، أَهَمُّها سوقُ عكاظ، وسببُ شمولِها وأَهميَّتها وقوعُ موسِمِها قُبيل الحجِّ، في شهرٍ من الشهور المُحرَّمة[٤]... ثم تحدَّث عن موقعِ عكاظ وموعدِ انعقاده، فقال: إنه «في الجنوب الشرقي من مكة، على بُعْد نحوِ عشرة أميال من الطائف، ونحو ثلاثين ميلاً من مكة... وهو مكان مُنبسِطٌ في وادٍ فسيح، به نخلٌ وماءٌ

---

(١) سبقت ترجمته.

(٢) مجلة الرسالة: الأعداد (١٢ و ١٣ و ١٥ و ١٦ لسنة ١٩٣٣) ـ القاهرة.

(٣) المِرْبَدُ: ضاحيةٌ من ضواحي البصرة، كان موضع سوق الإبل، وهو على طرف البادية، فجعله العربُ سوقاً عامةً يقضُون فيها شؤونهم، على غِرار ما كان بعكاظ، فكان لهم منه في الإسلام، ما كان لهم من عكاظ في الجاهلية.

(٤) مجلة الرسالة: ١٢/ ٢٤ لسنة ١٩٣٣.

وصخور»[1]، ثم أضاف أن الأقوال مختلفةٌ في موعد انعقاده، ولكن أكثرها على أنه كان في ذي القعدة من أَوَّلِهِ إلى العشرين منه[2]. . . وانتقل بعد ذلك إلى بَيانِ أَثَرِهِ ووظائفِهِ ونظامِهِ وتاريخه، ثم إلى الحديث عن سوق المربد في الإسلام وآثاره الأدبية والسياسية.

وفي تعليقٍ سريع على قوله بأن موقع عكاظ على بُعْدِ ثلاثين ميلاً من مكة، وهو غَلَطٌ قطعاً، نقولُ: كيف يستقيم ذلك إذا كان على بُعْدِ عشرة أميال من الطائف؟ فهل ما بين مكة والطائف أربعون ميلاً فقط؟

وأما قِسْمتُه الأسواقَ طائفتين: محليَّةً خاصَّةً، وعامَّةً، فيجب ألاَّ يحجبَ المؤسِميَّةَ عن الطائفتين، فكلتاهما، كما ذكر المؤرِّخون، كانت موسميَّةً، لها أوقاتٌ معيَّنةٌ من السنة كانت تقوم بها، وهو إنما أراد بهذه القِسْمة زوَّارَ الأسواق، فزعم أن الخاصَّة كان يجتمع فيها أهلُها وأقربُ الناس إليها، وأن العامَّة كانت لقبائل العرب جميعاً مثل عكاظ. وقد مثَّل للخاصَّة بأسواق صنعاء، وصُحَار، والشحْر، وهو غلَطٌ، لأن زُوَّار هذه الأسواق كانوا يقصدونها من مناطق قريبةٍ وبعيدةٍ، وكانوا من العربِ والأجانبِ على السواء، لما كان يكون بها عادةً من السِّلع المختلفة المرغوب فيها من الناس. ومن أجل ذلك جُعل موسمُ صنعاء في ذي القعدة، أي في الشهر الذي ينعقد فيه موسمُ عكاظ، وجُعل موسمُ صُحَار في شهر رجَب الحرام، لتشملَ حُرْمَتُه من كان يقصدُه من المطارِح النائية.

* * *

(1) مجلة الرسالة: ١٢/ ٢٤ لسنة ١٩٣٣.

(2) المرجع نفسه.

المطلب الخامس ـ أسواقُ العرب:

ثم نشر الأستاذ سعيد الأفغاني كتابه «أسواق العرب في الجاهلية والإسلام»[1]، فكان، فيما علمتُ، أوّلَ من اخْتَصَّ هذا الموضوعَ، في العصر الحديث، بكتابٍ، تناولَ في القسْم الأول منه، ويقع في نَحْو مئتَيْ صفحة، عدداً من المواضيع، مَهَّدَ بها لحديث الأسواق، منها: بُيوعُ الجاهليَّة، والرِّبا، والإيلاف، وحِلْفُ الفُضُول، وحروبُ الفِجَار، وأحْداثُ قريشٍ التجاريّة، وغيرُها. . . ثم انتقل في القسم الثاني إلى حديث الأسواق، فكان نصيبُ أسواق الجاهلية نَحْوَ مِئَتَيْ صفحة، ونصيبُ سوقِ المِرْبَدِ في الإسلام نحو ستين صفحة.

وقد بلغت أسواقُ الجاهلية عنده عشرين سُوقاً، فزاد على ما ذكره الآلوسيُّ منها خَمْساً هي: سوقُ دَبا بعُمَان، وأسواقُ دَيْر أَيُّوب وبُصْرى وأذْرِعَات بالشام، وسوقُ الحيرة بالعراق، واتفق معه في الخمسَ عشرةَ الأُخرى عَدَداً ومَوَاضِعَ ومَواعِيدَ، إلا أنه أكَّد قيام موسم «مجنَّة» في العَشْر الأخير من ذي القعدة، وقيامَ موسم «عكاظ» في الأول من ذي القعدة إلى العشرين منه، مُتَّخِذاً في ذلك مذهبَ الأَزرقيّ.

والكتابُ في جُمْلته عملٌ جَيِّدٌ، لكنَّ ثمَّةَ أمريْن رئيسَيْن يُؤخَذان عليه:

الأوَّلُ: أنه لم يُحْكِمِ الصِّلةَ بين موضوع الأسواق الموسميَّة، والموضوعات التي جمعها وساقها تمهيداً للبحث فيه، وهي نصفُ الكتاب

---

(١) أسواق العرب في الجاهلية والإسلام: ظهرت الطبعةُ الأولى منه سنة (١٩٣٧ م)، والطبعة الثانية بدمشق سنة (١٣٧٩ هـ = ١٩٦٠ م)، وهي التي رجعنا إليها في هذا البحث، وسنكتفي في الإشارة إلى هذا الكتاب بعبارة «أسواق العرب».

حتى ليكاد القارئُ يَحَارُ في معرفة الغرض من عَرْضِها في الكتاب، ولا سيما أن معظم كُتُب التاريخ والسِّيَرِ والأدبِ والأخبار مَملُوءَةٌ بها!...

والآخَرُ: أنه أَثْبتَ مختلف الوقائع والحوادث والروايات من غير تحقيق فيها، أو نَقْدٍ لها، أو مُوازَنةٍ بينها وبين أمثالها، وتَقَبَّلها كما وردتْ، وعَرَضَها في كتابه، وكأن الشكَّ لا يمكن أن يَرْقَىٰ إلى شيءٍ منها! وفيما يلي أَهَمُّ ملاحظاتي عليه...

١ ـ غَلَطُهُ في الأَخْذِ بما زعمه المستشرقُ كِرِنْكو عن سرقة المرزوقيّ من ابن حبيب:

أَوَّلُ ما أُحبُّ أن أُسجِّلَهُ أنَّ الأفغاني ما كاد يَفْرَغُ من طبع كتابه حتى أرسلَ نسخةً منه، هديّةً، إلى صديقه المستشرق الألماني «كْرِنْكُو»[(١)]، فكتب هذا إليه يقول: «إن أصلَ هذه الأخبارِ، أي أخبار أسواق العرب، كلِّها بابٌ في كتاب المحبَّر لابن حبيب، في النسخة الوحيدة، المحفوظة في المتحفة البريطانية... ولا شك بأن المرزوقيَّ سرق عباراته منه، وزاد أشياءَ غير مُهِمَّةٍ»[(٢)]، فوافَقَهُ الأفغانيُّ مُسَلِّماً بصحَّة كلامه قائلاً: إنه «لم يُبْعِدْ عن الصواب» إذ كتب إليه بذلك! ثم مضى يُعلِّق على أخبار المرزوقي في غير موضعٍ من الكتاب بقوله مثلاً: «نقل المررزوقيُّ هذا عن كتاب المحبَّر لابن حبيب، ولم يَعْزُ إليه»[(٣)].

---

(١) فْرِيتْسْ كْرِنْكُو: مستشرق ألماني فاضل، من أعضاء المجمع العلمي العربي، حقَّق كثيراً من المخطوطات العربية لبعض القدماء، كابن دُريد وابن قتيبة وابن الجوزي والبيروني وغيرهم. علَّم العربية في الهند، ثم انتقل إلى كمبردج بلندن، وظلَّ فيها حتى وفاته سنة (١٩٥٣ م) عن (٨٢) عاماً.

(٢) أسواق العرب: ٢١١ (الحاشية: ١).

(٣) المرجع نفسه: ٤٧ (ح: ١)، و ٤٨، و ٥٣ (ح: ٢)، و ٢٣٨ (ح: ١)، و ٢٣٩ (ح: ١)...

والحقيقةُ، كما أشرتُ إليها في كلامي على كتاب المرزوقي، أنَّ هنالك مُشَابَهةً، كادت تكون تامّةً، بين كثير من عباراته وعبارات ابن حبيب في حديثهما عن مواسم الجاهلية. . . لكنَّ هذه المشابهة لا تَسْتلزِمُ قطعاً أن يكون المرزوقيُّ سرق نُصوصَهُ من ابن حبيب، وإنما الأمرُ مُحتاجٌ إلى بعض الرَّوِيَّةِ للكشف عن سرِّ هذا التشابُهِ، وليس إلى المُقَابلة بين عبارات الرجُلَيْن وحَسْبُ. . . فالنظرةُ الأولى إلى فصل الأسواق في كتاب المرزوقيّ تُؤكّد أن الرجُلَ عَزَا أخبارَهُ إلى أصحابها، وأنه جاء بزيادةٍ في الأخبار على ما جاء به ابنُ حبيب، فذكر لنا مثلاً عُروضَ سوق الشِّحْرِ[1]، وما كان يُصْنَعُ بعَدَنٍ، ثم يُنقل منها إلى بلدان العالم[2]، وما كان يُحْمل من البضائع إلى صنعاء، وما كان يُحْمَلُ منها[3]. . . كما قدَّم لنا معلوماتٍ عن سوق عكاظ لم نجدْ مثلَها عند ابن حبيب، كالمنابرِ التي كانت بعُكاظ، وراياتِ الوفاءِ والغَدْرِ التي كانت تُنْصَبُ فيها للوَافين والغادِرين[4]، وعيَّن كذلك مواقعَ قبائل العرب من التحريم والتحليل، ومواقعَ الأسواق من شهور الحِلّ وشهور الحرم، وموقِفَ العربِ منها، وذكر شيئاً من تقاليد السفَرِ والانتقال في غير الأَشْهُر الحرُم عند الخائفين[5]. . . وفوق ذلك كلِّه ساعدنا، كما مرَّ بنا، على تصويب موعد قيام موسم صُحَار[6]، وقد غلط ابنُ حبيب في تعيينه وضَبْطه[7]. . .

---

(١) الأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٣.

(٢) المرجع نفسه: ٢/ ١٦٤.

(٣) المرجع نفسه: ٢/ ١٦٥.

(٤) المرجع نفسه: ٢/ ١٧٠.

(٥) المرجع نفسه: ٢/ ١٦١ و ١٦٦.

(٦) المرجع نفسه: ٢/ ١٦٣.

(٧) المحبَّر: ٢٦٥.

وعلى ذلك، فالمطلوب إذن هو التحقيق في نصوص الرجُلَيْن، والبحثُ عن عِلَّة التماثُل بينهما في كثير من العبارات، وهو بحثٌ ليس بالعَسِير، وإنما يحتاجُ إلى شيءٍ من الرَّوِيَّة والأَنَاة. ذلك أن المرزوقيَّ لم يُغفِل الإسْنَادَ إلى المصدر الذي أخذ عنه، بل بدأ حديثَ الأسواق بالإشارة إليه أولاً، وذلك بقوله: «قال أبو بكر محمدُ بنُ الحسن بن دُرَيْد الأَزْدِيُّ[1]، في إسْنَادٍ ذَكَرَهُ: إن أسواق العرب الكبيرةَ كانت في الجاهلية ثلاثَ عشرةَ سوقاً...»[2]، ثم أشار إليه مرةً أخرى، بعبارةٍ أشدَّ وُضُوحاً، جاءت في أثناء الكلام، وذلك بقوله: «قال أبو بكر الدُّرَيْديُّ: لم يكن حديثُ الأسواق في كتاب أبي عبيدة[3]، وإنما أَلْحقَهُ أبو حاتم[4]، فنَقَلناهُ من كتابه»[5].

فالمرزوقيُّ عَزا حديثَ الأسواق إذن، أو قسمٍ منها، إلى ابن دُرَيْد، وقد صرَّح ابنُ دُريد بأنه نقله من كتاب أستاذه أبي حاتم السِّجْستاني، ونَفَىٰ أن يكون في كتُب أبي عبيدة النحْوي حديثٌ عن أسواق العرب. وقد عاش أبو حاتم وابنُ حبيب في العصر نفسه، وتلقَّى كلاهما العلمَ على علماء ذلك

---

(١) ابنُ دُرَيْد: وُلدَ أبو بكر الدريديُّ بالبصرة سنة (٢٢٣ هـ)، ونشأ وتعلَّم فيها، وأخذ العلم عن أبي حاتم السجستاني والرياشي وغيرهما من العلماء، وصار إمامَ عصره في اللغة والشعر والأدب. له تصانيفُ كثيرةٌ، منها: الجمهرةُ، الاشتقاقُ، السَّرْجُ واللِّجَام، وله أيضاً كتابٌ في الأنواء. تنقَّل بين البصرة وعُمَان وبغداد وفارس، وتُوفي سنة (٣٢١ هـ).

(٢) الأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦١.

(٣) سبقت ترجمته.

(٤) أبو حاتم السِّجِسْتَاني: سهلُ بنُ محمد الجُشَمِيُّ. عالم باللغة والشعر، من أهل البصرة. كان من تلاميذ الأصمعي، وأخذ عن أبي زيد الأنصاري وأبي عبيدة، وأخذ عنه العلم كثيرون، منهم المُبَرِّدُ. كان كثير الرواية عن الأصمعي، وله مُصَنَّفاتٌ كثيرة، توفي سنة (٢٤٨ هـ) تقريباً.

(٥) الأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٨.

العصر، وكان منهم: الأَصْمَعيُّ، وأبو عُبَيدة، وأبو زيد الأنصاريُّ[١]، وأبو المنذر هشامُ بنُ الكلبيّ، وغيرهم[٢]. . . وعلى ذلك يكون تَشابُهُ العبارات عندهما مَرَدُّهُ إلى نَقْلِهما عن مَوْرِدٍ واحد، عَزا إليه المرزوقيُّ، وأغفله ابنُ حبيب، ولم يكن مَرَدُّه إلى سرقة المرزوقي عباراته من ابن حبيب، مع أن هذا مُتَّهمٌ بالإغارة على كتُب الآخَرين، وإسْقاطِ أسمائهم منها، وادِّعائها لنفسه[٣]، وإن كان يَذكر أحياناً إسمَ ابن الكلبي في بعض أسْنادِ المحبَّر[٤]. . . على أن أهَمَّ مآخِذِ كتاب المحبَّر، كما حقق الدكتور محمد حميد الله، إنما هي «كتُبُ ابنِ الكلبي، يُؤَيِّدُ ذلك تَشَابُهُ عناوينِ الفُصول في المحبَّر، وأسماءِ ما نُسب إلى ابن الكلبي من التصانيف[٥]. . .». والمعروف عن أبي المنذر بن الكلبيّ أنه تَتَبع آثار عرب الجاهلية، كأبيه «أبي النَّضْر محمد بن السائب الكلبي»، وجمع أخباراً كثيرةً عن أحوالهم، وأيامهم، وأنسابهم، وصنَّف في ذلك تصانيفَ كثيرةً تزيدُ على مئةٍ وخمسين[٦]، وقد ذَكَر «الزركليُّ»[٧] أن من بينها كتاباً في أسواق العرب[٨]، وأشار المستشرقُ

(١) أبو زيد الأنصاري: سعيدُ بنُ أَوْس. أحدُ الأئمَّة في اللغة والأدب، كانت اللهجاتُ والنوادر في الغريب أغْلبَ عليه. عُمِّر حتى قارَبَ المئةَ، وتُوفي بالبصرة سنة (٢١٥ هـ).

(٢) تاريخ الأدب العربي: ٢/ ١٥٩.

(٣) المرجع نفسه: ٢/ ١٥٣.

(٤) المحبَّر: ٥٠٨ ـ (كلمة محمد حميد الله في خاتمة الكتاب ـ ١٩٤٢ م).

(٥) المرجع نفسه: ٥٠٧.

(٦) ابنُ خَلِّكان ـ وَفَيَاتُ الأعيان: ٦/ ٨٢ ـ ٨٤.

(٧) خير الدين بن محمود الزركلي: (١٨٩٣ ـ ١٩٧٦ م). عالم دمشقيٌّ، أديبٌ وسياسيٌّ، وصحافيٌّ مُنَاضِلٌ. شَغَل في المملكة العربية السعودية مناصبَ دبلوماسيةً متعددة. أهمُّ مؤلَّفاته «الأعلامُ» في تراجم العرب والمستعربين والمستشرقين، ويقع في ثماني مجلدات. وسجَّل في كتابه «ما رأيتُ وما سمعتُ» رحلته إلى الحجاز.

(٨) الأعلام: ٨/ ٨٨.

الألماني كارل بروكلمان[1]، إلى أن هذا الكتاب نُشِر في باريس بالفرنسية سنة (١٩٣٥ م)، ضمن كتاب «مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخِلافَة الراشدة»[2] من تأليف الدكتور محمد حميد الله، وقد نظرتُ فوجدتُ ان لجنةَ التأليف والترجمة والنشر بمصر تولت طبعَ هذا الكتابِ بالعربيَّةِ مرَّتين، الأولى سنة (١٩٤١ م)، والثانية سنة (١٩٥٦ م)، فاطَّلعتُ عليهما، ولم أجدْ فيهما كتابَ أسواق العرب لابن الكلبي كما زعم بروكلمان، كما لم أجدْ في الكُتب التي عَدَّدها «ابنُ خَلِّكانَ»[3] لابن الكلبي ذِكْراً لكتاب أسواق العرب هذا، ولكن الأفغانيَّ أشارَ، في إحدى حواشيه، إلى أنَّ لابْن الكلبي كتاباً في أسواق العرب، وأَحَالَنا إلى الصفحة رقم (٧٧) من كتاب الأصنام لابن الكلبي، طبع دار الكُتب المصريَّة[4]، للنظر فيها، غير أنني لم أَفْقَهْ مُرادَهُ من هذا الأمر، فإن كان نَظَر فيها، ووجد شيئاً عن أسواق العرب، فلِمَ لمْ يُخبِرْنا به؟ ولمَ لم ينقلْ عنها خبراً، أو واقعةً على الأقلّ؟ وليس ثمَّةَ مَوْضعٌ لذلك خيراً من كتابه! . . .

وعلى ذلك يمكن الجزمُ بأن الفصل الذي تحدَّث فيه ابنُ حبيب عن أسواق العرب في «المحبَّر»، مَنْقولٌ في جُمْلَته عن أبي المنذر الكلبي، من غير أن يُعْزَى إليه! وإذا رجعنا إلى فصل أسواق العرب في كتاب المرزوقي، وجدنا أنه أَثْبَتَهُ برواية ابن دُرَيْد عن أبي حاتم السجستاني، ووجدنا أن مُعظم

---

(١) سبقت ترجمته.

(٢) تاريخ الأدب العربي: ٣/ ٣٢.

(٣) ابن خلِّكان: أبو العباس أحمد بن محمد (٦٠٨ ـ ٦٨١ هـ = ١٢١١ ـ ١٢٨٢ م). مؤرِّخ وأديب، مؤلِّف كتاب وَفَيَاتِ الأَعْيان، وهو أشهر كتُبِ التراجم ومن أحسنها ضبطاً وإحكاماً. تولى قضاء الشام عدة مرات، وولي التدريس في مدارسها، وتُوفي بها.

(٤) أسواق العرب: ٢١٦.

نصوصه أسْنَدَها أبو حاتم إلى أبي المنذر الكلبي، وعَزا إليه القولَ في أسواق: دُومَةِ الجنْدَل، والمشقَّرِ، وصُحَار، ودَبا، والشِحْر، وعَدَن، وصنعاءَ، والرابيةِ، وعُكاظ، وذي المجازِ، ونَطاةٍ، وحَجْرِ، وهي الإثنتا عشرةَ سوقاً التي ذكرها ابنُ حبيب، ووقع في نصوصها التَّشابُهُ بين العبارات، وتلك هي عِلَّة التَّشابُه... وقد زاد المرزوقيُّ بعدها أخباراً أخرى مختلفةً، تتعلَّق بالحُرُمات، وأئمَّة المواسم والقضاءِ بعكاظ، وأسواقٍ لم يذكرها ابنُ حبيب[1]، وتفرَّد أيضاً بذِكْر أمورٍ لم نَجِدْ مثلها عند الآخَرين، كالخبر الذي رواه عن أبي حاتم، وتحدَّث فيه عمَّن شَهِدَ سوقَ عكاظ في موسمها المنعقِد سنةَ (٣٥ من عام الفيل)، أي نحو سنة (٦٠٥ م)، من قبائل العرب وسَادتِها، وعن بعض ما وقع في ذلك الموسم من الحوادث... وقد أَسْنَدَ أبو حاتم هذا الخبرَ إلى الأصمعي[2]، وهو دليلٌ آخَرُ على أن ما ذهب إليه «كْرِنْكُو» في اتِّهامِ المرزوقي بالسرقة من كتاب المحبَّر، وتابَعَهُ عليه الأفغانيُّ من غير تَحقُّقٍ، ولا تبصُّرٍ، إنما هو باطلٌ محضٌ، بل افتراءٌ واضح...

وهنالك دليلٌ، فوق كلِّ ما قدَّمتُ من الأَدِلَّة، لا يقلُّ وُضُوحاً وبُرهاناً عنها جميعاً... ذلك أن المرزوقيَّ سبق، كما مرَّ بنا، إلى الحديث عن الأسواق التي كانت تنعقِدُ مواسمُها في أطراف الشام، مما يلي جزيرة العرب. واسْتَهلَّ هذا الحديثَ صراحةً بإسْنَادِ الكلام فيه إلى «ابن كُنَاسَة»[3]،

---

(١) الأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦١ ـ ١٦٨.

(٢) المرجع نفسه: ٢/١٦٨ ـ ١٦٩.

(٣) ابنُ كُنَاسَة: (١٢٣ ـ ٢٠٧ هـ = ٧٤١ ـ ٨٢٣ م). أبو يحيى محمد بن عبد الله (كُنَاسَة) الأَسَديُّ، من شعراء الدولة العباسيَّة، من أهل الكوفة. كان ظريفاً، أديباً، حَسَنَ الشعر، عالماً بالعربية وأيام العرب، وله كتابٌ في الأنْواء، وعِلْمٌ بالفَلَكِ والنجوم.

وبدأهُ بقَوْلٍ في مُدَّةِ غيابِ الثريّا، إذا أَفَلَتْ مع غُروب الشمس[1]، فقد كان «صاحبَ علْمٍ بالنجوم على مذهبِ العرب، وألَّفَ فيه كتاباً...»[2]، وكان عَصْريَّ العلماءِ الَّذين أخَذَ عنهم أبو حاتم عُلومَهُ، ولعلَّهُ كان من شُيوخه كذلك، فنقَلَ عنه أبو حاتم حديثَ أسواق الشام، مثلما نَقَلَ حديثَ الأسواق الأخرى عن أبي المنذر والأصمعيّ، فكان منها جميعاً الفصلُ الذي ألْحَقَهُ بكتابه، على نحو ما أخبرَنا به ابنُ دريد[3]... ولا شك في أن مَنْ زار أسواق الشام، وحدَّثنا عنها، وذكر الاختلافَ بين أهل الجزيرة وأهل الشام في حساب أُفُولِ الثريّا، هو ابنُ كُنَاسَة نفسُه، وهو القائلُ عن سوق بُصْرَى: «فأدركتُها تقوم خمساً وعشرينَ ليلةً، وأُخْبرتُ أنها كانت تقومُ بولاية بني أُميَّة ثلاثين إلى أربعين ليلةً»[4]... وهذا هو ما يُفْهمُ من نصّ الحديث، ولا يُمكن أن يُفْهمَ منه قطعاً، أن المرزوقيَّ هو صاحبُ حديث أسواق الشام، كما ظن الأستاذُ الأفغانيُّ، فقرَّر أنه زارها في القرن الخامس الهجري، وأَخْبَر عنها[5]... فالمرزوقي ليس له من موضوع الأسواق كله شيءٌ غير النقل والعَرْض، وهو لم يَدَّعِ من أخباره خبراً واحداً لنفسه، لا تصريحاً ولا تلميحاً، بل ردَّها جميعاً في مطلع الكلام إلى رواية ابن دُرَيْد... والمعروفُ أن ابنَ دريد أخذَ العلم عن أبي حاتم، وحدَّث بأخباره، وروَىٰ عنه[6]، وقد اعترف في حديث الأسواق صراحةً بأنه نقله جملةً من كتاب أبي حاتم، فأين

---

(١) الأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٩.

(٢) ابن قتيبة ـ المعارف: ٥٤٣.

(٣) الأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٨.

(٤) المرجع نفسه: ٢/ ١٦٩.

(٥) أسواق العرب: ٣٧٠، ٣٧٣.

(٦) وفيات الأعيان: ٢/ ٤٣٠ ـ ٤٣١.

مَوْضِعُ المرزوقي في ذلك كله؟... ثم إن العهد بين المرزوقي وانقضاءِ عصر بني أُميَّة نحوٌ من ثلاثة قرون، فهل يُعْقَلُ أن يزورَ أسواق الشام بعد هذا الزمان الطويل، وأن لا يُخْبَرَ إلا عن مُدَّة قيامها بولاية بني أُميَّة، ولا يُحَدَّثَ عن بعض أحوالها خلال تلك القرون؟... أوَليس ذلك مُخالفاً لطبيعة الأمور؟

أما ابنُ كُنَاسَة، فقد عاش عصرَ انتهاءِ الدولة العربية الأموية (١٣٢ هـ) وقيامِ دولة بني العباس، فإذا قَدَّرْنا أنه زار أسواق الشام، أواسطَ القرنِ الثاني أو أواخِرَهُ، ووَجَد بين الناس من يُحدِّثُه بمُدَّة قيام الأسواق في ولاية بني أُميَّة، فذلك أمرٌ معقولٌ ومُمْكِنٌ، لأنهم كانوا ما يزالون يتداولون أخبارهم، ويُقابلون بين ما كانوا عليه وما صاروا إليه... ولو كان المرزوقي هو مَن زارها في القرن الخامس، كما ذهب الأستاذ الأفغانيُّ، لما وَجَد أحداً يُنْبِئُه هذا الخبر الذي مضى على وقوعه ما يقرب من ثلاثِ مئةِ سنة!

ثم إن ابنَ كناسة كما لاحظنا، وهو عالمٌ بالأزمنة على مذهب العرب في شِبْه الجزيرة، كان مُتعجباً من أهل الشام كيف يَحْسُبون خمساً وعشرين ليلةً لطلوع الثريَّا بعد أُفولها، فيُقيمون أسواقَهم، وعنده أن الثريَّا تغيبُ نَحْوَ أربعينَ ليلةً قبل أن تَطلُعَ! ولو كان المرزوقيُّ صاحِبَ هذا الخبر، لمَا تعجَّبَ لأنه يعرف سببَ هذا الفرق في الحساب، وقد ذَكَرهُ في كتابه فقال: «وكلُّ بلدٍ شماليّ فالكواكبُ الشاميَّةُ فيه تَطْلعُ قبل طُلوعِها في البلد الجنوبيّ... وبين رُؤيةِ سُهيلٍ مثلاً بالحجاز ورُؤيته بالعراق بضعُ عشرةَ ليلةً»[1]، والمعروف أن الثريّا من الكواكب الشاميَّة... وعلى ذلك يمكننا أن نَقْطعَ بأن صاحبَ حديثِ أسواق الشام هو ابنُ كناسَة، وأن المرزوقي كان أشدَّ حرصاً

(١) الأزمنة والأمكنة: ١/ ٢٠١.

على أمانة النقل من ابن حبيب، فأثْبَتَ في كتابه المراجعَ التي نقل عنها، وبفضل ذلك عرفنا أن ابنَ الكلبيِّ والأصمعيَّ وابنَ كناسَة مصدرُ أحاديثِ أسواق العرب وأخبارِها عند معظم المؤرِّخين وأهل الأخبار.

* * *

٢ ـ زيادته على المواسم سوقيْن سمَّاهما هَجَراً وعُمَانَ، من غير دليل واضح:

أخذ الأفغانيُّ من غير تحقُّق بمذهب الآلوسي، فجعل لِهَجَرٍ سُوقاً، غير سوق المشقَّر، تقوم في شهر ربيع الآخر، فقال: «تقصدُ العربُ هذه السوق بعد انْفِضَاضِهم من سوق دومة الجندل»(١)، والمعروف أن دومة الجندل تنفضُّ آخِرَ ربيع الأول، ولا بُدَّ للمرتحل عنها إلى هجر، أن يأخذ طريق الحيرة أولاً، ثم الأُبُلَّة، ثم هجر، أو طريق تَيْماء، ثم فَيْد، ثم القطيف، ثم هَجَر، وأيُّ الأمريْن فَعَلَ، اقْتَضَاهُ بين حِلٍّ وتَرْحَالٍ نحو شهرين، بينما جعلها الأفغانيُّ ليلةً واحدةً، وهو مستحيلٌ طبعاً مع قوله: «فإذا أهلَّ ربيعُ الآخِرُ انتقلوا إليها فقامت سوقُها»(٢)، وكأنهم كانوا ينتقلون بالطائرة حينذاك! كما تابَعَ الآلوسيَّ على مذهبه أيضاً فجعَلَ لِعُمان سوقاً فوق سُوقَيْ صُحَار ودَبا، تقومُ في شهر جمادى الأولى، فقال: «تقصدُ العربُ هذه السوق إذا انتهتْ من سوق هَجَر، فترحلُ إلى عُمَانَ، وتُقيم سوقَها حتى آخر جُمادَى الأولى»(٣)، وإذا كانت الطريقُ بين هَجَر وعُمَان تقتضي سفراً في البرِّ أكثرَ من

(١) أسواق العرب: ٢٥١.
(٢) المرجع نفسه: ٢٥١.
(٣) المرجع نفسه: ٢٥٦.

شهر، وبالبحر نصفَ المدَّة تقريباً، فكيف اختصرها الأفغاني في ليلة واحدة؟ ثم إن عُمَانَ إسْمٌ لإقليم واسع، كان يضمُّ مُدُناً وقُرى ومرافىءَ كثيرةً مثلَ صُحَار ودَبَا ودَمَا وتُؤَام ومسقَط ونَزْوَى وغيرِها، فأين كان موضعُ سوق عُمَانَ من تلك المواضِع؟

٣ ـ اضطراب حديثه عن سُوق صحار وغَلَطُه في موعدها:

وفي حديثه عن سوق صُحَار، ذهب مذهباً مضطرباً، فاتَّبَعَ مذهبَ البغداديّ والآلوسيّ، وجَعَل قيامَها «من عاشر رجب إلى الخامس عشر منه، بعد انْفِضَاضِ سوق حُبَاشَة»[١]، وهو غلطٌ منه. ثم اتَّخَذَ من قول المرزوقي: «إنهم كانوا يُقيمونها لعشرين يوماً من رجب»، دليلاً على أنها كانت تمتدُّ إلى ما بعد الخامس عشر من رجب، وهو غلطٌ آخَرُ، وكأن المرزوقي قال: وكانوا يقيمونها إلى العشرين من رجَب، وإنما قال: إنها تقومُ بانقضاء عشرين يوماً من رجب! أي في اليوم الواحد والعشرين.. ومع ذلك زعم الأفغاني أن ذلك لا يناقِضُ ما ذهب إليه في قيام موسمها من عاشِرِ رجب، «لأن افتتاح السوق وانفِضَاضَها لم يكن بساعةٍ مُحتَّمةٍ، لا تَقَدُّمَ عنها ولا تأخُر، بل إن من العرب من لا يكون حضر ما قبلها، فيأتيها من أوَّل رَجَب، ومنهم من يكون في حُباشة أو غيرها فيُوافيها مُتأخِّراً»[٢]... وتأكيداً لما ذهب إليه، أضاف في الحاشية أن ابن حبيب نصَّ في المحبَّر على أن قيامها يكون في الليالي الخمس من أوَّل رجب! وبذلك جمع ما قاله ابنُ حبيب، إلى ما قاله البغداديُّ والآلوسيُّ، وما تَقَوَّلَهُ على المرزوقي في قيام صُحَار عشرين يوماً من أوَّل رَجَبٍ!. مع أن نصَّ المرزوقي واضح، ذكر فيه أن

---

(١) أسواق العرب: ٢٦٢.

(٢) المرجع نفسه: ٢٦٣.

العرب يرتحلون من المشقَّر أولَ يومٍ من رجب، في طريقهم إلى صُحَار، فيصلون إليها لعشرين ليلةً يَمْضينَ من رَجَب، فيشترون ويبيعون فيها خمسة أيام[1]... ثم علَّل الأفغانيُّ هذا الاضطرابَ الَّذي وقع فيه بقوله: «وليست صُحَارُ من الأسواق العامَّة، ولا من المواسم مثل عكاظ، حتى يحرصوا عليها ذلك الحرصَ، وإنما هي سوق تجاريَّةٌ مَحْضَةٌ لِمَا حولها ولمن يقصدُها، على أنها كثيراً ما يأتيها التاجرُ البعيد»[2]... وكيف لا تكون صُحَارُ من الأسواق العامَّة، وقد اعترف بنفسه أنها كذلك لمَّا قال: «تُقِيم العربُ السوقَ العامَّةَ في صُحَار من عاشر رجب...»[3]، ولمَّا صَرَّحَ في كتابه بأنه إنما يبحثُ في الأسواق الموسميَّة «التي لها أيامٌ مُعيَّنةٌ تقومُ فيها...»[4]، ونصَّ أن سوق صُحَار «كثيراً ما يأتيها التاجرُ البعيدُ»، كما رأينا! والأكثرُ غرابةً من كلّ ذلك ذَهابُه إلى أن من يكون في حُبَاشَة يُوافي صُحَارَ مُتأخِّراً... والمعروفُ أن حُبَاشة تقعُ في بلاد تِهامَة، على البحر الأحمر، في أقصى الطرف الغربي من جزيرة العرب، وأن صُحَار تقعُ على بحر عُمَان، في أقصى الطرف الجنوبي الشرقي من الجزيرة، وبينهما سَفَرُ شهرين على الأقل، فمن أين لزائر حُبَاشَة، إذا انقضى موسمُها، أن يُوافيَ سوق صُحَار في موعدها، وبين انقضاء الأولى وقيام الثانية ستة عشر يوماً لا غير؟ والعجيبُ في الأفغاني أنه رسم طرُقاً مستقيمةً، تخيَّل أنها كانت تَصِلُ بين حُبَاشة ومُدُنِ عُمان، عَبْر الرَّبْعِ الخالي[5]، وهو نحوُ رُبُعِ مليون ميلٍ مُربَّعٍ من الصحراء

(١) الأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٣.
(٢) أسواق العرب: ٢٦٣.
(٣) المرجع نفسه: ٢٦٢.
(٤) المرجع نفسه: ١٩٣.
(٥) المرجع نفسه: ٢٢٩.

المُقْفِرَة، الشديدة الحرارة، التي لم يخترقْها سوى عددٍ قليل جدّاً من الرُّحَّلِ، في مُدَّةٍ لا يعلم أحدٌ مقدارها[1]. . .

٤ ـ غَلَطُهُ في تحديد موقع الشِّحْر:

وفي كلامه على سوق «الشِّحْر»، عيَّن مَوْقعَها بين عُمَانَ وعَدَن[2]، وهو تَحْديدٌ ليس فيه غَنَاءٌ، ولا هو من عَمَلٍ مُحقِّق، إذ بين عُمَان وعدن أكثرُ من ألفٍ وثلاث مئة مِيلٍ[3]، فأين موقعُ شِحْرِ مَهَرَةٍ من تلك البقاع؟ وأين تقعُ السوقُ من الشِحْر؟

وقد سبق لنا، في تعليقناعلى كلام التوحيديّ أن حقَّقْنا موقعَ إقليم الشحْر، بين ظَفَار ومِرْباطٍ شرقاً، والأحقاف شمالاً، وحضرموت والمُكَلاّ غرباً، وبحرِ العرب جنوباً. . . ورَجَّحْنا قيامَ موسم الشِحْر في مدينة «إرَم» بين ظَفَار ومِرْباط. ولكن الأفغاني جعلها «أَدَم» بالدَّالِ، وعَدَّ كتابتَها بالرَّاءِ تصحيفاً[4]، وهو غير صحيح، فأَدَمُ، كما ذكر ياقوت، إسمٌ لجهاتٍ عِدَّة، منها ناحيةٌ قربَ هَجَر، وناحيةٌ من عُمَان، ومَوْضعٌ من قرى اليمن، ومكانٌ من أعمال صنعاء[5]، وكلُّها بعيدةٌ من شِحْرِ مَهَرة، ولا يصحُّ أن تكون إحداها موضعَ سوقِ الشِحْر، وإنما الصحيح أنّ موضِعَها هو مدينةُ «إرَمٍ» من قُرى الشِحْر كما يُفهم من نَصّ التوحيدي[6]، وليس فَلاةَ «أَدَم» قربَ عدن،

---

(١) سام وبْرِيل أَبشنين ـ الصحراء: ٩٤.
(٢) أسواق العرب: ٢٢٠، ٢٦٦.
(٣) مهد العرب: ٢٤.
(٤) أسواق العرب: ٢٢٠.
(٥) معجم البلدان: ١/١٢٦.
(٦) الإمتاع والمؤانسة: ١/٨٤.

كما أشار الأفغانيُّ لمَّا سَرَدَ الأسواق التي ذكرها التوحيدي[1]، فالقادمُ من دَبا بعُمان لا بدَّ له أن يمرَّ بقُرى الشحر قبل أن ينتقل إلى عدن، وبينهما نحوُ ستِّ مئةِ ميلٍ[2]، أي مَسِيرةٌ أَقَلُّها عشرةُ أيام بالبحر، وخمسةٌ وعشرون يوماً بالبرِّ، وهذا يجعلُ قيامَ موسم الشِحْر في الخامس عشر من شعبان مُسْتحيلاً. . .

٥ ـ التقَوُّلُ على المرزوقي ما لم يَقُلْهُ في مَوْعِدَيْ نطاة وحَجْر:

وفي تَعْيينِهِ موعدَ قيام سُوقَيْ نَطَاة بخَيْبر، وحَجْرٍ باليمامة، قَوَّل المرزوقيَّ ما لم يَقُلْهُ في قيامهما، فنَسَبَ إليه أنه جعل زمنَ نطاة «بعد زمنِ سوق ذي المجاز، أي بعد أشْهُر الحج، وقبل أن تبتدىءَ سوقُ حَجْرٍ»[3]. . . وهذا غيرُ صحيح، لأن المرزوقيَّ لم يفعلْ سوى النصّ على أسواق ذي المجاز ونطاة وحَجْرٍ كعنوانٍ للحديث عنها، ثم عيَّنَ موسمَ ذي المجاز، وسكت عن الآخَرَيْن[4]. . .

٦ ـ غَلَطُهُ في تعيين مواعيد أسواق الشام:

وفي كلامه على أسواق الشام، زَعم من غير سَنَدٍ أن مواعيدها تقع بعد الحجِّ، وقال: «كان العربُ إذا أنهَوْا حجَّهم، ورجعت وفودُ البلدان، نظَّموا عِيرَهُم، وتَهيَّؤُوا للسفر إلى الشام، فأقاموا تجاراتهم فيها، وبَدؤوا بسوق دَيْر أيُّوب»، فهي أوَّلُ أسواق الشام قياماً[5]. . . مع أن المرزوقي لم يُعيِّنْ مواعيد

---

(١) أسواق العرب: ٢٢٠.
(٢) بلوغ الأرب: ١/ ١٨٦.
(٣) أسواق العرب: ٣٥٧.
(٤) الأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٥.
(٥) أسواق العرب: ٣٦٣.

أسواق الشام، بل روى عن ابن كُنَاسَة قَولَهُ: «إذا غابت الثريًا مع غُيوب الشمس، لم تَرَها أربعين يوماً، فذلك أُفُولها... وأهلُ الشام يُطْلِعونها لخمسٍ وعشرين، من غير أن تَطْلُعَ أو يَرَوْها، فيقيمون أسواقهم، وتقوم سوقُ دير أيوب...»[١]. والنصُّ بهذا الشكل لا يُفهم منه ما قرَّرهُ الأفغاني في مواعيد أسواق الشام، إلا إذا ثبت لديه أن الثريًا تطلع أواخر ذي الحجة، أو في المحرَّم، وهو ما أَقْطعُ بغَلَطِهِ، لأنه لم يبحث في شيءٍ من هذا القبيل... فالتحقُّقُ من الموعد الذي عيَّنهُ ابنُ كناسة يقتضي أولاً معرفةَ زمنِ أُفُول الثريا وطُلوعِها متى يكون، ولا سيما عند أهل الشام، ذلك أن «كلَّ بلدٍ شماليّ فالكواكبُ الشامِيَّةُ فيه تطلعُ قبل طلوعها في البلد الجنوبي»[٢] والثُريّا من الكواكب الشاميَّة، تَأْفُلُ عند أهل الحجاز في نحو الثالث من نيسان (أبريل)، وتطلُعُ في العَشْر الأوسط من أيار (مايو)[٣]، أو في نَحْوِ الثالث عَشَرَ منه[٤]، فتكون مدةُ أُفُولها أربعين يوماً. ويبدو أنها تأفُل في الشام قبل الثالث من نيسان، ويفتتحون سوق دير أيوب بانقضَاءِ خمسةٍ وعشرين يوماً على أُفُولها، فيكون موعدُ السوق في العشر الأخير من نيسان، وهو ما ذكره القزوينيُّ عندما عيَّن الثالثَ والعشرين من نَيْسانَ موعداً لانعقاد السوق[٥]... وذلك ما سنشرحه بالتفصيل في حديثنا عن أسواق الشام، غير أنه لا بدَّ لنا من الإشارة إلى أن نيسان لم يكن يومئذٍ يقع في ذي الحجة أو المحرَّم وإنما في شهر آخر من الشهور القمرية، هو رجب المحرَّم، وهذا ما

---

(١) الأزمنة والأمكنة: ٢/١٦٩.

(٢) ابن قتيبة ـ كتاب الأنواء: ١٠، ١١.

(٣) لسان العرب: ١٢/ ٥٧٠ (نجم).

(٤) الأزمنة والأنواء: ١٦١.

(٥) عجائب المخلوقات: ١١٨.

شرحناهُ آنفاً في كلامنا على الأزمنة والمواسم في الجاهلية.

٧ ـ غَلَطُه فيما عَزاهُ إلى البغدادي:

والغريبُ أن الأفغاني عندما ذكر في كتابه الأسواقَ التي وجدها في خزانة الأدب للبغدادي، أشار إلى أنها منقولةٌ عن صاحب كتاب «قبائل العرب»[(١)]، أي القلقشندي، وقد أَدْرَجَ قبل ذلك مباشرةً ما ذكره القلقشنديُّ في كتابه: صُبح الأعشىٰ، وهو مُطابِقٌ تماماً لما ذكره أيضاً في كتابه الآخَر: نهايةِ الأرب، فلم يُشِرِ الأفغاني صراحةً أو تلميحاً إلى أنه اطَّلع على كتاب قبائل العرب، أو أخذ عنه شيئاً! هذا من جانبٍ أوَّل، ومن جانبٍ آخَر لا يوجد بين ما عَدَّدَهُ البغدادي والقلقشندي موافقةٌ لا في عدد الأسواق، ولا في مواسمها، ولا في مواضِعها، لأن البغدادي في الحقيقة اعتمد، كما أشرنا في حديثنا عنه، موارِدَ لم يصلْ إلينا العلمُ بها، ولعلَّها مخطوطاتٌ اتفق له الاطلاعُ عليها، والنقلُ عنها.

٨ ـ غلَطُه في تفسير كلمة الأحابيش:

وفي كلامه على زُوَّار سوق عكاظ قال: «ينزلُ السوقَ قريشٌ وهَوَازِنُ وغَطَفانُ وخُزَاعَة والأحابيشُ وعَضَلٌ والمُصْطَلَقُ وطوائفُ من أفْناءِ العرب»[(٢)]، وعَزَا الكلامَ إلى المرزوقي. ولكن القسم الأخير من النصِّ جاء بشكل آخَرَ عند المرزوقي هو: «... **الأحابيشُ**، وهم: عَضَلٌ والمُصْطَلَقُ

---

(١) أسواق العرب: ٢٢٣، «وهو يريد كتابَ قلائِد الجُمَان في التعريف بقبائل عرب الزمان، وقد نظرتُ في الطبعة التي حقَّقها إبراهيم الأبياري، ونَشَرتْها دار الكتب الحديثة بمصر (١٣٨٣ هـ = ١٩٦٣ م)، فلم أجِدْ شيئاً عن أسواق العرب».

(٢) أسواق العرب: ٢٩١.

وطوائفُ من أَفْناءِ العرب»[1]. . . والفرقُ بينهما ليس بالأمر اليسير كما يَتَبادرُ للبعض، ولا سيما إذا علمنا أن الأفغاني استعمل، في كثير من المواضع، كلمات الحبشة والأحباش والأحابيش بمعنى واحد[2]، وهو غلطٌ منه وتفريط، فالحبشةُ والأحباشُ والحُبْشَانُ أبناءُ بلاد الحبشة، بعضُهم قَدِم بلادَ العرب تاجراً، وكَثْرتُهم من العبيد والإمَاءِ المجلوبين إليها، أمّا الأَحَابِيشُ فهم بطونٌ من قبائلَ عربيةٍ مختلفةٍ، اجتمعوا وتحالفوا أن يكونوا يَداً واحدةً على من أراد بهم سُوءً، فسُمُّوا الأَحابِيشَ من التَحبُّشِ وهو التجمُّعُ، ويُطْلَقُ في كلام العرب عادةً على الجماعة من الناس ليسوا من قبيلة واحدة، وهؤلاء كانوا من بني الحارث بن عبد مناة بن كنانة، وبني المُصْطَلَقِ بن سعد والحياءِ بن سعد من خزاعة، وأحياءِ القَارَةِ وعَضَلٍ والدِّيشِ من بني الهَوْنِ بن خُزَيمة[3]. . . وكانوا حُلَفاءَ قريش.

فالأحباشُ إذن أعَاجِمُ، والأَحابيشُ عربٌ، وليسوا أيضاً كما توهَّم الدكتور عمر فَرُّوخ «مزيجاً من العرب والأحباش والزَّنْج»[4]، ولا جاليةً حَبَشيَّةً كما زعم فيليب حتّي بقوله: «ومكةُ إذ ذاك مقامُ جاليةٍ حَبَشيَّةٍ، لعلَّها نصرانيَّةٌ، يُدْعَىٰ أفرادُها الأحابيش. . .»[5]، ومثلُ هذه الأقوال يُخفي وراءَهُ

---

(١) الأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٥.
(٢) أسواق العرب: ٢١، ٢٥، ١٤٠، ١٥٣ وغيرها. . .
(٣) جمهرة أنساب العرب: ١٨٨، ١٩٠، ٢٣٩، ٤٦٨، والمحبَّر: ٢٤٦، وأنساب الأشراف: ١/ ٥٢، والكامل في التاريخ: ١/ ٥٩٤، ومعجم البلدان: ٢/ ٢١٤، والطبقات الكبرى: ٥/ ٥٧، والمعارف: ٦١٦، ولسان العرب: ٦/ ٢٧٨ (حبش)، ونهاية الأرب: ١٦٤، والأغاني: ٢٢/ ٦٦، والمختصر في أخبار البشر: ١/ ١٠٧. . .
(٤) تاريخ صدر الإسلام: ٤٧.
(٥) تاريخ العرب: ١٥٥.

أشياءَ خطيرةً لا محلَّ للتوَسُّع في ذِكْرها هنا. وإنما أوضحنا هذا الأمر لأن الأفغاني أيضاً لم يكن دقيقاً في التفريق بين اللفظَيْن، بل كثيراً ما خلط بينهما، وفضلاً عن تحريفه نصَّ المرزوقي في نزلاء عكاظ كما رأينا، أثْبتَ في حديثه عن ثروة قريش من التجارة، وإعْدادِها لمعركة أُحُد، نصّاً يذكُر الأحابيشَ ويُريد الأحباش، يقول: «وكان عَدَدُ مَن استأجرهم أبو سفيان من الأحابيش فقط ألفين...»[1]! فإن كان القصدُ بالأحابيش حُلَفاءَ قريش من أحياء العرب، فالنصُّ غير صحيح، لأنهم ما كانوا بحاجةٍ إلى استئجارهم، والحلفُ بينهم يُلْزِمُهم بالتآزُر والتعاضُد في الحروب من غير أجر. والذي عليه المؤرِّخون وأهلُ الأخبار أن قريشاً خرجت إلى أُحُد، معها بنو كنانة وأهلُ تِهامَةٍ وحُلَفاؤها من الأحابيش[2]، وكان مع بعضهم عُبْدَانُهم[3]. أما إذا كان القصدُ بالأحابيش في هذا النصّ عُبْدَانَ أهلِ مكة من الحبشة، فالعددُ مُبالَغٌ فيه كثيراً جداً، والقبولُ به يقودُنا إلى الاعتراف بوجود جَوَالٍ من الأعاجم الغرباء بمكة يفوقُ عَدَدُها عَدَدَ أهلِ مكة وتِهامة والحجاز، وهو غير معقول طبعاً.

وأخيراً ما تزال هنالك أشياءُ أَخذتُها على كتاب الأفغاني، ولكني آثرتُ التعرُّضَ لها في مواضِعَ أخرى. على أن ذلك لا يمنع من الاعتراف بما في الكتاب من بعض الأفكار القيِّمة، التي نَوَّهتُ بها، وأفدتُ منها في بعض البحوث.

* * *

---

(١) أسواق العرب: ١٤٠.

(٢) تاريخ الطبري: ٢/ ٥٠١.

(٣) المرجع نفسه: ٢/ ٥١٢.

المطلب السادس ـ المفصَّل في تاريخ العرب قبل الإسلام:

وعَقَدَ الدكتور جواد علي فصلاً كبيراً في كتابه: «المفصَّل»[١]، تحدَّث فيه عن أسواق الجاهلية، فجمع كلَّ ما وقعت عليه يَدُهُ في كتب الأخبار والتاريخ والأدب، ثم أثْبَتَهُ في هذا الفصل كيفما اتَّفَق، من غير أن يتكلَّفَ تحقيقاً أو مُوازنةً، أو تَثَبُّتاً من مَوْضعِ سوقٍ، أو ميقات موسم، بل حتى من غير أن تمتدَّ يَدُهُ إلى ما جَمَعتْ بترتيبٍ أو تنسيق يُعِينُ على التتبُّع والفهم والاستيعاب، بل إنه كان أحياناً يقطعُ كلامه على سوق، ويتحدَّث عن شأن آخر، ثم يعود في موضع آخر لإتمام كلامه[٢]، كما فعل بسوق الشِحْر. . . وقد عَدَّدَ من الأسواق الموسمية في عصر الجاهلية تسعَ عشرةَ سوقاً، فزاد بذلك على ما ذكره الآلوسيُّ أربعاً هي: دَبَا، بَدْرٌ، قَيْنُقَاع، عَثْرٌ. . .

فأَمَّا «قَيْنُقَاع» فاسْمُ قومٍ من اليهود في طَرفٍ من أطراف المدينة، وقد أُضِيفَ إليهم سوقٌ سُمِّيَ سوقَ بني قينقاع[٣]، ولكنْ يُفْهم ممّا جاءَ في بعض الأخبار عند ابن الأثير[٤]، وكذلك عند ابن هشام[٥]، أن هذه السوق كانت محليَّـةً دائمةً، وليست موسميَّـةً، وكان الناسُ يقصدونها أحياناً للامتيار، وربما كان هذا ما أراده جواد علي من الإشارة إليها[٦]. . .

---

(١) المفصَّل في تاريخ العرب قبل الإسلام: صدرت الطبعةُ الأولى منه في بيروت سنة (١٩٧١ م)، وبين أيدينا الطبعةُ الثالثة منه، بيروت (١٩٨٠ م)، الصفحات: ٧/ ٣٦٩ ـ ٣٨٤.

(٢) المرجع نفسه: ٧/ ٣٧٤، ٣٧٧.

(٣) معجم البلدان: ٤/ ٤٢٤.

(٤) الكامل في التاريخ: ١/ ٦٥٩، ٦٧١.

(٥) السيرة النبوية: ١/ ٥٥٢.

(٦) المفصَّل: ٧/ ٣٧١.

وأمَّا «عَثْرٌ أو عَثَّرُ» فذكر ياقوت أنها بلد باليمن[١]، ولم يَزِدْ، وأكَّدَ هذا ابنُ منظور[٢]، والزبيديُّ[٣]، بينما عدَّ اليعقوبي «عَثَّر»من قرى سواحل اليمن[٤]. ولم أعثر في سائر المراجع على ما يُؤيِّد جواد علي في جَعْلِها من الأسواق، ويبدو لي أنه وجَدَها عند الآلوسي مُدْرَجَةً في حديث الأسواق، فظنَّها سوقاً وأضافها إلى جملة الأسواق، مع أن الآلوسي كان يتحدَّث عن بلد باليمن يُسمَّى «هَجَر» بينه وبين «عَثْرٍ»[٥] يومٌ وليلةٌ... وأمَّا «بَدْرٌ» فلم يأتِ فيها بجديدٍ سوى ما بدا له من إمكانِ كونها موضعاً مُقَدَّساً على شاكلة عكاظ[٦]...

وأمَّا سائرُ الأسواق، فلم يَزِدْ فيها شيئاً على ما نَقلهُ من تاريخ اليعقوبيّ، والأزمنة والأمكنة، والمحبَّر، وبلوغِ الأرب، سِوَى سُوءِ العَرْض، ورأيٍ قال فيه: إن تلك الأسواق «خُصِّصَتْ في الغالب بامْتِيارِ الأعراب، وشراء ما عندهم من سِلَعٍ فائضة...»[٧]، وهو قولٌ فيه نَظَرٌ، ذلك أن جواد علي تأثَّر في كتابه بنظرية ابن خلدون التي تجعل العربَ جميعاً أعراباً، فذهب مَذْهَبهُ في التسمية، وعَدَّ اسمَ العرب، كيفما كانت صيغتُه، وأينما وُجِد في وثائق التاريخ القديم، إنما هو إشارةٌ إلى جماعة من الأعراب، ولا سيما أولئك الذين كانوا في وسط الجزيرة وشمالها[٨]...

---

(١) معجم البلدان: ٤/ ٨٤ ـ ٨٥.

(٢) لسان العرب: ٤/ ٥٤٢ (عثر).

(٣) تاج العروس. ١٢/٥٢٨ ـ ٥٢٩ (عثر).

(٤) تاريخ اليعقوبي: ١/ ٢٠١.

(٥) بلوغ الأرب: ١/ ٢٦٥.

(٦) المفصَّل: ٧/ ٣٧٧.

(٧) المرجع نفسه: ٧/ ٣٧٠.

(٨) المفصَّل: ١/ ٥٧٥، ٦٢٩.

والمعروف أن الأعراب ينزلون الفَلَوات عادةً، ويتنقَّلون فيها من مكان إلى آخَر، مساكنُهم الخِيَامُ، ولا يقرُّ لهم قرارٌ في موطن واحد. ولعله أراد أن أهل الحضارة من العرب، في المُدُن والقُرى والحُصُونِ والمعَاقِلِ والأرياف، وكانت منتشرةً في معظم أنحاء جزيرتهم، كانوا يُقيمون أسواقاً في مواسمَ معيَّنةٍ، يُقْبِلُ عليها الأعرابُ من فَلَواتهم، يشترون المُونَةَ والطعام منها لِعِيَالهم. إذ أنه لم يستبعد في موضعٍ آخَر قَصْدَ التجار الأجانب تلك الأسواق، واختلافَ الناس إليها من مَطارِحَ بعيدةٍ، ولأغراضٍ شَتَّى، غيرِ الامتيار[1]، وهذا لا يكون عادةً في أسواق مُخصَّصةٍ بالأعراب.

على أننا نلاحظُ اضطرابَ المعنى في نُصوصِهِ من حديثه عن سوق المشقَّر، فقد ذكر أنها تُقْصَدُ من الأعراب الساكنين في العربيَّة الشرقيَّة، والأعراب القريبين منها، والعربيَّةُ الشرقيَّة يومئذٍ كانت من أكثر بلاد العرب مُدُناً وقُرىً وحصوناً ومِيَاهاً وبساتينَ، مثلَ هَجَرٍ والقطيفِ والخَطِّ ويَبْرِينَ وقَطَر والعُقَيْرِ ودارِينَ وصُحَار ودَبَا ودَما وتُؤَام ومَسْقط ونَزْوَى وغيرها[2]... فإذا كان أهلُ هذه جميعاً أعراباً جُفَاةً، فمن كان أهلُ الحَضَرِ إذن؟ ويبدو اضطرابُ المعنى أشدَّ وضوحاً حينما عاد ليقولَ عن السوق نفسِها: «وقد قصد هذه السوقَ أحياءٌ من العرب، من مختلف أنحاء جزيرة العرب...»[3]، وليطلبَ في مَوْضعٍ آخَر ألاَّ يُنْظَرَ إلى الأسواق الموسمية في عصر الجاهلية، وكأنها كالأسواق التي نعرفها اليوم، «فقد كانت أسواقُ

(١) المفصَّل: ٧/ ٣٧٠ ـ ٣٧١.

(٢) معجم البلدان: ١/ ٣٤٧، و ٢/ ٦٧، ١٧٤، ٣٧٨، و ٣/ ٤١١، و ٥/ ١٢٦، ١٣٤، ٢٨١، ٣٩٣.

(٣) المفصَّل: ٧/ ٣٧٣.

الجاهلية أوْسعَ مجالاً من ذلك بكثير»[1]، ثم ذكر أنها كانت مجَامِعَ للشعر والأدب، ومراكزَ للعُقود والعُهود والاتفاقات، ومواضِعَ لكثير من الشؤون الاجتماعية، ومحاكمَ لِفَضِّ النزاعات المختلفة[2]... وقَرَّر بعدئذٍ أن حال الأسواق الموسمية جميعاً كان في تلك الوظائف سواء[3]...

فهل من الممكن أن يتوافَرَ هذا كلُّه لمجتمعات من الأعراب، في أسواقٍ أُقيمتْ لامْتِيارهم، ومَبيعِ ما فاض عن حاجاتهم من السِّلَع؟ إذا كان ذلك مُمْكناً حقّاً، فما كان أجملَ تلك المجتمعات، وما أبْشَعَ مجتمعاتنا!...

ولئن لم يكن فيما كتبه جواد علي، أو نقله، عن أسواقِ العرب ومواسمهم، كبيرُ نَفْعٍ، لقد كان به نفعٌ كبير في الكشف عن موسم للأنباط، أو النَّبَطِ، قيل إنهم كانوا يُقيمونَهُ على ركنٍ بساحل البحر الأحمر، كان فيه معبدٌ لهم، يحجُّون إليه في شهورهم المحرَّمة، ويعقدون فيه سوقاً كبرى على شاكلة عكاظ[4]. وسنتحدَّثُ عنه في كلامنا على مواسم بلاد الشام المعروفة.

* * *

(١) المفصَّل: ٧/ ٣٨٣.
(٢) المرجع نفسه: ٧/ ٣٨٤.
(٣) المرجع نفسه: ٧/ ٣٨٢.
(٤) المرجع نفسه: ٦/ ٣٩٦.

المطلب السابع ـ في منزل الوحي:

وعقد الدكتور محمد حسين هيكل[1]، في كتابه: «في منزل الوحي»[2]، فصلاً بعنوان «أسواق العرب»، استهلَّهُ بالقول:

«ولستُ أريدُ أن أتحدَّثَ هنا عن أسواق العرب أيّامَ الجاهلية، وفي صدر الإسلام، بوجهٍ عامٍّ، وإنما أُريدُ أن أَتحدَّثَ عمّا له اتِّصالٌ منها بحياة النبيّ العربيّ، وما يَدْخُلُ لذلك في منزل الوحي، وهذه الأسواقُ ثلاثةٌ: عكاظ ومجنَّة وذو المجاز. . .»[3].

وبدأ بحثَهُ فعَجِبَ لأن أحداً لم يُحقِّقِ الزمنَ الذي جعل العربُ يُقيمون فيه سوق عكاظ، وعَرَض للخلاف الواقع بين المؤرِّخين على تحديد ذلك الزمان، ثم لم يُحقِّق فيه شيئاً. . . ثم قال: «وليس تحديدُ المكان الذي كانت عكاظُ تُقام به، بأيْسَرَ من تحديد التاريخ الذي اتُخِذَ هذا المكانُ فيه سُوقاً، وأكثرُ الأقوال في هذا الشأن تَواتُراً أن هذه السوق كانت بين نَخْلةٍ والطائف، لكنّ ما بين نَخْلةٍ والطائف يبلغ الخمسين ميلاً أو يزيد عليها، فأين كانت السوقُ تُقام من قُطْر هذه الدائرة؟ وهل كانت ثابتةً في مكان بذاته أو مُتَنقِّلةً في أماكنَ مختلفةٍ؟ أكثرُ الكُتبَ على أنها كانت ثابتةً في مكان بذاته، لكنّ

---

(١) **محمد بن حسين بن سالم هيكل**: كاتب صحافي، مُؤرِّخ، من أعضاء المجمع اللغوي بمصر، ومن رجال السياسة. درس الحقوق بالقاهرة، وحصل على الدكتوراة من فرنسا، وعمل محامياً، ومُدرِّساً للقانون، وولي وزارةَ المعارف، ورئاسة مجلس الشيوخ. صنَّف كُتباً، طُبع منها: حياة محمد، الصدِّيق أبو بكر، الفاروق عمر، في منزل الوحي. مولده ووفاته بمصر (١٨٨٨ ـ ١٩٥٦ م).

(٢) في منزل الوحي: ٣٦٣ ـ ٣٨٤، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة، طبعة (١٣٥٦ هـ = ١٩٣٧ م).

(٣) المرجع نفسه: ٣٦٣.

تحديدَ هذا المكانِ غيرُ مُحقَّقٍ...»[1]، ولم يستطع هيكل أن يُحقِّق فيه شيئاً، على الرغم من قيامه بزيارة تلك الأماكن، فانتهى إلى ترجيح قيامها بالسيل الكبير أو على مَقْرُبةٍ منه، في مَوضعٍ يُسمَّى: الخُرَّ من وادي غَسَلة[2]... وتحدَّث كذلك عن موقع سوق مجنَّة، فرجَّح أنها كانت تقامُ بين الشرائع والجِعْرانة إلى شمالها، والطريقُ بينهما هو طريقُ مجنَّة[3]، وذكر في موضع آخر أنها تقع عند الجِعْرانة في رأي، وفيما وراءَ التنعيم في رأيٍ آخَر. وأمّا ذو المجاز فهو على يمين الموقف من عرفة[4].

ومما يُذكر في هذا الحديث، أن الأفغانيَّ، وبالرغم من ذهابه في تحديد موقع عكاظ إلى سَرْد ما قاله الرواةُ وبعضُ الباحثين من غير استقراءٍ ولا تحقُّق، عَتَبَ على هيكل خُلوَّ مراجعه من ذكر كتابه: أسواق العرب، مع أنه نُشِر قبل كتاب هيكل بنحو عشرة أشهر، وقال: «وكان الظنُّ بمثله أن يطَّلعَ على الكتاب، ويُنَوِّهَ به...»[5]! وأعتقد أن الدكتور هيكل غيرُ مَلُومٍ إن هو فعل ذلك حقّاً، فقد رجعَ إلى المراجع نفسِها التي رجع إليها الأفغانيُّ في كتابه، وزاد عليه بزيارته للأماكن كلِّها، التي زعم الرواةُ أن سوق عكاظ كانت تقومُ عليها، ثم انتهى إلى ترجيح روايةٍ من تلك الروايات.

أمّا في تحديد المواعيد، التي كانت أسواقُ عكاظ ومجنَّة وذي المجاز تنعقدُ فيها من كل سنة، فإن الدكتور هيكل أثْبَتَ رواية الأزرقي غالباً، وقال:

---

(١) في منزل الوحي: ٣٦٤.

(٢) المرجع نفسه: ٣٦٤ و ٣٨٢.

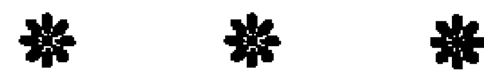
(٣) المرجع نفسه: ٢٩٨.

(٤) المرجع نفسه: ٣٨٣.

(٥) أسواق العرب في الجاهلية والإسلام: ٢٨٦ ـ ٢٨٧.

«على أن الخلافَ في تحديدِ هذا المكانِ، الذي كانت تقومُ به عكاظ، والزمانِ الذي أُنشِئتْ فيه، لا يتَّصِلُ بتصوير ما كان يقع بها أثناء إقامتها، ولا بالموعد الذي كانت تقام فيه، فاتفاقُ المؤرِّخين على أن العرب كانوا إذا أزْمَعُوا الحجَّ إلى مكة من أصقاع شبه الجزيرة، جعلوا عكاظاً موعدَهم في هلال ذي القعدة، فأقاموا بها عشرين يوماً، ثم انصرفوا إلى مجنَّة فأقاموا بها عشْراً، فإذا رأَوْا هلالَ ذي الحجة انصرفوا إلى ذي المجاز فأقامُوا أسواقَهم به ثماني ليالٍ، ثم تَرَوَّوْا من مائها في اليوم الثامن، وخرجوا إلى عَرَفَة . . .»[1].

وتحدَّث هيكل أيضاً عمَّا كان يجري في سوق عكاظ، حديثاً مُقْتَضَباً، بنَىٰ عليه أحكاماً سنعود إلى عَرْضها ومُناقَشَتها ونَقْدِها في كلامنا على سوق عكاظ.



المطلب الثامن ـ موقع عكاظ:

ثم نشَر الدكتور عبدُ الوهاب عزّام[2] أبحاثاً في كُتيِّبٍ سمَّاهُ: مَوْقع عكاظ[3] . . . كتب فيه مقالاً عن مَوْقعِ عكاظ بعدما زار مَوْضِعَها للتحقُّق منه،

---

(١) في منزل الوحي: ٣٦٥.

(٢) **عبد الوهاب محمد عزَّام**: (١٨٩٤ ـ ١٩٥٩ م)، دكتور في الأدب الفارسي من لندن، درَّس الفارسيَّة في كلية الآداب بجامعة القاهرة، ثم صار عميداً للكلية، فسفيراً لمصر في السعودية ثم في الباكستان. وهو من أعضاء المجامع العلمية في سورية ومصر والعراق وإيران، يُحْسِنُ الفرنسية والإنكليزية والفارسية والتركية والأرديَّة. له عدَّةُ كتب مطبوعة. توفي بالرياض.

(٣) موقع عكاظ: دار المعارف بمصر ـ طبعة (١٩٥٠ م = ١٣٦٩ هـ)، والصفحات (١ ـ ٣٠) منه للدكتور عزام، وهي بعنوان موقع عكاظ، والصفحات (٣١ ـ ٤١) منه للشيخ ابن بليهد، والصفحات (٤٣ ـ ٧٢) منه للشيخ الجاسر، وهي بعنوان: موقع سوق عكاظ.

وألْحَقَ به مقالاً كتبه الشيخُ محمد بنُ بُلَيْهد النجديُّ، ومقالاً آخَرَ للأديب المحقِّق الشيخ حَمَد الجاسر النجديّ، في الموضوع نفسه، وقال: «هذه مقالاتٌ فيها القولُ الفَصْلُ في مكان سوق عكاظ، جمعتُ ما جاء في أُمَّهات الكتب عن موقع عكاظ وشأنِهِ، حين عزمتُ على الذهاب إلى الموضع الذي غلب على الظن أنه عكاظ، ثم كتبتُ المقالَ بعد أن شَهِدْتُ المكان، وأيْقَنتُ بالأَدِلَّة الكثيرة أنه هو. . .»[1]، ونَوَّه في مقدمته بأنه وَجد في كتاب الأفغاني أقوالاً في تعيين مكان عكاظ ليست صواباً، وإن كان فيه وفاءٌ بأخبار عكاظ[2]، جعله يَجتَزِىءُ في مقاله بكلمة موجزة، تحدَّث فيها عن شأن عكاظ وحُرْمَتِهِ، وبعضِ ماكان يجري فيه من أمور تدلُّ على عِظم شأنِهِ عند العرب. ولم يَرِدْ في هذه المقالات شيءٌ آخَرُ عن زمان عكاظ وموسمه، أو عن الأسواق الموسمية الأخرى. ولنا عودةٌ للحديث عمّا جاء في أبحاث هؤلاء الباحثين الأفاضل عندما نتكلَّم على سوق عكاظ.



المطلب التاسع ـ الأطلس التاريخي للدولة السعودية:

كتب الدكتور «إبراهيم جمعة» في الأطلس التاريخي فصلاً تحدَّث فيه عن أسواق العرب، فقال: «تذكر المصادرُ أسواقَ الجاهلية، وتفيضُ أحياناً في وصفها، يذكرها الألوسي في بلوغ الأرب، والمرزوقي في الأزمنة والأمكنة، والبغدادي في خزانة الأدب، واليعقوبي في كتاب البلدان، والهمداني في صفة جزيرة العرب، والقلقشندي في صبح الأعشى. . . يذكر

---

(١) موقع عكاظ: ٣.
(٢) المرجع نفسه: ٥.

البعضُ الأسواق على طريق الرحلة بين حوض المتوسط وعدن، والأسواق على الطريق المتجهة شرقاً عبر الجزيرة إلى الخليج والعراق، ويذكر أماكنها وأزمان إقامتها وواليها وجابي عُشُورها، ويكتفي البعضُ بالقليل منها، يذكره دون زمان أو مكان، فإن حاول تحديدَ المكان فهو التحديد الذي لا يُفيد. . . ويمكن الاستفادةُ مما كتب هؤلاء جميعاً، إذا أُضيف بعضُه إلى بعض أعطى قسطاً من المعلومات المتكاملة، وسنكتفي برواية الألوسي مع التعقيب عليها. . . »[1].

واعتقدتُ بعد هذا الكلام، أنني سأجِدُ عن أسواق العرب في الجاهلية بحثاً جديداً مُوَثَّقاً، مُعَقَّباً عليه بمعلوماتٍ قَيِّمةٍ، مع شيءٍ من الإفاضَةِ أو الفَيْضِ في الوصفِ[2]، الذي أشار إليه المؤلّفُ، ولا سيما أن موضوع الأطلس تاريخيٌّ، يقومُ في أساسه على تحقيق المواضع التاريخية في جزيرة العرب، وتعيين مراكز التجارة الكبرى وطُرُقِها الرئيسة فيها، وبيانِ المَواطِنِ التي كانت تنزِلُها منها قبائلُ العرب قبل الإسلام. . . ولكنني نظرتُ فوجدتُ الباحثَ الكريم سَرَدَ ممّا عَدَّهُ الآلوسيُّ ثلاثَ عشرةَ سوقاً فقط، وغَفَلَ عن ذِكْر سُوقَيْ نَطَاةٍ بخَيْبَر وحَجْرٍ باليمَامة، حاكِياً مُحَاكَاةً مُرِيبةً الجدولَ الذي نظمه الأفغانيُّ للأسواق كما وجدها عند الآلوسي، بالسَّهْوِ والعِبَاراتِ والمواقيت والأخطاءِ نفسِها، إلا في الترتيب، إذ جَعلَ سوقَ حضرموت آخِراً! . . . ثم كان جُلّ ما فعله بعد ذلك أنه جمع، إلى ما زعم أنها أقوالُ الآلوسي، عباراتٍ ادَّعَىٰ أنه نقلها عن البغدادي والمرزوقي والقلقشندي

---

(١) الأطلس التاريخي للدولة السعودية: مطبوعات دارة الملك عبد العزيز ـ الرياض (١٣٩٨ هـ = ١٩٧٧ م) ـ الصفحتان ٢ و ٣ من الملحقات بالأطلس.

(٢) **الإفاضة**: الإندفاع بسرعة، يقال: أفاض القومُ في الحديث أي اندفعوا فيه وأسرعوا، ومنه الإفاضة في مناسك الحج. **والفَيْضُ**: الكثرة والامْتِلاءُ والسَّيَلانُ.

واليعقوبي، وألَّف بينها على الخَبْطِ والهوى، من غير سبب واضح لاختياره عبارةً دون أُخْرى، ومن غير أن يُحقِّق فيها شيئاً، بل إنه كثيراً ما حَرَّفَ الكلمات عن مواضعها، ممّا يدفعُ إلى الظنّ بأن الرجُلَ لم يطَّلِعْ على تلك المراجع، ولم يَقْرَءْ شيئاً ممّا كتبهُ الآلوسيُّ في موضوع الأسواق، ولكنه أغار على خمسِ صفحاتٍ فقط من كتاب الأستاذ الأفغاني جُعِلَتْ جداولَ بأعْدادِ الأسواق ومواقيتِ قيامها ووُلاَتِها، كما حَقَّقَها عند اليعقوبي والمرزوقي والقلقشندي والبغدادي والآلوسي[١]، فألَّفَ الباحثُ الكريم بين ما جاء فيها من المعلومات المُختَزَلةِ تأليفاً مُنكَراً، أسَاءَ به إساءَةً كبرى إلى موضوع الأسواق، سامحه الله.

١ ـ وعلى سبيل المثال، ذكر الآلوسي أن العرب كانوا ينزلون سوقَ دُومَةِ الجَنْدَلِ أولَ يومٍ من ربيع الأول، وكان أُكَيْدِر ملكُ دُومَةِ الجَنْدَل يرعَى الناسَ فيها ويقومُ بأمرهم ويَعْشُرهم، فتقوم السوقُ إلى نصف الشهر، فإذا غلب على السوق بنو كلب، وهم أهلُها وجيرانها، قامت السوق إلى آخر الشهر، وعشَّر الناسَ فيها بعضُ رؤساء بني كلب[٢]. . . فانْظُرْ إلى هذا النصّ كيف جاء عند الباحث، قال: «ويذكر الآلوسيُّ أن سوق دومة الجندل تُعْقَدُ في ربيع الأول (البغدادي من ١ ـ ١٥ ربيع الأول)، ولا يذكر الآلوسي وَالِيها أو عاشِرَها، ويذكرهُ المرزوقي على أنه الأُكَيْدِرُ صاحبُ دُومَةِ الجندل، كما يذكرون بني كلب. . .»[٣]. ولو قرأ نصَّ الآلوسيّ حقّاً لمَا وقع فيما رأيناه من الغَلَطِ القبيح، ولكنه نظر في الجدول الذي أَعدَّهُ الأفغاني بأسواق

(١) أسواق العرب: ٢١٨ و ٢٢١ ـ ٢٢٤.
(٢) بلوغ الأرب: ١/ ٢٦٤ ـ ٢٦٥.
(٣) الملحق بالأطلس التاريخي: الفقرة الأولى من الصفحة الثانية.

الآلوسي، فلم يجد فيه غير عبارةٍ واحدةٍ عن دُومة الجندل تُعيِّنُ قيامها في ربيع الأول، فظنَّ ذلك كلَّ ما قاله الألوسي.

٢ ـ مثالٌ ثانٍ... زَعَم الباحثُ أن الآلوسي قال: إن سوق المُشَقَّر تُعقَدُ في جُمادَىٰ الثانية، وأن اليعقوبي قال: إن جابيها «تَيْمٌ» رَهْطُ المنذر بن ساوى... وأن المرزوقي قال: إن واليها من بني عبد الله بن زيد رَهْطِ المنذر بن ساوى... والواقع أن الآلوسي لم يَقُلْ: في جُمادَىٰ الثانية، وإنما: «في أول جُمَادَىٰ الآخِرة»[1]، والعربُ عادةً لا تستعملُ تعبيرَ جُمادَى الثانية، أو ربيعٍ الثاني، فذلك يعني وجود ثالث ورابع... ولكن الأفغاني استعمل هذا التعبير فنقله عنه إبراهيم جمعة كما وَجَدَهُ من غير تَدبُّر... كما أن اليعقوبي لم يَقُلْ إن جابي سوق المشقَّرِ تَيْمٌ، وإنما قال: وتقومُ بها بنو تميم، والقَوَامَةُ هنا بمعنى الإمارة والولاية والرئاسة، وإن كانت العشورُ تُجَبىٰ إليهم. وقد أصاب كلمة «تميم» في الطباعة تصحيفٌ فصارت بني تَيْم، فلم يفطن إليها الباحث، وأبْقاها على ماجاءت، وكان الظنُّ بمثله، وقد تصدَّىٰ لإصدار أطلس تاريخي كبير، أن يكون على علم بأن بني تميم كانوا من أهل الخليج العربي، وولاةَ أمور البحرين وهجر والمُشقَّر وغيرها، وأن المنذر بن ساوَىٰ أحَدُ ملوكِ بني تميم، من عشيرة عبد الله بن زيد بن عبد الله بن دارم[2].

٣ ـ مثال ثالث... ذكر الآلوسي أن سوق عدن تقوم إلى أيام من رمضان[3]، فَعَزا إليه الباحثُ قَوْلَهُ إنها تُعقَدُ من أول رمضان إلى

(١) بلوغ الأرب: ١/ ٢٦٥.

(٢) جمهرة أنساب العرب: ٢٣٢.

(٣) بلوغ الأرب: ١/ ٢٦٦.

الخامس عشر منه، وهو قولٌ حمله الأفغاني خطأً على الآلوسي، فنقله جمعة من غير تَبصُّر... وزاد على ذلك فقال: «ويذكر المرزوقي أن وُلاتَها وجُبَاةَ عُشُورها من: **الأَقْنَاء**...»، وكرَّر القولَ نفسَه في سوق صنعاء فقال: «ويذكر اليعقوبي أن وُلاتَها وجُبَاةَ عشورها من: **الأَقْنَاء**...»، وكنتُ أسأل نفسي وأُكرِّرُ السؤال عمَّا تعنيه كلمةُ الأَقْناءِ هذه التي يُصِرُّ عليها الباحث، حتى وصلتُ إلى حديثه عن سوق عكاظ، فوجدتُ أنه أثبتَ موعدَ قيامها من أول ذي القعدة إلى العشرين منه، كما ذكره الأفغاني عن الآلوسي، مع أن الأخير لم يقطع بموعد مُعيَّن، وإنما ذكر فيه أقوالاً مختلفةً، منها قيامُها في هذا الوقت، ومنها قيامُها في شهر شوال، أو من نصف ذي القعدة إلى آخره، وقال: لعلّ ذلك لاختلاف العادة في السنين، أو لاختلاف القبائل في الإقامة في هذا الموسم[1]... ثم تحدَّث عن نزلاء عكاظ في الحاشية فقال: وتنزلها قريشٌ وغطفان وهوازن وخُزَاعة وثقيف والأحابيشُ وطوائف من (**أَقْنَاءِ**) العرب، **والأَقْنَاءُ**: هم الذين أَقْنَاهُم اللَّهُ أي أعطاهم!

وهكذا أَطْلَعَنا الباحثُ على معنى كلمة «أَقْناء»، وعرفنا منه أن الذين حكموا عَدَن وصنعاءَ، والذين زاروا سُوقَ عكاظَ كانوا جميعاً «مِمَّن أَقْناهُم اللَّهُ أي أعطاهم»[2]، وهو معنىً طريفٌ تأوَّلَهُ الباحثُ الكريم على غير مِثَالٍ سابق، فكان هو السابق إليه... والحقيقةُ المُرَّةُ أن الرجُلَ لا يجهلُ تاريخَ العرب وحسْب، وإنما يجهلُ لغتَهم أيضاً، فضلاً عن جهله القراءةَ السليمةَ، وما عسَاهُ أن يقعَ أحياناً على الكلمات من التصحيف الذي يُغيِّر لفظها ومعناها!... والعبارةُ كما جاءت عند اليعقوبي في كلامه على وُلاَةِ

---

(١) بلوغ الأرب: ١/ ٢٧٠.

(٢) الأطلس التاريخي: حاشية رقم ٢ في الصفحة الثانية من الملاحق.

سُوقَيْ عدن وصنعاء هي: «ويَعْشُرهم بها **الأَبْناءُ**...»[(١)]، وكما جاءت عند المرزوقي في حديثه عن سوق عدن هي: «... وآخِرُ من عَشَّرَهُم **الأبناءُ** من فارس»[(٢)]، وفي حديثه عن القبائل التي تنزلُ سوق عكاظ هي: «... وطوائفُ من **أَفْناءِ** العرب»[(٣)]...!

ونحن هنا إذن حِيَالَ كلمتين حَرَّفَهما الباحثُ، **الأولى: الأبناء**، وهم أولادُ الفُرس الذين أرسلهم كسرى إلى اليمن مع الملك سيف بن ذي يَزَن، فأعانوه في حربه على الحبشة، ثم ظلوا هنالك، وتزوَّجوا في العرب، فغلب على أولادهم اسمُ الأبناء[(٤)]، كيلا يُقالَ لهم الهُجَنَاءُ، لأن أمهاتهم من غير جنس آبائهم، ولم يكن لهم في العرب نَسَبٌ، ولا كان من عادة العرب أن تُزوِّج بناتها من أعاجم... **والكلمةُ الثانية: الأَفناءُ**، ومعناها الأَخْلاطُ، ورَجُلٌ من أَفْنَاءِ القبائل أي لا يُدْرَىٰ من أيّ قبيلةٍ هو، ويُقال: قومٌ من أفْناءِ القبائل أي خليطٌ من قبائلَ مختلفةٍ[(٥)].

وفوق ذلك كله ليس في كلام العرب شيءٌ اسْمُهُ الأقْناءُ، بمعنى الذين أعطاهم الله، وإن كان معنى الفِعل منها كذلك، كقولنا: أَقْنَاهُ الله أي أغناهُ وأعطاه ما يَقْتَني، وإنما جاءتِ الأَقْناءُ جمعاً للقِنْوِ أي العِذْق، وهو من النخل كالعنقود من العنب[(٦)]... ولا أعتقد أن غلطاً كهذا، يَشْتَطُّ الباحثُ فيه،

---

(١) تاريخ اليعقوبي: ١/ ٢٧٠.

(٢) الأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٤.

(٣) المرجع نفسه: ٢/ ١٦٥.

(٤) لسان العرب: ١٤/ ٩١ (بنا)، والمحبَّر: ٢٦٦.

(٥) لسان العرب: ١٥/ ١٦٥ (فنا).

(٦) تهذيب الصحاح: ١٠٥٤، والمنجد: ٦٥٩.

فيَتَأَوَّلُهُ ويجمعُ إلى جهله بالتاريخ جهلاً باللغة، يمكن أن يُعذَرَ عليه مهما كانت مَعاذِيرُه!

٤ ـ مثال رابع... ذكر أيضاً أن سوق حُبَاشَة لم يذكرها أحدٌ من المؤرِّخين غير الآلوسي! وهو غير صحيح قطعاً، فالآلوسي أخذها عن الأزرقي الذي تفرَّدَ بالإشارة إليها في أخبار مكة[١]... ثم أكَّد وجودها ياقوت الحموي، وكان الخلافُ في صورة لَفْظِها السببَ في تصنيفه كتابَهُ القَيِّمَ «معجم البلدان»[٢]. ولكن الباحث اكتفى بالنظر في جدول الأفغاني، الذي نظمه للأسواق كما وردت عند المُصَنِّفين، ولم يكن بينهم الأزرقيُّ ولا ياقوتُ، فَتَوهَّم أن الآلوسيَّ هو الذي انفرد بذكر سوق حباشة.

٥ ـ مثال خامس... ذكر أن اليعقوبيَّ مُتَّفِقٌ مع المرزوقيّ في قيام سوق صُحَار أول يوم من رجب.. وهو غير صحيح، ولو قرأ المرزوقيَّ لوجد أنه لم يَقُلْ ذلك وإنما ذكر أن الناس ترتحلُ من المشقَّر بالبحرين أولَ يوم من رجب، فتصلُ إلى صُحَارَ بعُمَان «لعشرين يوماً تمضي من رجب»[٣]، فتنعقد أسواقُهم بها خمسةَ أيام!... ليس هذا وحسب، بل إن الباحث زعم أن المرزوقيَّ قال: إن والي صُحَار وجابي عُشُورِها من «**الجَلَنْد**»!... ولا يوجد في مراجع الأنساب عند العرب قومٌ لهم هذا الإسْمُ، ولا يوجدُ أيضاً في مراجع اللغة شيءٌ اسمهُ الجَلَنْدُ، والمرزوقيُّ لم يقُلْ ذلك، وإنما قال: فكان **الجُلَنْدَىٰ** يعشُرهم فيها[٤]... ولم يكن الباحثُ يعلم أن الجُلَنْدَىٰ بنَ

(١) أخبار مكة: ١/١٩٢.

(٢) معجم البلدان: ١/١٠ و ٢/٢١٠.

(٣) الأزمنة والأمكنة: ٢/١٦٣.

(٤) المرجع نفسه.

كَرْكَرَ بنِ المُسْتكبر الأَزْديّ كان مَلكَ عُمَان[1]، وأنه والدُ جَيْفَر وعبَّاد اللذين كتب إليهما رسولُ الله فأسْلَما، فتوهَّم أنه الجَلَنْدِيُّ، نُسِبَ إلى الجَلَنْد، فأثْبَتَ الكلمة كما اكتَشَفها سامحه الله.

٦ ـ مثَالٌ أخير على سُقْم ما قدَّمهُ إبراهيمُ جُمعة في حديث الأسواق، هو شكْواهُ أن جميع المُصَنِّفين، طبعاً كما وَجَدَ في جدول الأفغاني، لم يذكروا شيئاً عن وُلاَةِ سوق مجنَّة وجُبَاةِ عُشُورِها، ويبدو أنه حَسبَ الأمرَ إهمالاً أو سهواً، فقال: ولا بدَّ أنهم كانوا من سادة قريش أصحاب التجارة. . . والغريب أنه لم يُقَدِّم لنا هذه الملاحظة في سوق ذي المجاز، مع أنها كانت كذلك ليس بها ولاةٌ ولا جُبَاةُ عشور!. . . ولا شك في أنه يجهل أن المجنَّة وذا المجاز كانتا من مواسم الحجّ، وأن أرضهما مُحرَّمة، ولذلك لم يكن بهما مكَّاس ولا عشَّار، لا من قريش ولا من غيرها.

* * *

المطلب العاشر ـ الشعراء الصعاليك:

وكتب الدكتور «يوسف خليف» فصلاً طيّباً في كتابه: «الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي»[2]، أشار فيه إلى خمسَ عشرةَ سوقاً من الأسواق الموسمية عند عرب الجاهلية، نقلاً عن اليعقوبي وابن حبيب وياقوت الحموي، ولم يُعْنَ كثيراً بتحقيق مواضعها، ولا بذكر مواقيت انعقادها، ولكنه بحث في أسباب نشوئها على طول الطرق التجارية، وحول

---

(١) جمهرة أنساب العرب: ٣٨٤.

(٢) الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي: دار المعارف بمصر، الطبعة الأولى ١٩٥٩ م ـ الصفحات (١٢٦ ـ ١٣٢).

مراكز التجارة الرئيسة، كما بحث في تَوزُّعِها على منطقتين، إحداهما بلادٌ لها حكومةٌ ترعَىٰ الناسَ، وتحفظُ الحقوق، والأخرى تحكمُها القبائلُ في البوادي، ثم خَلُصَ من هذا البحث إلى بيان العلاقة التي كانت قائمةً بين هذه الأسواق وطائفة الصعاليك عند العرب، وهو ما سنتحدَّث عنه في موضعه إن شاء الله.

* * *

* الخـلاصـة:

إذا أردنا أن نُلخِّصَ ما توصَّلنا إليه من عَرَضْ أقوالِ المُحْدَثين، في المواسم العامَّة عند العرب، ومُنَاقَشتِها، ونَقْدِها، قلنا إنهم كادوا يكونون جميعاً مُتَّفِقينَ على خَطَرِها، وعُمْقِ تأثيرها ودَوْرِها في حياة العرب، وإن كانوا مختلفين في عدد ما ذكروه منها، أو في تعيين مواعيدها ومواقعها.

١ ـ ذكر الآلوسي خمسةَ عَشَر موسماً، إثنان منها مُقْحَمَانِ فيها من غير حجَّةٍ أو سَنَد، وهما: سوقُ هَجَر وسوقُ عُمَان، فيبقى ثلاثة عشر فقط، أي أنه نَقَص من المواسم ثلاثةً هي: دَبَا، ونجرانُ، وبَدْرٌ، ولم يأتِ بجديد.

٢ ـ ذكر زيدانُ اثنَيْ عَشَرَ موسماً، وزعم أنه نقلها عن القلقشندي، مع أن الرجل لم يذكر في كتابه غير ثمانيةٍ. ويبدو أنه نقل ما ذكره الآلوسيُّ، ونَقَص منه ثلاثةً هي: ذو المجاز، وحَجْر اليمامة، ونطاة خيبر.

٣ ـ ذكر الرافعيُّ ما ذكرهُ الآلوسيُّ، إلا مَوْسميْ حَجْرٍ ونَطَاةٍ، وزاد على ذلك أربعةَ أسواق هي: الأُبُلَّةُ، وبَقَّةُ، والأنبارُ، والحيرةُ، وقال إنها كانت تقوم بين دُورِ العرب ودُورِ العجم، وكانت أَوْسَعَ أبواب الدَّخِيلِ والمُعَرَّب في لغة العرب، فجَدِيدُه إذن: الأُبُلَّةُ وبقَّةُ والانبار.

٤ ـ ذكر الأفغاني عشرين موسماً، ستةَ عَشَر منها في جزيرة العرب، زاد فيها على ما ذكره الآلوسيُّ موسمَ دَبَا بعُمان، وثلاثةٌ منها في الشام هي: دير أيوب، وبصرى، وأذرعات أخذها عن المرزوقي، وموسمٌ واحد في العراق هو: الحيرة، أخذه عن الأصفهاني، وأضاف إلى ذلك كله سوق المِرْبَد لما كان له من الآثار العظيمة.

ولئن حاول الآلوسيُّ أن يُؤرِّخَ لمواسم الأسواق العامَّة، لقد جاء حديثه عنها مُقْتَضَباً، غيرَ مُوَثَّق، وإن عَدَّهُ مَن عاصَروهُ أو جاؤوا بعده مَرْجِعاً، ولكن الأفغانيَّ بَذَلَ جُهداً مشكوراً، في كتابٍ أفْرَدَهُ للمواسم وتاريخها... وقد أخذنا عليه سَرْدَهُ مختلفَ الوقائع والأخبار من غير تحقيق، أو نقدٍ، أو موازنةٍ بينها وبين أمثالها، وتقبّلها جميعاً قَبُولاً حَسَناً، وأَثْبَتَها في كتابه كما وجدها، أو نُقِلتْ إليه، ولا سيما اتّهامه المرزوقي بالسرقة من ابن حبيب، مستنداً إلى إشارةٍ تلقَّاها من صديقه المستشرق كرنكو، مع أن الأخير لم يكن على حَقٍّ... هذا إلى أمورٍ أخرى أخذتُها عليه في مناقشتي لكتابه وتعليقي عليه، منها تعيينُه مواعيد مواسم الشام تَخْميناً وتَرْجِيحاً.

٥ ـ ذكر جواد علي تسعة عَشَرَ موسماً، فزاد بذلك على الآلوسيّ أربعةَ مواسم، هي: دبا، وبَدْرٌ، وقينقاع، وعَثْرٌ... ولم يَثْبُتْ أن سوق قينقاع كانت موسميةً فتُعَدَّ في المواسم، ولم يذكر أحدٌ أن في عَثْرٍ، وهي بلدٌ باليمن، سوقاً موسمية، فتكون جملةُ المواسم عنده سبعةَ عَشَرَ، منها إثنان مُقْحَمانِ فيها وهما سوقا هَجَر وعُمَان، والبقيةُ خمسةَ عشر موسماً، تنقصُ عمّا حقّقناه سوق نجران. والجديدُ عنده موسمُ الأنباط الكبير، وهو موسمٌ يمكن أن نُضيفَهُ إلى مواسم الشام، ذلك أن دولة الأنباط كانت أقرب إلى بلاد الشام، وأشَدَّ اتصالاً، وتَصِيرُ بذلك مواسمُ الشام المعروفةُ تسعةً.

٦ ـ وأما سائر الكتّاب الأفاضل فلم يُقدِّموا جديداً لأن همَّهم كان البحثَ في مواسم الحج، أو الكشفَ عن موضع عكاظ دون غيره[١]، أو البحثَ في سوقي عكاظ والمِرْبد فقط.



(١) كثيرون أولئك الّذين أسْهموا في محاولات الكشف عن موقع عكاظ من الباحثين في المملكة العربيّة السعوديّة، أذكرُ منهم ابتداءً: الأستاذ الفاضل ناصر الرشيد، صاحب كتاب «سوق عكاظ في الجاهليّة والإسلام ـ تاريخُه ونشاطاتُه وموقعُه»، وقد اطّلعتُ على بعض آرائه في موقع عكاظ، من خلال ما نشرتْه جريدةُ عكاظ بالملحق الثقافي سنة (١٤١٦ هـ=١٩٩٥ م)، من مقالاتٍ لبعض الباحثين عن موقع عكاظ، ولم يُسْعفني الحظُّ بالاطلاع علَى كتابه كاملاً. . .
ثم أذكر من أولئك الأفاضل، الأساتذة: عبد الله محمد الشايع، والدكتور ناصر بن علي الحارثي أستاذ الآثار والفنون الإسلامية بجامعة أمّ القرى، فهد المعطاني الهُذَليّ، محمد موسم المفرجي، مناحي القثامي، عاتق البلادي، جُوَيْبر الثبيتي، محمد بن سلطان العتيبي، خليل بن إبراهيم المعَيْقل، عبد الله الجفري، محمد منصور آل عبد الله، أحمد محمد جابر، محمد بن سعد بن حسين، سعد بن عبد العزيز وكيل وزارة المعارف للآثار والمتاحف، زكيّة حاجي، الدكتورة عَزَّة بدر، فاتن كعكي، عبد الله بن خميس، عبد العزيز الشايع، حماد السالمي، عبد العزيز مزروع الأزهري.

الفصل الثالث

تصنيف المواسم العامّة المعروفة
في بلاد العرب والشام والعراق

إذا شئنا تَصْنيفَ المواسم العامَّة عند العرب، صَنَّفْناها أصنافاً ثلاثةً:

الأول: مواسم عامَّةٌ كانت تقوم فيها أسواق للتجارة، ويصحبها عادةً ألوانٌ مختلفةٌ من الأنشطة الاجتماعية والأدبيَّة والدينية. وقد كشفنا عن عَدَدٍ منها ذكره قدماءُ المورِّخين والأخباريين، وسنتحدَّث عن كل موسم منها على حِدَةٍ..

الثاني: مواسمُ طبيعيةٌ عامَّة، كان الناسُ يخرجون فيها من ديارهم، التي اعتادُوا السَّكَنَ بها في المَحاضِر، إلى البوادي، لمراجعةِ البداوة وانتجاعِ مواقع الغيث، ومواضع الكلأ. وهي موسمان كبيران، أحدهما في زمن الخريف، والآخَرُ في زمن الربيع، وقد تحدَّثنا عنها في مواضعَ مختلفةٍ من الكتاب، ولا سيما في كلامنا على نظام الأَزْمنة وطبائعها عند العرب.

الثالث: مواسمُ عامَّةٌ للحجِّ إلى بُيوتِ الله الحرام، «وكان منها في الجزيرة العربية، في عصر الجاهلية، عدَّةُ بيوتٍ مَشْهورةٍ، وهي بيتُ الأُقَيْصِر، وبيتُ ذي الخُلَصَة، وبيتُ صنعاء، وبيتُ رِضَاء، وبيتُ نَجْران، وبيتُ مكَّةَ أشْهرُها وأبْقَاها، عدا بعضِ البيوت الصغار التي يعرفها الرحَّالون،

ولا تُقْصَدُ من مكانبعيد»[1]، وكان بيتُ الأُقَيْصِر في مَشَارفِ الشام، مَقْصِدَ القبائلِ من قُضَاعة ولخم وجُذَام وعامِلة، يحجُّون إليه، ويحلقون رؤوسَهم عنده، ويُلْقُونَ قبضةً من الدقيق مع كل شعرة، وكانت تُشاركهم فيه غَطَفَانُ وهوازن[2]. وكان بيتُ ذي الخُلَصَة يُسمَّى الكعبةَ اليمانيةَ، في أرض بني خَثْعم بين مكة واليمن، ويُسمَّى البيتُ الحرامُ بمكة الكعبةَ الشاميَّة تمييزاً بين الكعبتيْن، وكانت تقصدها وتحجُّ إليها قبائلُ بَجيلة، وخَثْعم، والحارثِ بن كعب، وجَرْم، وزبيد، والغَوْثِ بن مُرّ، وبنو هلال بن عامر، وكان له سَدَنَةٌ وحَجَبَة[3]. . .

وكان بصنعاء بيتُ رِئام، يحجُّون إليه، ويَنْحرون عنده، وقد طلب حَبَرانِ من أحد مُلوكِ اليمن أن يأمرَ بهَدْمه، لأنه شيطانٌ يفتنُ الناسَ، ففعل. . . وفي بيت رضاء يقول المستوغِرُ بنُ ربيعة حين هَدمَهُ في الإسلام:

ولقد شَدَدْتُ على رِضاءٍ شَدَّةً فتـركتُهـا قفـراً بقـاعٍ أسْحَمـا

وأما كعبةُ نجرانَ فقد عَفَت آثارُها، وكشَفَها الرحَّالةُ عبد الله فلبي في رحلته سنة (١٩٣٦ م)، وهي التي قال فيها الأعشى يخاطب ناقتَهُ:

فكعبةُ نجرانَ حَتْمٌ عليكِ حتى تُنَاخي بأبوابها
نَـزُورُ يزيدَ وعبدَ المسيحِ وقيساً هُمُو خيرُ أرْبابِها

ويقول بعضُ المؤرِّخين إن هذا البيت، وبيتَ سِنْداد بين الكوفة

---

(١) مطلع النور: ١٥٠.
(٢) معجم البلدان: ١/ ٢٣٨.
(٣) المرجع نفسه: ٢/ ٣٨٣.

والبصرة، لم يكونا من بيوت العبادة، وإنما كانا من المزارات الشريفة[1]، في عصر الجاهلية.

وكانت لهذه البيوت الحرام، مواسمُ تقومُ في أوقاتٍ مُعيَّنةٍ من السنة، وباتتِ اليوم مجهولةً، فكانوا يحجُّون إليها، ويَتَعاهَدون على المسالمة في جوارها، «والأمرُ الذي لا يجوزُ الشكُّ فيه أن البيوتَ الحرامَ وُجِدت في الجزيرة العربية لأنها كانت لازمةً، ولم تُوجَدِ العِبَاداتُ والمعبوداتُ فيها لأن أحداً اخْتَرَعَها لتُقْصَدَ وتُعْبَدَ، وإنما كانت العباداتُ والمعبوداتُ مَرْعيَّةً مَوْرُورثةً، ثم أُقيم لها المكانُ الذي تُعْبَدُ فيه، وتُقْصَدُ من أجله»[2].

وقد اجتمع لبيت مكة الحرام، ما لم يجتمع مثلُه لبيتٍ آخَرَ من البُيوت الحرام في سائر أنحاء جزيرة العرب، لأن مكة كانت مَثَابَةَ أمْنٍ وعبادةٍ وتجارة، وكانت عربيّة لجميع العرب، على اختلاف مِلَلِهم ونِحَلِهم وطوائفهم، تُمثِّلُ جملةَ مَأْثُوراتهم ومعبوداتهم، فلما صارت إلى الإسلام، وحُطِّمت فيها الأصنام، سقطت تلك البيوتُ جميعاً، إلا بيت مكة الحرام، ظلَّ قائماً، تقصدهُ جماعات المسلمين من المناطق القريبة والبعيدة، وتحجُّ إليه في موسمه، من كلِّ فجٍّ عميق. . .

وعندي ميلٌ قَويٌّ إلى الاعتقاد بأن مواسم الحجِّ إلى البيوت الحرام كانت لها علائقُ وثيقةٌ بقيام مواسم الأسواق الكبار، وأن موسم الحج كان مُلازِماً موسمَ السوق، يسبقُهُ، أو يَصْحَبُه، أو يقوم فيَ أعقابه. وفي رأيي أن موسم سوق نجران مثلاً كان مُرْتبطاً على نَحْوٍ ما بموسم كعبة نجران، وأن موسمَ بيت سِنْداد كانت له صلةٌ بموسم سوقِ الحيرة، أو سوقِ الأُبُلَّة، وأن

(١) مطلع النور: ١٥١.
(٢) المرجع نفسه: ١٥٣.

موسمَ بيتِ ذي الخُلَصَة مُتَعلِّقٌ بموسم سوق حُبَاشَة، مثلما كان موسمُ الحج إلى الكعبة مُتَعلِّقاً بمواسم أَسْواقِ عُكاظٍ ومجنَّةٍ وذي المجازِ، حتى أنهم كانوا يُسمُّونها مواسمَ الحجِّ.

وقبل أن نَعْمَدَ إلى بيان خطَّتِنا في الحديث المفصَّل عن المواسم العامَّة، التي تَوَصَّلْنا إلى الإحاطة بها، هنالك بعضُ الملاحظات على أحاديث القدماء، وأبحاث المُحْدَثين، لا بُدَّ لنا من التعرُّض لها، طلباً للدقَّة في البحث، وتعميماً للنفع.

١ ـ وَضَح من سِيَاق أحاديث القدماء، أن مَراجِعَهم كادت تكونُ واحدةً، على الرغم من اختلافِهم في عَدَدِ المواسم، وتعيينِ مَواقيتِ بعضِها، إلى تفاوتٍ يَسِيرٍ في أسمائها أحياناً لا يخفَىٰ على المحقِّق المُتَأَنِّي... ولكنّ بعض المُحْدَثين ظَنُّوا أنهم وقعوا على جديد في هذا التفاوت، فجعلوا من سوق المشقَّرِ بهَجَرٍ سوقين، هما: المشقَّرُ وهَجَر، وسوقي صُحَار ودَبَا بعُمان ثلاثاً هي: صُحَارُ ودَبَا وعُمَان[1]... كما اعتقد الأفغاني خَطَأً أن المرزوقيَّ سرق حديثه عن أسواق العرب من ابن حبيب! وقد أَثبتْنا بالبراهين القاطعة أن التماثُلَ بين عبارات الرجُليْن مَرَدُّه إلى أنهما غَرَفا من مَعِينٍ واحد.

٢ ـ ولاحظنا أن المرزوقيَّ لمَّا ذكر مواسم الشام، عيَّن مواعيدها بالاستناد إلى أُفُول نجم الثريَّا، وأشار إلى أن أهل الشام يَشْرعُون في إقامة أول مواسمهم، وهو دير أيوب، بعد خمسة وعشرين يوماً من أُفُوله. وهو توقيتٌ مُعادِلٌ للتوقيت الشمسي، يجعلُ مواعيدَ قيام مواسمهم ثابتةً، ويُطلِعُنا

(١) بلوغ الأرب: ١/٢٦٥، ٢٦٦، وأسواق العرب: ٢٤١، ٢٥١، ٢٥٦، والمفصَّل: ٧/٣٧٣، ٣٧٤...

في الوقت نفسه على أن شهر نيسان كان الشهر الأوَّلَ في السنة، وهو يقع في شهر رجب عند عرب نَجْدٍ والحجاز. ولكن الأستاذ الأفغاني فَهِمَ هذا الأمرَ فهماً خاصّاً، وفسَّر كلام المرزوقي في أُفُول الثريّا بأنه الوقت الذي يأتي بعد انتهاء موسم الحج في ذي الحجَّة.

٣ ـ ولاحظنا أن مواسم الأسواق، وإن كانت مواعيدُها تقومُ تِبَاعاً، لم يكن من اللازم شُهودُها جميعاً، بالتَّتَابُع، فقد كان التجَّارُ وأصحابُ المصالح يختارون ما لهم مَآرِبُ في شهوده فيَشْهَدُونَـهُ.

٤ ـ إن التفاوت في تعيين مواعيد بعض المواسم مَرَدُّهُ عندي إلى ثلاثة أسباب. . .

الأولُ: سوءُ النقلِ، أو الروايةِ، أو الطباعةِ.

الثاني: اعتمادُهم في تعيين مواعيدهم يومئذٍ رُؤْيَةَ الأَهِلَّة، ومطالعَ النجوم ومساقِطها[1]. وهو ما ضاعتْ أصولُه ومعالمه في عصر التدوين.

الثالث: أن المواسم إنما كان يجري الإعْدادُ لها، وربما الوصولُ إليها، قبل مواعيد قيامها، كما كان انقضاءُ مَوْسِمِها، لا يعني مُفَارقةَ جميع الزائرين لها فوراً، فقد يَتَخلَّفُ فيها بعضُهم أياماً فوق مَوْعِدِها، لِقَضاءِ حاجاتٍ لهم لم تُقْضَ أثناء انعقادها، وهو ما توهَّمَهُ بعضُ الأخباريين أو المؤرِّخين موعداً مختلفاً للموسم.

٥ ـ يبقى أن نُشيرَ إلى أن المُحْدَثين لم يُحقِّقُوا لنا جديداً نُضِيفُه إلى ما حقَّقْناهُ من المواسم، التي سَرَدْناها في الجدولِ المُلْحقِ بخلاصة الفصل

---

(١) الأزمنة والأنواء: ٣٥.

الأول، إلا ما ذكرهُ جواد علي عن الموسم الكبير الذي كان يقوم للأنباط، في ركنٍ على البحر الأحمر، في غابةٍ من النخيل، ويجري فيه ما كان يجري في مواسم عكاظ والحج إلى الكعبة بمكة[1]. . . وإلا ما أشار إليه مصطفى صادق الرافعي من أسواق كانت تقومُ في قُرى بَقَّة والأنبَار والأُبُلَّة بالعراق، ويختلط فيها العربُ بالأعاجم.

* * *

ونعود إلى الكلام على خطتنا في الحديث المفصَّل عن المواسم العامَّة، بعد أن اسْتَوفَيْنا في الجزء الأول حديثَنا عن عوامل نشوئها وقواعد قيامها وازدهارها. . . وقد خَلُصْنا من عرض أحاديث القدماء والمحدثين عن مواسم الأسواق، ومناقشتها ونقدها، والتحقيق الدقيق فيها، إلى إحصاء إحدى وأربعين سوقاً، زعموا أنها كانت تقوم في مواسمَ معيَّنةٍ من السنَة. . . لكنَّ منها ما ذكروا مواقيتَهُ، ومنها ما أَغْفَلُوها، أو غَفلوا عنها. ومنها ما تبيَّن أنه موضعُ شَكٍّ في مَوْسِميَّتِهِ، أو غير قابلٍ لمتابعة البحث، إلى غير ذلك. . . فإذا طرحنا ممّا أحْصَيْنا اثنتيْ عشرة سوقاً، وهي:

١ ـ ما سُمِّي بأسواق هجر البحرين، وعُمان، والشِحْر[2]، لأنها تكرارٌ بأسماءٍ مختلفةٍ لأسواق المشقَّر بهَجَر، وصُحَار أودَبَا بعُمَان، وإرَمٍ بالشحْر.

٢ ـ سوقُ مكة لأنها غيرُ موسميّة.

٣ ـ موسمُ مِنىً لأنه لم يكن في الجاهلية سوقاً تجاريةً، بل كان من

(١) المفصَّل: ٦/ ٣٩٦.

(٢) صبح الأعشى: ١/ ٤٦٨، والمحبَّر: ٢٦٦، والأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٣، والإمتاع والمؤانسة: ١/ ٨٤.

مناسك الحجّ، وموسمُه داخِلٌ في موسم الحج إلى مكة.

٤ ـ أسواقُ النَّبَط بيثرب، والجَنَد والأسْقَى باليمن، ودَما بعُمان، وبَقَّة والأُبُلَّة والأنبار بالعراق، لعدم كفاية ما بين أيدينا من المعلومات، للحديث عن وقائعها وأخبارها وتاريخها، وخاصَّةً مواسمها.

بقي لنا إذن تسعٌ وعشرون سوقاً، عرفنا مواقيت اثنتين وعشرين منها، وعرفنا أن المربدَ كانت سوقُه قائمةً على مدار السَّنَة، وعلينا البحثُ لمعرفة مواعيد الستِّ الباقيات، وهي: بَدْرٌ، والحيرةُ، والخنافسُ، والكباثُ، ونَجْرانُ، ومَوسِمُ الأنباط.

وسيكون منهاجُ البحث في هذه المواسم جميعاً قائماً أولاً على إفْرادِ ما كان العرب يُسَمُّونَه قبل الإسلام بمواسم الحج، وهي عندهم: عكاظ، ومجنَّة، وذو المجاز، ومِنىً، وعَرَفَة[1]، وكانوا يتبايعون في عكاظ ومجنَّة وذي المجاز، ولا يتبايعون يومَ عَرَفَة، ولا أيّامَ مِنىً، تأثُّماً[2]، وكانوا يقولون: لا تحضروا أسواق عكاظ ومجنَّة وذي المجاز إلا مُحْرِمين بالحجِّ[3]... ثم إن هذه المواسم كانت أعظمَ مواسم العرب شُهرةً، وأبعدَها آثاراً... فيكون المنهاجُ كما يلي:

١ ـ مواسم الحجِّ: عكاظ، مجنَّة، ذو المجاز، موسم الحجِّ إلى مكة.

٢ ـ مواسم جزيرة العرب: حَجْرُ اليمامة، نَطَاةُ خَيْبر، دُومَةُ الجَنْدَل، المُشقَّر بهَجَر، حُبَاشَة بتهامة، صُحارٌ ودَبَا بعُمان، إرَمٌ في الشِحْر، الرابيةُ

(١) أخبار مكة: ١/ ١٨٩.
(٢) المرجع نفسه: ١/ ١٨٨.
(٣) المرجع نفسه: ١/ ١٩٢.

في حضرموت، عَدَنٌ وصنعاءُ ونَجْرانُ باليمن، بَدْرٌ بالحجاز.

٣ ـ **مواسم بلاد الشام**: أَذْرِعات، تُومَاء، الأُردنّ، فلسطين، دَيْرُ أَيُّوب، بُصْرى، عمَّان، منبج، موسم الأنباط... ثم يلي ذلك حديث عن موسم العيد السنويّ بتَدْمُر.

٤ ـ **مواسم العراق**: الحيرة، الخنافس، الكباث، المربد. ونتحدَّثُ في هذا الباب أيضاً عن مواسم أعياد بعض الأَدْيرة المسيحية بالعراق.

وأخيراً، نحبُّ أن نُشير هنا إلى أن بدايات مواسم الحجِّ والأعياد عامَّةً، ومواسم الأسواق خاصّةً، ما تزال بعيدةً من التحديد، صعبةَ التحقيق! غير أن استقراءَ الوقائع التاريخيَّة يُثْبتُ أن بعضَها كان مُعْرِقاً في القِدَم، وسنجدُ مصداقَ هذا في كلامنا المفصَّل على سوق عكاظ... وعلى ذلك يجب أن نلاحظَ أن حديث الأسواق كما نقله إلينا الأخباريُّون، لا يُؤرِّخُ سوى فترةٍ قصيرةٍ سبَقتْ ظهور الإسلام بنَحْوِ خمسين سنةً، أو أكثر قليلاً، بدليل تَسْميتهم مُلوكَ عَددٍ من تلك الأسواق، مثلِ أكَيْدرِ بن عبد الملك السَّكُوني مَلكِ دُومَة، وقُنافَةَ الكلبيّ خليفتِهِ على السوق، والمنذرِ بن ساوَىٰ ملكِ البحرين، والجُلَنْدَىٰ بنِ المُسْتكبِر ملكِ عُمَان، وغيرِهم مِمَّن عاصَر ظهورَ الإسلام... فهذه النصوصُ تُوحي بأن تلك المواسمَ لم تَقُمْ إلاَّ في أيّامهم، بينما يدلُّ اسْتِقراءُ كثيرٍ من الأخبار، ولا سيما وقائع سوق عكاظ، على أن العهد بالأسواق الموسميَّة يعودُ إلى ما قبلَ ذلك بوقتٍ بعيد، وأن سُكوتَ أهلِ الأخبار عن الإشارةِ إليها لا يُثْبتُ عدمَ وُجودِها، فقد تُوفي ابنُ حبيب سنةَ (٢٤٥ هـ)، وعاشتْ سوقُ عكاظ نحو مئةٍ وتسعةٍ وعشرين عاماً في الإسلام، ومع ذلك لم يُحدِّثْنا بشيءٍ من أخبارها في هذه الفترة الطويلة، وإنما اكتفى بإثباتِ ما نقلهُ عن ابن الكلبي وغيرِهِ من أخبار الجاهلية، وهو ما

فعله كلُّ من تحدَّثوا عن أسواق العرب من المؤرخين وأهل الأخبار.

* * *

وليست لدينا معلومات وافيةٌ عن بدايات مواسم العراق، ولكننا إذا افترضنا أن الحيرةَ، مثَلاً، بدأ موسمُها مع قيام دولة بني لخم، أو بعد ذلك بمُدَّةٍ من الزمان، أي أوائل القرن الخامس للميلاد، ثم تَقَوَّضَتْ في العصر الإسلامي الأول، فتكون عُمِّرت نحو ثلاثة قرون، وكانت سوقُ المربد حلَّتْ محلَّها ومحلَّ عكاظ معاً، وظلّت تقوم أكثر من خمسة قرون على الأقل.

أما مواسم الشام، فيكاد يكون من المؤكَّد أن معظمها يعود إلى العصر الأول للميلاد، وأن بعضَها ازدهر، مثل بصرى، منذ تحوَّلت طرق التجارة إليها أوائل القرن الثالث، ويأتي حديثُ المرزوقي عنها، ثم حديثُ القزويني للتأكيد على أنها عُمِّرت قُروناً من الزمان تزيد على عشرة.

* * *

الباب الثاني

سوق عكاظ ومواسمُ الحجِّ

الفصل الأول: سوق عكاظ ـ الخصائص العامة
الفصل الثاني: عكاظ المعرضُ العام لتجارات العرب
الفصل الثالث: عكاظ مُجتمعُ قبائل العرب
الفصل الرابع: عكاظ مَحْفِلُ الشعراء والخطباء
الفصل الخامس: تاريخ سوق عكاظ
الفصل السادس: موسم سوق مجنَّة
الفصل السابع: موسم سوق ذي المجاز
الفصل الثامن: موسم الحجِّ في الجاهلية ومطلع الإسلام

الفصل الأول

سوق عكاظ ـ الخصائص العامة

المطلب الأول: المعنى والمقاصد

المطلب الثاني: الموقع والمكان

١ ـ مذاهب المؤرخين في موضع عكاظ ومعالمه

٢ ـ الكشف عن موضع عكاظ

٣ ـ آراء بعض الباحثين في موقع عكاظ

٤ ـ طبيعة المكان

المطلب الثالث: أصحاب الأرض والسوق

المطلب الرابع: قيام موسم عكاظ

المطلب الخامس: نزلاء عكاظ ومنازلهم فيه

المطلب السادس: أئمَّة عكاظ وقضاته

١ ـ أئمَّة العرب وقضاتهم بعكاظ

٢ ـ كيف صارت رئاسة عكاظ والقضاء فيه إلى بني تميم

٣ ـ الخلط بين مواسم الحجِّ وولاتها وموسم عكاظ ووُلاتِهِ وقُضَاته

٤ ـ عكاظ مجمع للتقاضي عند العرب

● تعقيبٌ على نظام التقاضي في الجاهلية

سوق عكاظ
الخصائص العامّة

*** تَمْهيد:**

ليس ثمَّةَ شيءٌ في تاريخ العرب، قبل الإسلام، كان له من الخَطَرِ والأثَر في حياتهم، ما كان لِسُوق عكاظٍ في مواسمها العامَّة... فقد كانت عَمَلاً حَضَارِيّاً فريداً من نوعه، وظاهرةً مُتَميِّزَةً، قلَّما شَهِدَ تاريخُ الأُمَم مثيلاً لها، في تَنَوُّعِ أغراضها، ووُجوهِ نشاطها، ووَفْرَةِ ما كان يكون بها من حاجاتٍ وشؤون مختلفةٍ، شملت جوانبَ كثيرةً من حياة العرب الاجتماعيَّة، والتجاريَّة، والسياسيَّة، والأَدَبيَّة، فكأن دنيا العربِ كلَّها اختُصِرتْ في مَجْمع واحدٍ، فكان مَجْمَعَهم في مواسم عكاظ.

والواقع أن موسم عكاظ كان أكْمَلَ مِثَالٍ للأسواق الموسميَّة العامَّة في الجاهلية، وهو أَعظَمُها شهرةً، وأكثَرُها وقائعَ، فإذا أَفَضْتُ في الحديث عنه، وأَسْهَبْتُ في تَتبُّع أخبارِهِ وحَوادِثِهِ، وما كان يجري فيه من مختلف الأَنْشِطة، فإن في ذلك إفاضَةً في الحديث عن سائر المواسم العامَّة الأُخرى، وإسْهاباً في الكلام على وقائعها وأخبارها، فليس فيها جميعاً موسمٌ بلغَ من التميُّز، والتفَرُّدِ، والأثَر ما بَلَغَهُ موسمُ عكاظ، وما كان يجري في عكاظٍ، جَرَى كلُّه، أو بعضُه، أو ما هو قريبٌ منه، في بقيَّة المواسم[1]... إلى أن مجمعَ عكاظٍ

(١) المفصَّل: ٧/ ٣٨٢.

كان قَومياً، تُشاركُ فيه معظمُ قبائل العرب، بينما مجامعُ بعض المواسم ربما اقتصرت على بعض القبائل فقط، وذلك إذا استثنينا مواسم الحجّ إلى مكة، ومواسم التربُّع في البوادي والأرياف. فلْيكُنْ تأريخنا لعكاظ إذن تأريخاً لكل مواسم العرب، وتأريخاً للكثير من عاداتهم الاجتماعية.

كانت متاجِرُ العربِ، وغيرِ العرب، تُحْمَلُ من مَواضِعها إلى عُكاظ، فيقصدها في موسمها من أراد الميرةَ أو التجارةَ على السواء. فلما عَظُمَ شأنُها، وصارت مَجْمعاً عامّاً للعرب، أَمَّها الشعراءُ والخطباءُ، وكان معظمُ همِّهم انتقاءَ الكلمات الفصيحة، المشهورة عند قبائل العرب، ولا سيما قبائلِ الحجازِ ونَجْدٍ وما اتصل بها، أو جاوَرَها، طمعاً في أن تنتشِرَ أقوالُهم في العرب كافةً، فكانت عكاظُ بذلك، مع المواسم الدينيَّةِ الكبرى، والأسواقِ العامَّة الأخرى، أقوى عاملٍ في توحيد لغة العرب، وتَهْذيبِ لهجاتهم، واختلاطِ قبائلهم، والاقترابِ من المجتمع العربيّ القَوْميّ الواحد. وقد كانت وحدةُ اللغةِ والأفكار المقدّمةَ الكبرى التي سبقَتِ الإسلامَ، مُتَرقِّبَةً لأَوَانه، «فالشعورُ بالعربيّة، والفخرُ باللسان العربيّ مُقدّمةٌ لا بدَّ منها للدعوةِ التي واجَهتِ العربَ بآيَةِ البلاغة في القرآن الكريم...»[1]، ذلك أن لهجات القبائل العربية كان بينها تَفَاوُتٌ في النُّطْقِ والمُفْرَداتِ والقواعد، وكان هذا التفاوُتُ يَقِلُّ، أو يكْثُرُ، تَبَعاً لقُوَّةٍ أو ضَعفِ العلائق التي تربطُ بين القبائل، وتَبَعاً لاختلاف عوامل المكان والزمان، التي يُؤثِّرُ اختلافُها وتَفَاوتُها أعظمَ تأثيرٍ في اللغة[2]. ولئن كانت عكاظُ بدأتْ سوقاً تجاريةً، أو موسماً دينيّاً، لقد انتهت في آثارها إلى تطوُّرٍ عميق في مجتمعاتِ العرب وحياتهم، ولولاها

---

(١) مطلع النور: ٧٦.

(٢) أدبيات اللغة العربية: ١/ ١٢ ـ ١٣.

لكانت لغةُ العرب لغاتٍ، من العسير على أصحابها أنْ يَفهمَ بعضُهم على بعضٍ شيئاً بها. فعُكاظٌ لم تكن سُوقاً وحسْبُ، وإنما كانت عالَماً للعرب كبيراً، فيه كثيرٌ من الحقائق على كثيرٍ من الخيال، فكانت أقصى أمَانيِّ أحَدِهم، أن يُسْعِدَهُ الحظُّ يوماً بزيارتها، وشُهودِ مَوْسمها، والاحتفالِ بمجَامِعها، ثم العودة منها بكل ما اشْتَهتْهُ النفسُ من عُروضِها وأمْتعَتِها، وما حَفظتْهُ الذاكرةُ من أخبارها ووقائعها، وما زَوَّرهُ له الخيالُ من محاسنِها ومساوئها. فكأنَّ العرب الَّذين أقاموها سوقاً لتجاراتهم، وموسماً من مواسم عِبَاداتهم، ما لبثوا، بحُكم ما فُطِروا عليه من الخصائص القومية، حتى تَوسَّعُوا فيها، فجعلوا منها مَعْرِضاً اقتصادياً كبيراً، عَرَضوا فيه سِلَعَهم، وغَلاّتِهم، وأنْعامَهم، وصناعاتِهم، وما كانوا يجلبونه إليها من البلاد الأخرى. وأقاموا فيها مَجْمَعاً فِكرياً عامّاً، تداوَلُوا فيه أشعارَ شعرائهم، وخُطَبَ خُطَبائهم وحُكَمائهم، وأخبارَ فُرسَانِهم ومكارم أخلاقهم، وحكاياتِ أيامهم. وكان لهم بها مجالسُ اجتماعيةٌ، يَقْتبِسُ فيها بعضُهم من بعضٍ ما يحلو له من عاداته وتقاليده، وأنْدِيَةٌ سياسية، يتشاوَرُون فيها، ويُعْلنون من منابرها عُهودَهم وعُقُودَهم، ليكون العربُ على علمٍ بها، وشُهوداً على حُسْنِ تنفيذِها واحترامِها. . . لقد كان موسمُ عكاظٍ أعْظَمَ مواسمِ العرب[1]، ولم يكن بين سائر المواسم موسمٌ يُضَاهِيه في تَفَرُّدِ خصائصه، وتَنَوُّعِ وظائفِهِ، وبُعْدِ آثارِهِ في حياة العرب.

* * *

(١) معجم البلدان: ٤/١٤٢، والأزمنة والأمكنة: ٢/١٦٥، وبلوغ الأرب: ١/١٩٢، والمحبَّر: ٢٦٧، وتاريخ التمدن الإسلامي: ٢/٣٨، وموقع عكاظ: ١٥، والمصباح المنير: ٢/٤٩.

المطلب الأول ـ المعنى والأغراض:

يجبُ الابتداءُ أولاً بكلمةِ «عُكاظ»، والبحثِ عن معانيها، للنظَرِ في العِلَّة التي حَملتْهم على جعْلها إسماً لهذه السوق العظيمة. فالواضحُ من استقراء الأخبار أنها كانت إسماً عَلَماً للسوق، لا لموضع قيامها، ولكن الاستعمالَ غَلَّبها، في الوهم، على الموضع، فصارت إسماً للسوق والموضع معاً... وإذا فتّشنا في المعاجم عن معاني هذه الكلمة، وجدنا لها جُملةً من المعاني المختلفة، أبْرَزُها:

- عَكَظهُ يعْكِظُه عَكْظاً: حَبَسَهُ.
- تَعكَّظَ القومُ تَعَكُّظاً: اجتمعوا، ازْدَحَمُوا، تَحبَّسُوا لينظروا في أمورهم.
- تَعَكَّظ عليه أمرُهُ: تمنَّع، وتَحبَّسَ، والْتَوَىٰ.
- عكَظَ خصمَهُ بالحُجَّة: عَرَكَهُ وقَهَرهُ، وعكَظَهُ بالمفاخَرة: دَعَكَهُ، أي أوْجَعَهُ إذ رَدَّ عليه فَخْرَهُ، وعَكَظَ بالشيء: افْتَخَر.
- عكَظَ الأَدِيمَ: دَلَكَهُ، أي فرَكَهُ، أو طَلاهُ وضَمَّخَهُ.
- عاكَظَهُ مُعاكَظةً: مَطَلَهُ حَقَّهُ، أي سَوَّفَهُ بوعد الوفاء.
- تَعاكَظَ القومُ: تعاركوا، تفاخَروا، تجادَلُوا وتَحاجُّوا، أي أدْلَى كلٌّ منهم بحُجَّتِهِ في مُقَارَعَةِ قَرِينِهِ.
- عَكَظَهُ عن حاجَتِهِ، وعكَّظَهُ: رَدَّهُ عنها، وصَرَفَهُ[1]...

تلك هي جملةٌ من معاني الكلمة، ومن التأمُّلِ فيها يبدو لنا، وكأن

---

(١) لسان العرب: ٧/ ٤٤٧ ـ ٤٤٨ (عكظ).

الكلمة إنما وُضِعتْ من أجل هذه السوق، وليس لأَيَّةِ عِلَّةٍ لُغويَّةٍ أخرى، فكل مَعْنىً منها له دَلاَلةٌ على بعض ما كان يجري في السوق، وهذا ما أعْجَزَ الباحثين، وأهلَ الأخبار، فذهبوا في التفسير والتعليل مذاهبَ مختلفةً شَتَّى، وقَلَّبُوا الكلمةَ على بعض هذه المعاني، فقيل إن السوق سُمِّيت عُكاظاً، لأن قبائل العرب كانت، إذا حَضَرت موسمَها، تَتَفاخَرُ فيه، فيعكِظُ بعضُهم بعضاً بالفَخَار، أي يغْلِبُه بالمفاخرة... وكانوا يَتَحاجُونَ، فيعكظُ أحدُهم خصمَهُ بالحُجَّة عكْظاً، أي يقْهرُهُ. وقيل إنها سمِّيت بذلك من تَعكَّظَ القومُ تَعكُّظاً، إذا تَحبَّسُوا لينظروا في أمورهم، وكانت العربُ تجتمعُ بعكاظ للتشاوُرِ والنظرِ في شؤونهم[1].

وفي اعتقادنا أن تلك المعاني كلَّها صالحةٌ لتعليل التسْمِيَة، فالحبْسُ، والعَرْكُ، والعِرَاكُ، والقهْرُ، والمفاخرةُ، والدَّعْكُ، والدَّلْكُ، والمجادَلةُ، والمَطْلُ، والاجتماعُ، والازدحامُ، والتمنُّعُ، وما إلى ذلك، جميعُها من أغراض عكاظٍ ووقَائعِهِ، وهذا مذهبٌ في التَسْمِيَةِ تتجلَّىٰ فيه عبقريةُ العرب، وبراعتُهم في اختيار كلماتهم. والواقع أن ما كانت العربُ تعالجه في مواسم عكاظ، فضلاً عن التجارة، أوسعُ من أن يُحيطَ به عَدٌّ، فكانوا يتناشدون ما أحْدثَ شعراؤهم من الشعر، ويتفاخَرون، ويتَحاجَوْن[2]، ويتنافَرون[3]، ويَفْدونَ الأسْرَى، ويعقدون المُهادَنات[4]، ويحتملون الحَمَالات[5]، ومَن

---

(١) معجم البلدان: ٤/ ١٤٢، ولسان العرب: ٧/ ٤٤٧ ـ ٤٤٨، وأدبيات اللغة العربية: ١/ ١٢...

(٢) تحاجَوْا: تطارَحُوا الأحَاجي لامتحان الفِطْنة والعقل.

(٣) المنافَرة: التفاخُر بعِزَّة النَّفَر وكثرة العدد.

(٤) المهادَنَةُ: الصلح والمُوادَعة.

(٥) الحَمَالَةُ: الدِّيَةُ والغرامة.

كانت له حكومةٌ ارتفع بها إلى الذي يقوم بأمر الحكومة من بني تميم[1]. . . وكانوا يصنعون فيها أشياءَ مختلفةً كثيرةً، ذُكرتْ في موضِعِها من الباب الأول في الجزء الأول، ويمكنُ البحثُ في وقائعِها، في الفصول التالية، مُصَنَّفَةً أصْنَافاً ثلاثةً، **أوّلُها**: شؤونُ التجارة، **وثانيها**: الشؤونُ العامَّةُ، بأشكالها الاجتماعية والسياسية والدينية، **وثالثُها**: شؤون الشِّعْر والشعراء.



المطلب الثاني ـ المَوْقعُ والمكان:

يكادُ لا يخلو كتابٌ من كتُب تاريخ العرب القديم، أو كتُبِ لُغَتِهم وآدابهم، من الإشارة إلى مواسم سوق عكاظ، أو الكلام على ما كان يكون بها من الأَنْشِطةِ المختلفة، وما كانوا يُعالجون فيها من شؤونِ حياتهم، كالتجارةِ، والحربِ والسلم، وأحاديثِ اللغة والشعرِ والأدبِ، ومَقَالاتِ التفاخُرِ والتكاثُرِ والتنافُرِ، وغيرِ ذلك من شؤون الحياة، حتى صار لسوق عكاظ ذِكرٌ ذائعٌ، وصِيتٌ شائعٌ، وبات اسْمُها عَلَماً على كل مجتمع للناس، يَضُمُّ عشرات الألوف، ويكونُ حديثُ الأدبِ، وإنشادُ الشعرِ بعضاً مما يجري فيه. . . وطَفِقَ العربُ يذكرون اسْمَ عكاظٍ، مثلما يَذْكرُ الناسُ بُرْجَ بابِلٍ، بأنه كان مُلْتَقَى الأُمَم من أنْحاءِ الأرض! ولكنَّ العجيبَ أن موقع عكاظٍ، على ما لها من ذُيُوعِ الشهرة، ظلَّ حتى وقتٍ قريبٍ مجهولاً، بعدما عَفَّتْهُ الحوادثُ، ومَحَتْ مُعظمَ مَعَالمه. مع أن مَوْضِعاً كهذا، شَهِدَ من تاريخ العرب ما شَهِدَ، وكان له من الأثر في حياتهم ما كان، جديرٌ بأن يكون رمزاً مَأْثُوراً، وأن يظلَّ

---

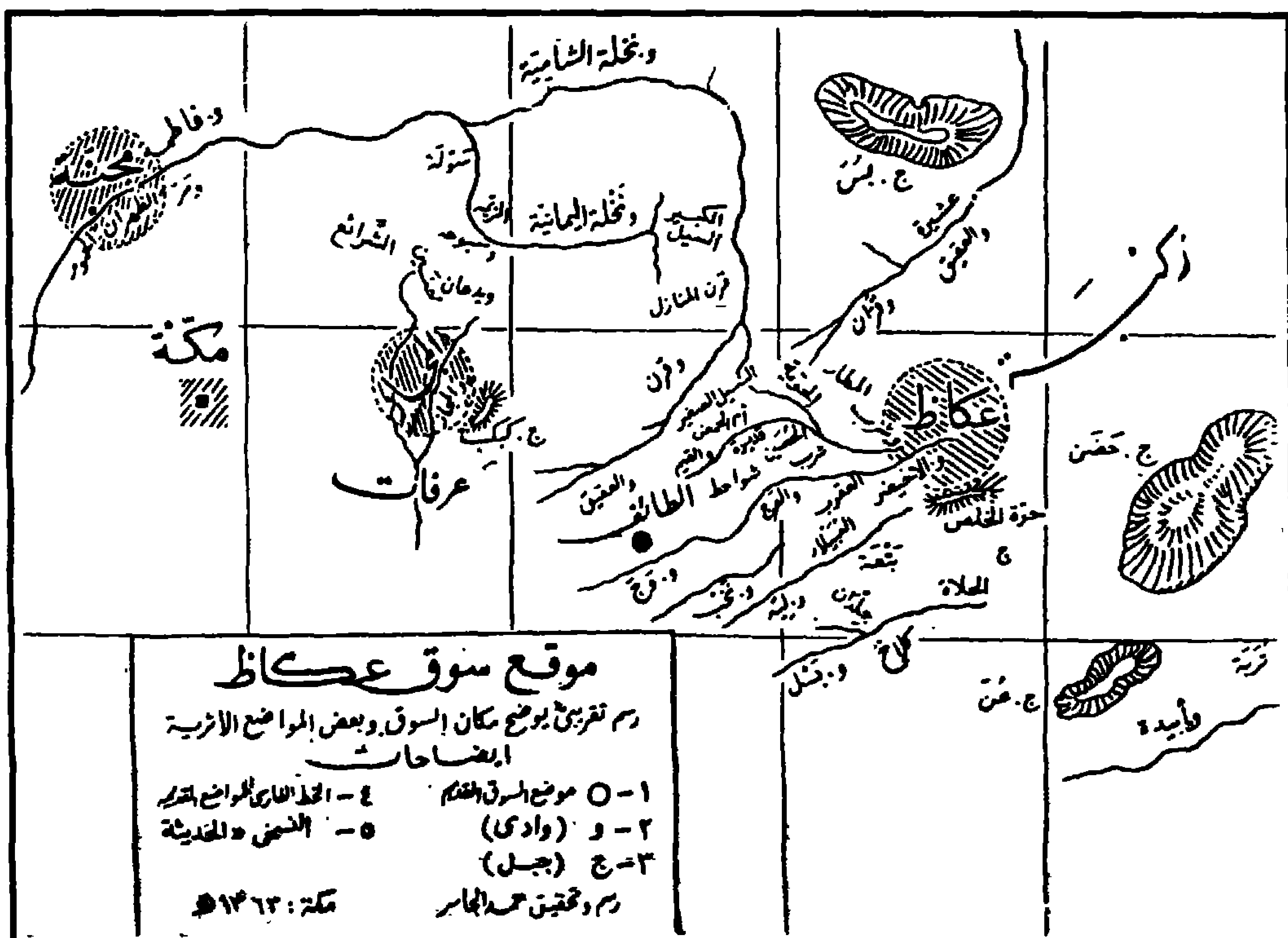
(١) لسان العرب: ٧/ ٤٤٧ ـ ٤٤٨، والإمتاع والمؤانسة: ١/ ٨٥، وتاريخ اليعقوبي: ١/ ٢٧٠، وصبح الأعشى: ١/٤٦٨، ونهاية الأرب: ٤٦٤، وأدبيات اللغة العربية: ١/ ١٢. . .

سوقاً للحاجّ على مَرِّ الزمن، ومَجْمعاً للعرب يُنْشدون فيه أشعارَهم، ويَتَحاوَرُون في شُؤون لغتِهم وآدابِهم وعُلُومهم، ولا سيما أن النبيَّ عليه السلامُ شَهِدَ فيه حربَ الفِجَار، واستمع إلى قُسِّ بن ساعدة الإِيَادِيّ يخطبُ العربَ ويعِظُهم، وعَرَضَ نفسَهُ فيه على قبائل العرب، يدعوهم إلى الإيمان بالإسلام، أو توفيرِ أسبابِ الحمايةِ له حتى يُؤَدِّيَ رسالاتِ رَبِّه. غير أن ما قام بمكة والمدينة من ثورات بعد وفاة النبيّ وصاحِبَيْه أبي بكر وعمر، وانتقالِ عاصمة العرب من الحجاز إلى الشام، ذهب بكثير من العادات التي أَقَرَّها الإسلامُ بعد الجاهلية، ومنها سُنَّةُ العرب في الاجتماع بعكاظ كل سنةٍ قُبَيل موسم الحجِّ.

والواقع أن تحديدَ الموضعِ الذي كانت تُقامُ به عُكاظٌ، تحديداً جغرافياً دقيقاً، لم يكن بالأمر اليَسِير في العصر الحاضر، بعدما انْدَرَسَ كثيرٌ من المعالم التاريخية القديمة. ولكنَّ عدداً من البحَّاثةِ المتأخِّرينَ تَصَدَّوا لهذا العمل الجليل، وكان لهم فيه كلامٌ كثير، ومذاهبُ مختلفةٌ، وكان القولُ الفَصْلُ فيها جميعاً للعالم النجديّ المحقِّق الشيخ حَمَد الجاسِر، الذي كشَفَ عن هذا الموضع، وأثْبَتَ بالأَدِلَّةِ القاطعةِ حُدودَهُ ومَعَالمه... وعلى ذلك لم يكن لنا بُدٌّ من أن نعْرِضَ أولاً خُلاصةَ ما قاله القدماءُ، وتوافقوا عليه في موضع عكاظ، مع الإشارة إلى ما قاله بعضُ المُتَأَخِّرينَ فيه، ولا سيما أقوال الجَاسِر ومَنِ اتَّبَعَ مذهبَه، ونَحَا نَحْوَهُ، كالشيخ محمد بنِ بُلَيْهِد، والدكتور عبد الوهاب عزَّام(١)، والأستاذ رشدي مَلْحس. ونُقدِّم أيضاً الخريطة التي رسمها الجاسِرُ، للاستعانة بها في معرفة ما سنذكره من المواضِع.

* * *

(١) سبقت ترجمته.



موقع سوق عكاظ(*)

(*) ذكر الأستاذ الجاسر في ختام بحثه، أنه رسم هذه الخريطة رسماً مقرّباً، وإن لم يكن دقيقاً من كل الوجوه، لكنه أوْضحَ فيه موقعَ عكاظ كما يراه، وعيَّن فيه بعضَ الأمكنة التي لا تزال معروفةً بأسمائها حتى اليوم.

①ـ مَذاهبُ المؤرِّخينَ في مَوضع عكاظ ومَعَالِمِهِ:

صَفْوةُ ما يمكنُ اسْتخلاصُه من أقوال القدماء، والتي عَرَضْنا أكثرها في الباب الأول من هذا الجزء، واسْتَوْفاها جميعاً الشيخُ الجاسر[1]، أن موضعَ عكاظٍ كان بأَعْلا نَجْدٍ[2]، في أرضٍ هي من دِيَار قبائل قيس بن عيلان بن مُضَر[3]، بين وادي نخلة، ومدينة الطائف[4]، ووراءَ قَرْنِ المنازل[5]، بنحو أربعةٍ وعشرين ميلاً، أي مسيرةِ ليلةٍ واحدة، على طريق المسَافر من مكة إلى اليمن، وأنه من أعمال الطائف، على عشرة أمْيالٍ، إلى اثْنَيْ عَشَرَ مِيلاً منه[6]. وقيل بل إن بينه وبين مدينة الطائف ليلةً، أي نحو أربعةٍ وعشرين ميلاً، وأن بينه وبين مكَّةَ ثلاثَ ليالٍ، وأن السوق كانت تُقامُ بمكانٍ منه يُسمَّىٰ: الأُثَيْداءُ[7]... وذُكر أن فيه صخوراً، كانوا يطوفون بها، ويحجُّون

---

(١) موقع عكاظ: ٤٣ ـ ٥٣.

(٢) المحبَّر: ٢٦٧، وتاريخ اليعقوبي: ١/ ٢٧٠، والأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٥. وعالِيَةُ نَجْدٍ: ما فوق أرضِ نَجْدٍ إلى أرض تهامة، وإلى ما وراء مكة، وهي الحجازُ وما والاها. وعاليةُ الوادي وأعلاهُ حيثُ ينحدر الماءُ منه، وسافِلتُه أو أسْفلُه حيث ينصبُّ إليه. وعلى ذلك فأعلى نَجْدٍ يقع في الغرب والجنوب منها.

(٣) أخبار مكة: ١/ ١٩٠.

(٤) معجم البلدان: ٤/ ١٤٢، والأغاني: ٢٢/ ٦٤.

(٥) قرن المنازل: من المعلوم أن وادي نخلة موضعٌ على ليلةٍ من مكة، فيه نخلٌ وكرومٌ، وهو مجتمع وادِيَيْ نخلة اليمانية ونخلة الشامية، وقَرْنُ المنازل مَوضعٌ بنخلة اليمانية يُعرف اليومَ بالسَّيْل الكبير، وهو ميقاتُ الإحرام لحاجِّ نَجْدٍ واليمن والطائف، بينه وبين مكة ليلتان، أو (٥١) ميلاً تقريباً، وبينه وبين الطائف (٣٦) ميلاً، فيكون الطريق بين مكة والطائف نحو (٨٧) ميلاً ـ (معجم البلدان) ١/ ٤٤٩، ٤/ ٣٣٢، ٥/ ٢٧٧ ـ ٢٧٨، وأخبار مكة: ٢/ ٣١٠).

(٦) أخبار مكة: ١/ ١٩٠، والأغاني: ٢٢/ ٦٤.

(٧) الأُثَيْداء: موضعٌ اندرستْ معالمه فبات مجهولاً.

إليها، وبه كانت أيامُ الفِجَار الآخِر[1]، إلا اليومَ الأوَّلَ منها، كانت الوقعةُ فيه بموضعٍ في وادي نَخْلةٍ، على حدود الحَرَم المكِّيِّ، أما الأربعةُ الأُخْرى فكانت أيَّامَ شَمْطَةٍ والعَبْلاءِ وشَرِبٍ والحُرَيْرة، سُمِّيت بأسماءِ مواضِعَ، بعضُها في عكاظ، والبعضُ في أَحَدِ جوانبه[2]، كما سنرى. . .

١ ـ شَمْطَة: موضعٌ أطْبَقَ القدماءُ على أنه في عكاظ، ولكنه اليومَ لم يَعُدْ معروفاً[3].

٢ ـ العَبْلاء: يُفهم من كلام المُحقِّقِين أنها اسْمُ عَلَمٍ لأَكَمَةٍ من صُخور بِيضٍ إلى جنب عكاظ، في جهة الجنوب والغرب، ويَليها في جنوبها: العُبَيْلاءُ، وهي قريةٌ من أعمال الطائف، مُجاوِرَةٌ لعكاظ، ينزلُها بنو عَدْوان من قيس بن عَيْلان. وقيل إنَّ العَبْلاوَات هي الصخورُ البِيضُ التي كانوا يطوفون بها في عكاظ، وهي ما تزال منتشرةً على أَرضِهِ[4].

٣ ـ شَرِب: وادٍ عظيمٌ، ما يزال معروفاً حتى اليوم، ينحدرُ من الغرب والجنوب، ويمرُّ شمالَ الطائف، ثم يلتقي بوادي الحَوِيَّة قادماً من غَرْبِهِ، فيَتَّحِدانِ في وادٍ واحدٍ، ينحدرُ إلى الشرق والشمال، ويَجُوزُ السلسلةَ الجبليةَ لبلادِ عَدْوان، ثم يُفْضِي إلى سهلٍ مُتَّسِعٍ من الأرضِ، هو موضعُ عكاظ، حيث يلتقي به هنالك وادي الأُخَيْضِرِ[5]، وهو من منازل قبيلة عَدْوان بن

---

(١) معجم البلدان: ٤/ ١٤٢.
(٢) الأغاني: ٢٢/ ٦٧، ٦٩، ٧١، ٧٧، والعِقْدُ الفريد: ٥/ ٢٥٦ ـ ٢٥٨، ومعجم البلدان: ٣/ ٣٣٢، ٣٦٣، و ٤/ ٨٠، ومعجم ما استعجم: ٦٦٠ ـ ٦٦٢.
(٣) موقع عكاظ: ٦٧.
(٤) موقع عكاظ: ٢١ ـ ٢٢، ٢٩، ٣٦، ٦٢، ٦٤، وأخبار مكة: ١/ ٣٨٥.
(٥) موقع عكاظ: ٢٢، ٢٩، ٦٤.

عمرو، من قيس بن عيلان، ثم يَنتهيان إلى سهل ركبة. ويُسمَّى يومُ شَرِبٍ أيضاً: يومَ عكاظ[1]، إشارةً إلى أن أرض عكاظ إنما هي في مَوْضع شَرِب.

٤ ـ **الحُرَيْرة**: وهي حَرَّةٌ[2]، أَطْبق القدماءُ على أنها تقع إلى جَنْب عكاظ، مِمّا يلي مَهَبَّ جنوبه، أي من حيث تهبُّ ريحُ الجنوب. وقد رجَّح الشيخُ الجاسِرُ أنها الحَرَّةُ التي تُعرف اليوم باسم «ضِلَعِ الخَلَص»[3]، وهو جُبَيْلٌ أسودُ صغير، يقعُ جنوبَ عكاظ، مع مَيْلٍ قليل نحو الشرق[4]. وعلَّق عَزَّام على ذلك بأنه رأى هذه الحرَّةَ، التي تُسمَّىٰ حَرَّةَ الخَلَص، في شرق عكاظ، لا في جنوبه[5]، معتمداً روايةً عزاها ابنُ بلهيد إلى عَرَّام بن الأَصْبَغ السُّلَميّ[6]، تقول: «. . . وإذا كنتَ في عكاظ، طلعتْ عليك الشمسُ على حَرَّةٍ سوداء. . .»[7]، أي أن الحَرَّةَ في مشرق المكان! وقد فتَّشتُ كتابَ عرَّام عن هذا النصّ فلم أَعْثُرْ له على أَثرٍ. . . ثم إنني نظرتُ فوجدتُ للدكتور عزَّام تعليقاً آخَر على بحث ابن بُليهد قال فيه: إن الحَرَّةَ التي بجنب عكاظ غيرُ التي ذكرها عرَّامٌ السُّلَميُّ[8]. . . فهُما في رأيه إذن حَرَّتانِ، لا حَرَّة واحدة،

---

(١) أيام العرب في الجاهلية: ٣٣٤ ـ ٣٣٥.

(٢) **الحَرَّةُ**: أرضٌ حِجَارتُها سُودٌ نَخِرَاتٌ كأنها أُحْرِقتْ بالنار.

(٣) **الضِلَعُ**: جَبَلٌ صغيرٌ، مستطيلٌ في الأرض، وليس بمرتفع في السماء.

(٤) موقع عكاظ: ٦٦.

(٥) المرجع نفسه: ٦٢.

(٦) عَرَّامُ بنُ الأَصْبغ: أعرابيٌّ من بني سُلَيم. من علماء القرن الرابع الهجري. كان ثقةً في معرفة جبال تهامة والحجاز ونجد، وقراها وأهلها ومياهها ونباتها. له كتاب صغير سُمِّي: أسماء جبال تهامة وجبال مكة والمدينة، وما فيها من القرى، وما ينبت عليها من الأشجار، وما فيها من المياه. . . وسمَّاهُ ابنُ بُليهد: جبال تهامة والحجاز ومَحَالّها. طبع عدة مرات.

(٧) موقع عكاظ: ٢١، ٣٧.

(٨) المرجع نفسه: ٣٧.

ولكنه وقف على إحداهما فحدَّثنا عنها، فما بالُه سكتَ عن الثانية، ولم يُحدِّثنا بشيء من أخبارها؟ مع أنه نظر من موقفه على الحُرَيْرة نحو الجنوب، فرأى جَبَلاً أبْعَدَ من الحُرَيْرة ومن عكاظ؟ والواقع أن الرجل أُتيَ في حُكمه من تَوَهُّمٍ، نَشَأ في فكره من أمرين، أحَدُهما: بلوغُه موقعَ الحُرَيْرة قادماً إليها من الغرب إلى الشرق رأساً، والآخَرُ: ما عَزاهُ ابنُ بُليهد إلى عَرَّامٍ السُّلميّ من كلامٍ لم يَقُلْه كما أشرنا آنفاً... فاسمعْ معي حديثَ الدكتور عزَّام:

«سِرْنا من مطار الحَوِيَّة صَوْبَ الشرق، نحو اثنيْ عشَرَ كِيلاً، فإذا أرضٌ واسعةٌ مُطمئنَّة، أدركنا فرْقَ ما بينها وبين الأرض التي سرنا عليها من الحَوِيَّة، يدلُّ منظرُها على أنها مجتمعُ مياه... ثم قال: سِرْنا إلى الشرق، نقصدُ حَرَّةً كبيرةً، عاليةً، مُشْرِفَةً على سهل واسع. سرنا إليها بالسيارات، نمرُّ بأحجارٍ كبيرةٍ بيضاءَ من المرمر... فلما بَلَغنا الحرَّةَ... صَعَدنا، وأَجَلْنا البصرَ فيما حَوْلَنا... فقال ابنُ بُلَيْهد: إن عَرَّام بنَ الأصبغ السُّلَمي يقول في عكاظ: وهو في أرض مستوية، ليس بها جبال، وإذا كنتَ في عكاظ طَلَعتْ عليك الشمسُ على حَرَّةٍ سوداء. وبه عُبَيْلاتٌ بِيضٌ تُطيفُ بها العربُ في جاهليَّتِهم، ويَنْحرون عندها... فقال الدكتور عَزَّام: فلننظُرْ تصديقَ هذا! هذه أرضٌ مستوية، وهذه الحَرَّةُ تطلعُ الشمسُ عليها، أعني أنها شرقيُّ المكان. قال هو (أي ابنُ بليهد)، وبَدَويٌّ كان معنا: وهذه الحَرَّةُ تُسمَّى الخَلَصَ... والعُبَيْلات البِيضُ قد رأيناها في طريقنا متفرقةً، وسنراها...»[1]، والغريبُ أن الدكتور عزام لم يُحقِّقِ النصَّ الذي عَزاهُ ابنُ بُليهد إلى عرَّام السُّلَمي بل قال في حاشيةٍ له: «يُنظَر كتابُ جبالِ تهامة لعرَّام»[2]، وكأنه لم يطَّلع بنفسه عليه!

---

(١) موقع عكاظ: ٢٠ ـ ٢١.

(٢) المرجع نفسه: ٢١/ الحاشية.

ويتبيَّنُ من كل ذلك أن الحُريْرة التي اعتلاها عبد الوهاب عزَّام وابنُ بُليهد، هي نفسُها الحرَّةُ التي رآها من قبلُ الشيخُ الجاسِرُ، وحقَّق موقعَها في جنوبِ عكاظ، بميْلٍ يسيرٍ إلى الشرق، ودليلُه في هذا إجماعُ القدماء على أن الحُرَيرة تقعُ إلى جَنْب عكاظ مِمّا يلي مَهَبَّ جَنُوبه، ومَهَبُّ ريح الجنوب عند العرب من حَدِّ القطب الجنوبي إلى مَطلع الشمس[1]، وهذا يُؤكِّدُ أن موقعَها إلى الجنوب مع مَيْلٍ إلى الشرق... هذا من جانبٍ، ومن جانبٍ آخَر فإن النصَّ الذي نَسبهُ د. عزام وابنُ بُليهد إلى عرَّام السُّلمي غيرُ موجودٍ في كتابه أصلاً، وهذا يُلغي حُجَّة عزّامٍ من أساسها! أمّا احتجاجُه بأنه رأى الحَرَّةَ في الشرق فليس بشيء، لأنه أقامه على بُلوغِهِ الحَرَّةَ قادماً إليها من الغرب إلى الشرق، فقد ظن أنه قطع بذلك عَرْضَ عكاظ، ووصل إلى حَدِّهِ الشرقي، وهو غير صحيح، لأن الحَرَّة قائمةٌ في الجنوب مُنْحرِفةً إلى الشرق.

ويَحسُنُ بنا أخيراً أن نذكر ما قاله عرَّامٌ السُّلَميُّ في كتابه عن بعض معالم عكاظ... قال: «والقَفا جبلٌ لبني هلال[2]، حِذاءَ عُنٍّ[3]... وحِذاءَهُ جبلٌ آخَرُ يُقالُ له: بُسٌّ[4]، وفي أصله ماءٌ يقال له: بقعاءُ[5]، لبني هلال، بئرٌ

(١) صبح الأعشى: ٢/ ١٨٥ ـ ١٨٦، ولسان العرب: ١/ ٢٨٢ (جنب).

(٢) **القَفَا**: أحدُ الجبالِ الواقعةِ إلى الجنوب من سهل رُكْبة، قريباً من جبل عُنّ ـ (موقع عكاظ: ٦٧). **بنو هلال**: هم بنو هلال بن عامر بن صَعْصَعَة بن معاوية، من هوازن، من قيس بن عيلان.

(٣) **عُنٌّ**: جبل في طرف رُكْبَة الجنوبي، بين تُرَبَة شرقاً ووادي بَسْل غرباً ـ (موقع عكاظ: ٦٥).

(٤) **بُسٌّ**: جبلٌ وأرضٌ كثيرة النخل لبني نصر بن معاوية بن بكر بن هوازن، فوق ذات عِرْق، بالنخلة الشامية، فيه بيتُ عبادة لبني غَطَفان بن سعد بن قيس بن عيلان، أقاموه على شجرة العُزَّى. (معجم البلدان: ١/ ٤٢١، وتاج العروس: ١٥/ ٤٥٢ ـ ٤٥٤).

(٥) **بقعاء**: إما أنها بئر عُشَيْرة القديمة، أو أنها كانت في أصل جبل بُسّ ـ (موقع عكاظ: ٦٦).

كثيرةُ الماء، ليس عليها زرعٌ. وحِذاءَها أُخرى يقال لها: الخُدود[١]، وعكاظٌ منها على دَعْوة[٢]. وعكاظ صحراءُ مُسْتَوِيةٌ، ليس بها جبلٌ ولا عَلَمٌ، إلا ما كان من الأَنْصَابِ التي كانت في الجاهلية، وبها الدِمَاءُ من دِمَاءِ البُدْنِ[٣]، كالأَرْحَاءِ العِظَام[٤]، وحِذاءَها عَيْنٌ يُقال لها خُلَيْصٌ[٥]، وهو رجلٌ من بلاد رُكبة...»[٦]. ورُكْبَةُ سهلٌ فسيحٌ في نَجْدٍ، يقعُ عكاظٌ في طرفه الجنوبيّ الغربيّ[٧]، وتصبُّ فيه الوِدْيَان التي تمرُّ بعكاظ.

* * *

ونعودُ إلى حديثنا عن أقوال القدماء في موقع عكاظ، وما حقَّقَهُ المتأخِّرون فيها... ومنها قولُهم إن «الفُتُق» كانت قريةً من نواحي الطائف، قريبةً من عكاظ[٨]، بينها وبين «المناقِبِ»[٩] إثنا عشر ميلاً، وبين المناقب

---

(١) **الخُدود**: أو الخُدَد، قريةٌ أو صَقْعٌ من قُرى الطائف، كانت تقعُ شمال عكاظ (موقع عكاظ: ٦٦، وتاج العروس: ٨/ ٥٤ (خدد)، ومعجم البلدان: ٢/ ٣٤٨.

(٢) **دَعْوة**: تُفيد هنا معنى القُرْب، يُقال: هو مني دَعْوةَ الرجُل، أي قريبٌ مني، وهي منصوبةٌ على الظرفية. وهي في نسخة الجاسر: **غَلْوَة**، بمعنى رَمْيَة السهم أبعد ما يكون الرَّمْيُ.

(٣) **البُدْن**: الإبِلُ المُسَمَّنةُ، مفردها: بَدَنَة.

(٤) **الأرْحَاءُ**: مُفردُها رَحَى، وهي حَجَر الطاحون، شبَّه آثار الدماء على الأرض بأشكال حجارة الطواحين. وفي نسخة الجاسر: **الأَرْجَام**، بمعنى الحجارة، تُسَنَّمُ بها القُبور...

(٥) **عين خُلَيْص**: لعلها كانت قريبةً من حَرَّة الخَلَص.

(٦) أسماء جبال تهامة: ٤٢ ـ ٤٣.

(٧) موقع عكاظ: ٥٠، ٦١، ٦٣.

(٨) معجم البلدان: ٤/ ٢٣٥، وتاج العروس: ٥/ ٢٥٤ (عكظ)، طبعة مصر، وموقع عكاظ: ٤٤، ٤٦، ٦٧.

(٩) **المناقب**: جبلٌ مُعْتَرِضٌ بين قرن المنازل والسيل الصغير، على طريق مكة ـ الطائف، سُمِّي بذلك لأن فيه طُرُقاً إلى اليمن واليمامة ونجد والطائف.

وقرن المنازل ستةُ أميال[1]، فيكون موقعُها بذلك شمالَ الطائف، ولعله يكون أيضاً إلى الغرب والشمال من موقع عكاظ، ولكنها اليومَ باتتْ مجهولةً بعدما خربت. وقد ذكر الهمداني أن سَراةَ الطائف، غَوْرُها مَكةُ، ونجْدُها دِيارُ هَوازِنَ من عكاظِ والفُتُق[2]. وقيل كذلك إنه كان بجنب عكاظ وادٍ عريضٌ، من بلاد قيس بن عيلان، يُقال له رَحْرَحَان، وقع فيه يومان من أيام العرب، ولم يَعُدِ اليوم معروفاً[3]. وذكر ياقوت أن موضعَ «كلاخ» قريبٌ من عكاظ[4]، وهو قريةٌ بها مَزارعُ، تقع شمالَ وادي بَسْل، ما تزال معروفةً[5].



ويُضَافُ هنا أيضاً ما نقله الجاسِرُ وعزَّامٌ وابنُ بُليهد، في موقع عكاظ، عن صفة جزيرة العرب للهمداني، وقد أثْبَتَ في كتابه أُرْجُوزةً، ذكر فيها صاحبُها عيسى بنُ أحمد الرِدَاعيُّ اليمانيُّ، المواضعَ التي مرَّ بها تِباعاً، في طريقه من صنعاء إلى مكة للحجِّ[6]. . . على أن هنالك طريقين من اليمن إلى مكة، أحَدُهما تهاميٌّ، يأخذُ على ساحل البحر الأحمر، وهو أَطْولُ مسافةً، والآخَرُ يأخذُ على صنعاءَ، فصَعْدَة، فنجْرانَ[7]، فبِيشَة، فتَبالَة، فتُرَبَة، فأَوْقَح، فكلاخ، فجِلْدان، فعكاظ، أو الطائف، فرأس المناقب، فقَرْن المنازل أي السيْل الكبير، وينتهي إلى مكة[8]. وهذا الطريق هو الذي سلكهُ

---

(١) موقع عكاظ: ٤٤ ـ ٤٦، ٦٧.
(٢) المرجع نفسه: ٤٩.
(٣) مجمع الأمثال: ٢/ ٥٢٠، ولسان العرب: ٢/ ٤٤٧ (رحح).
(٤) معجم البلدان: ٤/ ٤٧٤.
(٥) موقع عكاظ: ٦٥.
(٦) المرجع نفسه: ٢٣ ـ ٢٧، ٣٣ ـ ٣٤، ٥٨ ـ ٥٩.
(٧) معجم البلدان: ٥/ ١٨٧.
(٨) موقع عكاظ: ٥٥ ـ ٥٦.

صاحبُ الأُرْجُوزَة، ويبدو من نَسَقِ المواضع، التي جَعَلَ يذكرُها في أبياته، أن موقع عكاظٍ إنما هو في مُحيط الطائف، قريبٌ منه، وقبل السَّيْل الكبير، في طريق الذاهب إلى مكة. وسنذكرُ، فيما يلي، موضعَ الشاهِدِ فقط من أبيات الأُرجُوزة، وذلك بعد خروج الراجز من «تُرَبَة»، ووصوله إلى «أَوْقَح» حيث قال يخاطبُ أولاً ناقَتَهُ، ثم زوجتَه هِنْداً:

قلتُ لها في مُطْلَخِمٍّ طاخِ ... «بأَوْقَحٍ» ذي المنهل الوضَّاخِ[1]
يا ناقُ هَمَّ الشهرُ بانْسِلاخِ ... فأزْمِعي بالجِدِّ، لا التراخي[2]
فانْتَهضَتْ بمُشْرِفٍ شَمَّاخِ ... قاربةً للوِرْدِ من «كَلاخِ»[3]
يا هندُ لو أبصرتِ عن عِيَانِ ... قَلائِصاً يُوضِعْنَ في «جِلْدانِ»[4]
مُشْفِقَةً من زاجرٍ كَظَّاظِ ... مُسْهِلةً للخَبْتِ من «عكاظِ»[5]
تاركةً «قُرّانَ للمَنَاقِبِ» ... و «شَرِباً» في جُنْحِ ليلٍ واقِبِ[6]
واستبدلتْ بالخوف دارَ الأمنِ ... وجاءتِ الميقاتَ «وادي قَرْنِ»[7]

ومن الواضح أن الرجل ترك مَنْهلَ «أَوْقح» إلى «كلاخ»، ثم إلى «جِلْدان»، ثم نزل إلى «عكاظ» فاجتاز فيها «شَرِباً وقُرَّانَ» إلى «المناقب»، ثم

---

(١) المُطلَخِمُّ: الشديد. الطاخي: الليلُ المظلم. الوضَّاخ: الممتلىء.
(٢) انسَلَخ الشهر: مضى ولعلَّه أراد شهر ذي القعدة. الزَّمَاعُ: المَضَاءُ في الأمر والعزمُ عليه.
(٣) المُشْرِف: العالي. الشمَّاخ: المتكَبِّرُ أو المرتفِعُ.
(٤) القَلائِصُ: الإبلُ الشابَّةُ الطويلة القوائم، مُفْردها: قَلُوص. أَوْضَعَ البعيرُ: أسرع في سيره، ويُوضِعْن: يُسْرِعن.
(٥) الزاجِرُ: السائق والدافع. الكَظَّاظُ: المغْتَاظُ أشدَّ الغيظ. مُسْهِلَةً: نازلةً من الجبل إلى السهل. الخَبْتُ: الأرضُ الواسعةُ المطمئِنَّةُ (وهو وصف لأرض عكاظ).
(٦) الواقِبُ: المُظْلم.
(٧) الميقات: حدودُ الحَرَم، حيث يُحْرِمُ الحاجُّ.

إلى وادي «قَرْن» في السيل الكبير، أي «قرن المنازل». . . ويبدو من بقية الأُرْجُوزَة أنه تابَعَ طريقه بعدئذٍ إلى مكة، سالِكاً وادي نخلة من طريق البَوْبَاة، وهي البُهَيْتَاء، ويقالُ لها: البُهَيْتَة، فالزَّيْمَة، فسَبُوحَة، فمنهل حنين، فالشرائع، فمكة المكرَّمة.

والمتقدمون الذين قالوا إن سوق عكاظ تقعُ على الطريق بين وادي نخلة والطائف، للمسافر من مكة إلى اليمن، أرادوا هذا الطريق، وهو الذي سلَكَتْهُ قريشٌ في أول يومٍ من الفِجَار الأخير، وسُمِّي يومَ نخلة[1]، وذلك لمّا جاءَها في عكاظ مقتلُ سيِّدِ هوازِنَ عُرْوَة بنِ جعفرٍ الكِلاَبيّ، بيد حلِيفها البرَّاضِ بنِ قيسٍ الكِنَانيّ، فقد خَشِيَتِ انْدِلاعَ الحربِ بينها وبين قبائل هوازِنَ، وهم أصحابُ السوق، وأهلُ تلك البلادِ من «تَبَالَة»[2] إلى حدود «نَخْلة»[3] فاحتالتْ بخُدْعةٍ على سادة هوازن، وارتحلتْ من السوق مع الفجر، فاجتازت وادي شَرِب إلى قرن المنازل، قاصدةً نَخْلة اليمانية. . . وكان الخبرُ أتَىٰ هوازِنَ آخرَ النهار[4]، بعد ارتحال قريش، فركبوا في طلبهم حتى أدركوهم بنخلة[5]. فاقْتَتَلوا قتالاً يسيراً، حتى دخلت قريشٌ حدودَ

---

(١) موقع عكاظ: ٤٥.

(٢) تَبالة: قريةٌ من تهامة الحجاز، تقع بعد «بيشة»، وهي قريةٌ من جهة اليمن، غنَّاءُ، في وادٍ كثير الأهل، وبينهما أربعة وعشرون ميلاً، ويقعُ بعد بيشة مَوْضعُ «تُرَبَة»، وهو وادٍ على أربع ليالٍ من الطائف، يسكنه بنو عامر من هوازن. (معجم البلدان: ١/٥٢٩، و ٢/٩، و ٢/٢١، وتاج العروس: ٢/٦٨ ـ ٦٩ ترب).

(٣) موقع عكاظ: ٥٤ ـ ٥٥ و ٥٨.

(٤) أيام العرب في الجاهلية: ٣٣٠.

(٥) الكامل: ١/٥٩٢.

الحرم المكّي مع الليل، فكَفَّتْ عنهم هوازنُ، ويومئذٍ قال شاعرُ هوازِنَ خِدَاشُ بنُ زهير العامريُّ[1]:

فإن سَمعتُم بجيشٍ سَالِكٍ «شَرِباً» أو «بَطْنَ مَرٍّ» فأَخْفُوا الجَرْسَ واكْتَتِمُوا
يـا شَـدَّةً مـا شَـدَدْنـا غيـرَ كـاذبـةٍ على سَخِينَةَ لولا الليلُ والحَرَمُ[2]

ومنه يتَّضِحُ أن المعركة كانت في «بَطن مَرٍّ»، وهو موضعٌ يجتمع عنده وادِيَا النخلتين: اليمانيَّةِ والشامِيَّةِ، فيصيران وادياً واحداً هو وادي نخلة[3]، وهو المرحلةُ الأولى للمسافر من مكة، أي على أربعة وعشرين ميلاً تقريباً، أو مسيرة ليلة[4]. وقد ذكر ابنُ بُلَيْهد في تحقيقه موقعَ عكاظ[5]، أن تلك الوقعة كانت في بطن نَخْلة، بين الزَّيْمَةِ والبُهَيْتَة[6].

ويُلاحَظُ هنا أن الشاعر أشار في البيت الأول إلى ارتحال قريش عن عكاظ بالخديعة، وفي البيت الثاني سمَّىٰ قريشاً: سخِينَةً، والسخينةُ طعامٌ

---

(١) خِدَاشُ بنُ زهير بن ربيعة: شاعر جاهلي من أشراف بني عامر بن صعصعة من هوازن. غلب على شعره الفخرُ والحماسةُ، وكان يهجو عبدَ الله بنَ جُدْعان التيْميَّ، ولم يكن رآهُ، فلما رآه ندم على هجائه. وقد غلط الزركليُّ صاحبُ الأعلام (٢/ ٣٠٢) إذ قال إنه كان يُلقَّبُ فارسَ الضَّحْيَاء، وإنما فارس الضحياء أخو جَدِّهِ: عمرو بن عامر! (الشعر والشعراء: ٦٤٦).

(٢) الأغاني: ٢٢/ ٦٧.

(٣) معجم البلدان: ١/ ٤٤٩.

(٤) المرجع نفسه: ٥/ ٢٧٧.

(٥) موقع عكاظ: ٣٩.

(٦) البُهَيْتَة: موضع قرب السيل الكبير بوادي نخلة اليمانية، يسكنه بنو سعد بن بكر بن هوازن، الذين استرضع فيهم رسولُ الله عليه السلام. والزَّيْمَة: قريةٌ من أرض مكة، بوادي نخلة، وهي أولُ دربِ اليمانية. (معجم البلدان: ١/ ٥٠٦، ٣/ ١٦٥).

يُتَّخذُ من الدقيق والماء أو اللبن، أغْلَظُ من الحَسَاءِ، وأرَقُّ من العَصِيدة، يُؤكل في شِدَّة الزمن، وغلاءِ السعر، وعَجفِ المال، وكانت قريشٌ تُكْثِر من أكلها، فعُيِّرتْ بها حتى سُمُّوا سَخِينةً[1]. . .

أما سائرُ المواضِع التي مَرَّ بها الراجِزُ فأكثَرُها ما يزال معروفاً، ولكننا نَجتَزِىءُ بما يعنينا أمرُه، فأَوْقَحُ موضعٌ به مَنْهلُ ماءٍ عَذْبٍ، يقعُ إلى الشرق من وادي كلاخ، بَعْد جبل عُنٍّ إلى غَربه. وكلاخُ، كما ذكرنا، وادٍ قريبٌ من عكاظ، فيه قريةٌ ومَزَارعُ، ماؤه ثقيلٌ ملحٌ[2]، يقع إلى الشمال والشرق من بَسْل. وبَسْلُ من أوْدِيَة الطائف، جنوبُه لبني فَهْم بن عمرو، وشمالُه لبني نصر بن معاوية، وكلاهما من قبائل قيس بن عيلان، وبين بَسْل ووادي لِيَّة بلدٌ يُسمَّىٰ جِلْدَان[3]، مَوقعُه إلى الشمال من كلاخ، وهو في أرضٍ سهلةٍ، مُتَّصلةٍ بسهل رُكْبَة[4]، وفيها هضبةٌ سوداءُ، كانت تُسمَّىٰ «بَتَعَة»، وكانوا يُعَظمونها[5]، ويُسَمُّونها اليومَ: حَلاَةَ جِلْدان[6]، وهي من منازل بني نصر بن معاوية[7]. أمّا «لِيَّة» فوادٍ من نواحي الطائف[8]، إلى شرقها، وهو من منازل بني نصر بن معاوية، وقيل: إن جنوبه لبني ثقيف، وشماله لبني نصر[9]،

---

(١) لسان العرب: ١٣/ ٢٠٦ (سخن).
(٢) موقع عكاظ: ٢٤، ٣٣، ٥٨.
(٣) معجم البلدان: ١/ ٤٢٣.
(٤) موقع عكاظ: ٦٣.
(٥) معجم البلدان: ١/ ٣٣٥، ٤٢٣، و ٢/ ١٤.
(٦) موقع عكاظ: ٦٣.
(٧) معجم البلدان: ٢/ ١٥٠ ـ ١٥١.
(٨) المرجع نفسه: ٥/ ٣٠.
(٩) موقع عكاظ: ٥٤، والمفصَّل: ٤/ ١٤٢.

وهما من هوازن. وبعد جِلْدَانَ، نزلَ الراجزُ إلى عكاظ وسَهْلِها الواسِع، واجتاز فيه مواضِعَ شَرِبٍ وقُرَّانَ إلى المناقب، ليُقْبِلَ بعدها على وادي قَرْنٍ، مِيقاتِ الإِحْرام، وهو قَرْنُ المنازل عند السيل الكبير... وعَدَّ الهمدانيُّ مواضِعَ شَرِبٍ وقُرَّان من أرض عكاظ، يضربُ على مَشْرقها جبلُ الحَضَنِ، حَضَنِ عكاظ، وهو على مَسيرةِ يومٍ وبعضِ يوم من هذا الطريق[١]، موقعُه بأعْلا نَجْدٍ، أي في حَدِّها الجنوبي إلى الغرب، ويُقال في المثَل: أَنْجَدَ من رأى حَضَناً[٢]، أي بَلَغَ بلادَ نَجْدٍ إذا رآه. وقُرَّانُ وادٍ قُربَ الطائف[٣]، ينحدر من الأرض الواقعة بين وادي الحَوِيَّة ووادي السيل الصغير، وهو في غَرْبه، ويلتقي مِن ثَمَّ بوادي العقيق الكبير، ويقعُ وادي قُرَّانَ غربَ عكاظ، يفصِلُ بينهما جبالٌ صغيرة، تمتدُّ من الجنوب الغربي، إلى الشمال الشرقيّ[٤]. أما المنَاقِبُ فمعلومٌ أنها الرِّيعَان[٥]، التي يهبط إليها المسافرُ إلى مكة، بعد أن يجتازَ السَّيْلَ الصغير، في طريقه إلى قَرْنِ المنازل[٦].



وأخيراً، إن ما أَجْمَلناهُ من مذاهب القدماء في مَوضِع عكاظ، وما أَضَفْناهُ إليها من أقوال بعض الباحثين المتأخرين، ثم ما أَثْبَتْناه من بيانٍ للمَعَالم التي كانت تكتَنِفُ مَوْضعَ عكاظ، ومن تَعْيينٍ لمواقِعِها منه، ومَوْقعِه منها... من شأنه مُجْتَمِعاً أن يأتيَ مُصَدِّقاً لمَا ذهب إليه:

---

(١) موقع عكاظ: ٤٩، ٦٣.
(٢) معجم البلدان: ٢/ ٢٧١.
(٣) المرجع نفسه: ٣١٨/٤.
(٤) موقع عكاظ: ٦٥.
(٥) الرِّيعَانُ: مفردُها الرِيعُ، وهي الطرُق المنفرجةُ في الجبل.
(٦) موقع عكاظ. ٢٧، ٣٤، ٤٥.

١ ـ معظمُ المؤرِّخين في تَعْيينهم مَوْقعَ عكاظ بين وادي نَخْلة والطائف، على طريق مكة ـ صنعاء، وفي تحديدِهم مَوْضِعَه بالحدِّ الجنوبيِّ من نَجْدٍ، في بلاد قَيس بن عَيْلان.

٢ ـ الأزرقيُّ في قوله: «. . . وعكاظ وراءَ قرن المنازل بمرحلة، على طريق صنعاء، في عَمَل الطائف، على بريد منها»[١].

٣ ـ الأَصْمعيُّ في قوله: «عكاظُ نَخْلٌ في وادٍ، بينه وبين الطائف ليلةٌ، وبينه وبين مكة ثلاثُ ليالٍ، وبه كانت تقومُ سوقُ العرب. . .»[٢].

٤ ـ عرَّامُ بنُ الأَصْبَغ في وَصْفِه أرضَ عكاظ بأنها مُسْتَويَةٌ، غيرُ وَعرة، ليس بها جبلٌ أو عَلَمٌ، وبأنها قريبةٌ من جبل عُنٍّ[٣].

٥ ـ الهمدانيُّ فيما ذكره من أُرجوزة الرِّدَاعيّ، التي رَسمتْ طريقَ صنعاءَ ـ مكة، وعيَّنَتْ موقعَ عكاظٍ بعد هَضبة جِلْدَان، وقبل المناقب، على التحديد.

ولا أرى مُوجِباً للتوقُّفِ كثيراً عند الفرق، بين تقديرالأزرقي لبُعْدِ عكاظ عن الطائف ببَريدٍ، أي نحوِ إثني عشر ميلاً، وتقديرِ الأصمعيّ له بليلةٍ، أي نحو أربعة وعشرين ميلاً، وذلك لأمرين:

الأوَّلُ: أن أرضَ عكاظٍ سهلٌ واسعٌ ممتدٌّ، كان يتَّسِعُ لعَدَدٍ من الألوف بخِيَامِهم وأنعامهم وسائر بضائعهم، ولم تكن بُقْعةً صغيرةً لِيَسْهُلَ قياسُ بُعْدِها عن الطائف، والطائفُ كذلك لم يكن قريةً صغيرةً منفردةً، بل كان منطقةً واسعةً مُتَرامِيةَ الأطراف.

---

(١) أخبار مكة: ١/ ١٩٠.

(٢) معجم البلدان: ٤/ ١٤٢.

(٣) أسماء جبال تهامة: ٤٣.

والآخَرُ: إتّفاقُهما معاً في تَقْديرهما للمسافة بين عكاظ وقَرن المنازل بليلةٍ واحدةٍ، صرَّح بها الأزرقيُّ، وكَنَىٰ عنها الأَصمعيُّ، بتقديره المسَافةَ بين مكة وعكاظ بثلاث ليالٍ، ونحن نعلم أن ما بين مكة وقرن المنازل ليلتان، فيكون ما بين قرن المنازل وعكاظ ليلةً واحدةً. أمَّا قولُ الأصمعي بأن عكاظ نَخْلٌ في وادٍ، فقد علمنا أن هذا الوادي هو وادي شَرِبٍ قطعاً، ولا شك في ذلك، والموضعُ بات واضحاً، فَلْنَنظُرْ أين رأى الباحثون المتأخِّرون هذا الموضع...

* * *

(٢) ـ الكشفُ عن موضع عكاظ:

١ ـ نُشِرَ للشيخ العَلاَّمة حمد الجاسِر، سنة (١٩٥٠ م)، تحقيقٌ جيِّد في موضع عكاظ، كان أَعَدَّهُ سنة (١٩٤٤ م = ١٣٦٣ هـ). وجعله د. عَزَّام من ضمن كتابه «موقع عكاظ». وقد قدَّم الرجلُ لتحقيقه بالقول: «هذه كلمةٌ، حاولتُ أن أُوضِّح بها موقعَ سوق عكاظ، مُورداً أقوال مُتَقدِّمي المؤرِّخين، وواصِفاً، على ضَوء مُشَاهدتي، المكانَ الذي لا يُخامرني شكٌّ في أنه هو موقعُ ذلك السوق، ومُحاولاً تطبيق تلك الأقوال على أوصاف ذلك المكان...»[١].

وبعد أن تَقَصَّى أقوالَ المتقدمين، قَولاً قَولاً، ولم يَدَعْ منها شيئاً، مع الشرح والتعليق، انتهى إلى أنها في جُملتها، وعلى اختلاف عباراتها، متقاربةٌ في المعنى، متطابقةٌ في الدلالة، وقد لا يوجد للقدماء ما يُخالفها[٢]... ثم ذكر أن تلك الأقوال تَتَلخَّصُ بأن موقع عكاظ:

---

(١) موقع عكاظ: ٤٣.

(٢) المرجع نفسه: ٥٣.

● كان في أعْلَى نَجْد، وليس في تهامة، أو الحجاز، أو اليمن.

● وأنه في بلاد بعض قبائل قيس بن عيلان من مُضَر.

● وأنه على طريق اليمن من مكة، بين المناقب وكلاخ.. أي وراء قرن المنازل.

● وأنه يبعد عن الطائف مسافةً، اختلف المتقدِّمُون في تقديرها، بين عشرة أميال أو اثنَيْ عَشَرَ ميلاً، ومَسيرةِ يوم، أي نحو أربعةٍ وعشرين ميلاً، ولا يُعَدُّ هذا الاختلافُ جوهرياً، لأن الطائف إسمٌ لا يُطلَق على المدينة وحَسْب، بل وعلى القُرى والأمكنة التابعة لها، مِن حَوْلها.

● وأنه يقعُ في صحراءَ مُسْتَوِيةٍ، خاليةٍ من الأَعْلام والجبال، سوى صخراتٍ كِبَارٍ، وحُرَيْرةٍ في مَهبِّ الجنوب منه.

● وأنه مُتَّصِلٌ بأرض رُكْبَةَ، ويقع جبلُ حَضَنٍ في مَشْرقه، على مسافة يومٍ وبعضِ يوم، ووادي قُرَّانَ في مَغْربه، بقُرْبه.

● وأن من أَوْديته وادي شَرِب[١]...

وانتهى الشيخ من هذه الخُلاصة إلى القول: «إن جميع الأوصاف المُتَقدِّمةِ، تنطبق انطباقاً تامّاً، على الأرض الواسعة، الواقعةِ شَرْقَ الطائف، بمَيْلٍ نحو الشمال، خارجَ سلسلة الجبال المُطِيفَةِ به. وتبعدُ تلك الأرضُ عن الطائف نحو اثنين وعشرين ميلاً تقريباً. ويَحُدُّها من الغرب: جبالُ بلادِ بني عَدْوان في العَقْربِ وشَرِبٍ والعُبَيْلاء[٢]. ومن الجنوب: أبْرَقُ العُبَيْلاء[٣]،

---

(١) موقع عكاظ: ٥٤ ـ ٦١.

(٢) **العَقْربُ وشَرِبٌ والعُبَيلاءُ**: كانت في الجاهلية، وما تزال حتى اليوم لبني عَدْوان بنِ عمرو بن قيس عيلان. وتقع قريةُ شَرِبٍ على ميل واحدٍ من الحَوِيَّة.

(٣) **الأبرق**: الأرض الغليظةُ فيها حجارةٌ ورمل وطين.

وضِلَعُ الخَلَص[1]. ومن الشرق: صحراءُ رُكْبَة. ومن الشمال: طرَفُ رُكْبَة، والجبالُ الواقعةُ شرقَ وادي قُرَّان... وتشملُ هذه الأرضُ: وادي الأُخَيْضِر، ووادي شَرِب، عندما يَخرُجان من الجبال ويَفِيضَانِ في الصحراء، وما بينهما من الأرض، وما اتصل بها من طَرفِ رُكْبة»[2].

ثم أشار الجاسِرُ إلى المواضع الواقعةِ قربَ عكاظ، التي يُستدلُّ بها على مَوضعه، فذكر أن منها ما يزال معروفاً باسمه حتى اليوم، مثل: بُسّ، وجلدان، وحَضَن، ورُكبة، وشَرِب، والعَبلاء، وعُنّ، وقُرّان، وكلاخ، وضِلَع الخَلَص (الحريرة)، والعَقْرب، والأُخَيضِر، وغيرِها... ومنها ما صار مجهولاً، مثل: الأُثَيْداء، وشَمْطة، وبَقْعاء، والخُدود، والفُتق والقفا[3]... لكنَّ ما عرَّفهُ منها كان كافياً للتحقيق، الذي جعله أوَّلَ مَن اكتشفَ موضعَ عكاظ، وعَيَّن حُدودَهُ ومَعَالِمَهُ، وأَثْبتَ ذلك بالأَدلَّة القاطعة، والبراهين الساطعة.



٢ ـ ويبدو أن تحقيق الشيخ الجاسِر، كان إرْهاصاً لتحقيقٍ آخَرَ، قام به العالمُ النجديُّ محمد بن بُليهد مرَّتَين، في الموضعِ عَيْنِهِ، عند مَجْمع الوادِيَيْن: شَرِبٍ والأُخَيْضِر، المرةُ الأولى كانت نحو سنة (١٩٤٩ م)، في صُحْبة المغفور له الملك فيصل بن عبد العزيز، وكان ما يزال أميراً، والثانية كانت سنة (١٩٥٠ م)، وقد صَحِبَهُ فيها عبدُ الوهاب عزّام، وهو ما يُفهم من كلام الأخير حيث قال: «... وقد أخبرني منذ أشهرٍ، الصديقُ الأديبُ

---

(١) ضِلَع الخَلَص: الحُريرة.
(٢) موقع عكاظ: ٦٢.
(٣) المرجع نفسه: ٦٢ ـ ٦٧.

الشيخُ أحمد الغزَّاوي، شاعرُ جلالة الملك عبد العزيز، أن سُموَّ الأمير فيصل أخبرهُ أنه ذهب إلى موضع عكاظ، وليس هو بالسَّيْل الكبير، ولا بالسَّيْل الصغير، وأنه اجتمعت أدِلَّةٌ كثيرةٌ على أن في هذا الموضع، لا غيره، كانت سوقُ عكاظ. وكان ذَهابُ سُموِّ الأمير إليه في رُجوعِهِ من الصَّيْد إلى الطائف، وكان معه الشيخُ محمدُ بن بُليهد، وهو عالم نَجْديٌّ واسعُ المعرفة بأخبار العرب... عارفٌ بكثير من الأمكنة، التي ذُكرتْ في الأشعار والأخبار، ذهب إليها، ورآها رأيَ العَيْن. وقد اجتمع لهذا الشيخ البحَّاثَة نُقُولٌ وأَدِلَّةٌ، لا تَدَعُ شكّاً في أن هذا الموضعَ كان هو مجتمعَ العرب في السوق، التي ذاع ذِكْرُها، وطار صِيتُها: سُوقِ عكاظ»[1].

فأمّا ابنُ بُلَيهد، فقد استند في تحقيقه الموضعَ، كما رآهُ، إلى خمسة أدِلَّة، **أوَّلُها**: ما جاء في أُرجوزة الرِدَاعيّ اليمانيّ التي رسم فيها طريق مكة من صنعاء، **وثانيها**: نصٌّ عَزاهُ إلى عَرَّام السُّلَميِّ، وهو مُصَحَّفٌ كما رأينا. **وثالثُها**: قولُ الأصمعي في تعيين موقع عكاظ، **ورابعُها**: ما ذكرهُ الأفغانيُّ، في كتابه «أسواق العرب»[2]، عن وقائع الفِجَار التي جرت على مواضِعَ من عكاظ، مع أن الأفغاني لم يكن أكثرَ من ناقلٍ، لم يُحقِّق فيها شيئاً، ولم يأتِ بجديد. **وخامِسُها**: بيتُ شعرٍ قاله الكُمَيْتُ بن زيد الأسدي[3]، في قصائده

(١) موقع عكاظ: ١٧ ـ ١٨.

(٢) سَمّاهُ ابنُ بُليهد «أيامَ العرب»، وهو غلط، وليس للأفغاني كتابٌ بهذا الإسم، وإنما هو أسواق العرب.

(٣) **الكُمَيْتُ بن زيد بن خُنَيْس الأسدي**: (٦٠ ـ ١٢٦ هـ = ٦٨٠ ـ ٧٤٤ م). شاعر الهاشميين في العصر الأموي، اشتُهِر بانحيازِهِ إليهم، ومَدائحِه فيهم، وكان فارساً شجاعاً سَخِيّاً. وهو من أصحاب الملحمات.

الهاشميات[1]، وهو:

أهل الحنيفةِ، فاسْألْ عن مَكانِهِمُ   بالمَوْقِفيْن، ومُلْقَىٰ الرَّحْلِ من شَرِبِ

ومُلْقَىٰ الرَّحْلِ من شَرِبٍ كنايةٌ عن الموضع، الذي كانت تُلْقَى فيه الرِحَالُ، من وادي شَرِب، وهو سوقُ عكاظ. ذكر ذلك لابْنِ بليهد مُعَلِّمُه الشيخُ ابنُ عيسى، وهو إبراهيمُ بنُ صالح[2]، المؤرِّخُ النجديُّ، وكان وَجَدهُ في كتاب مخطوطٍ، بإحدى مكتبات البصرة، يتحدَّث عن أخبار نجْدٍ وجبالها ومياهها، وفيه أن شَرِباً والأُخَيْضِرَ وادِيَان قُرْبَ الطائف، يَنصَبَّان من الغرب إلى الشرق، وعكاظٌ مَجْمَعُ الواديين[3].

وعلى ذلك، خَلُص ابنُ بُلَيهد إلى أن موضعَ عكاظ هو مَجْمعُ الواديين: شَرِبٍ والأُخَيضِر، يَحدُّهُ من الشرق نبعُ ماءٍ يُسمَّى المبعوث، ومن الغرب، على مسافة اثنَيْ عَشَرَ كِيلاً منه، مطارُ الحَوِيَّة[4].



وأما عبد الوهاب عزَّام، فارْتَحل إلى مَوْضع عكاظ، عند مَجْمع الوادِيَيْن، لِمُعَايَنَةِ المعالم الجغرافية للموضع، والمطابقة بينها وبين ما ذُكر عنها في أقوال المؤرِّخين... فوقف على الحُرَيْرة، المعروفةِ اليومَ بِحَرَّةِ الخَلَص، ونظر إلى أقصى الجنوب، فرأى هضبةَ جلدان، وتُسمَّى اليومَ حَلاةَ

---

(١) موقع عكاظ: ٣٢.
(٢) إبراهيم بن صالح بن إبراهيم: (١٢٧٠ ـ ١٣٤٣ هـ = ١٨٥٤ ـ ١٩٢٥ م). وُلد في بلدة أُشَيْقِر، بإقليم الوشم من نَجْد، وتعلَّم فيها. رحَل إلى الهند والأحْسَاء والبصرة وغيرها، ثم استقرَّ في بلدته، يُقرِئُ العلم، ويُدوِّن الأخبار. توفي في عُنَيْزة بالقَصِيم.
(٣) موقع عكاظ: ٣٧ ـ ٣٨.
(٤) المرجع نفسه: ٣١، ٣٢.

جلدان، ثم نظر إلى الجنوب والغرب، فرأى العبلاءَ، وهي أَكَمةٌ بيضاءُ، تقع وراءَها العُبَيلاءُ قريةٌ بني عَذْوان، ورأى هنالك وادي شَرِبٍ ينحدر إلى الشرق والشمال، وتلتقي به أوديةٌ، منها وادي الأُخَيْضر يُلاقيه في سهل عكاظ، وتأكَّد له أن عكاظاً يقع في طريق اليمن إلى مكة، قبل قرن المنازل، أي السَّيْل الكبير الذي ظن بعضُ الناس أنه موقعُ عكاظ، واستدلَّ على ذلك بقول الأزرقي[1]. ثم نظر إلى الشمال والغرب من مُقامِهِ فوق الحَرَّة، فإذا جُبَيْلٌ أَدْكَنُ، قيل له إنه العُرْفُ[2]، ووراءَهُ وادي قُرَّان، ثم رأى من بعيدٍ جبالَ عُشَيْرة، أي وراء العُرْفِ وقُرَّان[3].

ثم زادَهُ وثوقاً من سلامة هذا التحديد لموقع عكاظ، أنه نظر حيث أُشِير له في سهل عكاظ، فرأى آثارَ آبارٍ كثيرةٍ، طُمَّتْ بالحجارة، أو طَمَّها الوادي، وهذا دليلٌ على أن الماء كان مُتوافراً في هذا الموضع لسِقَاية الناس والأنعام[4]. ثم نزل من الحُرَيْرة، فجال في سهل عكاظ، وقال: «... وعَبَرنا وادي الأُخيضِر، فارتفعنا عن سهل عكاظ، نُؤُمُّ الحَوِيَّةَ فالطائف... وقد بلغتُ أَرَباً من عكاظ، وأيقنتُ أنه بهذا الموضع لا ريب، وأن قولنا فيه قولٌ فَصْلٌ»[5].

وأخيراً، لا بدَّ من الإشارة إلى أنني أخذتُ عليه ما عَزَاهُ إلى ياقوت من

---

(١) موقع عكاظ: ٢١ ـ ٢٣، ٢٨.

(٢) **العُرْفُ**: موضع عالٍ مرتفعٌ في نجْدٍ، لبني عمرو بن كلاب، به مُلَيحةُ ماءةٍ من أطيب مياه نجد، وهو عُرْفَان: الأعلىٰ والأسفل. لكنَّ عزَّام صحَّفَهُ إلى العَرفا. أنظر معجم البلدان: ١٠٦/٤.

(٣) موقع عكاظ: ٢١.

(٤) المرجع نفسه: ٢٩.

(٥) موقع عكاظ: ٣٠.

القولِ بأن شَرِباً في عكاظ[١]، مع أن الرجُلَ لم يقل ذلك[٢]، بل قاله غيره. وكنَّا عَرَضْنا كثيراً من مشاهداته، وناقشنا بعضَها، في حديثنا عن مذاهب المؤرخين في موضع عكاظ، وأخذنا عليه في تَعيينه موقعَ الحُرَيْرة بشرقِ عكاظ، استنادَهُ إلى نصٍّ غيرِ موجودٍ أصلاً في كتاب عرَّام السُّلَمي.

* * *

٣ ـ ثم عَلَّق الأستاذ رشدي مَلْحَس، سنة (١٩٦٥ م)، في تحقيقه كتابَ أخبار مكة للأزرقي، على موقع عكاظ فقال في الحاشية: «عكاظ بالقُرب من نواحي رُكْبَة، إلى جهات الطائف»[٣]، فأنْهَى بذلك كلَّ خلاف، وقطع كلَّ شكٍّ، وهو مُحقِّق جغرافيٌّ جيّدٌ، حقَّق كثيراً من الأمكنة والمنازل التاريخية في جزيرة العرب، أثناء إقامةٍ بالديوان الملكيّ السعوديّ، استمرَّتْ زهاءَ ثلاثين عاماً[٤].

ولعلّ من المفيد أن أُشِيرَ هنا إلى تعليقٍ آخَر للسيد مَلْحَس، ذكر فيه أن مدينة الطائف تبعُدُ اليومَ عن مكة، مئةً وسبعةً وثلاثين كِيلاً، للسيارات، بطريق السَّيْل الكبير[٥]، أي قرن المنازل. ونظرتُ فوجدتُ هذا القَدْرَ يساوي نحوَ خمسةٍ وثمانين ميلاً، وهو قريبٌ جداً من تقدير المؤرِّخين المتقدِّمين للمسافة من مكة إلى عكاظ، ومنه إلى الطائف. مع العلم بأن طريق السيارات أقصَرُ، لأنه ينحرف بعد المناقب يميناً، ويتَّجهُ مباشرةً إلى الطائف، بينما

---

(١) موقع عكاظ: ٢١.

(٢) معجم البلدان: ٣/ ٣٣٢.

(٣) أخبار مكة: ١/ ١٨٧، الحاشية رقم ٩.

(٤) الأعلام: ٣/ ٢١.

(٥) أخبار مكة: ٢/ ١٥٧، الحاشية رقم ٦.

طريقُ الإبِل لم يكن ينحرفُ بعد المناقب، بل كان يتجه شرقاً، فيجوز الجبالَ، ويمرُّ بعكاظ، ثم ينتهي إلى الطائف[1]. والأزرقيُّ قدَّر أن بين قرن المنازل وعكاظٍ ليلةً، وأن بين عكاظٍ والطائف بريداً، ونحن نعلم أن بين مكة وقرن المنازل ليلتيْن، ومجموعُ هذا يساوي أربعةً وثمانين ميلاً[2]. والأصمعيُّ قَدَّر ما بين مكة وعكاظ بثلاث ليالٍ، وما بين عكاظٍ والطائف بليلةٍ واحدة، وهذا يُساوي ستةً وتسعين مِيلاً. وياقوتُ ذكر أن بين مكة وقرنِ المنازل واحداً وخمسين ميلاً، وبين قرنِ المنازل والطائف ستةً وثلاثين ميلاً، وهو يساوي سبعةً وثمانين ميلاً.

وأعتقد أن من شأن ذلك كله، أن يزيدَ الأَدِلَّةَ ثُبوتاً على صَوابِ ما اتَّبعناهُ في تحديد مَوقع عكاظ، على طريق مكة من صنعاء، بين جلدان والمناقب، في مكانٍ مُتَّصلٍ بالطرَفِ الجنوبي الغربي من سهل رُكْبة، ومُتَّصِلٍ بالطائف في نواحيها الشرقية الشمالية، ويقعُ قبلَ السَّيْل الكبير بنحو أربعة وعشرين ميلاً، وهو مَجْمَعُ الواديين: شَرِبٍ والأُخَيضِر، عندما يخرجان من الجبال، ويَفيضان في الصحراء.

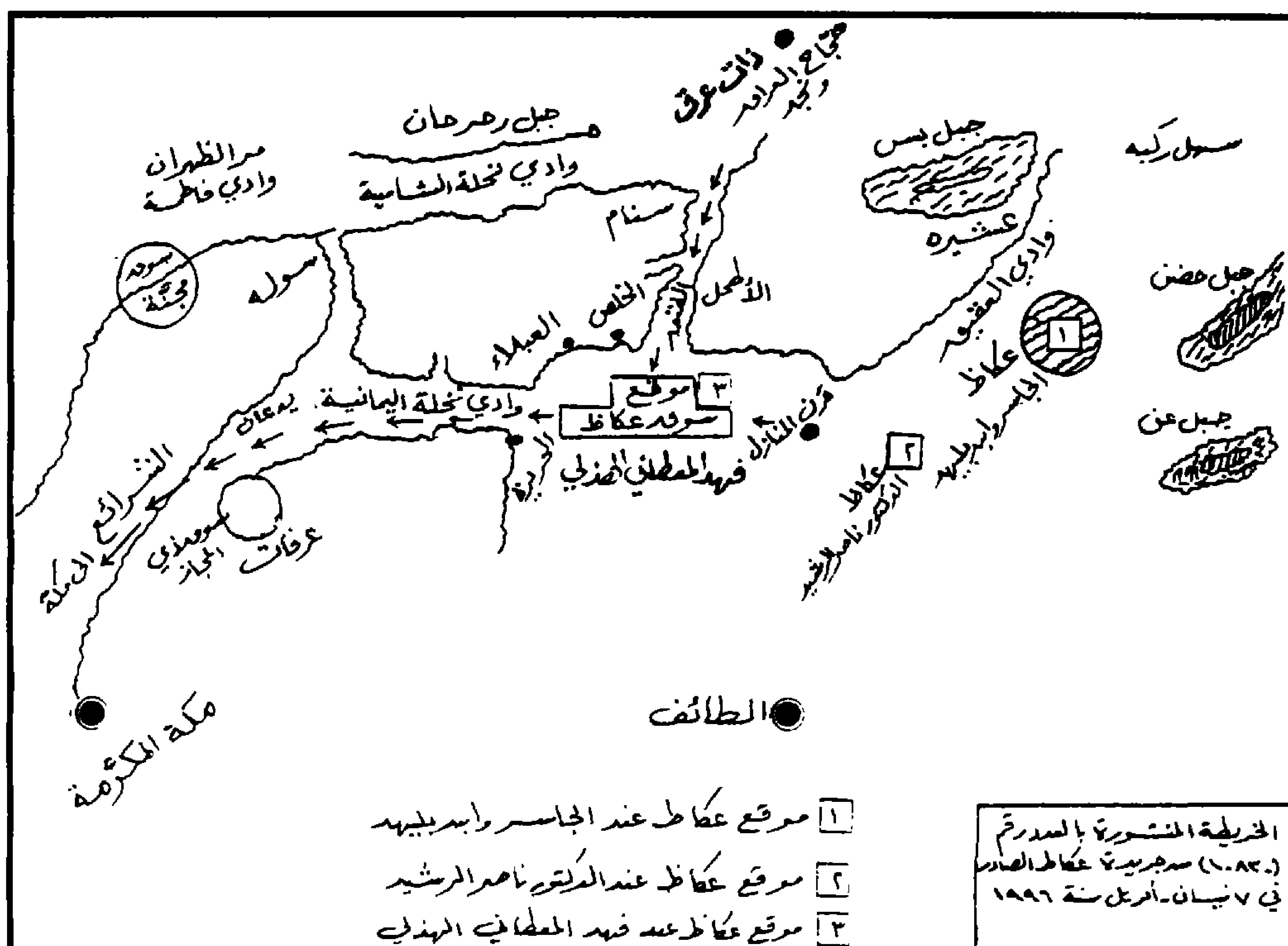


ولكن طائفةً من الباحثين، في المملكة العربيّة السعوديّة، ذهبت في تعيين موقع عكاظ مذاهبَ مُخالفةً، ولم تتَّفق على موقع مُحدَّد له..

---

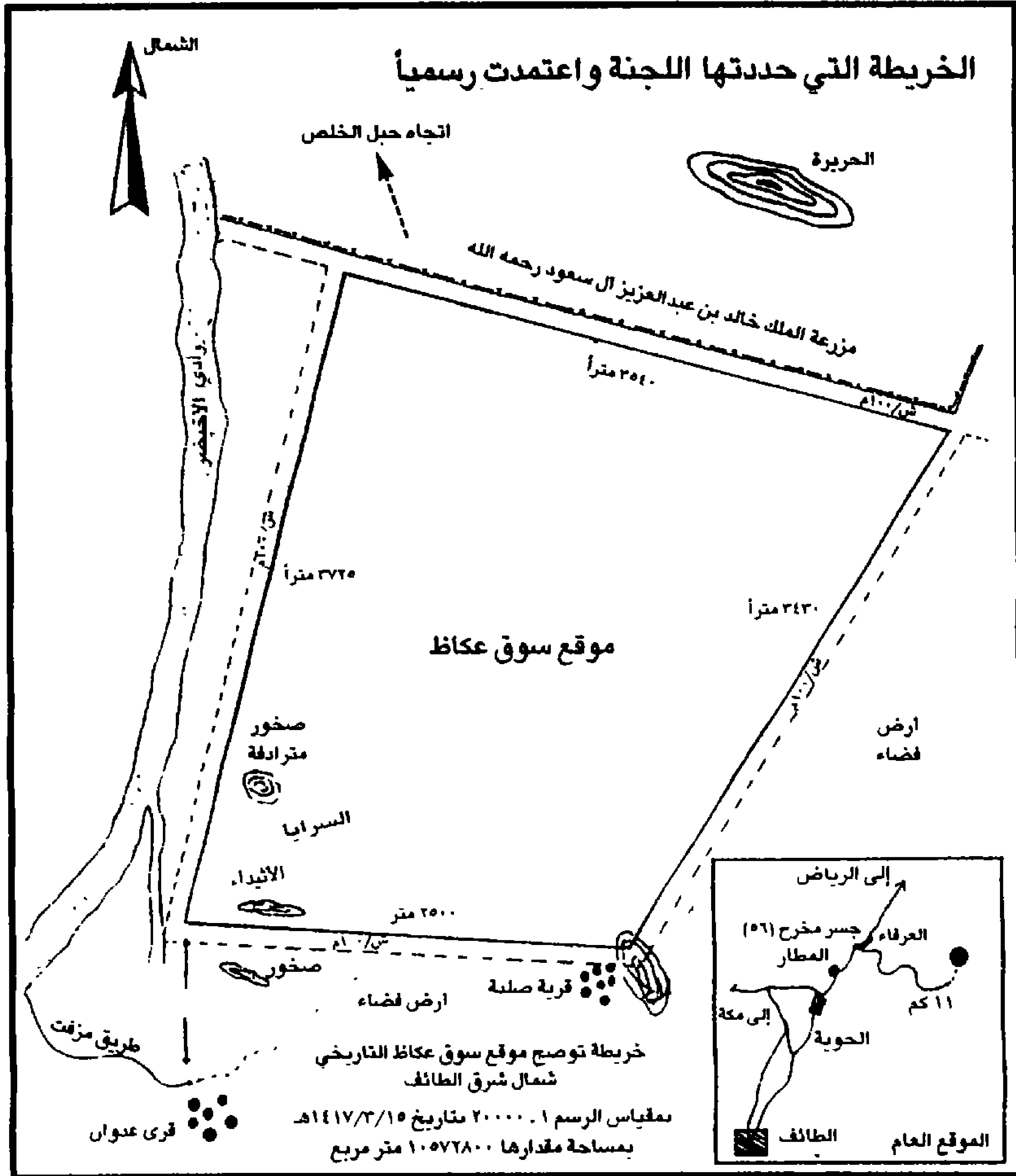
(١) موقع عكاظ: ٤٥.

(٢) سبق أن ذكرنا أن الليلةَ مَرْحلةٌ أي أربعةٌ وعشرون ميلاً، وأن البريد إثنا عَشَرَ ميلاً، وإذا قيل: يومٌ وليلة فمعناهُ مرحلتان، أي يومٌ كامل بنهارِهِ وليلِهِ.



وقد بادر سموُّ الأمير نايف بن عبد العزيز وزير الداخلية، فألَّف لجنةً من الأدباء والخبراء، وكلَّفها العملَ على تحديد هذا الموقع، وتسليم موضعه إلى إدارة الآثار والمتاحف بوزارة المعارف. وقد اجتمعت اللجنةُ في المدَّة من (٢٢/ ٢/ ١٤١٧) حتى (٥/ ٣/ ١٤١٧ هـ=١٩٩٦ م)، وعكفت على دراسة مختلف الآراء، والخرائط المُعدَّة من قبل بعض الباحثين، والكتُب المصنَّفة في هذا الموضوع قديماً وحديثاً، ثم انتقلت إلى المكان، وعاينت فيه المعالم والآثار الباقية، ثم رجَّحتْ الموضعَ الواقعَ شمالَ شرقِ الطائف على خمسة وأربعين كيلاً، والمُحدَّد: **بالأُثَيْداء** من الجنوب الغربي، **والعبلاءِ** من الجنوب الشرقي، **والحُرَيْرة** من الشمال الشرقي، ووادي الأُخَيْضِر من الغرب. وقد اعتمد سموُّ الأمير نايف بن عبد العزيز هذا الترجيح، والخريطةَ التي رُسمت للموقع، وتمَّ تسليم الموضع إلى إدارة الآثار والمتاحف بوزارة المعارف،

في منطقة الطائف التعليمية[1]. .



وعلى الرغم من إطْباقِ المتقدّمين، وتوافُقِ جُلِّ المحدَثين على أن «الحُريْرة» كانت تقع من عكاظ في مَهبِّ الجنوب، أي في حدِّه الجنوبي مع مَيْلٍ نحو الشرق، وأن «الأُثَيْداءَ» موضعَ قيام السوقْ، باتت مجهولةً مُنْدَرِسةً. . فإن العجيب أن تجعلَ اللجنةُ موقعَ الحُرَيْرةِ في الشمال الشرقي

(١) مجلة أهلاً وسهلاً السعودية: (٤٨ ـ ٤٩) من العدد رقم (٩)، جمادى الآخرة ١٤١٩ هـ= أيلول ـ سبتمبر ١٩٩٨ م.

من عكاظ، وأن تكتشفَ فُجاءَةً موضعَ الأُثَيداء في الجنوب الغربي من عكاظ.

ويبدو لي أن هذا هو مذهب الأستاذ عبد الله محمد الشايع، غَلَب على توجُّه اللجنة، وهو أحدُ أعضائها، قرأتُه له في جريدة عكاظ[1]، وعلَّقتُ عليه يومئذٍ بالتعليق المناسب[2]. فقد انطلق فيه من ظنِّه بأن الحُرَيْرة هي الحدُّ الشماليُّ للسوق، وبأن «الأُثَيْداءَ» مُصَغَّرُ «الأَثْداء»، وبأن الأثداءَ جمعُ «ثَدْي»! وكان ذهب إلى المكان ليكتشفَ الموقع، فشاهد في بعض أجزائه من جهة الغرب: «نُتوءاتٍ بارزةً، لعلَّ العرب القدماء شبَّهوها بالثَّدي، فسَمُّوا الهُضَيْبةَ بالأُثَيْداء»، وقال في موضع آخر: «وعندما وقفتُ في وسط الأرض المستوية، نظرتُ ذات اليمين وذات اليسار عسى أن أرى جُبيلاً متميِّزاً، وفي ناحية الشرق شاهدتُ أَكمتَيْن مُتقاربتيْن، خُيِّل لي أنهما على شكل ثَدْيين»، وخوفَ الوقوع في غلط تحوَّل بنظره إلى جهة الغرب[3].

وكان خلاصة تعليقي عليه أنه أقام استنتاجه على الوهم، فإذا جاز أن نغلطَ اليوم في النحو والصرف، فإن عرب الجاهلية لا يمكن أن يكونوا كذلك. وإذا رجعنا إلى معاجم اللغة وجدنا أن الثديَ يُجمع على: **أَثْدٍ وثُدِيّ وثِدِيّ**، وليس على أثداء، ويُصغَّر على: **ثُدَيَّة**... وعلى ذلك يكون استنتاجُه بدلالة المعنى الذي تَوهَّمه وحَمَله على اللفظ غلطاً!

ومن الجائز أن تكون الأُثَيْداءُ تصغيراً للثَّأْدِ، بنقل الهمزة إلى أوَّله **والثَّأَدُ**: الثَرى والنَدى، **والأَثْآدُ**: البَلَلُ، وربما كان أصلُ الكلمة **الأَثْآد**، فصارت بالقلب الأَثْداء، ودلالتُها على الندى والبَلَل والثرى أبْيَنُ لموضع السوق من نتوءاتٍ صغيرة تُشبه الثدي.

---

(١) جريدة عكاظ ـ الملحق الثقافي بالعدد رقم (١٠٦٢٧) في ١٧/٩/١٩٩٥.

(٢) جريدة عكاظ ـ الملحق الثقافي بالعدد رقم (١٠٦٥٢) في ١٢/١٠/١٩٩٥.

(٣) المرجع.

خلاصةُ الأمر أن اللجنة خطَتْ خطوةً، نرجو أن تكون قد أفلحتْ فيها، وأن تُؤدِّي إلى اكتشاف الحقِّ في حدود عكاظ، ومن الواضح أنها اتجهت بالموقع جنوباً، وكان من حقِّه أن ينطلق شمالاً، وأن يتصل بسهل رُكبة، ومُلْتقَى وادِيَيْ شَرِب والأُخَيْضِر، وربما بجبَل حَضَن الذي كان يُسمَّى حَضَنَ عكاظ...

* * *

③ ـ آراءُ بعض الباحثين في موضع عكاظ:

جَرتْ، في العصر الحديث، عِدَّةُ محاولات للكشْفِ عن موضع عكاظ، وبيان مَوقعِه من الأَرضِين، التي ما انفكَّتْ أسماؤها تُذكرُ، كلما ذُكر اسمُ عكاظ... وكان للباحثين في ذلك كلامٌ كثيرٌ، وآراءُ مختلفةٌ، منها أن عكاظاً كان يقع في السَّيْل الكبير عند قَرْنِ المنازل، ومنها أنه في موضع السَّيْل الصغير، بين المناقب والطائف، ومنها أنه بِوادي رُكْبة، في شمالِهِ المتَّصلِ بِوادي عُشَيْرة، ومنها أنه بِوادي عَقْرب، في شرق الطائف، بعد قليل من أم الحمض[1]... وهي آراء علَّق عليها الشيخُ الجاسِرُ بأنها جانَفتِ الصوابَ، وخالَفتِ الحقَّ، فلم يُكلِّفْ نفسَه عنَاء مناقشتها، أو بيانَ ما فيها من جَنَفٍ، أو باطلٍ، أو غلطٍ، تَظهر جَليَّةً إذا قُورنت بأقوال المتقدمين[2].

على أننا سنعرضُ هنا، باختصار، آراءَ بعضِ أولئك الباحثين، ولا سيما الذين ارتحلوا إلى جزيرة العرب، بحثاً عن موضع عكاظ.

١ ـ رأي الأستاذ خير الدين الزِركلي:

كانت له رحلة من دمشق إلى مكة، سنة (١٩٢٠ م)، رأى فيها أشياءَ،

---

(١) في منزل الوحي: ٣٦٤.

(٢) موقع عكاظ: ٤٣.

وسمع أخباراً وروايات، فكتب سنة (١٩٢٣ م) يقول: «. . . على مرحلتين من مكة، للذاهب إلى الطائف في طريق السَّيْل، يميلُ قاصِدُ عكاظ نحو اليمين، فيسيرُ نحوَ نصف الساعة، فإذا هو أمام نهرٍ، في باحة واسعة الجوانب، يُسَمُّونَها: القانس (بالقاف المعقودة)، وهي موضع سوق عكاظ. . . وهذه الباحة هي مجتمعُ الطُرق إلى اليمن والعراق ومكة، وهي مرتفعةٌ، تُشْرف على جبال اليمن. . . والواقفُ فيها يرى على مَقْربةٍ منه موضعين مرتفعين، أحدُهما يُسمَّى: الدِّمَّة (بكسْرٍ ففتح)[1]، والآخَرُ: البُهيْتَة (بصيغة التصغير)، وعكاظُ هو الفاصِلُ بين الدِّمَّة والوادي الموصِل إلى الطريق، التي يمرُّ بها سَالِكُو دَرْب السَّيْل (أي درب اليمانية)[2]. . . ثم قال بعدئذٍ: وسمعتُ كثيراً من أهل الطائف يقولون: إن عكاظاً كان في مكانٍ، يُعرف اليوم باسم القَهاوي، في وادي لِيَّة من الطائف، غير أن الشيُوعَ يُؤيِّدُ ما قلناه آنفاً، من أنه هو القانِسُ نفسُه، وعليه أكثرُ العارفين من أهل هذه الديار»[3].

ويبدو أن الزِرْكليَّ أُتيَ في رأيه من اعتقاده بأن مَوْضعَ عكاظ على مرحلتين من مكة، فَفَتَّش عنه في منطقة السَّيْل الكبير، وذلك غلطٌ منه، لأن المتقدِّمين قالوا إنه على ثلاث مَراحِلَ من مكة[4]، أي بعد السيل الكبير بنحو مرحلة، وليس عنده! ثم إن «القانس» الذي ظنَّه موضعَ عكاظ، لا يَمُتُّ بصلةٍ إلى ما جاء في أقوال المتقدمين عن المعالم المتَّصِلةِ بأرض عكاظ.

* * *

(١) الدِّمَّةُ: لعلها تصحيف لكلمة الزَّيْمة، وهي كما قلنا آنفاً أولُ درب اليمانية إلى البُهَيْتَة.

(٢) دربُ اليمانية: هو الطريق إلى السَّيْل الكبير، والمسافةُ بين مكة والزَّيْمة تقاربُ ما بين الزيمة والسَّيْل الكبير، أي قرن المنازل.

(٣) ما رأيتُ وما سمعت: ٧٩.

(٤) معجم البلدان: ٤/ ١٤٢.

٢ ـ رأي الدكتور محمد حسين هيكل:

ارتحل إلى مكة للحجّ، ثم زار الطائف، وفكَّر في القيام ببعض البحث، أثناء عَوْدِهِ منها، لعله يهتدي إلى شيءٍ تطمئِنُّ له النفسُ، في تحقيق موضع عكاظ، فزار الأمكنةَ التي زَعَمتِ الرواياتُ المختلفةُ أن عكاظاً كانت تُقام بها، وكتب سنة (١٩٣٧ م) في كتابه «في منزل الوحي»، مُسْتبعِداً أن يكون موضعُ عكاظ بوادي عقرب، شرقَ الطائف، لأنه قريبٌ جداًمن الطائف، وليس مُلْتقىً لطرق القوافل. واسْتَبعدَ أيضاً أن يكون على حدود وادي رُكبة عند اتصاله بوادي عُشَيْرة، لأن العُشَيْرة لا تقعُ بين مكة والطائف، بل على مسافة يومين من الطائف إلى الشمال[1]. واسْتَبعدَ بالتالي أن يكون جنوبَ الطائف بمَيْلٍ إلى الشرق قليلٍ، لأنه لا يكون عندئذٍ بين مكة والطائف[2]. ولم يستبعد أن يكون بالسَّيْل الصغير، لأنه، كما رآه، صالحٌ لقيام عكاظ به، لكثرةِ مياهه، ولانْفِساح البادية عنده، وهو يقع على مسيرة يومٍ من الطائف، وثلاثةِ أيام من مكة بسَيْر الإبل[3]. ولكنه رجَّح أن يكون بالسَّيْل الكبير، أو على مَقْرُبةٍ منه، في موضعٍ هنالك يُقال له: الخُرّ، من وادي غَسَلَة، وراء جبل دَمَا[4]... وليس هذا بصحيح!

وعلى الرغم من أنه أقام تحقيقه، على أساس أن موضعَ عكاظ يجب أن يكون على ثلاثة أيام من مكة، ويومٍ من الطائف، أي أن يكون ما بين مكة وعكاظ ثلاثةَ أمثال ما بين عكاظ والطائف[5]. لكنه وقع في الغَلَطِ لمَّا حَسِبَ

---

(١) في منزل الوحي: ٣٧٣ ـ ٣٧٤.
(٢) المرجع نفسه: ٣٧٩ ـ ٣٨٠.
(٣) المرجع: ٣٨٠.
(٤) المرجع: ٣٨٠ ـ ٣٨٢.
(٥) المرجع: ٣٧٤.

السَّيْلَ الكبيرَ موضعاً لعكاظ، وهو على يومين فقط من مكة! وإني أعتقد أن العِلَّة في غَلطه تَوهُّمُهُ أن أيام الفِجَار الخمسة كانت كلُّها بعكاظ، وأن قُرَيْشاً فرَّتْ في اليوم الأول من عكاظ، فوصلت في سُوَيْعاتٍ إلى موضع نخلة، على حُدود الحَرَم المكّيّ، فاحْتَمتْ به من هوازن[1]. والواقع أن أول أيام الفجار لم يكن بعكاظ، بل في مَوضع نخلة، وأن المسافة بينه وبين عكاظ يومٌ وليلة، أي مرحلتانِ، أو نحوُ ثمانية وأربعين ميلاً.

* * *

وأخيراً، إن للدكتور هيكل مذهباً غريباً في موقع عكاظ قال فيه: «... وأوَّلُ ما وقفتُ عنده أن عكاظاً تختلفُ بموقعِها عن مجنَّة وذي المجاز، فهي تقع في الآفاق من مكة، في حين تقعُ مجنَّة وذو المجاز منها في حدود مواقيت الإحْرام. مِن ثَمَّ كان يُبَاحُ بعُكاظ، ما لم يكن يُباح بمجنَّة وذي المجاز، من ألوان اللهو والمجُون، ومن ضُروب التجارة والتبادل. هذا إلى أن ذا القعدة الذي كانت عكاظ تُعقَد فيه، لم يكن له من الحُرْمَةِ ما كان لذي الحجَّة شهرِ المناسك»[2]... وهو مذهب غير صحيح!

وكيف لا يكون لذي القَعْدة من الحُرْمَة ما كان لذي الحَجَّة، وهو من الشُهور المحرَّمة، ومن شهور الحجِّ، وإنما سُمِّيَت حربُ قريشٍ وهوازِنَ بعُكاظِ حربَ الفِجَار، لأنها وقعت في ذي القعدة، فعُدَّ فِعْلُهم فُجوراً؟ وأمَّا أن يُبَاح بعكاظ ما لم يكن يُباح في مجنّة وذي المجاز، فأمرٌ غيرُ دقيق، بل غيرُ صحيحٍ، لأن الأسواق الثلاثة في التجارة واللهوِ والاجتماع سواء، وإنما كانوا يكفُّون عن ذلك في الثامن من ذي الحجة، فكانوا لا يتبايعون في يوم

(١) في منزل الوحي: ٣٧٨.
(٢) المرجع نفسه: ٣٦٧.

عَرَفة، ولا أيام مِنًى، حتى أحَلَّ لهم الإسلامُ ذلك[1]. وليس لمواقع الأسواق الثلاثة صلةٌ بما كان يجري فيها من تجارة وغيرها، ثم إن هذه المواقع ليست في حدود الحَرَم، ولا في مواقيت الإحْرام، وإن كانت مجنَّةُ قريبةً من مكة، وذو المجازِ قريباً من عَرَفَة.

* * *

٣ ـ رأي سعيد الأفغاني:

قال: «عكاظ نَخلٌ في وادٍ، بين مكة والطائف، على مرحلتين من مكة، ومرحلة من الطائف، وموقعُها جنوبُ مكة إلى الشرق. هذا زبدةُ ما يُسْتَخلصُ من تعاريفهم المتضاربة في عكاظ...»[2].

وقال: «والظاهِرُ أن ما يُطلق عليه عكاظُ من الأرض، مُتَّسِعٌ فسيحٌ، فيه حِرَارٌ، وفيه أَرضُونَ مَسْقِيَّةٌ ذاتُ نخيل... ولا شك أن أرضاً اتسعت بعضُ أجزائها لمعاركَ عِدَّةٍ، أرضٌ فسيحةٌ واسعةٌ، وبذلك نفهم كيف كانت السوقُ تَتَنقَّلُ في عكاظ، فلا تُلازِمُ بقعةً واحدةً، لا تَحِيدُ عنها يميناً ولا شمالاً، على مدى السنين المتطاولة»[3].

ثم أشار في الحاشية إلى رأي الزِرْكليّ، من غير أن يُعلِّق عليه، وإلى رأي هيكل، فعَزا إليه ترجيحَهُ أن يكون موضعُ عكاظ جنوبَ الطائف، وجنوبَ شرقِ الطائف، وبالسَّيْل الصغير، وأخيراً بالسَّيْل الكبير! ومذهبُ الأفغاني هذا يعني أنه لم يقرأ كتابَ هيكل قراءةَ مُحقِّقٍ، فالرجلُ كما رأينا انتهى إلى ترجيح السيل الكبير فقط.

---

(١) أخبار مكة: ١/١٨٨، وانظر في حدود الحرم ومواقيت الإحرام: ٢/ ١٣٠ ـ ١٣١، ٣٠٩ ـ ٣١٠ من المرجع نفسه.

(٢) أسواق العرب: ٢٨٦.

(٣) المرجع نفسه: ٢٨٨.

ثم قال: «وفي شهر رمضان (١٣٧٠ هـ = ١٩٥١ م)، أي بعد صدور الطبعة الأولى من أسواق العرب بأربع عشرة سنةً، نُشِر في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق (ص ٢٦/٣٧٧) محاولةٌ للسيد حمد الجاسر في تحديد السوق، فإذا به يجعلُها شرقيَّ الطائف، أي ليس على طريق القاصِدِ من مكة إلى الطائف في نحو ثُلُثَيْ الطريق، على ما في تعاريف القدماء... ومع ما بذل الجاسِرُ من جُهد، فإن النفس لا تطمئنُّ إلى مذهبه، مع اعترافه بأن أغلب الأعلام التي كانت حول عكاظ لم تعدْ معروفةً اليوم... ومع هذا فقد يُوفَّق باحثٌ في المستقبل إلى الصواب المُقْنِع»[١].

ويضيف الأفغاني بعد ذلك قوله: «ولمّا زرتُ الطائفَ بعد أيام الحج سنة (١٣٧٨ هـ = ١٩٥٩ م)، حرصتُ أن أرجع بما يشفي النفسَ، وتَفرَّجْتُ على المسيل[٢]، الذي وصفوه، وسألتُ العارفين، وخرجتُ بصحبة وجيه الطائف السيد محمد صالح نصيف، وعرفتُ منه أن الذي استقرَّ عليه رأيُ الباحث السيد رشدي ملحس، وابنِ بليهد، وسُمّو الأمير فيصل، في عكاظ، أنها مُتَنقِّلةٌ على أرض تمتدُّ من جنوبي العُشَيْرة إلى المسيل الصغير والحاوية[٣]. وأظن جهداً يبذُله الأفاضلُ العارفون من أهل تلك الناحية مُوصلاً إلى الكشف عن موضع عكاظ بما يزيلُ كل رَيْبٍ إن شاء الله»[٤].

من الواضح أن رأي الأفغاني في تحقيق الجاسِر مُرْتَجَلٌ، غيرُ مُسْتَنِدٍ إلى شيءٍ من العلم! فالرجلُ كما رأينا لم يجعل عكاظاً شرقَ الطائف، بل بمَيْلٍ نحو الشمال، وعلى طريق صنعاءَ إلى مكة، كما أكَّد المؤرِّخون. أما

---

(١) أسواق العرب: ٢٨٧.

(٢) المسيلُ غَلَطٌ، وصوابُه السَّيْل، ولكننا لا ندري ما أراد، السيل الكبير أم الصغير!

(٣) أراد السَّيْلَ الصغير، والحَوِيَّة.

(٤) أسواق العرب: ٢٨٧ ـ ٢٨٨.

قولُه بأن عكاظاً يقع على طريق القاصد من مكة إلى الطائف في نحو ثُلُثَيْ الطريق، فهو غلطٌ نَشَأَ عنده من غَلَطٍ آخر لمَّا زعم أن السوق تقع على مرحلتين من مكة، ومرحلةٍ من الطائف، فالحقيقةُ أن السوق، على ما في تعاريفِ القدماءِ كافةً، تقعُ على ثلاثِ مراحِلَ من مكة، ومرحلةٍ من الطائف، أي في نحو ثلاثة أرباع الطريق، ولو صحَّ كلامُه لكان معناهُ أن المسافة بين مكة والطائف، بطريق عكاظ، تساوي اثنين وسبعين ميلاً، وهو غير صحيح! ولو صحَّ كلامُه أيضاً لكان السيلُ الكبير موضعَ السوق، وهو ما ثبتَ بُطْلانُه، وقد أنكره بنفسه على هيكل. وأمّا قولُه بأن السوق كانت مُتنقِّلةً، لا تُلازِمُ بقعةً واحدةً، لا تحيدُ عنها يميناً ولا شمالاً، وأنها تمتدُّ من جنوب العُشَيْرة إلى السَّيْل الصغير والحَوِيَّة، زاعماً أن هذا ما استقرَّ عليه رأيُ الأمير فيصل وابنِ بُليهد ورشدي ملحس، فأمرٌ بعيدٌ جداً من الحقّ، وقد مرَّ بنا قبل قليلٍ ما كان عليه هؤلاء من رأي فَصَّلناهُ، ولا مُبرِّرَ لتكراره.

* * *

وقد ذكر الدكتور عزام أنه نظر في كتاب الأفغاني، فوجد فيه وفاءً بأخبار عكاظ، ولكنه اتَّبعَ أقوالاً في تعيين مكان عكاظ ليست صواباً[1]. وعلَّق في موضعٍ آخَر بأن آراء الزِرْكليّ وهيكل لا يؤيِّدُها التحقيق، وأن الرأيَ الحقَّ ما رآهُ هو والشيخُ الجاسِرُ وابنُ بُلَيْهد[2]. ويقتضيني الإنصافُ أن أُضيف إليهم رشدي ملحس. وبذلك نكون قد استوفينا الكلام على موضع عكاظ.

* * *

(١) موقع عكاظ: ٥.
(٢) المرجع نفسه: ٧٢.

④ ـ طبيعة المكان:

تبيَّن لنا مما تقدَّم، أن أرضَ عكاظ سهلٌ واسِعٌ مُطْمئنٌّ، يمتدُّ بين وادِيَيْ شَرِبٍ والأُخَيْضِر، ويتصل في الشمال والشرق بسهل رُكْبَة، وفي الجنوب والغرب بسُفُوح الطائف... ولا شك في أن موقعاً كهذا، كان يُوفِّر له عواملَ طبيعيَّةً طيِّبةً، كالمياه وَفْرةً وعُذوبةً، والهواءِ لِيناً ورَخَاوةً، فضلاً على ما كان يَغْمُرُه من أشجار النخيل، حتى غلبتْ عند المؤرِّخين تسمِيَتُه بأنه ماءٌ في صحراء، أو نخلٌ في وادٍ[1]، دليلاً على ما كان به من المياه والنخيل.

ويدلُّ على سعَتِها اسْتيعابُها للألوف من الناس تأتيها بأنعامها، وتجاراتها، وتضربُ فيها خِيَامها، وتبني قُبَابَها[2]... وإن أرضاً، استوعبتْ بعضُ أجزائها، مَعارِكَ كبرى، لا بُدَّ أن تكون واسعةً فسيحةً، ولا سيما إذا ذكرنا أن تلك المعارك كانوا يحشدون لها حُشوداً، يُغْشِي الناظرين بريقُ أسلحتها! وهذا ما عبَّرتْ عنه خيرَ تعبيرٍ، عاتكةُ بنتُ عبد المطلب تَذُمُّ حربَ الفِجَار بعُكاظ، فقالت:

سـائـلْ بنـا فـي قـومنـا ... ولْيَكْـفِ مـن شـرٍّ سَمـاعُـهْ
قَيْسـاً، ومـا جمعـوا لنـا ... فـي مَجْمَـعٍ بـاقٍ شَنَـاعُـهْ
بعُكـاظَ يُغْشِـي النـاظـريـ ... ـنَ إذا هُمُ لَمَحُوا، شُعاعُهْ[3]

---

(١) تاج العروس: ٥/ ٢٥٤ (طبعة مصر)، ومعجم البلدان: ٤/ ١٤٢، ومعجم ما استعجم: ٦٦٠، والأغاني: ٢٢/ ٦٤.

(٢) القُبابُ: مفردُها القُبَّةُ وهي البناء أو البيت من الأَدَم. (تاج العروس: ٣/ ٥١١ ـ قبب).

(٣) شرح شذور الذهب: ٤٢٤/ الشاهد رقم: ٢٢٧ (وشُعاعُه فاعِلُ يُغْشِي).

ومَجْمَعٌ يُغْشي شُعاعُه الناظرينَ لا شك في أنه كبير، وأن الأرضَ التي اتَّسَعتْ له كبيرةٌ رَحْبَة.

ولئن كانت قبائلُ العرب لا تجتمعُ إلا على مياهٍ، فإن آثار ما كان متوافراً بأرض عكاظ، من مياه الينابيع والوديان، ما تزال ماثلةً حدَّثنا عنها المحقِّقُون[1].

وأمّا مُنَاخُها، ففيه بعضٌ من مناخ الطائف، على بعضٍ من مناخ سهل ركبة. والطائفُ مشهورةٌ بِثِمارها، وبَرْدِ هوائها، وعُذوبةِ مياهها، وقُرْبُها من سهل عكاظٍ، كان يُوفِّر للناس في المواسم، ما تُنْبتُه أرضُها من التّين والزيتون والأعناب والرمَّان والموز والسفرجل وغير ذلك من الفواكه والثمار[2]. ويُعَدُّ سهلُ عكاظ نَجْداً لِسَرَوَات جبال الطائف. هذا، ويَدُلُّ قولُ أمير المؤمنين عُمرِ بن الخطاب: «لَبَيْتٌ برُكْبَةَ أَحَبُّ إليَّ من عشرة أبياتٍ بالشام»، على أنها كانت مَوْضِعاً طيِّبَ الهواء، قليلَ الوَباء، جيداً لِطُول البقاء[3]. ويَدُلُّ أيضاً أن موضعَ رُكْبَة كان من مُتَربَّعاتِ العرب في نجد، قولُ الشاعرِ عنترة:

شَطَّ المـزَارُ إذا تَـربَّـع أَهْلُنـا حَضَناً، وأَهْلُكِ ساكنٌ بالغَيْلَمِ[4]

وقد مَرَّ بنا أن جبل حَضَنٍ، في سهلُ رُكْبة، إلى الشرق من عكاظ، وهو أوَّلُ بلاد نجد للقادم من اليمن، وهذا دليلٌ على طبيعة الأرض التي كان يُقام عليها موسمُ عكاظ... ومثلُ هذه الأرضِ يكون عادةً مَوْضعاً لِمُتَنَزَّهاتِ

---

(١) موقع عكاظ: ١٩، ٢٨ ـ ٢٩.

(٢) المفصل: ٤/١٤٢، ومهد العرب: ٦٣ ـ ٦٤، وتاريخ العرب: ١٥٠ ـ ١٥١.

(٣) تاج العروس: ٢/٥٣١ (ركب).

(٤) شرح القصائد السبع: ٣٠٢، والغيْلَمُ: مَوْضِعٌ، أعتقد أنه في ديار عَبْس لأن الشاعر عَبْسيٌّ، ومنزله قريبٌ من منزل أهل حبيبته.

ومَلاذٌ ومَلاهٍ، كان يحفلُ بها سوقُ عكاظ، ومن ذلك قولُ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب: «لأَنْ أُخْطِىءَ سبعين خطيئةً برُكْبَة، أحبُّ إليَّ من أن أُخطىء واحدةً بمكة»[1]، والمعروفُ عنه أنه كان في جاهليَّته يرتادُ سوقَ عكاظ في مواسمها، ولعلَّ الملاهي كانت، من بلادِ رُكْبَة، حيث كان بعضُ أرضِ عكاظ . . .

يبقى الإشارةُ إلى ما كان بأرض عكاظ من الأنْصَابِ، وهي تماثيلُ رجَالٍ كانوا صالحين، جُعلت في الجاهلية أعلاماً، ونُصِبتْ في السوق، فكانوا يتقرَّبُون بها إلى الله، ويذبحون عندها القَرابين. وكانت هنالك أيضاً حِجَارةٌ، قيل إنها من المرمر[2]، كانوا يُقدِّسونها، ويطوفون حولها ويحجُّون إليها[3]. وتبيَّن، بالتحقيق في موضع عكاظ، إلى الشمال والشرق من الحُرَيْرة، وجودُ آثارِ بناءٍ مُنيفٍ، قائمٍ على رَبْوَةٍ، فيه بَهْوٌ، وحُجُراتٌ، وعُقودٌ مُحْكَمةٌ، قال ابنُ بُليهد إنه جاهليٌّ، أي من أطلال عكاظ[4]. وتقع غيرَ بعيدٍ من الحُرَيرة آثارُ بناءٍ آخَر، وجُدُرٍ من الحجارة مُسَوَّاةٍ بالأرض[5]، ولعلَّها أيضاً من أطلال عكاظ، كانت مركزاً لسادة السوق، أو قُضَاتِهِ وأَئمَّتِهِ.



(١) أخبار مكة: ٢/ ١٣٧.
(٢) موقع عكاظ: ٢١.
(٣) معجم البلدان: ٤/ ١٤٢.
(٤) موقع عكاظ: ٢٠.
(٥) المرجع نفسه: ٢٩.

المطلب الثالث ـ أصحاب الأرض والسوق:

يُستَخْلص من أقوال القدماء، أن أرضَ عكاظ، وما اتصل بها، أو جاورها من النواحي والأرضين، إنما هي بعضُ البلاد التي كانت تعيش فوقَها قبائلُ قيس بن عَيْلان، ولا سيما منها بطون هوازن[١]، وأرضُ هوازن في نَجْدٍ مما يلي اليمن، وأرضُ غَطَفان في نجدٍ مما يلي الشام[٢]، فكلُّ البلاد من تَبالة إلى نَخْلةٍ هي ديارُ هوازن، فيها من كل بُطونها[٣]، وسوقُ عكاظ تقعُ في وَسَطِها، وأصحابُها بنو بكر بن هوازن، ويبدو أن أرضها كانت لأبناء معاوية بن بكر، وكان لبني ثَقيفِ بن مُنبه بن بكر أموالٌ ونخيلٌ فيها[٤]. وقد آلَتْ أواخِرَ عصرِ الجاهلية، وأولَ الإسلام، إلى بني نَصْر بن معاوية بن بكر، ثم صارت في القرن الهجري الثالث وأول الرابع من منازل بني هلال بن عامر بن صعصعة. والمعروف أن منازل بني نَصْرٍ كانت وقتئذٍ الأَوْدِيةَ المنحدرةَ من جبال الطائف إلى الشرق والشمال من نَجْد، والمواضِعَ القريبةَ منها، وقد تبلغُ حدودَ النخلتين، عند البَوْباةِ المعروفة اليومَ بالبُهَيتة، قريةِ بني سعد بن بكر، وكثيرٌ منها ما يزال معروفاً باسمه القديم، مثل: رُكبة، وبَسْل، ولِيَّة، وجلدان، وبُسّ، وقُرَّان، والعقيق[٥].

والظاهرُ أن بني هلال حَلُّوا فيها أيام قُوَّتهم وانتشارهم، ولمّا هاجروا إلى مصر، ثم إلى المغرب، عاد إليها سكانُها القدماءُ من أبناء عمومتهم، ولا يزالون بها، ومنهم: الجُشَمَةُ، وهم بنو جُشَم بن معاوية بن بكر، ويُعْرفُون

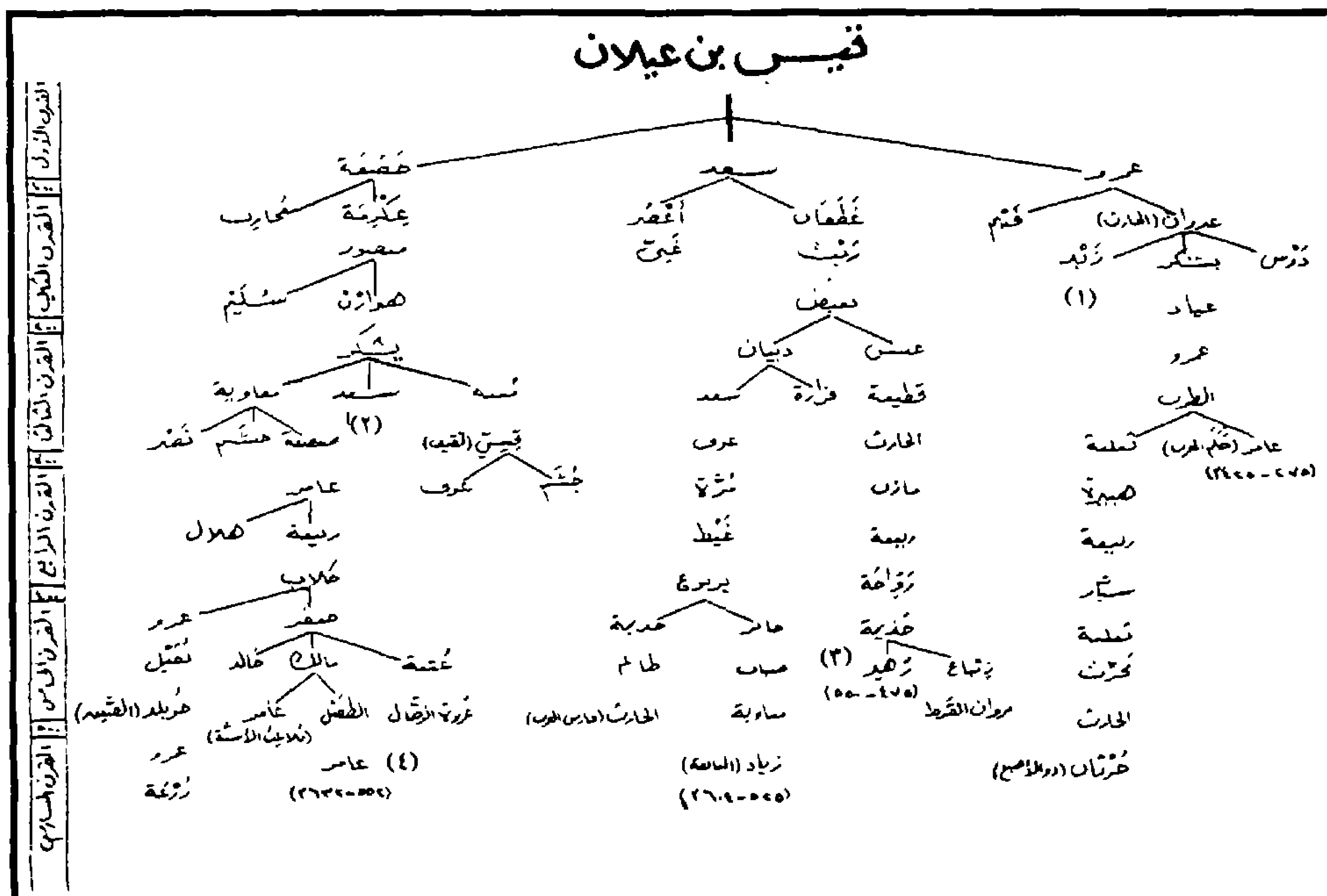
---

(١) أسواق العرب: ٢٨٨، وموقع عكاظ: ٤٦، ٤٨ ـ ٤٩.
(٢) معجم البلدان: ٣/ ٣٠٢.
(٣) موقع عكاظ: ٢٤ (عن الهمداني في صفة جزيرة العرب).
(٤) أخبار مكة: ١/ ١٩٠، وموقع عكاظ: ٢٥، ٤٨، ٥١ (عن الهمداني والبكري).
(٥) موقع عكاظ: ٥٤ ـ ٥٥.

بالجُثَمَة، وعَدْوانُ القبيلةُ القديمةُ المشهورةُ، وهم بنو عَدْوان بن عمرو بن قيس بن عيلان، ومنهم حكيمُ العرب وقاضيهم عامِرُ بن الظرب، والشاعرُ ذو الأُصْبع، حُرْثانُ بن الحارث، ومساكنُهم قريةُ العقربِ بوادي الأُخيضر، وقريةُ العُبَيْلاءِ، وقريةُ الخُضَيْراء على وادي شَرِب قربَ مطار الحَوِيَّة. ومنهم أيضاً: ثقيف، وكانت مساكنُهم شمالَ أَوْديةِ لِيَّة والعَرْج وشَرِب، ثم ارتفعوا إلى أعْلى تلك الأَوْدِية بالطائف، ولا يزالون هنالك[1].

* * *

أصحاب سوق عكاظ
من بني هوازن (*)



---

(١) موقع عكاظ: ٦٧ ـ ٦٨.

(*) المراجع ـ جمهرة أنساب العرب: ٢٤٣، ٢٥١، ٢٧٢، ٢٨٢، ٢٨٥، ٣٠٨. الأغاني: ٣/ ٨٥، ٢١/ ١٤٤، السيرة: ١٢٢. المحبَّر: ١٣٥، ١٨١. الكامل: ٢/ ٤٣. العقد الفريد: ٣/٣٤٧، ٣٥١، ٣٥٤ ـ ٣٥٥. الأعلام: ٢/ ١٧٣.

(١) زيد بن عدوان: كانت فيهم الإفاضة بالحاجِّ من المزدلفة إلى مِنى. وآخِرُ من تَولاَّها منهم عُمَيْلة بن الأعْزل (أبو سيارة) ٥٢٥ ـ ٦٢٠ م.

(٢) بنو سعد: أظآرُ النبيّ عليه السلام، استرضع فيهم واكتسب فصاحتهم.

(٣) زهير بن جذيمة العبسيّ: سيدُ قبائل قيس بن عيلان في عصره، ورئيسُ غَطفان ويقدَّر وجودُه نحو (٤٧٥ ـ ٥٥٠ م).

(٤) عامر بن الطُّفَيْل: قيل إن عامراً ولدتْه أمه بعدما فَرغ الناسُ من القتال يومَ جَبَلة، وكانت حاملاً به وقتئذٍ. (الأغاني: ١١/ ١٣١)، وكان يوم جَبَلة قبل الإسلام بسبع وخمسين سنة، وقبل مولد النبيّ بسبع عشرة سنة. (معجم البلدان: ٢/ ١٠٤)، وكان عامر في الثمانين من عمره لمّا قَدِم على النبيّ في السنة التي قُبِضَ فيها، ثم هلك في عودته من المدينة. (الأغاني: ١١/١٤٩ ـ ١٥٠)، ومن شأن هذا كله أن يجعل مولدَ عامر بن الطفيل نحو (٥٥٢ م)، ووفاتَه سنة (٦٣٢ م). فإذا أجْرَيْنا على عمود نَسَبه قاعدةَ الأجيال الثلاثة في مئة سنة، تبيَّن أن قيس بن عيلان كان من أبناء القرن الميلادي الأول، وأن عامرَ بنَ الظرِب العَدْوانيَّ، الذي جاء ذكره في أحداث عكاظ، وهو من المُعَمَّرين، كان وجودُه نحو (٢٧٥ ـ ٤٢٥ م)، وهذا يرتفع بزمن عكاظ إلى القرن الرابع للميلاد، ويجعلُ تقديرَنا لزمن زهير بن جذيمة العبسي نحو (٤٧٥ ـ ٥٥٠ م) أقرب إلى الصواب، ويؤكِّدُه أن المُسَاوِرَ بن هند بن قيس بن زهير، وكان شاعراً مُعَمَّراً، من أشراف بني عبس، وُلد في حرب داحِس والغبراء قبل الإسلام بنحو خمسين سنة. (الأعلام: ٧/ ٢١٤)، أي أن مولده كان سنة (٥٦٠ م)، وقد توفي سنة (٦٩٥ م)، وكان زهيرٌ والدَ جَدِّه قيسِ بن زهير. ومِثْلُه قُرَّةُ بنُ حُصَيْن بن فضالة بن الحارث بن زهير، كانت له صُحْبة، وبعثه النبيُّ إلى بني هلال بن عامر داعياً إلى الإسلام، فقتلوه نحو (٦٣٠ م)، وتُقدَّر ولادتُه نحو (٥٩٠ م)، وبينه وبين زهير ثلاثةُ آباء، فيكون وجودُ زهير نحو (٤٧٥ م) صحيحاً ومُؤكّداً، ووجودُ عكاظ في القرنين الرابع والخامس للميلاد ثابتاً.

* * *

المطلب الرابع ـ قيام موسم عكاظ:

ذكرتُ في حديثي عن مواسم العرب: مَواضِعِها ومَوَاقيتها، أن سوق عكاظٍ كانت تقومُ باتفاق الجميع في شهر ذي القعدة، وهو من الأشهُر الحُرُم، على خلافٍ في يوم افتتاحها، فأخذنا فيه بقولِ الأزرقيّ، إذ هو أقربُ إلى المنطق، وأوْثَقُ روايةً، وبه أخذ معظمُ الباحثين، فيكون موعدُ قيامها يومَ هلال ذي القَعْدةِ، حتى العشرين منه.

غير أن ياقوت الحموي نقل روايةً غريبةً عن الواقدي في أيام قيامها، فقال: «وكانت العربُ تُقيم بسوق عكاظ شهرَ شَوَّال، ثم تنتقلُ إلى سوق مجنَّة، فتُقيم فيه عشرين يوماً من ذي القعدة، ثم تنتقلُ إلى سوق ذي المجاز، فتُقيم فيه إلى أيام الحجّ[1]. . .»!، ولعله حَسِب توارُدَ الناس إلى موضع السوق، قبل قيامها، قِياماً! إذ لم يكن لهم بُدٌّ يومئذٍ من أن يصلوا إليها في شهر شوَّال، لِيَنْصُبوا منازلَهم، ويُنَظِّموا مَجالِسَهم، ويُخْرِجُوا بَضائعَهم لِتُعرضَ في السوق حين انعقاده، ويترقَّبوا هلالَ ذي القعدة، موعدَ قيام السوق. . . ومن السُّخْفِ التصوُّرُ أنهم كانوا وقتئذٍ يصلون إلى السوق يومَ افتتاحها بالضبط!

وفي الوقت نفسه جعل الأصفهانيُّ قيامَ سوق عكاظ مُدَّةً أطول، فقال: «وكانت سوقُ عكاظ في أول ذي القعدة، فلا تزال قائمةً، يُباع فيها ويُشترى، إلى حُضُور الحج[2]». . . ومثلُه فعل ابن عبد ربه فقال: «وكانت العرب تجتمع فيها للتجارة، والتهيُّـؤ للحجّ، من أول ذي القعدة إلى وقت

---

(١) معجم البلدان: ٤/ ١٤٢.

(٢) الأغاني: ٢٢/ ٦٤.

الحجّ»[١].

ولا أرى في هذا المذهب غرابةً، فربما تخلَّفَ الكثيرون في السوق، من التجّار وأصحابِ المصالح، اسْتكمالاً لبعض شؤونهم! إذ لا يمكن أن يستكمل كلُّ الناسِ جميعَ حاجاتهم من سوق كبرى، كسوق عكاظ، في الأيام المحدودة لقيامها، ولا سيما إذا لم يكن لهم أَرَبٌ في سوقَيْ مجنَّة وذي المجاز بعدَها، فليس عليهم أن يَشْهَدوهما، فيَظلُّون بعكاظ حتى اقترابِ موسم الحجّ في غُرَّة ذي الحجَّة. ولكن هذا لا يعني أن الموسم يظلُّ مُنعقداً كلَّ هذه المدَّة، فأئمَّةُ الموسم يُعْلنون انفضاضَه بانقضاء عشرين يوماً من شهر ذي القَعْدة كما هو مرسومٌ له.

ولمّا كانت العربُ إذ ذاك تعتمدُ منازلَ القمرِ في معرفةِ السنين والحِسَاب، والأَهِلَّةَ في افتتاح الشهور وانقضائها، فإني أُرجِّح أن يكون موعدُ انعقاد موسم عكاظ نحو الثالث والعشرين من شهر تموز، على ما خَلُصنا إليه في حديثنا عن المواسم والأزمنة عند العرب في الجاهلية. وأرى افتتاحَ الموسم كان مَنُوطاً برؤية الهلال، الذي يطلعُ مباشرةً قُبَيْل أو بعد طلوع كوكب الشِعْرى العَبُور[٢]، وهي تطلعُ في التاسع عَشَرَ من تموز، عندما يبلغُ الحرُّ مُنْتَهاهُ، وتأخُذُ شِدَّتُه بالتراجُع، ويَعْقُبه أوّلُ موسم التربُّعِ، أو التبدِّي، وأرضُ عكاظٍ، كما لاحظنا، في موقعٍ طيِّبٍ للتربُّع أو التبدِّي. وربما كانوا يلتمسون هلالَ ذي القعدة قُبَيل أو بعد طلوع منزل النَّثْرة[٣]، في السابع عشر من

---

(١) العقد الفريد: ٥/٢٥٣.

(٢) الشِعْرى العَبُور: كوكبٌ نَيِّرٌ، يطلع بعد الجوزاء، في شِدَّة الحرّ، عَبَدتْه طائفةٌ من العرب في الجاهلية، إذ رأتْه عَبَرَ السماءَ عَرْضاً، ولم يَعْبُرْها كذلك غيرُه، فأنزل الله: ﴿وأنه هو ربُّ الشعرى﴾، أي ربُّ الشعرى التي تعبدونها.

(٣) النَّثْرة: كوكب في السماء، من منازل القمر، تُسميه العربُ نثرةَ الأسد.

تموز، وكانت العربُ تقول وقتئذٍ: إذا طَلعتِ النَّثرةُ قَنَأَتِ البُسْرَةُ، أي داخَلَ حُمْرتَها سَوادٌ[١]، دليلاً على ابتداءِ نُضْجِها، فالبُسْرُ هو التمرُ إذا لَوَّنَ ولم ينضج، وبرهاناً على أن الزمنَ زمنُ خُروجٍ إلى البوادي والأَرْيافِ والأسواق.

* * *

المطلب الخامس ـ نُزَلاءُ عكاظ ومَنازِلُهم فيه:

يُؤخَذُ من الأخبار الكثيرةِ، المأثُورةِ عن وقائع سوق عكاظ، أنها كانت سوقاً قوميَّةً للعرب جميعاً، يَنزلُها معظمُ قبائلهم، متى كان لهم فيها مَآرِبُ تجارِيَّةٌ، أو اجتماعيَّةٌ، أو أدبيَّة. فكان موسمُها خيرَ فُرصةٍ لاجتماعهم، ومُتاجرتهم، وقضاءِ حاجاتهم المختلفة، استعداداً لقيامهم بشَعَائر الحجِّ، التي كان موسمُها يَلي مواسمَ عكاظ ومجنَّة وذي المجاز، بل ويختلطُ أمرُهُ بأمرها.

على أننا يجب أن نتوقَّف قليلاً عند قول الأزرقي: «... وإنما كان يحضرُ هذه المواسمَ، بعكاظٍ ومجنَّةٍ وذي المجاز، التجارُ، مَن كان يريدُ التجارةَ. ومَن لم يكن له تجارةٌ ولا بيعٌ، فإنه يخرج من أهله متى أراد. ومَن كان من أهل مكةَ، ممن لا يريد التجارة، خرج من مكة يومَ التَّرْوِيَة»[٢]... وهذا لا يعني أن تلك المواسمَ كانت حِكْراً على التجارة والتجَّارِ، ممنوعةً ممَّن أراد فيها شيئاً آخَرَ، غيرَ البيع والشراء، إنما يعني أن مَن كان تاجراً، وأراد التجارة، فعليه الذهابُ أولاً إلى أسواق عكاظ ومجنَّة وذي المجاز، التي تسبق مواسمُها موسمَ الحج إلى الكعبة، لأن الجمع بين التجارة والحج

---

(١) لسان العرب: ٥/ ١٩٢ (نثر).

(٢) أخبار مكة: ١/ ١٨٨.

حرامٌ. هذا من جانبٍ، ومن جانب آخَر، فالنصُّ يعني أيضاً أن على التجار، ممَّن أراد التجارةَ، أن يحضروا افتتاحَ السوق، يومَ قيام موسمها، حتى تَصِحَّ صفقاتُ البيع والشراء بينهم، بعدما يَأْذَنُ إمامُ السوق بابتدائها. أما أولئك الذين لا يريدون المتاجرةَ، فبِوُسْعِهم إن كانت لهم في السوق حاجاتٌ، أن يحضروها متى شاؤوا، أو أن يقصدوا الحجَّ رأساً من منازلهم، فشُهُودُ مَواسم الأسواق ليس واجباً لِشُهود موسم الحجِّ.

وفي هذا كتبَ هيكلُ يقول: «. . . إن العرب كانوا إذا أَزْمَعُوا الحجَّ إلى مكة، من أَصْقاعِ شبه الجزيرة، جعلوا عكاظاً مَوْعدَهم في هلال ذي القعدة، فأقاموا بها عشرين يوماً، ثم انصرفوا إلى مجنَّة، فأقاموا بها عشراً، فإذا رأوا هلال ذي الحَجَّة، انصرفوا إلى ذي المجاز، فأقاموا أسواقهم به ثماني ليالٍ، ثم تَرَوَّوْا من مائِهِ في اليوم الثامن، وخرجوا إلى عَرَفة. وبَدَهيٌّ أن الذين كانوا يحضرون هذه الأسواق هم الذين كانوا يريدون التجارة، فأمَّا من لم يكن له تجارةٌ ولا بَيْعٌ، فإنه يخرجُ من أهله متى أراد. وكان من لا يريدُ التجارة من أهل مكة، يخرجُ مِن مكة يومَ التَرْوِيَة. وظلَّ الحالُ على ذلك، حتى جاء الإسلامُ، وخَلَعَ على الحجِّ من الجَلالِ ما تَضاءَلَ إزاءهُ جَلالُ هذا الفَرْضِ في الجاهلية. . .»، فأباح التجارةَ قبلَ الحجِّ، وأثناءَهُ، وبعْدهُ[1].

ويجب ألاَّ نفهمَ من كلام هيكل، أن شهودَ مواسم عكاظٍ ومجنَّةٍ وذي المجاز كان فَرْضاً واجباً على التجار، وإنما هو رخصةٌ تُبيحُ لهم التجارةَ قبل موسم الحجّ، لأن الجمع بين التجارة ومناسك الحجِّ كان حراماً. ولقد

(١) في منزل الوحي: ٣٦٥.

كان أهلُ مكة أشدَّ حِرصاً، على شُهود الأسواق، منهم على الخروج إلى عَرَفَة، فالكعبةُ في بلدهم، والطوافُ مَيْسورٌ لهم متى شاؤوا. . . ولذلك قلَّ من أهل مكة مَن لم يكن يخرج إلى عكاظ، فقد كانوا قوماً تُجَّاراً، وكانت التجارةُ عِمَادَ حياتهم، وكانت أسواقُ عكاظ ومجنَّة وذي المجاز فُرصَتَهمُ الكبرى لتحقيق المنافع والأرباح. بل إن أشرافَ العرب كانوا «يَتَوافون بتلك الأسواق، مع التجار، من أجل أن الملوك كانت تَرْضخُ للأشراف، بسهمٍ من الأرباح، لكلّ شريفٍ منهم، فكان شريفُ كلّ قومٍ يحضرُ سوقَ بَلَدِهِ، إلا عكاظاً، فإنهم كانوا يتوافُون بها من كل أَوْبٍ»[1].

أما إذا كان الغرضُ من قول الأزرقي، أن تلك المواسمَ، لم يكن يحضرها من العرب إلا التجَّارُ من الناس، فربما كان له نصيبٌ من الصحَّة لمّا أُنْشِئت أسواقُ عكاظٍ ومجنَّة وذي المجاز، دفعاً للجمع بين التجارة والحجِّ معاً، أما بعد ذلك، فإنها صارت مواسمَ قوميَّةً عامَّةً، يَحضرُها مختلفُ قبائل العرب[2]، بما كان لهم من شؤونٍ وشُجُونٍ، بدليل الأخبار الكثيرة المأثورةِ عن وقائع عكاظ، وما تُشير إليه من أَنْشِطَةٍ اجتماعيّة وأدبيّة ودينيّة، غيرِ التجارة! ذلك أنه «كانت فيها أشياءُ ليست في أسواق العرب. . .»[3]، فكان يأتيها التجَّارُ وغيرُ التجارِ مِن كلِّ ذي أَرَبٍ، لعله يجدُ فيها أَرَبهُ.

ولئن كنا لا نستطيع أن نعرفَ، على وجه الحصر، أعدادَ من كان ينزلُ عكاظاً من قبائل العرب، أو أسماءَ التجارِ وسائرِ النزلاء، لكننا نعلم من بعض الأخبار، أن أعدادهم كانت بالألوف، وأن السوق في بعض السنين

---

(١) الأزمنة والأمكنة: ٢/١٦٦.
(٢) تاريخ اليعقوبي: ١/ ٢٧٠.
(٣) الأزمنة والأمكنة: ١/ ١٦٥.

كانت تَزْدحمُ بالناس، وتَضيقُ، على سَعَتِها ورَحْبِها، بمن كان ينزلُها من قوافل التجار، ووُفودِ القبائلِ والمُلوك والأُمَمِ المجاورة، فكان التجارُ في موسمٍ كهذا يُحقِّقُون أرباحاً كثيرةً، لا يَتَأتَّىٰ لهم مِثلُها إلا في القليل النادر من المناسبات والبلاد. ولمَّا «دخلتْ سنةُ خمسٍ وثلاثين من عام الفيل[1]، وذلك قبل المَبْعَثِ بخمسِ سنين، حضر السوق من قبائل نزار[2] واليمن ما لم يَرَوْا أنه حضر مثلُه في سائر السنين، فباع الناسُ ما كان معهم من إبلٍ وبَقَرٍ ونَقَدٍ[3]، وابتاعُوا أمتعةَ مصر والشام والعراق...»[4]. ويبدو أنه لم يكن في الجاهلية مَجمَعٌ للعربِ أحْفَلُ من عكاظ، فكانوا يضربون بكثرة أهْلِها وزُوَّارِها المثَلَ، ومن ذلكم قولُهم: «... ضربتُه ضَرْبةً لو كانت بأهلِ عكاظٍ قَتَلَتْهم»[5].

ويُفهم من بعض موارد الأخبار أنه كان ينزلُ سوق عكاظ في مواسِمِهِ من قبائل العرب: قريشٌ، وهوازِنُ، وغَطَفانُ، وخُزَاعةُ، وأسْلمُ بنُ أَفْصَى، والأحابيشُ وهم أحياءٌ من كنانة وخُزَيمة وخُزاعة، وطوائفُ من أفناء العرب[6]، إلى جماعاتٍ من سائر العرب، تَقصدُها من اليمن وعُمَان وحضرموت والشِحْر والبحرين وبادية الشام والعراق، عرفنا منها: غسَّان، وكندة، وكلب بن وبرة، والحارث بن كعب، والحَضَارِمة، وعُذْرة... فضلاً عن: بني عامر بن صعصعة، ومُحارب بن خَصَفَة، وفزارة، ومُرَّة، وحنيفة،

---

(١) نحو سنة (٦٠٥ م).
(٢) نزار بن مَعَدّ: جدُّ قبائل عرب الشمال من مُضَر وربيعة وإياد.
(٣) النَقَدُ: الغنَمُ.
(٤) الأزمنة والأمكنة: ٢/١٦٨.
(٥) الأمالي: ٢/٢٥٦.
(٦) المحبَّر: ٢٦٧، والأزمنة والأمكنة: ٢/١٦٥.

وسُلَيم، وعَبْس، وبني نصر بن معاوية، وبني البَكَّاء بن عامر[1]. . . والأَوس، وهمدان[2]. . . ومَذْحج[3]. . . ولا شك في أن بني تميم كانوا يَشْهَدونها، إذ كانوا أئمَّةَ السوق وقُضَاته، أَضِفْ إلى ذلك بني إيَاد، وكان قسُّ بنُ ساعدة خطيبَهم بعكاظ، والخَزْرَجَ، وكان حسَّانُ بن ثابت شاعِرَهم فيها. . . وآخَرينَ كُثْراً، تَسْتَبِينُ أسماؤهم واضحةً في وقائع عكاظ. . . «فترى من هذا أن بلادَ العرب، من أقصاها إلى أقصاها، كانت تشترك في هذه السوق»[4].



أمّا المنازلُ في عكاظ، فيُمكِنُنا أن نَتَخيَّلَها وقد انْتَشَرتْ على أرضٍ واسعةِ الأَرجاء، مُترامِيَةِ الأطراف، أَنْبَتتْ حَشَائِشَ خُضْراً، فأَزْهَرتْ زَهراً مُختلفاً ألوانُه، وارتفعتْ فيها أشجارُ النخيل باسِقَاتٍ لها طَلْعٌ نَضيدٌ، وأشجارُ الأَراكِ والسَّلَمِ مُلتَفَّةٌ أغصانُها لها ظِلٌّ مَدِيدٌ، وانْبَسَطتْ حوَالَيْها مَراعٍ مُعْشَوشِبَةٌ، سَرَحَتْ فيها الأنعامُ تَرْعَىٰ كَلأَها وأَعْشَابَها، وانْبثَقَتْ من ينابيعها مِياهٌ عَذْبَةٌ، لَذَّةٌ للشاربين. . .

هذا في الخيال، أمّا في الحقيقة فكان لكل قومٍ في السوق منازلُ خاصَّةٌ بهم، بُنِيَتْ فيها مَضَارِبُهم، ورُفِعَتْ عليها راياتُهم تُميِّزُ بعضَهم من بعض في قبائل العرب، وتَحفظُ حقوق الجِوَار فيما بينهم، وتهدي الباحثين عن القبيلة إلى مَوْضِعها، كأنه وطنٌ صغيرٌ لها في أرض عكاظ. فإذا أرادوا بَيْعاً أو

---

(١) الطبقات: ١/ ٢١٦ ـ ٢١٧، وتاريخ الطبري: ٢/ ٣٤٨ ـ ٣٥٠.

(٢) معجم البلدان: ١/ ١٠٦ (أُجَيرة) و ٤/ ١٣٤ (عقبة).

(٣) الأغاني: ١٢/ ٤، ٨، ١٥.

(٤) عكاظ والمربد: ٢٥.

شِراءً، دَخَل بعضُهم في بعضٍ، وإذا أرادوا الاجتماع في الأَنْدِية هَبَطوا بطنَ السوق، فالْتَقى القاصي بالداني، واختلط القريبُ بالغريب، وجرى التمازُجُ بين القبائل في أَبْهى صُوَرِهِ... وهذا ما سجَّلهُ الأزرقيُّ بقوله: فإذا كان الحجُّ، خرج الناسُ إلى مواسمهم، فيُصْبِحون بعكاظ يوم هلالِ ذي القعدة، فيُقيمون به عشرين ليلةً، تقومُ فيها أسواقُهم، «والناسُ على مَدَاعِيهم وراياتِهم، مُنْحازين في المنازل، تَضْبِطُ كلَّ قبيلةٍ أشرافُها وقادَتُها، ويَدخلُ بعضُهم في بعضٍ للبيع والشراء، ويجتمعون في بطن السوق...»[1]، ويُفهم من هذا النصِّ أيضاً أن ضَبْطَ شؤون القبيلة إنما كان بأيدي أشرافها ورؤسائها... وقد لخَّص الأمرَكلَّه قولُ أبي ذُؤَيْب الهُذَليّ[2]:

إذا بُنِي القِبَابُ على عكاظٍ وقام البيعُ، واجتمع الأُلوفُ[3]

أي إذا بُنِيَتِ البيوتُ بعكاظ، ورُفعتْ قِبَابُها، وابتدأ البيعُ والشراء، وجَعَلتِ الأُلُوفُ من الناس تجتمعُ في بطن السوق... والقِبَابُ بُيوتٌ خاصَّةٌ من الأَدَمِ النفيس، المصبوغِ باللون الأحمر، لها سُقُوفٌ مُسْتديرةٌ مُقَعَّرة. ولم تكن تُبنَى إلا للسَّادَةِ، والأشرافِ، والقُضَاةِ، والأَثْرياءِ. وكانت ممّا يَفخرُ به هؤلاء على الناس جميعاً. وإذا كانت القُبَّةُ لقَاضٍ بعكاظ، رُفعت عليها رايَةٌ خاصَّةٌ به... وكانت تُضْربُ للملوك، الذين يحضرون الموسمَ بعُكاظ، مَضَارِبُ فَخْمَةٌ، تليقُ بمنزلتهم، وتُرفعُ عليها راياتُهم، ويُفْرَدُ فيها فِسْطاطٌ

---

(١) أخبار مكة: ١/ ١٨٧ ـ ١٨٨.

(٢) أبو ذُؤَيْب الهُذَليُّ: خُوَيْلدُ بنُ خالد بن مُحرِّث، من بني هذيل بن مدركة، شاعر فحل مُخَضْرَم، أدرك الجاهلية والإسلام، واشترك في الغزو والفتوح، ويُعَدُّ أشعرَ شعراء هُذَيل. أشهَرُ قصائده عَيْنِيَّتُه التي رثى بها أبناءَه الخمسة.

(٣) لسان العرب: ٧/ ٤٤٨ (عكظ).

كبيرٌ للضيوف، يجلسون فيه، ويأكلون، ويَسْمُرون[1]. وكان كلُّ رئيسِ قبيلةٍ عند العرب ملكاً، أي كالملك في قومه. وكانت قُبَّةُ سيِّدِ القبيلةِ، عادةً، كبيرةً، لأنها تكون مُنْتدىً لِشُيوخ القبيلة وأبنائها، يجتمعون فيها للتَّشَاوُرِ والسَّمَر، ويأوي إليها ضُيوفُهم، وجيرانُهم، وذوو الحاجاتِ منهم، أو من غيرهم. وفيها قسمٌ خاصٌّ بالنساء، وآخَرُ خاصٌّ بالخَدَم... وأما سائرُ الناس، فكانت تُقامُ لهم الأَخْبِيَةُ، والخِبَاءُ بيتٌ صغير، أو خَيْمةٌ قد تكون من صوفٍ أو شَعَرٍ أو وَبَرٍ[2]، وكانت تُقْطَع بحاجزٍ إلى قِسمين، أحدهما للرجال والضيوف، والآخَرُ للنساء والسَّكَنِ، ولا يدخُله الغرباء[3].



المطلب السادس ـ أئمَّةُ عكاظ وقُضَاتُه:

ذكرتُ في بعض كلامي على خصائص الأسواق الموسميَّة، أنه كان بها قُضَاةٌ، أو مُحكَّمُون، يَقْضُون بين الناس، ويَفُضُّون خُصوماتهم. فكانوا، كلما طُلب إليهم، يجلسون للنظر في المظالم، وفيما قد يَشْجُرُ من المنازعات، في أمور البيع والشراء، والتفاخُر بالأحْسَابِ، وعِزَّةِ النَّفَر... وربما قضى بين الناس الملوكُ، أو الرؤساءُ الذين تقعُ الأسواقُ في بلادهم.

وذكرتُ أيضاً أن نظامَ المتاجرة، في الأسواق الموسمية، كان يقتضي وجودَ إمام للسوق، إن لم تكن في أرضِ مملكة، كي يَفتتِحَ السوقَ عند

---

(١) المفصَّل: ٥/٦، ولسان العرب: ١/ ٥٥١ (ضرب) والمِضْرَبُ: فِسْطاطُ الملك، و ١/ ٦٥٩ (قبب)، و ٧/ ٣٧٢ (فسط).

(٢) لسان العرب: ٢/ ١٤ (بيت)، و ١٣/ ٢٠ (أقن)، والأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٢٦، ومجالس ثعلب: ٧٩، ١١٢.

(٣) المفصَّل: ٥/ ٧.

حُلول مَوسمها، ويَأذنَ بابتداءِ المتاجرة بين الناس، وحينئذٍ تقومُ السوقُ، وتصِحُّ المبايعات. . .

* * *

① ـ أئمَّةُ العرب وقضاتهم بعكاظ:

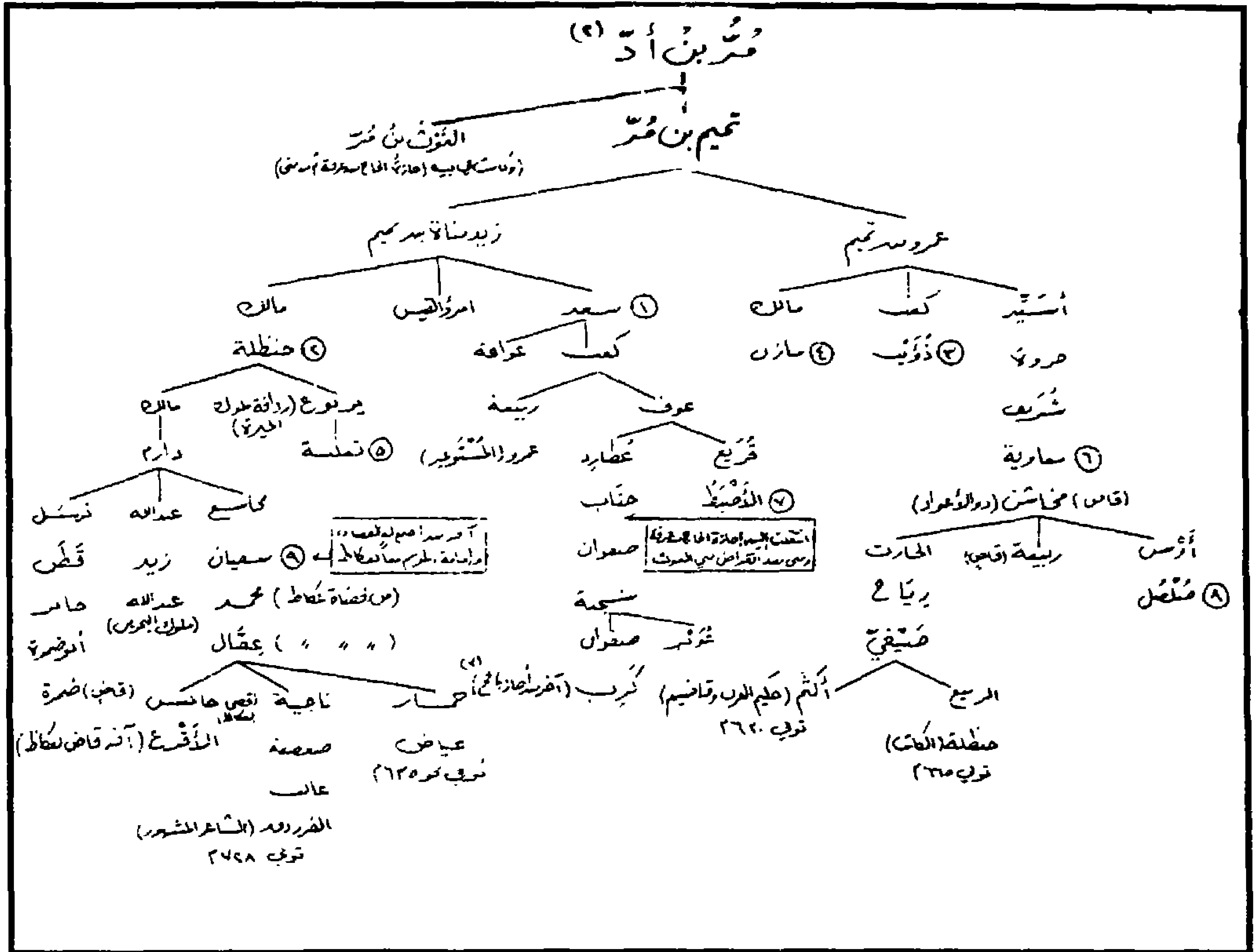
أَئمَّةُ العرب وقُضَاتُهم في مَواسِمهم بعُكاظ، كانوا من بني تميم، وكان ذلك يكون في أفْخَاذِهم كلها، أي في أَحْيَائهم أو فُروعِ قبيلتهم، فيتولَّى رجُلانِ منهم هذين الأمْرَين: قضاءَ عكاظ على حِدَة، والموسمَ على حِدَة[1]. وكان مَن اجتمع له منهم قضاءُ عكاظ وإمامةُ الموسم معاً: سعدُ بنُ زيد مناة بن تميم، ثم حَنْظلةُ بن مالك بن زيد مناة، ثم ذُؤَيْبُ بن كعب، ثم مَازِنُ بن مالك، ثم ثعلبةُ بنُ يربوع، ثم معاويةُ بن شُرَيْف، ثم الأضْبَطُ بنُ قُرَيْع، ثم صُلْصُلُ بن أَوْس، ثم سفيانُ بن مجاشع، وكان آخِرَ تميميٍّ اجتمع له القضاءُ وإمامةُ الموسم بعكاظ معاً، فلما مات سفيانُ افترق الأَمْرانِ، ولم يجتمع الموسمُ والقضاءُ لأحَدٍ منهم بعد ذلك. فكان محمدُ بنُ سُفيانَ بنِ مُجاشِع يقضي بعكاظ، ولمَّا مات صار ذلك إرثاً لهم. وكان يُجِيزُ بالموسم العلاقُ بنُ شِهابِ بنِ لأْيٍ، من بني عوافة بن سعد بن زيد مناة. وكان آخِرَ من قَضَى منهم بعكاظ، ووصل إلى الإسلام، الأَقْرعُ بنُ حابِس[2].

---

(١) أنظر في جدول الأنساب التالي.

(٢) المحبَّر: ١٨١ ـ ١٨٣، والأزمنة والأمكنة: ٢/١٦٧ ـ ١٦٨، وجمهرة أنساب العرب: ٢٢٢. وقد غلط أحمد أمين إذ حسب أن محمد بن سفيان كان قاضياً بعكاظ في الإسلام، وإنما هو في الجاهلية، والأقرعُ بن حابس الذي وصل إلى الإسلام كان ابنَ حفيده! (الرسالة: ١٣/ ٢٥ لسنة ١٩٣٣).

أئمةُ العرب وقُضاتُهم في مواسمهم بسوق عكاظ (١)



(١) المراجع ـ جمهرة أنساب العرب: ٢٠٧ ـ ٢٣٢، المعارف: ٧٨ ـ ٨٠. السيرة: ١/ ١٢٠ ـ ١٢١، الأغاني: ١١/ ١٣٢، المحبَّر: ١٨٢ ـ ١٨٣، مختلف القبائل: ٤٢، ٥٩، تاريخ اليعقوبي: ١/ ٢٥٨.

(٢) مرُّ بن أدّ: هو مُرُّ بن أدّ بن طابخة بن إلياس بن مُضَر بن نزار، ونقدِّرُ أن مُرَّ بنَ أدّ، وتميمَ بنَ مُرٍّ، وزيدَ مناة بن تميم، ثلاثةُ أجيال كانت في القرن الثاني للميلاد، والأدلَّةُ على ذلك كثيرة، منها: أكثمُ بنُ صَيفيّ، فقد قُدِّرتْ وفاتُه سنة (٦٣٠ م) عن عمر طويل، (الأعلام: ٢/ ٦). وقدَّر الزركليُّ مقتلَ الشاعرِ عبدِ يَغُوث الحارثي في وقعةِ يوم الكُلاب الثاني نحو سنة (٥٨٤ م) بعدما أُسِرَ فيها (الأعلام: ٤/١٨٧)، وفي تلك الوقعة خاطب أكثمُ قومَه بقوله: إني قد نيَّفْتُ على التسعين، (العقد الفريد: ٥/ ٢٢٤)، فيكون مولدُه بذلك نحو (٤٩٠ م)، ويكون تميمُ بن مُرّ، الجَدُّ العاشِرُ لأكثم، موجوداً نحو منتصف القرن الثاني. ومن الأدِلَّة أيضاً: حنظلةُ الكاتبُ بنُ الربيع، المتوفَىٰ سنة (٦٦٥ م)، وعِيَاضُ بن حمار المجاشعيّ، المتوفَى نحو (٦٣٥ م)... ومن الأدِلَّة على صواب تقديرنا كذلك: حكايةُ غارةِ الملكِ عمرو بن هندٍ على بني نَهْشَل بن دارم، وفيها أنه قَتَلَ بقتلهم أخَاهُ عدداً منهم، حتى مرَّت به امرأةٌ من بني نهشل، فسألها من أنتِ؟ فقالت: أنا الحمراءُ بنتُ ضَمْرة بنِ جابر... والمعروفُ أن مُلْكَ عمرو بن هند كان بين (٥٥٤ ـ ٥٦٩ م)، والمرأةُ كانت يومئذٍ عجوزاً، فيكون تقديرُنا لعصر أخيها ضمرة بن ضمرة نحو (٥٠٠ م) صحيحاً، فإن كانت وُلدت نحو سنة (٤٧٠ م)، فهي عجوزٌ أيامَ مُلْكِ عمرو... (أيام العرب: ١٠٥).

(٣) في سلسلة نسبِ كَرِبِ بن صَفْوانَ، اضطرابٌ شديدٌ وقع في كلِّ المراجع التي رجعنا إليها، ذلك أن بني الغَوْث بن مُرّ، أصحابِ الإجازة بالحاجِّ من عرفة ومن مِنَى، مجهولون، ومجهولٌ الزمنُ الذي انتقلت فيه الإجازةُ منهم إلى بني صفوانَ بنِ جَنَاب. وقد اشتُهر من هؤلاء كربُ بنُ صفوانَ بنِ شِجْنَة الذي كان يُجيز بأهل الموسم في الجاهلية، وعَمُّهُ عُوَيْرُ بنُ شِجْنَة، الذي أجار أهلَ امرىء القيس الشاعر، فقال فيه:

عُـوَيْـرٌ ومَـن مثـلُ العُـوَيْـرِ ورَهْطِـهِ ... أَبَـرَّ بـأيمـانٍ وأوْفَـىٰ بجيـران

(جمهرة أنساب العرب: ٢١٩)، ولا شك في أن عُوَيْراً كان معاصراً امرأَ القيس الذي عاش بين (٤٩٧ ـ ٥٦٠ م)، وأن كَرِبَ بن صفوان كان قريبَ العهد من ظهور الإسلام...

وهكذا عرفنا أسماء تسعةِ رجال من بني تميم، اجتمعت لهم إمامةُ الموسم مع القضاء بعكاظ، ومن شأن هذا أن يعودَ بوجود عكاظ، إلى ما قبل سعد بن زيد مناة، أي إلى أواسط القرن الثاني الميلادي. وعرفنا أيضاً أسماءَ ثلاثةٍ آخَرين جاؤوا بعدهم، أحَدُهم: العلاقُ بنُ شهاب من بني عوافة بن سعد، وقد خَلَفَ سفيانَ بنَ مجاشع على إمامة الموسم، والآخَرُ: محمدُ بنُ سفيان خَلَف أباه على القضاء، ثم أوْرَثَهُ بَنِيهِ[1]، من بعده، فخَلَفَهُ عِقالُ بنُ محمد، ثم حابِسُ بنُ عقال، ثم الأقرعُ بنُ حابس وكان آخِرَ من تولّى القضاءَ بعكاظ، وقيل إنه كان مجوسيّاً[2]، أسْلَمَ وشَهِدَ الفُتوح[3]. وقد عرفنا بالتحقيق أيضاً أن ضَمْرَة بن ضَمْرة من بني نَهْشَل بن دارم، كان أحَدَ قُضَاةِ بني تميم اللامعين، وُصِفَ بغزارة العلم، وذكاء العقل، وكرم السجِيَّة، وسَعَةِ الخبرة بأحوال العرب، وأنسابهم، وعاداتهم. وكان فارساً، شاعراً، شريفاً[4]. . . وأن ربيعةَ بنَ مُخاشِن، من بني أُسيِّد بن عمرو، كان كذلك من قُضاة تميم، وإليه كان مَرْجعُهم في أيامه، وكان عالم قومه، واقفاً على أنساب العرب، وأحسابهم، وكان من أَفْصَح الخطباء، كريماً، شجاعاً. وكان يجلسُ في المواسم على سريرٍ من خَشَبٍ، في قُبَّةٍ، فسُمِّي ذا الأعواد[5]، خَلَفَ في ذلك أباه مُخاشِنَ بنَ معاوية، وكان قاضياً أيضاً بعكاظ، ورثَ القضاءَ عن أبيه معاوية بن شُرَيف[6]، وهو ممَّن اجتمع لهم

(١) الأعلام: ٦/ ١٤٦.
(٢) المعارف: ٦٢١.
(٣) الأعلام: ٢/ ٥.
(٤) المفضَّل: ٥/ ٦٤٢.
(٥) المحبَّر. ١٣٤، والمفصَّل: ٥/ ٦٤٢، والأغاني: ٣/ ٨٦.
(٦) الأعلام: ٧/ ١٩١، وتاريخ اليعقوبي: ١/ ٢٥٨.

القضاءُ والإمامةُ معاً. وهنالك أيضاً حاجبُ بنُ زُرَارة، من بني زيد بن عبد الله بن دارم، كان من قضاة بني تميم، وهو من البُلَغاءِ الفُصَحاءِ في زمانه، له كلامٌ جيّد مُسَدَّدٌ[1]، ولعله كان يقضي بعُكاظ. ثم لا بُدَّ أن نضيف إلى هؤلاء: أكثَمَ بنَ صَيْفيّ، من بني مُخَاشِن بن معاوية، وكان في زمنه «قاضِيَ العرب، لا يَرُدُّون له حُكماً»، وكان من أشهر حكماء العرب، وخطبائهم في الجاهلية، عُرِفَ بنزاهته، وحُبِّه الخيرَ، وكان مثَالَ الرصانةِ والتعقُّل، توفي نحو سنة (٦٣٠ م). وكان من المُعَمَّرين[2]، ومثله الأضْبَطُ بنُ قُرَيْع من بني سعد بن زيد مناة، كان مُعمَّراً، والمُعَمَّرُ عند العرب مَن عاش مئةً وعشرين سنةً فما فوق[3].

وعلى ذلك، فإن بني تميم كانوا مُخْتصِّينَ بشؤون القضاءِ، أو الحكومة في عكاظ، وكانوا فوق ذلك أئمَّةَ الموسم، أو رؤساءَهُ، يعودُ لِوَليِّ ذلك منهم، أن يُعلِنَ قيامَ الموسم في موعده، ويأذَنَ بافتتاح السوق للمُبَايَعات، فإذا انقضت مدَّةُ قيام الموسم، أعلن انفضاضَ السوق، ولعله كان بعدئذٍ يُفيضُ بالناس إلى مجنَّة وذي المجاز... وكان لا بُدَّ لمن تَؤُولُ إليه رتْبَةُ القضاء، من أن يكون سيِّداً في قومه، كريماً، شجاعاً، عالماً بتقاليد العرب وعاداتهم، واقفاً على أنسَابهم وأحْسَابهم، وذلك ليكونَ قضاؤه بين الناس موضعَ تقدير، ومحلَّ طاعَةٍ.

وممّا يجدرُ ذِكرهُ في هذا المقام، أن شعراءَ العرب كانوا، كذلك،

(١) مجمع الأمثال: ١/ ٥٤، والمحبَّر: ١٣٤، والمفصَّل: ٥/ ٦٤١.
(٢) الأغاني: ١٦/ ٢٥٥، والأعلام: ٢/ ٦، والبيان والتبيين: ١/ ٢٨٣، والمفصَّل: ٥/ ٦٤٠، والمحبَّر: ١٣٤.
(٣) المستطرف: ٢/ ١١.

يَقْدَمُون سوقَ عكاظٍ في مواسمها، ليَعْرِضُوا جديدَهم من الشِّعْر، على قاضي الشعراء، ويتنافَسُون في القول بين يَدَيْه، ليَحكُمَ بينهم، أَيُّهم أَحْسَنُ قِيلاً، وأَرَقُّ عبارةً، وأَبْيَنُ وَصْفاً، وأكثرُ بلاغةً. وما استطعنا معرفتَهُ، من الموارد التاريخيَّة والأدبيَّة، أن الحكومة في الشعر كانت لقاضي الشعراء: النابِغَةِ الذُّبْيَانيّ، في النصف الثاني من القرن السادس الميلادي. وكان أَحْسَنَ العرب ديباجَةً، لا يتكلَّفُ الكلامَ، ولا يحشُو شعرَهُ بما لا يلزم، ولعلَّهم اسْتَقضُوه لهذه الخِصَال.

وهكذا كان في سوق عكاظ قضاةٌ مُخْتَصُّون، بعضُهم بشؤون السوق، وما عساهُ أن ينشأ فيها من المنازعات التجارية، وربما الجنائية. وبعضُهم بشؤون الشعر، والحُكم بين الشعراء.



(٢) - كيف صارت رئاسةُ عكاظ والقضاءُ فيه إلى بني تميم:

وفي بحثه القضاءَ بعكاظ، تساءَل جوادُ عليّ عن العِلَّة، التي جعلتِ القضاءَ والموسمَ بعكاظ حقّاً من حقوق بني تميم، ثم ردَّ ذلك إلى ما كان لتميم من نفوذٍ بمكةَ، وعند قُريشٍ، ومَن كانوا بجوارها... إذ لا يُعقَلُ التسليمُ بهذه الرئاسة الكبرى إلى تميم، وهي رتبةٌ لها شأنٌ خطيرٌ عند قريشٍ خاصَّةً، وعند جيرانها مثلِ ثَقيفٍ وهَوازِنَ، فلا بُدَّ أن تكون وراء ذلك مصاهرةٌ بين تميم وقريش، أو لعلّ تميماً كانت تنزلُ بمكةَ قبل ارتحالِها إلى مواضعَ أخرى، أو كانت تشدُّها إلى قُريش علائقُ وثيقةٌ[1]... تساءَل عن ذلك، وكأن الأمرَ فيه أمْرُ قريشٍ، أو كأنَّ لها سلطاناً عليه! مع أن السوق،

(١) المفصَّل: ٥/ ٦٥٢ ـ ٦٥٤.

كما رأينا تقومُ، في أرض هَوازِنَ بنَجْدٍ، ويوم انْسَحَبتْ قريشٌ وكنانةُ من عكاظ، عشيَّةَ حربِ الفِجَار، ثم علم بذلك عامرُ بنُ مالك، من بني جعفر بن كلاب، رئيسُ هَوازِنَ، قال: «غَدَرَتْ قريشٌ، وخَدَعني حربُ بن أُمية، واللَّهِ لا تنزِلُ كنانةُ عُكاظَ أبداً...». ثم ركبوا في طلبهم، حتى أدركوهم بنخلة[1]...

ومعنى القول أن سيِّدَ هوازن كان يملكُ حقَّ حِرمَانِ قريشٍ وسائرِ كنانة من شُهودِ المواسم بعكاظ متى شاء، وهذا دليلٌ واضحٌ، على أن بني كنانة، وفيهم قريشٌ، ما كانوا يملكون من أمر سوق عكاظٍ شيئاً، لا في إمامة الموسم، ولا في القضاء بين نُزَلائه، ولا حتى في أرضه! وإنما كانت لهم فيه مصالحُ تجاريَّةٌ كبرى، لا يَسَعُهم الاسْتِغناءُ عنها. حتى موسمُ الإفاضة بالحاجِّ، غَداةَ يوم النحْر، من المزدلفة إلى مِنىً، كانت إمامتُهُ في بني زيد بن عَدْوان، من قيس بن عيلان، وليس في قريشٍ، مع أنه في أرض مكة، لا في نَجْد! وكذلك إجازةُ الحاجِّ من عَرَفة إلى المُزْدلفة، ثم من مِنىً يومَ النَّفْر إلى مكة، بعد رَمْي الجِمَار، كانت في بني الغَوْثِ بن مُرٍّ[2]، أخي تميم بن مُرٍّ، ولمّا انقرضوا، انتقلت إلى بني تميم، وكانت منهم في آل صفوانَ، من بني سعد بن زيْد مناة، وكان أَحَقَّ أن تنتقل إلى قريشٍ، إذ هي في أرضهم، لو أن لقُريشٍ في هذا الأمر شيئاً!

والحقيقةُ أن هذه الوظائفَ كانت قِسْمةً، قَسَمها، سيِّدُ بني خُزاعة، في قبائل مُضَر، بعد أن غَلبَ جُرْهُماً على ولايةِ مكة، وحجابةِ الكعبة، أو أقَرَّهم عليها وكانت إليهم قبله. وكان نفوذُه وقتئذٍ يشمل تهامةَ والحجازَ ونَجْداً، وهو ما أشار إليه حسانُ بنُ ثابت بقوله في خزاعة:

---

(١) الكامل: ١/٥٩٢، وأيام العرب في الجاهلية: ٣٣٠.

(٢) العرب قبل الإسلام: ٣٢٩.

فكان لها المِرْباعُ في كلِّ غارةٍ   تُشَنُّ بنَجْدٍ، والفِجَاجِ العَوابِرِ[1]

أي كان يُجْبَى إلى زعيمها رُبْعُ الغنيمة، في كل غارةٍ تُشَنُّ، أكانت بنَجْدٍ أم في طُرُق الجبال. وهذا ما يؤكّدُهُ قولُ الأزرقيّ عن عمرو بن لُحَيّ: «وكان أمرُهُ بمكَّةَ، مُطاعاً في العرب لا يُعْصَى»[2]... ولذلك فإن قصيَّ بنَ كلاب، لمّا غَلبَ خُزاعة على ولايةِ مكة، وحِجَابةِ الكعبة، أَقَرَّ لقبائل مُضَر ما كانت عليه في عهد خُزاعة، إذ كان يَعُدُّهُ دِيناً في نفسه، لا ينبغي له تَغْييرُهُ[3]... ولا شيءَ يمنع أن يكون قد جرى على إمامة الموسم، والقضاءِ بعكاظ، مثلُ ما جرى على غيرها من تلك الوظائف، فظلَّت في بني تميم، وهم إذ ذاك قاعدةٌ من أكبر قواعد العرب، تمتدُّ منازلُهم من تهامة إلى ظواهر نَجْد والحجاز، إلى خليج العرب، من أعْلاهُ إلى أصقاع البحرين وما وراءَها[4]. وكانت فيهم المَنَعَةُ، والعَدَدُ، والفَصاحَةُ، والشِعْر، والبأسُ[5]. وكان لهم مُلْكُ البحرين، ورِدَافةُ ملوكِ الحِيرَة[6]... وكانوا: أخْوالَ بني عَدوان، فأمُّ عَدْوانَ بنِ عمرو، جَدِيلةُ بنتُ مُرٍّ، أختُ تميم[7]، وأخْوالَ بني غَطَفانَ، فأمُّ غطفانَ بنِ سعد، تُكْمَةُ بنتُ مُرٍّ[8]، وأخْوالَ قُرَيشٍ، فأمُّ قريش بن كنانة، بَرَّةُ بنتُ مُرٍّ[9]... وغَطَفانُ وعَدْوانُ وكنانةُ كانت من كُبْرَيات قبائل مُضَرِ بن

---

(١) أخبار مكة: ١/ ٩٥.

(٢) المرجع نفسه: ١/ ١٠٠.

(٣) تاريخ الطبري: ٢/ ٢٥٩، والسيرة لابن هشام: ١/ ١٢٤ ـ ١٢٥.

(٤) الأعلام: ٢/ ٨٨، و ٣/ ٨٥، ومعجم قبائل العرب: ١٢٦.

(٥) تاريخ اليعقوبي: ١/ ٢٢٩.

(٦) المعارف: ٦٥١، والمحبَّر: ٢٦٥، والأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٢.

(٧) جمهرة أنساب العرب: ٢٤٣.

(٨) المرجع نفسه: ٢٠٦.

(٩) تاريخ اليعقوبي: ٢/ ١١٩.

نزار. ولكنّ هذا كلّه لا يمنعُ من التأكيد على أن اختصاصَ بني تميم بإمَامةِ الموسم والقضاءِ بعُكاظ، إنما كان، كما ذكرتُ آنفاً، قسمةً مقسومةً لهم، منذ شَرَعَ عمرو بنُ لُحيّ، في عهد خزاعة، بتنظيم مكةَ، وشؤونِ العرب في الحجاز ونَجْد، وتوزيعِ الأعمال على قبائل مُضَر...

* * *

③ ـ الخلطُ بين مواسم الحجّ ووُلاتِها وموسمِ عكاظ:

وما دمنا نُحقّق في شأن إمامةِ الموسم، والقضاءِ بعكاظ، فهنالك أمرْانِ، لم يكن بُدٌّ من عَرْضهما للبحث والتحقيق، لإزَالَة اللبْس عنهما.

الأول: إشارةٌ يجبُ التوقُّف عندها، ذهبتْ إلى أن أَئمَّةَ العرب، وقُضاتَهم في مَواسِمهم بسوق عكاظ، بعد عامِرِ بنِ الظَرِبِ العَدْوانيّ، بنو تميم[1]... وهو غَلَطٌ يقتضي التصويبَ، لأنه يجعلُ من إمامةِ الموسم والقضاءِ بعكاظِ، أصْلاً، في بني عَدْوان، انتقلت منهم إلى بني تميم، بعد وفاة عامر بن الظرب، والمشهورُ أن الرجلَ كان من المعمَّرين[2]، ولو أخذنا بأدنى العَمَرِ، وهو مئةٌ وعشرون سنة، وقدَّرْنا وجودَهُ أواخِرَ القرن الثالث للميلاد[3] إذ هو التاسعُ على عمود النسب من عَيلان بن مُضَر، لكان معنى ذلك أنه تُوفي نحو سنة (٤٠٠ م)، وأن سعدَ بنَ زيد مناة أَتَىٰ بعد ذلك بجِيلٍ على الأقل، بينما سعدٌ في الحقيقة السادسُ على عمود النسب من إلياس بن

---

(١) المحبَّر: ١٨١، والأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٧، والعقد الفريد: ٣/ ٣٥١.

(٢) الأعلام: ٣/ ٢٥٢.

(٣) قدَّر ابنُ بليهد وجوده قبل مبعث النبي عليه السلام بنحو ثلاث مئة سنة. «موقع عكاظ: ٣٦»، أي نحو سنة (٣١٠ م)، وهو قريب من تقديرنا.

مُضَر، وسابقٌ على عامر بن الظرب بثلاثة أجيال على الأكثر[1]. . . هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإطْبَاقُ المؤرِّخين على أن سعد بن زيد مناة أوَّلُ من اجتمع له الأَمْرانِ من بني تميم، يعني أن هنالك مَن كان قبله يتولَّىٰ ذلك، رجلٌ لإمامة الموسم، وآخرُ للقضاء، أي زيدُ مناة بنُ تميم وأخوه عمروُ بن تميم، لأن ورَاثةَ الأَمْرَيْن كانت في ذُرِّيتهما، كما يعني أن هذا الشأنَ من عكاظ كان في بني تميم منذ أواسط القرن الثاني للميلاد، وأن أَوَّلِيَّةَ عامر بن الظرب فيه غيرُ صحيحة! بل وغيرُ صحيح أيضاً القولُ بأنه تولَّى شأنَ القضاءِ وإمامةِ الموسم بعكاظ اختصاصاً، فهذا وَهْمٌ، مَنْشَؤه شِعرٌ لذي الأصبع العَدْوانيّ[2]، قال فيه يفخر ببني عَدْوان:

ومنهم مَن يُجِيزُ الناسَ ... بالسُّنَّةِ والفَرْضِ
ومنهم حَكَمٌ يَقْضي ... فلا يُنْقَضُ ما يَقْضي[3]

فقولُه: ومنهم مَن يُجيزُ الناسَ، إشارةٌ إلى الإفاضَةِ بالحاجِّ من المُزْدَلفة إلى مِنىً، وكانت في بني زَيْد بن عَدْوان، وآخِرُهم أبو سيَّارة، عُمَيْلةُ بنُ الأعْزل، الذي قام عليه الإسلام[4]. وأما قولُه: ومنهم حَكَمٌ يقضي، فإنه يعني عامِرَ بنَ الظَرِبِ، وكان حَكَماً للعرب، لا تَعْدِلُ بفَهْمِهِ فَهْماً، ولا بحُكْمه حُكماً[5]. . . لكنّ هذا لا يعني أنه كان قاضياً مُتَخصِّصاً بعُكاظ، كبني

---

(١) انظر جداول أنساب بني تميم، وقيس بن عيلان، وقارن بجدول أنساب مضر بن نزار، المرفق بالكلام على مكة.

(٢) ذو الأصبع العَدْوانيُّ: حُرْثان بن الحارث، شاعر جاهليٌّ، حكيم، شجاع، وفارسٌ من قدماء الفرسان الشعراء، عاش طويلاً حتى عُدَّ في المعمَّرين. له أخبار وحروب ووقائع.

(٣) الأغاني: ٣/ ٨٦.

(٤) السيرة: ١/ ١٢٢.

(٥) مجمع الأمثال: ١/ ٥٣، وعيون الأخبار: ١/ ٧٣.

تميم، أو أن أمرَ القضاءِ في عكاظ كان من حقِّ بني عَدْوان، وإنما شأنُه في القضاء شأنُ سائرِ حُكَّام العرب، كانوا يحكمون بين الناس، أيْنما حَلُّوا، وأنَّى سُئلوا الحُكْمَ بين المتنازِعين، وحكومتُهم رُتْبَةُ شَرفٍ، بَلغُوها بفضل ما لَهم من العلْمِ والخبرةِ والسُّؤْدد والكرم، وليس من اللازم أن يَرِثَها عنهم أولادُهم، إن لم يكونوا مُسْتعِدِّين لها. أما حكومةُ عكاظ فهي رتبةُ شَرَفٍ، كُلِّفَ بها بنو تميم، يَتَوارثونها في أعقابهم، ويختارون لها منهم ذوي الكفايةِ والعقلِ والعلمِ والحزمِ والخِبْرةِ... فالأُولى تَطَوُّعٌ، والأُخْرى تكليفٌ. وهذا يُوجِبُ التفريقَ بين القضاءِ، أو الحكومةِ في عكاظ، وقضاءِ عكاظ، فالأوَّلُ يستطيعُه كلُّ قاضٍ أو مُحَكَّمٍ من قُضاةِ العرب ومُحكَّميهم، والثاني يتناولُ شؤونَ السوق «الإداريَّةَ والفنيَّةَ»، ومشاكلَ النزاعِ في التجارة والمبايعات، وقواعدَ الأمن، وما إلى ذلك، وكان في بني تميمٍ حَصْراً.

الثاني: هنالك إشارةٌ أخرى، كالأُولَى يجب توضيحُها، وتصويبُ غَلَطِها، خَلَطتْ بين موسمِ عكاظ وموسمِ الحجِّ بِعَرَفَة والنَّفْرِ من مِنَى. وذلك لمَّا ذكر ابنُ حبيب والمرزوقيُّ، في آخِر الكلام على مَن وَليَ الموسمَ والقضاءَ بعكاظ، أن «آخِرَ مَن أفاضَ بهم: كرِبُ بنُ صفوان... وهو الذي قام عليه الإسلام»[1]. وهو: كَرِبُ بنُ صَفْوانَ بنِ شِجنة، من آل صَفْوان، من بني عُطارِد بن عوف التميميّ[2]. انتقلتْ إليهم، بانْقِراضِ بني الغَوْثِ بن مُرّ، إجازةُ الحاجِّ من عَرَفة إلى المزدلفة، ثم من مِنىً إلى مكة، وهم مَن قال فيهم أَوْسُ بنُ مَغْراءَ[3]:

---

(١) المحبَّر: ١٨٣، والأزمنة والأمكنة: ٢/١٦٨.

(٢) جمهرة أنساب العرب: ٢١٩.

(٣) أَوْسُ بنُ مَغْراء: شاعرٌ تميميٌّ من بني أنف الناقة. أدرك الجاهلية والإسلام. توفي نحو (٦٩٥ م).

ولا يَرِيمُون في التعريفِ مَوْقفَهم حتى يُقالَ: أَجِيزُوا آلَ صَفْوانا[1]

أراد أن الحاجَّ كانوا لا يُفارِقون مواضِعَهم في الموقفِ بعَرَفَة، حتى يكون آلُ صفوانَ أئمَّتَهم في اجتياز الطريق إلى المُزْدَلفة. وهذا الأمرُ لا يتعلق بإمامة الموسم أو القضاء بعُكاظ، بل هو خارجٌ عنه، وكَرِبُ بنُ صفوانَ لم يكن من أئمَّة المواسم بعُكاظ، وإنما كان يلي الإجازةَ بالناس في الحجّ، وكان آخِرَ مَن وَلِيَها من بني تميم[2].

* * *

④ ـ عكاظ مجمعٌ للتقاضي عند العرب:

ومن الطبيعي أن تكون سوقُ عكاظ، وهي أكبرُ مجمعٍ عامٍّ لقبائل العرب في الجاهلية، موسماً كبيراً مُلائماً لذوي الحاجات، وأصحاب المظالم، يَتواعَدُونَ بها للتقاضي، أثناءَ مُدَّةِ إقامتهم في السوق، إلى قضاةِ عكاظ، في مُنَازعاتٍ تَتعلَّقُ غالباً بالمتاجرة، كالبُيوعِ، والدُّيُونِ، والرُّهُون، وما عساها أن تكون جَرَّتْ على بعضهم من الغُبْن، أو المظالم، ونحوِ ذلك. وهذا لا يعني أن قضاةَ عكاظ لا ينظرون فيما قد يُعْرضُ عليهم من قضايا الجِنَاياتِ، والدِّيَاتِ، ومُنَافَراتِ الأحساب والأنساب، بل يُمكنُ أن ينظروا فيها، مثلما يمكنُ أن يَنظُرَ فيها قضاةُ العربِ، ممَّن يتَّفقُ حضُورُهم المواسمَ، وهو ما يبدو واضحاً، في أخبار وقائع المُنَافَرات، المأثُورَةِ عن عكاظ.

ولا شك عندي في أن قضاءَ الجاهليَّة، عموماً، كان غيرَ مُلْزِمٍ

---

(١) لسان العرب: ٩/ ٢٤٢ (عرف)، والمحبَّر: ١٨٣، والعقد الفريد: ٣/ ٣٤٤ ـ ٣٥٠.
(٢) السيرة: ١/ ١٢١.

للمُتَقاضِينَ[1]، وأنه كان أقربَ إلى التحكيم منه إلى القضاء. ولكنني أراهُ في قضايا السوق بعُكاظ كان مُلْزِماً، لأنه لم يكن تطوُّعاً، أو تبرُّعاً للحُكم بين المتنازعين، وإنما كان تكليفاً، تَوافَقَتِ العربُ عليه، وأَقَرَّتْهُ في بني تميم، يَتوارثُونَهُ في السَّادَةِ النابِهينَ الخُبَراءِ من أعْقَابهم... ويبدو أن الدكتور منير العجلاني ذهب مذهباً مختلفاً، فقرَّر أن عرب الجاهلية لم يكن عندهم منصبٌ مَخْصُوصٌ باسْم القضاء، وما تُحدِّثُنا أخبارُ الجاهليّة به عن «قاضي السوق الذي كان يجلسُ للحُكم في سوق عكاظ»، لم يكن أكثرَ من مُحكَّم، اختارتْهُ جماعةُ السوق، ليقضيَ بينهم، في أغراضٍ مُعَيَّنَةٍ ومَوْسِمٍ محدود، ثم تنقضي مُهِمَّتُهُ. وحكومةُ هذا المحكَّم، بين الخصوم، لم تكن مُلْزِمةً لهم بالمُثُولِ بين يَديْه، والاحتكامِ إليه، ولم يكن حُكْمُه مُلزِماً بالتنفيذ، وربما تراضَوا على الاحتكام إلى مُحكَّم آخَر[2].

صفوةُ القول أن الأمور بعكاظ لم تكن فوضى، وإنما كانت تحكُمها قواعِدُ مَكِينةٌ، وإن كانت غير مكتوبة. فالنُّزَلاءُ بالسوق كانت تَضْبطُ كلَّ قبيلةٍ منهم رؤساؤُها وأشرافُها وحُكّامُها. والمنازعاتُ الناشئةُ في السوق، كُلِّفَ الحُكمَ فيها قضاةٌ نابِهُون من بني تميم.

* * *

● **تعقيب على نظام التقاضي في الجاهلية:**

كان في أسواق الجاهلية قُضَاةٌ أو مُحكَّمون، يَفُضُّون الخصومات، ويجلسون للنظر في مظالم الناس، وفيما قد يَشْجر بينهم من المنازعات، إذا

---

(١) المفصَّل: ٥/ ٦٣٥.

(٢) عبقرية الإسلام في أصول الحكم: ٤٣٠ ـ ٤٣١.

اختلفوا في أمور البيع والشراء، أو تخاصَمُوا في شأن من شؤون حياتهم. . . وقد يتولَّى القضاءَ بين المتنازعين زعماءُ الأسواق أنفسُهم، أو ملوكُها الذين يحكُمونها، ويتقاضَوْن عُشُورَها[1]، لقاء المحافظة على أرواح الناس وأرزاقهم، فإذا أصاب أحَدَهم ظلمٌ، لم يكن بُدٌّ لأولئك الملوك والزعماء أو القضاة من رَفْعِ الظلم عن المظلوم، وأَخْذِ الظُّلامَةِ من الظالم[2]، فقد كانوا يَعُدُّون الظلم عيباً يلحق بمن وقع عليه إن سكت عنه.

وقد أشار اليعقوبي في تاريخه إلى الموضوع فقال: «وكان للعرب حُكَّامٌ ترجع إليهم في أمورها، وتتحاكم في مُنافَراتها، ومواريثها، ومياهها، ودمائها، لأنه لم يكن لها دينٌ ترجع إلى شرائعه، فكانت تُحكِّمُ أهلَ الشرف والصدق والأمانة والرئاسة والسنّ والمجد والتجربة»[3]. . . ويُعَدُّ «الأفْعَى الجُرْهميُّ» أقدمَ مَن عرفناهم من حُكّام العرب في الجاهلية، وكان منزلُه بنجرانَ في اليمن، تقصده العربُ في قضاياها فيحكم بينها، ولا يُرَدُّ حكمه، وكان مُعاصِراً نزارَ بنَ مَعَدِّ بنِ عدنان[4]، الجدَّ العربيَّ القديم، وقد أدْرَكَهُ أبناءُ نزار: ربيعةُ ومُضَرُ وإيادُ وأنمارُ، وهو الذي حكم بينهم في ميراثهم من أبيهم نزار، وعلى ذلك يمكننا تأكيد وجوده في القرن الأول قبل الميلاد.

وكان الأصلُ في التقاضي قولُهم: «في بيته يُؤْتَى الحكَمُ»[5]. . ونفهم من ذلك أن بيت القاضي أو الحكَم كان مركزَ التقاضي بين الناس، ولكن

(١) تاريخ اليعقوبي: ١/ ٢٧٠، والأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٧ ـ ١٦٨، والمحبَّر: ١٨٢، والمفصل: ٧/ ٣٨٤، وأسواق العرب: ٢٠٥، ونهاية الأرب: ٤٦٤.

(٢) **الظُّلامَةُ والمظْلَمةُ**: ما أُخِذَ من الإنسان ظُلماً، وما احْتَمَلُه من الظلم.

(٣) تاريخ اليعقوبي: ١/ ٢٥٨.

(٤) الأعلام: ٢/ ٥، والمحبَّر: ١٣٢.

(٥) مجمع الأمثال: ٢/ ٢٨.

مشقَّة الانتقال أحياناً إلى بيوت القضاة جعلتِ المواسمَ العامَّة، كمواسم الحجِّ والأسواق الكبرى، مواضعَ صالحةً للتقاضي يقصدها أصحابُ الحاجات والظُلامات، فتُقْضَى حاجاتُهم وتُردُّ عليهم ظُلاماتُهم. فكانوا في الموسم يضربون للقاضي قُبَّةً خاصَّةً، يجلسُ فيها للحُكْم بين الناس. وكان قضاةُ العرب يُخْتارُون ممَّن توافرت فيهم الحكمةُ والسيادةُ والنزاهةُ والحِلْمُ والصدقُ، مع العلم بالعاداتِ والتقاليد، والأحْسَابِ، والأنساب، وأيامِ العرب، وأحْوالِهم، وغير هذا من الشروط . . . فالقاضي عندهم هو الحكَمُ، والحكَمُ هو الحاكمُ، والحاكمُ هو الذي يمنعُ الظالمَ من الظلم، والحكومةُ هي رَدُّ الظالم عن الظلم، والحُكْمُ هو العلمُ والفِقهُ والقضاءُ بالعدل، والمُحَكَّمُ هو الشيخُ المُجَرِّبُ المنسوبُ إلى الحِكمة، أي إلى العدلِ وإتقانِ الأمور[1]. وكانت للقضاء عند العرب في الجاهلية أصولٌ عريقةٌ، وقواعِدُ واضحةٌ ثابتة، أقرَّ الإسلامُ عدداً كثيراً منها لاتفاقها مع العدل والمنطق السليم، كقولهم: البيِّنةُ على من ادَّعَىٰ واليمينُ على من أنكر، أو كقول زهير بن أبي سُلمى[2] في طرُق إثبات الحق:

فــإن الحــقَّ مَقْطَعُــهُ ثــلاثٌ يميــــنٌ أو نِفــارٌ أو جَــلاءُ

وكان أميرُ المؤمنين عمر بنُ الخطاب إذا أُنشِدَ هذا الشعرَ يتعجَّبُ من فقه زُهير بالحقوق، وبَراعَتِهِ في تقسيمها، وبَلاغتِهِ في إيجازها، ويُرِدِّدُ: لا

(١) لسان العرب: ١٢/ ١٤٢ ـ ١٤٣ (حكم).

(٢) زهير بن أبي سلمى: من بني مزينة من مُضَر، حكيم الشعراء في الجاهلية، وكان له في الشعر ما لم يكن لغيره، كان أبوه شاعراً، وخاله شاعراً، وأخته سلمى شاعرة، وابناه كعبٌ وبُجَيْرٌ شاعرين. ولا نظن أن أسرةً هذا بعضُ حالها تنجمُ في بيئة مُتخلِّفة جاهلة. كانت قصائد زهير تسمى الحَوْليّات لأنه كان يعكف على تهذيبها وتنقيحها قبل إذاعتها في الناس.
وُلد في بلاد مُزَيْنة بنواحي يثرب، وأقام بالحاجِرِ من ديار نَجْد، وتوفي سنة (٦٠٩ م).

يخرجُ الحقُّ من إحدى ثلاثٍ، يمينٍ أو محاكمةٍ أو حُجَّةٍ بيِّنةٍ[1]. . . ولا شك في أن زهيراً إنما استفاد هذا العلم من مجتمع العرب، ممّا هو معمول به في أعرافهم وسُنَنِهم، ولكنه أحْسنَ تفصيلَ الحقوق، وإقامةَ أقسامها[2]، بعبارة بليغةٍ واضحةٍ مُوجزة. ومثلُ هذا العمل يَدلُّ بوضوح على اتصال صاحبه بمنطق الفلاسفة، وعِلْمه بأصول التشريع، كما يدلُّ على أن المجتمع الذي كان يعيش فيه مجتمعٌ يعرفُ الأحكامَ القانونية، وتنظيمَ الحقوق، ويملكُ جملةً من القواعد، كانت صالحةً لقيام نظام قضائي، يرجعُ الناسُ فيه إلى قضاتهم، للفصل فيما يَشْجُرُ بينهم من المشاكل. وكان قبولُهم بأحكام القضاة دليلاً على وجود ذلك النظام، أو تلك القواعد القانونية العامة. وكما هو الحالُ اليوم، فإن بعض الأحكام التي كان القضاةُ يحكمون بها أحياناً، تصبح قواعدَ قانونيةً مُلْزِمةً فيما بعد، يَتَّبِعُها سائرُ القضاة، كقول قسِّ بنِ ساعدة الإيَاديّ، وكان من حُكَّام العرب وقضاتهم وخطبائهم[3]: لأَقْضِيَنَّ بين العرب بقضيَّةٍ لم يقضِ بها أحدٌ قبلي، ولا يَردُّها أحدٌ بعدي: «أيُّما رجلٍ رمَى رجُلاً بمَلأَمَةٍ دونها كرمٌ فلا لُؤمَ عليه، وأيُّما رجلٍ ادَّعَى كرماً دونه لؤمٌ فلا كرمَ له»! فذهب قضاؤه حُكْماً يُتَّبع في مُنَافَرات الحسَب والشرف، وكقوله أيضاً: «البيِّنةُ على مَن ادَّعَى، واليمينُ على من أنكر»، ذكر الميداني أنه أول من قالها، ومعناها أن تقديم البيِّنة يجب على المدِّعي لا على المُنكِر[4].

ويُفهم من بعض الأخبار أنه كانت للقضاء عند العرب مَراسِمُ خاصَّة،

---

(١) عيون الأخبار: ١/ ٦٧، والشعر والشعراء: ١٤٠، ١٤٩، والعقد الفريد: ٥/ ٢٨١.

(٢) البيان والتبيين: ١/ ٢٠٣.

(٣) المرجع نفسه: ١/ ٢٨٣.

(٤) العقد الفريد ٢/ ١٩١، و ٣/ ٤١١، ومجمع الأمثال: ١/ ١٥٢.

كقَرْعِ العصا بين يَدَيْ القاضي إذا حَضَر، إيذاناً بانعقاد مجلس القضاء، أو إذا أراد الإنصرافَ، آيةً على انْفِضاض المجلس. وكانت العصَا عند العرب تُضْرَبُ مَثَلاً للاجتماع، وانْشِقاقُها مثلاً للافتراق[1]، وحَملُها من علامات السيادة والحُكم والرئاسة، فكان الحكّامُ يحملونها، أو يحملُها بين أيديهم أعوانُهم عند قيامهم للحُكم بين الناس[2]. وما يزال قرعُ المطرقة، كقرع العصا، تقليداً مُتَّبعاً عند القضاة إلى اليوم، يُسْكِتُون به المخالفين على النظام، ويُلْزِمونهم الطاعةَ واحترامَ هيبةِ القاضي واجتماعِ الناس. ومن أمثال العرب قولُهم: «إن العَصَا قُرِعَتْ لذي الحِلْم»[3]. وذو الحِلْم هو: عامِرُ بنُ الظَّرِب العَدْوانيُّ[4]، وهو حاكمُ العرب في زمنه، لا يَعْدِلُون بحكمه حكماً، ولا بفهمه فهماً، وقالوا: إنه أولُ من قُرِعَت له العصا... ومع أن هذا القول يتفق بداهةً وما ذهبنا إليه من أمْر العصا ورَسْمِها في القضاء، كما يتفق وما أضافوه إلى عامر بن الظرب من الحكمة والفهم والسيادة والرئاسة، غير أن بعض الرواة وأهل الأخبار في عصر التدوين، زعموا في تفسيره أن عامر بن الظرب لمّا أَسَنَّ أنكر من عقله شيئاً، فقال لِبَنِيه: إني قد كبُرتْ سِنّي، وعَرَض لي سَهْوٌ، فإذا رأيتموني خرجتُ من كلامي وأخذتُ في غيره فاقْرعوا ليَ المِجَنَّ بالعصا، وزعم آخرون أنه أَمَر بنتَه أن تقرعَ له بالعصا، إن هو زَلَّ في الحُكم أو جار عن القصد، تُفطِّنُه بقَرْعها للصواب فيفطن له... وأضاف

---

(١) لسان العرب: ١٥/ ٦٦ (عصا).

(٢) المفصَّل: ٥/ ٤٩٩.

(٣) لسان العرب: ١٥/ ٦٦.

(٤) عامرُ بن الظَّرِبِ العَدْواني: من بني عَدْوان، من قيس بن عيلان. خطيبُ قبائل مُضَر وفارسُها وإمامُها وحَكَمُها. من حُكام العرب في الجاهلية، يحتكمون إليه في النوازل، وكان عندهم مَرْضيَّ الحكم. وكنا قدَّرنا زمنه نحو (٢٧٥ ـ ٤٢٥ م). له شعرٌ جيِّدٌ وكلام مُسَدَّدٌ. وهو ممن حرَّموا الخمر في الجاهلية.

بعضُهم أنه أُتيَ بخُنْثَى ليحكم فيه، وهو لا يدري ما حكمُ الخنثى، فقامت إليه جاريتُه «خُصَيْلَة»، وقالت له: ما بالُكَ! أَتْبِعْهُ مَبَالَهُ!.. ولما جاء الإسلام أقرَّ ذلك وجرى حكمه به[1]. فانظرْ إلى أصحاب هذه الأخبار كيف جعلوا من زعيم، موصوفٍ بالعقل والحكمة والفروسية، رجُلاً خُولِطَ في عقله، وفَسَدَ رأيُه، وعَرَض له السَّهوُ والنسيان، ورغم ذلك كان مستمراً في الحكم بين الناس، حتى احتاج إلى من يقرعُ له العصا، فينزع عن زَيْغِهِ، وحتى صارت جاريتُه أقْضَى منه، فيطلب منها النصح والمشورة!... وكأن الرجل كان إمَّعَةً جاهلاً من غِمار الناس، وكأن العربَ كانوا من الجهل بحيث لا يفرقون بين العاقل ومَنْ خُولط في عقله.

ولكننا إذا عرفنا أن الشعوبية في عصر التدوين كانت تُعَيِّرُ العربَ باسْتعمالهم العَصا في أمور كثيرة، عَلِمنا أن تلك الخرافات التي ساقها أهلُ الأخبار تفسيراً لذلك القول، إنما هي من قبيل الاختراع والتزوير والدسّ. فقول العرب: إن العصا قُرِعت لذي الحِلْم، وأنها لم تُقْرَع قبل ذلك لغيره، إنما هو من قبيل الفخر، يفخر به بنو عَدْوان على الناس، لأنهم كانوا يَعُدُّون عامِرَ بنَ الظرب أولَ قُضاة العرب وأئمتِهم بسوق عكاظ، ثم انتقل ذلك إلى بني تميم كما ذكر ابنُ حبيب[2]. ولعلَّ الرجلَ كان أوَّلَ من سنَّ عادةَ قَرْعِ العَصَا، إيذاناً بانعقاد مجلس القضاء، أو بحضور القاضي أو غير ذلك، فلم يجد الرؤساءُ في استعمالها بعدَهُ غَضَاضةً، فردُّوا على الشعوبية بأن العصا لا عيبَ فيها، وأنها قُرِعت لذي الحِلْم، دليلاً على جلالةِ قَدْرِهِ وعُلوِّ مركزه.

---

(١) مجمع الأمثال: ١/ ٥٣، والعقد الفريد: ١/ ٦٢، و ٣/ ٩٤، وعيون الأخبار: ١/ ٧٣، والمعارف: ٨٠، ٥٥٣، والبيان والتبيين: ٣/ ٢٧، ولسان العرب: ١٥/ ٦٦ (عصا)، وجمهرة أنساب العرب: ٢٤٣، والسيرة لابن هشام: ١/ ١٢٢ ـ ١٢٣.

(٢) المحبَّر: ١٨١.

ولئن كنتُ لا أعتقد أن عامر بنَ الظرب هو أوَّلُ القضاة بعكاظ، لأن القضاء بعكاظ كان في بني تميم بن مُرٍّ حَضْراً، فإن ذلك لا يمنع من القول بأنه كان قاضياً قومياً، يقضي بين العرب على اختلاف قبائلهم، وربما قضى أحياناً بعكاظ وغير عكاظ[1]، ولم يكن قاضياً مَحلِّيّاً يقضي بين أبناء قبيلته وحَسْب، وهو في ذلك كالأفعى بن الحُصَيْن الجرهمي، يقصده العربُ في منزله بنجران للاحتكام إليه، ومثلُه أَكْثَمُ بن صَيْفي التميميُّ، وقسُّ بنُ ساعدة الإيَاديّ. وحَنْظَلة بن نَهْد القُضَاعيُّ حاكمُ العرب، وكان منزلُهُ باليمن قربَ نجران[2]. وكانوا جميعاً من الحكام الرؤساء والخطباء البلغاء[3]، عند العرب جميعاً.

وقد ذكر ابنُ حبيب نحواً من ستة وثلاثين حكَماً من حُكام الجاهلية، ينتسبون إلى قبائل العرب من جُرْهم وقريش وكنانة وخزاعة وأسد وتميم وقيس وربيعة وإياد ودَوْس وقضاعة[4]، وذكر بعضَ هؤلاء أيضاً المرزوقيُّ ولم يأتِ بجديد[5]، ومثلُه فعلَ الميدانيُّ فذكر أحَدَ عشر قاضياً، ولكنه أضاف إليهم أربع حكيمات من بنات العرب هُنَّ: صُحْرُ بنت لقمان، وهند بنت الخسّ، وجمعة بنت حابس، وإبنة عامر بن الظرب[6]. وقد ذكر الجاحظ أن إبنة عامر «كانت من حكيمات بنات العرب حتى جاوزتْ في ذلك مقدار صُحْرِ بنت لقمان وهند بنت الخسّ وجُمُعَة بنت حابس»[7]... وهذه

---

(١) العقد الفريد: ٣/ ٣٥٠ ـ ٣٥١.

(٢) جمهرة أنساب العرب: ٤٤٦.

(٣) البيان والتبيين: ١/ ٢٨٣، والأغاني: ١٦/ ٢٥٥.

(٤) المحبَّر: ١٣٢ ـ ١٣٧.

(٥) الأزمنة والأمكنة: ٢/ ٢٧٣ ـ ٢٧٤.

(٦) مجمع الأمثال: ١/ ٥٤.

(٧) البيان والتبيين: ٣/ ٢٧.

آية على ترقّي العرب في عصر الجاهلية إذ كان فيهم نساء حكيمات مُحكَّمات، اشتُهِرنَ بصواب الحكم، وصِحَّة الرأي، وحُسْنِ الفصل في الخصومات، وكان الناسُ يحتكمون إليهن أحياناً كما يحتكمون إلى الرجال، ويقبلون أحكامهنَّ قبولَهم أحكامَ الحُكَّام من الرجال[1].

على أن إفْرادَ ابن حبيب أسماءَ حُكَّام العرب في الجاهلية في فصل مُستقلٍّ، ثم ذِكْرَهُ أسماءَ أئمَّةِ العرب وقُضاتِهم بعكاظ في فصلٍ آخر[2]، أمرٌ يدفعنا إلى وجوب التفريق بين الطائفتين، فقضاةُ عكاظ كانوا في الوقت عينه قضاةً في قومهم، ومنهم من اكتسب شهرةً قوميةً فصار قاضياً للعرب جميعاً مثل أكثم بن صيفيّ، والأَقْرع بن حابس، وضَمْرة بن أبي ضمرة، وربيعة بن مخاشن، فكان العرب يرتحلون إليهم لينظروا في أحوالهم ومنافراتهم. أما حكامُ العرب الآخرون، فأكثرهم كانوا قضاةً في قبائلهم، وإذا حُكِّم أحدُهم في موسمٍ عامّ كسوق عكاظ مثلاً، فهو إنما يُحكَّمُ بين أبناء قبيلته، وينظرُ في قضاياهم دون غيرهم فإذا كان النزاعُ بين فريقين، ينتمي كلٌّ منهما إلى قبيلة، فالنظر في هذا النزاع من حُقوق حاكم السوق أو قاضيها، وربما كان أيضاً من حقِّ القضاة القَوْميّين المعروفين عند العرب جميعاً. وفي اعتقادي أن النزاع في الأسواق الموسمية، إذا كان تجارياً، فهو من حق قضاة السوق أو ملوكها حتماً، وإلا فما كانوا عيَّنُوا للسوق قاضياً أو حاكماً ينظر في النزاعات التي يمكن أن تنشأ بين الناس، ولكانت كلُّ قبيلةٍ تَشْهدُ موسمَ السوق تكتفي بقاضِيها أو حاكمها.



(١) المفضّل: ٥/٤٩٨ و ٥/٦٣٩.
(٢) المحبَّر: ١٨١ ـ ١٨٣.

الفصل الثاني

عكاظ المعرض العام لتجارات العرب

المطلب الأول: عروض التجارة

المطلب الثاني: نظام المتاجرة

١ ـ التحكيم التجاري

٢ ـ الإعفاء من الضريبة

٣ ـ العلامات التجارية

المطلب الثالث: طرائق البيوع والتعامل

المطلب الرابع: كتبة الصكوك بعكاظ

معرض تجارات العرب

يهمُّنا، في هذا الفصلِ من الكتاب، أن نُحقِّق في أمورٍ رئيسَةٍ ثلاثة:

الأوَّلُ: ما كان يُعْرَض في سوق عكاظ، من صُنُوفِ السِّلَعِ والأمتعةِ والعُروضِ المختلفة، جعلتِ الناسَ تحرصُ على قَصْدِها، كلما حلَّ موسمُها، لِيَرَوْا فيها الجديدَ الذي لم يَرَوْهُ من قبلُ، وليشتروا منها ما أحَبُّوا من حاجات، ربما نزلتِ المنافسةُ بأسعارها، في معرضٍ عامٍّ كسوق عكاظ، أكثر مما كانوا يتوقَّعون.

الأمرُ الثاني: ما يمكن أن نُحيط به من أُصول المتاجرة، التي كانت مُتَّبَعةً إذ ذاك في التعامل بين الناس.

الأمر الثالث: طرائق البيوع والتعامُل.

المطلب الأول ـ عُروضُ التجارة:

لا شكَّ في أن عُروضَ عكاظٍ بلغتْ من الكثرة مبلغاً كبيراً لا يمكن حَدُّه، ومن التنوُّع ما رغَّبَ فيها الناسَ، حتى المُلوكَ والرؤساءَ، فكانوا يُوفِدُونَ إلى عُكاظ، مَن يشتري لهم منها ما يحتاجون إليه، مما لا يكون في غيرها. جاء في الأخبار أن ملكَ الحِيرة، النعمانَ بنَ المنذر، كان من عادته أن يبعثَ إلى سوق عكاظ، في مواسمها، لَطائمَ الطِيبِ والبُرِّ، فتُباع فيها، ويُشْتَرى له منها بثَمنها: الأَدَمُ، والحريرُ، والوِكاءُ، والحِذَاءُ، والبُرودُ من

العَصْبِ والمُوَشَّىٰ والمُسَيَّرِ العَدَنيّ[1]. . . وكان مشهوراً بها نوعٌ مُمَيَّزٌ من الأَدَمِ الجميل، يُبَاعُ فيها، فنُسِبَ إليها، وسُمِّيَ الأَدِيمَ العُكاظيَّ، وهو مما كان يُحمل إليها[2]. . . ولعله من الطائف. وكان مشهوراً بها كذلك صنوفٌ من الثياب الغالية الثمن، تُجلبُ إليها من بلاد العرب والشام والعراق ومصر. وكان يتوافَرُ بها من الأشياءِ، ما ليس في سائر أسواق العرب مِثلُه، «فكان الملكُ من مُلوك اليمن، يبعثُ بالسيف الجيّد، والحلَّة الحسَنة، والمركوب الفاره[3]، فيقف بها رسولُهُ في عكاظ، وينادي عليها، ليأخُذْها أعَزُّ العرب. . . يُريد بذلك معرفةَ الشريفِ والسيِّدِ منهم، فيأمُرُهُ بالوِفَادَةِ على الملك، فيُحْسِن صِلَتَهُ وجائزتَه»[4].

وكان يُجْلَبُ إلى عكاظ كلُّ ما اشْتُهِرتْ بلادُ العرب، وغيرُها من البُلْدان القريبة والبعيدة، بإنتاجه أو صُنْعِه[5]. فكان فيها على سبيل التمثيل:

- غَوالي الطِيب، والمِسْكُ، والعَنْبرُ، والكافورُ، والبَخُورُ، والْلُبَانُ، وأنواعُ العُطور، والزَّعْفرانُ، والأَفَاوِيهَ، والوَرْسُ، والكُنْدُرُ، والخِطْرُ، والمُرُّ، والخِضَابُ، والصمغ، والعِلْكُ، والحِنَّاء. . .

---

(1) الأغاني: ٢٢/ ٦٤. **الأَدَمُ**: الجلودُ المدبوغة. **الوِكاء**: ج أَوْكِيَة، وهوَ كلُّ وعاءٍ يُشَدُّ رأسُه بما يشبه رباطَ الصُّرَّة. **البُرودُ**: ثيابٌ يمنيَّة مُخطَّطَةٌ غاليةُ الثمن. **العَصْبُ**: ضربٌ من بُرودِ اليمن، سُمِّي عَصْباً لأن غَزْلَهُ يُعْصَبُ، ويُدْرَجُ، ثم يُصْبَغ، ثم يُحَاكُ. **المُوَشَّى**: وَشَّى الثوبَ أي حَسَّنَهُ بالألوان، ونَمْنَمهُ، ونقشَهُ. **المُسَيَّر**: ثيابٌ مُخَطَّطةٌ، وَشْيُها يشبه السُّيُورَ.

(2) لسان العرب: ٧/ ٤٤٨ (عكظ)، ومعجم البلدان: ٤/ ١٤٢.

(3) **المركوبُ**: ما يُركَبُ من الحيوان، **والفارِهُ**: النشيطُ الحادُّ، القويُّ. ولا يقال للفرس فارِهٌ، إنما يقال للبِرْذَوْنِ والبغل والحمار. ولا يقال للفرس إلا جواد.

(4) الأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٥.

(5) عكاظ والمربد: ٢٥.

● أساوِرُ، وخَلاخيلُ، وقلائدُ، وسَلاسِلُ، وتيجانٌ، وأكواب، وأباريقُ، بعضُها من ذَهبٍ أو فِضَّةٍ، واللؤْلؤُ، والدرُّ، والعَقِيقُ، والبَقَرانُ، والخَرَزُ، والجَزْعُ. . .

● البُرودُ المُوَشَّاةُ، والمُسَيَّرةُ، والمُرَحَّلةُ، والمُخَطَّطةُ، وثيابُ الكَتَّانِ أو القطنِ أو الحريرِ، والحُلَلُ، والجُبَبُ، والأرْدِيَةُ، والأَقْمِصَةُ، والعَباءات. . .

● أنواعُ التُمُورِ، والخُمُورِ، والزبيبُ، ودقيقُ القمح الأبيض، والزيوتُ، والدُّهون، والسَّمَكُ المجفَّفُ، والعَسَلُ، والتوابِلُ، والحِنْطَةُ، والسَّمْنُ، والملحُ. . .

● الصوفُ، والشَّعَرُ، والوَبَرُ، وأنواعُ الجلودِ المدبوغةِ، والمناطِقُ المُذهَّبَةُ، والرِّحَالُ، والبُسُطُ المصنوعةُ من الصُّوفِ، أو شَعَرِ الماعِزِ، وريشُ النعام. . .

● أنواعُ السيوف، والرماحُ، والنَّبالُ، والدُّرُوعُ، والخَناجِرُ، والنِّصَالُ. . .

● الإبِلُ، والبَقَرُ، والأغنام، والقرود. .

● أَوَانٍ من زُجَاج، وأُخرى من خَشَبٍ أو أديمٍ. . .

● صناديقُ، وهوادِجُ، ومَطارَقِ، وأثاثٌ للبيوتِ مختلفٌ أصنافُه. . .

● وكان في عكاظ أيضاً رقيقٌ يُعْرَضُ للبيع، وكانت المتاجرةُ به يومئذٍ تُجيزُها الأمَمُ كافةً، وتَعُدُّ حقَّ السيِّدِ على عَبْده أو أَمَتِه حقّاً مشروعاً مَصُوناً. . . وقد ذُكر أن السيدة خديجة أمَّ المؤمنين مَلَكَتْ زيْدَ بنَ حارِثَةٍ، اشتراهُ لها حكيمُ بن حزام[1]، في سوق عكاظ، بأربع مئة درهم. ثم سألها رسولُ الله، بعدما تَزوَّجَ بها، أن تَهَبَهُ زيداً، فَفَعلتْ، فأَعْتَقَهُ، وزَوَّجهُ من

---

(١) حَكيم بنُ حزام: من بني أسد بن عبد العُزَّى. وُلد في الكعبة، وكان صديقاً للرسول قبل البعثة وبعدها. أسلم يوم الفتح. توفي سنة (٥٤ هـ = ٦٧٤ م)، وعاش نحو (١٢٠) سنة.

«أم أيمن»، وكانت ممَّا وَرِثَهُ عن أبيه، وكان اسْمُها «بَرَكة»[1]. وذكر أيضاً أن «النابغةَ بنت عبد الله»، كانت سَبِيَّةً عند بعض قبائل العرب، فأبىٰ قومُها فِداءَها، فبِيعَتْ في عكاظ، فاشتراها عبدُ الله بنُ جُدْعان التَّيْميُّ، للعاص بن وائل السَّهْميّ، فولدتْ له ابنَه عمرو بنَ العاص، فاتحَ مصر[2].

هذه أمْثِلَةٌ لما كان يُعْرض في سوق عكاظ من البضائع، وقد تحدَّثْنا في كلامنا على «العرب والتجارة» حديثاً مُفَصَّلاً عن ذلك، فيه وضُوحٌ كافٍ مُغْنٍ عن التكرار.



المطلب الثاني ـ نظامُ المتاجرة:

إن استقراءَ ما تَيسَّرَ لنا من الأخبار، يُنْبِيءُ بوجود بعض القواعد العامَّة، التي كانت مُتَّبَعَةً في المتاجرة بسوق عكاظ. ولعل أكثَرها وضُوحاً: التحكيمُ التجاريُّ، والإعْفاءُ من الضرائب، والعلاماتُ التجارية.

١ ـ التَّحْكيمُ التجاري:

كان قضاةُ عكاظِ غالباً يحكمون فيه بين المتنازعين، لِئَلاَّ يطغَىٰ أحَدٌ على أحَدٍ في بيع أو شراء، فكان خيرَ ضامنٍ لحقوق الضعفاء، والمظلومين، الَّذين كانوا يقعون ضحايا للغِشِّ، أو التَّدْليس، والخِداع، أو الغُبْنِ بالأسعار، أو المَطْلِ بوفاء الدَّيْن، وغير ذلك من المظالم. وأعتقد أن منصبَ القضاءِ إنما أُحْدِثَ بِعُكاظِ من أجل النظر في مثل هذه المظالم، قبل أيِّ شيءٍ

---

(١) المعارف: ١٤٤، والطبقات: ١/ ٤٩٧، و ٣/ ٤٠، وأنساب الأشراف: ٤٦٧، ٤٧٦.

(٢) العقد الفريد: ١/ ٥٤.

آخَرَ، كالنَّظَرِ في المنافرات والتفاخُر، ولا سيما أن أرضَ عكاظ لا يحكمُها مَلِكٌ، أو رئيسُ قبيلةٍ، ليقومَ مَقامَ السُّلْطةِ القضائيَّة، أو التنفيذيَّة في مثل هذه الأحوال. وقد ساعد هذا التدبيرُ على رَواجِ التجارة في عكاظ، وعلى دَعْم الثقة بها، وازدهارها.

٢ ـ الإعفاءُ من الضرائب:

كانت البضائع المجلوبةُ إلى سوق عكاظٍ مُعْفاةً من العُشُورِ، أو المُكُوس[١]، فكأنها كانت «منطقةً حُرَّةً»[٢] في الجاهلية. إذ لم يكن بها مَكَّاسٌ يتقاضَى المكوسَ من التجار، ولا عَشَّارٌ يُحصِّل العُشُورَ على المُبَايَعاتِ[٣]، ذلك لأن السوقَ لم تكن في سُلطان أحَدٍ من الأُمَراء أو الملوك، ولأن موسمها يقومُ في شهرٍ حرامٍ، لا يحتاجُ معه التجَّار إلى من يَخْفُرهم، أو يحميهم فيها. وكان التجارُ يُبَاشِرون البيعَ والشراءَ بالسوق فَوْرَ افتتاحها، وإعلانِ قيامِ مَوْسِمِها، وليس عليهم أن ينتظروا، كما لو كانت السوقُ تقعُ في أرض مملكةٍ، حيث لا يبيعُ أحدٌ شيئاً من بضاعته، حتى يبيعَ الملكُ، أو حاكمُ السوق، كلَّ ما يُريدُ بَيْعَهُ من العُروض.

أمّا ما ذكره أحمد أمين عن القبائل التي كانت تُقدِّم إتاوةً لرؤسائها، في نظير إقامتها بعكاظ، فهو غير صحيح، لنصِّ كلٍّ من ابن حبيب[٤]، والمرزوقي[٥]، أنه لم يكن بعكاظ عُشُورٌ ولا خفارة. واسْتِشهادُ أحمد أمين

---

(١) المُكُوس: مُفردها مَكْسٌ، وهي ما كان يُؤخَذُ ضريبةً من التجار، وهي كالعُشُور، والمكَّاسُ هو جابي المكوس، والعَشَّارُ جابي العُشُور.

(٢) المفصَّل: ٧/ ٣٧٩.

(٣) الأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٥.

(٤) المحبَّر: ٢٦٧.

(٥) الأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٥.

بالإتاوة التي كانت تُقدِّمُها هوازنُ إلى زهير بن جذيمة العبسيّ بعكاظ[1]، ليس في مَحلِّه، لأن هوازنَ هي صاحِبَةُ السوق، فكيف تُؤدِّي أجْراً عن إقامتها بها، إلى من لا يملك شيئاً من أرضها؟ والواقع أن هوازن كانت تؤدِّي إتاوةً إلى زهير، لأنها كانت تدينُ له بالطاعة، وكان موسمُ عكاظ خيرَ مناسبةٍ لتحصيل تلك الأتاوة، التي يجب أداؤها في نظير الولاء، لا في نظير الإقامة بعكاظ.

٣ ـ العلاماتُ التجاريَّة:

لم تكن كلُّ بضاعةٍ تَرِدُ إلى عكاظ تُباع، إذا لم يُعرفْ أصلُها، ومَنْشَؤها، و «علامتُها التجاريَّةُ» إن كان لها سِمَةٌ خاصَّةٌ بها. تَأكَّدَ لنا هذا الأمرُ، لأن البضائعَ، التي كانت مجهولةَ الأصل، لم تكن تجدُ مِن الناس مَن يشتريها، أو يُقْبِلُ عليها. ومثالُ ذلك ما وقع في مَوسمٍ من مواسم عكاظ، فقد قَدِمَ السوق لصٌّ من لُصوص العرب، مُتَنكِّراً في زِيّ تاجر، وقَرَّبَ إبِلاً للبيع، فسُئِل: ما علامةُ إبِلِكَ؟. فتَعَثَّر لسانُه، فلمّا ألَحُّوا عليه، صاح: كلُّ نِجَارِ إبِلٍ نِجَارُها[2]... والنِجَارُ: الأَصْلُ، أراد أن فيها من كل القبائل، فعلموا أنه سارقٌ، كان يُغِيرُ على أنعام القبائل، فيطردُ إبِلَهُم، ثم يأتي السوق بها. وكانت لكلّ قبيلة من قبائل العرب سِمَةٌ خاصَّةٌ، تُوسَمُ بها أنْعَامُهم، لِيُعْرَفَ أَصْلُها، فكان من عادتهم أن يسألوا: ما نارُ هذه الناقةِ؟ أي ما سِمَتُها؟ سُمِّيَتِ السِّمَةُ ناراً، لأنها بالنارِ تُوسَم، وكانوا يقولون عن الإبِل: نِجَارُها نارُها، أي سِمَتُها تدلُّ على أصلها[3]... ويمكن أن نفهم من هذه الواقعة،

---

(١) عكاظ والمربد: ٢٤.

(٢) مجمع الأمثال: ٢/ ١١٠.

(٣) لسان العرب: ٥/ ٢٤٣، وتاج العروس: ١٤/ ٣٠٥ (نور).

أن البضاعةَ إذا كانت مجهولةَ الأصلِ لا يشتريها أحدٌ، وأنه كان من عاداتهم تمييزُ بضائعهم بسِمَاتٍ مَعْروفةٍ بينهم. وكنتُ أشرتُ إلى العلامات التجارية في كلامي على الكتابة في الجاهلية، وذكرتُ أنهم كانوا يختمون أكياسَ البُرِّ، وزِقَاقَ الخمر، وغيرَها من البضائع، بخاتَم خاصٍّ، عليه كتابةٌ منقوشةٌ مُميِّزةٌ، يُسَمُّونه الرَّوْسَم[1].



المطلب الثالث ـ طرائق البُيوع والتعامل:

ذكر أهلُ الأخبار أن البَيْعَ في عكاظٍ كان بَيْعَ «السِّرَار»! وقد فسَّرهُ ابنُ حبيب بقوله: إذا وَجَبَ البيعُ، وعند التاجِر ألْفٌ، ممَّن يريدُ الشراءَ، ولا يُريدُهُ، أشْركه في الربح[2]... بينما قال المرزوقيُّ: إنه إذا كان عند التاجر أَلْفُ رَجُلٍ ممن يريدُ الشراءَ ولا يُريدُه فلَهُ الشركةُ في الربح[3]... ولا أعتقدُ أحداً يرضى بهذا التفسير، ولا ذاك، فكلاهما كلامٌ غريبٌ، ليس له معنى معقول!

وكنتُ ذكرتُ، في كلامي على خصائص الأسواق الموسمية، أن سوقاً كسُوق عكاظ، يَتوجَّـهُ إليها التجَّارُ من كل مكان، ويُعِدُّون لها ما استطاعوا من صنوف البِيَاعات، ويَعِدُ الناسُ أَنْفُسَهم بشُهودِها، ويُواعِدُ بعضُهم بعضاً على التلاقي في مواسمها، ويَؤُمُّها عربُ الشمالِ والجنوب، وأهلُ الشام والعراق، ويَتَوافَىٰ بها أشرافُ العرب وملوكُهم، لا يمكن أن تكون البُيُوعُ

---

(١) المفصَّل: ٧/ ٥٥١.
(٢) المحبَّر: ٢٦٧.
(٣) الأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٥.

فيها، بطريقةٍ واحدةٍ مُبْهَمَةٍ، لا هي من أشكال القمار، ولا من ضُروب العَبَثِ واللهو أو اختبارِ الحظوظ.

وقد فتَّشتُ في المعاجم عن هذه الكلمة، فلم أجد أحَداً ذكر هذا النوعَ من البُيوع، إلا بطرسَ البستانيَّ قال فيه: «وبيعُ السِّرار أن تقول أُخْرِجُ يدي وتُخْرِجُ يدَكَ، فإن أخْرجتُ خاتمي منها قَبلك، فهو بَيْعٌ بكذا، وإن أخْرَجْتَ خاتَمك قبلي فهو بَيْعٌ بكذا، فإن أخرجا معاً استأنَفَا الإخراجَ»[1]. . . ! فهل يُصدِّقُ أحدٌ أن في الدنيا سوقاً، لها من الشهرة والخُلود ما لسوق عكاظ، يكون البيعُ فيها بهذه الطريقة العجيبة الغريبة؟ لا يمكن قطعاً التسليم بذلك، ولا شك في أن بُيُوعَ عكاظ كانت في مُعْظمها تقومُ على المُسَاومَةِ، أو المُقَاوَلَةِ بين البائع والمشتري، وأن بعض البُيوع كانت تَطْغَى عليها الشَّكْليَّةُ، وأن الأمر لم يكن يخلو، كما هي العادةُ في كلِّ زمانٍ، وكلِّ مكان، من بعض العادات السيِّئة، كأنْ يَتَواطأَ البائعُ مع رجُلٍ عنده، على أن يمدحَ له بضاعتَه، ويُحْسِنَ وصفَها، على مَشْهدٍ ومَسْمَعٍ من زَبُونٍ، فَيَنْخدِعُ الزَّبُونُ بما رأى وما سمع، ويُقْبِلُ على شراء البضاعة مُتَسَرِّعاً، من غير تبصُّر، وبثمنٍ يفوق ثَمَنها الحقيقيَّ. . .

على أن الأصل اللغويَّ في معنى السِّرارِ هو المُسَارَّةُ، أي التَّنَاجي بالمودَّةَ، والبَوْحُ بالسرِّ. وصاحبُ السِّرارِ، أو أخُو السِّرار، هو الذي يُسِرُّ بالمودَّةِ، أو بسِرِّه إلى صاحبه، ومن معانيه أيضاً: خطوطُ باطنِ الكفِّ، والوجهِ، والجبهةِ[2]. . . وفي قوله تعالى: ﴿**وأَسَرُّوهُ بضاعةً**﴾[3]، جعله

(١) محيط المحيط: ٤٠٦ (سرر).

(٢) لسان العرب: ٤/٣٥٧، ٣٥٩، ٣٦٢ (سرر).

(٣) سورة يوسف، الآية: ١٩.

الزبيديُّ من السِّرار، وقال: أي خَمَّنُوا في أنفُسِهم أن يحصلوا من بيعه بضاعةً[1]. فهل يكون السِّرارُ نوعاً من البُيوع، يُخمِّنُ فيه أحَدُ المُتَبايِعَيْن أن يحصل من بَيْعه ما معه من عُروضٍ، على بضاعةٍ أفضل؟

والثابتُ أن العرب كانوا يتعاملون، في مُبايَعاتِهم، بالنقودِ التي سُكَّتْ في اليمن، أو في الحبشة، أو في بلاد النبط، من ذَهَبٍ أو فِضَّةٍ، أو من معادنَ أُخرى كالنحاس، وعَرفوا الدنانيرَ والدراهمَ والدَّوَانِقَ. وتعاملوا أيضاً بالمقايضة، أو المُبَادَلة، كما تعاملوا بوزن الذهب أو الفضة[2]. وكانوا يتعاملون بالدَّيْنِ إلى أَجَلٍ، ويبدو أن هذا الأَجَل كان يُعَيَّن بموسم عكاظ. وقد جاء في الحديث أن النبيَّ عليه السلامُ، كتب لثقيفٍ حين أسلموا كتاباً، فيه: «... إن ما كان لهم من دَيْنٍ في رَهْنٍ وراء عكاظ، فإنه يُقْضَى إلى رأسه، ويُلاطُ بعُكاظٍ، ولا يُؤخَّر»[3]، أي أن على المدين قضاءَ الدَّيْن فقط، من غير رِباً، وذلك في موسم عكاظ، لا يُؤَخِّرُهُ عن ذلك. وكلُّ شيءٍ أُلْصِقَ بشيءٍ، وأُضِيفَ إليه فقد أُلِيطَ به، والوفاءُ هنا أُلْصِق بعكاظ، وهو دليلٌ على أنه كان ينعقدُ، والثمارُ قد أدركت، والغَلاَّتُ جُمِعتْ، والناسُ أَيْسَرتْ.

* * *

المطلب الرابع ـ كَتَبَةُ الصُّكُوك بعكاظ:

جاء في أخبار عكاظ، أنه لمَّا دخلت سنةُ خمس وثلاثين من عام الفيل، أي (٦٠٥ م) كان فيمن حَضَر الموسمَ عمرو بنُ الحارث بن الشريد

---

(١) تاج العروس: ١٢/ ٢٣ (سرر).

(٢) المفصَّل: ٧/ ٤٨٧ ـ ٤٨٨، ٤٩٥.

(٣) لسان العرب: ٧/ ٣٩٧ (لاط)، ومجموعة الوثائق السياسية: ١٦٠.

السُّلَميّ[١]، من قيس بن عيلان، ومعه إبناهُ معاوية وصَخْرٌ، أَخَوا الخنساء الشاعرة، وحَضَرَ السوق مَعْمرُ بن الحارث العُذْريُّ، فلما رأى عَمْراً، واقَفَهُ، وقام حِذاءهُ، وأمَرَ ولدَهُ أن يخدموهُ، إجلالاً له، ففعلوا، فلما تقوَّضَتِ السوقُ، دعا عمرو بن الحارث إبنَيْه صخراً ومعاوية فقال لهما: إن مَعْمراً قد طوَّقني مالم يُطوِّقني أحَدٌ من العرب، وقد أَحْببتُ أن أُكافيه. فقالا: إفعلْ ما بدا لك! فدعا بكاتبٍ وصحيفةٍ، وكتب ما خُلاصتُه: هذا ما مَنَح عمرو بن الحارث بن الشريد السُّلَميُّ، معمرَ بنَ الحارث العُذريَّ، منَحَهُ ما لَهُ بالوحيدة من نواحي يثرب، برسُومه، وأطلاله، ومَغَانيه، ومَسَايِله، وشَجرِه، ونباته، وكلُّ ما صاءَ وصَمَتَ فيه[٢]، وبكتِ السماءُ عليه، وضحكتِ الأرضُ عنه، فهو لمعْمرٍ دون عمرو، لا يشوبه كدَرُ الامْتنان، ولا أمارات الامتهان... ثم ذُكر في الصحيفة أنها كُتبت لخمسٍ وثلاثين عاماً خَلَتْ من عام الفيل، وبُعِثَ بها مُوَثَّقةً، مع طُرَفٍ من طرائف اليمن إلى معمر بن الحارث... وقد ذكر الأصمعيُّ أن الأرض كانت ما تزال باقيةً، يَفيضُ على وَلد مَعْمرٍ دَخْلُها، وذلك في أيام هارون الرشيد[٣].

ويبدو من هذه الواقعة: أن العرب عرفوا صكوكَ التمليك، المُحرَّرةَ وفاقاً للأصول القانونية العامَّة، وأنهم كانوا أيضاً على علمٍ بقُيود الحسابات التجارية، وأن كَتَبَةَ الصُّكُوكِ كانوا بسوق عكاظ، مُتَأهِّبين مع صُحِفِهم للكتابة بين الناس.

---

(١) انتشر في كتُب الأدب أنه عمرو بن الشريد، وهو غلطٌ صوابُه ما أثبتناه.
(٢) ما صَاءَ وصَمَت: المالُ الناطقُ والصَّامِتُ. الأولُ كالإبل والغَنَم، والثاني كالذهب والفضة.
(٣) الأزمنة والأمكنة: ٢/١٦٨ ـ ١٦٩.

الفصل الثالث

عكاظ مُجتمعُ قبائل العرب

لوحاتٌ تُصوِّرُ الحياةَ الاجتماعية كما كانت بعكاظ:

- مصدر الأمثال، منبر الوعظ والتبشير، ملتقى المحبين، منبر التفاخر والمنافرة، مفاداة الأسرى، أخبار المعمَّرين، مقارعة عن حسناء، المُعاظمة في الأحزان، عكاظ مُوحِيَةُ العجائب، سرحة التهاجي، زبيب عكاظ، العرَّافون، امتحان البديهة، رايات الغدر ورايات الوفاء، بنات للزواج، تأديب السفهاء، صواحب الرايات، التحرش بالكرام، إذاعة العرب، تأمين الخائفين، عقوبة الفتنة، صعلوك في عكاظ، أوسمة عكاظ، مُلقي القناع، ملاعنة بعكاظ، القناع بعكاظ، إطلاق الألقاب، عار الدهر، المصارعة والفروسية، الكشف عن جريمة...
- تعقيب.

عكاظ المَجمَعُ العامُّ لقبائل العرب

مثلما كانت سوقُ عكاظٍ معرضاً عامّاً لمتَاجِر العرب، فقد كانت كذلك مَجْمَعاً واسعاً، يتلاقَى فيه أشرافُ العرب، ورؤساؤهم، وأبناءُ القبائل على اختلاف مَواطِنهم، فكأنهم في نَدْوةٍ اجتماعيَّة كبرى، شُيوخُهم يَتَشَاوَرُون، وكِبَارُهم يتسَامَرون، وأشرافُهم يتفاخرون، والشُّبَّانُ يتنافسون، والعُشَّاقُ منهم في كلِّ وادٍ يَهيمون، والشعراءُ يَتَبَارُون، والرُّوَاةُ يَنْصِتُون. . . ألوانٌ شَتَّى من حياة العرب في عكاظ، تَتَداوَلُ سمعَ المرءِ وبَصَرَهُ، منها ما يراهُ بِعَيْنيه، ومنها ما يسمعه بأُذُنَيْهِ، ومنها ما يَعيشُه بكل جَوارِحِهِ. مَنَابِرُ كثيرةٌ انتشرت في عكاظ، نِداءاتُ غَوْثٍ تُرْفَع، وقصائدُ فَخْرٍ تُنْشَد، وأشعارُ هَجْوٍ تُرْجَز. خُطَبٌ تُرْتَجَلُ، وأحكامٌ تُنْشَر، راياتٌ مَرْفُوعَة، وأسْلِحَةٌ مَوْضُوعَة. رقيقٌ يُباع، وأخبارٌ تُذاع. قمارٌ ومُسَابَقات، مفاخرات ومُنَافَرات، جِوَارٌ ومعاهدات، وَعْظٌ وتَبْشِير، أَطِبَّاءُ وعَرَّافُون، خمْرٌ وخَمَّارون، قِيَانٌ وحانات. . . أصواتٌ مختلطةٌ، فيها معْمَعَةُ الفُرسان، وعَطْعَطَةُ المُجَّان، وأَطِيطُ الرُّهْبَان، وفيها بَعدُ من صُوَر الحياة ألوانٌ وألوان، لم تكن في الأسواق الأخرى، ولا يُمكن أن نُدْركها إلا إذا اطَّلعنا على ما أُثِرَ عنها من الروايات، فهُلَمَّ معي نطالع ما تَوَافَر لنا، بالتحقيق والبحث، من هذه الأخبار الكثيرة المختلفة، وهي تقعُ في ثلاثينَ حالةً اجتماعيَّةً، تُمثِّل أوْجُهَ النشاط الاجتماعي في عكاظ. . .

* * *

(١) ـ مَصْدرُ الأَمثال:

١ ـ في أخبار الجاهلية أن ضَبَّةَ بنَ أَدِّ بنِ طابخة[1]، وهو جدٌّ عربيٌّ قديم[2]، نَفَرتْ له يوماً إبِلٌ تحت جُنْح الليل، فأرسل في طلبها وَلدَيْه سَعْداً وسُعَيْداً، كلاًّ منهما في طريق، فوجدها سعدٌ، ورَجَعَ بها. ومضَى سُعَيدٌ في طلبها، ولكنه لم يَعُدْ، وفُقِدَ أَثَره. وكان لَقِيَهُ في الطريق رجلٌ يُدْعَى الحارثَ بنَ كعب، فقتله، وسَلَبَهُ بُرْدَيْن كانا عليه. فكان ضَبَّةُ، بعد ذلك، كلما أمسى فرأى تحت الليل سواداً، قال: أَسَعْدٌ أم سُعَيْد[3]...؟ فذهب قَولُه مثلاً يُضْرب في النجاح والخيبة، أو في الاستخبار عن أيِّ الأمرين وقع: الخيرِ أَمِ الشرِّ.

ومكَثَ ضَبَّةُ على ذلك حزيناً ما شاءَ اللَّهُ له أن يمكثَ، حتى قصد الحجَّ، فوافَىٰ سوقَ عكاظ في موسمها، فلقيَ بها الحارثَ بنَ كعب، ولم يكن يعلم أنه قاتلُ ابنه، ولكنه رأى عليه بُرْدَيْهِ، فأدرك أنه المجرمُ، فاقترب منه وسأله: هل أنتَ مُخْبِري ماهذان البُرْدَانِ الجميلان؟ فقال: بلى... لقيتُ غُلاماً كانا عليه، فسألتُه إيَّاهما، فأبَىٰ عَليَّ، فقتلتُه وأَخَذْتُهما... فقال ضبَّة: لله دَرُّك، أَبِسَيْفِكَ هذا قَتلتَه؟ قال: نعم... قال: فأَعْطِنيه أَنْظُر إليه فإني أظنُّه صارِماً، وأظنُّكَ جَلْداً حتى قَدِرْتَ على ذلك! فأعطاهُ الحارثُ السيفَ، فأخذهُ من يده، فَهَزَّهُ، وقال: الحديث ذو شُجُون...! فذهب

---

(١) ضَبَّةُ بنُ أدّ بن طابخة بن الياس بن مضر، وهو عَمُّ تميم بن مُرّ بن أدّ. كانت منازلُهم شمالَ نجْد.

(٢) الأعلام: ٣/ ٢١٣.

(٣) ومنه المثلُ: أنجْ سعدٌ فقد قُتِل سُعَيْد، قاله الحجَّاجُ في إحدى خُطَبه.

قولُه هذا مَثَلاً يُضربُ في الحديث يُذَكِّرُ بحديثٍ آخر[١]، ثم إنه أَهْوَى له بالسيف فقتله، فلامُوهُ في ذلك وقالوا: أَفِي الشهرِ الحَرَام يا ضبَّة؟ فقال: سَبَقَ السيفُ العَذَل[٢]. . . فذهب قولُه هذا مثلاً يُضرب لما قد فات[٣]، فهو أوَّلُ من سارت عنه هذه الأمثال، وقد قال اثنين منها في سوق عكاظ، فصَدَرا عنها، وكان موسمُ عكاظ في ذلك فرصةً للكشف عن قاتل مُجرم.

وإذا نظرنا في هذا الخبر نظرةً أخرى، وجدنا أنه يرتفع بزَمنِ وُجود عكاظ، إلى أواسط القرن الثاني للميلاد. إذ يُقَدَّرُ ما بين ضَبَّة وسعدِ بن زيد مناة، أوَّلِ من اجتمع له الموسمُ والقضاءُ بعكاظ، بنحو مئة سنة[٤].



٢ ـ وفي أخبار الجاهلية أيضاً، أن سَعْدَ بنَ زيد مناة بن تميم، وكان يُلقَّبُ بالفِزْرِ، وهو اسْمٌ لابْنِ النَّمِر، وافَى الموسمَ في عكاظٍ بمِعْزَى، فنادى في الناس أنِ اجتمِعُوا، فاجْتَمَعوا، فقال: ألاَ إن مِعْزَى الفِزْرِ نَهْبٌ،

(١) الحديث ذو شجون: أي ذو طُرُقٍ مُتعدِّدة، واحدُها يُؤَدِّي إلى الآخر، ومنه قولُ الفَرزدق الشاعر.

لا تَأْمَنَنَّ الحربَ، إن اسْتَعَارَها ... كضَبَّةَ إذ قال الحديثُ شُجُونُ

ومنه أيضاً قولُ الشاعر:

تَذكَّرَ نَجْداً، والحديثُ شُجُونُ ... فَجُنَّ اشْتِياقاً والجنونُ فُنونُ

(٢) أي سبق القتلُ لومَ اللائم. ومنه أن الحارثَ بن ظالم المُرِّي ضرب رجُلاً فقتله. فأُخبِر بعدُ بعُذْره، فقال: سبق السيفُ العَذَل.

(٣) مجمع الأمثال: ١/ ٢٧٥، والعقد الفريد: ٣/ ٨٥، وجمهرة أنساب العرب: ٢٠٣، ولسان العرب: ١٣/ ٢٣٣ (شجن)، و ١١/ ٤٣٨ (عذل)، وتاج العروس: ٨/ ١٩٦ (سعد)، وأدبيات اللغة العربية: ١٥٤ ـ ١٥٥، والمفصَّل: ٤/ ٥٢٣.

(٤) أنظر جدول أنساب بني تميم، وجدول بني مُضَر.

فانْتَهِبُوها، ولا أُحِلُّ لأَحَدٍ أكثرَ من شاةٍ. . . فتَقطَّعُوها في ساعة، وتفرَّقتْ في بلاد العرب. فسار من ذلك مَثَلٌ فيما لا يُدْرَكُ، فكانوا يقولون: لا آتِيكَ مِعْزَى الفِزْر، أي حتى تجتمعَ مِعْزَى سعد، وهي لا تجتمعُ أبداً[1]. وكان العربُ يجعلون ما لَهم نَهْباً، يُنْهِبُونَه الناسَ، طلباً للسيادة والشرف.

* * *

(٢) ـ مِنْبرُ الوَعْظ والتبشير:

١ ـ جاء في الحديث، أن الرسولَ عليه السلامُ «لبِثَ عَشْرَ سنين يتبعُ الحاجَّ بالمواسم»[2]، وذكر اليعقوبيُّ: أنه «قام، عليه السلامُ، بسوق عكاظ، عليه جُبَّةٌ حمراءُ، فقال: يا أيها الناسُ، قولوا لا إلَه إلا اللَّهُ، تُفْلِحوا وتَنْجحوا»[3]. وفي أخبار السيرة النبوية أنه كان من دَأْبِه، بعد مَبْعَثِه، أن يُوافيَ القبائـلَ كلَّ عامٍ بالمواسـم في عكاظ ومجنَّة وذي المجـاز، ويَقصدَ كلَّ قبيلةٍ في منزلها من السوق، فيعرض نفسَه عليهم، ويُخْبرهم أنه نبيٌّ مُرْسَلٌ من عند الله، ويسألهم أن يُصدِّقوه، وأن يُؤْمنوا بالله، وبما أَنْزله عليه من أحكام الدِين، ويدعوهم إلى أن يُؤْوُوهُ حتى يُبلِّغَ رسالات ربِّه، ولهم الجنَّةُ. . . وكان لا يجد أحداً ينصُره أو يُجِيبُه. وكان من القبائل الَّذين أتاهم في منازلهم بالسوق: بنـو عامر بن صعصعة، ومُحَاربُ بن خَصَفَـة، وفزارة بن ذبيان، وغسان، ومُرَّة، وبنو حنيفة، وسُلَيم بن منصور، وعَبْس، وبنو البَكّاء، وكندة، وكلب، والحارث بن كعب من مذحج، وعذرة،

---

(١) مجمع الأمثال ٢/١٣٠، ولسان العرب ٥/٥٤ (فزر)، وتاج العروس ١٣/٣٢١، والاشتقاق لابن دريد ٢٤٥.

(٢) ...

(٣) تاريخ اليعقوبي ٢/٢٤.

والحَضَارمة[1]. . . وكان أهلُ يثرب يَلْقَوْنه في الموسم بعكاظ[2]. وذكرت المواردُ التاريخية، أن عمرو بنَ عَبَسَة بن منقذ السُّلَميَّ، وكان صديقاً للرسول في الجاهلية[3]، قال: أَتَيْتُ رسولَ الله، وهو نازلٌ بعكاظ، فقلتُ: يا رسولَ الله، مَن تَبِعَكَ على هذا الأمر؟ قال: تَبِعَني عليه رَجُلانِ حُرٌّ وعَبْدٌ: أبو بكر وبِلَالٌ. . فأسْلَمتُ عند ذلك، ورأيتُني رُبْعَ الإسلام[4].

٢ ـ وكان الرُّهْبان والأَحْبَارُ والحُكَماءُ يَرِدُون سوق عكاظ، يَعِظُون الناسَ، ويَذْكُرون البعثَ والحسابَ، والجنَّة والنارَ. وكان فيهم خُطباءُ وشعراءُ، ذكرت أخبارُ الجاهلية الأخيرة منهم: قُسَّ بنَ ساعِدَة الإيَاديَّ[5]، وأُميَّةَ بن أبي الصَّلْت، ووَرَقَةَ بنَ نوفل، وأَكْثَمَ بنَ صيفيّ. . . وكانت خُطَبُ هؤلاء، وأشعارُهم، غالباً، مطبوعةً بطابع دينيّ، تُزَهِّدُ في الدنيا وشؤونها، وتدعو إلى التأمُّل والنظر في عَظَمةِ الكون، للاستدلال بها على عَظَمةِ الخالق[6].

● وقد ذكر الأصفهانيُّ أن قُسَّ بن ساعدة «كان خطيبَ العرب، وشاعِرها، وحَلِيمَها، وحَكِيمَها، وحَكَمَها في عصره. يقال إنه أوَّلُ مَن علا على شَرَفٍ، وخَطبَ عليه، وأوَّلُ من قال في كلامه: أمَّا بعدُ، وأوَّلُ من اتَّكأَ عند خطبته على سيف، أو عَصاً، أدركه رسولُ الله، عليه السلامُ، قبل

---

(١) السيرة: ١/ ٤٢٢، والطبقات الكبرى: ١/ ٢١٦ ـ ٢١٧، ومعجم البلدان: ٤/ ١٣٤، وتاريخ الطبري: ٢/ ٣٤٨ ـ ٣٥١.

(٢) آخبار مكة: ٢/ ٢٠٥ ـ ٢٠٦.

(٣) جمهرة أنساب العرب. ٢٦٤.

(٤) تاريخ الطبري: ٢/ ٣١٥، والكامل ٢/ ٥٩، والطبقات الكبرى. ٤/ ٢١٥، و ٧/ ٤٠٣

(٥) في لسان العرب أنه أُسْقفُ نجران، وكذلك اشتُهر بين أدباء العرب، وهو غير صحيح.

(٦) فجر الإسلام: ٢٧ ـ ٢٨.

النبوَّة، ورآهُ بعكاظ، فكان يَأْثِرُ عنه كلاماً سمعه منه، وسئل عنه فقال: يُحْشَرُ أُمَّةً وحدهُ»[1].

ويُرْوَىٰ أن وفدَ بكر بن وائل[2]، قَدِمُوا على النبيّ ﷺ، فلما فَرَغَ من حَوائجِهم، «قال: هل فيكم أحدٌ يعرفُ قُسَّ بنَ ساعِدَة؟ قالوا: كلُّنا يعرفُه. قال: فما فعل؟ قالوا: هلك. فقال: كأني به على جَمَلٍ أحمرَ، بعكاظ، قائماً يقول: أيها الناسُ اجْتمِعوا، وإذا اجتمعتُم فاسْتمعوا، وإذا سمعتُم فَعُوا، وإذا وَعَيْتُم فقولوا، وإذا قلتُم فاصْدُقُوا، مَن عاش مات، ومَن ماتَ فات، وكلُّ ما هو آتٍ آت. . .»[3].

وقُسٌّ هو القائل في هذه الخطبة: وفي هذه آياتٌ مُحْكَمات، مطرٌ ونبات، وآبَاءٌ وأُمَّهات، وذاهبٌ وآت، ونجومٌ تَمُور، وبُحُورٌ لا تَغُور، وسقفٌ مرفوع، ومِهَادٌ موضوع، وليلٌ داج، وسماءٌ ذاتُ أبْراج، مالي أرى الناسَ يموتون ولا يرجعون؟ أَرَضُوا فأقاموا، أم حُبِسُوا فناموا؟. . . يا معشرَ إيَاد! أين ثمود وعاد، وأين الآباءُ والأجداد؟ أين المعروفُ الذي لم يُشْكر، والظلمُ الذي لم يُنكَر؟ أَقْسَم قُسٌّ قَسَماً بالله، أن لِلَّهِ دِيناً، هو أَرْضَىٰ له من دِينكم هذا. . .

فـي الـذاهبيـن الأوَّليـن ... مـن القُـرون لنـا بَصَـائِـرْ
لمّـا رأيـتُ مَـوارِداً للمـوتِ ... ليـس لهـا مَصَـادِرْ
ورأيـتُ قـومـي نَحْـوَهـا ... تمضـي الأكـابِـرُ والأصـاغِـرْ
لا يـرجـعُ المـاضـي ولا ... يبقـى مـن البـاقيـنَ غـابِـرْ

---

(١) الأغاني: ١٥/ ١٩٢.

(٢) بكر بن وائل: من قبائل ربيعة بن نزار الكبرى، وهم أبناء عمومة إياد بن نزار.

(٣) مجمع الأمثال: ١/ ١٥٢، وإعجاز القرآن للباقلاني: ١٥١.

أيْقَنتُ أنـي لا مَحَالـةَ حيث صار القومُ صائِرْ[1]

● وهنالك أكْثَمُ بنُ صَيْفِيّ التميميُّ، وكان من قضاة عكاظ، و «من الخطباء البُلَغاءِ، والحُكّامِ الرؤساء»[2]، وقد أدرك الإسلامَ، وحرَّضَ قومَه على اتِّبَاعِهِ، ومن أقواله: أَقِلُّوا الخِلافَ على أُمَرائكم، واعْلموا أن كثرةَ الصِّياحِ من الفَشَل. . . تَثَبَّتُوا، فإن أحْزَمَ الفريقين الركينُ، ورُبَّ عَجَلةٍ تَهَبُ رَيْثاً[3]، وادَّرِعُوا الليلَ، فإنه أخْفَىٰ للوَيْل[4]. ومن أقواله أيضاً: الكرمُ حسنُ الفِطْنَة، واللؤمُ سوءُ الفطنة. تباعدوا في الديار تقاربوا في المودَّة. تَبَاذَلُوا تَحَابُّوا[5]. . . ذَلِّلُوا أخلاقَكم للمَطَالب، وقُودُوها إلى المحَامِد، وعَلِّموها المكارم، ولا تُقِيموا على خُلُقٍ تَذُمُّونَه من غيركم، وصِلُوا مَن رَغِبَ إليكم[6]، وتَحَلَّوْا بالجُود يُكْسِبْكُم المحبَّة، ولا تَقْتَعِدُوا[7] البخلَ فتَتَعجَّلُوا الفقر[8]. . .

● هذا قليلٌ عَرَفناهُ، من كثيرٍ جَهِلناه، مِمَّا كان يجري في سوق عكاظ، من وَعْظٍ، وتبشيرٍ، ودعوةٍ إلى الحِكْمة الحَسَنَةِ، وضَرْبٍ للأَمْثالِ الطيِّبَةِ.



(١) البيان والتبيين: ١/ ٢٤٧ ـ ٢٤٨، و ٢/ ٢١٢، ومروج الذهب: ١/ ٨٣، والأغاني: ١٥/ ١٩٣، وصبح الأعشى: ١/ ٢٥٥ ـ ٢٥٦، وإعجاز القرآن للباقلاني: ١٥٢ ـ ١٥٣.

(٢) البيان والتبيين: ١/ ٢٨٣.

(٣) **رُبَّ عَجَلةٍ تَهَبُ رَيْثاً**: مَثَلٌ يُضْربُ للرجل يشتد حرصُه على حاجة، ويخرق فيها حتى تذهبَ كلُّها. والرَّيْثُ الإبْطاءُ وهو عكسُ العَجَلةِ.

(٤) العقد الفريد: ١/ ٩٧، وعيون الأخبار: ١/ ١٠٨.

(٥) البيان والتبيين: ٢/ ٥٤، و ٣/ ١٦٠.

(٦) **رغب إليه**: إبْتَهل وطلب.

(٧) **اقْتَعَد**: الشيءَ أي اتخذه مَطِيَّةً.

(٨) العقد الفريد: ١/ ٢٢٦.

③ ـ مُلْتَقَى المُحبِّين:

١ ـ وكان المحِبُّون ينتظرون موسمَ عكاظ، من عامٍ إلى عام، لعلَّ أحَدَهم يلتقي من يُحِبُّ، أو يَحْظَى بنظرةٍ إليه... وفي أخبار عبد الله بن العَجْلان النَّهْدِيّ[1]، وهو من شعراء الجاهلية المُتَيَّمين، أنه كان مُتزوِّجاً امرأةً جميلةً من قومه، إسمُها هِنْدٌ، وكانت من أَحَبِّ الناس إليه، وأَحْظَاهم عنده، فمكثت معه سبعَ سنين، أو ثمانياً، لم تَلِدْ. وكان أبوهُ سيداً في قَوْمِهِ، وأكثَرَهم مالاً، فقال له: يا بُنَيَّ! إنه لا وَلَدَ لي غيرك، وأنتَ لاوَلَدَ لك، وهذه المرأةُ عاقِرٌ، فطلِّقْها، وتزوَّجْ غيرَها... فأَبَىٰ عبدُ الله ذلك، وأبْقَى على زوجته. فآلىٰ أبوهُ ألاَّ يُكلِّمه أبداً أو يُطلِّقها، فأقام على أمره معها، لا يُطلِّقُها لما بينهما من الحبِّ والعشق.

ثم عَمَدَ إليه أبوه يوماً، وقد رآهُ شربَ خمراً فَسَكِرَ، فعاوَدَهُ في أمرها، وجَمَع عليه مَشْيخةَ الحيّ وفتيانَهم، فتناولوه بألسنتهم، وعَيَّروهُ بشَغَفِهِ بها، وضَعْفِ حَزْمِهِ، فلم يزالوا به حتى طلَّقها. ولمّا علمت هندٌ بذلك احْتَجَبتْ عنه، ثم رَجَعَتْ إلى أبيها، فخطبها رجُلٌ من بني نُمَيْر، فزوَّجَهُ منها، ولم يزل عبدُ الله عاشقاً لها دَنِفاً، أسِفاً على فراقها، سقيماً، يقولُ الشعر فيها ويبكيها.

ولمّا اشتدَّ ما به من السُّقْم، عَزَمَ على المُضِيِّ إلى بلاد بني نُمَير، يريدُ لقاءَ هند. وكانت بين بني نَهْدٍ قومِهِ، وبني نُمير قوم زوجها، تِرَاتٌ ومُغَاوَراتٌ، فمنعه أبوه، وخوَّفَه الثارات، وقال له: تراها في الشهر الحرام بعُكاظٍ أو بمكة! فلما كان الموسم، قَدِمتْ مع قومها للحجّ، فرآها عبدُ الله

---

(١) عبد الله بن العجلان بن عبد الأحبّ: من بني نَهْدٍ من قضاعة، اشتُهر منهم: حنظلة بن نَهْد بن زيد، وهو قاضٍ جاهلي، وكانت له منزلةٌ بعكاظ في المواسم، وبتهامة والحجاز، وكانت منازلُهم اليمنَ والشامَ.

في عكاظ، فنظر إليها ونظرتْ إليه، ثم تَبِعَها إلى مكة ورأى زوجَها يطوف بالكعبة، فرجع إلى منزله، ووقع مريضاً، فضَنِيَ من العشق، وما زال يَلْهجُ باسمها، حتى مات نحو سنة (٥٧٤ م). ومن شعره فيها بعدما رآها ورأتْه في الموسم قولُه:

ألا أبْلِغا هنداً سلامي وإن نَأَتْ فقلبي بها مُذْ شَطَّتِ الدارُ مُدْنَفُ
ولم أرَ هنداً بعد موقفِ ساعةٍ بأَنْعَمَ في أهل الديار تُطوِّفُ
أشارتْ إلينا في حياءٍ، وراعَها سراةَ الضحى، مني على الحيِّ موقفُ
وقالت: تَباعَدْ يابْن عمِّي، فإنني مُنِيتُ بذي صَوْلٍ يَغارُ ويَعْنُفُ(١)

* * *

٢ - وفي حديث المحبيِّن بعكاظ، ذكر أهلُ الأخبار أن جارِيَةَ بنَ سَليطٍ التميميّ، وهو من بني يربوع بن حنظلة، وكان من أحْسَنِ الناس وجهاً، وأَمَدِّهم قامَةً، قَدِمَ سوق عكاظ في أحد مواسمه، فأبْصَرتْهُ فتاةٌ من بني خَثْعَم، فراقَها شبابُه، وأعْجَبها منظرُه، فتعلَّقت به، وجعلتْ تتلطَّفُ له، وتَمْحَضُه الوُدَّ، حتى قَرَّبَتْه منها، فأحبَّها الرجلُ، وأَنِسَ بها، وانعقدتْ بينهما أَواصِرُ المحبَّةِ والغرام، فمكَّنتْهُ البنتُ من نفسها، فوقع عليها!

ولمَّا أَزِفَ موعدُ انتهاء الموسم، تعاهدا وتواعدا على أن يسعى كلٌّ منهما إلى لقاء الآخَر، وقال لها: إن عَلِقْتِ مني، فموعدُنا عكاظٌ في الموسم القادم! ثم عَلِقَتِ الفتاةُ منه، وحَمَلتْ، فعلمتْ أُمُّها بما كان منها في عكاظ، ولامَتْها على فِعْلها، ولمَّا وضَعَتْ حملها، أقبلتْ مع أُمِّها في الموسم، تلتمسُ والدَ طفلِها في عكاظ. . . فلم تلبث حتى رأتْه مُقْبِلاً، فأشارت إليه،

---

(١) الأغاني: ٢٢/ ٢٥١ ـ ٢٥٤، ومصارع العشاق: ٢/ ٢٧، والأعلام: ٤/ ١٠٣.

وأنبأتْهُ بخبر حملها وولادتها، فتزوَّجَها، وأَلْحَقَ الولَدَ بنَسبه. ونظرت أُمُّها إلى جارية، فرأتْ حُسْنَهُ وجماله، فَعَذَرتْ ابنتَها على تعلُّقها به[1]. وكان من سُنَن الزواج عند عرب الجاهلية، أن المرأة تُخْطَبُ فتُزوَّج، فإن كان لها خليلٌ تُحبُّه، ثم ولدت منه، فإنه يتزوَّجُها، ويُلحق الولدَ بنَسَبِهِ[2].

٤ - مِنْبَرُ التفاخُر والمنافرات:

وكانت بعكاظ في الجاهلية مَنَابِرُ يقومُ عليها الخطيبُ بخطبته، يذكُرُ فعاله، ويعُدُّ مآثِرَهُ، وأيامَ قومه من عامٍ إلى عام[3]. . . وكانت قبائلُ العرب تجتمعُ بعكاظ كلَّ سنة، ومع كل قبيلةٍ شاعِرُها، فيَتَفاخَرُون فيها، ويتناشَدُون الشعر[4]. وكان تفاخُرهم بالأحْسَابِ وعِزَّةِ النَّفَر يُسمَّى مُنافَرةً، يحكم فيها بينهم أحَدُ قضاة العربِ بعكاظ، فيُنفِّرُ أحدَهم على الآخَر، أي يقضي له بالغَلَبة، وَعُلُوِّ النَّسَبِ، وشَرفِ الحسب، وربما نافَرَ بينهم سادةُ القوم وأشرافُهم.

١ - إزْلأَمَّ المُعَيْدِيُّ ونَفَر:

هذا مَثَلٌ يُضربُ في فَوْزِ أحَدِ الخَصميْن على الآخَر، وأصْلُه أن مَيَّادَ بنَ حُنّ بن ربيعة، من بني عُذْرة، من قضاعة، نافَرَ رجُلاً من اليمن إلى حَكَمٍ بعكاظ، فأقبل مَيَّادٌ على فَرسِهِ، وعليه سلاحُه، فقال: أنا مَيَّادُ بنُ حُنّ، أنا ابنُ حَبَّاسِ الظُّعُن. . . وأقبل اليمانيُّ، عليه حُلَّةٌ يمانيَّةٌ، فقال مَيَّاد: أحكُمْ بيننا أيها الحكَمُ! فقال الحكَمُ: إزْلأَمَّ المُعَيْديُّ ونَفَر، فأرسلها مَثَلاً، وقضى

---

(١) مجمع الأمثال: ١/ ١٣١، والمفصَّل: ٨/ ٣٦٧.

(٢) المحبَّر: ٣٤٠.

(٣) الأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٧٠.

(٤) معجم البلدان: ٤/ ١٤٢.

لميَّادٍ على صاحبه[1]... ذلك أن حُنَّ بنَ ربيعة هو أخو رِزَاح بن ربيعة بن حرام لأُمِّهِ وأبيه، ورِزَاحُ هذا هو أخو قُصيّ بنِ كلابٍ لأُمِّه[2]، وهو الذي نَصرهُ في مكة على بني خزاعة. ويقال للرجُل إذا انتصب وارتفع قد ازْلأَمّ[3]. وحَبَّاسُ الظُّعُن، أي الذي يمنعُ حَرِيمَهُ، ويحمي نساءَهُ. والمُعَيْدِيُّ: نُسِبَ إلى مَعَدّ بن عدنان.

فهذه مُنَافَرةٌ جرت بعُكاظ، حكم فيها قاضٍ بعكاظ، وأرسل مَثَلاً صَدَر عن عكاظ، ويُمكن أن نستخلصَ منها أن سوق عكاظ كانت تقوم في عصر قصيّ بن كلاب، في القرن الخامس للميلاد.

٢ ـ مُنَافَرةٌ في خطبة حسناء:

اجتمع بموسم عكاظ يزيدُ بن عبد المدان[4]، من بني الحارث بن كعب، من مَذْحِج، وعامِرُ بنُ الطُّفَيْل[5]، من بني هوازن، وحَضَر الموسمَ يومئذٍ أُميَّةُ بنُ حُرْثَانَ بنِ الأسْكَر[6]، من بني عبد مناة بن كنانة، ومعه إبْنَةٌ له من أجْملِ أهل زمانها. فخطَبَها إليه يزيد وعامِرٌ، فقالت أُمُّها: مَن هذانِ

---

(١) مَجْمَعُ الأمثال: ١/ ٤٥٠.

(٢) جمهرة أنساب العرب: ٤٤٨ ـ ٤٤٩.

(٣) لسان العرب: ١٢/ ٢٧٢.

(٤) يزيد بن عبد المُدان: سيِّد، شاعِرٌ، من أشراف اليمنِ وشُجعانِها في الجاهلية، وكان مَلِكاً في قومه بنجران.

(٥) عامر بن الطفيل: أبو عليّ، من بني عامر بن صعصعة، فارسُ قومه، وأحَدُ فُتَّاك العرب، وشعرائهم، وساداتهم في الجاهلية، وُلد ونشأ بنجد، له أخبار في الكرم والمروءة كثيرةٌ.

(٦) أمية بن حُرْثان بن الأسكر: من بني مُدلج، من عبد مناة بن كنانة. شاعر فارس من سادات قومه. أدرك الجاهلية والإسلام، مات في خلافة عمر بن الخطاب نحو (٢٠ هـ = ٦٤١ م).

الرجُلان؟ فقال أُميَّةُ: هذا يزيدُ بنُ عبد المدان بنِ الديَّان، وهذا عامِرُ بنُ الطفيْل بنِ مالك! فقالت: أعرفُ بني الديَّان[1]، ولا أعرفُ عامِراً. فقال: هل سَمِعتِ بمُلاعِبِ الأَسِنَّة[2]. . .؟ فقالت: نعم. قال: فهذا ابنُ أخيه. وأَقْبل يزيد فقال: يا أُميَّة، أنا ابنُ الديَّان صاحِبُ الكتيبة، ورئيسُ مَذْحج، ومُكلِّمُ العُقَاب[3]، ومَن كان يُصَوِّبُ أصابعَهُ فتَنْطُفُ دماً[4]، ويَدْلُكُ راحتيْهِ فتُخرجان ذَهباً. . . ثم قال: يا عامِرُ، هل تعلم شاعراً من قومي رحَلَ بمِدْحَةٍ إلى رجُل من قومك؟ فقال: اللهمَّ لا. . . قال: فهل تعلمُ أن شعراء قومك يرحلون بمدائحهم إلى قومي؟ فقال: اللهمَّ نعم. . . قال: فهل لكم نجمٌ يمانيٌّ[5]، أو بُرْدٌ يمانيٌّ، أو سيفٌ يمانيٌّ، أو رُكنٌ يمانيٌّ؟ فقال: لا. . . فقال: فهل مَلَكْناكُم ولم تملكونا؟ فقال: نعم!. فنهض يزيدُ وأنشأ يقول:

أُمَيَّ يابْنَ الأسْكَرِ بنِ مُدْلجِ ... لا تَجْعَلَنْ هَوازِناً كمَذْحِجِ
إنك إن تَلْهَجْ بأمْرٍ تَلْجِجِ ... ما النَّبْعُ في مَغْرِسِهِ كالعوْسَجِ
ولا الصَّريحُ المحْضُ كالمُمَزَّجِ[6]

---

(١) بنو الديَّان: كانت لهم الرئاسة بنجران، وكان المُلْكُ منهم في بني عبد المدان، وكانوا مَضرب المثَل في الشرف والكرم، وهم أصحابُ القبَّة بنجران.

(٢) مُلاعِبُ الأَسِنَّة: أبو البراء عامر بنُ مالك بن جعفر، سُمِّي مُلاعب الأسِنَّة بقول أوس بن حجر التميمي الشاعر:

فلاعَبَ أطرافَ الأسِنَّةِ عامِرٌ ... فراح له حَظُّ الكتيبةِ أجمعُ

(٣) العُقَاب: كوكب، وطائرٌ من الجوارح.

(٤) تَنْطُفُ: تَقْطُرُ.

(٥) النجم اليمانيُّ: سهيلٌ، لأنه يُرى في نجد والحجاز من ناحية اليمن، وهي إشارةٌ إلى أن أهل نجد والحجاز يهتدون بالنجم اليمانيّ، ويسمُّون أحد أركان الكعبة: الركنَ اليماني، وليس فيها ركن حجازيّ أو نجديّ، وهم يفاخرون بالثياب والسيوف المصنوعة في اليمن.

(٦) لَهِجَ بالشيء: أُغْرِيَ به فثابر عليه. لجَّ: تمادى في العِنَاد.

طلب منه أن لا يُسوِّي بين بني مَذْحج قومِه، وبني هوازن قوم عامر، وسأله: هلَ يَصِحُ أن يُقْرَنَ النبْعُ، وهو شجرٌ تُتّخذُ منه القسِيُّ والسهام، بالعوسج الذي ينبت على السِياج؟

فزوَّجَ أُميَّةُ حينئذٍ يزيدَ بنَ عبد المدان ابنتَه، وقد نَفَّرَهُ على عامر بن الطُفْيل[1]، أي قضَىٰ له بأنه أَعَزُّ نفراً من عامر.

* * *

٣ ـ حُكمُ الأَقرعِ بن حابس في مُنَافَرةٍ:

وهو قاضٍ من بني تميم، واسْمُهُ فِراس، وإنما لُقِّب بالأَقْرعِ لقرع برأسه، وكان سَنُوطَ اللحية، أعرجَ الرِّجْلِ اليُسْرىٰ[2]... يقول الجاحظ: «ومن العُرْجَانِ الأشراف الأَقْرعُ بنُ حابس، وكان أَحَدَ حُكَّام العرب بعكاظ، وقد تحاكمت إليه العربُ في النُّفُورات[3]... وزعم أبو عبيدة أن أوَّلَ حَكَمٍ في الجاهلية جارَ في الحُكْم، الأقرعُ بنُ حابس، وقال: لأنه نَفَّر جريرَ بنَ عبدِ الله البَجَليَّ، على خالد بن أرطاة الكلبي، حين وجده أقربَ إلى مُضَر. فلعلَّه إذا كان أقربَ إلى مُضَر، وإلى نزار، أن يكون أحقَّ بالنُّفُورَةِ لفَضْلِهِ في مُضَر، أو في نزار، ولعلَّه رأى مع ذلك جريراً في نفسه أكثر من هذا الرجُل الذي نافَرَهُ، وإنما ينبغي أن يحتجَّ بهذا رجُلٌ من قضاعة، فأمَّا أبو عبيدة، فما يدعوه إلى هذا؟ وليس به فقرٌ إلى هذه الحجَّة كفَقْرِ القُضَاعيِّ إليها...»[4].

---

(١) الأغاني: ١٢/٨ ـ ٩، و ٢١/٢٢.

(٢) القَرَعُ: سقوط الشعر. السَّنُوط: الخفيفُ العارضَيْن، أو لا لحية له.

(٣) الجاحظ ـ البُرصان والعُرجَان والعُمْيان: ١١٩. مؤسسة الرسالة ـ بيروت، الطبعة الرابعة ١٩٨٧ م.

(٤) المرجع نفسه: ١٢٠ ـ ١٢١.

وكان الذي جَرَّ المنافرةَ، بين جرير وخالد، أن بني كلب أصابوا رجُلاً من بني بجيلةَ، اسْمُهُ: مالكُ بنُ عتبة، فَوافَوْا به عكاظ، فمرَّ مالكٌ بابن عمٍّ له هو القاسمُ بنُ عقيل، وكان يأكلُ تمراً، فتناول من ذلك التمر شيئاً، فجذَبَهُ الكلبيُّ المُوكَلُ به، فقال له مالِكٌ: إنه رجُلٌ من عشيرتي! فقال الكلبيُّ: لو كانت لك عشيرةٌ لَمَنَعَتْكَ! فانطلق القاسمُ بن عقيل إلى بعض بني بجيلة وسألهم أن يَسْتنقِذُوا أسيرهم، فأبَوْا، إلا جريراً فقد ذهب بقومه واستنقذَهُ، فقامت بنو كلب دونَهُ، فقال جرير: زعمتم أن قومه لا يمنعونه! فقالوا: جماعتُنا خُلُوفٌ عنا... فقام جرير وقال: لو كانوا حُضُوراً لم يدفعوا عنكم شيئاً. فقالوا: كأنك تَسْتَطِيلُ على قُضَاعَة كلِّها؟ وكلبٌ من قضاعة. فقال: إن شاؤوا فايَسْنَاهُم المجدَ! وزعيم كلب يومئذ خالد بنُ أرطاة. فقالوا له: ميعادُك من قابلٍ سوقُ عكاظ... فجمعت كلبٌ، وجمعت بَجيلة، ووافَوْا عكاظ، وتحاكموا إلى الأقرع بن حابس، ليحكم بينهما أيّهما أكثر مجداً، فحكم لجرير، وقال له: لو فاخرتَ قيصر ملكَ الروم، وكسرى عظيمَ الفُرس، والنعمانَ ملكَ العرب، لنَفَّرتُكَ عليهم!

ومن الواضح أن الأقرع إنما نفَّر بني بَجيلةَ على بني كلب، لأن بَجِيلةَ بقرابتها من مُضَر ونزار أفضلُ وأكثَرُ عَدداً من كلبٍ وقضاعة. وذلك أن خَثْعَمَ وبجيلةَ من بني أنْمار، وأنمارُ أخو مضر وربيعة[1].

* * *

⑤ ـ مُفَادَاةُ الأَسْرى:

ومن كان له أسيرٌ مضى إلى عكاظ في الشهر الحرام، يسعى إلى فدائه،

---

(١) النقائض: مصور عن طبعة ليدن (١٩٠٥ م): ١٤١ ـ ١٤٢.

وفَكِّ أسْرِهِ. فإن كان يجهلُ موضعَه، سأل عنه قبائلَ العرب في عكاظ، أو كان عنده أَسِيرٌ يريدُ إطلاقَه، وأَخْذَ فِدْيته، واعَدَ قومَه لمُفَاداتِهِ بعُكاظ. . . وكانوا يقولون فيمن يُغَالَى في فِدْيته: أَغْلَى عُكاظيٍّ فدَاءً! ومن ذلك أن بِسْطامَ بنَ قيس، فارسَ بني شيبان، فَدى نفسَه من عُتَيْبَةَ بنِ الحارثِ، فارسِ بني يربوع، بفِدْيَةٍ في سوق عكاظ، قدَّرها المُقِلُّ بمئتي بَعيرٍ، والمُكْثِرُ بأربع مئة بعير[١]، فقالوا يومئذٍ: لم يكن عربيٌّ عُكاظيٌّ أغْلَى فداءً منه[٢]. والقولُ نفسُه قيل في حاجِبِ بن زُرَارَة. ولمَّا أَسَرَ الربيعُ بنُ عُتَيْبة بن الحارث اليربوعيَّ، ذُؤَابَ بنَ رُبَيِّعَة، من بني أسد بن خُزَيمة، تَواعَدا موسمَ عكاظ في الشهر الحرام للمُفَادَاةِ، واتفقا أن يأتيَ أبو ذُؤابٍ بالإبِلِ، والربيعُ بذُؤَاب. . . فلما كان الموسم، أَقْبَل أبو ذؤاب بالإبِل إلى سوق عكاظ، وشُغِل الربيعُ عنه فلم يأتِ بالأسير، فارْتابَ أبو ذُؤابٍ، وظنَّ أن القوم قتلوا إبنَه، فقال:

إنْ يَقتلـوك فقـد هَتَكْـتَ بُيـوتَهـم بعُتَيْبَـةَ بـنِ الحـارثِ بـنِ شهـابِ

أي سبق لك أن فضحتَ بيوتَهم، بقتلِكَ عُتَيْبةَ بنَ الحارث، وهو أبو ربيع. . . وكان فارسَ بني يربوع في الجاهلية، ومن أبطال العرب المغَاوِير، وكانوا يُسَمُّونَه: سُمَّ الفرسان، وصَيَّادَ الفوارس، ويضرِبون به المَثَلَ في الفروسيَّة[٣]. ويُقال إن ذُؤَاباً قتله في معركة كبيرة، وسط الليل، فَزَجَّهُ بالنَّيْزَكِ[٤]، وقد هاب مُخَالطتَه، فلم يُعْرَفْ وقتئذٍ أنه قاتلُه. فلمّا بلغَ بني عُتَيْبَة ما قاله أبو ذؤاب، علموا أن أسيرهم هو قاتلُ أبيهم، فقتلوه به[٥].

---

(١) مجمع الأمثال: ٢/١٩.

(٢) العقد الفريد: ٥/١٩٨.

(٣) الأعلام: ٤/٢٠١.

(٤) البيان والتبيين: ٣/١٦، ١٨ ـ ١٩، زَجَّهُ: رماهُ وطعنه. و النَّيْزَكُ: رمحٌ قصير.

(٥) العقد الفريد: ٥/٢٤٩ ـ ٢٥٠.

وهنالك طرائفُ كثيرةٌ في أخبار المُفَاداة بعكاظ، وصُوَرٌ مُشْرِقةٌ من كرم أخلاق العرب في الجاهلية، وقد اخترنا شيئاً من ذلك نعرضُه فيما يلي...

١ ـ فداءُ أسيرٍ بتَيْسٍ أسودَ في عكاظ:

كانت قبيلةُ الأَوْسِ حليفةً لقبيلة مُزَيْنة في الجاهلية[١]، فمرَّ رجلٌ يقالُ له: جُؤَيٌّ من مُزَيْنة، على الأَوْسِ والخزرجِ وهم يَقْتَتِلون، فدَخَل في حُلَفائه من الأَوس، يُقاتل إلى جانبهم، فأُصِيبَ، فوقع أرضاً، فمرَّ به ثابتُ بنُ المنذر، أبوحسان بن ثابت، من الخزرج، فقال له: يا أخا مُزَيْنة، ما طَرَحَكَ هذا المطرح؟ فواللّهِ إنك لمن قومٍ لا يحمونك! فقال جُؤَيّ، وهو يجودُ بنفسه: أُعْطي الله عهداً، لَيُقْتَلنَّ بي منكم خمسون، ليس فيهم أعْوَرُ ولا أعْرَجُ... فبَلَغ قولُه بلادَ مُزَيْنة، فثاروا يريدون الخَزْرَجَ، طالبين بدم جُؤَيّ، ورئيسُهم مُقَرِّنُ بنُ عائذ، (أبو النعمانِ بن مُقَرِّن فاتحِ نهاوند)، فالْتَقوهم بموضع بُعَاث في يثرب، فاقتتلوا، فقُتِل من الخزرج عِدَّةُ رجال، وأُسِرَ ثابتُ بنُ المنذر، فأقسم مُقَرِّنُ بنُ عائذٍ لا يأخذ فِداءَهُ إلا تَيْساً أَجَمَّ أسودَ في عكاظ... فغضب الخزرجُ لذلك، وقالوا: لا نفعلُ أبداً! وعَرَضوا فداءً كبيراً مكانَه، فلم يقبل مُقَرِّن وقال: لا آخُذُ مكانَه إلا تَيْساً... فلما رأوا أنه لا بُدَّ من ذلك، جاؤوا بتَيْسٍ أسودَ، فأخذه منهم مُقَرِّنُ بسوق عكاظ، وذَبَحه هنالك، وأطعم الناسَ لحمَهُ[٢].

وفي ذلك قال كعبُ بنُ زهير المُزَنيُّ يَذكرُ يومَ بُعَاث، ويصف أَسْرَهُ

---

(١) مُزَيْنة: أمٌّ جاهلية من بني كلب بن وَبَرة، نسبت إليها ذُرِّيَّةُ ولديها عثمان وأوس ابنيْ عمرو بن أدّ بن طابخة، من مُضَر. ومنهم زهير بن أبي سلمى. **الأوْس**: جدُّ قبيلة الأوس إحدى قبيلتيْ الأنصار، والأخرى: **الخزرجُ**، وهما من الأَزْد، من عرب اليمن.

(٢) شرح ديوان كعب بن زهير: ٢٠٩ ـ ٢١٠.

ثابتَ بنَ المنذر، ثم بيعَهُ إياهُ بعُكاظ علانِيَةً في مجمع العرب:

هـلاَّ سـألـتِ، وأنـتِ غيـرُ عَيِيَّـةٍ ... وشفاءُ ذي العِيِّ السؤالُ عن العَمَى
عـن مشهـدٍ ببُعَـاثَ إذ دَلَفَـتْ لـه ... غسَّـانُ بـالبِيـض القـواطـع والقَنَـا
وعـن اعتنـاقـي ثـابتـاً فـي مَشْهـدٍ ... مُتَنـافـسٍ فيـه الشجـاعـة للفتَـى
فشَـرَيْتُـهُ بـأَجَـمَّ أسْـودَ حـالـكٍ ... بعُكاظَ، موقوفاً بمَجْمَعِها، ضُحَى[1]

* * *

٢ ـ رَدُّ سَبيَّةٍ إلى أبيها:

جاء في موارد أهل الأخبار، أن مروان بنَ زِنْباعٍ العبسيَّ[٢]، كانت له يَدٌ لا تُنْسَى عند عوف بن أبي عمرو الشيباني[٣]، صاحب القُبَّة التي عُدَّتْ من مَآثِرِ العرب في الجاهلية، إذ لم يكن يدخلُها جائعٌ إلا أُشْبع، ولا خائفٌ إلا أُمِّن[٤]. وذلك أنَّ إبنتَه جُمَاعةَ بنتَ عوف، زوجةَ ابن عمها سِنان بن مالك بن أبي عمرو[٥]، وقعت أسيرةً في إحدى الوقائع عند بعض بني عبس، فسألها مروانُ: مَن أنتِ؟ قالت: جُمَاعَةُ بنت عوف، فانتزعها مروانُ منهم، وكان رئيسَهم، وأعطاهم فيها مئةً من الإبل، وقال لها: غَطّي وَجْهَكِ، فواللَّهِ لا

---

(١) شرح ديوان كعب بن زهير: ٢٣٢.
(٢) مروان بن زنباع بن جذيمة: ابنُ أخي زهير بن جذيمة سيد بني عبس وجميع قبائل غطفان. وكان يُسمَّى مروانَ القَرَظِ، وكان يُغيرُ على أهل القَرَظ، وهو ورق شجر السَّلَم يُدْبَغُ به الأَدَمُ.
(٣) هو عوفُ بن أبي عمرو بن عوف بن مُحَلِّم بن ذُهْل بن شيبان، وليس عوفَ بنَ مُحلِّم كما ذكر صاحبُ الأعلام (٥/٩٦)، وصاحبُ المحبَّر: ٣٤٩ ـ ٣٥١. وتُقَدَّرُ وفاته نحو (٥٨٠ م)، وهو مُعَاصِرُ الملكَ عمرو بن هند اللخميِّ، المتوفى نحو (٥٦٩ م).
(٤) المحبَّر: ٢٤١ ـ ٢٤٢.
(٥) مجمع الأمثال: ١/ ٤١١.

ينظرُ إليكِ رجلٌ، حتى أَرُدَّكِ إلى أبيك! وضَمَّها إلى أهله، ووقع بينه وبين بني عَبْسٍ شَرٌّ بسببها. ولمَّا دخلَ الشهرُ الحرامُ، أَحْسَنَ كسْوَتَها، وأَخْدَمَها[1]، وأكرمها، ثم حَمَلَها إلى سوق عكاظ، فلما انتهى إلى منازل بني شيبان، سألها: هل تعرفين منازِلَ قومك، وقُبَّةَ أبيكِ؟ فقالت: نعم، هذه منازلُ قومي، وتلك قُبَّةُ أبي! فقال: فانطلقي إلى أَبيكِ يَرْحَمُكِ اللَّهُ!... فانطلقت، فخبَّرت أباها بصَنيعِ مروان، فكان لمروان بذلك يَدٌ عند عَوْفٍ لم يَنْسَها له[2].

وكان مروانُ قد وَتَرَ عمرو بنَ هند ملكَ الحيرة (٥٥٤ ـ ٥٦٩ م)، فجعل هذا يطلبه، وآلى على نفسه ألاَّ يُؤَمِّنَهُ حتى يأتي إليه، ويضعَ يدَهُ في يَدِهِ. ثم إن مروان وقع في أَسْرِ رجُلٍ، من بني بكر بن وائل، لم يكن له من المَنَعَةِ ما يستطيع به حمايتَه من عمروٍ إن عرفَ بمكانِهِ، وأرسل في طلبه. ثم سمع أمَّ الرجُل تقول لابْنها: كأنك أَسَرْتَ مروانَ القَرَظِ! فقال لها مروان: وما تأملين منه؟ قالت: مئة بعير. قال: هي لك إن أَدَّيْتُمُونِي إلى عوف الشيباني. قالت: ومن لي بالوفاء؟ فأخذ عُوداً من الأرض وقدَّمه إليها رهناً بالوفاء. فحمله إبنُها حتى أتى به قُبَّةَ عوفٍ، فلاذَ بها، وصار لزاماً على عوفٍ حمايتُه. ولمّا بلغ عَمْراً مكانُه، بعث يطلبه، فأبىٰ عوفٌ أن يُسَلِّمَه إليه، إلاَّ أن يُؤَمِّنَه... فأَمَّنَهُ، فسار به عوفٌ إلى الملك، وجعل يَدَهُ بين يَدَيْهما، وأصلح بينهما، فكان هذا وفاءً من عوف لمروان.[3]

* * *

(١) أَخْدَمَها: جعل لها خَدَماً يخدمونها.

(٢) مجمع الأمثال: ٢/٤٣٦.

(٣) المحبَّر: ٣٤٩ ـ ٣٥٠.

٣ ـ رجلٌ يستغيث لإطلاق أخيه بعُكاظ:

أغار قيسُ بن عاصم المنقريُّ[1]، على بني مُرَّة بن عوف بن ذبيان، فأصاب منهم أُسَارَىٰ، فيهم رجُلٌ من بني جُشَم، من هوازن، مُجَاوِرٌ فيهم، ثم فَدَىٰ بنو مرَّة أَسْراهُم من قيس بن عاصم، وظلَّ الجُشَمِيُّ مأسوراً. لم يَفُكَّهُ أحَدٌ... فجاءَ أخوه، فاستغاث بوجوه بني مُرَّة ليَفْدوه، فلم يفعلوا، فلما كان موسم عكاظ، ركب إلى السوق، وأتى منازلَ بني مَذْحج ليلاً، فنادى يُعَيِّر بني مُرَّة لتركهم أخاه أسيراً وهو جارٌ لهم، فقال:

أعَيِّرُهم في كلِّ يوم وليلةٍ   بتَركِ أسيرٍ عند قيس بن عاصمِ
حليفِهمُ الأدنى وجارِ بيوتهم   ومن كان عمَّا سرَّهم غيرَ نائمِ
فيا ليت شِعري مَن لإطلاق غُلّهِ   ومن ذا الذي يحظى به في المواسمِ

ثم أتى يزيدَ بنَ عبد المدان، فذكر له قِصَّتَه، فقال له: مَرْحباً بك وأهلاً، ثم أرسل إلى قيس يقول:

يا قيسُ أرسلْ أسيراً من بني جُشَمٍ   إني بكلِّ الذي تأتي به جَازِي
لا تَأمَنِ الدهرَ أن تَشْجَىٰ بغُصَّتِهِ   فاختَرْ لنفْسِك إحْمادي وإعْزازي
فافُكُكْ، أخا مِنْقَرٍ، عنه وقل حَسَناً   فيما سُئِلْتَ، وعَقِّبْهُ بإنجَازِ

فأعْلَمه قيسٌ أن الأسير في يد رجُلٍ من بني سعد، ولو كان في يده، أو في بني مِنْقَرٍ[2]، لبَعَثَ به إليه. فأرسل يزيد إلى السَّعْديّ أن سِرْ إليَّ بأسيرك، ولكَ فيه حُكْمُك، فأتى به السعديُّ، وطلب فِدْيَتَهُ مئةَ ناقةٍ ورِعاءَها، فأعطاه

---

(١) هو قيسُ بن عاصم بن سنان: من بني منقر بن عبيد، من سعد بن زيد مناة بن تميم.
(٢) مِنْقَرُ بن عبيد: من بني تميم، بنوه بطونٌ كان أكثرها بنَجْد، من نَسْله: قيسُ بن عاصم الصحابيّ، وعمرو بنُ الأهتم من السادة المقدَّمين في الجاهلية والإسلام.

يزيد ما طلب، وقال له: إنك لقصيرُ الهِمَّة، ولقد كنتُ أظنُّ أن يأتي ثمنُه على جُلِّ أموالنا[١]...

فانظرْ إلى هذه الأَرْيَحيَّة الرائعة! سيِّدٌ شَهْمٌ، يَفُكُّ أسيراً استغاث به أخوه، وهو لا يعرفه، ولا هو من قومه أو من ذوي قُرْبَاه، ولا يعلم من أمره شيئاً، ويدفع في فكِّهِ مئةَ ناقةٍ مع رُعَاتِها، وكان مُستعدّاً، لو طُلِبَ إليه، أن يدفع جُلَّ ماله في الفداء... فأيُّ خُلُقٍ كريم هذا الذي كان عليه أجْدَادُنا!



٦ ـ أخبَارُ المُعَمَّرين:

وفي سوق عكاظ، يتناقل أهلُها أخبارَ مَن عُمِّر طويلاً من العرب. ولعلَّ أكثرَ هذه الأخبارِ طرافةً، ما ذكرتْهُ مواردُ الأخبار عمَّا بلغَهُ المُسْتَوغِرُ التميميُّ من طول العمر. وهو عمرو بنُ ربيعة بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم، بينه وبين مُضَر بن نزار تسعة آباء فقط[٢]. نُقِل عن أبي عمرو بن العلاء[٣]، أن المستوغرَ عاش ثلاثَ مئةٍ وعشرين سنةً، ومات في صدر الإسلام، وأنه كان فارساً شاعراً، وهو القائلُ:

ولقـد سئمـتُ مـن الحيـاة وطُـولِها　　　وَعَمِـرْتُ مـن عَـدَد السنيـن مِئينـا

---

(١) الأغاني: ١٢/ ١٤ ـ ١٦.

(٢) جمهرة أنساب العرب: ٢٢١.

(٣) **أبو عمرو بن العَلاَء**: (٧٠ ـ ١٥٤ هـ/ ٦٩٠ ـ ٧٧١ م). هو زَبَّانُ بنُ عَمَّار التميميّ البصري. من أئمّه اللغة والأدب، وأحَدُ القُرَّاءِ السبعة... وُلد بمكَّة، ونشأ بالبصرة، ومات بالكوفة. كان من أعْلَمِ الناس بالأدب والعربية والقرآن والشِّعْر، وكانت عامّةُ أخباره عن أعراب أدركوا عصر الجاهلية.

مئــةً حَــدَتْهــا بعــدَهــا مئتــانِ لــي وازْدَدْتُ مـن بَعْـد الشهـور سِنينـا[1]

ومن أخباره أنه مرَّ يوماً بسوق عكاظ، يقودُ حفيدَهُ، وقد صار هَرِماً خَرِفاً، فكان يَزْجُرهُ، فقام إليه رجلٌ من السوق، وقال له: أَحْسِنْ إليه يا هذا، فطالما أحْسَنَ إليك! فقال المستوغِرُ: أوَتدري من هو؟ قال: نعم، هو أبوك أو جَدُّك. قال: هو واللّهِ ابْنُ إبْني! قال الرجلُ: لم أَرَ في الكذب كاليوم، ولا مُسْتَوْغِرَ بنَ ربيعة! قال: فأنا المُسْتوغِرُ[2]... ومن الواضح أن هذا الخبر يرتفع بزمن عكاظ إلى القرن الخامس للميلاد.

* * *

⑦ ـ مُقَارَعَةٌ عن حسناء:

وما نراهُ اليومَ، في المجامِع العامَّة، من مُنَافسةٍ بين الفتيانِ على الحِسَانِ من الفتَيات، كان مثلُه في سوق عكاظ... ومن ذلك، ذكر أهلُ الأخبار، أن معاوية بن عمرو، من بني الشَّريد السُّلَميّ، وهو أخو الخنساء الشاعرة، وافَىٰ سوق عكاظ في أحَد مواسمه، وبَيْنا هو في بعض نواحي السوق، لقيَ أسماءَ المُرِّيّة، وكانت فاتنةً جميلةً، فدعاها إلى نفسِه، زاعماً أنها كانت بَغِيّاً، قبل أن تكون من بني مُرَّة بن عوف بن ذبيان. فامتنعتْ وتأبَّتْ عليه، وقالت: أما علمتَ أني عند سيِّد العربِ هاشمِ بن حَرْمَلة المُرِّيّ؟ فأغْضَبتْه، فقال: أما واللّهِ لأُقارِعَنَّهُ عنكِ[3]، قالت: ذاك شأنك... ثم أتَتْ هاشماً، فأخبرتْه بما كان من معاوية، فقال: لعمري لا يَريمُ أَبْياتَنا

---

(١) المعارف: ٧٨.

(٢) الشعر والشعراء: ٣٨٤ ـ ٣٨٥، والسيرة: ١/ ٨٨.

(٣) المُقَارعَة: المُضَارَبَةُ بالرماح أو بالسيوف أو بغيرها.

حتى ننظرَ ما يكون من جُهده! ثم لقِيَهُ، فقال له: واللَّهِ لَوَدِدْتُ أني قد سمعتُ بظَعائِنَ يَنْدُبْنَكَ[1]. فقال هاشم: واللَّهِ لوَدِدْتُ أني قد نَزَعتُ لك هذه الجُمَّة[2].

ولمَّا تراجع الناسُ عن عكاظ، وانقضتِ الأشهُرُ الحرُم، خرج معاوية بن عمرو غازياً، يريدُ بني مُرَّة، في فرسان من بني سُلَيم من قيس، فنَهاهُ أخوهُ صَخْرٌ، لكنه أصَرَّ على الغَزْو، فكانت بين الفريقين معارِكُ في أسامٍ مُتفرِّقةٍ، منها يومُ حَوْزَةَ الأول، ويومُ حوزة الثاني، وأيامٌ أُخَر ذكرتْها مواردُ أهل الأخبار، وكان فيها مقتلُ معاوية، قتله دُرَيْدُ بنُ حرملة، ثم مقتل دُرَيْد، قتله صخرٌ ثأراً بأخيه معاوية، وبعدئذٍ مقتلُ هاشم، وكان قد خرج مُنتجعاً في بعض مواسم الربيع، فكَمَنَ له قيسُ بن الأسوار الجُشَميُّ، ثم قتله[3].

* * *

(٨) ـ المُعَاظَمَةُ في الأَحْزان:

المُعَاظَمةُ في الحُزْنِ والمُصَابِ زَعْمُ المُعَاظِم أنه أكبرُ حُزناً، وأشَدُّ مُصيبةً، لأن مَن فَقَدهُ أعظمُ حُرْمةً، وأكثر مجداً وشرفاً، فهو نوع من التفاخُرِ بما كان للمَيْتِ من أَمْجادٍ.

---

(١) **الظعائن**: نساءُ الرجُلِ عامةً.

(٢) **الجُمَّةَ**: مجتمعُ شعر الرأس.

(٣) الأغاني: ١٥/٦٩ ـ ٧٠، والعقد الفريد: ٥/١٦٣ ـ ١٦٤، ود. بنت الشاطىء ـ الخنساء: ٣١ ـ ٣٥.

ومن ذلك، لمّا كانت وقعةُ بَدْرٍ الكبرى، قُتِل فيها عُتْبةُ بنُ ربيعة[1]، وأخوهُ شَيْبَةُ[2]، وابنُه الوليد بن عتبة. فأقبلتْ هند بنت عتبة[3]، إلى موسم عكاظ تَرْثيهم... ثم بلغَها مُعَاظمةُ الخنساءِ العربَ في مُصيبتها، بأبيها عمرو بنِ الحارثِ بن الشريد، وأخَوَيْها معاوية وصخرٍ، وأنها جعلت تشهدُ الموسمَ كلما انعقد، وتبكيهم، وتُسَوِّمُ هَوْدَجَها برايةٍ يُعرفُ بها، وتقول: أنا أعظمُ العرب مُصيبةً!. وقيل لهندٍ: إن العرب قد عرفتْ لها بعضَ ذلك، واعترفتْ به. فقالت: أنا أعظمُ من الخنساءِ مُصيبةً! ثم أَمَرتْ بهَوْدَجِها فسُوِّمَ برايةٍ، وقَصَدتْ عكاظاً فشهدَتِ الموسمَ، وقالت: اقْرنوا جَمَلي بجَمَلِ الخنساء. ففعلوا، فلما دَنَتْ منها، قالت الخنساءُ: مَن أنتِ يا أُخَيَّة؟ قالت: أنا هند بنتُ عُتبة، أعظمُ العرب مصيبةً، وقد بلغني أنك تُعاظِمين العربَ بمُصِيبتك، فبِمَ تُعاظِمينهم؟ فقالت الخنساءُ: بأبي عمرو بن الحارث، وأَخَويَّ صخرٍ ومعاوية، وبِمَ تُعاظِمينَهم أنتِ؟ فقالت: بأبي عتبة بن ربيعة، وعمِّي شيبة، وأخي الوليد. قالتِ الخنساءُ: أَوَ سواءٌ همُ عندك؟ وأنْشَأَتْ

---

(١) عُتبة بن ربيعة: من بني عبد شمس بن عبد مناف. كبير قريش في زمنه، وأحَدُ ساداتها في الجاهلية. كان موصوفاً بالرأي والحِلم والفضل، خطيباً، نافِذَ القول. شهد بَدْراً مع المشركين، فقُتِل فيها.

(٢) شيبة بن ربيعة: من زعماء قريش في الجاهلية. كان يَصدُّ الناس أن يتَّبِعوا النبيّ عليه السلام في المواسم، قُتِل في وقعة بدر.

(٣) هند بنت عتبة: أمُّ معاوية بن أبي سفيان. كانت فصيحةً، جريئةً، صاحبةَ رأي وحَزمٍ، ونَفْسٍ أَبِيَّةٍ، وأَنَفَةٍ. تقول الشعر الجيّدَ، وأكثَرُهُ في رثاء أبيها وعمها وأخيها، قبل إسلامها. ولمّا أسلمت مع بعض النِسْوة، أخذ النبيُّ البيعةَ عليهنَّ، بألاَّ يَسْرِقْن أو يزنين، فقالت: وهل تزني الحُرَّةُ أو تسرقُ يا رسول الله؟ قال: ولا يَقتُلْنَ أولادَهنَّ، فقالت: وهل تركتَ لنا ولداً إلا قتلتَه يوم بدر؟. ثم شهدت معركة اليرموك بعد ذلك، وحرَّضَتْ على قتال الروم. توفيت سنة (١٤ هـ = ٦٣٥ م).

تقول:

أُبكّي أبي عَمْراً بعينٍ غزيرةٍ قليلٌ، إذا نام الخَلِيُّ، هُجودُها
وصِنْويَّ لا أنْسَى معاويةَ الذي له من سَرَاةِ الحَرَّتيْن وُفُودُها[1]
وصخراً، ومن ذا مثلُ صخرٍ إذا غدا بسَاهِمَةِ الآطالِ قُبّاً يقودُها[2]
فذلك يا هندُ الرزيَّةُ فاعْلَمي ونيرانُ حربٍ حين شبَّ وَقُودُها

فقالت هند تُجيبها:

أُبكّي عميدَ الأبطحَيْنِ كليهما وحامِيهما من كل باغٍ يُريدُها[3]
أبي عُتبةُ الخيرات، ويحكِ فاعْلمي وشَيبةُ، والحامي الذِّمَارِ وليدُها
أولئك آلُ المجدِ من آل غالبٍ وفي العِزِّ منها، حين يَنْمي عَدِيدُها[4]

ومُذْ مات صَخْرٌ، لم تَعِشِ الخنساءُ إلا للبُكاء، والرثاء. وكانت الدهرَ تَلبَسُ صِداراً[5]، حُزناً عليه. وقد رأتها أمُّ المؤمنين عائشة، حَلِيقَةَ الرأسِ، مُرْتَديةً ذلك الصِّدَارَ، فعاتَبتْها، وقالت لها: أتلبسينَ صِدارَ الحزنِ وقد نَهى الإسلامُ عنه؟ فما زادها ذلك إلا حُزْناً[6]...! فإن لم تكن أعظمَ العرب

---

(١) الحَرَّة: الأرض ذاتُ الحجارة السُّودِ النخِرة. والحرَّتان: إحداهما لبني سُلَيم، والأُخرى لبني هلال. والمعنى أنه مَقْصدُ الأشراف من القبائل، تأتيه وفودُها فيما يُلمُّ بها.

(٢) السَّاهِمةُ: الدقيقة. الآطال: ج إِطْل وهو الخاصِرة الضامرة. القُبُّ: ج أَقَبّ وقباء، وهي الفرسُ الدقيقة الخَصْر، الضامرة البطن، وذلك كناية عن قيادته الخيلَ الجيدةَ الأصيلةَ.

(٣) عميدُ القوم: سيِّدُهم وسَنَدُهم. الأبطحان: أبطح مكة وسهل تهامة. وأصلُ الأبطح المَسِيلُ الواسِعُ فيه دِقَاقُ الحصى.

(٤) الأغاني: ٤/٢١٣ ـ ٢١٤.

(٥) الصِّدَارُ: ثوبٌ من شَعر أو صوف، كانت المرأة الثكْلَىٰ تلبسُه إذا حزنت، رأسُه كالقِناع، يَغْشَى الصدر والمنكبين.

(٦) الشعر والشعراء: ٣٤٥ ـ ٣٤٦.

مُصِيبةً، فهي أَعْظمُهم حزناً، ومن حَقِّها مُعَاظَمتهم في هذا، لأنها عاشت بعد صخرٍ نحواً من ثلاثين سنةً، وهي تبكيبه وترثيه.

* * *

⑨ ـ عكاظ مُوحِيَةُ العجائب:

ويبدو أن بلوغَ عكاظٍ، وشُهودَ مَواسِمها، وشهرتها في تميُّزِها، كانت تبعثُ أحياناً على اختراع خَوارِقَ يُزْعَمُ أنها وقعت فيها، فيُصدِّق بها بعضُهم، ويتناقلها...

١ ـ من ذلك ما ذكره القزوينيُّ حيث قال: «حكى رجلٌ من ثقيفٍ، أنه رأى بسوق عكاظ، رجُلاً قصيرَ القامة، على بعيرٍ في حجم شاةٍ، وهو يقول: أيها الناسُ! هل فيكم من يسوق لنا تِسْعاً وتسعين ناقةً، ينطلق بها إلى أرض وَبَار[1]، فيُؤَدّيها إلى حِمَالِ صُبَار[2]؟... فاجتمع الناسُ عليه، يتعجبون منه ومن كلامه وبعيره، فلما رأى ذلك عَمَدَ إلى بعيره، وارتفع به في الهواء، ونحن ننظر إليه، حتى غاب عن أَعْيُننا...»[3].

٢ ـ ومنه أيضاً ما ذكره ياقوتُ، بروايةٍ عن أعشى همدان قال فيها: «خرج مالكُ بنُ حَريم الهمْدانيُّ في الجاهلية، ومعه نَفَرٌ من قومه، يريدون عكاظ، فاصطادوا ظَبْياً في طريقهم، وكان قد أصابهم عطشٌ كثير، فانتهوا إلى مكان يقال له: أُجَيْرة، فجعلوا يفصدون دَمَ الظبي، ويشربونه من

---

(١) وَبَار: أرضٌ واسعة في جنوب بلاد العرب، بين شِحْرَ مَهَرة وتخوم صنعاء.

(٢) حِمَال: مفردها حَمْل وهو ثمر الشجرة. والصُّبَار: حَمْل شجرةٍ شديدة الحموضة، قيل هو التمر الهنديُّ الحامض.

(٣) آثار البلاد وأخبار العباد: ٥٦.

العطش، حتى أُنْفِدَ دَمُهُ، فذبحوه، ثم تفرَّقوا في طلب الحَطَب. ونام مالِكٌ في الخِبَاء، فأثار أصحابُه شُجَاعا[١]، فانْسَابَ حتى دخل خِباءَ مالكٍ. فأقبلوا فقالوا: يا مالكُ، عندك الشجاعُ فاقتلْهُ!. فاسْتَيقظَ مالك، فقال: أَقْسَمْتُ عليكم إلاَّ كفَفْتُم عنه! فكَفُّوا، فانْسابَ الشجاعُ وذهب، فأنشأ مالك يقول:

وأوْصانـي الحـريـمُ بعِـزِّ جـاري ومَنْعَتِـهِ إذا امْتَنَـع المنـاعُ
فـدىً لكـمُ أبـي، عنـه تَنَحَّـوا لأمـرٍ مـا اسْتَجـارَ بـيَ الشجـاعُ
ولا تَتَحمَّلُـوا دَمَ مُسْتَجيـرٍ تَضَمَّنَـهُ أُجَيْـرَةُ فـالتِّـلاعُ
فـإنَّ لمـا تَـرَوْن خَفِـيَّ أمْـرٍ لـه، مـن دون أمْـرِكـمُ، قنـاعُ

ثم ارتحلوا، وقد أجْهَدَهمُ العطشُ، فإذا هاتفٌ[٢]، يهتفُ بهم قائلاً:

يـا أيهـا القـومُ لا مـاءٌ أمـامَكُـمُ حتى تَسُومُوا المطايا يومَها التَّعَبَا
ثم اعْدِلُوا شامَةً، فالماءُ عن كثَبٍ عَيْـنٌ رواءٌ، ومـاءٌ يُـذهِـبُ اللغَبَـا
حتـى إذا مـا أصَبْتُـم منـه رِيَّكُـمُ فاسْقُوا المطايا، ومنه فامْلَؤوا القِرَبَا

قال: فعَدَلُوا «شامةً» فإذا هم بعينٍ خرَّارةٍ، فشربوا، وسَقَوْا إبِلَهم، وحملوا منه في قِرَبِهم، ثم أتَوْا عكاظاً، فقضَوْا أَرَبَهم، ورجعوا، فانتهوا إلى موضع العَيْن، فلم يروا شيئاً[٣]، فتوهَّموا أن الذي فعل ذلك لهم هو الشُّجَاع، شكراً على عدم قتله.

* * *

(١) الشُّجَاعُ: ضَربٌ من الحيَّات، وقيل: بل هو الحَيَّةُ الذَّكَرُ.
(٢) الهاتفُ: هو الذي تسمعه من غير أن تراه.
(٣) معجم البلدان: ١/ ١٠٥ ـ ١٠٦ (أُجَيْرَة).

(١٠) ـ سَرْحَةُ التَّهاجي بعُكاظ:

السَّرْحُ شجرٌ كِبَارٌ، عِظَامٌ، لا تُرْعَى، وإنما يُستظَلُّ بها. وكانت في عكاظ سَرْحَةٌ، يجتمع الناسُ إليها، ويضربون قبابَ الأَدَم، وإلى ذلك أشار الشاعرُ الجاهليُّ، راشدُ بنُ شهاب اليَشْكُرِيُّ، من بني بكر بن وائل بقوله:

بِـذَمٍّ يُغَشّـي المـرءَ خِـزْيـاً ورَهْطَـهُ   لدى السَّرْحَةِ العَشَّاءِ، في ظِلِّها الأَدَمْ[١]

وهذه السَّرْحةُ العَشَّاءُ، أي الخفيفةُ، كانت للشاعر الأَغْلب بن جُشَم العجليِّ[٢]، من بكر بن وائل، فكان يصعد عليها في المواسم، ثم يرتجزُ، ويُهاجي الشعراء، ويقول:

قـد عَـرَفتْنـي سَـرْحَتـي فـأَطَّـتِ   وقـد شَمِطْـتُ بعـدَهـا واشْمَطَّـتِ[٣]

فاعْترضَهُ يوماً هُرَيْمُ بنُ جَوَّاس التميميُّ[٤]، فقال له:

قُبِّحـتَ مـن سـالفـةٍ ومـن قَفَـا   عبـدٌ إذا مـا رَسَـبَ القـومُ طَفَـا
فمـا صفـا عَـدُوُّكـمُ، ولا صفـا   كما شِرارُ البقل أطرافُ السَّفَا[٥]

---

(١) المُفَضليَّات: ٣٠٩.

(٢) الأغلب بن جُشَم: راجز مشهور، قيل: إنه أوَّلُ من رجز الأراجيزَ الطوال، عُمِّر في الجاهلية طويلاً، وأدرك الإسلام، فأسلم وحَسُنَ إسلامُه، وشهد معارك الفُتوح.

(٣) أَطَّت: من الأطيط وهو صوتُ الجوف من الخَواء، وحنينُ الجِذْع. شَمِطَ واشْمَطَّ: خالطَ بياضَ رأسه سواد، فهو أشمط. وشَمَطتِ الشجرةُ: انتشر ورقها.

(٤) هُرَيم بن جَوَّاس: راجز من بني مُقاعس، من سعد بن زيد مناة بن تميم، كان يُهاجي الأغلبَ العجليَّ بعكاظ.

(٥) السَّفَا: ما تَذْروهُ الرياح.

فقال له الأغْلبُ: ويْلَكَ مَن أنتَ؟ قال:

أنــا غــلامٌ مــن بنــي مُقــاعِــسِ   الضَّــارِبيــنَ فَلَــكَ الفَــوارِسِ[1]

* * *

ويبدو أنه كانت هنالك سَرْحَةٌ أُخرى بعُكاظ، كان يأوي إليها زُهْرةُ بن سِرْحَان، وكان يَصْطنعُ عندها، في كلامه، صوتاً كصوت الأَطيط يَصْدُرُ عن الجَوْفِ الخَوِيِّ، فسُمِّيَ الراهبَ. وقد ذكر ابنُ منظور أنه كان يأتي سوق عكاظ، فيقومُ إلى هذه السَّرْحَة، فيَرْجِزُ عندها ببني سُلَيْم قائماً، فلا يزال ذلك دَأْبَهُ، حتى يصدرَ الناسُ عن عكاظ. وكان يقول:

قــد عَــرَفَتْنــي سَــرْحَتــي فــأَطَّــتِ   وقــد وَنَيْــتُ بعــدَهــا فــاشْمَطَّــتِ[2]

* * *

(١١) ـ زَبيبُ عكاظ مكافأة:

بعد الذي أصاب المسلمين في يوم أُحُدٍ، خرج رسولُ الله، عليه السلام، في اليوم التالي، حتى انتهى بالمسلمين إلى حمراء الأسد، على سبعة أو ثمانية أميال من المدينة، يريدُ أن يظنَّ به المشركون قوَّةً، فلا يَكُرُّون عليهم.

ويومئذ مرَّ بأبي سفيان، وهو في طريقه إلى مكة، رَكْبٌ من بني عبد القيس يريدون المدينة، فقال لهم: هل أنتم مُبلِّغُون عني محمداً رسالةً،

(١) الإصابة: ٣/ ٥٨٤/ت ٩٠٤٩، والأغاني: ٢١/ ٣١ ـ ٣٢، والشعر والشعراء: ٦١٣.
(٢) لسان العرب: ٧/ ٢٥٧ (أطط).

وأُحَمِّلُ لكم إبِلَكم هذه غداً زَبِيباً بعكاظ؟ قالوا: نعم! قال: فإذا جِئْتُموه، فأخْبروهُ أَنَّا قد أَجْمَعْنا المسيرَ إليه وإلى أصحابه، لِنَسْتأصِلَ بقيَّتَهم. . . فمرَّ الركْبُ برسول الله وهو في حمراء الأسد، فأخبروه بالذي قال أبو سفيان، فقال: حَسْبُنا اللَّهُ ونعمَ الوكيل! ثم انصرف بعد ثلاثة أيام إلى المدينة، لم يَلْقَ كَيْداً[1].

١٢ ـ العَرَّافون:

وقد كانت مواسمُ الأسواق، كسوق عكاظ، مَوْضعاً يأوي إليه العرَّافون، فكان الناسُ يأتونهم بصِبْيَانهم، ويَعْرِضُونهم عليهم، ليُخْبِروهم بما قد يكون عليه مستقبلُ كلٍّ منهم، يفعلون ذلك بالتفرُّسِ في الوجوه، ومقارنة ما يرونه من الملامح بما لهم من خبرةٍ وتجاربَ، وكان أَحَدُهم يَعْمدُ إلى الخُطوط، يخطُّها على الأرض، ثم ينظرُ إليها، ليستخرجَ منها ما يَتَنَبَّؤُ به للصبيّ وغيره. . ويُقال للعَرَّاف أيضاً: الحازي والطارقُ والكاهِنُ والحدَّاس والمنجّم[2]. . .

ومن ذلك ما ذكره ابنُ سعد، من أن حليمةَ السَّعْديَّةَ، مُرْضِعَةَ رسول الله،

---

(١) تاريخ الطبري: ٢/ ٥٣٤ ـ ٥٣٥، والكامل: ٢/ ١٦٤ ـ ١٦٥.

(٢) **العَرَّاف**: المنجِّمُ، وعملُه العِرافَةُ وهي التنجيمُ والإخبارُ عن الماضي والمستقبل، **والحازي**: الذي يَحْزُرُ الأشياءَ ويُقدِّرُها بظنه، والذي ينظرُ في الأعضاءِ وخِيلانِ الوجهِ والبَدَنِ يتكهَّنُ. ويقال إن الحازي هو من كان يأتي إلى أرضٍ رِخْوةٍ، فيأتيه فيها صاحب الحاجة، فيعطيه حلواناً، فيقول له الحازي: أقعد حتى أخطَّ لك! وبين يديْ الحازي غلامٌ يتبعه، معه مِيلٌ له، فيأخذه الحازي منه، ويخطُّ به خطوطاً كثيرةً بالعَجَلة لئلا يَلحقَها العددُ، ثم يرجعُ فيمحو منها على مَهَلٍ خَطَّيْن خَطَّيْن، وغلامه يقول للتفاؤل: ابْنَيْ عِيَان، أسْرِعا البيان! فإن بقي من الخطوط خطَّانِ فهما علامةُ النجاح، وإن بقي منها خطٌّ واحدٌ فهو علامةُ الخيبة في قضاء الحاجة.

قالت: إن آمِنةَ بنتَ وهبٍ، أمَّ الرسول، لمَّا أعطتْها إبنَها لتُرضِعَه، أمرتْها أن تسألَ عنه، فرجعتْ به إلى بلادها، فأقامت حتى دخل موسمُ عكاظ، فانطلقت به حتى حضرتِ السوقَ، وأتَتْ عَرَّافاً من بني هُذَيْل، يَعْرِضُ الناسُ عليه صِبْيَانَهم، فلما نظر إليه صاح: يا معشرَ هُذَيْل، يا مَعْشَرَ العرب! فاجتمع إليه مَن كان مِن أهل الموسم، فقال: إنني أرى غلاماً لَيُكسِّرَنَّ آلِهتَكم، ولَيَظْهرنَّ أمرُهُ عليكم. . . فانسَلَّتْ به حليمةُ، فجعل الناسُ يقولون: أيُّ صبيّ؟ ولا يَرَوْنَ شيئاً، وطُلب في عكاظ، فلم يجده أحدٌ، ورجعت به حليمة إلى ديارها، فكانت بعد ذلك لا تَعرِضُهُ لِعرَّافٍ، ولا لأحدٍ من الناس[١].

* * *

(١٣) ـ امتحانُ البَديهة:

وعلى نحو ما نَشهَدُهُ اليوم من ندواتٍ، يجري فيها اختبارُ البَديهة، وسرعةِ الجواب، والمُغَالبة في الفطنة والعقل، كان العربُ يتلاقون في حلقات للسَّمَرِ، يمارسون فيها مثل هذه الأمور، ولا سيما في مواسمهم، كموسم سوق عكاظ. . . ومن أهل الدَّهاءِ والفِطْنة، ومن أهل اللسَنِ واللقَنِ، والجواب العجيب، والكلام الصحيح، والأمثال السائرة، والمخارج العجيبة: هندُ بنتُ الخُسِّ الإياديَّة، وكانت من حكيمات العرب، معروفةً بالفصاحة، وضرب الأمثال[٢]. وكانت تحضر عكاظاً، ولها فيه أخبارٌ كثيرة[٣]. وقد أَتتِ الموسم في إحدى السنين، فالتَقَتْ رجُلاً أراد أن يمتحن عقلها، ويمتحنَ جوابَها، فقال لها: إني أريدُ أن أسألك. قالت: هاتِ! قال:

(١) الطبقات الكبرى: ١/ ١٥، ولسان العرب: ٩/ ٢٣٨ (عرف)، و١٤/ ١٧٤ (حزا) و٧/ ٢٨٧ ـ ٢٨٨ (خطط).

(٢) البيان والتبيين: ١/ ٢٤٩، و ٣/ ٢٧، ولسان العرب: ٦/ ٦٤، والمفصَّل: ٨/ ٧٩٠.

(٣) الأعلام: ٨/ ٩٧، ومجالس ثعلب: ٣٤٣، ٣٦٩.

كاد. . . فقالت: المُنْتَعِلُ يكون راكباً. قال: كاد. . . فقالت: الفقرُ يكونُ كُفْراً. قال: كاد. . . قالت: العروس تكون ملكاً. قال: كاد. . . قالت: النعامةُ تكونُ طائراً. قال: كاد. . . قالت: السِّرَارُ يكون سَحَراً. . . ثم قالت للرجل: أسألك؟ قال: هاتي. . . قالت: عَجبتُ. . . قال: للسِّبَاخِ لا ينبتُ كَلَؤُها، ولا يجفُّ ثَراها. قالت: عَجبتُ. . . قال: للحجارة لا يَكْبَرُ صغيرُها، ولا يَهْرَمُ كبيرها[1].

وذكر ابنُ منظور عن الأزهري أنه كانت في الجاهلية امرأةٌ، تقوم بسوق عكاظ، فتنشِدُ الأقوالَ، وتضربُ الأمثالَ، وتُخجِلُ الرجال، فانتدب لها رجلٌ يوماً، فقالت المرأة ما قالت، فردَّ عليها ردّاً قبيحاً أخْجَلها فهربت[2].

١٤ـ راياتُ الغَدْر وراياتُ الوفاء:

كان العربُ يُعظِّمُونَ الوفاءَ، ويحضُّون عليه، فإذا أعطى أحدُهم عهداً، كان من أكبر العار والشَّيْنِ ألاَّ يفيَ به، وكثيراً ما كان يُضَحِّي بنفسه وماله وأهله، ليَفيَ بعهده، فيُعَدَّ في الوافين، ولئلاَّ يُوصفَ بالغَدْر، ويُحشَرَ مع الغادرين. وقلما كان العربُ يحتاجون إلى من يفصِلُ بينهم في خصوماتهم، لما فُطِروا عليه من جُنوحٍ إلى الوفاء، فالوفاء إذا كان في أمَّةٍ، أغناها عن الحكومة والقضاء، والحكومةُ إنما تكون بين من ينكرون الوفاء[3].

وكان من سنَنِهم في الجاهلية، إذا غَدَرَ الرجلُ منهم، أن يرفعوا له لواءَ في المواسم الكبرى، ولا سيما في مَجْمَعِهم العامّ بسوق عكاظ، ليَفْضَحوهُ

---

(١) عيون الأخبار: ٢/ ٢١٤.
(٢) لسان العرب: ٢/ ٤٩١ (سنح).
(٣) تاريخ التمدن الإسلامي: ٢/ ٣٠٨.

في الناس جميعاً، وليُحَذِّروهم منه، ومن التعامُل معه[1]. ولهم في ذلك مَثَلٌ يقول: إن لكل غَدْرةٍ لواءً، أي علامةً تُشْهَرُ بها في الناس[2]، وهذه العلامةُ تكون كالرَّاية، تُرفع ليعرفَها الناس جميعاً. وإلى هذا أشار قُطْبَةُ بنُ أَوْس المازني[3]، يسأل حبيبتَهُ سُميَّةَ إن كانت سمعتْ لهم بغَدْرةٍ:

أَسُمَيَّ وَيْحَكِ، هل سمعتِ بغَدْرةٍ رُفِعَ اللواءُ لنا بها في مَجْمَعِ[4]

وربما أَوْقَدوا للغَادرِ ناراً، وصاحُوا: هذه غَدْرةُ فلان، فاحْذَرُوهُ، والْعَنُوهُ، أو ربما أقاموا له تمثالاً من طينٍ، يَنْصبونه في السوق، رمزاً لنَقْضِهِ العهدَ وغَدْرِهِ به... وقد ذكر المرزوقي أن العرب كانوا إذا غَدَرَ الرجلُ، أو جَنَى جنايةً عظيمةً، انطلق أحَدُهم، حتى يرفع له رايةَ غدْرٍ بعكاظ، فيقوم رجلٌ من المغدور بهم، يخطب بذلك الغدر، فيقول: ألا إنَّ فلانَ بنَ فلان قد غَدرَ، فاعْرفوا وجهه، والْعَنُوهُ، ولا تُصاهِرُوهُ، ولا تُجالِسُوه، ولا تسمعوا منه قولاً، ولا تُعاملوه... فيُمسِي بذلك مَذْمُوماً، مَدْحُوراً، يُثْقِلُ ضميرَهُ شعورُهُ بالخِزْي والعار، بعدما صَدَر بحقِّهِ حُكمُ عكاظ، القاضي بعَزْله عن المجتمع، فإن رَجَعَ عمَّا جَنَى فأَعْتَبَ، أي أَرْضَى، وإلا جُعِلَ له مِثْلُ مِثالِهِ في رُمْحٍ، فنُصِبَ بعُكاظ، ثم لُعِنَ ورُجِمَ. ويُقال إن بني كندة رفعوا رايةَ غَدْرٍ بعُكاظ، لعامِرِ بنِ جُوَيْن الطائيّ، في غَدْرِه بامرىء القيس بن حجر الكندي قُبيل سفره إلى قيصر الروم. فقد نزل به امرؤ القيس مُجاوراً له، فأراد عامرٌ

---

(١) المفصَّل: ٤/ ٤٠٣.

(٢) لسان العرب: ١٥/ ٢٦٦ (لوى).

(٣) **قُطْبة بن أوس**: شاعر جاهليٌّ مُقِلٌّ، من بني مازن، من فزارة. كان حسانُ بن ثابت من المعجبين بشعره.

(٤) المفضَّليات: ٤٥.

أن يَغْلبَهُ على أهلِهِ ومالِهِ، فعَلمَ بذلك، فانتقل عنه إلى رجُلٍ من بني ثُعَلٍ، وهم بطنٌ كبير من طيِّيء، فوقعت بين عامرٍ والثُّعَليِّ حربٌ، فرحل امرؤ القيس عنهم إلى السَّمَوْأَل. . .

وقيل في الوقت نفسه، إن بني فزارة بن ذبْيانَ رفعوالعامِرِ بن جُوَيْن رايةَ وفاء بعكاظ، في حُسْن صَنيعهِ بمنظور بن سيَّار الفزاريّ، لمَّا أقْحَمتْهُ السنةُ، فانتقل بماله وإبِلِهِ وأهْلِهِ إلى جَبَلَيْ طَيِّيء، فأجارَهُ عامرٌ، ووَفَىٰ له، فصار الناسُ بعد ذلك بين حامدٍ عامِراً وذَامٍّ له[1]. . .

* * *

وجاء في حديث «ضُبَاعَة بنتِ عامر القُشَيْريَّة»[2]، أنها كانت زوجة لصاحب اليمامة هَوْذَة بن عليّ الحنفيّ، ثم مات عنها، فأصابت منه مالاً كثيراً، ورجعت إلى أهلها بني قُشَيْر. . . فخطبها إلى أبيها عبدُ الله بنُ جُدْعَانَ التَّيْميُّ، فزَوَّجَهُ منها. فأتاه ابنُ عمٍّ لها، يُقال له: حَزَنُ بنُ عبد الله، من بني قُشَيْر، فقال: يا عمّ! زَوِّجْني ضُبَاعة. قال: قد زوَّجْتُها عبدَ الله بن جُدْعان. فحلَفَ ابنُ عمها أن لا يَدَعَ ابنَ جُدْعان يصلُ إليها أبداً، وليَقتُلَنَّها دونه.

فكتب أبوها إلى ابن جُدْعانَ يذكر ذلك. . . فكتب إليه ابنُ جُدْعانَ: واللَّهِ لئن فعلتَ هذا، لأَرْفعنَّ لك رايةَ غدرٍ بعُكاظ!. . . فقال أبوها لابن عمِّها: قد جاء من الأمر ما ترى، فلا بُدَّ من الوفاء لهذا الرجُل. ثم جَهَّزَهَا، وحَمَلها إليه.

فركب حَزَنٌ في إثْرِهَا، وأخذ معه رُمْحاً، وتَبِعها حتى انتهى إليها،

---

(١) الأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٧٠، والأعلام: ٣/ ٢٥٠، والكامل: ١/ ٥١٨.

(٢) ضُبَاعَةُ بنتُ عامر: من بني قُشَيْر، من هوازن، كانت من أجمل نساء العرب. شاعرة، أسلمت بمكة، وكانت زوجة هشام بن المغيرة وولدتْ له إبنَه سَلَمة. تُوفيت نحو (١٠ هـ).

فوضع سِنانَ الرمح بين كتفيها، وقال لها: يا ضُبَاعة! هل قومٌ يَقْتَنُونَ المالَ تجارةً، أَحَبُّ إليكِ، أم قومٌ حُلُولٌ؟... وكان ابنُ جُدعانَ تاجراً كسائر أهل مكة، أي أهل الحَرَم، خلافاً للحُلُولِ، أي أهل الحِلِّ الذين سكنوا خارج الحرَم، فكانوا بُداةً، يعيشون غالباً من رَعْي الأنعام. فقالت ضُبَاعة: لا، بل قومٌ حُلول. قال: أمَا واللَّهِ، لو قلتِ غير هذا، لأَنْفَذتُ الرُّمحَ من بين ثَدْيَيْكِ! ثم انصرف عنها، وزَفَّها أبوها إلى ابن جُدعان، وفاءً بالعهد الذي قطعه له، وتمَّ الزواجُ كما اتَّفقا[١].

وهكذا كان نَصْبُ رايةٍ للوفاء بعكاظ، إعلاناً يُكسِبُ الرجُلَ الوافي حَمْداً وثناءً في أحياء العرب كافةً. وكان نصْبُ رايةٍ للغدر دعوةً للقَدْحِ في الغادر وذَمِّهِ، ورادعاً خُلُقيّاً، له رهبةٌ في نفوس العرب تُلزِمُهم بالوفاء...



(١٥) ـ بناتٌ للزواج:

كان من عادة الشاعر الأعشى[٢]، أن يُوافي سوق عكاظ في كل عام، فيتجاذَبهُ الناسُ في الطريق، تكريماً له، وطمعاً بمِدْحَةٍ من شعره، يُنَوِّهُ بهم فيها، فيَتَلقَّاها الرواةُ بعكاظ، وينشرونها في العَرَبِ، فتنتشِرُ لهم بذلك شهرةٌ واسعة. ومن ذلك أنه مرَّ يوماً ببني كلاب[٣]، في طريقه إلى عكاظ ليشهدَ

(١) أنساب الأشراف: ١/ ٤٦٠ (حاشية: ٣). وهنالك بقيةٌ لحديث ضُبَاعَة، نذكره عند كلامنا على موسم الحجّ في الجاهلية.

(٢) الأعشى الكبير: (٥٣٠ ـ ٦٢٩ م). أبو بصير ميمون بن قيس، من بكر بن وائل. من شعراء الطبقة الأولى في الجاهلية، وأحد أصحاب المعلّقات. كان كثير الوفود على الملوك، غزيرَ الشعر، يسلك فيه كلَّ مَسْلَكٍ، وكان يُغَنّى بشعره. فسُمِّي صَنَّاجَة العرب. أدرك الإسلام ولم يُسلم، مولده ووفاته في منفوحة من قرى اليمامة بنجد.

(٣) بنو كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة، من هوازن.

موسمَها في تلك السنة، وكان في القوم رجلٌ يقالُ له: المُحلَّقُ بن حَنْتَم الكِلابيّ[1]، وكان مِئْناثاً مُمْلِقاً[2]، له ثمان بناتٍ، لا يَخطُبهنَّ أحَدٌ لمكان أبيهنَّ من الفقرِ وخُمولِ الذِكْر. فقالت امرأةُ المحلَّقِ لزوجها: ما يمنعُكَ من التعرُّضِ لهذا الشاعر وإكْرامِهِ؟ فما رأيتُ أحداً أكْرمَهُ، إلا أكْسَبَهُ خيراً. فقال: وَيْحَكِ! ما عندي إلا ناقتي. فقالت: يُخْلِفُها اللَّهُ عليك.

فقام المحلَّقُ بعد تَرَدُّدٍ، ورَصَدَ الأَعْشى في مَقْدَمِهِ، حتى يَتَلقَّاهُ قبل أن يسبقَهُ إليه أحَدٌ، وكان الأعشى كفيفاً يقوده ابنْه، فلما وصَل، أقبل عليه المحلَّقُ، فأخذ بخِطام ناقته[3]، فقال: من هذا الذي غَلَبَنا على خِطام ناقتنا؟ فقيل له: هذا المحلَّقُ. فقال: شريفٌ كريم. ثم أمَرَ ابْنَهُ أن يَدَعَ المحلَّقَ يقتادُ الناقةَ، فاقتادها إلى منزله، وأكرمَهُ، ونَحرَ له الناقةَ الوحيدة التي يملكُها، وأَوْلَمَ له وليمةً عظيمةً، وجعلت بناتُ المحلَّق يَدُرْنَ حول الأعشى، ويُبالِغْنَ في خدمته، فسأل: ما هذه الجواري حولي؟ فقال المحلَّقُ: بناتُ أخيك، وهُنَّ ثمانٍ، نَصيبُهنَّ من المال قليل!

فقام الأعشى من عنده، وخَرَجَ من غير أن يقولَ شيئاً، وقصد إلى عكاظ من ساعته... ثم خرج المحلَّقُ، فوافَىٰ عكاظاً، فإذا هو بسَرْحَةٍ[4]،

---

(١) **المُحَلَّقُ بنُ حَنْتَم**: من بني شَدَّاد الكلابي العامِريّ. كريم جاهلي، اشْتُهر بما قاله فيه الأعشى. يقال إن اسمه عبد العُزَّى بن حنتم، وغلب عليه لقبُ المحلَّق، لِشَجَّةٍ كانت في وجهه تشبه الحلقة، من عَضَّة حصان، أو من أثَر كَيٍّ. ومن نسله «أم الهيثم» الكلابية راوية أهل البصرة.

(٢) **المِئْناثُ**: الكثير الذريّة من البنات. **المُمْلِقُ**: من أنفق ماله حتى افتقر.

(٣) **الخِطَام**: حبل يُجعل في عنق البعير، يُقاد به.

(٤) يبدو أن أشْجَارَ السَّرْح كانت مجتمعَ الناس إلى الشعراء، وأنها كانت كثيرةً في سهل عكاظ، يستظلُّون فيها.

اجتمع الناسُ إليها، وإذا الأَعْشَى يُنشِدُهم قصيدةً أَنْشَأها في مَدْح المحلَّق، ويقول فيها:

أَرِقْتُ وما هذا السُّهادُ المؤرِّقُ ... وما بيَ من سُقم، وما بي مَعْشَقُ
لعمري لقد لاحت عيونٌ كثيرةٌ ... إلى ضوء نارٍ، باليفاع، تُحرَّقُ[1]
تُشبُّ لمقرورَيْن، يصطليانها ... وباتَ على النار، الندىٰ والمحلَّقُ[2]
ترىٰ الجودَ يجري ظاهراً فوق وجهِهِ ... كما زانَ متنَ الهندوانيّ رَوْنقُ[3]

ما كاد الأعشى ينتهي من إنشاد قصيدته، إلا والناسُ يَنْسَلُّون إلى المحلَّق يُهنِّئونه، ثم لم تمضِ سنةٌ عليه، حتى زَوَّج بناته، ويَسُرَتْ أحواله[4]. . . ومن ذلك وأمثاله، يتبيَّن لنا ما كان لعكاظ من آثار اجتماعية واضحةٍ، في مجتمعات العرب، من خلال ما تُعالجُه من مواضيع الشعر والشعراء.

* * *

(١٦) ـ تأديبُ السُّفَهاء:

يُحكى أنه كان لعبد الله بن جَعْدَة[5]، وهو من شيوخ بني عامر بن

---

(١) **اليَفَاع**: التلُّ المُشْرِف، وكلُّ ما ارتفع من الأرض.

(٢) **تُشَبُّ**: تُوقَد، **المَقْرور**: البَرْدَانُ، **النَدَى**: الكرم.

(٣) **الهُنْدُوانيُّ**: سيفٌ. أي أن الكرم يزينُ وجَهَ المحلَّق، كما يزين متن السيف الهندُوانيّ الرَّوْنق واللمعان.

(٤) الأغاني: ٩/ ١١٠ ـ ١١٤، والأعلام: ٧/ ٣٤١.

(٥) بنو جعدة: حيٌّ من قيس، وهو جَعْدَةُ بنُ كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة، ومنهم الشاعرُ النابغة الجعدي.

صعصعة، وقائدُهم في معركة النِّسَار[١]، إتاوَةٌ على بعض أحياء الأَزْد[٢]، فكان يحضُرُ عكاظاً، فيأتيه هذا الحيُّ بها. فجاءَه سمير بن سَلَمة القُشَيريّ في أحد المواسم، وعبدُ الله جالسٌ فوق أَمْتعةٍ جُمعت له من الإتاوة، فأَنْزَلَهُ عنها، وجلس مكانَه! فقام إليه رجالٌ في السوق، وسَحَبُوهُ من رِجْلَيْه، وأبْعَدوه عن ذلك الموضع، وأعادوا عبدَ الله إلى مكانه[٣]. ولعلّ أولئك الرجال كانوا ممن يحفظن الأمنَ في السوق، ويَذُودون عن الحُرُمات، ويُؤَدِّبُون السُّفَهاء.



⑰ ـ صَواحِبُ الرايات:

هُنَّ الإمَاءُ اللائي كُنَّ يحتَرِفْنَ البِغَاءَ، فكانت لهنَّ في السوق حوانيتُ أو حَانَاتٌ خاصَّةٌ، تُنصَبُ عليها راياتٌ يُعْرَفن بها، وزِيٌّ خاصٌّ بهنَّ، كَيْلا يختلطْنَ بالحرائر من نساء العرب[٤]، فالبِغَاءُ للإمَاء دون الحرائر، وفِعْلُه خاصٌّ بهنَّ، وكان من الإمَاءِ قِيَانٌ يُغَنِّينَ في تلك الحوانيت، وإنما قيل للمُغَنِّيةِ قَيْنةٌ لأن الغناء من عمل الإمَاء، وكان من تلك الحوانيت ما تُباع فيه الخمورُ، أو تجري مُعَاقَرتُها فيه، وكانت تُرفع عليها أيضاً رايةٌ تُعرفُ بها. ولا شك في أن أبناء البوادي كانوا يَتَوافون بعُكاظ، وغيرها من المجامع

(١) الكامل: ١/ ٥٦٠ ـ ٥٦١، ٦١٩، والمفصَّل: ٥/ ٣٧٨.

(٢) **الإتاوة**: معناها هنا خَراجٌ كان يُؤَدَّى للزعماء والرؤساء، بقدر معلوم، استحقُّوه بأحد الأعمال، أو الأعراف، ومن الضروريّ ألا يُفهمَ منها أنها ضريبةٌ كانت تُجبَى بعُكاظ، عن بضائعَ أو تجارةٍ، فعُكاظ منطقةٌ حُرَّةٌ ليس فيها ضرائبُ على التجارة.

(٣) الأغاني: ٥/ ٢٠ ـ ٢١.

(٤) المحبَّر ٣٤٠، والبيان والتبيين: ٣/ ٦٦ ـ ٦٧، والحياة الجنسية عند العرب: ١٤.

العامّة، ليقصدوا حاناتها، ويجدوا في نشوة الشراب نعيماً، وفي أنغام القِيَان طرَباً، ومتعةً تسلب ألبابَهم، حتى ليُخيَّل إليهم أنه قد أُتيح لهم في عكاظ، من الرخاء والنعيم واللهو، ما لا وجود لمثله في سائر المواسم(١).

* * *

(١٨) ـ التحرُّشُ بالكِرَام:

وعلى نحو ما يفعلُ اليومَ بعضُ أهل الصحافة، يَسبُّون كريماً، وينتقدونه بما يُثيرهُ، من غير ذنبٍ جَناهُ، إلا أنهم يريدون أن يُسْكِتَهم بماله، كان الشعراء في الجاهلية أحياناً يفعلون مثل ذلك. ذكروا أن دُرَيْدَ بنَ الصِّمَّة(٢)، هجا عبدَ الله بنَ جُدْعان التيْميَّ، ولم يكن يعرفُهُ، بقصيدةٍ مطلعُها:

هل بالحوادثِ والأيام من عَجَبِ   أم بابْنِ جُدْعانَ عبدِ اللّهِ من كَلَبِ

فلبث ابنُ جُدْعان ينتظرُ حتى دخل الموسم، فلقِيَهُ بعكاظ، فحيَّاهُ، فردَّ التحيةَ بمثلها، فسأله: هل تعرفُني يا دُرَيْد؟ قال: لا! قال: فلمَ هَجَوْتَني إذن؟ قال: ومَن أنت؟ قال: أنا عبدُ الله بنُ جُدْعان! قال: هَجَوْتُك لأنك امْرُؤٌ كريمٌ، فأحْببتُ أن أَضَعَ شِعْري مَوْضِعَهُ. فقال ابنُ جُدْعان: لئن كنت هَجَوْتَ لقد مَدَحْتَ. . . ثم كسَاهُ، وحَمَلهُ على ناقةٍ برَحْلِها، فمدحَهُ دريدٌ

(١) تاريخ العرب: ١٣٨، والمفصَّل: ٥/١١٢.

(٢) دريدُ بن الصِمَّة: من بني جُشَم، من هوازن. شاعر جاهلي من الشجعان الأبطال، كان سيد بني جُشَم وفارسهم وقائدهم. غزا نحو مئة غزاةٍ لم يُهْزَم فيها. وهو من المعمَّرين، قُتل في معركة حنين نحو (٦٣٠ م).

بقصيدةٍ قال فيها:

رحلـــتُ البـــلادَ فمـــا إن أَرَىٰ   شَبيهَ ابنِ جُدْعانَ وسْطَ العَرَبْ[1]

* * *

(١٩) ـ إذاعةُ العرب:

وكانت عكاظ كذلك إذاعةً للعرب، ومِنْبراً لإعلاناتهم، يُطْلق فيها كلُّ نَبَءٍ يُراد منه أن يكون عامّاً، أو أن ينتشِرَ، فتعرفَهُ العربُ جميعاً. فمن أراد أن يَسْتَلحِق أحداً بنَسَبِهِ، أي أن يمنحَهُ «جنسيَّةَ» قبيلته، وهُوِيَّتَها، قام بعُكاظٍ، فأعلن ذلك في قبائل العرب، للعِلْم به، والشهادةِ عليه، والتعامُلُ معه... ومن أراد كذلك أن يُجِيرَ أحداً من غير قبيلته، أي أن يمنحَهُ حقَّ «اللجوءِ» إليها وحمايتِها له، أو أراد أن يخلعَ أحداً من القبيلة، أو من جِوارها، فعليه أن يُعلنَ ذلك في مجامع العرب الكبرى، كي تعرفَه الناس، وتتعامَلَ معه على أساسه. ولم يكن هنالك مجمَعٌ للعرب أكبرُ من مَجمَعِهم في عكاظٍ، ومواسم الحجِّ. وكانت معاهداتُ الأمن، المعقودةُ بين قبائل العرب، لا تصِيرُ نافذةً غالباً، ما لم تُعلن في سوق عكاظ! ومن ذلك ما ذكره الأصفهانيُّ عن أحياءٍ من العرب، اجتمعت بعكاظ، في سنينٍ تتابعت بالقَحْطِ على الناس، «فتَواعَدوا وتوافَقُوا أن لا يَتَغَاوَرُوا حتى يُخصَبَ الناس»[2].

١ ـ ومَن أراد أن يُعلنَ حرباً على قومٍ أعْلَنَها في عكاظ، ومَن أَحَبَّ أن

---

(١) الأغاني: ١٠/ ٢٠ ـ ٢١.
(٢) المرجع نفسه: ١٥/ ١٨٧.

يُخلِّدَ نصراً لقومه، صَنَعَ ما صنَعهُ عمرو بن كلثوم التغلبيُّ[1]، لمَّا قام خطيباً بعُكاظ، فأعلن أن ملكَ الحيرة عمرو بنَ هند، تعمَّد إلحاقَ الذُّلّ به وبأُمِّه، فقتله... ثم أنْشَأَ في ذلك مُعَلَّقتهُ الشَّهِيرةَ فتَلقَّاها الرواةُ عن عكاظ، وأذاعوها في العرب، حتى صارت حديثَ الأجيال. وقد قيل إنه «قام بها خطيباً في سوق عُكاظ، وقام بها في موسم مكة، وبنو تَغْلب تُعظِّمُها جداً، ويرويها صِغَارُهم وكبَارهم، حتى هُجُوا بذلك، فقال بعضُ شعراء بني بكر بن وائل:

أَلْهَىٰ بني تَغْلبٍ عن كلِّ مَكْرُمَةٍ ... قَصيدةٌ قالها عمرو بنُ كلثومِ»[2]

* * *

٢ ـ ومَن أَحبَّ أن يُخلَّدَ في العرب ذِكْرُه، وأن يتحدَّثَ الناسُ بكرمه وفَضْله، فَعَلَ ما فَعلَهُ «نَهِيكُ بنُ مالك القُشَيريُّ»، من بني عامر بن صَعْصَعة،

---

(١) عمرو بن كلثوم: شاعر جاهلي قديم، من بني تغلب، وُلِد في شمال جزيرة العرب، في ديار ربيعة. وتجوّل فيها وفي بلاد الشام ونجد. كان من أعَزِّ الناس نَفْساً، وهو من الفُتَّاك الشجعان. وقد قتل عمرو بن هند لأنه قال ذات يوم لنُدمائه: هل تعلمون أحداً من العرب تأنَفُ أمُّهُ من خدمة أُمي؟ فقالوا: نعم، عمرو بنُ كلثوم، لأنّ أباها مُهَلْهلُ بن ربيعة، وعمَّها كُلَيبُ وائل أعزُّ العرب، وزوجَها كلثومُ بن مالك أفْرَس العرب. وإبنَها عمرو بن كلثوم سيّدُ قومه. فأرسل ابنُ هند إلى ابن كلثومٍ وأمِّه يستزيرُهما، فأقبلا إلى الحيرة في جماعة من بني تغلب، ودخل ابن كلثوم في رُواق عمرو بن هند، ودخلت أمُّه ليلى في قُبَّة هند بجانب الرواق، وبعد الطعام، حاولت هند إذلال ليلى، فقالت لها: ناوليني ذلك الطَبَق! فقالت ليلى: لتَقُمْ صاحبةُ الحاجة إلى حاجتها!. فألَحَّت هندٌ عليها، فصاحب ليلى: وَاذُلاَّهْ! يا لَتَغْلِبَ! فسمعها ابنُها، فنظر إلى عمرو بن هند، فعرف في وجهه أن الذُلّ لأُمِّه مُتَعمَّد، فقام إلى سيف معلَّق بالرُّواق، فضرب به رأسَ عمرو بن هند، فقتله. توفي بالجزيرة الفراتية نحو (٥٨٤ م).

(٢) الأغاني: ١١/٤٨.

في سوق عكاظ... فقد قَدِمَ السوقَ في أحَدِ مواسمها للتجارة، ومعه عُروضٌ مختلفةٌ من أَمْتَعةٍ وأثاث ولباس، وصُنوفٌ من الطعام، حَمَلها على عددٍ من العِير. فرأى الناسَ هناك، فريقاً يتماجَدُون، فيُعدِّدُ كلٌّ منهم أمْجادَ آبائه، وما اكتسبوه بفعالهم من خِصال الشرف والمروءَة والنَّجْدة، وفريقاً تحلَّقوا حول قاضٍ تنافَروا إليه في تفاخُرهم بالأحساب، وعِزَّةِ النَّفَر، وكثرةِ العَدَد... ولمَّا رأى نهيكُ بنُ مالك الرواةَ يَتَلقَّفُون أخبارَ الكِرام الأَجْوادِ، لِيُذيعوها في أحْياءِ العرب، ورأى الناس مَجْهُودينَ من شُحِّ الطبيعة، وتكاليف الحياة، أَنْهَبَ عِيرَهُ بما عليها من العُروض والأمتعة، رَغْبَةً في حُسْنِ الذِكْر، واكْتِسابِ الحمْدِ والخُلُود. ولمّا علم خالُه بما فعل، أَقْبل عليه يَلُومُه في ذلك، فردَّ عليه بقوله:

يا خالُ ذَرْني ومالي، ما فعلتُ به ... ومـا يُصيبُـكَ منـه، إننـي مُـودِي
فلـن أُطيعَـكَ، إلاَّ أن تُخَلِّـدَنـي ... فانظرْ بِكَيْدِكَ هل تَسْطِيعُ تخليدي
الحمـدُ لا يُشتَـرىٰ إلا لـه ثَمَـنٌ ... ولـن أعيـش بمـالٍ غيـر محمـودِ[1]

فالرجُلُ وجَدَ في فِعْل الجُود والسخاءِ، أقصرَ سبيلٍ إلى الحمد والثناء، ورأى أقصَرَ سبيل إلى الشهرة والخلود، أن يفعَلَهُ بعُكاظِ إذاعةِ العرب، حيث يتلقَّفُه رواةُ الأخبار، فيذيعونَهُ في أحياء العرب... وقد لُقِّبَ نَهيكُ بن مالك بعد ذلك بأنه «فتى أهل المشرق».

* * *

٣ ـ نَفيُ المرء عن قبيلته، أو حِرمانُه من حمايتها له، وتضامُنِها معه، أو إسقاطُ جنسيَّتها عنه.. كلُّ ذلك كان يُسمَّى «الخَلْعَ» في الجاهلية. وهو

---

(١) الإصابة: ٣/ ٣٨٥/ت ٧٩١٩.

خَلْعَانِ، أحدهما: خلعُ فَرْدٍ من أبناء القبيلة، والآخَرُ: خَلْعُ رجُلٍ أَعْطتْهُ حقَّ مُجاورتها، والتمتّع بحمايتها، وهو ليس منها. وللخَلْع قواعِدُ لا بدَّ منها ليَصِيرَ حكمُهُ نافذاً، وأوّلُ هذه القواعد إعلانُه في عكاظ، ومواسم الحجّ، ليكونَ الناسُ على علمٍ به. وذلك أن الرجلَ كان يجني الجنايات فيُؤخَذُ بها أوْلياؤهُ، وقد لا تكون لهم طاقةٌ أن يحملوا عنه أكثر مما فعلوا، فيتبرَّؤونَ منه، ويُعلنون أنهم لا يُؤاخَذون بجناياته على الناس بعد اليوم، ولا يضمنون شيئاً لمن جنى عليهم، ولا يُؤاخِذُون أحداً جَنَى عليه، ولا يطالبونه بشيء! فالعربُ في قبائلهم كانوا يتعاهدون، ويتعاقدون على النُّصْرةِ، والنجْدَة، وأن يُؤخَذَ كلٌّ منهم بالآخَر[1].. وعَقْدُ المُجَاوِرِ فيهم كعقد أبناء القبيلة، فحُكْمهُ كحُكْمِهم في التناصُر والتعاضُد، فإذا أرادوا فَسْخَ هذا التعاقُدِ، أعلنوهُ على الناس في المواسم، وخيرُ المواسم صَلاحَاً لمثل هذا الإعلان، موسمُ عكاظ[2]. ويدخُلُ في أسباب الخَلْعِ من القبيلة، أو من حِلْفِها وجوارِها، خروجُ الرجل على وحدة القبيلة، وتصرُّفُه تصرُّفاً فَرديّاً دون الرجوع إليها، أو دون موافقتها، فتكون القبيلةُ عندئذٍ في حِلٍّ من تضامُنها معه، ومسؤوليتها عنه، فتُعلن خَلْعَهُ في عكاظ[3]. وقد خَلَعتْ قبيلةُ خُزَاعَة قيسَ بنَ الحدادية منها، ونَفَتْه عنها، وأعلنت ذلك بسوق عكاظ، وأَشْهَدتِ العربَ عليه، وكان قيسٌ صُعْلوكاً فاتكاً، وشاعراً شُجاعاً، يشترك مع الصعاليك في الفتك والغزو، ويجرُّ على أوليائه الجرائر[4]... وربما ساءَ سلوكُ أَحَدِ أبناءِ القبيلة، وصار وجودُهُ فيها حَطّاً من قدرها بين القبائل، فتعلن خلعَهُ بعُكاظ،

(١) لسان العرب: ٨/ ٧٧ (خلع).
(٢) الأغاني: ١٤/ ١٣٧.
(٣) تاريخ التمدن الإسلامي: ٢/ ٢٩٩.
(٤) الأغاني: ١٤/ ١٣٧.

حرصاً على سُمعتها وكرامتها[1]. وقد مرَّ بنا في حديث البَرَّاض بن قيس الكناني أنه كان سكِّيراً، فاسقاً، فاتكاً، خلعه قومُه بعكاظ، بعدما تهالك على الخمرة واللذَّات، حتى تحامَتْهُ العشيرةُ كلُّها، فلجأ إلى بني الدُّئِل، فشرب فيهم، فخلعوه، فأتى مكَّةَ، ونزل في جوار حَرْب بن أُميّة، فحالَفَهُ حربٌ وأحْسَنَ جِوارَهُ، ولكنه عاد إلى السُّكْر مرَّةً أُخرى، حتى هَمَّ حربٌ بخَلعه، ولكنه لم يفعل. فارتحل عن مكة وهو على حِلْفِهِ قريشاً، فقتل عروة بن جعفر سيِّدَ هوازن، فهاج حرباً بين قريش وهوازن، هي حرب الفِجَار[2]. وفي أخبار عبد الله بن جُدعان، أنه كان في شبابه فاتكاً، لا زال يجني الجنايات، فيتحمَّلُ عنه أبوهُ ما يجني به على الآخرين، حتى مَلَّتْهُ عشيرتُه، فنفاهُ أبوهُ، وحلفَ لا يُؤْويه لما أثْقَلَهُ به من الغُرْم، وحَمَّلهُ من الدِّيَاتِ، وأعلن ذلك في عكاظ[3].

صفوةُ القولِ، أن الخَلْعَ من القبيلة، أو من حق الجِوار الذي تمنحُه القبيلةُ للعائذين بها، والمتحالفين معها، كان يتَّخِذُ شكلَ مرسومٍ قانونيّ، تُصدِرُه القبيلةُ، ولا يكون نافذاً في حقوق الغير، إلا بعد إعلانه في إذاعة العرب بسوق عكاظ، في مواسمها، ومواسم الحجّ الكبرى. وكان أولياءُ المخلوع ربما بعثوا في السوق مُنادياً، يُذيع هذا المرسومَ على قبائل العرب في منازلهم من عكاظ، وقد يكتبون به كتاباً يُعَلَّقُ في السوق، زيادةً في العَلانِيَة.

* * *

(١) المحبَّر: ١٩٥.

(٢) الأغاني: ٢٢/ ٦٣.

(٣) المفصَّل: ٤/ ٩٤ ـ ٩٥، وعجائب المخلوقات: ٣٢، (الأبشيهي ـ منشورات المتوسط ـ ١٩٨١ بيروت).

٢٠ـ تأمينُ الخَائفين وإغَاثَةُ المَلْهُوفين:

وكان الأشرافُ بعُكاظ يُؤَمِّنون الخائفين، ويُغيثون الملهوفين، ويُطعِمون الجَوْعَى، ولعلَّ أجملَ صوت كان يُسمع هنالك، صوتُ المُنادِينَ يَبْعثُهم سادَةُ القبائل وأشرافُها، يطوفون في السوق، يسألون: هل مِن راجلٍ مُتعَبٍ فَنَحْمِلَهُ؟ أو جائع فقير فنُطْعِمَهُ؟ أو خائفٍ فنُؤَمِّنَه ونُجِيرَهُ؟. ما أجملَ هذا النداء، وما أحْلَى وَقْعَهُ في أُذُنِ خائفٍ أو جائعٍ أو مُتْعَبٍ؟ وأين نحن اليومَ من أمثال تلك المروءةِ والشَّهامَةِ والنَّجْدَة!

ومن هذا القَبيل ما كان يَصْنعُه عامرُ بنُ الطفَيْل، فارسُ قومه، وأحَدُ سادات العرب في الجاهلية. فقد كان يأمُرُ مُنادِياً يطوفُ بعُكاظ أيامَ الموسم، ويُفتِّشُ عن الخائفينَ والمُعْوَزينَ والمُتعَبين[1]... ولم يكن ينتظرُ مَن يأتيه منهم مُستجيراً بل يبادرُ إلى البحث عنهم، ويُقَدِّمُ لهم الأَمْنَ، والطعامَ، والكسَاءَ، والمركُوبَ... ولمّا مات عامرُ بن الطُفيْل، أقام قومُه حولَ قبره أنصاباً، على أرضٍ مساحتُها مِيلٌ في ميل، وجعلوها حِمَىً، إذا لاذ بها خائفٌ أمِنَ وأُجير[2].

وجاء في أخبار الجاهلية أيضاً، أن الصَّعِقَ الكلابيَّ، وهو خُوَيْلدُ بنُ نُفَيْل، من بني عامر بن صَعْصَعَة، كان سَيِّداً، يُطعِم الناسَ بعُكاظ[3].

ولمَّا ضاقت بفارس العرب، الحارثِ بن ظالمٍ المُرِّيِّ، سُبُلُ الأمَان، واشتدَّ عليه طلبُ المَوْتُورين منه، أتَىٰ سوقَ عكاظ في الموسم، وقَصَدَ إلى مَضْرِبِ عبد الله بن جُدعان، فقام بين يَديْه، ونكَسَ رُمْحَهُ، إشارةً إلى طلبه

---

(١) الأعلام: ٣/ ٢٥٢، ومجمع الأمثال: ٢/ ٤٦.

(٢) الأغاني: ١٧/ ١٩، والمفصَّل: ٤/ ٣٦٢ ـ ٣٦٣.

(٣) جمهرة أنساب العرب: ٢٨٦.

الجِوارَ والحمايةَ، فقام ابنُ جُدْعان، ورفَعَ الرُّمْحَ، إشارةً إلى أنه قَبِلَ إجارتَهُ، فأَمِنَ الحارثُ في حِمَاهُ، ثم لبِثَ بمكَّةَ(١)، حتى اشتدَّ ملكُ الحيرة في طلبه، وكان أكثَرَ المَوْتُورينَ منه طَلباً له، فانطلق من مكّة يتنقَّلُ في أحْياءِ العرب مُسْتجيراً بهم(٢)، وقيل إنه لحق أخيراً بأحَدِ ملوك غسَّان في مشارف الشام(٣).

* * *

(٢١)ـ عُقوبَةُ الفِتْنَة:

جاء في أخبار الجاهلية، أن زُرْعَةَ، ابنَ الصَّعِقِ الكلابي(٤)، لقيَ النابغةَ الذبيانيَّ في سوق عكاظ، فذكرَ بالسُّوءِ بني أسَدٍ، حلفاءَ بني ذبيانَ قومِ النابغة، وأشار عليه أن ينصحَ لقَوْمِهِ بنَقْضِ حِلْفِهم. ولكن النابغة رأى في كلام زُرْعَةٍ فتنةً، فطردَهُ من مجلسه. ثم بلغَهُ بعد ذلك أن زُرْعَةَ يَتوعَّدُهُ، ويُهدِّدُهُ، فلم يجدْ لنفسه نُدْحَةً من عقاب زُرْعَة على فعلتِهِ، وكانت أقسى عقوبة يُنزِلُها به يومئذٍ، أن يقول فيه قصيدةً بسوق عكاظ، يفضحُ فيها أمْرهُ، ويَهْجُوهُ، ويُحذِّرَ الناسَ من فتنته، ويَحُضُّه على الانصياع إلى حُكم المجتمع. وحينما يَهجُو النابغةُ رَجُلاً مثلَ زُرعة، فهو لا يدفَعُ عن نفسه قَدْحاً، ولا ذَمّاً، وإنما يَرُدُّ واشِياً، أراد أن يُؤجِّجَ فتنةً بين الحُلَفَاءِ. فقد كان هذا النوعُ من الشِّعْر دفاعاً عن سياسةٍ اجتماعِيَّةٍ مُعيَّنَةٍ، وإن كان في ظاهره

---

(١) المحبَّر: ١٩٤ ـ ١٩٥، وأنساب الأشراف: ٤٢ ـ ٤٣، والمفصَّل: ٣٦٤/٤، والأغاني: ١١٩/١١.

(٢) الأعلام: ١٥٦/٢.

(٣) المفصَّل: ٢١١/٣، والأغاني: ١١١/١١.

(٤) هو زُرْعَة بن عمرو بن خُوَيْلد الصَّعِق، من بني كلاب، من عامر بن صعصعة.

يَسْتعينُ بالسُّخْرِيَةِ، والاسْتِخْفافِ، وبعضٍ من معاني الهجاءِ الشخصيّ. وبذلك قام النابغةُ في عكاظ، وأصدر حُكمَهُ على زُرْعة، فقال:

نُبِّئتُ زُرْعَةَ، والسَّفاهَةُ كاسْمِهَا ... يُهْدِي إليَّ غرائبَ الأَشعارِ
فحلفتُ يا زُرْعَ بنَ عمروٍ، أنني ... ممّا يشقُّ على العدُوِّ ضِرَاري
أرأيتَ يومَ عُكاظ، حين لقيتَني ... تحتَ العَجَاجِ، فما شَقَقْتَ غُباري
إنّا اقْتَسَمْنَا خُطَّتينا بيننا ... فحملتُ برَّةَ، واحْتَمَلْتَ فَجَارِ
فَلْتأتيَنْكَ قَصائدٌ، وَلَيَدْفَعَنْ ... جيشٌ إليكَ، قوادمَ الأكوارِ[1]...

ثم يُعدِّدُ النابغةُ لزُرْعَةٍ رجالَ قبيلته، وحُلفاءَهم، ويُذكِّرُهُ بقُوَّة بأْسِهم، ومَنَعَتِهم، مؤكِّداً له أنهم باقُونَ على اتحادهم، غير عابِئين بعَدُوِّهم[2]... وهكذا كانت عقوبةُ الوَاشِي، والسَّاعي في الفتنة، تشهيراً له في موسم عكاظ، يَرْدعُه عن غِيِّه، ويُحذِّرُ الناس من غَدْرِهِ.



(٢٢)ـ صُعْلوكٌ في عكاظ:

من الواضح أن موسمَ عكاظ كان يمكن أن يكون أطيبَ مناسبةٍ عند الصعاليك، للإغارة على أموال التجارِ، والأغنياء، سواء في بعض الطُرق المؤدِّية إلى السوق، أو في وسط الزحام ببطن السوق، لولا أمورٌ ثلاثةٌ ضَيَّعتْ هذه الفُرصَةَ منهم، **أوّلُها**: أن الموسمَ يقع في شهرٍ حرام يوضع فيه

(١) **السفاهة**: ضد الحلم، أو هي الحمق. **ضراري**: مسّي بأذى. **برّة**: إسم للبر أي الخير، **فَجَار**: إسم للفجور، أي حملتُ خُطةَ الخير وحملتَ أنت خطة الفجُور. **العجاج**: الغبار. **قوادم الأكوار**: مفردها قادمة الكور وهي مقدّمة الرحل.

(٢) النابغة الذبياني: ١٥٤ ـ ١٥٦، وشرح القصائد السبع: ١٤٧.

السلاح، **وثانيها**: أن طائفة الذَادَةِ المحرِّمين كانوا مُستعدِّين للدَّفْع عن الحرمات بالسلاح، **وثالثها**: أن الصعاليك أنفُسَهم، مع كثرةِ طالبيهم المَوْتُورين منهم، كانوا يستفيدون من حُرْمَةِ الشهر، ويحضرون السوق من غير أن يَخشَوْا بأساً، فما كان بوسْعِهم الاعتداءُ على أحَدٍ في حَرَم السوق، أو سَلْبُه شيئاً، ولكنهم اغتنموا فرصة الزحام هنالك، لانتقاء ضحايا هم من بين أحياء العرب، والإحاطةِ بما يملكونه من الأموال، ومعرفةِ المواضع التي يسكنونها من البوادي، وذلك ليرسموا خُطَطَهم فيما بعد للإغارة عليهم، حينما يعودون من الأسواق إلى منازلهم، وتنقضي الأشهُر الحرُم. . .

وفي أخبار **السُّلَيْكِ بنِ سُلَكَة السَّعْديّ**، وهو من كبار الصعاليك، أنه خرج في الشهر الحرام، حتى أتىٰ سوقَ عكاظ. فلما اجتمع الناسُ، وتدافعوا في السوق، أَلْقَىٰ سِلاحَهُ، وخرج يَتكلَّفُ الوقارَ والمَهابَةَ، وجعل يطوفُ بين الناس، ويسأل: مَن يَصِفُ لي منازِلَ قومه، وأَصِفُ له منازِلَ قومي؟ ويبدو أن ذلك كان عادةً مألوفةً في المواسم، اعْتَادَها فِتْيانُ القبائل، في المجامع العامَّة، ولعلَّها للتعارُف أو التفاخُر. وظلَّ السُّلَيْكُ على ذلك السؤال، مُتظاهراً بالفَضْل في القَدْرِ والمنزلة، حتى اقْتَرَبَ من فَتى، توسَّمَ فيه بساطةَ الفِطرة، فبادَرَهُ الفتى إلى الكلام فقال له: أنا أفعلُ ذلك. . . أنا قيسُ بنُ المكْشُوحِ[1]. . . فتواقفا، وتعاهدا أَلاَّ يكذبا، وطفق كلٌّ منهما يصفُ للآخَرِ منازلَ قومه، فقال قيسٌ: خُذْ بين مَهَبِّ ريح الجنوب، وريح الصَّبا[2]، ثم سِرْ أربعَ ليالٍ، حتى تبدو لك رَمْلَةٌ وقَفَ بينها الطريقُ، فهنالك منزلُ قومي، ومَضاربُ خِيَامِهم. . . فقال السُّلَيْك، وذكر له اسماً آخَرَ غيرَ إسمه الحقيقي:

---

(١) قيس بن المكشوح: هو قيس بن هبيرة المكشوح ابن هلال البَجَليّ، وكان حليفاً لبني مُراد فنُسِبَ إليهم. كان فارس قبيلته في الجاهلية، أدرك الإسلام فأسْلَم، وشارك في الفتوح.

(٢) أراد أن الطريق إلى منزل قومه بين الجنوب والشرق، فريح الصَّبا تهبُّ من الشرق.

خُذْ بين مطلع سُهَيْلٍ ويَدِ الجوزاءِ اليُسْرى، فثَمَّ منازِلُ قومي بني سعد بن زيد مناة. . .

ولا شك في أن السُّلَيْكَ كان كاذباً في وصْفِهِ، وأنه فعل ذلك ليعرفَ منازل قوم قيس، لِيَضَعَ خطَّتَهُ فيما بعد للإغارة عليهم. ثم انطلق قيسٌ بعدئذٍ إلى أهله، فأنْبَأَهم بما كان بينه وبين السُّلَيْك، فقال له أبوه، وكان خبيراً بأساليب الصعاليك وحِيَلهم: ثَكِلَتْكَ أُمُّك! هل تدري مَن لقيتَ؟ قال قيس: نعم، لقيتُ رجُلاً فُضُلا، وصَفَ لي نَفْسَه ومنازِلَ قومه، فكأنما أراه خارجاً من أهله بعَيْنيَّ. . . فقال له أبوه: هو واللَّهِ السُّلَيْكُ بنُ سعد، وهذه إحدىٰ حِيَلِه. . . ويقال إن السُّلَيْكَ اسْتنفَرَ أصحابَه بعد ذلك، ووضع خطَّتَهُ موضعَ التنفيذ، فأصاب من القوم غِرَّةً، فأغار عليهم، وغنم من أموالهم ونعمهم، ثم انصرف[1].

* * *

(٢٣)ـ أوْسِمَة عكاظ:

ذكر الطبريُّ في رواية مُسْندةٍ إلى أبي بكر الهُذَليّ أنه قال: سِرتُ مع أمير المؤمنين المنصور إلى مكة، فعَرَضَ لنا رجلٌ على ناقةٍ حمراء، وعليه جُبَّةُ خَزٍّ، وعمامةٌ عَدَنيَّةٌ، وفي يَدِهِ سَوْطٌ يكاد يمسُّ الأرضَ، سَرِيُّ الهيْأَة، فلما رآه المنصورُ، أَمَرني أن أدْعوهُ، فدَعوْتُه له، فجاء، فسأله عن نَسبِهِ وبلاده وبادِيَةِ قومه، فأحْسَن الجوابَ، وأعْجبَ أميرَ المؤمنين، فقال له: أنْشِدْني مما تحفظ من الشِّعْر، وحَدِّثْني! فأنشدَهُ وحدَّثَهُ، حتى أتى على شعرٍ لطريف بن تميم العنبريّ، أحَدِ فُرْسَانِ بني تميم في الجاهلية، قال فيه:

---

(١) الأغاني: ٢٠/٣٤٦، ٣٥٠.

إنّ قَنــاتــي لَنَبْــعٌ لا يُــؤَيِّسُهــا غَمْزُ الثِّقَاف ولا دُهْنٌ ولا نارُ[1]
متى أُجِرْ خائفاً، تأمَنْ مَسَارِحُهُ وإن أُخِفْ آمِناً، تَقْلَقْ به الدارُ
إنّ الأمورَ إذا أوْردتُها، صَدَرت إنّ الأمــورَ لهــا وِرْدٌ وإصْــدارُ

فقال: ويْحَك! وما كان طريفٌ فيكم حتى قال هذا الشعرَ؟ قال: كان أثْقَلَ العرب على عَدُوِّهِ وَطْأةً، وأَدْرَكَهم بثأر، وأيْمَنَهم نَقِيبةً، وأصْلَبَهم قناةً لمن رامَ هضْمَهُ، وأَقْرَاهم لِضَيفٍ، وأحْوَطَهم من وراءِ جارِهِ، اجتمعتِ العربُ بعُكاظ، فكلُّهم أَقَرَّ له بهذه الخِلال. فقال المنصور: يا أخا بني تميم، لقد أحسنتَ إذ وصفتَ صاحِبَك، ولكني أحقُّ بأبياته منه، فأنا الذي وصف، لا هو[2]!

ويبدو أن المنصور غَبَطَهُ، وتمنَّى لو تجتمع العربُ بعُكاظ وتُقِرُّ له بمثل هذه الخِلال، لأن من تعترف له مجامعُ العرب بعكاظ بخِلالٍ، لا يقدر أن ينزعها منه أحَدٌ، فكأنها مَنَحتْه أَوْسِمةً تظلُّ خالدةً على مَرِّ الزمن.

* * *

(٢٤) ـ مُلْقِي القِنَاع:

كان من عادة فرسان العرب التقنُّعُ في المواسم والجموع، وفي أسواق العرب، كأيام عكاظ ومجنَّة وذي المجاز، وما أشبه ذلك، إلا ما كان من طريف بن تميم العَنْبريّ، فارس بني عمرو بن تميم في الجاهلية، فإنه كان لا

---

(١) القناة: الرمح أو العود، جمع: قناً. النبع: واحدته النبعة. وهي شجرٌ تتخذ منه السهام والقسيُّ. يقال: «ما رأيتُ أصلبَ منه نبعاً» أي أشد منه. غمز: القناة جسها ليختبرها أو ليقوِّمها. الثقاف: آلةٌ تثقف بها الرماح. ثقف الرمح: قوَّمه وسوَّاه.
(٢) تاريخ الطبري: ٨/ ٦٩ ـ ٧٠.

يتقنَّعُ، وكان يُسَمَّىٰ: «مُلْقي القِناع»، لأنه أوَّلُ من ألْقَى القناعَ بعُكاظ، غيرَ مُبالٍ أن يُثْبِتَ عَيْنَه جميعُ فرسان العرب، وكانوا يكرهون أن يُعْرَفوا، فلا يكون لأعدائهم هَمٌّ غيرهم.

ولمَّا وافَى طريفٌ عُكاظاً في أحد مواسمها، وكان قد قتل شَراحيلَ الشيبانيَّ، فارسَ بني ذُهْل بن شيبان، جاء حَمَصِيصَةُ بنُ جندل الشيباني[1]، وكان شابّاً، قويّاً، شجاعاً، وشاعِراً من فصحاء الشعراء في الجاهلية، فقال: أَرُوني طريفاً! فأرَوْهُ إياهُ، فجعل كلما مرَّ به ينظر إليه، ويتأمَّلُه، فسأله طريفٌ: لم تَشُدُّ نَظَرَكَ إليَّ؟ فقال: أريد أن أُثْبِتَك[2]، لعلِّي أَلْقاكَ في جيشٍ فأقْتُلَكَ! فدَعا طريفٌ: اللهمَّ لا تُحِلِ الحَوْلَ حتى ألقاهُ، ودعا حَمَصِيصَةُ مثلَهُ، فقال طريف:

أَوَ كلَّمـا وردت عكـاظَ قبيلـةٌ ... بعثـوا إلـيَّ عـريفَهـم يتـوسَّـمُ[3]
فتـوسَّمـونـي، إننـي أنـا ذاكُـمُ ... شاكٍ سلاحي في الحوادث مُعْلِمُ[4]
تحتـي الأغـرُّ وفـوق جلـدي نَثْـرةٌ ... زَغْـفٌ تـردُّ السيـفَ وهـو مُثَلَّـمُ[5]

ثم قُتِل طريفٌ بعد ذلك في معركةٍ، كانت الغَلَبَةُ فيها لبني شيبان على

---

(١) **الحَمصِيصَة**: بَقْلةٌ طيِّبةُ الطعم، رَمْليَّة، حامِضَةٌ، تُجعَلُ في الأقِط وتُؤكل معه.
(٢) **أثْبَتَهُ**: نظر إليه ليعرفَه حقَّ المعرفة.
(٣) **يتوسَّم**: يتفرَّس ويطلب الوسم وهو العلامة.
(٤) **شاك سلاحي**: تامُّ السلاح. **المُعْلِم**: الذي شهر نفسه في الحرب بعلامة يُعرف بها. وكان هذا شأن الفرسان. وكان حمزة بن عبد المطلب يوم بدر مُعْلماً نفسه بريشة نعامة حمراء. وكان الزبير بن العوام يُعْلم نفسه بعمامة صفراء.
(٥) **الأغرُّ**: اسم فرسه. **النثرة**: الدرع الجيدة النسج. **زغفٌ**: واسعة لينة.

بني تميم، في يوم مُبَايض، فقد حَمل عليه حَمَصِيصَةُ يومئذٍ حتى قتله[1].

ويبدو أن التقنُّعَ، في المواسم والمجامع العامَّة، لم يكن حَذَرَ الغَدرِ أو الثأر وحسب، بل كان أحياناً خوفاً من الأَسْر، ثم المُغَالاةِ في طلب الفِدْيَة، كما يحدثُ اليوم في عصرنا من جرائم الخطفِ والمُغَالاة في قيمة الفداء.

* * *

(٢٥)ـ مُلاعَنَةٌ في عكاظ:

الْتَقَىٰ بعكاظ في أحد مواسمها، قَعْنَبُ بنُ عَتَّابٍ اليربوعيُّ فارسُ تميم، بُجَيْراً بنَ عبد الله العامريَّ فارسَ قيس، والناسُ مُتَواقِفُون، فقال بُجَيْرٌ: يا قعنبُ، ما فَعَلتِ البيضاءُ فَرَسُكَ؟ قال قعنب: هي عندي. قال: فكيف شُكْرُكَ لها؟ قال: وما عَسَيْتُ أن أشكُرَها به؟ قال: وكيف لا تشكرُها وقد نَجَّتْكَ مني! فأنكر ذلك قعنب، فتَلاعَنا، وتَداعَيا أن يَلعنَ اللَّهُ الكاذبَ، ويجعلَ مِيتَتَهُ على يد الصادق. ثم نَذَر قعنبُ أن لا يرى بُجَيراً بعد هذا الموقف، إلا قتله، أو مات دون ذلك.

ثم إن بُجَيْراً أغار بقومه يوماً على بني العنبر من تميم، وهم خُلوفٌ، أي أن الرجال لم يكونوا في المنازل، فاسْتاق السَّبْيَ والنَّعَمَ، فأتَى الصَّرِيخُ بني العنبر وإخوانَهم بني عمرو وبني حنظلة، فركبوا في أَثَرهم حتى أدركوهم، فقاتلوهم، ولَحِقَ قعنب بُجَيراً فطعنه، فأَرْدَاهُ عن فرسه وقتله، وانهزم بنو عامر قومُ بُجَيْر، واسْتَنْقَذَ بنو تميم أمْوالَهم وسَبْيَهم[2].

---

(١) البيان والتبيين: ٣/٦٩، وتاريخ اليعقوبي: ١/ ٢٧١، والأصمعي ـ الأصمعيات: ١٢٧، والكامل في التاريخ: ١/ ٦٠٢، والعقد الفريد: ٥/ ٢٠٨ ـ ٢٠٩، وتاج العروس: ١٧/ ٥٣٢.

(٢) الكامل في التاريخ: ١/ ٦٣١ ـ ٦٣٢، والعقد الفريد ٥/ ١٧٩، ومعجم البلدان: ٥/ ١١١، وأيام العرب في الجاهلية: ٣٧٥ ـ ٣٧٦.

(٢٦) ـ القِنَاعُ في عكاظ:

لم يكن فرسانُ العرب فقط مَن يُخْفُون وجوههم وراءَ الأَقْنعة، وإنما كان الرجال المشهورون بالجمال، إذا وردوا المواسمَ، يُؤْمَرو أيضاً بالقِنَاع، مَخافَةَ فتنةِ النساء بهم، وكان منهم سُنَيْعُ الطُّهَوِيُّ، وهو أحدُ المشهورين بالجمال من بني طُهَيَّة، وهم حيٌّ من تميم[1]... وكان بعضُهم يتَقنَّعُ خوفاً من الحسَدِ، والإصابةِ بالعَيْن! ويُعَدُّ من هؤلاء: المُقَنَّعُ الكِنْديُّ، محمدُ بنُ عُمير، وكان من أجمل الناس وجهاً، وأمَدِّهم قامةً، وأكملهم خلقاً، فكان إذا كشف عن وجهه أصابتْهُ العينُ، ولحقه مرضٌ وعَنَتٌ. ومثلُه: وَضَّاحُ اليمن، عبدُ الرحمن بنُ إسماعيلَ الحِمْيَريُّ، وأبو زبيدٍ الطائيُّ، حَرْمَلَةُ بنُ المنذر... وكان هؤلاء، كما ذكر الأصفهاني: «يَرِدُون مواسِمَ العرب مُقنَّعين، يَسْتُرون وجوههم خوفاً من العين، وحَذَراً على أنفسهم من النساء، لجمالهم...»[2]. وربما تقنَّع بعضُهم في المجامع العامَّة، جرياً على عادة الأشراف في اتّخاذ القناع، لأنه أهْيبُ في الصدور، وأجَلُّ في العيون، وهو من سِيماء الرؤساء[3]. ومن النساء مَن كُنَّ يأتين عكاظاً مُتبرقعات، خوفاً من تعرُّضِ الشبَّان لهنَّ بما يُؤْذيهنَّ. وكنتُ ذكرتُ في وقائع الفِجَار بعكاظ، أن إحداها وقعتْ لمّا تحلَّق فِتْيةٌ من قريش حول فتاة من بني عامر، وأرادوها أن تَنْزِعَ بُرْقعَها وتُسْفِرَ عن وجهها، فأبَتْ، فشَدُّوا ذَيْلَ ثوبها بشوْكةٍ إلى ظهرها، فما كادت تقومُ حتى انكشف ثوبُها عن جَسَدِها وعَوْرَتها، فاستغاثتْ بقومها، فاشْتَجروا مع قريش ثم اصطلحوا.

* * *

(١) لسان العرب: ٨/ ١٦٨ (سنع)، و ١٥/ ١٧ (طهو)، والمحبَّر: ٢٣٢.

(٢) الأغاني: ٦/ ٩٨ ـ ١٩٩، والشعر والشعراء: ٣٠١، ٣٠٥، والبيان والتبيين: ١/ ١٥٥.

(٣) البيان والتبيين: ٣/ ٧٠.

٢٧ - إطلاقُ الألْقاب:

وكانوا في مجامع عكاظ، إذا وقع أمرٌ له شَأنٌ، فأُطْلِقَ فيه لَقَبٌ على أحدٍ، جَرىٰ له هذا اللقبُ مَجْرى اسْمِهِ الأَصْليّ... فقد قاتل أبو ربيعة بن المُغِيرَة المخزوميُّ[١]، برُمْحَيْنِ في معركة شَرِبٍ بعُكاظ، فسُمِّيَ «ذا الرُّمْحَيْن»، وصار يُعرفُ بهذا اللقب بقيَّةَ حياته[٢]... وثَبَتَ أبناءُ أُميَّة بن عبد شمس السِّتَّةُ، مع أبيهم في معركة عكاظ، وعَقَلُوا أنفُسَهم، وقاتلوا قتالاً شديداً، فشُبِّهُوا بالأُسْدِ، وسمَّاهُم الناسُ يومئذٍ «العَنَابِسَ»، والعُنْبُسُ: الأَسَدُ، وهم حربٌ، وأبو حربٍ، وسفيانُ، وأبو سفيان، وعمرو، وأبو عمرو[٣]... وكان خُوَيْلدُ بنُ نُفَيْلٍ الكلابيُّ سيِّداً يُطْعِمُ الناسَ بعُكاظ، وقد صَنَعَ طعاماً للناس في أحد المواسم، فهبَّتْ ريحٌ بغُبَارٍ، وألْقَتْهُ في الطعام، فسَبَّها، ولعَنَها! وقيل إن صاعِقَةً يومئذٍ أصابته، فصُعِقَ بها، فسُمِّي «الصَّعِقَ»، فجرى له هذا اللقب مَجْرىٰ الإسم، وعُرِفَ به أبناؤه أيضاً، ومنهم زُرْعَةُ بن الصَّعِق، ويزيدُ بن الصَّعِق، وهما حفيدا خُوَيْلد الصَّعِق من ابنه عمرو[٤].

* * *

---

(١) أبو ربيعة بن المغيرة: عمرو بنُ المُغِيرة بن عبد الله، من بني مخزوم، من قريش. كان سيِّداً، شريفاً، موسراً، وكان يكسو الكعبة وحدهُ سنةً، وجميعُ قريش سنةً. وهو والد عبد الله بن أبي ربيعة الذي بعثت به قريشٌ مع عمرو بن العاص وعمارةِ بنِ الوليد، إلى الحبشة بعد هجرة المسلمين إليها.

(٢) العقد الفريد: ٥/٢٥٨، ولسان العرب: ٢/ ٤٥٤ (رمح)، والأغاني: ١/ ٧١.

(٣) الأغاني: ١/٢٦، والكامل: ١/ ٥٩٤.

(٤) الأصمعيَّات: ١٤٤، وجمهرة أنساب العرب: ٢٨٦.

(٢٨) ـ أخذ عار الدَّهرِ بثَوْبَيْن:

جاء في قِصَّة المثَلِ العربيّ الجاهليّ: «أخْسَرُ صَفْقةً من شيخ مَهْوٍ»، أن بني مَهْو بطنٌ من قبيلة عبد القيس، وأن الشيخَ هو عبدُ الله بنُ بَيْدَرة، من بني مَهْوٍ، وفي أخبار عكاظ، أن قبيلة إيَادٍ كانت تُعَيَّر بالفَسْوِ[1]، وتُسَبُّ به. وربما كان ذلك ناشِئاً، كالعادة عند العرب، من هجاء شاعرٍ لأَحَدِ بني إيَاد، فصارتِ القبيلةُ كلُّها في ذلك سواء. فقام رجُلٌ من إيَاد في موسم عكاظ، ومعه بُرْدَا حَبَرَةٍ[2]، ونادى: يا قومُ، ألاَ إني من إيَاد، فمن يأخذُ عارَ الفَسْوِ منا ببُرْدَيَّ هذين؟... فقام عبدُ الله بنُ بَيْدَرة، وقال: أنا أفعلُ، فهاتِهما! فأخَذَهما، فاتَّزَرَ بأحدهما، وارْتَدَىٰ الآخَر. وأَشْهَدَ الإيَادِيُّ عليه أهل عكاظٍ، بأنه أخَذَ من إيَادٍ لعبد القيس عارَ الفَسْوِ بِذَيْنَكَ البُرْدَيْنِ، فشَهِدوا على ذلك!. ولمَّا رجعَ عبدُ الله إلى قومه، سُئِل عن البُرْدَيْن، فقال: أخذتُ لكم بهما عارَ الدَّهر! وفي هذا يقول شاعِرُ عبدِ القيس:

إنّ الفُسَــــاةَ قبلَنَــــا إيَــــادُ   ونحــن لا نَفْسُــو، ولا نكــادُ

وذكر أحَدُ الشعراء هذه الحكاية، فقال:

يا مَن رأى كصَفْقَةِ ابن بَيْدَرَهْ   مـن صفقـةٍ خـاسِرَةٍ ومُخْسِـرَهْ
المشتري العارَ بِبُرديْ حَبَرَهْ   شُلَّتْ يمينُ صافِقٍ ما أَخْسَرَهْ

وقد تفرَّقَتِ العربُ يومئذٍ، وعلى لسانهم هذا المثَلُ: «أخْسَرُ صَفْقَةً من

---

(١) كانت العربُ تهجو من يَفْسُو، وتُعَيِّرُ به، خلافاً للإنكليز! وقديماً قال الشاعر يهجو مُنافقاً:

لا تُسَبِّــحْ فمــا عليــكَ جُنَــاحٌ   جَعَــلَ اللّــهُ بيــن فكَّيْـكَ دُبْـرا
أنــتَ تَفسُــو إذا نطقــتَ ومَــن سَبَّـ   ـحَ بـالفَسْـوِ نـال إثمـاً ووِزْرا

(٢) الحَبَرَةُ: ج حَبَرات، نوعٌ من ثياب اليمن مُوَشَّىً ومُنَمَّرٌ.

شيخ مَهْو. . . »[1].

* * *

(٢٩) ـ المُصَارَعَة والفُروسيَّة:

ولا شك في أن سوق عكاظ كانت تَشْهدُ في بعض جوانبها، كثيراً من أَنْشِطـةِ الـريـاضـةِ البـدنيَّـةِ، كـالمصـارعـة، ورُكـوبِ الخيْـل، ومُبـارَزاتِ الفُرْسَان. . . ويبدو أن مواسمها كانت عند العرب، كما قال العَلاَّمةُ الشيخُ عليٌّ الطنطاويُّ، أعياداً «للفنِّ والرياضة، يَحْتَشِدُ لها الناسُ، ويتَبارَىٰ فيها أرْبابُ اللَسَنِ والفصاحة، وأصحابُ القُوَّةِ والبراعَةِ، وربما صَحِبَ ذلك بيعٌ وشراء، وربحٌ وتجارةٌ، كأعْيادِ الأُلِمْپِيَادِ عند اليونان، وسُوقِ عكاظٍ عند العرب»[2].

وقد ذكر ابن سعد أن رجُلاً لَقِيَ راعياً، حينما أسْلَمَ عمر بنُ الخطاب، فقال له: أَعَلِمْتَ أن ذاك الأَعْسَر الأَيْسَرَ أسْلمَ؟ فقال: أَلّذي كان يُصارعُ في سوق عكاظ؟ قال: نعم! قال: أما واللَّهِ لَيُوسِعَنَّهم خيراً، أو لَيُوسِعَنَّهم شَرّاً[3].

وفي سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، ما يُؤكّدُ أنه كان، في الجاهلية، «يُصَارِعُ في المواسم، ويُسَابِقُ على الخيل، في عملٍ من أعمال الفُروسيَّة، والرياضة البدنيَّة»[4]، وكانوا يَشْهَدُون له بالغَلَبة في عُكاظ على

---

(١) مجمع الأمثال: ١/ ٣٥٠.

(٢) حديث العيد ـ مجلة المسلمون ـ المجلد الرابع/ العدد الثالث: ٢٤٠، (أيار ١٩٥٥).

(٣) الطبقات الكبرى: ٣/ ٣٢٥.

(٤) عباس محمود العقاد ـ عبقرية عمر: ٢١٦.

كلِّ أقْرانِهِ إذا صارعَهم[1]، فقد حَذِق من أوَّلِ فُتُوَّتِهِ المصارعةَ، وركوبَ الخيل، والفُروسيَّةَ، واعتاد غِشْيانَ عكاظ مُبكِّراً، يلعبُ مع أتْرابه، ويَزِعُ الصبيانَ بعَصَاهُ، وهو ما كان الناسُ لا يزالون يَذْكرونه له حتى صار أميراً للمؤمنين[2].

ومن شأن ما قَدَّمنا، في هذا الجانب، أن يُوضحَ ما كان يكونُ بعُكاظٍ في مواسمها من فنون الرياضة والفُروسيَّة، لم تتأخَّرْ في ذلك عن سائر المواسم العالميَّةِ الكبرى.

* * *

(٣٠) ـ الكشفُ بعكاظ عن قاتلٍ يُشْعِلُ حَرْباً:

كان زهيرُ بنُ جذيمةَ العَبْسِيُّ أميرَ بني عَبْسٍ في زمانه، ورئيسَ قبائلِ غَطَفان[3]، وقد كانت تُؤدِّي الإتاوةَ كلَّ سنةٍ إلى بعض ملوك اليمن، فخرجتْ في أيامه عليهم، واستقلَّتْ عنهم. وكانت هوازنُ[4]، في عِدادِ القبائل التي اعترفتْ بسيادة زهير عليها، وعَدَّتْهُ رَبّاً، فكانت تهابُه حتى العِبادة، ولم يكن معظمُها يومئذٍ أكثرَ من رُعَاةٍ في الجبال والبوادي، ولم يكن بنو عامر بن صَعْصَعَة قد كَثُروا فيها. وقيل إن زهيراً بلغ من السُّؤْدَدِ والشرف ما جعله كالمَلِك في تلك القبائل، فكانت تُخْرِجُ له من أموالها قدراً معلوماً، وتُؤَدِّيه إليه كلَّ سنةٍ، بعدما تُجْنَى الثمَارُ، وتُجْمَعُ الغَلاَّت... فإذا كان موسمُ

(١) الفاروق عمر لهيكل: ٣١، ٣٨.
(٢) أسواق العرب: ٢٨٤، وخالد محمد خالد ـ خلفاء الرسول: ١٤٨ ـ ١٤٩.
(٣) غطفان بن سعد: من قيس بن عيلان، وأشهر قبائلهم: عَبْسٌ وذُبْيان وفزارة...
(٤) هوازن بن منصور: من قيس بن عيلان، أشهر بطونها بنو عامر بن صعصعة، وجُشَم، ونصر، وثقيف.

عكاظ، أتاها زهيرٌ، وقَدِمَها الناسُ من كل وجه، فتأتيه هوازنُ فيها بالإتاوة التي كانت له في أعناقهم، وتُقَدِّمُ له السَّمْنَ والجُبْنَ والغَنَم وغيرها من الأموال. وقد أَتَتْهُ عجوزٌ من هوازِنَ، يوماً، بسَمْنٍ في نِحْيٍ[1]، واعتذرتْ إليه، واشْتَكتِ السنين التي تتابعت على الناس بالجدْبِ، فذاقَهُ، فلم يرضَ طَعْمَهُ، فدفَعها بقوْسٍ في صدرها، فاسْتَلقَتْ على قفاها، فبَدَتْ عَوْرَتُها، فغضبتْ منه هوازِنُ، وحقدتْ عليه، وكان في أنْفُسِهم منه غَيْظٌ لما كان يَسُومُهم به من الخُسْفِ والهوان، وكانت عامرُ بنُ صَعْصَعة قد كثُرتْ، فآلَىٰ خالدُ بن جعفر، سيِّدُ بني عامر، أن يجعلَهُ من شأنه حتى يقتلَهُ[2].

وفي حديث زهير بن جذيمة، أن أَحَدَ مُلوكِ الحيرة[3]، وقد علم بما بلغه من الشرفِ والسِّيَادة في قومه، تَزوَّجَ إليه إحدى بناته، وأرسلَ يَسْتَزيرُه بعضَ وَلدِهِ، فبعث إليه ابْنَهُ شَأْساً، وكان أَصْغَرَ أبنائه. فأكْرَمهُ الملكُ، وأَجْزَلَ له العطاءَ. ولما أحبَّ الانصرافَ، والرجوعَ إلى أهله، أَنْعَمَ عليه، وحَباهُ أفضلَ الحُبْوَةِ من المسك والطِيب والطنافِسِ، وكسَاهُ حُلَلاً فاخِرةً، وقُطُفاً ثمينةً، فيها قطيفةٌ حمراءُ، لها هُدْبٌ وخَمْلٌ، وكانت وقتئذٍ من حُلَلِ الملوك.

---

(١) النِحْيُ: الزِّقُّ، وهو ما كان للسَّمْن خاصةً.

(٢) أيام العرب: ٢٣٥ ـ ٢٣٦، والأغاني: ١١/ ٧٧ ـ ٧٨، والعقد الفريد: ٥/ ١٣٥، والمفضَّل: ٥/ ٣٥٧، و ٤/ ٥٠٨ ـ ٥٠٩، ٥١٦، ٦٥٢، والمحبَّر: ٢٤٨، والأعلام: ٣/ ٥١.

(٣) ذهب الرواةُ إلى أنه النعمانُ الأول بن امرىء القيس (٤٠٣ ـ ٤٣١ م)، ولكنني أرى عصرهُ أقدمَ من زمن زهير بن جذيمة، الذي أُرجِّحُ أنه كان نحو (٤٧٥ ـ ٥٥٠)، لأن في الخبر أحداثاً، وقعت في أيام ملوكٍ للحيرة، اختلف الرواةُ فيمن كانوا، وتبين لي بالبحث أن هذه الواقعة ربما كانت في عصر المنذر بن ماء السماء (٥١٤ ـ ٥٢٥ و ٥٣١ ـ ٥٥٤ م)، واستمرت أحداثها بعد ذلك في أيام خلفائه، حتى وصلت إلى أبي قابوس النعمان بن المنذر (٥٨٣ ـ ٦٠٤ م)، على ما ذكرهُ الرواةُ من دَوْرٍ لهذا الملك في أحداث الخبر.

ولمَّا كان شأسٌ في بعض الطريق، أَناخَ ناقَتَه في الظهيرة ليستريح، على مَقْرُبةٍ من نبعِ ماءٍ لبني عامر، يقعُ في جواره مَسْكِنُ رياح بن الأَشَلِّ، من بني غَنِيٍّ بنِ أَعْصُر[١]. ثم خلع شأسٌ ثيَابَهُ، وجَعَلَ يغتسِلُ، وامرأةُ رياح غير بعيد منه تنظرُ إليه، فغضب رِيَاحٌ، وصاح به: وَيْحَكَ اسْتَتِرْ، فالبُيوتُ بين يَدَيْك! فلم يحفل به شأسٌ، فرماهُ رِيَاحٌ بسهمٍ في صُلْبِهِ فقتله... ثم اسْتَلبَ مالَهُ ومَتَاعَهُ، ونَحَرَ ناقته، وغَيَّبَ كلَّ أثَرٍ له.

بلغ زهيراً أن ابْنَهُ أقبل من عندِ الملك، منذ مُدَّةٍ غير قصيرة، وأن آخِرَ العهد به كان بالقُرْب من بُيوتٍ لبني غَنِيّ، ثم فُقِدَ أَثَرُهُ، فركبُوا إلى الملك، وسألوه عن حاله، فقال: حَبَوْتُه وسَرَّحْتُه، فقالوا: وما مَتَّعْتَهُ به؟ قال: طِيبٌ ومِسْكٌ وحُلَلٌ وقُطُفٌ، فرجعوا يَقُصُّونَ أثَرَهُ[٢]، فلم تَتَّضِحْ لهم سبيلُه، ولم يَعْثُرْ عليه أحَدٌ. ولم يَدُرْ في خَلَدِ زهير أن يكون قاتلُ ابْنِهِ من بني غَنِيّ، وهم من قبائل قيس بن عَيْلان، حتى جاء موسمُ عكاظ، فشُوهِدتِ امرأةٌ تَعْرِضُ فيه للبيع قُطُفاً فاخِرةً، بينها قطيفةٌ حمراءُ، وأشياءُ أُخَر... وكانوا يعرفون أن هذه الأمتعةَ لا تكونُ إلا من هدايا الملوك، فارْتابُوا في أمرها، حتى تَحقَّقُوا أنها كانت لشَأْسِ بن زهير من حباء الملك، وأن المرأة زوجةٌ لِرِيَاح بن الأَشَلِّ، فعلموا أن رياحاً صاحبُ ثأرهم.

غضب زهير، وغضبتْ معه قبيلةُ عَبْس، ولمَّا انقَضَتِ الأشهُرُ الحُرُم، جعلوا يُغِيرونَ على بني غَنِيٍّ، ويُمْعِنُون فيهم قَتْلاً، ثأراً وانتقاماً، قبل أن يطلبوا قَوَداً أو دِيَةً... فاستعانت بنو غَنِيٍّ بحلفائهم من بني عامر بن صَعْصَعة، وهم بطنٌ من هوازِنَ، مِمَّن كانوا يَسْخطون على زهير لما كان

---

(١) غنِيُّ بن أَعْصُر: بطنٌ من قيس بن عيلان. كانت منازلُهم بنَجْد وجوار طيِّىء.
(٢) قَصَّ: أثَرَهُ، أي تَتَبَّعَهُ شيئاً فشيئاً.

يَسُومُهم من الخُسْفِ والذُّلّ، فاتَّسَعَتِ الحربُ، وامْتدَّ نِطَاقُها. . .

وفي السنة التالية، وحينما أَزِفَ موسمُ عكاظ، خرج زهيرٌ في أهل بيته إلى عكاظ، كعادته في كل سنة، فالتقَى هنالك خالدَ بن جعفر، سيِّدَ هوازن، من بني عامر صعصعة، وكان رياحُ بنُ الأَشَلّ جَدَّهُ لأمه[1]، أو من بعض أخواله، فقال له خالد: لقد طال شَرُّنا منك يا زهير، فكُفَّهُ عنا! فقال زهير: أمَا واللّهِ ما دامت لي قُوَّةٌ أُدْرِكُ بها ثأراً، فلن أكُفَّ. . . فانصرف خالد إلى قومه، وحرَّضَهم على زهير، والخلاصِ منه، وأمَرهم بالاستعدادِ وجَمْعِ الجموعِ لحربه. ولمَّا انفضَّ موسمُ عكاظ، وانْصَرمتِ الأشهُر الحرُم، سار زهيرٌ حتى نزل بقومه مَوْضعاً قريباً من بلاد هوازن، فحذَّرَهُ ابنُهُ قيس من ذلك الموضع قائلاً: أَنْجُ بنا من هذه الأرض، فإنّا قريبٌ من عدوِّنا! فقال له: ما الذي تُخَوِّفُني به من هوازن؟ أنا أعْلَمُ الناس بها. . . وكان خالد يَتَجسَّسُ أخبار زهير، فلما علم بمكانه، ركبَ إليه في جَمْعٍ من بني عامر، فاقْتَتَل الفريقان، وكان زهيرٌ شيخاً قد أَسَنَّ وضَعُفَ، فتمكَّن خالدٌ منه، وأَوْقَعهُ أرضاً، وخَرَّ فوقهُ يَعْتنقُه، فجاء فارسٌ آخَرُ معه، وضرب رأسَهُ بالسيف، فقُتِل. وسُمِّي ذلك اليومُ يومَ النَّفْرَاوَاتِ[2].

* * *

ثارتْ عَبْسٌ وذُبْيانُ وجميعُ غطفانَ لمقتل سيِّدها، وتنادَتْ لِلأَخْذِ

---

(١) جمهرة أنساب العرب: ٢٨٤.

(٢) الكامل: ١/٥٥٦ ـ ٥٥٨، والأغاني: ١١/ ٧٠ ـ ٨٨، والعقد الفريد: ٥/ ١٣٣، ١٣٤، ١٣٦، وأيـام العـرب: ٢٣٥ ـ ٢٣٩، والمفضَّـل: ٣/٢١٣، و ٤/٢٥٢، و ٥/٣٥٨، والعرب قبل الإسلام: ٣١٧ ـ ٣١٨. **والنفراوات**: موضعٌ بنَجْدٍ لعلّه في ناحية من نواحي سهل ركبة.

بثأره، فخاف خالدٌ على نفسه القتلَ، ومكث على ذلك بُرْهةً من دَهْرِهِ[1]، ثم قَصَدَ الحيرةَ، واسْتَجار بملكها، فأجارَهُ، وأنْزَلَهُ في قُبَّةٍ بجواره... فتَعهَّدَ الحارثُ بن ظالم المُرِّيُّ بعدئذٍ لبني زهير بقتل خالد، على أن تكُفَّ غَطَفانُ عن حرب هوازن. وكان خالدٌ استحقَّ عداوةَ الحارث، لأنه أغَارَ على رَهْطِهِ بني مُرَّةَ بنِ عَوْفٍ، من ذبيان، فأصابتْ أباهُ في الغارة جِرَاحٌ، هَلَكَ منها، والحارثُ يومئذٍ غلام.

فسار الحارثُ في أثَرِ خالد، حتى أدْرَكَهُ بالحيرة وهو في جِوَار الملك، فجرى بينهما حِوَارٌ قال فيه خالد: أتُنَازِعُني يا حارثُ وقد قتلتُ حاضِرَتَك، وتركتُك يتيماً في حُجُورِ النساء! فقال الحارثُ: ذلك يومٌ لم أشْهَدْهُ، وأنا اليومَ مُغْنٍ بمكاني... قال خالد: فَهَلَّا تشكرُ لي إذ قتلتُ زهير بنَ جذيمة، وجعلتُك سيِّد غطفان؟ قال: بلى، سوف أشكرك على ذلك! ثم خرج الحارثُ، ولمَّا هبط الليلُ، تسَلَّلَ إلى خيمة خالد، وقتله غيرَ مُبالٍ بحُرْمة الملك، فأصبح بين فريقين يطلبانه للثأر منه، ملك الحيرة يطلبه ليقتلهُ بجاره، وهوازنُ تطلبه لِتَقتلَهُ بسيِّدها، فانطلق هارباً، وتنقَّل في عدد من أحياء العرب، مُسْتجيراً بهم. ولمَّا أجارَهُ بنو دارمٍ، أرسل الملكُ لقتالهم، فاستعدُّوا له، وانضمَّ إليهم قيسُ بن زهير في جمع من بني عَبْس، وذبيان، فانضمَّ إلى أنصار الملك أحْياءٌ من هوازن، والْتَقَى الجَمْعانِ بوادي رَحْرَحَان، قربَ عكاظ، ودار القتالُ بينهما شديداً، فانهزم أنصار الملك ومعهم بنو هوازن، وسُمِّي ذلك اليومُ يومَ رَحْرَحَان[2].

---

(١) البرهة: المدَّةُ الطويلة.

(٢) الأغاني: ١١/٨٩ ـ ١٠٧، والعقد الفريد: ٥/١٣٩ ـ ١٤٠، والمحبَّر: ١٩٢ ـ ١٩٣، ومجمع الأمثال: ٢/٤٩، ٣٤٠، والكامل: ١/٥٥٩ ـ ٥٦٠، وأيام العرب: ٢٤٢ ـ ٢٤٤، والعرب قبل الإسلام: ٣١٦ ـ ٣١٩.

ثم قيل للملك: إنك لن تُصِيبَهُ بِمُصَابٍ أشَدَّ عليه من سَبْيِ جاراتٍ له، فبعث الملكُ في طلبِهنَّ، فاسْتاقَهُنَّ وأموالَهُنَّ. فعلم الحارثُ بالأمر، فكَرَّ راجعاً من وَجْهِ مَهْرَبِه، وطَفِق يبحثُ عن مَوْضِعهنَّ حتى دُلَّ عليه، فأتاهُنَّ، واسْتَنْقَذَهُنَّ، وألْحَقَهُنَّ بقَوْمِهِنَّ[1]. ثم مضىٰ إلى باديةٍ يُرَبَّىٰ فيها ولدٌ للملك، اختلف الرواةُ في اسْمِهِ، فاحتال حتى قَتَلَهُ[2]... وانطلق هارباً، يطوفُ في البلاد حتى أتى مَشَارِفَ الشام، فاسْتَجارَ بأحَدِ ملوك بني غسَّان[3]، فأجارَهُ، وأكْرَمهُ. وكانت للملك ناقةٌ، عليها علامةُ حمايةِ الملكِ لها، فلا يَقْرَبُها أحدٌ. فوَحِمتِ امْرأَةُ الحارثِ، واشْتَهَتْ في وَحَمِهَا شحماً ولحماً، فعَمَد الحارثُ إلى تلك الناقة، فنَحَرَها، وحَمَل إلى امرأته من لحمِها وشَحْمها ما أرادت... ثم فُقِدَتِ الناقةُ، فأرسل الملكُ إلى «الخِمْسِ التغلبيّ»، وكان كاهِناً يُسْأَلُ عن المُغَيَّباتِ، فسأله عن الناقة، فأخبره بأن الحارثَ هو صاحِبُها! فَهَمَّ به الملكُ، ثم تَذَمَّمَ من ذلك، فلم يفعلْ به شيئاً، فأوْجَسَ الحارثُ في نفسه شرّاً، وقيل إنه أَتَى الخِمْسَ ليلاً فقتلهُ، فما لبِثَ الملكُ حتى دعا به، وأمَرَ بقتْلِهِ، فقتَلَهُ ابنُ الخِمْسِ بثأر أبيه[4]... ولا أظنُّ الحارثَ كان ساذَجاً حتى يبقى قريباً من الملك، رُغْمَ قَتْلِهِ الخِمْسَ، والأَرْجَحُ عندي أنه انطلق وقتئذٍ إلى مكة، كما في بعض الروايات، ولحِق بأهلها، فأقام بينهم مُجاوِراً لهم، «حتى أتاهُ أمانُ ملكِ الحيرة، النعمانِ بن المنذر»[5]، فلما

---

(١) الأغاني: ١١/ ١٠١ ـ ١٠٢.

(٢) الكامل: ٥٦٢ ـ ٥٦٣.

(٣) قيل: إنه يزيد بن عمرو، توفي سنة (٦٠٨ م).

(٤) العقد الفريد: ٥/١٤٦ ـ ١٥٠، والأغاني: ١١/ ١١٢ ـ ١١٣، والكامل: ١/ ٥٦٥، والمفصَّل: ٣/ ٢١٠ ـ ٢١١.

(٥) أنساب الأشراف: ٤٣.

ذهب إليه، دعا به وأَمَرَ بقتله، فقال له: أيها الملكُ إنك قد آمَنْتَنِي، فلا تَغْدُرَنَّ بي! فقال: لا ضَيْرَ إن غدرتُ بك مَرَّةً، لقد غدرتَ أكثر، ثم أَمَرَ ابْنَ الخِمْسِ أن يقتلَهُ ثأراً لأبيه، فقتلهُ، وأخذَ سيفَه، وكان يُسمِّيه «المعْلوب»[1] فأتى به سوق عكاظ، وجعل يعْرِضُه للبيع، ويُنَادي: هذا المَعْلوبُ سيفُ الحارثِ بن ظالم[2]. . . ومن حقِّ ذلك السيفِ أن يُغَالَىٰ في ثَمنِهِ بعُكاظ، فصاحِبُه كان فارساً من أشهر فُتَّاكِ العرب في الجاهلية.



● تـعقيــب:

هذه ثلاثون حالةً إجتماعيةً مختلفةً، فيها نحوُ خمسين خبراً من أخبار عكاظ، تُثبتُ أن ما كان يجري في عكاظ هو أكثر من التجارة، وأن التجَّارَ، وغيرَ التجار كانوا يحضرونها، من أجل الحاجات التجاريَّة والاجتماعيَّة والأدبيَّة على السواء[3]. وقد لا تكون هذه الأخبارُ كلُّها صحيحةً، لكنَّ مُعْظَمَها صحيحٌ من غير شكٍّ، وكافٍ ليُصَوِّرَ لنا ما كان يجري في عكاظ من الأَنْشَطَةِ الاجتماعية، ودُخُولِ قبائلِ العرب بعضِها في بعض، وسَعْيِها إلى الوحدة القوميَّة واللغويَّة.

(١) المَعْلُوبُ: عَلَبَ السيفَ والسِكِّينَ والرمحَ، أي حَزَم مَقْبِضَهُ بالعِلْباءِ، وهو العَصَبُ يُشَدُّ رَطْباً على أجْفَانِ السيوف، وقيل: إن سيف الحارث سُمِّي مَعْلوباً لآثارٍ كانت في مَتْنِهِ من كثرة ما ضَربَ به.

(٢) المفضَّل: ٣/ ٢١٤، والمحبَّر: ١٩٤ (وفيه أن النعمانَ أخو الأسود)، وإنما هو ابنُهُ، أي النعمان الثاني بن الأسود بن المنذر الأول (٥٠١ ـ ٥٠٥ م)، أما النعمان المذكور هنا فهو النعمان الثالث بن المنذر الرابع (٥٨٣ ـ ٦٠٤ م)، ويلاحظ أن بينهما نحو ثمانين سنة! ومن شأن ذلك أن يجعل مقتل الحارث نحو (٥٩٠ م).

(٣) عكاظ والمربد: ٢٤.

فدعوةُ الناس إلى الإيمان بالله، ووَعْظُهم بالحِكمة والمواعِظِ الحسنة، وإنْهابُ المالِ طلباً للمجْدِ، والكشفُ عن قاتل، ورَدُّ سَبِيَّةٍ إلى أهلها، ومُفَاداةُ الأسْرَى أو البحث عنهم، وتأمينُ الخائفين، وإغاثةُ الملْهُوفين، والتنافُسُ في ألعاب الفروسيَّةِ والمصارعةِ، وعُهودُ المحبِّينَ، ومجالسُ التفاخُرِ والتنافُرِ وامتحانِ البديهة، والعِرافَةُ، والمُعَاظَمةُ، والمُقَارَعَةُ عن الحَسْناوَات، وإذاعةُ المكْرمات، والخَلْعُ من القبيلة، ورفعُ راياتِ الوفاء وراياتِ الغَدْرِ، وحِيَلُ الصعاليك، وجِبَايَةُ الإتاواتِ المستحقَّةِ لزعماء العرب... هذه الأُمورُ، وأشياءُ أُخْرى غيرُها، مما كان يجري بعُكاظ، تدخُلُ كلُّها في وجوه الحياة الاجتماعية، وتُعطي هذه السوق بُعْداً، كان له أكبَرُ الأثَرِ في الوحدة اللغويَّة، واتّجَاهِ العرب نحو الوحدة القومية، فالشعورُ بالعربية، كما قال العقاد: و«الفخرُ باللسان العربيّ مُقَدّمةٌ لا بُدَّ منها للدعوة، التي تُواجِهُ العربَ بآيةِ البلاغة في القرآن الكريم، وتَرُوعُهم بالمعجزة التي يَحْكُونَها إن استطاعوا أو يَحْسَبُونَها من قدرةِ الله. ومثلُ هذا التحدِّي بالبلاغةِ، لا يحدُثُ في أُمَّةٍ، لم تتأصَّلْ فيها مَفْخَرَةُ اللسانِ العربي، والوحدةِ العربية...»[1]. وسَيَتَأَكَّدُ لنا هذا المذهبُ في كلامنا على المَجْمَعِ اللغويّ والأدبيّ، الذي كان يَنعقِدُ للعرب، في كل موسم من مَواسم عكاظ، زمَنَ الجاهلية المُتَأَخِّرة.

(١) مطلع النور: ٧٦.

الفصل الرابع

عكاظ محفل الشعراء والخطباء

المطلب الأول: صراع اللغات العربية

المطلب الثاني: عكاظ واختلاف اللهجات

- نهضة الشعر العربي في الجاهلية مدينة لعكاظ خاصة.
- الدور العكاظيُّ في تهذيبِ العربية وتوحيدِها كان من أحوال الحضارة عند العرب.
- تهذيب العربيّة وتوحيدها وارتقاؤها عمل «جماعي» أسهمت فيه عامة القبائل التي اشتهرت بالفصاحة.

المطلب الثالث: الحكومة بين الشعراء

المطلب الرابع: أثر النقد في توحيد لغة العرب

المطلب الخامس: الصورة الطبيعية لسوق عكاظ

١ ـ مذهب من بَخَس عكاظاً حقَّها

٢ ـ مذهب المُغالين في دور عكاظ.

الفصل الرابع

عكاظ المجْمَعُ اللغويُّ والأدبيُّ للعرب

عكاظُ التي كانت للعرب مَعْرِضاً تجاريّاً عامّاً، ومَحْفلاً اجتماعياً واسعاً، كانت كذلك مَجْمَعاً لُغَويّاً وأَدبيّاً، اهتَدىٰ العربُ بها إلى تهذيبِ لُغتهم في ألفاظها وعباراتها، وإلى جَعْلِ لغةِ الشعرِ والخطابة لغةً واحدةً بين معظم قبائلهم. . . بل كان لعُكاظِ والمواسم الأُخرى دورٌ أعظمُ من هذا، فهي تأتي على رأس الأسْبابِ التي أَفْضَتْ إلى الوحدة اللغويَّة بين قبائل العرب، قبل الإسلام.

وفي ذلك يقول الشيخ أحمد رضا: «. . . ولَعَلِّي إذا قلتُ، إنَّ أكبرَ هَمٍّ لهم في هذه الأسواق، يكادُ يَنحصِرُ في تَخَيُّرِ اللغة، وتَهْذيبِها عَمَلاً لا قَوْلاً، لم أَجِيءْ بالغريب من القول، وعلى الأَخَصِّ منذ كانت هذه الأسواقُ مجالسَ للتحدُّثِ بأيّامهم، وحُروبهم، ونوادِيَ يَتبارَىٰ فيها خُطَباؤُهم وشُعَراؤُهم. . . وقد كان في عكاظِ إجْماعٌ على أن كلَّ كلمةٍ تُقالُ، أو خُطْبةٍ تُلْقَى، أو قصيدةٍ تُنْشَدُ، لا تَتَّصِلُ بالفصاحة بسببٍ، لا ينقلُها أحدٌ، ولا يَرْويها راوٍ، ولا يَحْفَظُها حافِظٌ»[(١)].

وفي مثل ذلك قال بروكلمان: «. . . وإلى هذه الأسواق، وبالتالي إلى الدِّين بشكلٍ غير مباشر، يعودُ معظمُ الفَضْلِ في تَوْحيدِ نظرة العرب

---

(١) معجم مَتْن اللغة: ١/ ٤٢.

الجاهليّين إلى العَالَم، وصَهْرِ عاداتِهم، ومَفاهِيمِ الشَّرَفِ عندَهم في بَوْتَقَةٍ واحدةٍ، ومَنْحِهم لغةً شِعْرِيَّةً مُرَكَّزَةً، تَسْمُو على جميع اللهجات، وتَسْتغرِقُها»[١]. وكنتُ أشَرْتُ، من قَبلُ، إلى أن بروكلمان عَدَّ عُكاظاً من مواسم الحجِّ، وأن القبائلَ كانت تحجُّ إليها من مَطارِحَ نائِيَةٍ، وأن قيامَها كان مُرتبطاً بالاحتفالات الدينيَّة، ولذلك كانت مجالاً للتبادُلِ الثقافيّ والروحيّ عند العرب، فضلاً عن تَبادُلِ العُروض والبضائع التجاريّة.



المطلب الأول ـ صِرَاعُ اللغات العربيّة:

من المعلوم أن جُذور العربية الأُولى ما تزالُ مُغَيَّبَةً في مَجاهِلِ التاريخ، وجُلُّ ما تَوافَق عليه العلماءُ حتى اليوم، أن اللغات الساميَّةَ، قبل تَفرُّقها، كانت ترجعُ إلى أصْل واحدٍ، ومن العَسِير تحديدُ ذلك الأصل، لأن المهدَ الأول للشعوب العربية، ما يزال مجهولاً غامضاً[٢]... ولكن يُمكننا أن نُقرِّرَ أنه كان من تلك اللغة الأُمِّ، فِئَتَانِ رئيستَانِ، تنتمي إليهما كلُّ اللغات واللهجات العربية[٣]. وهنالك اتِّجاهٌ علميٌّ قويٌّ، يعتمدُ على النقوشِ

---

(١) تاريخ الشعوب الإسلاميَّة: ٢٦.

(٢) د. صبحي الصالح ـ دراسات في فقه اللغة: ٤٨.

(٣) **اللغات الساميّة**: يمكن تصنيفُها في فئتين، الأولى: **شمالية**، والثانية: **جنوبية**. أمَّا **الشمالية** فهي مجموعتانِ، **شَرقيّةٌ**: ومَوَاضعُها بلادُ الرافدين، وتشملُ: الأَكَّادِيَّةَ، والبابليَّةَ، والآشوريَّةَ. **وغربيّةٌ**: وهي فرعان، الأولُ: **الآرامِيَّةُ** بلهجاتها الكلدانيَّة والسريانيَّة، والثاني: **الكنعانيةُ** (أوجْرِيتيَّة، عِبريَّة قديمة، فينيقيَّة، مُؤَابيَّة، إيبْلَوِيَّة). وأمَّا **الفئةُ الجنوبيةُ**، فَمَوْطنُها جزيرةُ العرب، وهي ثلاثة أقسام، الأولُ: **لغةُ اليمن**، وتشملُ لهجاتِ معِين وسَبَأ وحضرموت وقَتَبان والشِحْر والحبشة، وهي أكثرُ اتصالاً بالأكادِيَّة. والثاني: **العربيّةُ البائدةُ**، وتشملُ اللحيانيّةَ والثَّمُوديَّةَ والصَّفَوية. والثالثُ: **الفُصْحى الباقيةُ** بلَهْجتَيْها الحجازيّة والتميميَّة.

اليَمَنِيَّةِ، المكتشفةِ في العصر الحديث، يجعلُ اليمنَ مَهْدَ اللغة العربية الأُمّ، ويجعلُ لغةَ اليمن أصْلاً لِلُغَةِ الحجاز. فقد وُجِدت في تلك النقوشِ، مئاتُ المُفْرداتِ المُشْتَركةِ بين اللغتين، في الرَّسْم والمعنى... ومع أن لغةَ الحجاز أَحدثُ اللغاتِ العربيةِ القديمةِ، ولَهجاتِها، نَشْأَةً وتاريخاً، لكنها أكثَرُها شَبَهاً باللغة الأم، وربما كان ذلك لأن عربَ الحجاز ظَلُّوا في مَواطِنِهم لم يَبْرحُوها إلى المَهَاجِرِ، مثلما فَعَلَ إخوانُهم أهلُ الجنوب في هجرتهم المستمرَّة إلى الحجاز، والشامِ، وبلادِ الرافدين، والحبشة وغيرها من البلدان.

على أن اللغة العربية، عُموماً، لم تَبلغْ في اليمن من الفَصاحَةِ، والتهذيب، وانتظام القواعد، ما بَلغَتْهُ في الحجازِ، خاتِمَةِ مَطافِها، بعد دَوْرَتها التاريخيَّة الكبرى، ابتداءً من جنوب جزيرة العرب، فبلادِ الرافدين، ثم إلى بلاد الشام، حيث انتهت بغَلَبَةِ الآرامية على سائر أخواتها، لغاتِ الشمال، في العراق والشام...

وفي صراع لُغَوِيٍّ طويل، بدأ منذ ما قبل الميلاد، واستمرَّ نحواً من خمسة قرون، قَضَتِ العربيَّةُ الحجازيَّةُ على اليمنيَّة بكل لهجاتها، وتحقَّقتِ الوحدةُ اللغويَّةُ حينئذٍ بين العرب في الجزيرة، ولا سيما بعد انْهِيارِ دُولِ الجنوب، وانتقالِ مراكز التجارة الدوليَّة إلى الحجاز، وغدتْ مكَّةُ العاصمةَ القوميَّةَ للعرب جميعاً، وسوقُ عكاظِ المجمَعَ العَامَّ لقبائلهم، والمَعْرِضَ الكبيرَ لمتاجرهم...

ولا شك في أنه كان لعُكاظٍ أَثَرٌ خطيرٌ في وحدةِ العرب، ووحْدَةِ لغتهم وثقافتهم، إذ تَداعَتْ ثقافةُ اليمن قبل ظهور الإسلام بزمنٍ ليس قصيراً، «فماتتْ لغةُ الجنوب، واحتلَّتْ لغةُ الشمالِ، أي الحجاز، مكانَها، وساعد على هذا الانقلاب الأسواقُ الأَدَبيَّةُ، التي كان الشمالُ قد أَلِفَها، كسوق عكاظِ، ومَواسمُ الحجِّ السنويِّ، التي كان عربُ الجاهليّة يقصدون الكعبةَ

فيها، والعلاقاتُ التجاريَّةُ التي أنشأتها مكَّةُ مع غيرها من البُلدان»[1]. . . وكانت مَكَّةُ مَثَابَةَ الحجَّاجِ من مختلف طوائف العرب، وكانت مواسمُ عكاظ ومجنَّة وذي المجاز، التي تسبقُ موسمَ الحجِّ، مُلْتَقَى الشعراءِ والخطباءِ والحكماءِ، إلى جانب التجَّارِ، وذوي المصالح المختلفة. ويُضَافُ إلى ذلك ما كان من هجرة بعض قبائل اليمن إلى الشمال، واختلاط مَنازلهم بمنازلِ أهله. . . فكان من شأن ذلك كلِّه أن خَرَجَتِ العربيَّةُ الحجازيَّةُ أكثَرَ اتِّساعاً وانفتاحاً، وأشدَّ عُمقاً ودِقَّةً، وما هو إلا أن نَزَلَ القرآنُ بها، حتى بدأت معركتَها الأخيرةَ ضِدَّ الآراميَّة، فصَرَعَتْها، وصارت لها السيادةُ المُطْلَقَةُ في جميع أنحاءِ جزيرة العرب وبلادِ الشام والعراقِ، ولم يَنْجُ من سيطرتها سوى مناطق قليلةٍ مَعْزُولة، ظلَّت على الآراميَّةِ أو العِبْريَّة.

والواقع أن الإسلام «صادَفَ حين ظُهورِهِ، لغةً مِثَاليَّةً، مُصْطَفاةً، مُوَحَّدةً، جديرةً أن تكونَ أداةَ التعبير عند خاصَّةِ العربِ، لا عامَّتِهم، فزاد من شُمولِ تلك الوحدةِ، وَقوَّىٰ من أثَرِها، بنُزولِ قرآنه بلسانٍ عربيٍّ مُبِين. . . ولا شكَّ في أن الوحدةَ اللغويَّة كانت قائمةً قبل ظهور الإسلام، وهذا لا يعني أن الفُروق بين اللهجات العربيَّة زالتْ نهائياً، وإنما يُؤَكِّدُ أن الاختلافَ لم يَعُدْ عميقاً وصارِخاً»[2]. . . ذلك أن سوق عكاظِ، والمواسمَ الأُخرى، أزالت قسماً كبيراً من تلك الفُروق، وقَضَتْ لغةُ القرآن على ما بقي منها.



المطلب الثاني ـ عُكاظٌ واختلافُ اللهجَات:

كانت لقبائل العرب في الجاهلية لهجاتٌ مُتَعدِّدةٌ، مُتَبايِنَةٌ في أشكالِ

---

(١) تاريخ العرب: ٨٥.

(٢) دراسات في فقه اللغة: ٥٩.

الفُروقِ التي كانت بينها. ولكنها فُروقٌ «لم تكن في الأصل فروقاً ضخمةً، ولم يكن بينها هذا المدى المتَّسِعُ. كانت لهجاتٍ مُتَقارِبةً حيناً، ومُتَضَامَّةً حيناً آخَر، لا يكادُ يُجاوِزُ الخلافُ فيها بعضَ الألفاظ، وبعضَ الصِّيَغِ، ولا يكاد يَعْدُو بعضَ هذه الأساليبِ في الوقْفِ أو الحَذْفِ، وفي الهَمْزِ أو التخفيف، وفي إبْدال حرفٍ بحرفٍ آخَرَ يُقَارِبهُ في المَخْرج[1]... وعلى الجُمْلةِ كانت فروقاً صَوْتيةً، ترجع إلى اختلاف الأصوات، لا إلى اختلافِ البِنْيَة، ولا إلى التبايُنِ في التركيب. ومن المؤكَّد أن العرب حين كانوا يَتَباعَدون في المكان، بين الشمال والجنوب، وبين الشرق والغرب، كانوا يستطيعون أن يتبادلوا الحديثَ مُتَفاهِمين، وأن يَتَناقَلُوا الخبرَ أو القصَّةَ مُطْمئِنِّينَ، وأن يروي بعضُهم شِعْرَ بعضٍ، وأن يتذوَّقَهُ دون مَشَقَّة»[2]. ذلك أن مجتمعَ الجاهلية لم يكن جامداً، إنْطِوائياً، تتحاجَزُ فيه القبائلُ، وتتباعَدُ حتى كأنَّ كلَّ قبيلةٍ منها أُمَّةٌ مُسْتقِلَّةٌ، لا يكاد يكونُ بينها وبين مَنْ حولَها إلا الغاراتُ، أو الحَذَرُ من الغارات... وإنما كان مجتمعاً مُتَحرِّكاً، مُنْفَتِحاً، تَسوقُ القبائلَ فيه حركةٌ مُسْتمِرَّةٌ إلى التخالُطِ والتقارُب، وتَصِلُ بينها بالنَّسَب، والجِوارِ، والحِلْفِ، والمصالح المشتركة... إلى حركةٍ أُخْرى، قلَّما هَدَأتْ، لكثيرٍ من قبائل الجنوب، في الهجرة إلى الشمال، والاستقرارِ في مواضِعَ مختلفةٍ منه، كهجرة الأزْدِ الكبرى، التي توزَّعَتْها الحجازُ وعُمَانُ واليمامةُ والبحرين والشامُ والعراقُ... إلى حركة دائمةٍ لأبناء كلِّ قبيلةٍ داخِلَ

(1) من ذلك ما كان بالإبدال، كقولهم في الخِباء: «خِباع». ومنها ما كان بتقديم حرف في الكلمة، كقولهم في صاعقة: «صاقعة». ومنها أفعال القلب، كقولهم في يئسَ: «أَيِسَ».
ومن ذلك ما كان في أَوْجُه الإعراب، كنصبِ خَبرِ ليس عند الحجازيين، ورَفعهِ عند قبائل تميم إذا اقترن بإلاّ.

(2) د. شكري فيصل ـ المجتمعات الإسلامية في القرن الأول: ٢٤٥.

قبيلتهم، وخارِجَها مع إخوانهم من أبناء القبائل الأُخرى، يتلاقون في قوافل التجارة، ومراكزِها الكبرى، ومَحطَّاتِها الرئيسة، وفي مواسم الحجِّ، ومواسم الأسواق كعُكاظٍ ومجنَّة وذي المجاز وغيرها[١]. . . وقد كان من شأن ذلك كله أن يكون سبيلاً إلى الوحدةِ اللغويَّة عند عرب الجاهليَّة، وإن ظلَّت بين لهجاتهم فُروقٌ، ليست غالباً أكثرَ من عُيوبٍ في نُطْق بعض الحروف، وكان منها: عَنْعَنَةُ تميم، وكَشْكَشَةُ ربيعة، وكَسْكَسَةُ هوازِنَ، وتضجُّعُ قَيْس، وتَلْتَلَةُ بَهْرَاءَ، وعَجْرفيَّةُ ضبَّة، وغَمْغَمَةُ أو عَجْعَجَةُ قُضَاعَة، وطُمْطُمَانِيَّةُ حِمْيَرَ، ولَخْلَخَانيَّةُ عُمَانَ والشِحْر[٢]، وهي جميعاً عيوبٌ في النُطْق لا أكثر[٣]. . .

وقد ذهب أهلُ الأخبار، وكثيرٌ من الأدباء إلى أن قريشاً ارتفعت بفصاحتها عن كل تلك العيوب[٤]، حتى غدت لغتُها أفضلَ اللغات، ولهجَتُها أحسنَ اللهجات[٥]، فنزل القرآنُ الكريمُ بها! والواقع أن القرآن إنما أُنْزِلَ

---

(١) أُنْظرِ المرجعَ نفسَه: ٢٢ ـ ٢٩.

(٢) البيان والتبيين: ٣/ ١٣٧ ـ ١٣٨.

(٣) **العَنْعَنَةُ**: يقولون عَنَّ عبد الله قائمٌ بدلاً من أنَّ، فيجعلون الهمزةَ عَيْناً إذا وقعت في أول الكلمة. **الكَشْكَشَةُ**: يجعلون ما بعد كاف الخِطَاب في المؤنَّث شِيناً. **الكَسْكَسَةُ**: يجعلون بعد كاف المذكَّر أو مكانها سِيناً. **التَّضَجُّعُ**: الإمالَة والخَفْض. **التَّلْتَلَةُ**: كسر أوائل الحروف، كقولهم: تِعْلمون وتِعْقلون وتِصْنَعون. **العَجْرفيَّةُ**: التقعُّر في الكلام. **الغَمْغَمَةُ**: عدم إظهار بعض حروف الكلمات أثناء الكلام. **العَجْعَجَةُ**: يجعلون الياء جِيماً مع العَيْن، كقولهم: راعِج في راعي، ومَعج في معي. **اللخْلخَانيَّة**: كقولهم مَشَا الله بدلاً من ما شاء الله. **الطُمْطُمَانيَّة**: كقولهم طابَ امْهَواء بدلاً من طاب الهواء، يجعلون الميمَ بدلَ أل التعريف. ومنه: «وفدُهم على رسولِ الله وقد سألوه: هل مِنَ امْبِرِّ امصِيَامٌ في امْسَفَر؟ أرادوا: هل من البِرِّ الصيامُ في السفر.

(٤) مجالس ثعلب: ١/ ٨٠ ـ ٨١.

(٥) أدبيات اللغة العربية: ١/ ١٣، وأسواق العرب: ٢٠٦، وفي الأدب الجاهلي: ١٣٦.

﴿بِلسَانٍ عَربيٍّ مُبِينٍ﴾[1]، كما قال تعالى، واللسانُ العربيُّ لغةُ كلِّ العرب، لا لغةَ بعضِهم فقط، أو لسانَ قريشٍ خاصَّةً... ولو كان القرآنُ نزلَ بلسَانِ قريشٍ فقط، لما احتاج الفقهاءُ إلى شِعْرِ كلِّ قبائل العرب، وما أُثِر من أقوالهم، للاسْتِعَانَةِ به على فَهْم المُشْكِل والغريبِ من مُفْردات القرآن، وإنما كان حَسْبُهمُ الرجوعُ إلى شِعْرِ قريشٍ وكلامِهم دون غيرهم! ولا بُدَّ أن يُذكرَ في هذا المقام أن الفصاحةَ في بني سعد، من هوازن، كانت أَعْلا مما هي عليه في قريشٍ، وهم الذين استرضَعَ فيهم رسولُ الله، ونشأ بينهم، وكان كثيرون من غِلْمانِ قريش يُرسَلُون إليهم لتعلُّم الفَصاحةِ واللغةِ السَّليمة، إذ كانوا أهلَ بادِيَةٍ، وأبْعَدَ عن الاختلاط بالغرباء[2].

إن توحيدَ اللغة العربية، قبل الإسلام، كان أكبَرَ من أن تَختصَّ به قريشٌ دون سائرِ جيرانها، لأنه ثمرةُ جُهدٍ مُشْتَركٍ، بَذَلَتْهُ في المجامع العامَّة الكبرى، كموسم عكاظ، قبائلُ اشتُهِرتْ بالفصَاحةِ والبيان، كبني تميم... ذلك أن «لهجةَ تميمٍ قد أمَدَّتِ العربيةَ الفُصْحَى، برَوافِدَ غنيَّةٍ غزيرة، ساعدتْ على استقرارِ نَحْوِها وصَرْفِها، وسعةِ اشتقاقها، وبُعْدِ دَلاَلاتها، وانْبِسَاطِ مَدْرَجِها الصَّوْتيّ، وحياةِ عددٍ كبيرٍ من مُفْرداتها... وإن تميماً تُشَارِكُ قريشاً بنصيبٍ كبير من خصائص العربية، ومُميِّزاتها، وإن إغْفَالَ دوْرِ تميم في هذا، إنما هو تهاوُنٌ بجُزءٍ لا يَتَجزَّأُ من لغتنا العربيَّة الفُصْحَى»[3].

ومع اعترافِ الرافعيّ، بأن «الدَّوْرَ العُكاظيَّ» في تهذيب اللغة كان من أحوال الحضارة، فاقْتضَى الصناعةَ اللسانيَّةَ، وبلغتْ به العربيَّةُ درجةً عاليَةً من

---

(١) سورة الشعراء: ١٩٥.

(٢) المفصَّل: ٨/٦٦٩.

(٣) دراسات في فقه اللغة: ١٠٣ ـ ١٠٤.

المنطق الفصيح، لكنه، من طرَفٍ آخرَ، عَدَّهُ آخِرَ أدوار التهذيب اللغويِّ، التي اضْطَلَعتْ بها قريشٌ، من حيث كانت تُبَالِغُ في انتقادِ اللهجات، وانتقاءِ الأَفْصَح من مُفْرداتها(١). . . وإذا كان الدورُ الأخير في تهذيب اللغة دَوْرَ عكاظ، فكيف تسَنَّىٰ لقُرَيْشٍ فيه، أن تقفَ وحدَها بوجه العرب جميعاً، تنتقدُ لهجاتهم، وتنتقي منها الأَفْصَحَ، ثم تُذيعُه في الناس، فيستعملوهُ في أحاديثهم وخُطَبِهم وأشعارهم؟ مع أن قريشاً، كما ثبت لنا بالتحقيق، لم تكن تملكُ من أمور عكاظ شيئاً، بل كانت مِمَّن يَؤُمُّونها في مواسمها، كسائر القبائل والتجَّار. والسوقُ تقعُ في ديار هوازِنَ بنَجْدٍ، في جِوارِ ثَقيفٍ بالطائف، فلم يكن لقريش فيها سلطانٌ، بل منافِعُ تسعى إلى تحصيلها! ورئاسةُ الموسم، والقضاءُ فيه بين الناس، حتى الإمَامَةُ في مواسم الحجِّ، كانت كلُّها بأيدي بني تميم، وبعضُها في بني عَدْوان. والحكومَةُ في الشِعْر بين الشعراء كانت، في هذا الدوْرِ الأخير، للنابغة الذبْيانيِّ، ولم تكن لقريش. . . ويُرْوَى أن أمير المؤمنين عمر بن الخطَّاب قال للوفد الذي قَدِم عليه من غَطَفَان: من الذي يقول

حَلَفتُ، فلم أتركْ لنَفْسِكَ رِيبَةً ... وليس وراءَ اللَّهِ للمرءِ مَذْهَبُ

قالوا: نابغةُ بني ذبيان! قال: فمَن الذي يقولُ هذا الشعرَ:

أَتيتُكَ عارِياً خَلَقاً ثيابي ... على وَجَلٍ تُظَنُّ بيَ الظنُونُ
فأَلْفَيتُ الأمانةَ لم تَخُنْها ... كذلك كان نُوحٌ لا يَخُونُ

قالوا: هو النابغةُ! قال: هو أشْعَرُ شعرائكم(٢). . . ويُروَى أنه كان في

---

(١) تاريخ آداب العرب: ١/ ٨٧، ٩٥.
(٢) العقد الفريد: ٥/ ٢٧٠.

شعر النابغة، في ابتداءِ أمره، شيءٌ من «الإقواء»، فقال: وردتُ يَثْربَ، وفي شِعْري بعضُ العاهَةِ، فصَدَرتُ عنها وأنا أشْعَرُ الناس[1]. . . وكان النابغةُ من شُعراءِ الطبقة الأولى، المُقَدَّمين على سائر الشعراء[2]. وقد نَقل ابنُ منظور عن أبي حنيفة، أن النابغة كان يأتي المدينة (يثرب)، ويُنْشِدُ بها الناسَ، ويسمعُ منهم، وكانت بالمدينة جماعةُ الشعراء[3]. . . وهذا دليلٌ على أن الفصاحةَ، وسلامةَ اللغةِ، وقَواعِدَ الشِعْر، كانت مُتَوافِرةً في الأَوْس والخَزْرَج، وأنهم كانوا يمارسون نقداً على الشعراء. . . فأين تَفَرُّدُ قريشٍ في ذلك كلِّه؟

يُضاف إلى ذلك أن معظم الخطباء الأبْيِنَاءِ كانوا من تميم أو إِيَادٍ، وفي هذا قال الجاحظ: «إن لإيَادٍ وتميم في الخُطَبِ خصْلةً ليست لأحدٍ من العرب، لأن رسول الله هو الذي روى كلامَ قُسٍّ بنِ ساعدة، ومَوْقفَهُ على جَمَلِهِ بعُكاظ، ومَوْعِظتَهُ، وهو الذي رواهُ لقريشٍ وسائرِ العرب، وهو الذي عَجِبَ من حُسْنِهِ، وأَظْهَرَ من تصويبه. وهذا إسْنَادٌ تعجزُ عنه الأماني، وتنقطع دونه الآمالُ، وإنما وَفَّقَ اللَّهُ ذلك الكلامَ لقُسٍّ بن ساعدة، لاحْتجاجِه للتوحيد، ولإظهارِهِ معنى الإخلاص، وإيمانِهِ بالبعث، ولذلك كان خطيبَ العرب قاطبةً»[4]. وعَدَّهُ في موضعٍ آخَر من الشعراء البُلَغَاءِ، والخُطَباءِ الأبْيِنَاء، والحُكَّام الرؤساءِ[5]. . . وقال أيضاً: وكذلك ليس لأَحَدٍ في ذلك

---

(١) الأغاني: ١١/ ٩ - ١٠، والشعر والشعراء: ١٦٨، ولسان العرب: ١٥/ ٢١٠ (قوا).
والإقواء: عَيْبٌ في الشعر، تختلف فيه حركات الرَّوِيِّ، فبعضُه مرفوعٌ وبعضُه منصوبٌ أو مجرور، ولكنه لا يكسر الوزن.

(٢) الأغاني: ١١/ ٣.

(٣) لسان العرب: ٢/ ٥٦٥ (قمح).

(٤) البيان والتبيين: ١/ ٦٠.

(٥) المرجع نفسه: ١/ ٥٢، ٢٨٣.

مثلُ الذي لبني تميم. لقول النبيِّ في فصاحة عمرو بنِ الأهْتم: إن من البيان لسحراً[١]. وذُكِرَ أيضاً أن عبد الملك بن مروان قال يوماً: هل تعرفون حَيّاً، فيهم أخْطبُ الناس، وأَجْوَدُ الناس، وأشْعَرُ الناس؟ هم إِيَادٌ، لأن فيهم قُسَّ بنَ ساعدة، وكعبَ بنَ مَامَة، وأبا دُؤادٍ الإيَادِيَّ[٢].

وذهب د. جواد علي إلى أن بناءَ العربية شيدَ معظَمُه من لُغاتِ تميم وقَيْس وأَسَد، وهي القبائلُ التي تجاورتْ في مواضع سَكَنِها، وتوغَّلتْ بطونُها في بَوادي العراق والبحرين واليمامة ونَجْدٍ، وأن لقبائلِ هُذَيْلٍ وثقيفٍ سهماً مَوْفوراً في ذلك، وتبيَّن له أن قريشاً كانوا قد داوَرُوا بينهم لغات العرب جميعاً، وتداوَلُوها، وأخذوا ما اسْتَملَحُوهُ منها، في الأسواق ومَواسمِها، وفي التنقُّل بقوافل التجارة، وأن تميماً كانت أكثرَ شهرةً منهم في بضاعة الكلام[٣]. . . أي أن دَوْرَ قريش في تهذيب العربية عموماً، وفي سوق عكاظ خصوصاً، كان أقلَّ من دَوْرِ تميم، وأنه كان دَوْرَ المُتَأثِّرِ أكثرَ منه مُؤَثِّراً، وهو في مكَّة أظْهَرُ منه في عكاظ. ومن ذلك قولُ حمّاد الراوية: «كانت العربُ تعرض أشعارها على قريش، فما قَبِلوهُ منها كان مقبولاً، وما رَدُّوهُ منها كان مَرْدُوداً، فقَدِم عليهم عَلْقَمَةُ بنُ عَبَدَة التميمي[٤]، فأنشدهم قصيدته التي يقول فيها:

هل ما علمتَ وما اسْتُودِعتَ مكتومُ أم حَبْلُها إذ نَأَتْكَ اليوم مصرومُ

---

(١) البيان والتبيين: ١/ ٦٠ ـ ٦١.

(٢) الأعلام: ٢/ ٣٢.

(٣) المفصَّل: ٨/ ٦٦٠ ـ ٦٦١، و ٨/ ٥٨٧ ـ ٥٨٨.

(٤) علقمة بن عَبَدَة الفَحْل: من بني زيد مناة بن تميم. شاعر جاهليٌّ مُجيد، وكان من صُدور الجاهلية وفُحولها. لُقِّب بالفَحْل لأنه نازع امرأ امرأ القيس الشعرَ، وكان صديقاً له، ورَضِيَا حُكمَ امرأةِ امرىء القيس، فقال كلٌّ منهما قصيدةً في وصف الخيل، فحكمت لعلقمة، فطلَّقها امرؤ القيس، وخَلَفَ عليها علقمة.

فقالوا: هذه سِمْطُ الدَّهر[1]، ثم عاد إليهم العامَ المُقْبل، فأنشدهم:

طَحَا بكَ قلبٌ في الحِسَانِ طَروبُ   بُعَيْـدَ الشبـابِ عَصْـرَ حـانَ مَشِيـبُ

فقالوا: هاتان سِمْطا الدَّهْر[2]... جاءت هذه الإشارة في الأغاني، إلى إشارة أخرى مُخالِفَةٍ قيل فيها: «كانت العربُ تُقِرُّ لقُريشٍ بالتقدُّم في كل شيءٍ عليها إلا في الشعر، فإنها كانت لا تُقِرُّ لها به، حتى كان عمر بنُ أبي ربيعة، فأقَرَّت لها الشعراءُ بالشِّعْر أيضاً، ولم تُنازِعْها شيئاً»[3]... ومن شأن هذا كله أن يَضَعَ دَوْرَ قريش قي تهذيب لغة العرب، في الجاهلية، حيث يجب أن يكون، إلى جانب أدوار غيرها من القبائل أمثال: تميم وإيَاد وأسد وقيس، ممَّن اشتُهِرت أيضاً بالفصاحة وصناعة الكلام... وإذا أخذنا بما ذكره إبنُ منظور من حديث ابن مسعود: «فلما وضعتُ رِجْلي على مُذَمَّرِ أبي جهل قال: أعْلِ عَنِّجْ، أي تَنَحَّ عني، وأراد بعَنِّجْ عني، وهي لغة قومٍ يقلبون الياءَ في الوقف جيماً»[4]، وهي من عيوب النطق، فإنَّ لنا أن نتساءل: أكانت العَجْعَجَةُ في قضاعة أم في بني مَخزوم؟

والحقيقة، إذا كان الدورُ البارزُ في تهذيب العربية دَوْرَ عكاظٍ، وهو كذلك حقّاً، فإننا لا نستطيع نِسْبَتَهُ إلى جماعةٍ مَخْصُوصَةٍ، فليس في أخبار عكاظ، كما رأيناها، ما يحصرُ فعلَ التهذيب بقريشٍ، أو بغيرها من قبائل العرب، وإنما كان تهذيبُ العربية، وتوحيدُها، وارْتِقاؤها نتيجةَ عملٍ جماعيّ، أسْهَمتْ فيه طوائفُ العرب المختلفةُ، التي كانت تجتمعُ بعُكاظٍ ومواسِمِ الحجِّ، ثم غلبتْ عليه لهجةُ الحجاز ونَجْد، ونشأتْ بذلك لغةٌ أَدبيَّةٌ

---

(١) السِّمْط: هو الخيطُ ما دام اللؤلؤ منتظماً فيه.

(٢) الأغاني: ٢١/ ٢٢٥ ـ ٢٢٦.

(٣) المرجع نفسه: ١/ ٨٣.

(٤) لسان العرب: ١٥/ ٨٦ (علا).

مِثَالِيَّةٌ، هي لغةُ الشِعْرِ والخَطابة، خَلتْ من عُيوب اللهجات وهَنَواتِها، وتكوَّنتْ من خير ما في تلك اللهجات من المُفْردات والتعابير، فصارت لغةَ المجتمعات الأدبية. ولو أن شاعراً ضَمَّن شِعرَهُ، يومئذٍ، شيئاً من عيوب لهجته الخاصَّة، كالكَشْكَشَةِ أو العَجْعَجَةِ، وغدا يُنْشِدُهُ في عكاظ، لصَيَّروهُ أُضْحُوكَةً، من التهكُّم به، والتندُّرِ عليه[١].

ومن الطبيعيّ أن التفاوُتَ في اللهجات والمُفْرداتِ، كان يَقِلُّ أو يكثُرُ، تَبَعاً للعلائق التي تربطُ بين قبائل العرب، وتَبَعاً لاختلاف عوامل المكان والزمان والاجتماع، التي تُؤثِّرُ أعظمَ تأثيرٍ في اللغة... ولمَّا عَظُمَ شأنُ عكاظ، وطَفِق العربُ من كل الأحياءِ يَؤُمُّونها سعياً وراء مصالحهم، قَصَدَ إليها الشعراءُ والخطباءُ من كل مكانٍ في بلاد العرب، وكان معظمُ هَمِّهم انتقاءَ الألفاظِ الفصيحةِ[٢]، المعروفةِ عند أكثر العرب، طَمعاً في أن تنتشِرَ أقوالُهم بينهم، وأن تحوزَ الرِضَى والاسْتِحسَانَ منهم كافةً. فكان الشعراءُ والخطباءُ بذلك دعاةَ الوحدة اللغوية، والعاملينَ على تحقيقها. ولو اتَّبَعَ كلُّ

(١) دراسات في فقه اللغة: ٩٦.

(٢) ذكر الجاحظ في البيان والتبيين (٢/ ٧): أن البلغاء من الشعراء والخطباء العرب، لم يكونوا يقولون كلَّ ما يَردُ على خواطرهم، وإنما كانوا يُنغّمون ويُجَوِّدون حتى يظفروا بالكلام الجيد البليغ، وأن «من شعراء العرب مَنْ كان يَدَعُ القصيدة تمكث عنده حَوْلاً كَرِيتاً (تامَّ العَدَد)، وزمناً طويلاً يُرَدِّدُ فيها نظره، ويُجيلُ فيها عقله، ويُقلّب فيها رأيه، اتهاماً لعقله، وتتبّعاً على نفسه، فيجعل عقله ذِمَاماً على رأيه، ورأيَه عياراً على شعره... وكانوا يُسمّون تلك القصائد: الحوليّات والمقلَّدات والمنقَّحات والمُحْكَمات، ليصير قائلُها فَحْلاً خِنْذيذاً (مُجيداً)، وشاعراً مُفْلقاً».

ويلتقي مع هذا الاتجاه، تسميةُ المعلَّقات بالمُذهَّبات، لأنها فازت بإجماع الآراء على أنها أجودُ الشعر لفظاً وأسلوباً ومعنى، فَدُوِّنت بماء الذهب. وهذا يؤكّد أن الشعر عند العرب لم يكن فطرةً وحسب، وإنما كان دَرْساً ودَأْباً، وجهوداً مُستمرةً من أجل التجويد والتزويق.

شاعرٍ، أو خطيبٍ، لهجةَ قومِهِ على ما بها من العُيوب، لم يجدْ مَن يَسْتحسِنُها غيرَهم، ولم تَرْوِها القبائلُ الأخرى، فتفوتُه بذلك الشهرةُ، والافْتِخارُ بها.

ويُفْهم من بعض موارد الأخبار والأدب، أن نشأةَ المُعَلَّقاتِ الشعريَّة اقترنتْ بسوق عكاظ، التي كانت مَجْمعاً أدَبِيّاً، أَمَّهُ فحولُ الشعراء، يتبارُونَ فيه بأشعارهم، ولم يكن للشاعر وقتئذٍ أن يطمحَ إلى مَجْدٍ أكبرَ من أن يَفُوزَ في هذه السوق بإعجابِ الناس، وتقديرهم... «فسوقُ عكاظ، في جاهليَّةِ التاريخ العربيّ، كانت أشْبَهَ شيءٍ بأكَّادِيميَّةٍ كبرىٰ في بلاد الغرب. وكان الفائزُ في عكاظ يُبَاهي بنفسه مُبَاهاةَ البطَلِ المُجَلِّي من أبطال الإغريق في ألعابهم الأُلِمْبِيَّةِ، بل ليس بين نائلي جائزة نُوبل اليومَ مَن يزيدُ فخرُهُ على فخرِ أولئك الفائزين في عكاظ الجاهلية»[1]. ويذهبُ الرواةُ إلى أن أوَّلَ قصيدةٍ نالتْ إعجابَ المحكَّمِينَ بعُكاظ، مُعَلَّقَةُ امْرِىءِ القَيْس بن حجر الكِنْديّ[2]، المتوفَّىٰ نحو سنة (٥٦٠ م)، ومَطْلَعُها:

قِفَا نَبكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ   بسِقْطِ اللِوَىٰ بين الدَّخُولِ فحَوْمَلِ

ومرَّتِ الإشارةُ أيضاً إلى أن عمرو بنَ كلثومٍ التغلبيَّ، بعدما فتَك بالملك عمرو بنِ هند اللَّخْمِيِّ، نحو سنة (٥٦٩ م)، وقال في ذلك مُعلَّقَتَهُ المشهورةَ:

أَلاَ هُبّي بصَحِنك فاصْبَحينا   ولا تُبقي خُمورَ الأَنْدَرِينَا[3]

---

(١) تاريخ العرب: ١٣٧.

(٢) المرجع نفسه: ١٣٨.

(٣) **الصحن**: القدح الواسع. **فاصبحينا**: فاسقينا الصَّبُوحَ وهي الخمرة تُشرب في الصباح. **الأندرين**: بلدة كانت جنوبي حلب اشتهرت بالخمور الجيدة.

أبـا هنـدٍ فـلا تَعْجَـلْ علينـا وأَمْهِلْنــا نُخَبِّــرْكَ اليقينـــا
بـأنــا نـورِدُ الـرَّايـاتِ بيضـاً ونُصـدِرُهُـنّ حُمْـراً قـد رَوِينـا

وأَحَبَّ أن تَسِيرَ في الناس، ويُكتَبَ لها الخُلودُ، سَعَى إلى سوق عكاظ، وقام بها خطيباً في أحد المواسم[1]، فأُعْجِبَ الناسُ بها، وتلقَّاها الرواةُ، ونقلوها إلى قبائل العرب. والقولُ نفسُه يمكنُ قولُه في سائر المُعلَّقات الطِوَالِ، فما كان الإجماعُ لِينعَقِدَ على فَوْزِها بالسَّبْق، لولا أنها أُعْلِنَتْ على المَلأِ في عكـاظ، وشَهِدَ لهـا المُحَكَّمـونَ والنقَّـادُ بـالجَـوْدَةِ والتفوُّق، ولولا أنها صِيغَتْ بلُغَةٍ أدبيَّةٍ مِثَاليَّةٍ، يَفْهَمُها العربُ جميعاً، بمُخْتَلِفِ لهجاتهم، وليس فئةً مخصوصةً منهم.

وكان ذلك شأن سائر الشعراء، فهذا أُمَيَّةُ بنُ خَلَفٍ الخُزَاعيُّ، يهجو حسَّانَ بنَ ثابت، ويُمْعِنُ في قَدْحِه بقصيدةٍ، لا تَشْفِي غَليلَهُ، إلا إذا دَبَّتْ إلى عكاظ، فتَقبَّلَها العربُ قَبولاً حَسَناً، وانتشرتْ في مَجَامِعِهم:

أَلاَ، مَــنْ مُبْلِــغٌ حَسّــانَ عنــي مُغَلْغَلَــةً تــدبُّ إلــى عُكــاظِ
أليـسَ أبـوكَ، فينـا، كـان قَيْنـاً لدىٰ القَيْناتِ، فَسْلاً في الحِفاظِ[2]
يمــانِيّــاً، يظــلُّ يَشُــدُّ كِيــراً وينفُـخُ دائمـاً لَهَـبَ الشُّـواظِ[3]

فيَرُدُّ عليه حسَّان بقصيدةٍ، يريدُ لها كذلك أن تَنْتشِرَ في المجامع من عكاظ:

أتــانــي عــن أُميَّــة زُورُ قَــوْلٍ وما هو في المَغِيب بذي حِفَاظِ

---

(١) الأغاني: ١١/٤٨.
(٢) القَيْن: الحدّاد، وكل صانع عند العرب قين. الفَسْلُ والمفسول: من الرجال، الرديء.
(٣) الكِيرُ: كيرُ الحدّاد الذي ينفخ به النار.

سأنشُرُ ما حييتُ لكم كلاماً يُنشَّر بالمَجَامِعِ منْ عُكاظِ[1]

فكلا الشاعِرَيْن يتمنَّىٰ أن تَدِبَّ أشعارُهُ إلى سوق عكاظ، فيَتَسَنَّى لها عندئذٍ أن تَذِيعَ في الناس، ويتناقَلَها الرواةُ في أحْياءِ العرب، وهذا لا يمكن أن يكون، ما لم تكن بلُغَةٍ يَفْهَمُها كلُّ العرب. . . وهي اللغةُ الأَدَبيَّةُ المِثَاليَّةُ المُوَحَّدةُ، التي كانت تعملُ لها عُكاظٌ، ومواسمُ الحجِّ والأسواق. وما نهضةُ الشعرِ العربيِّ، في عصر الجاهليَّة المُتَأخِّرةِ، إلا ثَمَرةٌ من ثمرات أعمال النَّخْلِ والاصْطِفاءِ، والتهذيب والتوحيد، التي اضْطَلَعَت سوقُ عكاظٍ بالنصيب الأَوْفَى منها في لغات العرب ولهجاتهم. وفي ذلك قال الأفغانيُّ: «إن نهضةَ الشِعْر مَدِينةٌ للأسواق، بل مَدِينةٌ لعُكاظٍ خاصَّةً، عُرِفَ لها هذا الأمرُ منذ الجاهلية حتى اليوم. . .»[2]، وعَدَّ التوحيدَ أعظمَ آثارها قبل البَعْثَةِ: التوحيدَ الذي جرى بين قبائل العرب من عامَّة الأقطار، والتوحيدَ اللغويَّ الذي كان للشعراء والحُكَّام فيه، على مدى سنين مُتَطاوِلَةٍ، أبْلَغُ الأثَرِ في انتقاءِ الألفاظ والأساليب، وشُيُوعِها بوساطة الرواة في القبائل[3]. . .

ولا بُدَّ من الإشارة أخيراً، إلى أن عمل عكاظ على التوحيد والتهذيب، لم يكن مَقْصُوراً على أدب الشعراء والخطباء، بل كان يشملُ أَنْماطاً مُتَعدِّدةً من فنون الكلام، في الاجتماع، والتجارة، ومختلفِ شؤون الحياة، فكان من اللازم أن يجري الكلامُ فيها بألفاظٍ ولهجةٍ يُمكِنُ للجميع فَهْمُها من غير عُسْرٍ.

* * *

(١) لسان العرب: ٧/ ٤٤٦ (شوظ)، والمفصَّل: ٩/ ٧٤٤.
(٢) أسواق العرب: ٢٠٨.
(٣) المرجع نفسه.

المطلب الثالث ـ الحُكُومَةُ بين الشُعَراء:

كان للعرب في سوق عكاظ قُضَاةٌ للشِّعْرِ، أو حُكَّامٌ يتحاكمُ إليهم الشعراءُ، تُضْرَبُ عليهم قبَابٌ حُمْرٌ من أَدَمٍ، تكريماً لهم. فيَتَقدَّم منهم شاعِرُ كلِّ قبيلةٍ، فيَعْرِضُ عليهم جديدَ ما قاله من الشِعْر، فما اسْتَجادَهُ القضاةُ فهو الجيِّدُ، وما حكموا بضَعْفِهِ فهو الرَّكيكُ...

وكان ينتشِرُ حول هذه القباب رُوَاةُ الشِعْر، وأبناءُ القبائل من الرجال والنساء، قَدِمُوا إلى عكاظ، ومع كل قومٍ شاعِرُهم، يستمعون إلى ما أعَدَّهُ للموسم الجديد، وينتظرونَ حُكمَ القضاءِ فيه، فما يكادُ القاضي يُصْدِرُ حُكمَهُ، حتى يتناقلَ الرواةُ والناسُ المجتمعون القَصِيدةَ الفائزة، وينشروها في أحْياءِ العرب، فتَلْهَجُ بها الألْسُنُ في الحَواضِرِ والبوادي، وتَسِيرُ لصاحبها شهرةٌ بين القبائل، تُشَجِّعُهُ، وتُغْري غيرَهُ من الشعراء بنَظْم القصائد، وإنشادِها في الأسواق والمواسم، تخليداً للذِّكْرِ، أو طلباً للشهرة... وفوق ذلك كان الشاعِرُ الفائزُ ما يلبث حتى يُصْبحَ شاعِرَ القبيلة، المُتكلِّمَ باسْمِها، والمُدَافِعَ عن حُقوقها... ومن شأن هذا أن يُطْلِعَنا على أمرين في طبيعة شعراء الجاهلية.

الأول: أن الشِعْرَ الجاهليَّ كان يقوم على الصَّنْعة، فلم يكن الشاعِرُ يقولُ شِعْرَهُ ارْتجالاً، أو عَفْوَ الخاطِرِ، وإنما كان يَعْكفُ على نَسْجِهِ، ويُقلِّبُ فيه رأيهُ، يُجَوِّدُه ويُزَوِّقُهُ، يُرقِّقُهُ أو يجعلهُ جَزْلاً. ومن مظاهرِ الصَّنْعةِ أنهم كانوا يُطلِقُون على الشعراء ألقاباً، تُصوِّرُ مقدارَ ما أحْسَنُوا صُنْعَهُ في شعرهم، أو ما سبقوا إليه من القول فمَهرُوا فيه[1]. ومن ذلك مثَلاً أنهم مَنَحُوا عَدِيَّ بنَ

---

(١) د. شوقي ضيف ـ الفن ومذاهبه في الشعر العربي: ١٣ ـ ١٤، ٢٣.

ربيعة التغلبيَّ لقبَ «المُهَلْهِل»، لما ظهر في شعره من الرِقَّة[1]. كما مَنَحُوا زيادَ بنَ مُعَاوية الذبيانيَّ لقَبَ «النابغة» لتفوُّقِهِ ونُبوغِهِ في الشِعْر[2]، ومَنَحوا ربيعةَ بن سعد السَّدُوسيَّ لقبَ «المُرَقِّش» لقوله:

الـدارُ قَفْـرٌ، والـرُّسُـومُ كمـا   رَقَّشَ في ظهر الأَدِيم قَلَمْ[3]

فكأنما كان هنالك ذَوْقٌ أدبيٌّ عامٌّ في مجامع العرب، يدفعُ الشعراءَ والخطباءَ إلى تجويد أقوالهم، وصَقْلِها، وتهذيبِها، عَمِلَ على نَشْأتِهِ ونَمائِهِ النشاطُ الأدبيُّ واللغويُّ في المواسم الكبرى، ولا سيما منها عكاظ، حيث كان الخطباء والشعراءُ، كما ذكر د. شوقي ضيف، يتبارون فيها، وكلٌّ يريدُ أن يَنتزِعَ وسامَ السَّبْق على أقرانِهِ، عند أهل الموسم[4].

والثاني: أن المعنى الحقَّ لشاعر القبيلة في العصر الجاهلي، هو أنه كان يَشْغَلُ فيها وظيفةً ذاتَ خَطَرٍ، هي وظيفةُ الشاعرِ العامِّ، مَثَلُه في ذلك مَثَلُ فارسِ القبيلة، يَذُودُ عن حِمَاها، ويُدافِعُ عنها، ويفتخرُ بأمجادها، وقلَّما كان شاعرُ القبيلة يتحدَّثُ عن نَفْسِهِ إذا افتخر، وإنما كان يتحدَّثُ بضمير الجماعة التي يُمثِّلُها، ويَعْتزُّ بانتمائه إليها[5]... ومن هنا كان تَفوُّقُ الشاعر على

---

(١) المُهَلْهِلُ: أبو ليلى، عَدِيُّ بن ربيعة، من بني جُشَم، من تَغْلِب. شاعر من أبطال العرب في الجاهلية، لُقِّبَ مُهَلْهِلاً، لأنه أولُ من هَلْهَلَ نَسْجَ الشعر، أي رقَّقَهُ. وكان من أصْبَح الناس وجهاً، ومن أفْصَحهم لساناً. عكف في صِبَاهُ على اللهو والغزل، فسمَّاهُ أخوه كُلَيبُ بنُ ربيعة «زِيرَ النساء» أي جَليسهنَّ. ولمّا قَتَلَ جسَّاسُ بنُ مُرَّة أخاهَ كليباً ثار المهلهلُ، وانقطع عن الشراب واللهو، وأقسم أن يثأر لأخيه، فكانت وقائع بكر وتغلب المشهورة، التي دام النزاع فيها أربعين عاماً. توفي نحو سنة (٥٢٠ م).

(٢) وقيل: بل لقوله: «فقد نَبَغَتْ لهم منّا شُؤونُ...» ـ الأغاني: ١١/٣.

(٣) لسان العرب: ٦/٣٠٦ (رقش).

(٤) البلاغة تطورٌ وتاريخ: ١٠.

(٥) انظر كتاب بنت الشاطىء ـ قِيَمٌ جديدة للأدب العربي: ٣٤ ـ ٣٧.

أقرانه، بين يَدَيْ قاضي الشعراء، فَرَحاً للقبيلة كلِّها، ببُلوغِهِ المقدرةَ الشعريَّة التي تُؤهِّلُه للدفاع عنها، والحديثِ باسمها، والتغنِّي بمفاخرها.

«ويبدو أن من الشعراء النابهين، مَن كان يقومُ في هذه السوق مقامَ القاضي، الذي لا تُدْفعُ حكومتُه»[1]، وقد أسْعَفَتْنا مواردُ الأخبار بمعرفة واحدٍ منهم، إذ أَطْبَقَتْ على أن الحكومة بين الشعراء، في سوق عكاظ، كانت للنابغة الذبياني، في نحو النصف الثاني من القرن السادس للميلاد، ومَطلع السابع. وذكرتْ أنه كانت تُضْرَبُ له هنالك قبَّةٌ حمراءُ من أَدَمٍ، فتأتيه الشعراءُ، فتعرضُ عليه أشعارَها، وتُناقِشُه الرأيَ في فصاحة ألفاظها، وقُوَّةِ تعبيرها وبيانِها، فينقدها نقدَ العالمِ الخبيرِ بأسرار الفَصاحة والبيان، ثم يُصدرُ حُكمه.

وكان أوَّلَ مَن أَنْشدَهُ، في أحد المواسم، أبو بصير الأعشى بنُ ميمون... وكان حسَّانُ بنُ ثابت، أحسَّ من نفْسِهِ القدرةَ يومئذٍ على عَرْضِ أشعاره في سوق الشعر، فجاء إلى عكاظ في ذلك الموسم، ودخَل على النابغة، فأنشدَهُ قصيدتَهُ التي يقول فيها:

نُسَوِّدُ ذا المالِ القليلِ، إذا بَدَتْ ... مُروءَتُهُ فينا، وإنْ كان مُعْدَمَا
وَلَدْنَا بني العنقاءِ، وابنَيْ مُحرِّقٍ ... فَأكْرِمْ بنا خالاً، وأكرمْ بنا ابْنَمَا[2]

---

(١) البلاغة تطور وتاريخ: ١١.

(٢) العنقاء: هو ثعلبة بن عمرو. ومحرِّق: هو أخوه الحارث بن عمرو (يقال إنه أول من عاقب بالنار)، ومن ثعلبة والحارث تفرعت الأوسُ والخزرجُ. إبْنَما: إبناً والميم زائدة. يريد أنهم يُسوِّدون صاحب المروءة وإن كان فقيراً مُعْدَماً، ويفخر بقبيلتَيْ الأوس والخزرج.

وإنّا لَنقْري الضيفَ، إن جاءَ طارقاً من الشحم، ما أمْسَى صحيحاً مُسَلّماً
لنا الجَفَنَاتُ الغُرُّ يَلْمَعْنَ بالضُّحَى وأسيافُنا يَقْطُرنَ من نَجْدةٍ دَما[1]

ثم جاءت الخنسَاءُ السُّلَميَّةُ، فأنشَدَتْهُ قصيدةً ترثي فيها أخاها صخراً، وتقول:

قـذىً بِعَيْنَيْـكِ أم بـالعيـن عُـوَّارُ أم ذَرَّفَتْ إذ خَلَتْ من أهلها الدارُ
تبكي خُنَاسٌ على صَخْرٍ، وحقَّ لها إذ رابَهـا الـدهـرُ، إنّ الـدهـرَ ضَـرَّارُ
وإنّ صخـراً لتـأتـمُّ الهُـدَاةُ بـهِ كـأنـه عَلَـمٌ فـي رأسِـهِ نـارُ
حَمّـالُ ألْـوِيَـةٍ، هَبّـاطُ أوْدِيـةٍ شَهّـادُ أنْـديـةٍ، للجيـش جـرّارُ[2]

وكان قاضي الشعراءِ، النابغةُ، حَكَمَ للأعْشَى، فالتَفَتَ إلى الخنساءِ، وقال لها: واللّهِ، لولا أن الأعشَى أبا بَصيرٍ أنشدني قبلَكِ، لَقُلْتُ إنكِ أشْعَرُ الإنْسَ والجِنِّ، أنتِ واللّهِ أشْعَرُ من كلِّ ذاتِ مَثَانَةٍ... حَكَمَ لها على الشاعرات فقط، فقالت: واللّهِ ومِنْ كلِّ ذي خِصْيَتَيْنِ! فحَمِيَ عندئذٍ حسانُ بن ثابت، وغَضِبَ اعتقاداً بأن النابغة ظَلَمهُ، واسْتَلَبهُ حقَّه في الفَوْزِ، فقال: واللّهِ لأَنا أشْعَرُ منكَ ومن أبيك!... فقام النابغةُ بهدوءٍ، وقَبَضَ على يَدِ حَسَّان، وسأله: حيث تقولُ ماذا؟ قال: حيث أقول:

---

(١) نقري الضيف: نكرمه. طارقاً: زائراً بالليل، وقِرَى الضيف في الليل أدْعَىٰ للثناءِ على المضيف، وفخرِه. الجَفَنات: جمع جفنة وهي القصعة الكبيرة. الغُرُّ: البِيضُ. يفخر بالكرم والشجاعة.

(٢) عَلَم: جبل. تسأل الخنساءُ نفسها في البيت الأول: ما هذه العيون الدامعة؟ أهو قَذَى أصابها، أم بها مرضٌ؟ أم أنها دمعت حزناً على خلوّ الدار من أهلها؟ ثم قالت: إن الخنساء تبكي أخاها صخراً، وهو حقّ لها، فقد رابها الدهرُ، والدهرُ ضَرَّارٌ، ولماذا لا تبكي وصَخرٌ كان إماماً للهُدَاة، كأنه جبلٌ أُوقدتْ نارٌ على رأسه، وقد عَرَفه الناسُ شُجاعاً مِقْدَاماً يقودُ الجيوش، ويحمل ألويتَها.

لنا الجَفَناتُ الغُرُّ يَلْمَعْنَ بالضُّحَى وأسيافُنا يَقْطُرْنَ من نَجْدةٍ دَمَا[1]

فقال النابغة: إنك لشاعِرٌ، ولكنك أقْلَلْتَ جِفَانَكَ وأسيافَكَ، وفَخَرْتَ بمن وَلَدْتَ، ولم تَفْخَرْ بمن وَلَدَك، وقُلتَ: بالضُّحَى، ولو قُلتَ: بالدُّجَىٰ، لكان أَبْلَغَ في المديح، لأنَّ الضيفَ في الليل أكثرُ، وقلتَ: يَقْطُرْنَ من نجدةٍ دَمَا، فدَلَلْتَ على قِلَّةِ القتل، ولو قلتَ: يَجْرِينَ، لكان أكثرَ لانْصِبَابِ الدَّمِ! وأنتَ يا بْنَ أخي لا تُحْسِنُ أن تقولَ مثل قولي:

فإنك كالليلِ الذي هو مُدْرِكي وإنْ خِلْتُ أن المُنْتَأىٰ عنك واسعُ

فخَنَسَ حسَّانُ لقوله، ومضى في طريقه[2].

* * *

ويبدو أن النابغةَ الذبيانيَّ كانت له شُهْرَةٌ معروفةٌ في عالم الشِعْر، فضلاً عن غَلَبَتِهِ على مُعَاصرِيه من الشعراء، فكانوا يعترفون له بالمقْدرةِ والتفوُّق، ويحترمون أحكامَهُ في أشعارهم، إيماناً منهم بسَلامة ذَوْقِهِ في النقد. ومن الممكنِ أن نرى في مُلاحَظات النابغة، أنه كان شديدَ الثقة بمقدرته الشعريَّة، وأنه كان، على الأغلب، يَدْرسُ شِعرَهُ، ويَنْقدُه قبل عَرْضِهِ على الناس، ويعرفُ ما يختارُ منه إذا وقف مُنْشداً بعُكاظ... ذكر الأصفهانيُّ أن النابغة قَدِمَ يوماً سوقَ عكاظ، فنَزَلَ عن راحِلَتِهِ، وجلس على رُكْبَتَيْهِ، ثم اعْتَمَدَ على عَصَاهُ، وأَنْشَأَ يقول:

---

(١) إن جمعَ الجَفْنَةِ والسيفِ على جَفَناتٍ وأسْيافٍ هو لأدنى العدد، أما أكثرُه فهو: جِفَان وسُيوف.

(٢) الأغاني: ١١/٦، و ٤/١٧٠، والشعر والشعراء: ١٦٧ ـ ١٦٨ و ٣٤٤، والخنساء لبنت الشاطىء: ٤٧ ـ ٤٨. ود. محمد طاهر درويش ـ حسان بن ثابت: ٢٤٦ ـ ٢٤٩.

عَـرَفْـتُ مَنـازِلاً بعُـرَيْتِنـاتٍ فَـأعْلَـىٰ الجِـزْعِ، لِلْحَـيِّ المُبِـنِّ[1]

فما كاد حَسَّانُ بنُ ثابت يستمعُ إلى مَطْلَعِ القصيدة، حتى أسرع يقول: هَلَك الشيخُ! فقد رأيتُه تَبِعَ قافِيَةً مُنكَرَةً. ولكنَّ النابغةَ اسْتمرَّ في إنْشَادِ قصيدته، وهو على مَوْقفِهِ في مَوْضِعه، فما زال يُنْشِدُ حتى أتَىٰ على آخِرها، فكانت من أرْوَعِ شِعْرِهِ، وأشْجَاهُ نَغَماً، وأكْمَلِهِ أداءً. . . فأُعْجِبَ بها حسَّانُ أشدَّ الإعجاب[2]. . . ومما قاله النابغةُ في هذه القصيدة:

تَعَـاوَرَهُـنَّ صـرْفُ الـدهـرِ حتـى عَفَـوْنَ، وكـلُّ مُنْهمـرٍ مُـرِنِّ
وَقَفْتُ بها القَلوصَ، على اكْتِئابٍ وذاك تَفـارُطُ الشَّـوقِ المُعَنِّـي
بكـاءُ حَمـامـةٍ، تـدعـو هـديـلاً مُفجَّعـةٍ علـى فَنَـنٍ تُغنِّـي
أَلِكْنـي يـا عُيَيْـنُ، إليـكَ قَـوْلاً سـأُهـديـه إليـكَ، إليـكَ عنّـي[3]

* * *

(١) عُرَيْتِناتٌ وأعلى الجِزْعِ: إسمان لموضعين. المُبِنّ: المقيم بهذه المنازل المرتفعة. يذكر المنازلَ التي كان يقيم أحبابه فيها.

(٢) الأغاني: ٣/ ١٠، والنابغة الذبياني: ١٧٩ ـ ١٨٠.

(٣) تعاورهُنَّ: تداولهنّ وتعاقب عليهن. صرفُ الدهر: أحداثه. عَفَوْن: ذهبتَ آثارُها ودَرَسَتْ. المنهمرُ المُرِنُّ: المطر ذو الرعد. يقول: إن أحداث الدهر، وكلَّ مُنْهمِرٍ من السماء، تعاقبت على هذه المنازل حتى ذهبت آثارها، ولم تُبقِ غير الذكرى.
القلوص: الناقة، التفارط: السبق والتسرّع. يقول إنه وَقَفَ بها ناقَتَهُ مُكْتَئباً لذهاب أهلها ودُرُوسِ آثارها، وسبب كآبته شدَّة الشوق. الهديل: زعموا أنه زوج الحمامة. الفَنَن: الغصن. فهو يبكي بكاءَ حمامةٍ على غصنٍ تدعو زوجها أو حبيبها. أَلِكْني: أبلغ رسالتي. إليك عني: أبعد عني.

المطلب الرابع ـ أَثَرُ النقْدِ في توحيد اللغة:

يبدو واضحاً أن في نَقْدِ النابغة للشعراء، وتَعاليقهِ على أقوالهم، ما يُؤكِّدُ أن شعراءَ الجاهلية كان بعضُهم يُراجِعُ بعضاً فيما يُنشِئُه من الشعر، وأنهم كانوا يُبْدون، في ثنايا مُراجَعاتهم، بعضَ الآراء في الألفاظ والمعاني. وكان أَحَدُهم يفخرُ بجَوْدَةِ شعره على الآخَرين، فكانوا يتنافَرون في ذلك، أي يتحاكمون، كما يتنافَرُ الأشرافُ في سُؤْدَدِهم ومَجْدِهم، إلى المحكَّمين ليقْضُوا بينهم[1]، فكان هؤلاء يُفَضِّلون من سَهُلَتْ عبارتُه، وكان لألفاظِهِ النصيبُ الأَوْفَرُ من الفصاحة والبيان، مع التحرُّزِ من عُيُوبِ النُطْقِ[2]، والابتعادِ عن الكلام الحُوشِيِّ. وهذا من شأنه العملُ على توحيد العربية... وليس هذا وحَسْبُ، بل كان الشعراءُ حينئذٍ «يَسُوقُونَ أحياناً ملاحظاتٍ، لا ريب في أنها أصلُ الملاحظات البيَانيَّة في بلاغتنا العربيَّة. ومَن يتصَفَّحْ أشعارهم يجدْها تَزْخَرُ بالتشبيهات، والاستعارات، وتَتَناثَرُ فيها من حينٍ إلى حينٍ ألوانٌ من المُقَابَلات والجِنَاسَاتِ، مما يَدُلُّ دلالةً واضحةً على أنهم كانوا يُعْنَوْنَ عنايةً واسعةً، بإحْسَانِ الكلام، والتفَنُّنِ في مَعَارِضِه البليغة»[3]، رغبةً في الفَوْز بإعجابِ العرب في مجامِعِهم العامَّةِ الكبرى كعكاظ. ولو نظرنا في نقد النابغة لرأينا أنه «نقدٌ سَدِيدٌ، تناول فيه مسألتين: الأولى لفظية، والثانيةُ معنويَّة. فأمَّا اللفظيَّةُ فإن حَسَّاناً لم يجمع الجفناتِ والأَسْيافَ جمعاً يدُلُّ على الكثرة، والعربُ تَسْتَحِبُّ المُبَالغةَ في مثل هذا الموقف، حين يفخرُ الشاعرُ

---

(١) انظر كتاب الأغاني: ١٣/١٩٨ ـ ١٩٩ (منافرة الزبرقان بن بدر وعمرو بن الأهتم وعبدة بن الطبيب والمخبَّل السعدي إلى قاضي العرب ربيعة بن حُذار من بني أسد بن خزيمة، وذلك بعد ظهور الإسلام، وقبل أن يُسلموا، ليحكم بينهم في شعرهم أيُّهم أجْوَدُ شعراً).

(٢) أدبيات اللغة العربية: ١/١١.

(٣) البلاغة تطوُّر وتاريخ: ١٣.

بالكرم والشجاعة في قبيلته. وأمَّا المسألةُ المعنويَّةُ، فَفَخْرُهُ بمن ولَدَتْهُ نساؤهم، والعربُ لا تفخرُ بالأبناء، وإنما تفخرُ بالآباء... وفي هذا كلِّه ما يَدُلُّ على أن النقدَ في الجاهلية كان شائعاً، وأنه كان يأخذُ مظهريْن عامَّيْن: المظْهر الأوَّلُ يشترك فيه العربُ جميعاً، حين يستمعون إلى شعرِ شاعرٍ، فيقدرونه، ويطربون له، ويتقدَّمُ أشرافُهم وملوكُهم فيُجِيزُون أصحابَه جوائزَ ثمينةً قيِّمةً. وهم في ذلك إنما يرجعون إلى ذَوْقٍ أدبيّ راقٍ، والمظهر الثاني مَقْصورٌ على الأخصائيِّين من الشعراء، الَّذين كانوا لا يكْتَفُون بإظهار الإعجابِ أو السُّخْطِ، وإنما يَعْمَدون إلى إبْداءِ الملاحظات والآراء على ما يسمعون»[1]. هذا، ومن المؤكَّد أن نقدَ الشعرِ الجاهليّ لم يَصِلْ إلينا كلُّه، ولكنَّ ما وصل يَدُلُّ على أنه كان كثيراً، ولا سيما عند الروَاةِ المعلِّمين، فقد تَحوَّلَ فريقٌ منهم إلى نُقَّادٍ، يَفْرضُون أنْفُسَهم، بعِلْمهم وفنِّهم وذَوْقهم، على الشعر والشعراء، وخيرُ مِثَالٍ على ذلك منهم النابغةُ الذبيانيُّ[2]، في قُبَّتِهِ التي كانت تُضْربُ له بعكاظ ليقضيَ بين الشعراء.

على أننا لا نريدُ المبالَغَة في تَقْدير قواعد النقد عند عرب الجاهلية، بل نريدُ التأكيدَ على أنه كان نقداً قيِّماً، تَأَسَّسَ على ذَوْقٍ فِطْريٍّ سليمٍ، وتَوَضَّحَ في المواسم الكبرى، ولا سيما في عكاظ والحجِّ، وقد بلغَ العربُ مبلغاً طيِّباً من الترقِّي في صناعة الكلام، فأَسْهَمَ إسْهاماً كبيراً في توحيد لغة العرب، حينما أَفْلَح في توجيه أنظار الشعراء والخطباء إلى العِنَايةِ بالفَصَاحَةِ والبلاغَةِ والبيان، واختيارِ الألفاظِ والتعابير التي يفهمُها العربُ جميعاً. وبذلك صار غُواةُ الشهرة والخُلودِ من الشعراء والخطباء، يصطنعون الكلامَ، الذي يفهمُهُ

(١) فن النقد: ٢٢.

(٢) المرجع نفسه: ٢١.

عنهم كلُّ العرب، ويختارون من المُفْرَدات ما خَفَّ على السَّمْع، وعَذُبَ في النُطْقِ، ومن العِبَاراتِ ما كان يَأْسِرُ النفوسَ ويملكُ القلوبَ، فتكوَّنَتْ من ذلك كلِّه لغةٌ مِثَالِيَّةٌ، هي لغةُ الشعر والخطابة في المجتمعات الأدبيَّة، وقامت على خَيرِ ما في لَهجاتِ العربِ من القواعد والمفردات، ولا سيما منها لهجات قريشٍ وتميم وإيَاد وأَسَدٍ وقَيْس، ونَفَضَتْ عنها مُعْظَمَ العُيُوبِ التي كانت تَسِمُ سائرَ اللهجات، فبَدَتْ في أَحْسَنِ حُلَّةٍ، فيما وصل إلينا من أدب عصر الجاهلية، وظهرت في أبْلَغِ صورةٍ، حينما نَزَلَ القرآنُ الكريمُ بها، في بلاغَتِهِ المُعْجِزَة، وتَحدِّيهِ العربَ أنَ يَأْتُوا بمثلِهِ، على ما لهم من بلاغةٍ، وفصاحة، ونظرٍ ثاقبٍ في دِقَّةِ التعبير، وخَفَايا القولِ وأسْرارِه.



المطلب الخامس ـ الصورةُ الطبيعيَّةُ لسوق عكاظ:

الصورةُ الطبيعيَّةُ لسوق عكاظ في حياة العرب، كما نقلها إلينا المؤرِّخُون وأهلُ الأخبار، وكما فِهِمَها معظمُ الباحثين المتأخِّرين، وكما عَرَضْناها فيما تَقَصَّيْناهُ من الحوادث والروايات، أنها كانت مَعْرِضاً تجارِيّاً عامَّاً يجمعُ قبائلَ العرب على اختلافها، مثلما كانت مَرْجِعاً يرجعون إليه لبحث شُؤونهم الاجتماعيَّة على تَنوُّعِها، ومَجْمَعاً للشعر والأدب تُنْشَدُ فيه القصائدُ، وتُلْقَى الخُطَبُ والمواعظ، وتُضْرَبُ الأمثال... فكانت، بهذه الصورة، تعملُ على التقريب بين قبائل العرب، وعلى التقريب بين لغاتهم ولهجاتهم، مما أدّىٰ إلى خلق لغةٍ مِثَالِيَّةٍ موحَّدَةٍ، صارت لغةَ المجتمعات الأدبيَّة، فكانوا يستعملونها للتفاهُم، وإنْشادِ الشعر، وقولِ الخُطَب، حتى أضْحَى اسمُ عكاظٍ في التاريخ عَلَماً على كل مَجْمَعٍ، أو مَعْرِضٍ، يضمُّ الأُلوفَ المتباينةَ من الناس، بل عشراتِ الألوف، ويكون حديثُ الشعر والأدب بعضَ ما يجري فيه.

غير أن ثمَّةَ مَن رأى سوق عكاظ على غير هذه الصورة السَّوِيَّة، فكان في تصوُّرِهِ لها إمَّا مُمْعِناً في التقليل من شأنها، أو مُغَالِياً في الخَيَال حتى جاوَزَ به الحقيقةَ. وسنأتي بمثالٍ على كلٍّ منهما. . .

١ ـ التقليل من دَوْرِ عكاظ:

خيرُ مِثَالٍ له ما كتبهُ هيكلُ عن تصوُّرِهِ لما كانت عليه هذه السوق، فقال: «وقد تَعوَّدَ المؤرِّخون، إذ يذكرون عكاظاً، أن يقولوا: إن الشعراء كانوا ينتهزون فرصةَ انعقادِها، فيَعْرضون حَوْليَّاتٍ من نُخَبِ قصائدهم على الناقدين، في احتفالٍ عظيم تَشْهَدُهُ الجماهير، وبذلك يَذِيعُ ما يُقِرُّهُ الناقدون وأُولو الحُكْم من هذا الشعر في أنحاء شبه الجزيرة جميعاً، ويَتَغنَّى به العربُ في كلِّ نادٍ. . . وإن الخطباء كانوا يجعلون منها مَثَابةً لعَرْضِ آرائهم وتعاليمهم! وصحيحٌ أن الشعراء كانوا يُنْشِدون في عكاظ، وأن الخطباء كانوا يتحدَّثون إلى الناس فيها، ولكنَّ ذلك لم يكن سببه أن هؤلاء وأولئك كانوا يتَّخِذون من عكاظ حَفْلاً أَدَبيّاً، ومجتمعاً خاصّاً بألوان البلاغة في الشعر والخطابة، بل كان يرجعُ إلى طبيعة الحياة في بلاد العرب، وإلى أن عكاظاً كانت تضمُّ مِن قبائلها مَن لا يجتمعون طيلةَ العام، إلا أيامَ الحجِّ. وقد كانت عكاظ تجمعُهم لتبادُلِ التجارة، ابْتغاءَ المنافع. وهذا التبادُلُ في التجارة، وهذا التنافُسُ في ابتغاءِ المنافع، وما كان يقعُ أثناء ذلك، وبسببه، من خصوماتٍ تتصلُ بعضَ الأحيان أعواماً مُتَتاليَةً، هو الذي كان يدعو الشعراءَ ليُنْشِدوا، والخطباءَ ليقولوا. أمّا أنَّ هؤلاء الشعراء كانوا يجيئون ليَعْرِضوا شِعرهم للنقد، وأنّ هؤلاء الخطباءَ كانوا يَتَبارون بلاغةً، ليَسْتَعْليَ بعضُهم على بعض في البيان، وأن ذلك كان يقع في الجاهلية، أيامَ كانت لهجاتُ العرب لا يزال بينها من التبايُنِ ما لم يُزِلْهُ اسْتِعْلاءُ لغة قريش، إلا بعد أن

أنزل اللّٰهُ القرآنَ بها، فتَجاوُزٌ في التصوُّرِ، يدعو إليه ما جُبِل الناسُ عليه من تَوَهُّم الحياةِ في كل العصور والأمكنة، على صُورةِ حياتهم في البيئة المحيطةِ بهم. . . فذهبوا يُصَوِّرون عكاظاً، وما كان يجري فيها، هذه الصورةَ الذهنيَّةَ التي أَلِفُوا، والتي تختلفُ وما تُثْبته أنباءُ الحياة العربية في العهد الجاهليّ اختلافاً عظيماً. ولستُ أَزْعم أنني عثرتُ في أَثَرٍ قديم، أو مَخْطُوطٍ غير معروف، على صورةٍ تصفُ ما كان يجري بعكاظ على النحو الذي أريد أن أُسَطِّرَهُ هنا، لكنني انتزعتُ نفسي جهدَ الطاقة من بيئتنا الحاضرة، وحَملتُها على تصوُّرِ البيئة العربية قُبَيْل الإسلام، وفي فَجْرِه، كما تَصِفُها لنا أنباءُ التاريخ، وحاولتُ بذلك، وفي حدود الطبيعة الإنسانية، أن أرى ما كانت عليه عكاظ بالفعل، وما كان يقعُ فيها»[1].

وكأنَّ انتزاعَ النفسِ من البيئة الحاضرة، ووَضْعَها في البيئة الماضِيَة، لِتَصَوُّرِ ما كانت عليه عكاظ، وما كان يجري فيها، أَمْرٌ لا يستطيعُه أحدٌ من الناس إلا هيكل، ولا يجوز لأحَدٍ غيره أن يقُومَ به. مع أنه، كما يَتَبَيَّنُ من مُتابعة حديثه عن عكاظ، لم يُحقِّق من أخبار عكاظ شيئاً، ولم يطَّلِعْ على أكثرَ مما قاله الأزرقيُّ عن مواسم الحجِّ، وبعضِ ما اتَّفق له من كتُب أهل الأخبار، كالأغاني، فيما تحدَّثتْ به عن حروبِ الفِجَار، وخطبةِ قُسِّ بن ساعدة، وطوافِ النبيّ عليه السلام في السوق مُبشِّراً بالإسلام. والصورةُ الطبيعية عنده لعكاظٍ أنها كانت سوقاً يجتمع العربُ بها كلَّ سنةٍ «لتبادُلِ التجارة، وليس لهم من الاجتماع غرضٌ آخَر»، أمَّا ما كان يجري فيها أحياناً من إنشادٍ للشعر وخطابةٍ، فمَرَدُّهُ إلى الخصومات والحروب، التي كانت تنشب بين القبائل، من جرَّاءِ المنافَسَةِ التجارية، «وحيثما اجتمع الناسُ

(١) في منزل الوحي: ٣٦٦ ـ ٣٦٧.

وتنافَسُوا اختلفوا وتخاصَمُوا... فإذا آن للحرب أن تضعَ أوْزارَها، وللخُصُومات أن تَهْدأ ثائرتُها، قام الحكماءُ يَعِظُون المتخاصمين، ويُصْلحون بين المختَلِفين، لا مُتَباهِينَ ببلاغتهم، ولا مُقِيمينَ سوقاً لها، بل عامِلِين لتَهْدِئةِ الخواطر، وإعادةِ السَّكِينة والسَّلْم، حتى تتَّصِلَ التجارةُ... فأمّا ما يضافُ إليها من صُوَرِ مَحافِلِ الشعر، ومُبَاريات الشعراء، وتنافُسِ الخطباء، فخَيَالٌ لا يصفُ الواقعَ، أبْدَعَهُ الأُدَباءُ والكُتَّابُ بعد أن عَفَّىٰ الزمنُ على عكاظ، وهو خيالٌ لا يتفق مع ما يُرْوَىٰ عن عكاظ، وما كان يجري فيها من التجارة، وما يتَّصِلُ بالتجارة من لَهْوٍ وعَبَثٍ، وما يجرُّ ذلك إليه من خصوماتٍ وحروبٍ مُتَّصِلةٍ». واستشهد بعدئذٍ بوقائع الفِجَار الأول، وهي ثلاثةٌ ليس وراءَها أيُّ منافسةٍ تجارية، أو ما يتَّصِلُ بالتجارة! وقد علَّق على بعضها بقوله: فاقْتَتَلوا قتالاً شديداً، ووقعتْ بينهم دماء[1]... مع أن المؤرخين أطْبقوا على أن وقائع الفجار الأول لم يكن فيها قتال[2]. ثم استشهدَ بخطبة قُسٍّ بن ساعدة وقال: فليس يحمِلُ قُسّاً على أن يُلقي هذا الخطابَ، في سوق يتَّجِرُ فيها الناسُ، إلاّ خلافٌ شَجَرَ بينهم، وبلغ التفاخرَ بأصنامهم، فلمَّا هَدَؤُوا، وآن لذوي الرأي أن يحسموه بالحكمة، تحدَّث قُسٌّ هذا الحديثَ، مُتأثِّراً فيه، لا ريب، بعقيدته المسيحية، ولكنْ من غير حِرْصٍ على الدعوة إليها، دعوةً قَلَّ أن تُؤْتي في مثل هذا الجمع ثمرتها»[3]... مع أن كلَّ موارد الأخبار أجمعتْ على أن الرجل ألقَى خطبتَه بعكاظٍ على سبيل التبشير والموعظةِ، وليس لإصْلاحِ ذاتِ البين، ودعا فيها إلى التأمُّلِ

---

(١) في منزل الوحي: ٣٦٨ ـ ٣٦٩.

(٢) الكامل: ٥٨٨/١ ـ ٥٨٩، والعقد الفريد: ٢٥٢/٥، والمعارف: ٦٠٣.

(٣) في منزل الوحي: ٣٧٠ ـ ٣٧١.

والاعْتبار فيما خَلَق الله، ولم يذكرْ تَفَاخُراً بالأصنام ولا خلافاً شَجَر بسببه. وكان الرسولُ عليه السلام يسمعُ الخطبةَ، فأعجبتْهُ، فقال بعدئذٍ: يرحمُ اللَّهُ قُسّاً، إني لأرجو أن يُبْعَثَ يومَ القيامة أُمَّةً وحدَهُ.

ثم استشهد بحرب الفِجَار الثاني بعُكاظ، وذكر أن شعراً كثيراً قيل فيها، كان يُذَاع في الناس، ولا يبتغي قائلوه الاحتكامَ إلى نُقَّادِ الشعر، بل الفخرَ والدعاية[1]... والحقيقة أن حرب الفجار الثاني لم تنشبْ بسبب مُنافسةٍ تجاريَّة بين التجَّار بعكاظ، وأن الشعرَ الذي قيل فيها لم يكن له علاقةٌ بعكاظ، فقد قيل والسوقُ مُعَطَّلة، ولم يدَّعِ أحدٌ أنه عُرِضَ على النقَّاد يومئذٍ والحربُ دائرةٌ، أو أن كلَّ شعرٍ قالته العربُ كانوا يحتكمون فيه إلى نُقَّادِ الشعر بعكاظ! فهذا كلُّه من تَوَهُّم الدكتور هيكل بعدما انتزع نفسَهُ من بيئتها، ونقلها إلى عصر الجاهلية. والغريبُ في مذهبه أن أخبار عكاظ، كما تَقَصَّيْناها وأحْصَيْناها، ليس فيها جمعاً خبرٌ واحدٌ، على الأقلّ، يُنْبِئُنا عن مُتَاجرةٍ أو مُبَادَلةَ مُعَيَّنَةٍ بين تاجِريْن، أو فريقَيْن تنافَسا في سلعةٍ أو مَتاعٍ، أو سُمِّيَ لنا إسمُ تاجرٍ نافَسَ آخَرَ، إلاما كان من أمر بعض الرقيق الذي بيع بعُكاظ! ومع ذلك فإنه يزعم أنّ ما رُوِيَ عن عكاظٍ كلَّهُ مُتَّصِلٌ بالتجارة والتجَّار، وهذا غير صحيح قطعاً، وهو شَبيهٌ بقوله، من غير حُجَّةٍ أو سَنَدٍ: كان يُباح بعكاظ ما لم يكن يُباح بمجَنَّةٍ وذي المجاز من ألوان اللهو والمجُون، ومن ضُروب التجارة والتبادُل، لأن ذا القعدة الذي كانت عكاظُ تُعْقَدُ فيه لم يكن له من الحُرْمَةِ ما كان لذي الحجَّة[2]... وهذا قولٌ غير صحيح أيضاً، ولم يَقُلْ به أحدٌ من السَّلَفِ، ولا من الخَلَفِ. والمواسمُ

---

(١) في منزل الوحي: ٣٧٢.

(٢) المرجع نفسه: ٣٦٧.

الثلاثةُ كانت سواءً في ضروب التجارة، وألوان اللهو، وحُرْمَةُ ذي القَعدة، كما أشرنا آنفاً، كحُرْمَةِ ذي الحجة، وقد سَمَّتِ العربُ المتحاربين بعُكاظٍ فُجَّاراً، لأنهم خرجوا على شِرْعةِ العرب في التحريم، وتقاتلوا في ذي القعدة، فَفَجَرُوا فيه.

صفوةُ القول في مذهب هيكل أنه قام على التوهُّم لا على الأَدِلَّة والأخبار المُسْنَدَةِ، وإلا فأين الإجماعُ الذي رأيناهُ على حكومة النابغة الذبياني بين الشعراء؟ وأين ما قيل عن مُعَلَّقَةِ عمرو بن كلثوم وسائرِ المُعَلَّقات؟ وأين ما قيل في المواسم من شعرٍ في أغراض مختلفةٍ، كالمُعَاظَمةِ في الحزن، والدفاع عن القبيلة، والتهاجي؟ وهل قال الأعشى قصيدته في مدح المحلَّق بعكاظ، لأسبابٍ تتعلَّقُ بالخصومات والحروب؟... أو لأسبابٍ تتعلَّقُ بالتجارة؟ نحن لا نريد الذهابَ إلى أن كلَّ أشْعَارِ العرب أُنْشِدتْ بعكاظ، وذاعتْ بعدما تناولها النقَّادُ هنالك بالنَّقْد، ولكننا نؤكِّدُ أن عكاظاً صارت مَحْفلاً للشعراء والخطباء، من حيث كانت موسماً للتجارة والاجتماع، وهو ما أَثبتْناهُ بما عَرَضْناهُ من أخبار عكاظ، وما ناقشناه في الفصول السابقة من خصائصها... ونحن لا نريد الزَّعْم بأن الخطباءَ يَرِدُون عكاظاً، ليَتَبارَوْا في البلاغة والبيان، ولكننا نؤكد أنهم كانوا يحضرون مواسمَ عكاظ، بوَصْفِهم أشرافَ قومِهم وسادَتَهم ومُقَدَّميهم، فكانوا، إذا تكلَّموا في الناس داعينَ إلى الصَّلاح والهُدَىٰ، أو مُتَفاخِرينَ، يخطبون بلُغَةٍ أدبيَّةٍ مثاليَّةٍ، مُصْطَفاةٍ، مُنْتَقَاةٍ، ليفهمَ عنهم العربُ جميعاً ما يقولون، فكانوا بذلك يُسْهِمون في إزَالةِ التبايُنِ بين لهجات العرب، وفي الاقتراب من اللغة العربيَّة الموحَّدة... وأوضحُ مِثَالٍ على ذلك خطبةُ قُسِّ بنِ ساعدة، التي ذكرنا بعضَها، ثم دعوةُ النبيِّ الكريم قبائلَ العربِ، على اختلاف لهجاتها، إلى الإسلام، وغيرُ ذلك من الأَمثلة التي تَدْحَضُ مذهبَ

هيكل في التقليلِ من شأنِ عكاظ، وتميلُ بنا إلى القول بأن عكاظاً كانت، بالفعل، مَعْرِضاً للبلاغة «ومدرسةً بَدَوِيَّةً، يُلْقَى فيها الشعرُ والخُطَبُ، ويُنْقَدُ ذلك كلُّه، ويُهَذَّب»[1]، وهو ما جعل لها الأثَرَ الكبير في لغة العرب. وهنا يجب أن نُذَكِّر بقول ابن الكلبي: «كانت بعكاظ منابِرُ في الجاهلية، يقوم عليها الخطيبُ بخُطْبتِهِ، وفَعالِه، وعَدِّ مآثِرِه، وأيَّامِ قومه من عامٍ إلى عامٍ...»[2]، وهو قولٌ نعتقدُ أنه دليلٌ كافٍ.



٢ ـ الغُلُوُّ في وَصْفِ عكاظ:

ولعلَّ خيرَ مَن يُمثِّل هذا الاتجاه الأستاذُ معروف الأرناؤوط[3]، في كتابه «سيِّد قريش»، وهو رواية تاريخيَّة اجتماعية، تبحثُ، كما أشار مُؤَلِّفها، عن حياة العرب السياسيَّة والاجتماعيَّة، في العصر الجاهلي، إلى ظهور الرسول عليه السلام. ومن شأن روايةٍ كهذه أن يلتزمَ كاتبُها بالوقائع التاريخيّة، التي أُسِّسَتْ عليها، وأن يُراعي الأمانةَ والدقَّةَ في نَقْلِها، أو في صياغتها. وليس من حقِّه أن يَجْمَحَ به الخيالُ، فيُسْرِفَ في التصرُّف بالوقائع، حتى يصيرَ فيها قاصّاً، أكثرَ منه راويَةً للتاريخ...

---

(١) عكاظ والمربد: ١٣/ ٢٣ (مجلة الرسالة ١٩٣٣ م).

(٢) الأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٧٠.

(٣) **معروف بن أحمد الأرناؤوط**: (١٨٩٣ ـ ١٩٤٨ م). كاتب صِحَافيٌّ، ألباني الأصل. ولد في بيروت، وكتب في بعض صُحُفها، ثم أصدر بدمشق جريدة «فتى العرب» نحو سنة (١٩١٨ م)، فاستمرَّتْ يوميَّةً حتى وفاته. وهو من أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق. من كتُبه: سيد قريش في ثلاثة أجزء، وعمر بن الخطَّاب، وطارق بن زياد، وفاطمة البَتُول، وغيرها.

وقد خصَّ الكاتبُ سوقَ عكاظ بفصلٍ من كتابه، فوق ما قاله عنها في مواضِعَ أُخْرى من سائر الكتاب، فأسْرَفَ في وَصْف مَوْسم الشِعْر بها، حتى غَلَبه الخيالُ على ما أراده من بحث التاريخ والاجتماع في حياة العرب، وحتى شَطَّ به الوهمُ أحياناً عن المَحَجَّةِ، فمضى يُعَيِّنُ أيّاماً، وأسباباً، وتفاصيلَ للحوادث، ليس لأحَدٍ عِلْمٌ بها، أو بشيءٍ منها، وليس في كتابه ما يُشير إلى سَنَدِه فيها! كقوله مثلاً:

«مَضَتْ أربعةُ شهورٍ على رجوع أبي سفيان بن حرب من الشام إلى مكة، فنحن الآن في اليوم الخامس من شهر أيلول سنةَ اثنتين وثمانين وخمسِ مئةٍ، وفي مكة، حيث أخذت وفودُ القبائل تتهافتُ من كل حدب وصَوْبٍ على الكعبة، للاجتماع حولها، ثم لإعْدادِ المعدَّات اللازمة لجعْلِ موسم الشعر في عكاظ، في هذا العام، موسماً حاليَاً بالروعة والجَلال، وقد ضاعَفَ في تَشَوُّفِ الناس إلى هذا الموسم، وتَحمُّسِهم لتجميله وتَزْيينِهِ، ذلك الروحُ الجديدُ، الذي تملَّك القبائلَ بعد الانتصارات المتتالية، التي أحْرَزَها القُرشيُّون في مكة، والحِمْيريُّون في اليمن... وزَهْوٌ طغَى على النفوس لاشتراك اليمن والعراق ونَجْد والشام في موسم عكاظ، الذي اعتاد العربُ تجديدَهُ، وتَنْعِيشَهُ في كل عامٍ، لتكريم الشعراءِ النابِهين... وكانت الشَّحنَاءُ، القائمةُ بين الغَساسِنَةِ في الشام والمنَاذِرَة في العراق، العاملَ الأصليَّ في عُزُوفِ ملوك غَسَّانَ عن إيفاد مُمَثِّلِيهم إلى عكاظ، مع أن ملوك العراق أحاطوا هذه السوقَ برعايتهم وعنايتهم، ووضَعوا الجوائِزَ القيِّمةَ باسم الشعراء البارعين...»[1].

وذكر في موضع آخَر أن وَرَقة بنَ نوفل اعتلى المنبر بمكة في ذلك

---

(١) سيِّدُ قريش: ٢/ ٢٢ ـ ٢٣.

اليوم، «ودعا الناسَ إلى موسم عكاظ في صباح الغَد»، وأن أبا طالب أعْقَبَهُ في الكلام على موسم العام الجديد، فبَاهَىٰ العربَ بحماية قريشٍ مواسمَ عكاظ، و «قَدَّم لهم شعراءَ الموسم الحالي واحداً بعد واحد»[1].

ثم ذكر أن قبائل العرب خرجت من مكة إلى سوق عكاظ في اليوم التالي[2]، وأن عشرةَ آلافٍ من الفرسان المَسَاعِير خرجوا معهم إلى عكاظ[3]... وأن قريشاً أقامت في عكاظ قُبَّةً من الأَدَم، جَلَّلتْها بغطاء من القماش الأخضر، وجَعلتْ على حراسة هذه القبَّة التي أُعِدَّتْ للنابغة الذبياني حرسَ شَرَفٍ من غسَّانَ ولَخْمٍ وقريشٍ وعبد شمس[4]...

ومن الواضح ما في هذه الأقوال جميعاً من غُلُوٍّ في الوصفِ، والخروج عن الحقائق التاريخيَّة! فمن أين للكاتب تعيينُ يوم الخامس من أيلول موعداً لانقضاء أربعة شهور على عودة أبي سفيان بقافلة قريش من الشام؟ ومن أين له تعيينُ ذلك اليوم لحجِّ العرب إلى الكعبة، وتعيينُ اليوم الذي يليه لقيام موسم عكاظ؟ وكيف تكون سنةُ (٥٨٢ م) موعداً لاحتفال قريش بارْتِدادِ الحبشة عن غزو الكعبة الَّذي كان سنة (٥٧٠ م)، وموعداً لاحتفال حِمْيَر بتحرير اليمن الَّذي كان سنة (٥٧٥ م)، وأَنَّىٰ يكون ذلك؟ ومن المُلاحَظِ أيضاً أنه جعل موعدَ عكاظ بعد موسم الحج، وإنما هو قبله، كما جَعَلَ مكانَ اجتماع الناس بمكة، بينما هو في الحقيقة بعُكاظ، يَقْدَمُونها من اليمن ونَجْد والطائف، وربما من العراق!... واخترع كذلك أمْرَ مقاطعةِ ملوكِ غسَّانَ مواسمَ عكاظ، وجَعلَهُ نتيجةً لِخلافِهم مع ملوك بني لخْم بالعراق، مثلما

---

(١) سيِّدُ قريش: ٢/ ٢٦ ـ ٢٧.
(٢) المرجع نفسه: ٢٧.
(٣) المرجع نفسه: ٣٠.
(٤) المرجع نفسه: ٣٢.

جَعلَ إدارةَ مواسم عكاظ بأيـدي ورقة بن نوفل وأبي طالب، وحمايتَها والقيامَ عليها بأيدي قريش! وهي أقوالٌ كلُّها بعيدةٌ من حقائق التاريخ، ولا يملكُ الروائيُّ أن يتصرَّفَ بها على هذا النحو من التحريف والغُلُوِّ، فيسيء إليها، وهو ما فعله معروف الأرناؤوط في روايته.

* * *

الفصل الخامس

تاريخ سوق عكاظ

المطلب الأول ـ البداية: بعض أخبار عكاظ يؤكد وجودها في القرن الثاني للميلاد.

المطلب الثاني ـ النهاية: ظل أمرها يتضاءل في الإسلام حتى انتُهبت سنة (١٢٩ هـ = ٧٤٧ م) ثم لم تعد تنعقد بعدها.

الخاتمة

الفصل الخامس

تاريخ عكاظ

المطلب الأول ـ البداية:

ليس من اليَسِير على المُحقِّق أن يُعيِّنَ السنةَ التي ابتدأتْ فيها مواسمُ عكاظ بالانعقاد. والأخبارُ التي يَصِحُّ التعويلُ عليها في هذا الموضوع، ليست في مُنْتَهى أمرها أكثَر من أدِلَّةٍ على وجود عكاظ في أزمنة مُعَيَّنةٍ، لا في سنةٍ مُعيَّنة، مع تَفَاوتٍ كبير بينها فيما تدلُّ عليه من قِدَم عكاظ. وللباحثين في ذلك آراءٌ مختلفةٌ، أشْهَرُها قولُ الآلوسيّ: إنها «اتّخِذَتْ سوقاً بعد عام الفيل بخمسَ عشرةَ سنةً»[1]، أي نحو (٥٨٥ م)، إذ كانت واقعةُ الفيل سنة (٥٧٠/ ٥٧١ م)... وبينما عَدَّ الدكتور هيكل هذا التحديدَ أَدَقَّ ما رُوِيَ عن الزمنِ الذي بدأ العربُ يُقيمون فيه عكاظاً[2]، عَدَّهُ الدكتور أحمد أمين غيرَ صحيح، لأن معظم الحوادث المأثورة عن عكاظ، يرجعُ تاريخُها إلى ما قبلَ ذلك[3]، ورجَّح الأفغانيُّ إنشاءَ عكاظ قبل الهجرة (٦٢٣ م) بأكثر من سبعين عاماً[4]، أي نحو (٥٥٠ م)، ثم رجَعَ بزمنها في موضع آخر إلى ما قبل القرن السادس للميلاد[5].

---

(١) بلوغ الأرب: ١/ ٢٧٠.

(٢) في منزل الوحي: ٣٦٣ ـ ٣٦٤.

(٣) عكاظ والمربد ـ مجلة الرسالة لسنة ١٩٣٣: ١٣/ ٢٥.

(٤) أسواق العرب: ٢٠٩.

(٥) المرجع نفسه: ٣٤٢.

وقد مرَّ بنا أن الفِجَار جملةُ وقائعَ، نشأت كلُّها في سوق عكاظ، وأن المؤرِّخين يُصَنِّفُونَها في فِجَارَيْن، أوَّلُهما: وهو السابق، قديمٌ مجهولُ التاريخ، كان في ثلاثة أيام مُتفرِّقةٍ على بضع سنين. والثاني: مُتأخِّر، كان في خمسة أيام، نشب سنة (٥٨٦ م)، وانتهى سنة (٥٩٠ م). وهذا من شأنه أن يُبطلَ مذهبَ الآلوسيّ، لأنه يؤكِّدُ أن عكاظاً كانت قبل (٥٨٥ م). ومثلُه أيضاً خبرٌ نقله الأصفهانيُّ، ذكر فيه أن عَبْلة بنت عُبيد، من بني زيد مناة بن تميم، كانت زوجةً لرجُلٍ من بني جُشَم بن معاوية، من هوازن، فبعَثَها بأنْحَاءِ سَمْنٍ تبيعُها له بعكاظ، فباعَتِ السمنَ، وراحِلَتَيْنِ كان عليهما، وشربتْ بثمنها خمراً، فلما نفد ما معها، رَهَنَتِ ابنَ أخيه وهربتْ، فطلَّقها... فتزوَّجها بعده عبدُ شمسٍ بن عبد مناف (٤٧٠ ـ ٥٥٠ م)[1]، فولدتْ له بعضَ ولده[2]. ومن الواضح أن هذا الخبر يرتفع بوجود السوق إلى زمنٍ أقْدَمَ من ذاك، ولعلَّه في أوائل القرن السادس. ويؤكد ذلك قولُ النابغة الجَعْدِيّ[3]:

ولقد شَهِدْتُ عكاظَ قبل محلِّها ... فيها، وكنتُ أُعَدُّ في الفِتْيانِ
والمنذرَ بنَ مُحرِّقٍ في مُلْكِهِ ... وشهدتُ يومَ هَجَائنِ النعمانِ
فمن يَكُ سائلاً عني فإني ... من الشبَّانِ أيامَ الخُنَانِ

أي أنه كان ما يزال فتىً لمّا شَهِدَ عكاظاً، وحينما مَلَكَ الحيرةَ المنذرُ بنُ ماء السماء نحو سنة (٥٠٦ م)، وكان شابّاً كذلك أيامَ «الخُنَانِ»، وهو مرضٌ خطيرٌ وقع في عهد المنذر، ففتك بالناس والإبِل، فأرَّخُوا به إذ

---

(١) انظر جدولَ أنساب مضر بن نزار في كلامنا على مكة، في الفصل الرابع من الباب الثاني.
(٢) الأغاني: ١/ ١٩٩.
(٣) **النابغة الجعديّ**: قيس بن عبد الله، من بني جَعْدة، من عامر بن صعصعة. شاعر مفلق، من المعمَّرين، اشتُهر في الجاهلية، وكان ممن هجر الأوثان، ونهى عن الخمر قبل الإسلام.

عَدُّوه من الحوادث العِظام، وقال إنه عاش حتى أدرك زمنَ الملك النعمان بن المنذر (٥٨٣ ـ ٦٠٤ م). ثم أدرك الإسلامَ، فأسلم، وكانت له صُحبة، وتُوفي نحو (٦٧٠ م) عن عمر طويلٍ، قيل إنه بَلَغَ مئة وثمانين سنة[١]، أي أن مولده كان نحو (٤٩٠ م)، وشُهودَه عكاظاً كان في أوائل القرن السادس، وربما منذ سنة (٥٠٥ م)، أيامَ حَدَاثَتِهِ.

على أنني كنتُ ذكرتُ في أخبار عكاظ مُنَافرةً بين «مَيَّادِ بن حنّ العُذْريّ»، ورجلٍ من اليمن في بعض المواسم[٢]، وأشرتُ إلى أن مَيَّاداً هذا كان يُعاصِرُ قَصيَّ بنَ كلاب (٤٠٠ ـ ٤٨٠ م)، وهذا يرتفعُ بزمن وجودالسوق إلى القرن الخامس... غير أن ذلك كلَّه لا يَدُلُّ دلالةً دقيقةً على تاريخ عكاظ، فحكايةُ الأمثال التي صَدَرتْ عن «ضَبَّة بن أَدّ» بعكاظ، بعد مقتل ابنه سعيد[٣]، تُشير بوضوح إلى أن هذه السوق كانت قائمةً قطعاً في القرن الثاني للميلاد... إذ أن «ضَبَّةَ بنَ أَدّ» هو عمُّ «تميم بن مُرِّ بن أَدّ»، وكانا في عصر واحدٍ. وهنا لا بُدَّ لي من التذكير بما حقَّقْتهُ في كلامي على عهد خزاعة في مكة[٤]، فقد انتهينا هنالك إلى أن عمرو بنَ لُحَيِّ الخُزَاعيَّ هو أوَّلُ من عكف على تنظيم الشؤون العامَّة بمكة والحجاز ونَجْد، جَرْياً على خطته في النهوض بها، وترغيب سائر العرب في شُهُودِ مواسمها، سواء أكانت للحجِّ والعبادة، أو للتجارة والاجتماع واللهو. فعيَّنَ للمواسم وقتئذٍ أَئمَّةً يُدِيرونَها، وكان منهم أئمَّةُ عكاظِ وقُضاتُها. ولم تَرِدْ قبل ذلك أيَّةُ إشارةٍ إلى وجود

---

(١) الإصابة: ٣/٥٠٨/ت: ٨٦٤١، والمفصَّل: ٣/٢١٩ و٨/٥٢١، و٩/٨٤٧، ولسان العرب: ١٣/١٤٣ (خنن).

(٢) انظر الفقرة الرابعة في الفصل الثالث من هذا الباب.

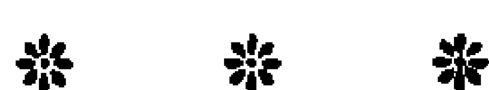
(٣) انظر الفقرة الأولى في الفصل نفسه.

(٤) انظر الفقرة الثالثة من المطلب التاسع في الفصل الرابع من الباب الثاني، في الجزء الأول.

عكاظ، فضلاً عن وجود أَئمَّةٍ وقُضاةٍ لها! وقد أَطْبَقَ أهلُ الأخبار على أن «سعدَ بنَ زيد مناة بنِ تميم» هو أوَّلُ من اجتمعت له الخصلتان معاً من بني تميم: إمامةُ الموسم، والقضاءُ بعُكاظ، ومعنى هذا أن إحداهما كانت في أبيه، والأُخرى كانت في عمِّه عمرو بن تميم، ثم صارتا بعدئذٍ إرثاً في أبنائهما. وفي ذلك يقول شاعرُ بني تميم، المخبَّلُ السعْدِيُّ[1]، مفتخراً بِجَدِّه سَعْد بن زيد مناة:

ليـالـيُّ سعـدٍ فـي عكـاظَ يَسُـوقُهـا له كلُّ شرقٍ من عُكاظَ ومَغْربِ[2]

مما يعني أن هذا الشأن من عكاظ كان في بني تميم، منذ أواسط القرن الثاني للميلاد، وأن سوق عكاظ كانت موجودةً وقتئذٍ من غير شك، وذلك منذ بدأت تجارةُ القوافل تنتقلُ إلى مكة، بعدما سقطتِ البتراءُ سنة (١٠٦ م)، وتَلَتْها تدمرُ سنة (٢٧٢ م)، وكانت بين هذه وتلك ولايةُ خُزَاعَة شؤونَ مكةَ وما حولها، ثم نهضةُ الحجاز بمواسمه وقوافله على طرُق التجارة الدوليَّة.



المطلب الثاني ـ النهـايــة:

ظلَّت سوقُ عكاظ تقومُ في الإسلام، فعاصَرتْ ظهورهُ، وشَهِدَتْ دعوةَ الناس إلى الإيمان به، وكانت وقتئذٍ مُزْدَهِرةً. ثم أخذ شأنُها يَضْعفُ منذ هاجرَ المسلمونَ من مكة إلى المدينة، لما كان بينهم وبين المشركين بعد

---

(١) المخبَّل السعدي: شاعر مُعمَّر من مُخَضْرمي الجاهلية والإسلام، توفي غالباً في خلافة عمر، بعدما أَسَنَّ وضَعُف. وهو: الربيع بن ربيعة بن مالك بن ربيعة بن عوف بن قتال بن جعفر أنف الناقة بن قريع بن عوف بن كعب بن سعد. فإذا قدرنا وجود المخبَّل بين (٥١٠ ـ ٦٤٠ م)، كان سَعْدٌ من أبناء القرن الثاني.

(٢) الأزمنة والأمكنة: ٢/١٦٧.

ذلك من وقائِعَ وغزوات، عَوَّرتْ على أهل الحجاز ونَجْدٍ متاجِرَهم، وأفْسَدَتْ طُرُقَهم، وهدَّدَتْ قوافِلَهم بالاستلاب.

ولمّا كانت الفُتوح، انْقَلبَ العربُ غُزَاةً فاتحين، فانصرفوا عن التجارة، وتضاءَلَ شأنُ أسواقهم، إذ كان في الفُتوح ما شَغَلهم عنها، وكان لهم في أسواق الشام والعراق ومصر وإيران ما سَدَّ حاجاتهم إلى سِلَعِ التجارة وعُروضِها. وكان لهم في القرآن الكريم شاغِلٌ بعُلوم الدِين، وأحكام الشريعة، عن شؤون الشعر والأدب.

وكان العربُ في الجاهلية يتَأَثَّمُون من الجمع بين الحجِّ والتجارة، فكانوا يُتَاجِرُون في مواسم عكاظ ومجنَّة وذي المجاز قبل حُلول موسم الحجِّ، فلما كان الإسلام، أباح لهم التجارةَ في موسم الحج، فاسْتَغْنى كثير من التجار عن شهود مواسم عكاظ، ولا سيما بعد انصرافِ كِبَارِ الناس وأشْرافهم عنها إلى قيادة الجيوش، وإدارة معارك الفُتوح. وهذا كلُّه كان عاملاً كبيراً على تضاؤل شأن عكاظ.

ويأتي فوق ذلك عاملٌ كان من أكبر الأسباب في انحطاط عكاظ، وإهْمالِ أمرها، بعدما أُطْلِقَتِ الشهورُ القمريَّةُ من عِقَالها، في حجَّة الوداع (١٠ هـ = ٦٣٢ م)، فصارت الشهورُ والمواسمُ تدور في الفصول الأربعة، وكان العربُ يعملون قبل ذلك على تَثْبيتها، لتظلَّ مواسمُهم ثابتةً في مواقيتها المُعَيَّنَةِ لها من السنة الشمسيَّة. فلمَّا جعلتِ الشهورُ تدور، فَقَدَ موسمُ عكاظ ثباتَ مَوْعِدِه، ففقَدَ بذلك ركناً رئيساً في أساس وجوده واستمراره. فالمواسمُ إنما سُمِّيت بذلك لأنها وسِمَتْ بوقتٍ، يجب أن يظلَّ ثابتاً، لأنه قائمٌ في الأصل على أحوال ثابتةٍ في الزراعة، والتجارة، والغَلَّاتِ، والنِتَاجِ، ووفاء الديون، وما إلى ذلك.

وهكذا تضاءل أمرُ عكاظ، وخَمَلَ ذِكْرُها، ولكنها لم تزل قائمةً، على

ضَعفها، حتى ثارت بمكة طائفةٌ من الخوارج سنة (١٢٩ هـ = ٧٤٧ م) وكان على رأسهم المختارُ بن عَوْف[١]، فانتَهبوها، فخاف الناسُ بعدها على أموالهم وأَنْفُسِهم، فلم يعودوا إليها، فتُرِكَت حتى الآن، ثم تُركتْ مَجَنَّة وذو المجاز بعد ذلك، واسْتُغْنِيَ عنها جميعاً بالأسواق في مكة ومِنى وعرَفة[٢]. وانطوىٰ بذلك سِجلٌ مُشْرِقٌ لحضارة العرب في الجاهلية، ظلَّ مَنْشُوراً نحو خمسة قرون، كان له فيها أعظمُ الآثار في حياة العرب الاجتماعيّة، والأدبيَّة، والسياسيَّة، وفي تَقْرِيبهم من الوحدة القوميَّة، وبُلوغِهم اللغةَ الأدبيَّةَ الموحَّدةَ، التي كان لها الفضلُ فيما وصل إلينا من أَدَبِ الجاهلية في الشعر والخطابة والأمثال والمواعظ وغيرها. وكان من حقٍّ عكاظٍ على أصحاب الأمر فيها اليومَ، أن يَبْعَثُوها من جديد، ويُقيموا مواسمَها على الأرض التي كانت تقومُ فيها، وعلى النحو الذي كان أجدادُنا يَنْحُونَه في إقامتها عند إدْبارِ الصيف وإقْبالِ الخريف، فذلك كان ميقاتَ موسمها، ثم في اتخاذِها مَعْرِضاً اقتصادياً، ومَحْفِلاً اجتماعيّاً، ومَجْمَعاً لُغَوِيّاً وعِلْمِياً، لعلها ترجعُ مُجدَّداً، فتصبح مُلْتَقَى العلماء والشعراء والأُدَباء، وقُطْبَ الدائرة الفِكريَّة في بلاد العرب.



(١) **المختار بنُ عوف الأَزْديُّ**: أبو حمزة، وُلد بالبصرة، وأخذ بمذهب الخوارج الإبَاضِيَّة، وكان في كل سنة يُوافي مكة يدعو الناس إلى الخروج على مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية، حتى كانت سنة (١٢٩ هـ) فقام بفريق من الخوارج واستولى عليها، وتبعه جمعٌ من أهلها. قُتِل سنة (١٣٠ هـ).

(٢) أخبار مكة: ١/ ١٩٠.

الخـاتمــة:

أمَّا بعدُ، فقد كان من طبائع الأمور إذن، كلما ذُكرت أسواقُ العرب في الجاهليَّة، أو كلما ذُكر مَجمَعٌ للناس عامٌّ، أن تكون سوقُ عكاظ أوَّلَ ما يأتي في الخاطِر، وأوَّلَ ما ينطق به اللسانُ، فكأن اسمها صار عَلَماً على كلِّ مَجْمعٍ، ورمزاً لكلِّ نشاطٍ يتَّصلُ بما كان يجري في عكاظ من قريبٍ أو من بعيد... وما من شيءٍ ذُكر في كُتب التاريخ والأدب والأخبار مثلما ذُكرت عكاظ، ومع أن سُوقَيْ مَجنَّة وذي المجاز اتَّصل مَوْسِماهما بموسم عكاظ في نَسَقٍ زَمَنيّ واحد، فإنهما لا تُذكران إلا عند الكلام على مواسم الحجِّ وشعائره، فكأنهما كانتا أكثرَ اتصالاً بمواسم عَرَفَة ومِنىً والكعبة منهما بموسم عكاظ، غير أن التجارة فيهما كانت مُباحةً، وفي مِنىً وعَرَفَةَ كانت مَحْظُورةً.

وإني أعتقد أن ما قدَّمتُهُ في كلامي على عكاظ، قد استوفيتُ فيه كلَّ ما يجب على الباحث الصادق، في مثل هذا الموضوع الخطير، أن يستوفيه، وما كان حُلماً فيما أَشْكَلَ أو خَفِيَ من أمور عكاظ، جعلتُه بالبحث والتحقيق والاستقراء حقيقةً وعِلْماً.. فقد كشفتُ عن خصائص هذه السوق، وعيَّنْتُ موقعها، وبيَّنْتُ طبيعةَ موضعها، وذكرتُ أصحابَها، وولاةَ القضاءِ فيها، وزمانَها، وأفَضْتُ في الحديث عن مجامع العرب فيها، ومنابرها، ومحافل الشعراء والخطباء بها، ووصفتُ منازلَ القبائل وعدَّدت النزلاء وأشياءَ أُخرى كثيرة، ولعلِّي فيما بذلتُ من الجهد قد أَصَبْتُ ما أصبو إليه من النجاح.



الفصل السادس

موسمُ سوقِ مجنّة

مقدمــة:

ذكر الأزرقيُّ أن العرب كانوا، كلما أَهَلَّتْ شهور الحجِّ، وهي شوّال وذو القعدة وعَشْرٌ من ذي الحجَّة، يخرجون إلى مواسمهم في عكاظ ومجنّة وذي المجاز وعَرَفَة ومِنىً، فهذه مواسمُ الحجّ. . . وكانوا يقولون: لا تحضروا أسواق عكاظ ومجنَّة وذي المجاز إلا مُحْرِمين بالحجّ[1].

وكنا أَفَضْنا في الحديث عن موسم سوق عكاظ، ونتحدَّثُ هنا عن موسم مجنَّة، مَوْقِعها وميقاتها وما أُثِرَ من وقائعها.

١ ـ موقع السوق وأصحابها:

ذكر الأزرقيُّ أن «مَجنَّة» سوقٌ بأسْفَل مكة، على بريدٍ منها. . . أي على نحو اثْنَيْ عَشَر ميلاً إلى الشمال من مكة. وأنها سوقٌ لبني كنانة، وأرضُها من أَرْضِهم[2]. وهي التي يقولُ فيها الأصمعيُّ إنها كانت بِمَرِّ الظَّهْران، قُربَ جبلٍ يُسمَّىٰ: الأصْفَرَ، وهو في شمال مكة على قَدْر بريدٍ منها، وكانت لبني الدُّئِل بن بكر خاصَّةً، من بني كنانة بن خزيمة. وذكر ياقوت أن «مَرَّ الظهران»

(١) أخبار مكة: ١/ ١٨٧، ١٨٩، ١٩٢.

(٢) المرجع نفسه: ١/ ١٩٠.

موضعٌ على مرحلةٍ من مكة (٢٤ ميلاً)، به عُيونٌ كثيرةٌ، ونخلٌ، وجُمَّيْزٌ، وسوقُ مَجنَّةَ كانت تقوم في قرية مَرٍّ بوادي الظهران، بجَنْبِ «طَفِيل» وهو جبلٌ مُشْرِفٌ على مجنَّة[1]. وإيَّاهُ كان بِلالٌ الحبشيُّ يريدُ فيما كان يتمثَّلُ به من قول الشاعر، شوقاً إلى مجنَّةٍ، وطِيب هوائها، ولذَّة مياهها:

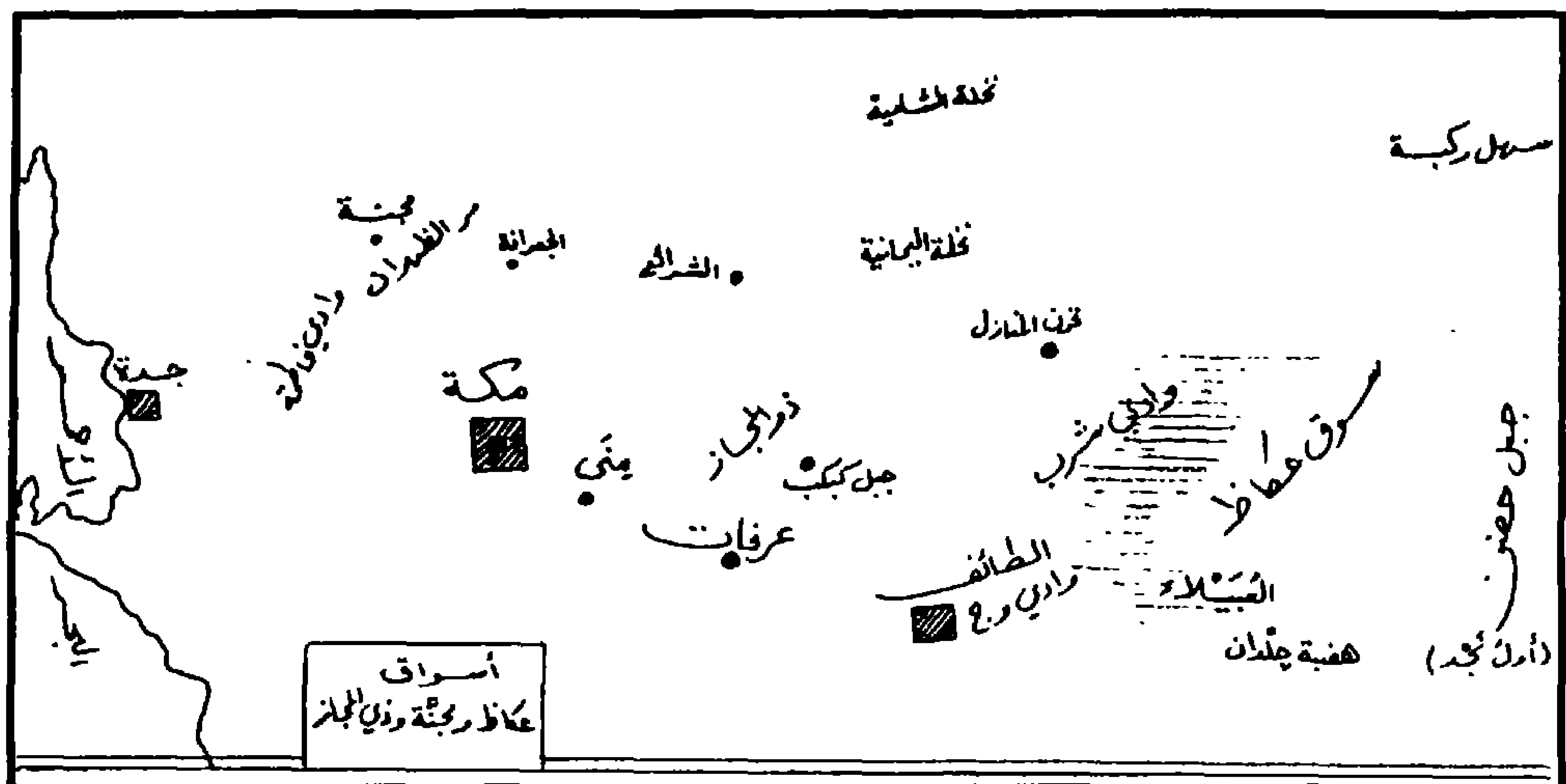
ألا ليت شعري هل أبِيتَنَّ ليلةً … بفَخٍّ وحولي إذْخِرٌ وجَليلُ
وهل أرِدَنْ يوماً مِيَاهَ مَجنَّةٍ … وهل يَبْدُوَنْ لي شامَةٌ وطَفِيلُ[2]

فكان النبيُّ عليه السلام إذا سمع ذلك يقول: اللهم حَبِّبْ إلينا المدينة كحبِّنا مكَّةَ أو أشَدَّ، وصَحِّحْها وباركْ لنا في صاعها ومدِّها[3]. وهذا دليلٌ على حُسْنِ موقعها، وهو ما لعلَّه يتبيَّنُ من تقليب بعض معاني إسمها، فكأنها سُمِّيت بذلك لشيءٍ فيها يتصل بالجَنَّة، أي البستان، أو يتَّصلُ بالمُجون لما كان بها منه[4].

٢ ـ موسمُ السوق:

كانت العربُ، إذا مضتْ عشرون يوماً من أوَّلِ ذي القعدة، انصرفوا عن سوق عكاظ إلى سوق مجنَّة، فأقاموا بها الأيامَ العشرةَ الأخيرة من

(١) معجم البلدان: ٥/ ٥٨ ـ ٥٩، و ٥/ ١٠٤، وأسماء جبال تهامة: ٤٦، والكامل: ١/ ٥٩٠، وتاريخ الطبري: ٣/ ٩٤.
(٢) فَخٌّ: وادي الزاهر بمكة. الإذْخِرُ: حشيشٌ طيب الرائحة، يُسقف به البيوت فوق الخشب، له ثَمرٌ يُطحن ويُدخل في الطيب. ينبت في الحُزون والسهول. شامَةٌ وطفيل: جبلان مشرفان على مجنَّة.
(٣) تاريخ دمشق لابن عساكر: ١٠/ ٣١٩ ـ ٣٢٠ (مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق)، وأخبار مكة: ١/ ١٩١، ومعجم البلدان: ٥/ ٥٩ و ٣/ ٣١٥.
(٤) لسان العرب: ١٣/ ١٠٠ (جنن)، ومعجم البلدان: ٥/ ٥٨.



الشهر[1]، أسواقُهم قائمةٌ للبيع والشراء والمُبادَلاتِ المختلفة. فكان مَنْ فاتَهُ شُهودُ موسم عكاظ، أو شَهِدَها وفاتَهُ غَرَضٌ فيها، يَسْتوفيه في موسم مَجنَّة، ومَنْ بَقِيَ عنده فَضْلٌ من عُروض التجارة عَرَضَهُ للبيع فيها، ومَن كان له أَسِيرٌ لم يُسْعِفْهُ الحظُّ في العثور عليه بعُكاظ، سعَىٰ إلى مَجنَّةٍ يبحثُ عنه، لعلَّهُ يعثرُ عليه عند أحدٍ من قبائل العرب فيُفَادِيه.

ومما لا ريْبَ فيه أنه كان في هذه السوق مثلُ ما كان بعكاظٍ، أو مُعْظَمُه، من الأنْشَطةِ التجاريّة والاجتماعيّة والأدبيَّة، فكأنَّ موسمَها كان استمراراً لموسم عكاظ، ولكن مَوْضعَها أقربُ إلى مناسك الحجِّ من عكاظ، وأصحابَها من بني كنانة، وأرضَها من بعض أَرْضِهم، بينما أصحابُ عكاظ من بني هوازن، وأرضُها لهم... وربما كان ذلك مقصوداً، ليَعمَّ النفعُ مختلفَ قبائل العرب، ولا سيما أن موسم مَجنَّة كان يقعُ وقتئذٍ في زمن الخرِيف، فكانوا يَتَربَّعُونَ في موضعها، يَنْهلون من مياهها، ويَجْنُون من ثمارها. وقد علمنا من شعرٍ لأبي ذُؤَيْب الهُذَليّ، أن الخمر كانت تُجلبُ

---

(١) أخبار مكة: ١/١٨٧.

إليها من بُصْرَى وغزَّة، وذلك حيث قال[1]:

سُـــلافَـــةُ راحٍ ضُمِّنَتْهـــا إداوَةٌ   مُقَيَّـرَةٌ رِدْفٌ لمـؤخَـرةِ الـرَّحْـلِ[2]
تَـزَوَّدَهـا مـن أهـلِ بُصْـرى وغَـزَّةٍ   على جَسْرةٍ مرفوعةِ الذَّيْلِ والكِفْلِ[3]
فَـوَافَـىٰ بهـا عُسْفَـانَ، ثـم أتـى بهـا   مَجَنَّةَ تَصْفُو في القِلاَلِ ولا تَغْلي[4]

وكان شُعراءُ العربِ اعْتَادوا أن يَصِفُوا الخمرَ، ويُشِيدوا بذكرِها، ويُعيِّنُوا مواضِعَ صُنْعِها وَوُرودِها.

وأخيراً نُشِيرُ إلى أن سوق مجنَّة كانت، على شاكلة عكاظ، منطقةً حُرَّةً، مُعْفَاةً متاجِرُها من الضرائب أو العُشُور، لأنها واقعةٌ في إطار مناسك الحجّ، ولأن موسمها يقوم في شهرٍ حرام، وليست في حَوْزَةِ مَلِكٍ يستبدُّ بمقاليد الأمور فيها. أمَّا القضاء بين الناس فيها، فأعتقدُ أنه كان من شأن حُكَّام بني كنانة، وسائرِ مَن كانت العربُ تَرتضي حكومتهم من القضاة.

* * *

---

(١) معجم البلدان: ٥/ ٥٩.

(٢) **سُلافَةُ الراح**: ما سال وتَحلَّبَ قبل العصر، وهو أفضلُ الخمر. **الإداوةُ المُقَيَّرة**: إناءٌ من الجلد، مَطْلِيٌّ بالقار حفظاً للخمر أن يُصيبها مكروه. **الردْفُ**: الراكبُ خلفَ الراكِبِ، وكلُّ ما تبع شيئاً فهو رِدْفُه. **الرَّحْل**: مركبٌ يُجعل على الناقة.

(٣) **الجَسْرَةُ المرفوعةُ الذَّيْلِ**: الناقةُ العظيمةُ. **الكِفْل**: ما يحفظُ الراكبَ من خَلْفِه، وهو شيءٌ كالحبل يُجْعل على سنام البعير لحفظ الراكب والرَّحْل.

(٤) **القِلاَلُ**: جمع قلَّة وهي الجَرَّةُ العظيمةُ. وقولُه: لا تَغْلي أي لا تَجيشُ بقُوَّةِ الحرارة.

الفصلُ السابع

موسم سوق ذي المجاز

١ ـ موقع السوق وأصحابها:

يقعُ ذو المجاز عن يمين الموقف من عَرَفَة، على ثلاثة أميال منها، في موضع قريبٍ من كَبْكَب، على ماءٍ ينبعُ من أصله. وكَبْكَبُ هو الجبلُ الذي يجعله الواقفُ بعَرَفَة خلفَ ظهره[١]. وهو سوقٌ لبني هُذَيْل بن مُدْرِكة[٢]، وقد أكثر شعراؤهم من ذكره في قصائدهم، لأنه أعظمُ مواسمهم.

ولستُ أدري إن كان صحيحاً ما تَفَرَّدَ به ابنُ الأثير، عندما عيَّن موقعَ ذي المجاز بقوله: «كان ذو المجاز بالجانب الأَيْسَرِ، إذا وَقَفْتَ على الموقفِ» بِعَرَفَة[٣].

٢ ـ موسم السوق:

كان العربُ إذا رأوا هلالَ ذي الحجَّة انصرفوا عن سوق مَجنَّة إلى ذي المجاز، فأقاموا به ثمان ليالٍ[٤]، أسواقُهم قائمةٌ للبيع والشراء وسائر

---

(١) أخبار مكة: ١/ ١٩١، ومعجم البلدان: ٥/ ٥٥ و ٥/ ٢٦٥.

(٢) هُذَيْلُ بن مدركة بن الياس، وهو عمُّ كنانة بن خزيمة بن مدركة، وكان بنو هُذَيْل أشعرَ العرب حَيّاً، وأشعرَ هُذَيْل أبو ذؤيب.

(٣) الكامل: ١/ ٥٩٠.

(٤) أخبار مكة: ١/ ١٨٧، والمحبَّر: ٢٦٧، والأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٥.

الأغراض الاجتماعية والأدبيَّة، فكان يجري في هذا الموسم ما كان يجري في مجنَّة وعكاظ ومُعْظَم المواسِم الكبرى. بل كان يجتمع فيه أكبرُ حَفْلٍ من قبائل العرب، تَفِدُ إليه من اليمن وحضرموت وعُمَان والبحرين ونَجْد والحجاز وتهامة والعروض، وبلاد الشام والعراق. . . ذلك أن موسمَ ذي المجاز كان آخر مواسم الحجّ التي يَحلُّ لهم فيها الجمعُ بين التجارة والنُّسكِ، ثم يمتنعون من التجارة في عَرَفَة ومِنًى بعد انقضاء موسم ذي المجاز.

٣ ـ من وقائع مواسم ذي المجاز:

وقد أُثِرَتْ وقائعُ كثيرةٌ ممّا كان يجري في ذي المجاز أيّامَ انعقاد موسمه، فأحْصَينا جُملةً منها تُشير إلى بعض أنْشِطَة العرب فيه.

● **الدعوة إلى الإسلام:**

ذكر ابنُ كثير في روايةٍ مُسْنَدةٍ، نقلها عن الإمام أحمد، أن رسول الله ﷺ كان في الجاهلية يسيرُ في سوق ذي المجاز، وهو يقول: «يا أيها الناسُ، قولوا لا إلَه إلا الله تفلحوا»، والناسُ مجتمعون عليه، ووراءَهُ رجُلٌ وَضيءُ الوجه، أحْوَلُ، ذو غَديرتَيْن، يقول: إنه صابىءٌ كاذبٌ، وكان هذا الرجلُ عمَّه أبا لهب. . .

وذكر في روايةٍ أخرى أنه كان، عليه السلامُ، في سوق ذي المجاز يتبع الناس في منازلهم يدعوهم إلى الله. . . وأنه كان في مقتبل الدعوة يعرضُ نفسَه على قبائل العرب في كل موسم، ويسأل أشرافَهم أن يُؤْوُوهُ ويَمْنَعُوه، ويقول: «لا أُكْرِهُ أحداً منكم على شيء، مَن رضيَ منكم بالذي أدعوهُ إليه فذلك، ومَن كَرِه لم أُكْرِهْهُ، إنما أريد أن تُحْرِزوني فيما يُراد لي من القتل،

حتى أُبَلِّغَ رسالةَ ربّي، وحتى يقضي اللَّهُ لي ولمن صَحِبَني بما شاء»[1].

وذكر البلاذريُّ أن شيخاً من بني كنانة رأى رسولَ الله بسوق ذي المجاز، في بُرْدَيْن أحمريْن، مَرْبُوعاً، حَسَنَ الوجهِ، شديدَ سواد الشَّعْر، سابِغَهُ، شديد البياض[2]. وقد ذكر ابنُ سعد هذه الرواية أيضاً[3]، ونقل عن رجُلٍ من قوم طارق بن عبد الله قوله:

«إني بسوق ذي المجاز إذ مرَّ عليَّ رجُلٌ شابٌّ، عليه جُبَّةٌ من بُرْدٍ أحمر، وهو يقول: يا أيها الناسُ قولوا لا إلَه إلا الله تفلحوا... ورجُلٌ خَلْفَه يرميه، قد أدْمَىٰ عرقوبَيْه وساقَيْه، يقول: إنه كذَّابٌ فلا تُطيعوه! فقلتُ: من هذا؟ قالوا: غلامٌ من بني هاشم يزعم أنه رسولُ الله، وهذا عَمُّه عبد العُزَّى»[4].

ولقيَ النبيُّ بسوق ذي المجاز سُوَيْدَ بنَ الصَّامت الخَزْرَجيَّ، وكان قومُه يُسَمُّـونـه «الكـامـل»، فـدعـاهُ إلـى الإسـلام، وقـرأ عليـه شيئـاً مـن القـرآن، فاسْتَحسنه، ثم انصرف عائداً إلى المدينة، فلم يلبث أن قتله الخزرجُ، وكان ذلك قبل الهجرة[5]... وبسُوق ذي المجاز أيضاً لقيَ رسولُ الله قيسَ بنَ الخطيمَ[6]، فدعاه إلى الإسلام[7]، فتريَّث في قُبوله، فقُتل قبل أن يُسْلم.

* * *

---

(١) البداية والنهاية: ٣/ ١٣٦ ـ ١٣٨.

(٢) أنساب الأشراف: ١/ ٣٩٦.

(٣) الطبقات الكبرى: ١/ ٤٣٣.

(٤) المرجع نفسه: ٦/ ٤٢.

(٥) الأعلام: ٣/ ١٤٥.

(٦) قيس بن الخطيم بن عديّ: من شعراء يثرب في الجاهلية، وأحَدُ صَنَاديد الأَوْس، له ديوان شعر جيّد، ذكر فيه أيامَهم، ووصَفَ النساءَ والحربَ، وحياةَ البُدَاةِ والمتحضّرين.

(٧) الطبقات الكبرى: ٨/ ٣٢٣.

● **طلاب الثأر:**

وكثيراً ما كان طُلَّاب الثأر يُؤخَذون بثورة الانتقام في المواسم، فإذا رأَوْا واتِراً لهم عاجَلوهُ بالقتل، قبل أن ينقضيَ الموسم، ويفلتَ منهم.

ومن ذلك ثأرُ «قَيْس بن الخَطيم» من قاتل جَدِّه بذي المجاز... وكان رجلٌ من بني عبد القيس، من أهل هَجَر البحرين، اغتال الخَطِيمَ فقتله، وقيسٌ يومئذٍ صغير، وكان عديٌّ أبو الخَطيم قُتِل قبله أيضاً، فلما بلغ قيسُ بنُ الخطيم مبلغَ الشباب، وعرف أخبارَ قومِهِ، وموضعَ ثأرِهِ، لم يَزَلْ يلتمسُ غِرَّةً من قاتل أبيه وقاتل جَدِّهِ حتى ظفر بالأوَّل في يثربَ فقتله، ثم ظفر بالثاني في موسم ذي المجاز واقفاً على راحلته بالسوق، فعاجَلَهُ بطعنةٍ من حَرْبَتِهِ فقَتَلَهُ، وقال:

ثَأَرْتُ عَدِيّاً والخَطيمَ فلم أُضِعْ ... وِلايةَ أشْيَاخٍ جُعِلتُ إزاءَها[1]

* * *

ومثل ذلك أيضاً ما فعله هشامُ بن الوليد بن المغيرة المخزوميُّ، عندما وَجَدَ أبا أُزَيْهِر الدَّوْسيَّ قاعداً في مقعد أبي سفيان بن حرب بذي المجاز، فعَاجَلَهُ بضربةٍ على رأسه[2]... وكان لأبي أُزَيْهر ثلاثُ بنات، زوَّج الأولى من أبي سفيان، وزَوَّجَ الثانية من عُتْبة بن ربيعة، وزوَّج الثالثة من الوليد بن المغيرة والدِ هشام، ولكنه أَمْسَكها عنه، ولم يُهْدِها إليه! وكادت أن تقوم فتنةٌ يومئذٍ بسبب ذلك، ولكن أبا سفيان استطاع إخمادَها بحِلْمه وأَنَاتِهِ. وفي هذه الواقعة قال جَعْدةُ بن عبد الله بن عبد العُزَّى:

لا أرى في الأَنَامِ مثلَ هشام ... أبداً من مُسَوَّدٍ ومَسُودِ

---

(١) الأغاني: ٣/ ٤، والأعلام: ٥/ ٢٠٥.

(٢) أنساب الأشراف: ١/ ١٣٥.

يـوم ألقَـى أبـا أُزَيْهِـرَ غَضْبـاً   لم يكن عند ذاك بالمحْدُودِ
ثم وَلَّى بذي المجازِ كريماً   غير ما طائشٍ ولا رِعْديدِ[1]

● **الرقيق في ذي المجاز:**

كان أبو يزيد عُبَيْد السُّلَميُّ لحقه سِباءٌ وهو صبيٌّ، فبِيعَ بسوق ذي المجاز في الجاهلية، فابتاعه رجلٌ من بني سعد بن بكر بن هوازن، فأقام عنده زماناً طويلاً، يَرْعَىٰ له إبِلَهُ، ثم إن عُبيداً ضرب ضِرْعَ ناقةٍ لمولاهُ، فأدْماهُ، فلَطَم وجهه، فخرج عبيدٌ إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب مُسْتعدِياً، فلما قدم عليه، قال: أنا رجلٌ من بني سُلَيم، أصابني سباءٌ في الجاهلية، كما يُصيبُ العرب بعضها من بعض، وأنا معروفُ النَّسَب، وقد كان رجلٌ من بني سعد ابتاعني، فأساء إليَّ، وضرب وجهي، وقد بلغني أنه **لا سباء على عربيّ في الإسلام**... فما كاد يَفْرَغ من كلامه، حتى وَصَل مولاهُ، فقال: يا أمير المؤمنين، هذا غلامٌ ابتعتُه بذي المجاز، وقد كان يقوم في مالي، فأسَاءَ، فضربتُه ضربةً واللَّهِ ما أعْلَمُني ضربتُه غيرها قط، وإن الرجُلَ ليضرب ابنَهُ أشدَّ منها، فكيف بعبده؟ وأنا أُشْهِدُكَ أنه حُرٌّ لوجه الله! فقال عمر لعُبَيد: قد امْتَنَّ هذا الرجلُ عليك، وقطع عنك مؤونةَ البَيِّنَةِ، فإن أحْبَبتَ فأقمْ عنده، وإن أحْبَبتَ فالْحَقْ بقومك... فاختار الرجلُ الإقامة معه، وانتسب هو وولدُه إلى بني سعد... ويُذكر أن يزيد بن عُبيد هو المعروف بأبي وَجْزَة[2].

ويُقال: إن عمر بن الخطاب اشترى خادمه «أسلم» من سوق ذي المجاز، وكان أسْلَمُ هذا حبشيّاً أسود[3]. ومنه نفهمُ أن الرقيقَ كان من

---

(١) أنساب الأشراف: ١/ ١٣٦.
(٢) الأغاني: ١٢/ ٢٤٠.
(٣) أسواق العرب: ٣٥٢.

العُروض التجاريَّة الرائجة في موسم ذي المجاز.

● **حلف ذي المجاز:**

كان عَقْدُ الحِلْفِ، أو إعلانُهُ، أو حِفظُه في المجامع والمواسم المقدَّسة يُضْفي على الحِلْفِ صفةَ القداسَةِ والإلْزام. وقد اشتُهِر من ذلك «حلفُ ذي المجاز»، الذي أصْلح فيه ملكُ الحيرة عمرو بنُ هند، بين بني تَغْلبِ وبكرِ بن وائل، وأخذ عليهم العُهودَ والمواثيق والرُّهُنَ ضماناً لوفائهم به. وإلى هذا الحلف أشار الحارثُ بن حِلِّزَة اليشكريُّ بقوله:

واذْكروا حلفَ ذي المجاز وما قُـدِّم فيـه العهـودُ والكُفَـلاءُ[1]

وهذا الخبرُ يُشير بوضوح إلى خَطَر ذي المجاز، وإلى أنه كان مجمعاً عامّاً من مجامع العرب يقصده أهلُ الحيرة وقبائلُ العرب الأخرى على اختلافها، وأنه كان موضعاً مُقدَّساً يُجِلُّه العربُ على تبايُن مُعْتَقداتهم، ويأتيه الملوكُ.



وأخيراً نقولُ في ذي المجاز ما قلناه في مَجنَّة وعكاظ من أن المتاجر فيه كانت مُعْفاةً من العُشُور أو الضرائب، لأنه مشمولٌ بحرمة ذي الحجَّة ومواسم الحجِّ، ولم يكن في حَوْزَةِ ملك يستبدُّ به. وكان اليومُ الثامنُ، وهو الأخيرُ، من موسمه يُسمَّىٰ يوم التَّرْوِيَة، لأنهم كانوا يَتَروُّونَ فيه من الماء بذي المجاز قبل انتقالهم إلى عَرَفَة[2].

---

(١) شرح القصائد السبع: ٤٧٨.

(٢) أخبار مكة: ١/١٨٨.

الفصل الثامن

موسم الحج إلى الكعبة

- مقدمة ـ كان العرب في الجاهلية يحجون إلى الكعبة
- مناسك الحج كما كانت في الجاهلية ـ الحُمْسُ ـ الحلَّة
- موسمُ الحجِّ في الإسلام فريضةٌ من أركانه
- زمنُ موسم الحجِّ
- أخبار الشعراء في موسم الحجِّ: المعلقات أو المذهبات، أَخَذَ الشعرُ أشكالاً جديدة بعد ظهور الإسلام، مجالس الشعر والغناء.

عمر بن أبي ربيعة، عائشة بنت طلحة، عمر وعائشة في الطواف، عائشة وسكينة في الحجِّ، عمر والوليد بن عبد الملك، عمر في مِنَى، عائشة والحارث المخزومي، ليت الحجَّ كان كل يومين، عمر والنَّوَار، سعدى بنت عبد الرحمن بن عوف، عمر يزوج محبين، طائفة بالبيت تنشد غزلاً. بكاء عاشقة في المزدلفة. لقاء كُثَيِّر وعَزَّة في موسم الحجِّ، أشعر من قال في مشاعر الحج. مجنون ليلى في موسم الحجِّ. أخبار مختلفة.

- تعقيب على أسواق عكاظ ومجنة وذي المجاز.

الفصلُ الثامن

موسمُ الحجّ إلى الكعبة

كانت ما تزال في العرب بقيَّةٌ من الشعائر الدينيَّة يتمسَّكون بها في عصر الجاهلية، ورثوها عن الحنيفيَّةِ دينِ أبيهِمُ إبراهيمَ ثم إسْماعيلَ. ولعلَّ أبرزَها إطباقُهم على تعظيم بيت الله الحرام بمكة، مع ما صاروا إليه من الوثنيَّةِ، والشِّرْكِ، وعبادةِ الأصنام، فكان في مكة، حول الكعبة وفي جوفها، ثلاثُ مئة وستون صنماً، تُمثِّل جملة ما كانت قبائلُ العرب تَتَعبَّدُ له، أو تَتَقرَّبُ به إلى الله زُلْفَى[1]. وقد ذكر ابنُ حبيب أنهم كانوا يحجُّون إلى البيت، ويعتمرون، ويطوفون بالكعبة أسبوعاً، أي سبعَ مرّات، ويمسَحُون الحجرَ الأسود، ويَسْعَوْن بين الصفا والمروة، وكانوا يُلَبُّون، إلا أن مُعْظَمهم كان يُشْرِكُ في تَلْبيتِهِ، وكانت لكل قبيلة تلبيةٌ تتوجَّهُ بها إلى صنمها، وكانوا يُهْدون الهَدْيَ، ويَرْمُونَ الجِمَارَ[2]. وكانوا يُحْرِمُون بالحجّ، ويعرفون المَنَارَ القديمةَ[3]، التي ضَرَبها إبراهيمُ الخليلُ على حُدود الحَرَم المكّيّ، ويعلمون أن ما دون المنار إلى مكة من الحرَم، وما وراءها من الحِلّ، وقد أقرَّ الرسولُ عليه السلامُ العربَ على ما عرفوه من ذلك. أمَّا مواقيتُ الإحرام التي يُهَلُّ

---

(١) أخبار مكة: ١/ ١٢١، السيرة النبوية للندوي: ٦٧، ٨٣، وتاريخ التمدن الإسلامي: ٢٨.

(٢) المحبَّر: ٣١١، ٣١٩.

(٣) المَنَارُ: جمع مَنَارة، وهي العلامةُ تُجعل بين الحدَّين، ومَنَارُ الحَرَم: أعْلامُه.

منها للحجّ فهي أبعدُ من حدود الحَرَم، وهي من الحِلّ، ومَن أحْرَم منها بالحجّ في الأشهُر الحرُم، فهو مُحْرِمٌ، مأمورٌ بالامتناع عن الرَّفَثِ، والتطيُّبِ، ولُبْسِ المَخِيط، وعن صَيْد الصَّيْد[1]. ولئن أقَرَّ رسولُ الله العربَ على ما عرفوه من حدود الحرم، لقد حطم لهم أصنامَهم، وألْغَى تَلْبيَاتِهم، واستبدل بها جميعاً تلبيةً واحدةً لله الواحدِ الأحَدِ، وعلَّمهم المناسِكَ كما جاء بها الإسلام، مُنزَّهةً عن كلِّ ما كان يَشُوبَها من علامات الشِرْك..

وتُوجَدُ في كتب الأخبار والتاريخ إشاراتٌ كثيرةٌ إلى صُوَرِ التلْبيَةِ التي كانت عند قبائل العرب في الجاهلية. ويبدو من النظر فيها أنها بجُملتها أُنشِئت على إيقاعاتٍ مُعَيَّنةٍ، للتغنِّي بها والرقص، فهي غالباً «تتكوَّنُ من جُمَلٍ قليلةٍ، قصيرة، مُقفَّاةٍ، مُجَزَّأةٍ تجزيئاً موسيقيّاً، لعلَّه قُصِدَ لِيُسَاعِدَ على تَنْغيمها وغنائها... ومن أمثلة هذه التلبيات الموزونة تلبيةُ قبائل نزار: لبَّيْك إن الحمد لك، والمُلْكَ لا شريك لك، إلا شريك هو لك، تملكهُ وما مَلَك»[2]... ذلك أنهم كانوا في نُسكهم يطوفون بالكعبة، وبأصنامهم، يرقصون حولها، ويُغَنُّون لها، ويُلَبُّونَ، ويُهَلِّلُون، وينحرون عندها ما ساقوه معهم من الأنعام يُقَدِّمُونه قرابينَ للآلهة ونُذُوراً.

وإن في قوله تعالى: ﴿وما كانت صلاتُهم عند البيت إلا مُكَاءً وتَصْدِيَةً﴾[3]، إشارةً إلى هذا الذي كانوا يفعلونه في حجِّهم، فالمُكَاءُ: الصَّفِيرُ، والتَّصْدِيَةُ: التصفيق باليَديْن. وكان من العادات المألوفة في الجاهلية توافُرُ القِيَانِ للغِنَاءِ في المواسم، وقد تحقَّق أنه كانت لقُريشٍ قِيَانٌ

---

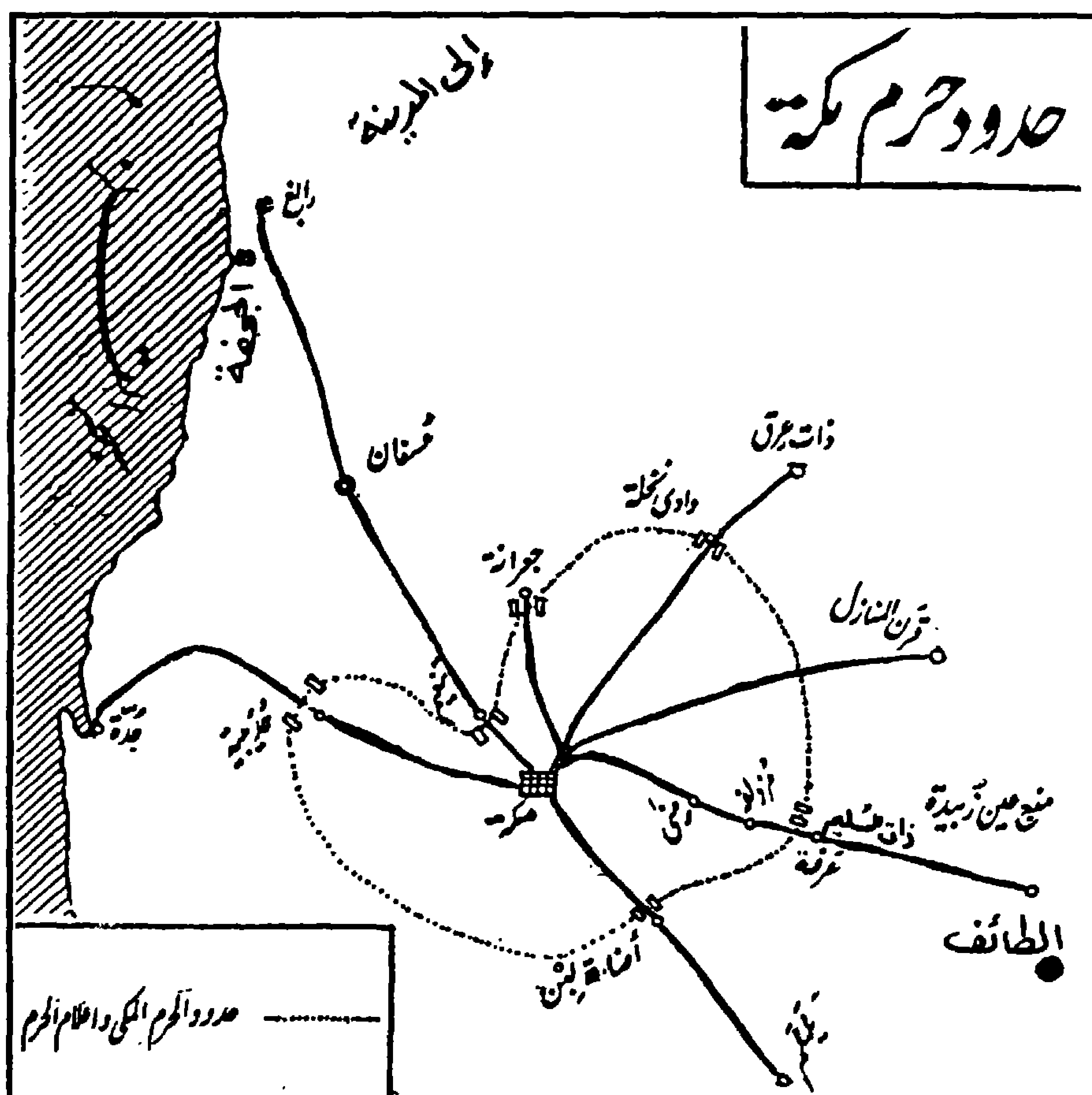
(١) لسان العرب: ٥/ ٢٤١ (نور)، و ١٢/ ١٢٢ ـ ١٢٣ (علم).

(٢) القِيَان والغناء في العصر الجاهلي: ١٤٤ ـ ١٤٥.

(٣) سورة الأنفال، الآية: ٣٥.

يَعْزِفْنَ لهم، ويُغَنِّينَ في مواسمهم وأعيادهم وأفراحهم وغير ذلك من المناسبات[١]. ولعلَّهم كانوا، بعد فراغهم من مناسك الحج، يعقدون مجالسَ للغناء واللهو والطرب والشراب، يحضرها معهم من تأخَّر بمكة من أشراف العرب وساداتهم وتُجَّارهم، لقضاء ما لم يُقْضَ بعدُ من حوائجهم.

* * *



---

(١) القيان والغناء: ٥٠ ـ ٥١.

● **مَنَاسِكُ الحج كما كانت في الجاهلية:**

وكان العربُ في الثامن من ذي الحجة، يقوم فيهم مَن يُنادِي أن تَروَّوْا من الماء بذي المجاز، لأنه لا ماءَ بعَرَفَة، ولا بالمزْدَلفةِ يومئذٍ، فسُمِّيَ ذلك اليومُ يومَ التَّرْوِيَة، وهو آخِرُ أسواقهم. ثم يخرجون يومَ التروية من ذي المجاز إلى عَرَفَة، وكانوا لا يتبايعون في يوم عَرَفَة، ولا في أيام مِنىً، تأثُّماً، فلما ظهر الإسلامُ، أُحِلَّ لهم ذلك بقوله تعالى: ﴿**ليس عليكم جُنَاحٌ أن تبتغُوا فضلاً من ربكم**﴾[1]، وفي قراءة أُبَيِّ بنِ كعب: ﴿**في مواسم الحجّ**﴾، يعني، كما قال الأزرقي: مِنىً وعرفَة وعكاظ ومجنة وذي المجاز، فهذه مواسم الحج[2]... وفي صحيح البخاري أن أسواق عكاظ ومجنة وذي المجاز، هي التي تأثَّموا من التجارة فيها، فأحَلَّ الله لهم ذلك بهذه الآية، وعَزا القولَ إلى ابن عباس[3].

وكانوا يخرجون من ذي المجاز، عند غروب شمس الثامن من ذي الحجَّة، وابتداءِ اليوم التاسع منه، وكان ابتداءُ اليوم يكون عند غروب الشمس. فإذا جاؤوا «عَرَفة»، وقفت طائفةُ «الحِلَّة» على الموقف من عَرَفَة، ووقفت طائفةُ «الحُمْسِ» في أطراف الحَرَم من ناحية «نَمِرَة»، وهي الجبلُ الذي عليه أنصابُ الحرَم، عن يمين الخارج من المأزمَيْن يُريد الموقفَ بعرفة[4]. وكانت العربُ في دينها على مذهبيْن: الحُمْس والحلَّة.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٩٨.

(٢) أخبار مكة: ١/ ١٨٨ ـ ١٨٩.

(٣) صحيح البخاري (كتاب البيوع): ٣/ ٨٢.

(٤) معجم البلدان: ٥/ ٣٠٤ ـ ٣٠٥.

١ ـ فالحُمْسُ:

هم الذين شدَّدُوا على أنفسهم في دينهم، فكانوا إذا دخل موسمُ النُّسْك والحجّ، وأَحرموا، لم يأكلوا لحماً، ولم يطبخوا سمناً، ولم يَمْخَضُوا لَبَناً ولا جبناً، ولم يغزلوا وَبَراً ولا صُوفاً ولا قُطناً، ولم يُحرِّكوا شَعْراً ولا ظِفراً، ولم يلبسوا إلا جديداً، ولم يطوفوا بالبيت إلا في ثيابِهم ونِعَالِهم، لا يَطَؤُون أرضَ المسجد بأقدامهم تعظيماً له، وكانوا لا يدخلون البيوت من أبوابها، وإنما ينقبُ أحَدُهم نقباً في ظهر بيته، أو خلفه، ليدخلَ ويخرجَ منه... وفي هؤلاء نزل قوله تعالى: **﴿وليس البِرُّ بأن تأتُوا البُيوتَ من ظهورها ولكن البرَّ مَن اتَّقَىٰ، وأْتُوا البيوتَ من أَبوابها واتَّقُوا الله لعلكم تُفْلحون﴾**[(١)]. وكان الحُمْسُ لا يقفونَ بعَرَفَة، ولا يفيضون منها، ويقولون: نحن أهلُ الحَرَم ولا نخرجُ من الحَرَم! فنزل فيهم قولُه تعالى: **﴿ثم أَفيضُوا من حيث أفاضَ الناسُ واستغفروا الله إن الله غفورٌ رحيم﴾**[(٢)].

٢ ـ والحِلَّــةُ:

كانوا يطبخون السمنَ، ويأكلون اللحمَ، ويَجتزُّون من الصوف والوَبَر والشَّعَر ما يكتفون به، ويتواصَلُون في النُّسك، ويمنحُ الغنيُّ الفقيرَ بعضَ مالِه، وكانوا يدَّهِنُونَ ويتطيَّبُون، ويلبسون كلَّ الثياب، فإذا دخلوا مكة بعد فَراغهم من عرفة ومنَى، تصدَّقوا بكلِّ حذاء وكلِّ ثوبٍ لهم، ثم اسْتكْرُوا من الحُمْس ثياباً جُدُداً، تنزيهاً للكعبة أن يطوفوا حولها بثيابٍ قارَفُوا فيها الذنوبَ، ولا يجعلون بينهم وبين الكعبة حذاءً، يُباشِرونها بأقدامهم، فإن لم

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٩.

(٢) المرجع نفسه: ١٩٩.

يجدوا ثياباً طافوا عُراةً، الرجالُ في النهار، والنساءُ في الليل، ذلك أنهم كانوا إذا أَحْرَمُوا بالحجِّ، لم يستحلُّوا البَيْعَ والشراءَ حتى يعودوا إلى منازلهم، إلا ما يحتاجون إليه من اللحم لطعامهم. وقيل إن الحُمْسَ هم الذين فرضوا على العرب، إذا دخلوا الحَرَم في موسم الحج، أن يطرحوا أزْوادَ الحِلِّ، وهي ما تزوَّدُوه من طعام للسفر، ويشتروا اللحم من أهل مكة، وأن ينزعوا عنهم ثيابَ الحِلّ، ويستبدلوا بها ثيابَ الحرَم، إما شراءً، أو عاريةً، أو اسْتيهاباً، فإن تيسَّرَ لهم ذلك، وإلا طافوا بالبيت عرايا، وربما طافَتِ المرأةُ منهم مُرْتدِيةً ثوباً أو قميصاً، مُفَتَّقاً في مُقَدَّمِهِ ومُؤَخَّره[1]، أو مُفَرَّجاً، كأنه من سُيُورٍ تكادُ إذا انفرجت تُبدي ما وراءها.

ولمّا أقام أبو بكر، رضي الله عنه، للمسلمين حجَّهم في موسم سنة تسع للهجرةِ، كان الناسُ من أهل الشِّرْك على منازلهم من حَجِّهم، وقد نزلت يومئذ سورةُ التوبة على رسول الله، فوجَّه عليَّ بن أبي طالب إلى مكة، وأمره أن يُؤذِّنَ في الناس، إذا اجتمعوا بمِنىً يوم النَّحْر: أنه لا يدخلُ الجنةَ كافرٌ، ولا يحجُّ بعد العام مُشْرِكٌ، ولا يطوفُ بالبيت عُرْيان[2].

* * *

وكان العربُ نَهارَ التاسع من ذي الحجة، إذا طَفَلَتِ الشمسُ للغروب، وصارت على رؤوس الجبال كأنها عَمائمُ الرجال في وجوههم، دَفَعُوا من عَرَفَة، فأفاضَ الحُمْسُ من أنصاب الحرَم، وأفاضَتِ الحلَّةُ من الموقف، حتى يلتقوا بالمزدلفة جميعاً، فيبيتُون بها[3]. وكان قصيُّ بنُ كلاب بنَىٰ فيها

---

(١) تاريخ اليعقوبي: ١/ ٢٥٦ ـ ٢٥٧، وأخبار مكة: ١/ ١٧٩ ـ ١٨٢، والمحبَّر: ١٧٩ ـ ١٨١، ومعجم البلدان: ٥/ ١٨٤ ـ ١٨٥.

(٢) السيرة النبوية للندوي: ٣٢٠.

(٣) أخبار مكة: ١/ ١٨٨.

المِشْعَرَ، فكان يُسْرَجُ عليه ليلاً، ليهتدي به أهلُ عَرَفَة إذا جاؤوا المزدلفة، فأبقاهُ اللَّهُ مِشْعراً، وأمر بالوقوف عنده[1]، بقوله تعالى: ﴿فإذا أفَضْتُم من عرفات فاذكروا الله عند المشْعَر الحرام واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالِّين﴾[2]. وكانوا يَظلُّون ليلتَهم في مُزدلفة حتى تطلعَ الشمسُ، وتصيرَ على رؤوس الجبال كأنها عمائم الرجال على وجوههم، فيدفَعُونَ من مزدلفة إلى مِنىً[3]، لِرَمْي الجِمَار، وتقديم الأَضَاحي، وإنما سُمِّيتْ مِنىً لما يُمْنَى بها، أي يُراقُ، من دِمَاءِ الأضَاحي[4].

فلما حجَّ رسولُ الله خطب الناسَ بعرفَة، فقال: «إن أهل الشِّرْك والأوثان، كانوا يدفعون من عرفة إذا صارتِ الشمسُ على رؤوس الجبال، كأنها عمائمُ الرجال في وجوههم، ويدفعون من مزدلفة إذا طلعت الشمسُ على رؤوس الجبال، كأنها عمائمُ الرجال في وجوههم، وإنا لا ندفعُ من عَرَفَة حتى تَغْرُبَ الشمسُ، ويحِلَّ فِطْرُ الصائم، وندفعُ من مزدلفة غداً إن شاء الله قبل طلوع الشمس»[5].

وكان العربُ إذا قضَوا مناسِكَهم بمنىً، نَفَروا إلى مكة، فكانوا يَسْعَوْن بين الصَّفا والمروة، ويطوفون بالكعبة. وفي ذلك نزل قوله تعالى: ﴿إن الصَّفا والمروة من شعائر الله فمَن حجَّ البيتَ أو اعْتَمَرَ فلا جُنَاحَ عليه أن يَطَّوَّفَ بهما ومن تطوَّعَ خيراً فإن الله شاكرٌ عليم﴾[6].

---

(١) المحبَّر: ٣١٩.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٩٨.

(٣) أخبار مكة: ١/ ١٨٩.

(٤) معجم البلدان: ٥/ ١٩٨.

(٥) أخبار مكة: ١/ ١٩٠.

(٦) سورة البقرة: ١٥٨.

وكان بنو الغَوْثِ بن مُرّ، وهو أخو تميم بن مُرّ، يَلُونَ الإجازةَ بالحاجِّ مِن عَرَفة إلى مزدلفة، ومِن مِنىً إلى مكة، ثم ورثهم في ذلك بنو صفوان من بني تميم. وكان بنو عَدْوانَ يَلُونَ الإفاضةَ بالحاجِّ من مُزْدلفة إلى مِنىً غداةَ يوم النَّحْر(١). وكانت صورةُ الإجازة أو الإفاضة بالناس، أن يتقدَّمَ صاحِبُها الناسَ فيخطبُهم، ويأمُرهم بالوفاءِ وقِرَى الضَّيْف، ورعاية الجار، وتعظيم الحرمات، ثم يجوزُ بهم فيمضُون وراءَه، فإذا نَفَر نَفَرُوا معه، وإذا رَمَى الجِمَارَ رَمَوْا، وإذا أفاض أفاضُوا...

وكانت تحجُّ البيتَ جماعاتٌ كثيرة من مختلف قبائل العرب، في الحجاز ونَجْد وتهامة، والعَروض، والبحرين، وعُمَانَ، واليمن، وحضرموت، فضلاً عن عرب الشام والعراق. وكان يحجُّ إليه أيضاً ملوكُ حِمْيَر وكندة وغسَّان ولخم، على اختلاف دياناتهم ومذاهبهم(٢). وإن إبقاءَ الإسلام على مكانة الكعبة لدليلٌ على مكانتها في قلوب العربِ جميعاً، فقد كانت مَهْوَى أفئدتهم من عهد إبراهيم وإسماعيل، ثم ظلَّتْ تضمُّهم إليها بعد ذلك، على شِرْكهم، كما تضمُّ أوثانَهم وأصنامَهم، حتى هداهُم الله بالإسلام، وعلَّمهم رسولُ الله، عليه السلامُ، مناسِكَ حجِّهم، وهَدَمَ قواعدَ الشِرْك، وأمورَ الجاهلية.



موسمُ الحجّ في الإسلام:

لئن أَقَرَّ الإسلامُ الحجَّ، وجعله فريضةً على المسلمين مَنِ استطاع منهم

---

(١) السيرة لابن هشام: ١/١١٩ ـ ١٢١.

(٢) معجم البلدان: ٥/١٨٣، وأخبار مكة: ١/١٨٩، ومطلع النور: ١٥٥ ـ ١٥٧.

إليه سبيلاً، لقد نَقَّاهُ مما شابَهُ من شوائب الوثنيَّة، وأرسَى قواعِدَهُ على إخلاصِ التوحيد، ونزاهةِ العبادة، وجعل أركانَه أربعةً، **الأوَّلُ**؛ الإحْرامُ، وهو نيَّةُ الدخول في أداء فريضة الحجّ، أو العُمرة، وسُمِّي إحْراماً لأنه يمنعُ الحاجَّ من إتيان المحرَّمات. **والثاني**: الوقوفُ بعرَفَة، فالحجُّ عَرَفَة. **والثالث**: الطوافُ بالبيت، وهو طوافُ الإفاضة. **والرابع**؛ السَّعْيُ بين الصَّفا والمروة.. وجعل على الحاجِّ واجباتٍ، **أوَّلُها**؛ الإحْرامُ من الميقات، وهو ميقَاتانِ، ميقاتٌ زماني، أي في أشْهُرِ الحجّ، لقوله تعالى: ﴿**الحجُّ أشْهُرٌ معلومات**﴾[1]، وهي شوَّال وذو القعدة وعَشْرٌ من ذي الحجَّة. والميقاتُ المكانيُّ يعني أن يُحرِمَ الحاجُّ من الحدود التي عيَّنها رسولُ الله عليه السلامُ للإحْرام، وهي على مسافاتٍ مُتباينةٍ من مكة، وهي الحدودُ نفسُها التي عيَّنها إبراهيم الخليلُ، وكانت العربُ ما تزال تعرفها، فأقَرَّها رسولُ الله على ما كانت عليه. أمّا **الواجبُ الثاني** فرَمْيُ الجِمَارِ الثلاثِ أيامَ التشريق الثلاثة، غير جمرة العقبة، فإنها تُرمَى يومَ النحر. **والواجبُ الثالث** حَلْقُ الشعر أو تقصيرُه. ومن سُنَن الحجّ تقديمُه على العُمرة، والتَّلْبيةُ، وطوافُ القدوم، والمبيتُ بمزدلفة، ومِنىً، وطوافُ الوداع، وتجرُّدُ الرجُلِ عن الإحْرام من المَخِيطِ، وارتداؤه إزاراً ورِداءً أبْيَضيْن[2]... إلى ما هنالك من أحكام دقيقةٍ، ألْغَتْ كلَّ العاداتِ والتقاليد السَّيِّئة، ومنها أنهم كانوا في الجاهلية يمتنعون من الهُجْر في القول ما دام موسمُ الحجّ قائماً، فإذا بدا لبعضهم أن يفخر بما لقَوْمه من المآثِر، ويَهجُوَ غيرهم بما يراه فيهم من المثَالِب

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٩٧.

(٢) أحمد عبده عاشور ـ الفقه الميسَّر: ١٧٣ ـ ١٧٨، (القاهرة ١٩٧٨)، والقاضي أبي شجاع أحمد بن الحسين الأصفهاني ـ مَتْنُ الغاية والتقريب: ٢٦ (مصر (١٣٤٣ هـ).

والمعايب، انتظرواحتى يَفرَغُوا من مَنَاسِكهم، فإذا فَرَغُوا نزلوا شِعْبَ «الصُّفِيّ» ليلة التحصيب، ووقفوا على الشِّعْب، وجعلوا يتفاخرون بالآباء والمكارم والوقائع، فيقوم من كل قومٍ شاعرٌ أو خطيبٌ، فلا يترك شيئاً من المَحَامِدِ والشرف إلا أضافه إلى قومه، وأنْشَدَ كلَّ ما قيل فيهم من المديح، وتحدَّى الآخَرين أن يأْتُوا بمثل ذلك. فإذا كان هنالك من أراد مُفاخرتَهم من القبائل الأخرى، قام خطيبُهم أو شاعِرُهم، فردَّ عليهم أقوالهم، وذكر مَثَالِبهم، وكلَّ ما أُضيف إليهم من المساوىء، وما هجاهم به الشعراءُ، ثم افتخر بما يراهُ فَخَاراً لقومه[1]... والمحصَّبُ شِعْبٌ بين مِنىً ومكة، وكانوا إذا نَفَرُوا من منىً إلى مكة للتوديع، أقاموا بالمحصَّب، وهَجَعُوا ساعةً من الليل، ثم دخلوا مكة. وكانوا يُسَمُّونَ شِعْبَ الصُّفِيِّ هذا، صُفِيَّ السِّبَاب، والصُّفِيُّ هي الحجارة المَلْسَاءُ التي كانوا يقفون عليها، ويَعْقدون بها مجالسَ المدْحِ والذمِّ والمفاخرة... وقد أبْطل الإسلام هذه العادةَ بقوله تعالى: ﴿فإذا قضيتُم مناسِككُم فاذكروا الله كذكركم آباءَكم أو أشدَّ ذِكراً﴾[2].

ويُذكر أنه لما كان عصرُ بني أُميَّة، كان يخرجُ إلى صُفِيِّ السِّبَابِ سُدَيْفُ بن ميمون الشاعر، مولى بني خزاعة، وكان مُتعصِّباً لبني هاشم، ويخرج معه مولى لبني أُميَّة يُقال له: سَبْلَب، فيَتَسابَّانِ، ويتشَاتمان، ويذكران المثالبَ والمعايبَ، ويخرج معهما من سفهاء الفريقين مَن يتعصَّبُ لهما، فلا يبرحون حتى تكون بينهم الجِراحُ والشِّجَاجُ، فيخرج إليهم والي مكة، فيفرِّقهم ويُعاقب الجُنَاةَ منهم. ولم تزل هذه العصبيَّةُ بمكة حتى شاعت في عامَّة الناس وسِفْلَتِهم، فكانوا طائفتين يُقال لهما: السُّدَيْفِيَّةُ والسَّبْلَبِيَّة[3].

---

(١) أخبار مكة: ١/ ١٨٨، و ٢/ ٢٧٣ ـ ٢٧٤، والعقد الفريد: ٣/ ٣١٥.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٠٠.

(٣) الأغاني: ١٦/ ٨٦.

ومن العادات السيئة التي هَدَمَها الإسلامُ، ماكان «الحُمْسُ» يأخذون به أنفسهم من التشدُّدِ والتفرُّد في مناسك الحجّ، فصار شأنُهم شأنَ سائر المسلمين، لا يمتازون عنهم بشيء... وقد كان من عادات الحُمْسِ أن أحَدَهم إذا أَحبَّ أن يُعاقِبَ أحْمَسِياً، شَرَط عليه أن يقوم بفِعْل ما يَحْرُم عليه فِعْلُه في هذا المذهب...

ومن حديث ضُبَاعة بنت عامر القُشَيريَّة، أنها كانت من أجمل نساء العرب، تزوَّجها هَوْذَةُ بنُ عليّ الحنفيُّ، ثم مات عنها، فتزوَّجها عبدُ الله بنُ جُدعان التيمْيُّ، فكانت عنده بمكة ما شاء اللَّهُ لها أن تكون... وبينما هي تطوفُ بالكعبة يوماً، إذ رآها «هشامُ بنُ المُغِيرة المخزوميُّ»[1]، فأعجبتْهُ، فكلَّمها عند البيت، فقال لها: أَيُرضيكِ أن يكون هذا الجمالُ وهذا الشباب عند شيخ كبير؟ فلو أنك سألتِهِ الفُرْقَةَ لتزوَّجتُك!... وكان هشامٌ رجُلاً جميلاً مُكْثِراً من المال، وابنُ جُدعان طاعِناً في السنِّ، لا يُولد له.

فرجعتْ ضُبَاعَةُ إلى ابن جُدعانَ، وقد وقع هشامٌ من نَفْسها موقعاً طيِّباً، فقالت: أنا امرأةٌ شابَّةٌ، وأنتَ رجُلٌ مُسِنٌّ، فلو طلَّقْتني لكان أحسنَ! فقال: ما الذي بدا لكِ في هذا؟ على أنني أُنبِئتُ بما كان بينك وبين هشام وأنتِ تطوفين بالكعبة، وإني أُعطي الله عهداً أَلاَّ أفارِقَكِ حتى تَحْلِفي ألاَّ تَتزوَّجي هشاماً، ويوم تفعلين ذلك، فعليكِ أن تطوفي بالبيت عُرْيانةً، وأن تَنْحري كذا وكذا إبِلاً، وأن تَغْزِلي الصوفَ بين جَبَلَيْ مكة، وأنتِ من الحُمْسِ، لا يحلُّ لك أن تَغْزِلي صُوفاً أو وَبَراً.

---

(١) هشام بن المغيرة بن عبد الله: من بني مخزوم، من قريش، وسيِّدٌ من سادات العرب في الجاهلية. كانت قريش وكنانة ومَن وَالاهُم يُؤرِّخون بثلاث وقائع: بناء الكعبة، وعام الفيل، ثم بموت هشام، وهو قريب عهد من البعثة النبويَّة. وكان ممن شَهِدَ حرب الفِجَار رئيساً على بني مخزوم.

فأرسلت إلى هشام بالذي أَخَذَهُ عليها ابنُ جُدعان، فبعثَ إليها: أمّا ما ذكرتِ من طوافك بالبيت عُرْيانةً، فإني أسألُ قريشاً أن يُخْلُوا لكِ البيتَ، فتطوفي قبل الفَجْر في سَدْفَةٍ من الليل، فلا يَراكِ أحدٌ، وأمّا الإبلُ التي يجب أن تنحريها، فَلَكِ اللَّهُ أن أَنْحرها عنك، وأمّا ما ذكرتِ من غَزْل الوَبَرِ، فإنها بِدْعةٌ ابتدعها نَفَرٌ من قريش، وليست دِيناً.

فقالت ضُباعَةُ حينئذٍ لابن جُدعان: نعم، لكَ أن أَصْنَعَ كلَّ ما قلتَ وأخذتَ عليَّ إن تزوَّجتُ هشاماً! فطلَّقَها، فتزوَّجت هشاماً، فكلَّم قريشاً، وسألهم أن يُخْلوا لها المكانَ كي تطوفَ بالكعبة... نقل ابنُ عباس عن «المطَّلب بن أبي وَدَاعَة» قولَه: كنتُ يومئذٍ غُلاماً من غلمان قريش، فكنتُ أَخْتلسُ النظرَ إليها، فرأيتُها أقبلتْ من باب البيت، فوضعتْ ثيابَها، ثوباً بعد ثوب، ثم نَشَرتْ شعرها، فغطى بطنَها وظهرها، حتى وصل إلى خلخالها، وطافت بالكعبة سبع مرَّاتٍ، فكنتُ أتبعُها إذا أَدْبَرَتْ، وأستقبلُها إذا أقبلتْ، فما رأيتُ شيئاً ممَّا خلق اللَّهُ أحسنَ منها، واضِعةً يدَها على فَرْجها وهي تقول:

اليـومَ يبـدو بعضُـهُ أو كلُّـهُ وما بـدا منـه فـلا أُحِلُّـهُ

حتى فَرَغَتْ.. ثم غزلتْ ذلك الوَبَرَ، ونَحَرَ عنها هشام ما ذكرتْ من الإبل... وقد ولدتْ لهشام إبنَه سَلَمة بن هشام، فكان بعدُ من خيار المسلمين. وبينا هي قائمةٌ ذات ليلةٍ، إذ سمع هشام صوتَ صائحةٍ، فقال: ما هذا؟ فقيل: مات عبدُ الله بن جُدْعان! فقالت ضُبَاعة: لَنِعْم زوجُ العربيَّة كان! فقال هشام: أي واللَّهِ، وابنةِ العمِّ القريبة! ثم مات هشام بعد ذلك عنها.

وذكرت كتبُ السيرة والأخبار أن رسول الله رغب في الزواج منها، وكانت أكبرَ منه سِنّاً بنحو عشر سنين، فخطبها إلى ابنها سَلَمة، فقال له: حتى أَسْتأمِرَها... فجاءَها وأَعْلمها بالخبر، فقالت: أفي رسول الله

تستأمِرُني؟ إرْجِعْ فزوِّجْهُ! فرجَعَ، وقد بلغ الرسولَ عنها كَبْرةٌ، وأنها كثُرت غضونُ وجهها، وسقط بعضُ أسنانها، فأمْسَكَ عن أمرها[1].



● زمن موسم الحج إلى مكة:

لا شك في أن بيت الله بمكة كان قائماً قبل زَمنِ إبراهيم عليه السلام وأنه كان مَثَابَةَ نُسكٍ وعبادةٍ وحجٍّ، بدليل قوله تعالى: ﴿إن أوَّلَ بيتٍ وُضِعَ للناس لَلَّذي ببكَّةَ مُباركاً وهُدىً للعالمين﴾[2]. ولمَّا ذهب إبراهيمُ إلى مكة ليُسْكِنَ فيها زوجَهُ هاجَرَ وإبْنَهُ إسماعيلَ، خاطَبَ ربَّه فقال: ﴿ربَّنا إني أَسْكنتُ من ذُرِّيَّتي بوادٍ غير ذي زرعٍ عند بيتك المحرَّم...﴾[3]، وهذا دليلٌ على أن البيت كان قائماً، ومُحرَّماً منذ زمنٍ بعيد، ويؤيِّدُ ذلك قولُه تعالى: ﴿وإذ بَوَّأْنا لإبرهيم مكانَ البيت أن لا تُشرك بي شيئاً وطَهِّرْ بيتيَ للطائِفينَ والقائمين والرُّكَّعِ السُّجُودِ وأَذِّنْ في الناس بالحجِّ يأتوكَ رِجَالاً وعلى كلِّ ضامِرٍ يأتين من كلِّ فجٍّ عميق ليَشْهدوا منافِعَ لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلوماتٍ على ما رزقهم من بَهيمةِ الأنعام فكُلُوا منها وأطْعِموا البائسَ الفقير ثم لْيَقْضُوا تَفَثَهم ولْيُوفُوا نُذُورَهم ولْيَطَّوَّفوا بالبيت العتيق﴾[4]... وبَوَّأَهُ، أو بوَّأَ له منزلاً أو مكاناً، أي هيّأَ له، وأنزله ومكَّن له فيه، أو أَسْكَنَهُ

---

(١) أنساب الأشراف: ١/ ٤٦٠ ـ ٤٦١ح: ٣)، والمحبَّر: ٩٧، و ٤٣٧ ـ ٤٣٨، ومعجم البلدان: ٦/ ١٨٤ ـ ١٨٥، والأعلام: ٣/ ٢١٣، و ٨/٨٨، والإصابة: ٤/ ٣٤٣ ـ ٣٤٥ (الترجمة رقم: ٦٧٣).

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٩٦.

(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٣٧.

(٤) سورة الحج، الآيات: ٢٦ ـ ٢٩.

إيَّاهُ[١]. . . فالبيتُ كان موجوداً إذن، فأنزله الله فيه، وأمره أن يُطهِّرهُ ويرفعَ قواعدَهُ، ويؤذِّنَ في الناس بالحجِّ، ليَشْهَدوا منافعَ لهم، وهي رضوانُ الله في الآخِرة، وما قد يُصِيبُونه هنالك من منافع التجارات والطعام والبَدَنِ[٢]. . . وليذكروا اسمَ الله في أيام معلوماتٍ، هي في الغالب العشر الأول من ذي الحجة، ويقال إنها يومُ عرفة، ويومُ النَّحْر، وأيامُ التشريق[٣]. . وفي هذا كلِّه تحديدٌ دقيق لميقات موسم الحجِّ. وقد أمر اللَّهُ الناس، إذا قصدوا الحجَّ، أن يقضوا تَفَثَهم، وهو في قولٍ: مناسكُ الحجّ، وفي أقوالٍ أخرى: حَلْقُ الشعر أو تقصيرُهُ، وتقليمُ الأظفار، وذَبْحُ الهَدْي، ورَمْيُ الجِمَار[٤]. . . كما أمرهم بأن يُوفُوا نُذُورهم، وهي كلُّ ما أَوْجَبَهُ الإنسانُ على نفسه، تبرُّعاً لبيت الله، من عبادةٍ أو نُسكٍ، أو صدقةٍ، أو هَدْيٍ، ونحوِ ذلك[٥]. . . وأما الطوافُ، فهو الطوافُ الواجبُ يومَ النَّحْرِ، وهو آخِرُ المناسِك، وهكذا صنع رسولُ الله، فإنه لما رجع إلى مِنىً يومَ النَّحْرِ بدأ برَمْي الجمرة، فرماها بسبع حصيات، ثم نَحَرَ هَدْيهُ، وحَلَق رأسَهُ، ثم أفاض من مِنىً فطاف بالبيت[٦].

ذكرتُ ذلك اسْتِطراداً، لأن سِيَاقَ الكلام يَستوْجِبُه، بينما أريدُ التأكيد على أن بيت الله بمكة كان قائماً قبل زمن إبراهيم. . . ومع ذلك، إذا فَرضنا أن موسمَ الحجِّ إنما بدأ في زمن إبراهيم، وقد تبيَّن أنه في منتصف القرن التاسع عشر قبل الميلاد، فذلك يعني أن هذا الموسم انقضى عليه، منذ قيامه

---

(١) لسان العرب: ١/ ٣٨ ـ ٣٩ (بوأ).
(٢) تفسير ابن كثير: ٤/ ٦٣٣.
(٣) المرجع نفسه: ٤/ ٦٣٣ ـ ٦٣٤.
(٤) لسان العرب: ٢/ ١٢٠ (تَفَثَ)، وتفسير ابن كثير: ٤/ ٦٣٥.
(٥) لسان العرب: ٥/ ٢٠١ (نذر)،
(٦) تفسير ابن كثير: ٤/ ٦٣٥.

وحتى اليوم، أكثَرُ من اثنين وثلاثين قرناً من الزمان، وأنه يُعَدُّ أقدمَ موسمٍ دينيّ واجتماعيّ وتجاريّ في العالم المعروف... ولا سيما إذا لاحظنا، أن مَن كان يَشْهَدُهُ، في عصر الجاهلية، لا يكاد عَدَدُهم يتجاوزُ بِضعةَ أُلوفٍ إلا قليلاً، وأن مَن يشهدُهُ اليومَ بلغ عددُهم أكثرَ من مليونٍ ونصفِ مليونٍ من المسلمين، من مختلف الأقوام والأجناس والبُلدان، تنظرُ إليهم، وهم في مَلابِسِ الإحْرام البيض، فلا ترىٰ إلا صَعيداً تَرامَتْ أبْعادُهُ، وكأنه غَطَّتْهُ الثلوجُ، وتُصْغي إليهم، فلا تسمع إلا نشيداً واحداً: لبَّيْكَ اللهمَّ لبَّيْكَ، لبيك لا شريكَ لكَ لبيك، إن الحمدَ والنعمةَ لك والمُلْكَ لا شريكَ لك... إنه التوحيدُ في أكْمَلِ صُوَرِهِ نزاهةً وإخلاصاً.

* * *

● **الشعراء في مواسم الحج:**

لا شك في أن شعراءَ العرب كانوا، في الجاهلية، يَشْهدون المواسمَ بمكة ومِنىً وعَرَفَة، كشُهُودِهم مواسمَ عكاظ وغيرها، وكانوا يقولون شعراً فيما عَرَض لهم بها، في أيامها أو بعد انقضائها. غير أن ما تَيَسَّر لنا من النصوص لا يُشِير إلى الكثير في هذا الباب، سوى ما ذكرتُه عن تَفاخُرِهم وتهاجِيهم في «شِعْبِ الصُفِيِّ» بالمُحَصَّبِ من مِنىً، وما سبق أن أشرتُ إليه، في كلامي على عكاظ، من احتفالِ العربِ بقصائد الفُحول من شعرائهم، فكانوا بعدما يُنْشِدُها الشعراءُ في المجامع الكبرى، كسُوق عكاظ، يُعَلِّقونها في أسْتارِ الكعبة، تَنْويهاً بها وبقائليها... وفي هذا قال ابنُ عبد ربه: «لقد بلغ من كَلَفِ العرب بالشعر، وتفضيلها له، أن عَمَدَتْ إلى سبع قصائدَ، تخيَّرتْها من الشعر القديم، فكتبتْها بماء الذهب، في القَبَاطِيِّ المُدْرَجَة[1]،

(١) القَبَاطِيُّ: ج قُبْطيَّة، وهي نسيجٌ من كتَّانٍ أبيض. المُدْرَجَةُ: المَطْويَّةُ: أو الملفوفة.

وعلَّقتْها بين أستار الكعبة، فمنه يُقال: مُذَهَّبَةُ امرىء القيس، ومُذَهَّبَةُ زهير، وسائرُ المُذَهَّباتِ السبع، وقد يقال لها: المُعَلَّقاتُ»[1]. . . وسمَّاها الباقِلاَّنيُّ: السَّبْعيَّات، وأشار إلى أنها اخْتِيرت من أَجْوَدِ شعر العرب فصاحةً وبراعةً وإبداعاً[2]، ولم يذكر شيئاً عن تعليقها بين أستار الكعبة بمكة! بينما قال ابنُ خلدون في سبب تَسْميتها بالمعلَّقات: إنهم كانوا يقفون بسُوق عكاظ، لإنْشَادِ الشعر، والتنافُسِ فيه، «حتى انتَهْوا إلى المُنَاغَاة[3]، في تعليق أشعارهم، بأركان البيت الحرام، مَوْضعِ حجِّهم وبيتِ إبراهيم، كما فعل امرؤ القيس بنُ حُجْر، والنابغةُ الذبيانيُّ، وزهيرُ بنُ أبي سُلْمى، وعنترةُ بنُ شدَّاد، وطَرَفَة بن العبد، وعَلْقَمةُ بن عبدة، والأعشى، أصحابُ المعلَّقاتِ السَّبْع وغيرُهم فإنه إنما كان يَتوصَّلُ إلى تعليق الشعْرِ بها، مَن كان له قدرةٌ على ذلك، بقومه، وعَصَبِيَّته، ومكانِهِ في مُضَر، على ما قيل في سبب تَسْميتها بالمعلَّقات»[4].

والواقع أن الشهرةَ المُستفيضةَ لهذه القصائد قامت على أنها المعلَّقاتُ، وأن أوَّلَ شِعرٍ عُلِّق في الجاهلية شعرُ امرىء القيس، عُلِّق على ركنٍ من أركان الكعبة أيامَ الموسم ثم أُحْدِرَ، فعلَّقَتِ الشعراءُ من بعده، وكان ذلك فخرَ العرب في الجاهلية[5]. . . ولكن هذا المذهبَ في علَّةِ تسميتها بالمعلَّقاتِ أمرٌ غيرُ مُتَّفَقٍ عليه، فهنالك من أنكر أنها كانت تُعلَّقُ حقّاً على

---

(١) العقد الفريد: ٥/ ٢٦٩.
(٢) إعجاز القرآن: ١٥٨ ـ ١٥٩.
(٣) المُنَاغَاةُ: المُبَاراةُ، وتناغَىٰ القومُ: تَبَاروا وتغالَبُوا.
(٤) المقدمة: ٥٨٠ ـ ٥٨١.
(٥) شرح القصائد السبع: ١١ (من مقدمة التحقيق).

أركان الكعبة، وهو أمرٌ لا يهمُّنا فيما نحن فيه، إذ يكفينا من الخبر دلالتُهُ، في الحالَيْن، على أن العرب كانوا يتداولون قصائد المتفوّقين من شعرائهم، في مواسم الحجِّ بمكة، وأن هذا هو ما كانت عليه أحوالُهم في الجاهلية.

ولمَّا كان فجرُ الإسلام، تبدَّل وجهُ المجتمع العربي، وبينما كان الشعر زمنَ الجاهلية في خدمة القبيلة ومصالحها، صار في الإسلام وسيلةً إلى تأييد الديانة الجديدة... ثم أخذ التنافسُ بين الشعراء أشكالاً جديدةً، وطرأتْ على الشعر أغراضٌ مختلفةٌ، حتى كان زمنُ بني أُميَّة، فازدهر فنُّ الغَزَلِ في الحجاز ازدهاراً عظيماً، واشتغل به شعراءُ الحواضر والبوادي هناك كفَنٍّ مستقلٍّ بذاته، وليس كما كان قديماً، لازمةً تأتي في مُقدّمة كلّ قصيدة في سائر فنون الشعر... وقد كان الحجازُ قلبَ الدولةِ الجديدة التي أقامها الإسلامُ، فلما غلب بنو أميَّة على الخلافة، خافوا المُعارِضَةَ من زعماء المهاجرين والأنصار في الحجاز، أن تَزْحَمَهم عليها، وتعملَ على صَرْفها عنهم، فنقلوا عاصمةَ الدولة من المدينة، وجعلوها في دمشق، وعَمَدُوا إلى إقصاء أهل الحجاز عن شؤون الحُكم والسياسة العامَّة، وطَفِقُوا يُغْدقون عليهم، من الأموال والهِبَاتِ والنِّعَم، ما وسَّع عليهم أسبابَ معيشتهم، وصَرَفَهم عن التفكير في أُمورِ الخلافةِ والمطالبةِ بها، فنشأت في مكة والمدينة طبقةٌ مُتْرَفَةٌ جِدّاً من أبنائهم، وفيهم شعراءُ الغزل، ورثتْ عنهم السيادةَ والشرفَ، فوق ما كانوا غنموهُ من الغنائم الكبرى إبَّانَ حركة الفتوح، وفوقه ما ظلَّ بنو أميَّة يُنْعمون به عليهم من كل جانب، فعاشوا في بطالة ونعيم وثراء، وكانت مجالسُ اللهو والغناء يومئذٍ انتشرت في حواضر الحجاز مع انتشار المُغَنِّينَ والمُغَنِّياتِ من الموالي والرقيق، فاشتغلوا بها عن غيرها من الأمور، فاقترنت نهضةُ الغناءِ والموسيقى، بنهضةٍ كبيرةٍ في فنِّ الشعر الذي يُغَنَّىٰ، أو يُصْنَعُ ليُغَنَّىٰ ويُصْحَبَ بالعَزفِ على الآلات الموسيقيَّة، وهو

شعرٌ يدورُ في مُعظمه على الغَزلِ بالمرأة، ووصفِ محاسنها، وثيابِها، وعطرِها، وحديثها. . . ويمتاز بأن موسيقاهُ أكثرُ صفاءً من موسيقى الشعر القديم، وبأن لغتَهُ مُختارةٌ من مُفْردات سهلةٍ، يفهمها العربُ والمستعرِبُون، فالقِيَانُ الأعجميَّاتُ كُنَّ يُلَقَّنَّ العربيةَ، ليُغنِّينَ ما يُنظَمُ لهنَّ بها من الشِعْر، فكان شعراً شَعْبيّاً غنائيّاً، يُنْشِدُهُ الشعراءُ في مواسم الحجِّ بمكة والمدينة، ويُغَنَّى في مجالس الغناء واللهو، ثم ينتقل إلى الحواضر والبوادي القريبة في الحجاز، والبعيدة في العراق والشام، ولا سيما وقد قَرُبَتْ معانيه من الناس، وسَهُلت عِبَاراتُه وألفاظُه، وخَفَّت أوزانُه.

ومثلما اشتغل هؤلاء الشعراءُ بمجالس الغناء، اشتغلوا أيضاً بمواسم الحجِّ، فكانوا يترصَّدُون قوافلَ الحَجِيج، يَتَعرَّضُون للحاجَّاتِ الجميلاتِ من بنات الأشراف ونسائهم، فيتغزَّلون بهنَّ، ويَصِفُونَهنَّ بأحسنَ ما يُمكن أن تُوصَفَ به امرأة. ولعلَّ عمرَ بنَ أبي ربيعة يأتي على رأس شعراء الغزل في الحجاز ممَّن كانوا يُشَبِّبُون بالنساء الجميلات الوافدات إلى مكة للحجِّ. ولعلّ عائشة بنت طلحة التَيْميَّة كانت على رأس من تغزَّلَ بهنَّ الشعراءُ في مواسم الحج عَلاَنِيَةً. . .

* * *

● **عمر بن أبي ربيعة ومواسم الحج:**

أمَّا عمرُ فهو أبو الخطَّاب بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزوميُّ القرشيُّ (٢٣ ـ ٩٣ هـ = ٦٤٤ ـ ٧١٢ م)، من أهل مكة، أَرقّ شعراءِ عصره، ولم يكن في قريش أشعرُ منه[١]. وذكر الأصفهانيُّ روايةً تقول: «كانت العربُ تُقِرُّ

---

(١) الأعلام: ٥/٥٢.

لقريشٍ بالتقدُّم عليها في كل شيء، إلا في الشعر، فإنها كانت لا تُقِرُّ لها به، حتى كان عمرُ بن أبي ربيعة، فأقرَّتْ لها الشعراءُ بالشعر أيضاً»[1]. وكان عمرُ من أسرةٍ واسعة الثراء، عظيمة المكانة منذ أيام الجاهلية. نشأ على الترف، ورخاءِ العيش، والدَّلال، مُفْرِطاً في التجمُّل والتطيُّبِ والتزيُّن، وكانت أحبَّ الأيام إلى نفسه أيامُ مواسم الحجِّ، فكان يرتدي أحسنَ الثياب من الوَشْي والمُخَطَّط والمُسَيَّرِ، ويُسْبِلُ لِمَّتَهُ على أُذُنَيْه، ويُطيلُ إزارَهُ، ويخضبُ نَجَائِبَهُ بالحِنَّاء، ثم ينتقلُ من ناحيةٍ إلى أخرى، يَتَعرَّضُ للحاجَّات في مَراكِبِهنَّ أو مَضَارِبهنَّ، فيتراءَىٰ لهنَّ، ويَتَرائَيْنَ له، ثم يصفُهنَّ في شِعْرِهِ، ويتفنَّنُ في تفصيل أوصافِهِنَّ ومحاسِنهنَّ، حتى ذاع أمره في الناس، فكانت النساءُ تتمنَّى أن يقول فيهنَّ شعراً، وكانت الأشرافُ تخاف على نسائها وبناتها من أشعاره. وكان بعضُهم يُحذِّرُ بعضاً بقوله: لا تَحمِلُوا فتياتكم على رواية شعر ابن أبي ربيعة لئلا يَتورَّطْنَ في الفُسوق تَورُّطاً... وكانوا يقولون: ما دخل على الفتيات في حِجَالِهِنَّ شيءٌ أضَرُّ عليهنَّ من شعر عمر بن أبي ربيعة[2]. وقال ابنُ قتيبة: «كان عمرُ فاسقاً، يتعرَّضُ للنساء الحَوَاجِّ في الطَّوافِ وغيرِهِ من مشاعر الحجِّ، ويُشبِّبُ بهنَّ، فَسَيَّرهُ عمر بنُ عبد العزيز إلى الدَّهْلِكِ، وهي جزيرةٌ بالبحر الأحمر، فغزا، فأُحْرِقت سفينتُهُ، فمات فيها»[3].

عائشة بنت طلحة:

وأما عائشة فهي بنت طلحة بن عُبَيد الله، من بني تَيْم، وأُمُّها أمُّ كلثوم بنت أبي بكر الصديق، وخالتُها عائشة أمُّ المؤمنين. وكانت أديبةً، عالمةً

---

(١) الأغاني: ١/ ٨٣.

(٢) المرجع نفسه.

(٣) الشعر والشعراء: ٥٥٤.

بأخبار العرب، فصيحة[1]، تزوَّجَتْ عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصدِّيق، ثم مُصعب بن الزبير بن العَوّام، ثم عمر بن عبيد الله بن معمر التيميّ[2]. . . قيل إنها وفدتْ على هشام بن عبد الملك، فبعث إلى مشايخ بني أمية أن يسمروا عنده، فما تذاكروا شيئاً من أخبار العرب، وأشعارها، إلا أفاضت معهم فيه، وما طلع نجمٌ ولا غاب إلا سمَّتْهُ، وأخبارُها مع الشعراء كثيرةٌ، ولعمر بن أبي ربيعة غَزَلٌ بها، وقد تُوفيت سنة (١٠١ هـ = ٧١٩ م)[3]. . .

ولم يكن لها شبهٌ في زمانها حُسْناً، ودماثةً، وجمالاً، وهَيْأةً، ومتانةً، وعِفَّةً[4]. . . وكانت لا تسترُ وجهها من أحد، ولمّا عاتبها في ذلك زوجُها مُصْعبُ بن الزبير، قالت: إن الله تبارك وتعالى وَسَمَني بمِيسَم جمال، أحببتُ أن يراهُ الناسُ، ويعرفوا فضلي عليهم، فما كنتُ لأستره، واللَّهِ ما فيَّ وصمةٌ يَقْدِرُ أن يذكرني بها أحد[5]. . . وقد نظر إليها «ابن أبي ذئب»[6] تطوف بالبيت فقال لها: مَن أنت؟ فقالت:

من اللاَّءِ لم يَحْجُجْنَ يَبْغِينَ حِسْبَةً ... ولكــنْ ليقتلــنَ البــريءَ المُغَفَّــلا

فقال: صان اللَّهُ هذا الوجه عن النار!. فقيل له: أفَتَنَتْكَ؟ قال: لا،

(١) الأعلام: ٣/ ٢٤٠.
(٢) المحبَّر: ٤٤٢.
(٣) الأعلام: ٣/ ٢٤٠.
(٤) الأغاني: ١١/ ١٧٢.
(٥) المرجع نفسه: ١١/ ١٦٥.
(٦) ابنُ أبي ذئب: (٨٠ ـ ١٥٨ هـ)، أبو الحارث، محمد بن عبد الرحمن، من قريش، ومن أوْرَعِ الناس وأفضلهم في عصره. تابعيٌّ من رُوَاة الحديث، كان يُفتي بالمدينة.

ولكنَّ الحُسْنَ مرحوم[1]. ورآها أبو هريرة فقال: سبحان الله! ما أحسنَ ما غَذَّاكِ أهلُكِ، لكأنما خرجْتِ من الجنة[2]...

وكانت عائشةُ تُعِدُّ للحجِّ عُدَّةً ما أعَدَّتْ مثلَها امرأةٌ قطُّ، في فَخَامتها، وكثرةِ رَوَاحِلها، وجمالِ مَن يُرافقها من الإمَاءِ والجَواري، وتنوُّعِ ما تحملُ معها من المتَاع والألْطافِ والهدايا... ويقال إن عاتكةَ بنتَ يزيد بن معاوية، استأذنتْ زوجَها أمير المؤمنين عبدَ الملك بنَ مروان في الحجِّ، فأذِنَ لها... ولكنه قال: ارفَعي حوائجَكِ، فإن عائشة بنت طلحة تحجُّ! ففَعَلتْ، وجاءت بهَيْأَةٍ جَهِدَتْ فيها... فلما كانت بين المدينة ومكة، إذا موكبٌ قد جاء، فزَحَمَها، وضَيَّق عليها، وفَرَّق جماعَتَها، فقالت: أظنُّ هذه عائشةَ بنتَ طلحة، وسألتْ عنها فقالوا: هذه خازِنتُها... ثم جاء موكبٌ آخَرُ أعظمُ من ذاك، فقالوا: عائشةُ عائشة... فزاحَمهم، فسألت عنه، فقيل لها: هذه ماشِطَتُها! ثم جاءت مواكبُ على هذا السَّنَن، وكلما مرَّ منها موكبٌ أحَسَّتْ عاتكةُ له في حَلْقها مثلَ الغصَّة، وفي قلبها شبهَ الحَسْرة، حتى أقْبَلتْ كوكبةٌ فيها ثلاثُ مئةِ راحلةٍ، عليها القبابُ والهوادِجُ، وفيها عائشة، فقالت عاتكة: ما عند الله خيرٌ وأَبْقَى[3]...

* * *

● **عمر وعائشة في الطواف:**

بينا عمر بنُ أبي ربيعة يطوفُ بالبيت، إذ رأى عائشة بنت طلحة، وهي

---

(١) العقد الفريد: ٦/١٠٩.

(٢) الأغاني: ١١/١٧٩.

(٣) الأغاني: ١١/١٧٨.

تريدُ الركنَ تَسْتلمه، فبُهِتَ لمّا رآها، ورأَتْهُ فعلمتْ أنها قد وقعت في نفسه، فبعثت إليه بجاريةٍ وقالت لها: قولي له اتَّقِ الله ولا تَقُلْ هُجْراً، فإن هذا مقامٌ لا بدَّ فيه مما رأيت! فقال للجارية: أَقْرِئيها السلامَ وقُولي لها ابنُ عمِّك لا يقول إلا خيراً. . . ثم قال فيها:

لعائشةَ ابنَةِ التَّيْميِّ عندي ... حِمىً في القلب، لا يُرْعَى حِمَاها
يُذكِّرُني ابنةَ التيميِّ ظَبْيٌ ... يَرودُ بروضةٍ سَهْلٍ رُبَاها
فقلتُ له، وكاد يُراعُ قلبي ... فلم أَرَ قطُّ كاليوم اشْتِبَاها
سوى حَمْشٍ بسَاقِكَ مُسْتَبينٍ ... وأنَّ شَواكَ لم يُشْبه شَوَاهَا
وأنك عاطِلٌ عارٍ، وليستْ ... بعَارِيَةٍ ولا عُطُلٍ يَدَاها
وأنك غيرُ أَفْرَعَ وهي تُدْلي ... على المَتْنَيْن أسْحَمَ قد كسَاها
ولو قَعَدتْ ولم تكْلَفْ بِوُدٍّ ... سوى ما قد كَلِفْتُ به كفاها[1]

ولم يَزَلْ يتغزَّلُ بها أيام الحجِّ، ويطوف حولها، ويتعرَّضُ لها، حتى وافقَها وهي ترمي الجِمار بمنىً سافرةً، فنظر إليها، فقالت: أما واللَّهِ لقد كنتُ لهذا منك كارهةً يا فاسق!. . . فقال فيها يومئذٍ:

إنـي وأوَّلُ ما كَلِفْتُ بحبِّها ... عَجِبٌ، وهل في الحبِّ من مُتعجَّبِ
غَرَّاءُ يُعْشي الناظرين بياضُها ... حوراءُ، في غُلَواءِ عَيْشٍ مُعْجِبِ
إن التي في أرضِها وسمائِها ... جُلبتْ لحَيْنِكَ ليتها لم تُجلَبِ[2]

ثم لقيها بعدئذٍ بمكة، وهي على بغلةٍ لها، فقال: قفي حتى أُسمِعَكِ ما

---

(١) الحَمْشُ: دِقَّةُ الساقين. الشَّوَىٰ: ظاهر الجِلْد، واليدان والرجلان. العاطِلُ: ليس عليه حُليٌّ. العَاري: ليس عليه ثياب. الأفْرَعُ: الكثيرُ الشَّعر. الأسْحَم: الأسودُ.
(٢) الغُلَواءُ: الغُلُوُّ وهو الزيادة والارتفاعُ وأوَّلُ الشيء. الحَيْن: الهلاك.

قلتُ فيك. قالت: أوَ قد فعلتَ يا فاسق؟ قال: نعم، فوقفتْ، فأنشدها:

يا ربَّةَ البغلةِ الشهباءِ هل لكِ في ... أن تَنْشُري مَيِّتاً، لا تُرْهَقي حَرَجَا
قالتْ: بدائِكَ مُتْ، أو عِشْ تُعَالِجُهُ ... فإن تُقِدْنا فقد عَنَّيْتَنا حِجَجَا
حتى لَوَ اسْطِيعُ مما قد فعلتَ بنا ... أكلتُ لحمَكَ من غيظٍ وما نَضِجَا[1]

فقالت: لا وربِّ هذه الكعبةِ ما عَنَّيْتَنا طَرْفَةَ عينٍ قطُّ، ثم سارت[2]. . . ذلك أنها إنما كانت تَتَراءَىٰ له لِيَصِفَ جمالَها، ويُشيدَ بمحاسِنِها، وليس لأنه عَنَّاها بشبابه وجماله، فهي امرأةٌ حُرَّةٌ مسلمةٌ، لا ترتكبُ مثلَ هذا الإثْم، وإن كانت فخورةً بحُسْنِها، حريصةً على أن يتحدَّثَ الناسُ به اعترافاً بفَضْلها في ذلك على غيرها من نساء عصرها.



● عائشة وسُكَينة في الحجِّ:

ومن طريف ما يُذكر من أخبار عائشة، واحتفالها بموسم الحجِّ، أنها دخلتْ على الوليد بن عبد الملك، وهو بمكة، فقالت: يا أمير المؤمنين، مُرْ لي بأعْوانٍ!. فضَمَّ إليها قوماً يكونون معها، فحجَّتْ ومعها سِتُّونَ بِغْلاً عليها الهوادِجُ والرَّحَائِلُ، ويُقال إن سُكَيْنَةَ بنت الحُسَيْن، وكانت عائشةُ ضَرَّتَها عند مُصعب، حجَّتْ في ذلك العام، وكانت عائشةُ أحْسَنَ منها مَتَاعاً وأَجْهِزَةً وعُدَّةً، فقال حادِيها:

عـائـشُ يـا ذاتَ البِغَـال السِّتِّيـن ... لا زلـتِ مـا عشـتِ تَحجِّيـن

(١) النَّشْرُ: الإحْيَاءُ. أرْهَق: حمَّل، أو كلَّفَ الشيءَ، أو دَفع إليه. الحَرَجُ: الإثم أو الذنب. القَوَدُ: القصاص. التَّعْنِيَةُ: تكليفُ المشقَّةِ والأذَى. الحِجَجُ: ج حِجَّة بمعنى الحجِّ والسنة.
(٢) الأغاني: ١/ ١٩٠ ـ ١٩٣.

فشقَّ ذلك على سُكَيْنَة، فنزل حاديها، فقال:

عـائشُ هـذي ضَـرَّةٌ تَشْكُـوكِ لولا أبوها ما اهتدى أبوكِ

فأمرتْ عائشة حاديَها أن يكفَّ فكفَّ(١).

● عمر بن أبي ربيعة والوليد بن عبد الملك:

ويبدو من الأخبار، أن أمير المؤمنين، في عصر بني أمية، كان إذا انقضى موسمُ الحجِّ، ظلَّ هنالك مُدَّةً يستقبلُ فيها الناس. وقد ذُكر أن ابن أبي ربيعة حجَّ في إحدى السنين، فلما انصرف من الحجِّ، أَلْفَىٰ الوليدَ بنَ عبد الملك وقد فُرِشَ له في ظهر الكعبة، وجلس هنالك يستقبل الناس. فجاءَهُ عمرُ، وقد صار شيخاً مُسِنّاً، فجلس إليه، فقال له الوليدُ: أنْشِدْني شيئاً من شِعرك، فأنشده قصيدته التي قال فيها:

أَمِـنْ آلِ نُعْـم أنـتَ غـادٍ فمُبْكِـرُ غــداةَ غَــدٍ أم رائــحٌ فمُهَجِّــرُ
بحاجةِ نفسٍ لم تقلْ في جوابها فتُبلِـغَ عُـذْراً، والمقـالـةُ تُعْـذِرُ

فطرب الوليدُ، واهتزَّ لذلك، فأجْزَلَ صِلَتَه وبالغ في إكرامه(٢).

● ابنُ أبي ربيعة في مِنىً:

ويبدو أن عُمر ابن أبي ربيعة كان يتَّبعُ النساءَ الحَوَاجَّ في كل مكان من مناسك الحجّ، ويختلسُ النظرَ إلى وجُوهِهنَّ وأَيْديهنَّ، وقد رأى إحداهُنَّ بالمُحَصَّبِ من منىً في أحد المواسم، فراعَهُ منها أنها ليست كالأعراب تبدو

---

(١) الأغاني: ١١/١٧٧ ـ ١٧٨.
(٢) المرجع نفسه: ١/١٢٣.

على أيديهنَّ آثارُ الضَّرْبِ بالعَصَا على الماشِيَة، وتبدو على وجوههنَّ آثارُ الريح السَّمُوم التي تهبُّ عليهنّ عادةً أثناء الرَّعْي، فقال فيها:

نظرتُ إليها بالمُحَصَّبِ من مِنىً ... ولي نظرٌ لولا التحرُّجُ عارِمُ
فقلتُ: أشمسٌ أم مصابيحُ بِيعَةٍ ... بدتْ لكَ خلف السَّجْفِ أمَ أنتَ حالمُ
ومَدَّ عليها السَّجْفَ يومَ لقيتُها ... على عَجَلٍ تُبَّاعُها والخَوادِمُ
فلم أسْتَطِعْها غير أن قد بدا لنا ... عشيَّةَ راحتْ وَجْهُها والمعَاصِمُ
معاصِمُ لم تضرِبْ على البَهم بالضحى ... عصاها، ووجهٌ لم تَلُحْهُ السَّمَائمُ
نَضيرٌ تَرىٰ فيه أسَاريعَ مائِهِ ... صبيحٌ تُفَادِيه الأَكُفُّ النواعم[1]

كلُّ هذا، وأكثر منه كما في بقيَّة القصيدة، رآهُ في المرأة وقد نظر إليها نظرةَ تحرُّجٍ فقط، خوفاً من الإثم، مع أن نَظَرهُ لولا التحرُّجُ، كما قال، حديدٌ شديدٌ، ومع أن الخَدَمَ مَدُّوا عليها ستراً كيلا يراها.

● **عائشة والحارثُ المخزوميُّ:**

كان الحارثُ بنُ خالد بن العاص المخزوميُّ شاعراً غَزِلاً على مذهب ابن أبي ربيعة، وكان من المفتونين بجمال عائشة بنت طلحة، يقولُ فيها الشعرَ كلَّما قدمتْ مكةَ للحجِّ، أو للعُمْرة. وكان له قَدْرٌ ومَنْظَرٌ في قريش[2]، فولاَّهُ عبدُ الملك بنُ مروان على إمارة مكة (٨٠ ـ ٨١ هـ)، وكان أبوه

---

(١) الأغاني: ١/ ١٣٠ ـ ١٣١.. عارم: شديدٌ حادٌّ. البِيعَةُ: معبد النصارىٰ، ويبدو أن المصابيح التي تستعمل فيها كانت شديدة النور. البَهْمُ: الصغيرُ من أولاد الضأن والماعز والبقر. نضيرٌ: حسن، جميلٌ، ناعمٌ. الأَسَارِيعُ: واحِدُه أُسروع وهو الخطُّ أو الطريق، يريد أنه يترقرقُ في وجهها النضير ماءُ الشباب.

(٢) الأعلام: ٢/ ١٥٤، (وقد غلط الزركلي إذ جعل وفاته سنة ٨٠ هـ)، لأنه كان يومئذٍ أمير مكة.

خالدُ بنُ العاص وَلِيَها قبله ثلاث مرات[1]... وبيْنا عائشةُ تطوفُ بالكعبة يومئذٍ، أذَّن المؤذِّنُ، فخرج الحارثُ للصلاة، فأرسلت إليه عائشةُ: قد بقيَ من طَوَافي شيءٌ لم أُتِمَّهُ! فأمَرَ المؤذِّنَ، فكفَّ عن الإقامة ريثما تَفْرَغُ من طوافها... وبلغ ذلك عبدَ الملك فعزَلهُ، فقال: ما أهْوَنَ واللَّهِ غَضَبُه عليَّ عند رضاها عني[2].

● ليت الحجَّ كان كلَّ يومين:

ذكر الأصفهاني أن إحدى بنات مروان بن الحكَم حَجَّتْ في سنةٍ، ولمّا قَضَتْ نُسُكَها، أحبَّتْ أن تسمعَ حديثَ ابنِ أبي ربيعة، فأَخْفَتْ نفسَها في نِسْوةٍ أتَيْنَهُ، فحدَّثَها مَلِيّاً، ثم انصرفتْ... فأتْبَعَها خادماً عرفتْ موضِعَها، فسأل عمرُ عنه حتى تحقَّق منها وعَرَفها، ولعلَّها كانت تنزلُ بالخَيْفِ من مِنىً. ولمّا عادتْ إليه بعد ذلك، أخبرها بأنه عرفها، فقالت له: سألتُك بالله ألاَّ تُشهرني بشِعرك! ثم بعثتْ إليه بألف دينار هديَّة، فقبِلَها، وابتاع بها حُلَلاً وطِيباً، وأهْداها إليها، فردَّتْها، فقال لها: واللَّهِ لئن لم تَقْبليها لأَجْعَلَنَّها نَهْباً مُباحاً لمن شاء أَخَذَ منها، فتكوني مشهورةً! فقبِلَتْها ورحَلَتْ، فقال فيها:

أيُّها الرائحُ المُجِدُّ ابتكارا ... قد قضى من تِهامَةَ الأَوْطارا
إن يكن قلبُك الغداةَ خَلِيّاً ... ففؤادي بالخَيْفِ أمسى مُعَارا
ليت ذا الدهرَ كان حتماً علينا ... كلَّ يومين حِجَّةً واعْتِمَارا[3]

---

(١) زامباور - معجم الأنساب والأسرات الحاكمة: ٢٧.
(٢) الأغاني: ١١/ ١٨٠ - ١٨١.
(٣) المرجعُ نفسه: ١/ ١٦٦.

وقيل إن سعيدَ بنَ المُسَيّب[1]، سمع هذا الشعر فقال: لقد كلّفَ المسلمين شَطَطاً! فقال مُحدِّثُه: إن في نَفْسِ الجَمَل شيئاً غير ما في نفس الجمّال[2].

● **عُمَرُ والنَّوَار:**

وكانت النسوةُ القادماتُ للحجِّ يَعْلمنَ أن عُمَرَ لهنَّ بالمِرْصَادِ، يختلسُ النظرَ إليهنَّ، ليُشَبِّبَ بهنَّ، ويشيدَ بذكرهِنَّ، فكانت العجائزُ تُحذِّر الشابّاتِ منه أن يَراهُنَّ، فيَفْضَحهنَّ بِشعره في أحياء العرب.

وبينما عمرُ مُنْصرفٌ من المزدلفة إلى مِنىً، إذ بَصُرَ بامرأةٍ في مركب على بعير، ففُتِنَ بها، وسمع عجوزاً تُناديها: يا نَوَارُ[3]، اسْتُري لا يَفْضحْكِ عمرُ بن أبي ربيعة!... فاتَّبَعَها عمرُ وقد شَغَلتْ قلبه، حتى نزلت بمِنىً، في فسطاطٍ كبير، فنزل إلى جنب الفسطاط، ثم لم يزل يَتَلطَّفُ حتى جلس معها، وحادَثَها، وإذا هي أحسنُ الناس وجهاً، وأحلاهم مَنْطقاً، فزاد ذلك في إعجابه بها، فأراد مُعاوَدَتَها، فتعذَّر ذلك عليه، وكان آخرَ عهده، ومما قال فيها وقتئذٍ:

عَلِقَ النَّوَارَ فؤادُهُ جهلاً ... وصَبَا فلم تترك له عقلا

---

(١) سعيد بن المسيب: من بني مخزوم، سيد التابعين في عصره، وأحد الفقهاء السبعة بالمدينة. كان يعيش من التجارة بالزيت، ولا يأخذ عطاءً من بيت المال. توفي سنة (٩٤ هـ) عن اثنتين وثمانين سنة.

(٢) مصارع العشاق: ٢/ ١٦٠.

(٣) النَّوَارُ: المرأةُ النَّفُور من الريبة والشر، أمّا النُّورَة التي تُسمّى بها البناتُ اليوم، فهي كلُّ علامةٍ بمَكْوَىً على بعيرٍ أو غيره، وهي أيضاً الكلْسُ الذي كان يُحلَق به شعرُ العانَة.

وتعرَّضتْ لي في المسير فما أمسى الفؤادُ يرى لها مِثْلا[1]

● سُعْدَى بنت عبد الرحمن بن عوف:

كانت سُعدى جالسةً في المسجد الحرام بمكة، فأبصرت عمر بن أبي ربيعة يطوفُ بالكعبة، فأرسلت إليه: إذا قضيتَ طوافَكَ فَأْتِنا! فلما قضى طوافَهُ أتاها، فحادثها وأنشدها من شعره، فقالت: ويحك يا ابنَ أبي ربيعة ما تزالُ سادِراً في حَرَم الله مُنْتَهِكاً، تتناول رَبَّاتِ الحِجَال من قريش! فقال: دعي هذا عنك، أما سمعتِ ما قلتُ فيكِ؟ قالت: وما قلتَ فيَّ؟ فأنشدها:

أَحِـنُّ إذا رأيـتُ جمـالَ سُعْـدىٰ وأبكـي إن رأيـتُ لهـا قَـرِينـا
أَسُعْـدى إنَّ أَهْلَـكِ قـد أَجَـدُّوا رحيـلاً، فـانظـري مـا تـأمـرينـا

فقالت: آمُرُكَ بتقوى الله، وتَرْكِ ما أنت عليه[2]...

● عمر يُزوِّجُ مُحِبَّيْن:

ويبدو أن عُمر لمّا أَسَنَّ، وذهب عنه ما كان به من شوق وطَربٍ إلى النساء، جعل يُنكر على نفسه بعض ما كان يفعل... ومن ذلك أنه نظر يوماً إلى رجُل يُكلِّم امرأةً في الطَّوَاف، فاقترب منه، وعاب عليه ذلك، وأَنكرهُ، فقال الرجُل. إنها ابنةُ عميٍّ! فقال له عمرُ: ذاك أَشْنَعُ لأمرك، فقال: إني خطبتُها إلى عمِّي، فأبىٰ عليَّ إلا بصَدَاق أربع مئة دينار، وأنا غيرُ مُطيقٍ ذلك... وشَكا إليه من حُبِّها، وكَلَفِهِ بها أمراً عظيماً، واسْتَشْفَعَ به على عمِّه. فسار معه إليه، وكلَّمه، فقال العمُّ: هو مُمْلِقٌ، وليس عندي ما أُصْلِح

---

(١) الأغاني: ١/١٥٩ ـ ١٦٠.
(٢) المرجع نفسه: ١٧/٩٧ ـ ٩٩.

به أمرَه! فقال عمر: وكم الذي تريده منه؟ قال: أربع مئة دينار... فقال: هي عليَّ، فزَوِّجْهُ. ففَعَل العمُّ ذلك، فطرب عُمَرُ واشتاق إلى أيامه الماضِيات، فقال:

تقولُ وليدتي لمّا رأتني ... طربتُ وكنتُ قد أقْصَرتُ حِينا
أراكَ اليومَ قد أحدثتَ شوقاً ... وهاج لك الهوى داءً دَفِينَا
فقلتُ شكا إليَّ أخٌ مُحبٌّ ... كبعض زماننا إذ تَعْلمينا
فقَصَّ عليَّ ما يَلْقَى بهندٍ ... فذكَّرَ بعضَ ما كنا نَسِينا
وذو الشوقِ القديم وإن تعزَّى ... مَشُوقٌ حين يلقَى العاشِقينا[1]

● طائفةٌ بالبيت تُنْشِدُ شعراً:

جاء في الأخبار أن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب، كان يطوفُ بالبيت الحرام، إذ رأى امرأةً تطوفُ وتُنشد:

لا يقبلُ اللّه من معشوقةٍ عملاً ... يوماً وعاشقُها غَضْبانُ مهجورُ
ليست بمأجُورةٍ في قتلِ عاشِقها ... لكنَّ عاشقَها في ذاك مأجورُ

فقال لها: يا أَمَةَ الله! أمثلُ هذا الكلام في مثل هذا الموقف، في بيت الله الحرام؟ فقالت: يا فتىً! ألَسْتَ ظريفاً؟ قال: بَلَىٰ... فقالت: ألستَ راوِيَةً للشعر؟ قال: بلىٰ... فقالت: ألم تسمع قولَ الشاعر:

بِيضٌ غَرائِرُ ما هَمَمْنَ بريبةٍ ... كظِبَاءِ مكَّةَ صَيْدُهُنَّ حرامُ
يُحْسَبْنَ من لين الحديث زَوَانِياً ... ويصدُّهُنَّ عن الخَنَا الإسلامُ[2]

---

(١) الأغاني: ١/١٤٨ ـ ١٤٩.

(٢) مصارع العشاق: ٢/١٧٧ و ٢١٧.

● **بكاءُ عاشقةٍ في المزدلفة:**

وفي أخبار العاشقين، نقل أبو محمد السرَّاج عن أحدهم قولَه: إني لبالمزْدَلفة بين النائم واليقظان، إذ سمعتُ بكاءً مُتتابعاً، ونَفَساً عالياً، فاتَّبعتُ الصوتَ، فإذا أنا بجاريةٍ كأنها الشمسُ حُسْناً، ومعها عجوزٌ، فلَطِئْتُ بالأرض أنظرُ إليها، وأُمَتِّع عيني بحسنها، فسمعتُها تقولُ وهي تبكي:

دعــوتُــك يــا مــولاي ســرّاً وجهــرةً ... دعاءَ ضعيف القلب عن محمل الحبِّ
بُليتُ بقاسي القلب لا يعرف الهوى ... وأَقْتَـلِ خَلْـقِ اللَّـهِ للهـائـم الصـبِّ
فـإن كنـتَ لـم تقـضِ المـودَّةَ بيننـا ... فـلا تُخْـلِ مـن حـبٍّ لـه أبـداً قلبـي
رضيتُ بهذا في الحياة، فإن أَمُتْ ... فحسبي ثواباً في المَعَادِ به حسبي

فقمتُ إليها، فقلتُ: بنفسي أنتِ، أَمَعَ هذا الوجه يمتنعُ عليكِ من تحبِّينَهُ؟ قالت: نعم، وفي قلبه واللَّهِ أكثرُ مما في قلبي. فقلتُ: إلى متى هذا البكاء؟ قالت: أبداً، أويصيرَ الدمعُ دماً، وتتلفَ نفسي غمّاً. فقلت لها: إن هذه لآخِرُ ليلةٍ من ليالي الحجِّ، فلو سألتِ الله التوبة مما أنتِ فيه، رجوتُ أن يُذهبَ حبَّه من قلبك! فقالت: يا هذا، عليك بنفسِكَ في طلب رغبتك، فإني قد قَدَّمتُ رغبتي إلى من ليس يجهل بُغْيَتي... وحَوَّلتْ وجهها عني، ورجعت إلى شِعْرها وبكائها[1].

● **لقاءُ كُثَيِّر وعَزَّة في الحجّ:**

ذُكر في أخبار كُثَيِّر صاحبِ عَزَّة، وكان عفيفاً في حُبِّه وغَزَله، أنه وَفَد على عبد الملك بن مروان، فسأله عن أَعْجب خبر له مع عَزَّة، فقال:

---

(١) مصارع العشاق: ١/ ٧٧ ـ ٧٨.

حججتُ سنةً من السنين، وحجَّ زوجُ عَزَّةَ بها، ولم يكن أحدٌ منا يعلم بصاحبه، فلما كنا ببعض الطريق، أمرها زوجُها أن تَبتاع سمناً تُصْلح به طعاماً، فجعلتْ تأتي الخِيَامَ خَيْمةً بعد أُخرى، حتى دخلتْ عليَّ وهي لا تعلم أنها خيمتي. وكنتُ أَبْري سهماً، فلما رَأَيْتُها جعلتُ أبري أصبعي وأنا أنظر إليها ولا أعلمُ ما أصنع، فأقبلتْ عليَّ، وأمسكت يدي، وجعلتْ تمسحُ الدمَ عنها بثوبها. وكان عندي زِقٌّ من السمن، فحلفتُ لتَأْخُذَنَّه، فأخذتْه، وذهبتْ به إلى زوجها، فرأى أثَر الدم عليها، فسألها عن خبره، فكتمتْهُ، فحلَفَ لتَصْدُقَنَّه، فصَدَقَتْهُ، فضربها وحَلَفَ لَتَشْتُمَنِّي في وجهي! فوقفتْ عليَّ، وهو معها، وقالت لي: يا فاسق! وهي تبكي، ثم انصرفا. . . فذلك حين أقول:

يُكلِّفُهـا الخِنْـزيـرُ شَتْمـي ومـا بِهـا   هَوَاني، ولكنْ للمليكِ اسْتَذلَّتِ[1]

وهو من قصيدته التي قال فيها، يذكرُ ذلك الموسمَ، ومكانَها أو رَبْعَها الَّذي نزلتْ به يومئذٍ:

خليلـيَّ هـذا ربْـعُ عـزَّةَ فـاعْقِـلا   قَلُوصَيْكُمـا ثـم ابكيـا حيـث حَلَّـتِ
وما كنت أدري قبل عَزَّةَ ما البُكا   ولا مُـوجِعـاتِ القلـبِ حتـى تَـولَّـتِ

وأحب أن أُسجِّلُ هنا أن هذا الغَزَلَ الذي سمَّتْه كتُبُ الأدب والنقد: شِعْرَ الوقوفِ على الديار الخَالِيَة، وبكاءِ الأطلالِ العافِيَة، كالَّذي ابتدأ به كُثيِّر قصيدتَه، بطلَبِهِ من أصحابه أن يتوقَّفُوا عند الرَّبْع الذي حلَّتْ به عَزَّةُ في الموسم، ثم أصبح منها خالياً. . . هذا الشعر إنما هو أثَرٌ من آثار المواسم الكبرى، كموسم الحجّ، وموسم الخروج إلى البادية للتربُّع فيها زمنَ الربيع

(١) الأغاني: ٩/٢٨ ـ ٢٩. والقَلُوص: الناقةُ الشابَّةُ الطويلةُ القوائم.

أو الخريف، فهذه المواسمُ العامَّةُ كانت الموضعَ الوحيدَ الذي يمكن أن يتلاقىٰ فيه المحبُّون، وأن يسعَىٰ بعضُهم في إثْر بعض، دون أن يخشَوْا غالباً ما يخشَوْنَه عادةً خارجَ المواسم، بعدما يعودون منها إلى مَواطِنهم التي يُقيمون بها دائماً. فهنالك إن سعى الشاعرُ إلى منزل حبيبته، ليقفَ به ويسْتَوقفَ، ويبكي عنده ويَنُوح، حلَّ قتلُه وأُريق دمُه إذا كان قادماً من قبيلةٍ أخرى، فإن كان من القبيلة نفسِها حُرِّمَتْ عليه رؤيتُها أو زيارتُها ولقاؤها، بل والزواجُ بها لأنه فَضَح القبيلةَ حين شَبَّبَ بابنة عمِّه، وانتشر شعرُه في قبائل العرب.

● **أشعرُ من قال في مشاعر الحجِّ:**

ذكروا أن أَحْسَنَ ما قيل في مشاعر الحجِّ قولُ كثيِّر:

تَفرَّق أنواعُ الحجيج على مِنىً — وفَرَّقَهم، شَعْبَ النَّوىٰ، مَشْيُ أرْبَعِ
فلم أرَ داراً مثلَها دارَ غِبْطةٍ — ومَلْقىً إذا الْتفَّ الحجِيجُ بَمْجَمَعِ
أقلَّ مُقيماً راضِيَاً بمقامِهِ — وأكثرَ جاراً ظاعِناً لم يُودَّعِ[1]

ومثلُ ذلك قولُ القلقشندي في معرض كلامه على فضل الألفاظ، وشَرَفِها، وحُسْنِ انتقائها: «وإذا كان الكلامُ حلواً عَذْباً، وسَلِساً سهلاً، ومعناهُ وسَطاً، أي حَسَناً، دَخَل في جُملة الجيِّد، وجرى مع الرائع النادر، كقول الشاعر:

ولمّا قَضَينا من مِنىً كلَّ حاجَةٍ — ومسَّحَ بالأركان مَن هو ماسِحُ
وشُدَّتْ على حُدْبِ المَهارِي رِحَالُنا — ولم ينظرِ الغادي الذي هو رائحُ

(١) مصارع العشاق: ١/ ١٩٩، الشَّعْبُ: التفريق. النوى: البُعد. مشي أربعٍ: أي مسيرُ أربع ليال.

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا   وسَالَتْ بأعناق المطِيّ الأباطحُ

وقال: وليس تحت هذه الألفاظ كثيرُ معنىً، وهي رائقةٌ مُعْجِبةٌ، وإنما معناها: ولمَّا قضَيْنا الحجَّ، واستلمنا الأركان، أي أركان الكعبة، وشُدَّتْ رِحَالُنا على مَهازِيل الإبِل، ولم ينتظر بعضُنا بعضاً، وجعلنا نتحدَّثُ، وتسيرُ بنا الإبلُ في بطون الأودية»[1].

وقد ضرب ابنُ قتيبة هذه الأبيات مَثَلاً على أن ألفاظها أحسنُ شيءٍ مَخَارِجَ ومطالِعَ، ومقاطِعَ، مع أن معناها يسيرٌ[2]... ولم يَنْسبْها إلى أحدٍ من الشعراء، ولكن أحمد الربيعي نَسبها في كتابه إلى كُثيِّر عَزَّة، وقال: إنها أبياتٌ مشهورة، تناقلها النقَّادُ وأهلُ البلاغة، تنويهاً بلُطف الوصف الذي جاء فيها لمناسك الحجِّ[3].

● مجنون ليلى في الحجّ:

لمَّا ظَهر من قيسِ بن المُلوَّح العامريّ، ما ظهر من هُيَامِهِ بابنة عمه ليلى بنت سعد، ورأى قومُه ما ابتُليَ به، أتَوْا أبا ليلى ورَهْطَها، وسألوهم بالرَّحِم أن يُزوِّجوا قيساً من ليلى، وأخبروهم بما ابتُلي به من حُبِّها، فأبَىٰ أبو ليلى، وحَلَفَ ألاَّ يزوِّجها منه أبداً... فقال الناس لأبي قيس: لو خرجتَ به إلى مكة، فعاذ بالبيت، ودعا الله، رجَوْنا أن ينساها، أو يُعافِيَه اللَّهُ ممّا ابتُليَ به! فحجَّ به أبوهُ إلى مكة، وبينما هو يمشي بمِنىً، وأبوه معه قد أخذ بيده، يريدُ رميَ الجِمَار، سمع منادياً يُنادي من بعيد: يا ليلى! فظنَّها ليلاهُ، وخَرَّ مَغْشِيّاً

---

(١) صبح الأعشى: ٢/ ٢٢٣.

(٢) الشعر والشعراء: ٦٦ ـ ٦٧.

(٣) «كُثيِّر عزَّة». حياتُه وشِعره: ٢١٣، (دار المعارف بمصر ١٩٦٧).

عليه، واجتمع الناسُ حوله، ونَضَحوا الماءَ على وجهه، وأبوه يبكي عند رأسِهِ. ثم أفاق وهو مُصْفَرٌّ لونُه، مُتَغيِّرٌ حالُه، فأنشأ يقول:

وداعٍ دعا، إذ نحن بالخَيْفِ من منىً ... فهيَّــجَ أشــواقَ الفــؤادِ ولــم يَــدْرِ
دعـا بـاسْـم ليلـى غيـرِهـا، فكـأنَّمَـا ... أطار بليلى طائراً كان في صدري

وبينا أبو قيس يطوفُ بالكعبة، ويدعو الله له بالعافية، كان قيس يقول:

دعـا المُحْـرِمـونَ اللَّـه يستغفـرونـه ... بمكـة، وَهْنـاً، أن تُمَحَّـىٰ ذنـوبُهـا
ونـاديـتُ أن يـا ربِّ أوَّلُ سُـؤْلَتـي ... لنفسـيَ ليلـى، ثـم أنـت حَسِيبُهـا
فإن أُعْطَ ليلى في حياتيَ لا يَتُبْ ... إلـى اللَّـه خَلْقٌ تـوبـةً لا أتُـوبُهـا[1]

ويبدو أن قيساً كان يرجو لقاءَ ليلى وهي ترمي الجِمَارَ بِمنىً، فلم يَرَها، فقال:

ولـم أرَ ليلـى، بعـد مـوقـفِ سـاعـةٍ ... بخَيْفِ مِنىً ترمي جِمَارَ المُحَصَّبِ
ويُبْدي الحصَى منها إذا قَذفتْ به ... من البُرْدِ أطرافَ البَنَانِ المُخَضَّبِ
وأصبحتُ من ليلى الغداةَ كناظرٍ ... من الصبح في أعقابِ نجمٍ مُغَرِّبِ[2]

* * *

وأخيراً، لا شك في أن مواسم الحجِّ كانت تشهدُ، فضلاً على مجالس الشعر والشعراء، جوانبَ مختلفةً من الحياة الاجتماعية، كانت تجري بعد انقضاءِ أيام الحجّ بمكة، ولا سيما أن كثيرين من أشراف العرب، كانوا يَظَلُّون فيها حتى تُسْتَرَ الكعبةُ في العاشر من المحرَّم، ويُغادِرَ وقتئذٍ آخِرُ

(١) الشعر والشعراء: ٥٦٧ ـ ٥٦٨، ومصارع العشاق: ٢/ ٥٣، و ٧٧ ـ ٧٨.
(٢) معجم البلدان: ٢/ ٤١٢.

الحاجّ مكة إلى بلادهم[1]. . . أمّا حكاياتُ الشعرِ والشعراءِ في مواسم الحجِّ، فكانت كثيرةً جداً بعد انقضاء عصر الخلفاء الراشدين، ولكنني اجتَزَأْتُ ببعض النماذج الطريفة، لعلّي أقدِّم من خلالها صورةً واضحةً لمجامع العرب العامَّة في ذلك الزمن.

ويبدو من استقراء بعض الأحاديث، أن الغناءَ ولَعِبَ الجواري بالدفوف في أيام الحج، لم يكن عملاً مُسْتقبَحاً، لأن رسولَ الله قال: «يومُ عَرَفَة، ويومُ النَّحْر، وأيامُ مِنىً: عِيدُنا أهلَ الإسلام، وهي أيامُ أكلٍ وشُرْبٍ»، رواهُ أبو داود والنَّسَائيُّ والترمذيُّ[2]. ورُوِي عن السيدة عائشة أن أبا بكر دخل عليها في بعضِ أيام الحجِّ، وعندها جاريتان تُغنِّيَانِ، وليسَتا بمُغَنِّيَتَين، فأنكر ذلك عليها، فقال رسولُ الله: يا أبا بكر، إن لكلِّ قوم عيداً، وهذا عيدُنا. . . وفي الصَّحِيحيْن أنه قال: دَعْها يا أبا بكر فإنها أيامُ عيد. . . وكانت تلك الأيام أيامَ مِنىً[3]. . . ومما يُذكر أيضاً أن مواسم الحجِّ كانت خير مناسبة لإذاعةِ خبرٍ، أو إعلانه في الناس، لأنها أكثرُ عُموميَّةً من المواسم الأخرى. . . ومن ذلك أنه لمَّا تُوفيَ الزبيرُ بنُ العوَّام، وفَرَغَ ابنُه عبدُ الله من قضاء دَيْنِهِ، قال بنو الزبير: إقْسِمْ بيننا ميراثَنا! فقال: لا واللَّهِ، لا أَقسِمُ بينكم حتى أنادي في الموسم أربعَ سنينَ: ألاَ من كان له على الزبير دَيْنٌ، فلْيَأْتِنا فنقضيه. . . فجعل كلَّ سنةٍ يُنادي بالموسم، فلمَّا مضت أربعُ سنين، قَسَمَ بينهم[4].

---

(١) أخبار مكة: ١/ ٢٥٢.

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم: ١٩٤.

(٣) المرجع نفسه: ١٧٩، ١٩٣.

(٤) الطبقات: ٣/ ١٠٩.

● **تَعْقيب:**

إذا نظرنا كرَّةً أخيرة إلى أسواق عكاظ ومَجنَّة وذي المجاز، وجدنا أن وراء إقامتها بين مكة والطائف، تدبيراً مُحْكَماً، فتلك البقعةُ الوسَطُ امتازت بخَصَائصَ طبيعيةٍ وجغرافيَّةٍ قلَّما توافَرَ بعضُها لبقعةٍ أخرى من بلاد العرب. . . ووجدنا أن وراءَ ذلك أيضاً دهاءً حاذقاً، فقد جُعِلتْ مواسمُها تتَّصِلُ اتِّصالاً مباشراً، في نَسَقٍ زَمنيٍّ واحدٍ، بشعائر الحجِّ، في عَرَفَة ومِنىً والكعبة، وكأنها مدخلٌ إليها، حتى غَلَبَ عليها جميعاً إسمُ مواسم الحجِّ، فقيل للناس يومئذ: لا تَحضُروا سوقَ عكاظ إلا وأنتم مُحْرِمون بالحجِّ، وكان لا بُدَّ لمن أراد الحجَّ من العرب، أن يمرَّ بتلك الأسواق، فيشهد مواسمها قبل أن يصل إلى عَرَفة، ثم مِنىً والكعبة. ذلك أن عرفة لم يكن بها ماء، كما رأينا، فكان عليه أن يَتَزَوَّدَ بالماء من ذي المجاز، ولم يكن بها وبمنىً بيعٌ ولا شراء، فكان عليه أن يتزوَّدَ بما يحتاجُه من عكاظ أو مجنَّة أو ذي المجاز، هذا إن لم يكن صاحبَ تجارةٍ يريدُ أن يبيعَ عُروضَه، أو يستبدلَ بها عُروضاً أخرى.

أمَّا أهلُ مكة ومَن جاوَرهم، فقَلَّ مَن لم يكن منهم يخرج بتجارةٍ إلى عكاظ ومجنَّة وذي المجاز، بل لعلَّهم كانوا أشدَّ الناس حرصاً على شُهودِ هذه الأسواق من شُهودهم شعائرَ الحجِّ، فالبيتُ الحرامُ قائمٌ في ديارهم، وأصنامُ الجاهليَّة التي كان الناسُ يحجُّون إليها كانت قائمةً في البيت وفيما حوله، والطوافُ بكلِّ ذلك مَيْسُورٌ لهم متى شاؤوا. . . وعلى ذلك فقد أفادوا ومَن حولهم، من هذه الأسواق، فوائدَ كثيرةً من المالِ والشَّرفِ والنفوذِ، وهو ما لم يُحقِّق بعضَهُ سائرُ قبائل العرب.



الباب الثالث

مواسم الأسواق في جزيرة العرب

الفصل الأول: سوق حَجْر اليمامة

الفصل الثاني: سوق نطاة خيبر

الفصل الثالث: سوق دومة الجندل

الفصل الرابع: سوق المشقَّر بهجر

الفصل الخامس: سوق حباشة

الفصل السادس: مواسم أسواق عُمَان (١ ـ صُحَار، ٢ ـ دَبَا)

الفصل السابع: سوق شحر مَهْرة

الفصل الثامن: موسم سوق الرابية بحضرموت

الفصل التاسع: مواسم أسواق اليمن (١ ـ عدن، ٢ ـ صنعاء، ٣ ـ نجران)

الفصل العاشر: موسم سوق بدر

الفصل الأول

سوق حَجْر

حجْرٌ مدينةُ اليمامَة، وأمُّ قُراها، وهي شركة بين عدد من أحياء العرب، إلا أن الأصل لبني حنيفة بِن لُجَيْم، من بكر بن وائل. واليمامةُ من نَجْد، وكانت تُسمَّى جَوّاً، والعَروضَ، وكانت بها قصورٌ في القديم من الزمن، وحصونٌ مَبْنِيَّةٌ.. وكانت حَجْرٌ منزلَ أُمراءِ اليمامة وولاتِها، تقع إلى الغرب من قَطَر، وامْتَازَتْ بما كان فيها من المياه والنخيل[1]. وذكر ابنُ منظور أنَّ حَجْراً قَصَبَةُ اليمامةِ وسُوقُها[2].. وهي مشهورةٌ في العرب، اشتُهر منها زرقاءُ اليمامة التي ضُرِبَ المثَلُ بحِدَّةِ بصرها[3]، كما اشتُهِر منها عرَّافُ اليمامة، رباحُ بن مكحول، وكان طبيباً أو كاهِناً يقصدُه الناسُ من أماكنَ بعيدةٍ، وفيه قال عروةُ بنُ حزام العذريّ صاحبُ عَفْراء:

جعلتُ لعَرَّافِ اليمامة حُكمَهُ ... وعَرَّافِ نَجْدٍ إن هما شَفَياني

فما تَركا من رقيةٍ يَعْلمانِها ... ولا سَلْوةٍ إلا بها سقياني[4]

والسَّلْوةُ والسُّلْوانَةُ خَرَزةٌ شفَّافة، قيل: تُسْحَق ويُشْرب ماؤها، فيَسْلو شاربُ ذلك الماء عن حُبِّ من ابتُلَى بحبّه، أو هي شيءٌ يُسْقاهُ العاشقُ ليسْلوَ عن المرأة التي تيَّمتْهُ.

---

(١) معجم البلدان: ٢/ ٢٢١، و٥/ ٤٤٢.

(٢) لسان العرب: ٤/ ١٧٠ (حجر).

(٣) الأعلام: ٣/ ٤٤.

(٤) الأغاني: ٢٣/ ٣٠٦ ـ ٣٠٧، ولسان العرب: ١٤/ ٣٩٥ (سلا).

ومنها أيضاً الشاعرُ الأعشى ميمونُ بنُ قيس، وكان مولدُه ووفاتُه في قرية «مَنْفُوحة» باليمامة[1].. وفيها تَحصَّنَ مُسَيْلِمَةُ الحَنَفيُّ الكذَّابُ عندما ارْتَدَّ عن الإسلام، واتَّبعتْهُ سَجَاح بنتُ الحارث التميميَّةُ المُتَنبِّئَةُ[2].

ينعقد موسمُ سوقِ حَجْر في العاشر من المحرَّم (صفر الأول)، وفي اعتقادنا، يقعُ هذا اليومُ في العاشر من تشرين الأول (أكتوبر)، ويظلُّ الموسمُ قائماً حتى آخر الشهر، فينفضُّ الناسُ عنه إلى مثله من قابل[3]. ونعتقد أن مَن كان يقصدها من الناس لم يكن بحاجةٍ إلى خفارة، لأنها تقومُ في شهرٍ حرام، في حاضِرَةٍ أمرُها مُحْكَمٌ، يتولاَّهُ أشرافُ بني حنيفة، ويعشرون التجَّارَ فيها، وكان أميرَها لمّا ظهر الإسلامُ: هَوْذَةُ بنُ عليّ بن ثمامة، سيدُ بني حنيفة، وشاعِرُهم، وخطيبُهم، وكان يُقال له ذو التاج، وهو من أهلِ قُرَّان، من قُرى اليمامة، وكانوا أفصحَ بني حنيفة[4].

* * *

وقيل إن سوق حَجْر كانت في الجاهلية تُشبه سوق عكاظ، بما كان يجري فيها من بيع وشراء، وتفاخُر، ومُنافَرة، وتَنَاشُدِ أشعار، وخطابة. ثم كان لها في الإسلام شأنٌ أدبيٌّ آخَرُ، إذ كانت بلدَ الشاعرِ المشهور جرير بن عطيّة الخَطَفيّ التميميّ (٢٨ ـ ١١٠ هـ = ٦٤٠ ـ ٧٢٨ م)، وُلِد ومات فيها، وكان من أشعر أهل عصره، ولم يثبت أمامه غير الفرزدق والأخطل[5]. وكان مجلسُ جرير أحَدَ المَشَاهِدِ في سُوقِ حَجْرِ، وقد قيل إنه كان يوماً جالساً عند

(١) الأعلام: ٧/ ٣٤١.
(٢) الأعلام: ٧/ ٢٢٦، و٣/ ٧٨.
(٣) المحبَّر: ٢٦٨.
(٤) الأعلام: ٨/ ١٠٢.
(٥) المرجع نفسه: ٢/ ١١٩.

المُهاجِر بن عبد الله الكلابي والي اليمامة، فأتاهُ نَعيُ الفَرزدق، فقال جرير:

مـات الفـرزدقُ بعـدمـا جَـدَّعتُـه   ليت الفرزدق كان عاش قليلا[1]

فقال له المهاجِرُ: بئس ما قلتَ! أتهجو ابنَ عمِّك بعدما مات؟ لو رثَيْتَهُ لكان أحسنَ بك.. فقال: والله إني لأعلم أن بقائي بعده لقليلٌ، وإن كان نجمي مُوافِقاً لِنَجمِه، أفلا أَرْثيه؟ فقال له: لو كنتَ بكيتَهُ ما نَسِيتْك العرب! ثم قال جرير يرثيه:

فـلا وَلَـدتْ بعـد الفـرزدق حـامـلٌ   ولا ذاتُ بَعْـلٍ مـن نَفـاسٍ تَعَلَّـتِ
هو الوافِدُ المأمونُ والرَّاتِقُ الثَّأَىٰ   إذا النَّعْـلُ يـومـاً بـالعَشيـرةِ زَلَّـتِ[2]

ثم بكىٰ وندم وقال: أما والله إني لأعلمُ أن كل واحد منا كان مشغولاً بصاحبه، وقلَّما مات ضِدٌّ أو صديقٌ إلا تَبِعَهُ صاحبُه[3].. فكان كذلك، ومات جرير بعد سنةٍ، وكانت سوقُ حَجْر خاتمةَ المطاف للحرب الشعريَّة الطويلة بين جرير والفرزدق.

* * *

وجاء في إحدى روايات الأصفهاني أن عليَّ بن شفيع، من بني بكر بن وائل، كان واقفاً بسوق حَجْر، فرأى رجُلاً له هَيْأةٌ حسنة، وعليه أَرْدِيةٌ من الحرير، يركب نجيباً مَهْرِيّاً، عليه رَحْلٌ لم يَرَ أحسنَ منه قطّ، وهو يقول: مَن يُفاخرني، من يُنَافرني ببني عامر بن صعصعة فرساناً، وشعراء، وعَدَداً، وفعالاً؟ فقال له عليٌّ: أنا أُنافِرُك! قال: بمن؟ فقال: ببني ثعلبة بن

---

(١) جَدَعَه: قطع أنفه.
(٢) تَعلَّت: سَلِمتْ وعُوفيتْ. الثَّأَىٰ: الخَرْمُ والفَتْق.
(٣) الأغاني: ٨/٨٨، و٢١/ ٤١٠ ـ ٤١١، ولسان العرب: ١٤/ ١٠٧ (ثأى).

عُكابَة[1]. . . قال: أما بَلَغَك أن رسول الله نَهَىٰ عن المنافرة؟. . ثم ولَّىٰ هارباً! فسأل عليٌّ عنه، فقيل له: إنه عبد العزيز بن زُرارة الكلابيُّ[2]، وكان سيِّدَ قومه.

* * *

---

(١) بنو ثعلبة بن عُكابة بن صَعْب بن بكر بن وائل. وقد اشتُهر من بني ثعلبة: شيبان، وقيس الذي يُعَدُّ الشعراء من بنيه أشعر الناس، وكان منهم الأعشى.

(٢) الأغاني: ٩/ ١٠٥.

الفصل الثاني

موسمُ نَطاة خَيبر

نطَاةُ حِصْنٌ، وعينُ ماءٍ بقريةٍ من قرى خَيْبر، وخَيْبَرُ واحةٌ خصبةٌ، فيها عيون ماءٍ جاريةٌ، فوق حَرَّةٍ مُرْتَفعةٍ، تقع على طريق الشام بين المدينة وتَبُوك، يكثر فيها النخيلُ والمزارعُ المُتنوِّعةُ. أهلُها كانوا من اليهود الذين استوطنوا الحجازَ قديماً، واسْتَعْربوا، واشتغلوا بالزراعة، واستغلُّوا موقعَ قُراهم على الطريق التجارية بين اليمن والشام، فأسْهَمُوا في التجارةِ وقوافلها، فصارت منطقتُهم إحدى محطات القوافل التجارية، فأفادوا من الزراعة والتجارة ثرواتٍ عظيمةً، وغنىً واسعاً. وأقاموا هنالك لأنفُسِهم حُصُوناً، قيل إنها سبعةٌ، هي: شِقٌّ ووطيحُ وقَمُوص وسُلالم وناعِمٌ وكتيبةٌ ونطاةٌ[1]، وجعلوا فيها أموالهم وأرزاقهم ومِيرتَهم من حُبُوبٍ وثَمرٍ وسائر الطعام. وقد بلغ من وَفْرة غناهم، أن المسلمين، لمَّا فتحوا هذه الحصون سنةَ سبعٍ للهجرة، وجدوا فيها كنوزاً من الذهب والفضة، وأموالاً طائلةً.

ويبدو أن نطاةَ كان حصناً رئيساً في حُصونهم، فكانوا يُقيمون به موسِمَهم في عاشوراء، ويظلُّ قائماً حتى آخِر الشهر[2]. وعاشور عند اليهود، كعاشوراء عند العرب، يقع في العاشر من شهر تشري بالتقويم العبري، أي تشرين الأول (أكتوبر) بالتقوم السرياني، والمحرَّم أو صفر

(١) تاج العروس: ١١/ ١٣١ (خبر)، ـمعجم البلدان: ٢/ ٤٠٩ ـ ٤١٠، و٥/ ٢٩١.
(٢) المحبَّر: ٢٦٨.

الأول بالتقويم العربيّ. وكان أهلُ خَيْبَر يصومون عاشوراء، ويتَّخِذُون من هذا اليوم عيداً، يُلبِسُون فيه نساءَهم الحليَّ واللباسَ الحَسَنَ والزينةَ(١)، ويلعبون فيه ويمرحون، ويتبايعون. ولعلَّ أحياءَ العرب القريبة من واحة خيبر، كانت تقصدها في موسم عاشوراء، وتُشارك في المتاجَرة بها، أو تمتارُ منها ما هي محتاجةٌ إليه. وقد ظلَّ اليهودُ بخَيْبَر حتى أجْلاهُم عنها أميرُ المؤمنين عمرُ بنُ الخطَّاب(٢)، إلى الشام، وقَسَمَها بين أصحاب السِّهام فيها من المسلمين.

* * *

(١) اقتضاء الصراط المستقيم: ١٧٢.

(٢) معجم البلدان: ٢/ ٤١٠.

الفصل الثالث

موسمُ دُومَةَ الجَنْدَل

المطلب الأول ـ موقعُ السوق وخَطَرُهُ:

كانت السوقُ تقومُ في دُومَةِ الجَنْدَلِ[1]، وهي واحةٌ خضراءُ خصيبةٌ، فيها مياهٌ عَذْبةٌ، وحِصْنٌ مَنِيعٌ، وقُرىً كانت لبني كلب بن وبرة، من بُطون قضاعة[2]، تقع في الشمال من صحراء النفود، فيما يُسمَّى اليومَ منطقةَ الجوف، على منتصف الطريق القديمة للقوافل، بين الشام والعراق[3]، وهي في غائطٍ مُطْمئنٍّ من الأرض، يبلغ نحو خمسة عشر ميلاً[4]، يمتدُّ من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي، وكلُّها حدائقُ وبساتينُ ومزارعُ نخيل، وفي جوارها بعضُ القرى التابعة لها، وعَدَدٌ من الواحات الصغيرة المزروعة نخلاً. وهي في هذا الموقع تتَّصلُ بأرض الحيرة، وديارِ بني بكر بن وائل من الشرق[5]، وبديارِ

---

(١) دُومَة: الدَّوْمُ جنسُ شجر ضخم، من فصيلة النخليَّات، يُستخرج من ثماره نوعٌ من الدبس. ينبت في جزيرة العرب ومصر والسودان. الجَنْدَل: الصخر العظيم، واحدتُه جَنْدَلَةٌ.

(٢) قُضَاعَة: جدٌّ عربيٌّ قديم، والأكثر على أنه قحطاني، كان ملكاً على بلاد الشحر بين عُمَان واليمن. بَنُوهُ قبائلُ وبطونٌ كثيرةٌ، وهي أولُ من نَزَح من الجنوب إلى الشمال في نحو تاريخ الميلاد أو ربما قبله بقليل. وقد تفرقوا في البلاد، وكان لهم مُلْكُ ما بين الشام والحجاز إلى العراق. وكانت قبيلةُ كلب بن وَبَرة من أعظم قبائلهم.

(٣) الامتاع والمؤانسة: ١ / ٨٣ ـ ٨٤، وتاريخ العرب: ٢٠٥.

(٤) معجم البلدان: ٢/ ٤٨٧.

(٥) ديار بكر: وهو بكر بن وائل من بني ربيعة، قبيلة كبرى منازلُها كانت منتشرة بالبحرين والأحساء واليمامة، ثم امتدَّت إلى الشمال من بلاد الرافدين، حيث اشتُهرت البلاد هنالك باسم ديار بكر. والمقصود هنا ديارهم في شرق جزيرة العرب، أنظر الخريطة.

طيِّىء من الجنوب[1]، وبديار بني جُذَام ومدينتيْ تَيْماءَ وتَبُوك من الغرب[2]، وبديارِ بَهْراءَ[3]، ومنازلِ الغساسنة من الشمال[4].

ويقال إن دومة الجندل كانت من القُريَّات، وهي ثلاثٌ: دُومَة وسُكاكة وذو القارة. فأما سُكاكة وذو القارة فكان على كلٍّ منهما سورٌ يُتحصَّنُ به، ولكنَّ أهلهما قليلٌ. وأمَّا دُومَة فهي جُملةُ قرى، عليها سورٌ قديم مَبْنيٌّ بالجَنْدَلِ الضخم، ومن وراء السور حِصْنٌ آخَرُ منيعٌ إسمه: مارِدٌ[5]. وفي بعض الأخبار أن الزبَّاءَ ملكة الجزيرة الفُراتيةِ، أغارت على أهل دومة، فتحصَّنُوا منها بحِصْنهم هذا، فعجزت عنهم، وامْتَنَع عليها اختراقُ الحِصْن، فقالت قَوْلةً ذهبت مثلاً: تمرَّدَ مارِدٌ، وعَزَّ الأبْلق[6].. وإذا صحَّ هذا الخبرُ،

---

(١) ديارُ طيِّىء: جَبَلا أَجَأ وسَلْمى في شمال نجد.

(٢) جُذَام: منازلهم في الساحل الشرقي للبحر الأحمر، في شماله، بين تَبُوك والعقبة. تَبُوك: من مدن الحجاز في أطراف الشام، تقع إلى الشمال الغربي من تيماء. غزاها المسلمون سنة تسع للهجرة. تَيْماء: موضع قديم في الحجاز، على حافَةِ الصحراء بين وادي القُرى والشام، ملتقىٰ طرق القوافل القادمة من بلاد الشام ومصر والعراق واليمن، وبها عينُ ماء غزيرة، تُعدُّ أكثر عيون الماء شهرةً في شمال الجزيرة.

(٣) بهراء: قبيلة عربية قديمة من بني قضاعة، منازلها بين باديتيْ الشام والسماوة، إلى الشمال من دومة الجندل، والجنوب من تدمر.

(٤) المفصَّل: ٤/ ٢٤٩ و١/ ٦١٣.

(٥) معجم البلدان: ٢/ ٤٨٧، والمفصَّل: ٤/ ٢٣٦.

(٦) معجم الأمثال: ١/ ١٧٣، والمفصَّل: ٣/ ١٠٦، وتاريخ الأدب العربي: ١/ ١٢١. والأَبْلَقُ: حِصْنُ الشاعر السَّمَوْأَل بن غريض الأزديّ، وقد حقَّق بروكلمان أنه كان عربياً محضاً، وأُمُّه من بني غسان. ويُعرف هذا الحصن بالأبْلق الفَرْدِ، وكان منقوشاً عليه بالعربيَّة كما ذكر الجاحظ. وهو يُشْرف على تَيماءَ من رابية عالية. ويُقال إنّ الزبّاء غَزَتْه أيضاً، فامتنع عليها، فرجعت عنه، وقالت تلك القولة الشهيرة. وجاء في بعض المراجع أن الزبَّاءَ هذه هي ملكةُ تدمر زنوبيا، والصوابُ أنها ملكة الجزيرة الفراتية، صاحبة جذيمة الأبرش ملك العراق.

ولعلَّه صحيح، فالعهدُ بدُومَةَ يعودُ إلى القرن الثالث للميلاد، ومن الضروريّ أن نذكر هذه الملاحظة، لأنَّ الأخبارَ عن وجودِ هذه المدينة، وبنائها، وأَهْلِها، كثيرةٌ ومُتَناقِضَة.

وقد أشارت إلى وجود «دُومة الجندل» في وسط البادية، كقلعةٍ حصينةٍ للعرب، نصوصٌ تاريخيَّةٌ قديمة، منها نصٌّ آشوريٌّ يذكر أن ملك آشور سَنْحَرِيب بن سرجون قام بحملةٍ سنةَ (٦٨٨ ق.م) على العرب في البادية، فأخضع «أَدُّومُو قلعةَ بلاد العرب»، واستولى على أصنامها، وحملها إلى عاصمته[1].. ومنها نصٌّ بابليٌّ يُشير إلى أن الملك نبونيد حَمَل عليها سنة (٥٥٢ ق.م)، وقضى على حُكَّامها، ثم تابع مسيرهُ، فهاجم تَيْماءَ، واحْتلَّها، وجعل منها مَقَرّاً لحُكمه[2]. والطريقُ بين دُومة الجندل وبلاد الشام كانت معروفةً قديمةً، وهي التي سلكها نبونيد إلى الدُّومَة، والتي كان الحُجَّاجُ إلى مكة يسلكونها أيضاً[3]... وهنالك اعتقاد بأن الدُّومَةَ وما حولها هي المنطقة التي كان الآشوريُّون يُسمُّونها بلادَ «عريبي أو أَربي»[4]... وتدلُّ هذه الأخبار على أن الدُّومَةَ كانت قلعةً عربيةً، قائمةً في الألف الأول قبل الميلاد، وأن موقعها كان مركزاً خطيراً، لا بُدَّ للقوافل أن تختلف إليه، في تَنقُّلها بين جزيرة العرب والشام والعراق، تَتَروَّىٰ بالمياه العَذْبة، وتسعى إلى الراحة بعد التعب، وتَتَزوَّدُ بالطعام بعد السَّغَب.

---

(١) تاريخ العرب: ٦٧، والمفصَّل: ١/ ٥٩٠ ـ ٥٩٢.
(٢) تاريخ العرب: ٦٩.
(٣) المفصَّل: ١/ ٦١١.
(٤) قصة الكتابة العربية: ٩.

المطلب الثاني ـ دولة بني كلب في الدُّومة:

يتفق المؤرِّخون على أن بني كلب بن وبرة كانوا، بعد انسياح بطون قضاعة من الجنوب، ينزلون دومةَ الجندل وتَبُوكَ وأطرافَ الشام[١]. وأنهم أقاموا دولةً صغرى في دُومة الجندل وما حولها، بعدما غلبوا مَن كان بها[٢]. وقيل إن أولَ من رَأَسَها منهم دُجَانَةُ بنُ قُنَافَةَ الكلبيُّ، من حَفَدَةِ زهير بن جَناب[٣]، وهو من كبار زعماء قبيلة كلب. وقد ظلَّ المُلْكُ على دُومة وتبوك فيهم، حتى قُبيل ظهور الإسلام، حيث كانوا يتداولونه وقتئذٍ مع بني السَّكُونِ من كندة، ولمّا ظهر الإسلامُ كان الأُكَيْدِرُ بنُ عبد الملك السَّكُونيُّ الكنْديُّ، مَلِكاً على دُومة[٤]. . ولكن يبدو من بعض الأخبار أن المُلْكَ لم يكن مُستقيماً للأُكَيدرِ وحدَهُ على دومة، بل كان يُنَافِسُه فيه زعماءُ بني كلب، فربما وَلِيَهُ الأُكَيْدرُ، وربما وَلِيَهُ زعيمُ بني كلب[٥]، على اختلافٍ بين أهل الأخبار فيمن كان من زعماء كلب ملكاً على دومة حين ظهر الإسلام. . غير أن في هذا المذهب نظراً!

---

(١) الأعلام: ٥/ ٢٣٠، والمفصَّل: ٤/ ٢٤٠.

(٢) العرب قبل الإسلام: ٢٣٤.

(٣) زهير بن جناب بن هبل: من بني كلب بن وبرة، خطيب قُضَاعة، وسيِّدُها في زمنه، وشاعرها، وبطلُها، ووافِدُها إلى الملوك. كانوا يَدْعُونَه الكاهِنَ، لصوابِ أفكاره، وسَدَادِ آرائه. له وقائعُ كثيرة، أشهرُها مع بني تغلب، وبني بكر. قدَّر الزركليُّ وفاتَه نحو (٥٦٤ م) عن عمر طويل (الأعلام: ٣/ ٥١) وقدَّر ابنُ الكلبي أنه عاش نحو مئتي سنة، فجعله جواد علي من أهل القرن السادس للميلاد (المفصَّل: ٤/ ٤٢٨). وإذا رجعنا إلى عمود نسبه، واستقرَأنا أخبارَه وأخبارَ لِدَاتِه، تبين لنا أن مولده كان نحو (٤٣٠ م)، ولو فرضنا أنه عاش مئة وعشرين سنةً فقط، وهي أدنى العمَر، لكانت وفاته نحو (٥٥٠ م)، وكان بذلك من أهل القرنين الخامس والسادس.

(٤) المفصَّل: ٤/ ٤٣٠.

(٥) المحبَّر: ٢٦٣ ـ ٢٦٤، والأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦١، والمفصَّل: ٤/ ٢٣٧.

جدول أنساب بني كلب[1]
في دومة الجندل

بنو السكون	٢٠٠	عوف بن عذرة بن زيد اللات							
أشرس بن كندة	١								
السكون	٢	عامر الأجدار[3]	بكر			عبد ودّ			كنانة
شبيب	٣		عوف			كنانة[2]			عوف
	٣٠٠								
شكامة	١		عامر الأكبر[4]			عبد الله			عبد ودّ
أبامة	٢		بكر			هُبَل			عامر
خلادة	٣		عامر	عبيدة		جناب			النعمان
	٤٠٠								
معاوية	١		الخزرج	مالك		زهير		عديّ	عامر
الحارث	٢		امرؤ القيس	الحُمام		عديّ		ضمضم	امرؤ القيس
أعْيَا	٣		زيد	امرؤ القيس[5]		قنافة	الثليص	الحصن	زيد
	٥٠٠								
عبد الحيّ	١		فضالة		دُجَانة	دُلَجة		الحارث	عبد العزّى
عبد الملك	٢		فروة			أُنَيف		ثعلبة	شراحيل
الأُكَيدِر	٣		خليفة			بجدل[6]		عمرو	حارثة
	٦٠٠								
(توفي سنة) ٦٣٣			دِحْيَة		مَيْسون	حسّان	الأصبغ	الأحوص	زَيْد
								الفرافصة	أسامة

(١) **المراجع**: جمهرة أنساب العرب: ٤٢٧ ـ ٤٢٩، ٤٥٦ ـ ٤٥٩، ومختلف القبائل ومؤتلفها: ٣٠، ٤٣، ٥٢، ٥٩، ٧٦، ٩٣، ومعجم قبائل العرب: ٣٨٠، ٣٨٣، ٧١٢، ٩٩٦، وتاريخ اليعقوبي: ٢/٢٤١، والمختصر في أخبار البشر: ١/٧٦، والإصابة: ١/٤٦٣ ـ ٤٦٤ ت(٢٣٩٠)، والمحبَّر: ١٧٩، ٣١٦، والمفصَّل: ٤/٢٣٦، البداية والنهاية: ٨/٢٤٥.

(٢) **عامر الأجدار**: كانت إليه سدانةُ معبدِ دُومة الجندل والصنم ودّ، ثم صارت إلى بَنِيه، ولم نَقِفْ على سلسلة لِنَسَبِهم.

(٣) **كنانة بن بكر**: كان في بنيه البيتُ والشرفُ والعَدَدُ، وكانوا أكثر سكان دُومة الجندل.

(٤) **عامر الأكبر بن عوف**: كان أخاً لعامر بن صعصعة من أُمِّه، وأمُّهما عمرة بنت عامر بن الظرب العداوني، وكان تبيَّن لنا في كلامنا على عكاظ، أن عامر بن صعصعة مولودٌ في الجيل الأول من القرن الرابع، ونلاحظ هنا أن عامر بن عوف جاء في الجيل نَفْسِه والقرنِ نفسِه، وهو ما يؤكد صحةَ تقديرنا، انظر جدول نسب قيس بن عيلان.

(٥) **امرؤ القيس بن حُمَام**: وهو ابنُ حُمَام الشاعر القديم، الذي سبق امرأ القيس بن حجر الكندي (٤٩٧ ـ ٥٦٠ م) إلى بكاء الديار والأطلال، فقال فيه:

عُوجَا على الطَّلَلِ المُحِيلِ لعلَّنا نبكي الديارَ كما بكىٰ ابنُ حُمَامِ

وكان بنو كلب يتناقلون ما قاله امرؤ القيس في شاعرِهم ابنِ حُمَام، إشارةً إلى سَبْقِهم في قول الشعر. وهذا دليلٌ على أنه كان مُتقدِّماً بأكثر من جيلٍ على عصر امرىء القيس الكندي، وأنه عاش في القرن الخامس، وهو من جيل قُنَافَةَ الكلبيِّ، وزهيرُ بنُ جَنَابٍ من جيل جَدِّه.

(٦) **بَحْدَلُ بن أُنَيْف**: تزوَّج إليه معاويةُ بنُ أبي سفيان (٦٠٣ ـ ٦٨٠ م)، إبنتَه مَيْسُون، وولدت له إبنَه يزيد نحو سنة (٦٤٢ م). وكان أخوها حسانُ أميرَ بادية الشام، ومن القادة في جيش معاوية بصِفِّين، وتُوفي سنة (٦٨٥ م)، وبذلك يكون بحدل من أهل القرن السادس.

ومن شأن ذلك كله أن يُثبتَ صحةَ تقديرنا لزمن عوف بن عُذْرَة في القرن الثالث، وزَمَنِ دُجَانةَ بنِ قنافة في القرن السادس، وأن يؤكِّدَ على أن دولة بني كلب، في دومة الجندل، كانت قائمةً قبل دُجَانة، وخاصةً إذا تذكرنا تقديرنا لزمن معاوية بن كندة، أخي أشْرَس بن كندة، جَدِّ أسرة الأكيدر، وذلك في كلامنا على النَّسَأة.

وأنا أعتقد أن دولة بني كلب في دُومة كانت أَبْعدَ في القِدَم من دُجَانة بن قُنافة الكلبيّ، وأن عهد بني السَّكُون من بني كندة بدُومَة كان أقْدَمَ من أُكَيْدر بن عبد الملك..

١ ـ عهد بني كلب:

جاء في الأخبار أن قبائل قضاعة كانت أَسْبَقَ العرب إلى النزوح عن مواطنها، وأن نُزوحَها كان زمنَ الميلاد أو ربما قبله، ومن نزل منهم البلادَ العامرةَ، فأنشأ دُوَلاً، وأقام مُدُناً، عُرِفت أخبارُه، ومن نزل البادية، كبني كلب، ضاعت معظمُ أخباره[١]. وكانت كلبُ من كُبْريَاتِ قبائلِ قُضاعة، تفرَّع منها بطونٌ كِبَارٌ كبني عُذْرة بن زيد اللات، وانتشرت في أرضينَ واسعةٍ، شملت دومةَ الجندل وباديةَ السماوة والأطرافَ الشرقيَّةَ من بلاد الشام[٢]. وكانت النصرانيةُ تغلبُ على أبنائها[٣]، وهو دليلٌ على وجودهم بالشام عصرَ الميلاد، وأيامَ انتشارِ المسيحية في المنطقة.

وتذكر الأخبارُ أن الكلبيِّين استمرُّوا في ملك دومة الجندل مدَّةً طويلةً من الزمن، وأقاموا بها معبداً، جعلوا فيه «ودّاً»[٤]، وهو صَنَمٌ مشهور، كان لقوم نوح، ثم صار لبني كلب، دَفَعه عمرو بنُ لُحيّ الخزاعيُّ في موسم الحجِّ، إلى عوف بن عُذرة بن زيد اللات الكلبيّ، فحمله إلى وادي القرى،

(١) العرب قبل الإسلام: ٢٢٨ ـ ٢٢٩.
(٢) المفصَّل: ٤/ ٢٣٩ ـ ٢٤٠.
(٣) جمهرة أنساب العرب: ٤٩١، والمفصَّل: ٤/ ٢٣٧.
(٤) لسان العرب: ٣/ ٧١ (أدد)، و٣/ ٤٥٥، وتاج العروس: ٩/ ٢٨١ ـ ٢٨٢ (ودد)، وفيهما أيضاً أنه كان لقريش صنم مثله إسمه وُدٌّ، ومنهم من يهمز فيقول: أُدٌّ، أو أَدَدٌ، ومن ذلك سُمِّي: عبدُ ودّ، وأُدُّ بن طابخة، وأَدَد جدُّ معدّ بن عدنان.

وأَقَرَّهُ بدومة الجندل، وسمَّى أَحَدَ أبنائه عبدَ وُدٍّ، وجعلَ سدانةَ المعبد إلى ابنه عامرٍ[1] وولدِه من بعده، وعامرٌ هذا هو الذي لُقِّبَ بالأجْدار، لجُدَرَةٍ كانت في وجهه. وقد ظلَّ «ودٌّ» معبوداً، وقائماً في موضعه، حتى ظهر الإسلام، وقيل إن خالد بن الوليد، لمّا غزا دُومةَ الجندل، هَدمَهُ وكسَرهُ جُذَاذاً. وكان يُشَارِكُ بني كلب في التعبُّد له: قريشٌ، وطيِّىءٌ، وهُذَيْلٌ، والخَزْرَجُ، وبنو لخم، وبعضُ تميم[2]... وذلك يعني أنهم كانوا يَشْهَدون موسمَه، ونعتقدُ أنه موسمُ السوقِ نفسُه.

وههنا أمران، **أوَّلُهما**: أن الذي دَفَع الصنَم وداً إلى عوف بن عذرة، هو عمرو بنُ لُحيّ، وكنتُ قدَّرتُ أنه تولَّى سدانةَ الكعبة نحو سنة (١٧٥ م)، وقدَّر بعضُ المؤرخين ذلك نحو (٢١٠ م)، ولو فرضنا أن عَوْفاً متأخِّرٌ عن عمرو جِيلاً، فذلك يعني أنه كان من أهل القرن الثالث، وهو ما يرجعُ بوجود بني كلب في دومة الجندل إلى ما قبل القرن السادس، المُقَدَّرِ وجودُ دُجَانَةَ الكلبيّ فيه.. وهذا يبدو واضحاً من تتبُّع أنسابِ مَن وصلتْ إلينا أخبارُه من بني كلب.

والأمرُ الثاني: نقدٌ سجَّله ياقوتُ، على القول بأن أوَّلَ مَن دعا العربَ إلى عبادة الأوثان عمرو بنُ لُحيّ، وقد ذُكر فيما تقدَّم أنه سلَّم وداً إلى

(١) جاء في جمهرة أنساب العرب: ٤٩٢، والمحبَّر: ٣١٦، أن السدانة كانت في بني الفرافصة بن الأحوص الكلبي، وهو غلطٌ فيما نعتقد، لأن الفرافصة لم يكن من نسل عامر الأجدار.

(٢) معجم البلدان: ٥/ ٣٦٧ ـ ٣٦٨، والمفصَّل: ٦/ ٢٥٥ ـ ٢٥٦، والسيرة لابن هشام: ٧٨/١، وتاريخ اليعقوبي: ١/ ٢٠٥..

عوف بن عذرة بن زيد اللات، وزَيْدٌ هذا إنما سُمِّيَ باللات[1] التي كانوا يعبدونها، فهي أَقْدمُ عندهم من ودّ[2]. . . أي أنها كانت قائمةً قبل أيام عمرو بن لُحيّ.

وعلى ذلك، يبدو لنا أن أوَّلَ رئيس عُرِفَ لبني كلب في دومة الجندل، هو عوفُ بنُ عُذْرة، وأن الرئاسةَ انتقلت من بعده حتى صارت في بني كنانة بن بكر بن عوف، وكانوا مُعْظمَ سكانِ دُومَة[3]. . ثم كانت منهم في بني جَنَابِ بن هُبَل، وقد اشتُهر منهم زهيرُ بنُ جَناب زعيمُ بني كلب، وملكُهم، وبَطَلُهم، ومن نَسْله كان دُجَانَةُ بن قُنَافة مَلكُ دومةَ، الذي قيل إنه أوَّلُ مَن رأَسَها مِن بني كلب[4]. وأنا أعتقد أنه ربما كان آخِرَهم، فقد خَلَفَهم على رئاستها وقتئذٍ بنو السَّكُون من كندة[5]، وما ذكرتُه بعضُ المراجع عن وجود رئيسين لها معاً، عند ظهور الإسلام، أحَدُهما من بني السَّكُون، والآخَرُ من بني كلب، كلامٌ غيرُ دقيق، وقراءةٌ خاطئةٌ للأخبار، وسنبيِّنُ هذا في كلامنا على عهد بني السكون في دومة الجندل.

ولو كنا نملك أسماءَ من تعاقَبوا على السِّدَانَةِ في معبدِ دُومة، لَقَدِرْنا على تعيينٍ أكثرَ دقَّةً للزمن الذي كانت فيه هذه الإمارةُ، أو الدولةُ الصغيرةُ لبني كلب، وللزمن الذي أخذتْ سوقُها تقومُ فيه، مع قيام موسم التعبُّد

---

(١) **اللات**: إسمٌ يُرمَزُ به إلى الشمس، وكان ودٌّ يرمز إلى القمر، وربما كان إسماً من أسمائه الحسنى، يعني المودَّةَ والمحبَّة.

(٢) معجم البلدان: ٥/ ٣٦٨.

(٣) المرجع نفسه: ٢/ ٤٨٧.

(٤) المفصَّل: ٤/ ٤٣٠ (نقلاً عن ابن خلدون، ولم يذكره أحدٌ من المؤرخين أو أهل الأخبار).

(٥) العرب قبل الإسلام: ٢٣٤.

للصنم «ودٍّ». . وكلُّ ما عرفناهُ، من هذا الجانب، أن عوفَ بنَ عذرة رئيسَ بني كلب، جعل سدانةَ المعبد إلى ابنه عامر الأجْدار. وقد ذكرت بعضُ المصادر أنه أبو حيٍّ من بني كلب، دون تفصيل[1]. غير أن مالكَ بنَ حارثة الأجداريَّ، وهو قطعاً من حَفَدَةِ عامر الأجدار، أدرك ودّاً، ورآهُ قبل هدمه، فنقل عنه محمد بنُ السائب الكلبي وصفاً له، قال فيه: إنه كان تمثالاً كبيراً، لرجُلٍ كأعظم ما يكون الرجالُ، عليه حُلَّتَانِ، لُفَّ بواحدةٍ سَتَرتْ جسمَهُ كالإزَارِ، وأُلْقِيتِ الأُخرى فوق الأولى كالعَبَاءَةِ أو الجُبَّة، وقُلِّدَ سيفاً وُضِعَتْ حِمَالتُه في عُنُقِهِ، وجُعِلتْ على مَنْكِبِهِ قوسٌ، وبين يديه جُعْبَةٌ فيها نِبَالٌ، وحَرْبَةٌ عليها لِواءٌ[2]. . وكانوا في الموسم الذي ينعقدُ لعبادته والحجِّ إليه، يطوفون حوله، ويُردِّدُونَ: لبَّيْكَ اللهُمَّ لبَّيْك، لبَّيْكَ مَعْذرةً إليك[3].



٢ ـ عهد بني السَّكُون:

لم يذكر أحدٌ، من أهل الأخبار أو المؤرِّخين، كيف دالَتْ دولةُ بني كلب في دومة الجندل إلى بني السَّكُون، فصاروا مُلوكها. ولكنني استخلصتُ من بعض الروايات التاريخية، أن دومةَ الجندل أَتى عليها حينٌ من الدَّهْرِ، نَزَل

---

(١) تاج العروس: ١٠/٣٨٧ (جدر)، وفيه أنه عامرُ بن عوف بن كنانة، فجعل السدانة بذلك في بني كنانة بن عوف بن عذرة، وهو خَطأٌ، وقفز بها من الجَدِّ إلى ابن حفيده، وهو غلطٌ آخَر. وفي معجم قبائل العرب (٧٠٤) أنه عامرٌ الأكبر ابنُ عوف بن بكر بن عوف، وهذا تخليطٌ لا يقفُ لقول المؤرخين بأن عوف بن عذرة جعل السدانة إلى ابنه عامر وولده من بعده.

(٢) معجم البلدان: ٥/٣٦٨.

(٣) المحبَّر: ٣١٢.

بأهلها فيه ما نَزَل بمعظم العرب من النزاع والفُرْقَة، ووافَق ذلك زمناً ارْتَقى فيه بنو كندة، وعَلا شأنُهم، وظَفِرَ ملكُهم الحارثُ بنُ عمرو[1]؛ بإمارة الحيرة (٥٢٥ ـ ٥٣١ م)، فأصبح ملكاً على كندة والحيرة معاً، فعَظُمَ شأنُه في نفوس العرب، ووَفَدَتْ عليه قبائلُهم تَسْأله أن يُوَلِّيَ عليها من أبنائه مُلوكاً، يأخذون فيها من الظالم للمظلوم، ويُقِرُّون الأمنَ والعدلَ. فاتَّسَعتْ دولةُ كندة، وازداد سلطانُها. وقد وزَّع الحارثُ فيهم أربعةً من أبنائه، كلُّ واحدٍ منهم تولَّى حُكم عددٍ من القبائل في نجد والحجاز وتهامة والعروض[2]، ويبدو أنه مَلَّك بني السَّكُون، وهم أبناءُ عُمومتِه، على أخوالهم من بني كلب في دُومة الجندل. وبنو السَّكون في الأصل من الأحْلاف، لحقوا بأهل الحيرة وسكنوا معهم، وكانت الأحلافُ بالحيرة بطوناً من جميع قبائل العرب، من كندة ولَخْم وجُذَام وعبد القيس وغيرهم[3].

ولذلك فأنا أَمِيلُ إلى القول بأن أُكَيْدِرَ بنَ عبد الملك، المتوفَّىٰ سنة (١٢ هـ = ٦٣٤ م) لم يكن أوَّلَ مَن تملَّك على دومة الجندل من بني السَّكُون، بل لعلَّ هنالك مَن سبقه إلى ذلك منهم، منذ تعاظَم سلطانُ المَلِكِ الكِنْديّ الحارث بن عمرو بتملُّكِهِ على الحيرة، ولمَّا هَلَك سنة (٥٣٥ م) ضَعُفَتْ دولةُ كِنْدة، ووَهَنَ أمرُ أبنائه لِطُغْيانهم، وتَعسُّفِهم في جباية الضرائب، فقُتِلوا واحداً بعد الآخر، وظلَّت دومةُ الجندل في ملك بني السَّكون، دولةً صغيرةً، بَقِيَّةً من دولة كندة الكبرى، إلى أن ظهر الإسلام[4].

---

(١) الحارثُ بنُ عمرو الكندي: (٤٥٥ ـ ٥٣٥ م)، خَلَفَ أباه عمرو بن حجر آكل المرار، على مُلْك بني كندة، فكان أقوى ملوكهم، وحكم نحواً من أربعين عاماً منذ سنة (٤٩٥ م)، ولم يَدُمْ له مُلْكُ الحيرة طويلاً، فقد استرجعه بنو لخم، وعاد ملكاً على دولة كندة حتى قُتل.

(٢) العربُ قبل الإسلام: ٢٨٨، وتاريخ اليعقوبي: ١/٢١٦ ـ ٢١٧، والمحبَّر: ٣٦٩ ـ ٣٧٠.

(٣) جمهرة أنساب العرب: ٤٥٣، ومختلف القبائل ومؤتلفها: ٨٧.

(٤) العربُ قبل الإسلام: ٢٣٤، ٢٩١، والمفصَّل: ٣/٣٧٨.

على أن هنالك روايةً تاريخيّةً أُخرى تقول: إن أُكَيْدرَ بنَ عبد الملك السَّكُونيَّ الكنديَّ[1]، وإخوته، وهم سادةُ قومهم، كانوا يسكنون الحيرة، وقَدِمُوا الباديةَ يوماً لزيارة أخوالهم من بني كلب، فخرجوا معهم للصَّيْد والقَنْصِ، فتَراءَتْ لهم على البُعْدِ أطلالُ مدينةٍ مُتَهدِّمة، لم يبقَ إلا حِيطانُها، وهي مَبْنيَّةٌ بالجندل، فأعادوا بِنَاءَها، وغَرسُوا فيها أشجارَ الزيتون والنخيل، وسَمَّوها دومةَ الجندل[2]. وقيل إنهم جعلوا حولها سُوراً، وفي داخل السُّور حِصْناً مَنيعاً إسْمهُ مارِدٌ، هو حِصْنُ أُكَيْدر الملك[3]. .

ومن الواضح أن هذه الرواية ضعيفةٌ مُصْطَنعة، فهي من جهة أُولى لا تُبرِّرُ تمليك بني السَّكون على دومة، ومن جهة أخرى لا تقف للنصوص التاريخيَّة الثابتة، التي تؤكدُ قيامَ دومة، وحِصْنِها ماردٍ، منذ زمن بعيد، يسبقُ زمنَ أكيْدرِ بنِ عبد الملك وإخوته. ويبدو أن ثَمَّةَ لَبْساً خلط بين دُومة الجندل، وحِصْنٍ آخَرَ في نواحي الحيرة، قربَ عين التمر، يُقال له أيضاً دُومَة، وربما كان لبني السَّكُون[4]. وقد أصاب اللَّبْسُ كذلك أخبارَ فَتْح دُومةِ الجندل وغَزْوِها في الإسلام، ومَنْشَأُ هذا اللَّبْسِ فيما أعتقد وَهْمٌ، ظنَّ معه بعضُ المؤرِّخين بأنه كان على دومة، عند ظهور الإسلام، مَلِكانِ يتنازعَانِ الحكمَ، أحدُهما أكيدرُ بن عبد الملك السَّكُونيُّ، والآخَرُ الأَصْبَغُ بنُ عمرو

---

(١) ذكر الأفغاني أن أكيدر صاحبَ دومة الجندل كان عاملاً عليها لهرقل ملك الروم (أسواق العرب: ٢٣٤)، ولم يذكر هذا الخبر أحدٌ من المؤرخين، فيما أعلم، إلا الأفغاني، من غير أن يعزوه إلى مرجع معيَّن!

(٢) معجم البلدان: ٢/ ٤٨٨.

(٣) المرجع نفسه: ٢/ ٤٨٧.

(٤) المرجع نفسه: ٢/ ٤٨٦، و٢/ ٤٨٧، ٤٨٨.

الكلبيُّ[1]، وقيل أيضاً بل هو الجوديُّ بنُ ربيعةَ الغسَّانيُّ[2]، أو قُنَافَةُ الكلبيُّ، واستخلص جواد عليّ من ذلك أن أكيْدِر لم يكن قادراً على تثبيت مُلكه في دومة الجندل بشكل دائم[3]. . .

ولا شك في أن مَرَدَّ ذلك الوهمِ اضطرابٌ في الروايات التي تعرَّضَتْ لهذا الأمر، وقراءةٌ خاطئة لبعضها. . ولكن يُفْهم من التحقيق فيها أن فتح دومة الجندل مرَّ بأربع مراحل:

الأولى: تَوَجَّه فيها رسولُ الله ﷺ، سنة خمس، إلى الدومة وقد بَلَغَه عن جمع تَجمَّعُوا بها، ودَنَوْا من أطراف المدينة، ثم رجع قبل أن يصل إليها.

الثانية: بعث فيها رسولُ الله، سنة ستّ، عبدَ الرحمن بن عوف على سَرِيَّةٍ إلى بني كلب في دومة، وأمَرَهُ أن يدعوهم إلى الإسلام، وكانوا على النصرانيَّة، فقَدِمَ الدومةَ، ودعاهم إلى الإسلام ثلاثاً، فأَبَوْا، ثم أَسْلم منهم الأَصْبَغُ بن عمرو الكلبيُّ، وكان رَأْسَهم وسيِّدَهُم، فتزوَّج عبدُ الرحمن إبنتَه تُماضِر بنت الأصبغ، وهي أمُّ أبي سَلَمة بن عبد الرحمن، وأسلم مع الأَصْبغ ناسٌ من قومه.

---

(١) المفصَّل: ٤/ ٢٣٧.

(٢) الجوديُّ بن ربيعة: من بني غَسَّانَ، أميرُ دمشق قبل الإسلام. ذُكر أن عبد الرحمن بن أبي بكر كان يختلف إلى دمشق أيام الجاهلية في تجارة قريش، فرأى ليلى إبنةَ الجودي، وكانت موصوفةً بالجمال، فهام بها، ولمّا فُتحت دمشق، وقعت أسيرةً، فأُهْدِيتْ إليه، فتزوَّجها. وفي رواية أخرى أن خالد بن الوليد لمّا فتح دومَة الجندل وقعت إبنةُ الجوديّ أسيرةً فاشتراها لنفسه. . فإما أن يكون للجُوديّ الغسَّانيّ أكثر من إبنة جميلة، وإما أن يكون أحدُ الخبرين غير صحيح.

(٣) المفصَّل: ٤/ ٢٣٨.

الثالثة: غزا خالدُ بنُ الوليد دومة الجندل، سنة تسع، فوجد أُكَيْدِرَ الملِكَ خارجَ الحصن، يصطادُ مع أخيه حسَّان البقَرَ الوَحْشيَّ، فشدَّ عليهما خالد، فاسْتَأسَرَ أُكَيْدِرُ، وامتنع حسَّانُ فقُتِل. ثم قَدِمَ خالد بأكيدر على النبيِّ ﷺ في المدينة، فحقَنَ دمَهُ، وصالحه على الجزية، وخَلَّى سبيله، وكتب له ولأهل دومة كتاباً فيه أَمَانُهم، وما صالحهم عليه. فرجع أكيدرُ بعد ذلك إلى قريته.

الرابعة: لمّا بدأت فتوحُ العراق، وحركةُ تأمين المسلمين أن يُؤْتَوا من خلفهم، كان عياضُ بنُ غَنْم الفِهريُّ على رأس جيشٍ من المسلمين مُحاصِراً ومُحاصَراً في منطقة دومة الجندل، فتوجَّه إليه خالدُ بنُ الوليد من الحيرة مُمِدّاً له، فعلم أهلُ دومة بمسيره، فاستنفروا أحلافَهم من بني كلب وبَهْراء وغسَّان وتَنُوخ والضجاعم من عرب الشام، وحينما دنا خالدٌ منهم، كانوا مَتَأهِّبينَ للقتال، يقودهم رئيسَانِ: أكيدرُ بنُ عبد الملك، والجوديُّ بن ربيعة الغسَّانيُّ. ثم إن أكيدر لم يَرَ قتالَ خالدٍ صواباً فانسحب من الجموع، وقاتل الباقون فانهزموا[1]...

وهكذا يتبيَّن لنا بوضوح، أن الأصْبَغَ الكلبيَّ لم يكن ملكاً على دومة الجندل، وإذا كانت بعضُ مصادر الأخبار لقَّبتْهُ بالملك، فذلك يعني بُلوغَهُ السيادةَ والشرفَ في قومه، وليس بُلوغَهُ السلطانَ على كل مَنْ كان نازلاً

---

(١) الطبقات الكبرى: ١/ ٢٨٨، ٢/ ٨٩، ١٦٦، ٣/ ١٢٩، ٤٣٦. والسيرة لابن هشام: ٢/ ٢١٣، ٥٢٦، ٦٣٢. والمحبَّر: ١١٤، ١٢٠ ـ ١٢١. تاريخ الطبري: ٢/ ٥٦٤، ٦٤٢، ٣/ ٣٧٣، ٣٧٨ ـ ٣٧٩. والبداية والنهاية: ٤/ ٩٣، ١٣١، ٦/ ٣٥٤ ـ ٣٥٥. وتاريخ اليعقوبي: ٢/ ٧٥. والكامل: ٢/ ١٧٧، ٢٠٩، ٢٨١، ٣٩٥ ـ ٣٩٦. ومعجم البلدان: ٢/ ٤٨٧، ٤٨٨. والأعلام: ٢/ ٦.

بالدومة. . وقد دُعيَ إلى الإسلام، فاستجابَ ومعه نَفَرٌ من قومه فقط، وظلَّ الآخَرون على النصرانية، حتى أخوهُ الأحْوَصُ، وبنو الفَرافِصَة بن الأحْوص، ظلُّوا نصارى، ومنهم نائلةُ بنتُ الفَرافصة[١]، أسلمت يوم تزوَّجها أميرُ المؤمنين عثمانُ بن عفَّان، وكان أبوها يومئذٍ نصرانياً[٢].

وأمَّا الجوديُّ بنُ ربيعة، فقد ظهر لنا جَليّاً، أنه لم يكن من أهل دومة، ولا من رؤسائها، وإنما هو أميرٌ غسَّانيٌّ قَدِمَ إليها، مَدَداً لأهلها، ببعض بني غسَّان، كسائر أقاربِ بني كلب وحُلفائهم، للوقوفِ معهم في وَجْه المسلمين، فاختِير ليكون قائداً إلى جانب أكيْدر الملك في قيادة تلك الجموع. فالقولُ بأن خالد بن الوليد لمّا توجَّه إلى الدومة، كان على الناس هنالك رئيسانِ، الأكيْدِرُ والجوديُّ، إنما يعني قائدَيْن على رأس الجموع التي استُنْفِرت للدفاع عن الدومة وما حَوَاليها، ولا يعني قطعاً وجودَ رئيسيْن يحكُمانِ الدومةَ في الوقت عَيْنه.

وهنالك ملاحظةٌ أعتقد أن لها دلالةً في هذا الشأن، فكتابُ الصُّلْح الذي أمْضَاهُ رسولُ الله لأُكيْدر، كان لأهل دُومة كلِّهم أيضاً، وهذا يعني أن أكيْدرَ كان الملكَ الوحيدَ على دُومة الجندل في أيامه، يُمثِّلُ أهلَها كافةً، فيُمضُون له ما التزم به عنهم. ولعلَّ قَباءَ الدِّيباجِ المنسُوجِ بالذهب، وكان على الأُكيْدرِ لمّا قَدِمَ المدينةَ، علامةٌ من علامات الملوك، فضلاً عن نَعْتِه في

---

(١) نائلة بنت الفرافصة بن الأحوص: خطيبةٌ، شاعرةٌ، شجاعة من بني كلب. حُملتْ إلى عثمان من بادية السماوة حيث منازلُ أهلها، فتزوَّجها، وأقامت معه بالمدينة. ولمَّا قُتِل، ألقتْ بنفسها عليه تحميه، فَحَزَّ السيفُ بعضَ أصابعها، وقطع بعضاً.

(٢) جمهرة أنساب العرب: ٤٥٦ ـ ٤٥٧، والأعلام: ٧/ ٣٤٣.

مختلف المراجع بأنه صاحبُ دومة الجندل[1].

وأمَّا قُنَافَةُ الكلبيُّ، الذي جاء ذِكرهُ كمنافِسٍ للأُكيدرِ في زمنه على ولاية الدومة، فإن له حديثاً آخَرَ، نذكره في كلامنا على موسم سوق الدومة. ونكتفي هنا بالتأكيد على أن الدولةَ الصغيرة، التي أقامها بنو كندة في دومة الجندل، ظلَّت قائمةً بولاية بني السَّكُون بن أشرسَ عليها حتى سنة (١٢ هـ = ٦٣٤ م)، حيث انتهى أمرُها وأمرُهم فيها، بقيام دولة الإسلام الأولى.

المطلب الثالث ـ موسمُ سوقِ دُومة ونُزَلاؤها:

لَعَلِّيَ فيما قدَّمتُ، استطعتُ أن أُبرِزَ خَطَرَ مملكة «دومة الجندل»، وذلك من خلال الكشف عن خُطُورةِ موقعها، والدَّوْر الكبير الذي كان لها في تاريخ تلك المنطقة. وإذا أضفنا إلى خَطَرِ الموقع والدَّوْر التاريخيّ، ما كان لمعْبَدِها الكبير، وصَنَمِها «ودّ» من التعظيم عند كثير من قبائل العرب في الجاهلية، وما كان يتوافَرُ فيها من المَرَافِق والمَلاعبِ والمنافع، أدركنا أن السوق التي كانت تقوم بها في الموسم المُعَيَّنِ، كانت من الأسواق الخطيرة عند العرب، وأنها عند قيام الموسم تُصبح مَحَجّاً، فتَعْمُر بالناس، يأتونها على وُعُورة طريقهم إليها، وأنها سوقٌ قديمةٌ للعرب، يعود العهدُ بها إلى زمنٍ قديم غير معروف، يُقدَّرُ بمئات السنين.

وهنالك إطباقٌ، بين أهل الأخبار، على أن قيامَ موسمِ السوق كان في أوَّل يومٍ من شهر ربيع الأوَّل إلى النِّصْفِ منه، ثم تَرِقُّ، ولا تزال قائمةً على رِقَّتِها إلى آخر الشهر، ثم يفترقون عنها إلى مِثْلها من قابِلٍ[2]. . فيعودون إلى

---

(١) تاج العروس: ١٤/ ٢٤ (كدر)...

(٢) المحبر: ٢٦٣، والأزمنة والأمكنة: ٢/١٦١، والامتاع والمؤانسة: ١/ ٨٤، وصبح الأعشى: ١/٤٦٨، ونهاية الأرب: ٤٦٤، وتاريخ اليعقوبي: ١/ ٢٧٠.

الإجتماع بها كرَّةً أخرى، وهكذا يَصْنَعُون على توالي السنين. وهذا يعني أن موسمها كان ينعقدُ أواخِرَ الخريف وأوائل الشتاء. والغريبُ أن المرزوقيَّ تفرَّد بالنصِّ، عن أبي المنذر الكلبي، على أن دُومةَ الجندل كانت أوَّلَ أسواقِ العرب قياماً، مع أن رأس السنة في الجاهلية، كما في الإسلام، هو شهر المحرَّم (صفر الأول)، وليس شهر ربيع الأول!

وقد ذكر المرزوقي أن العرب كانت تُوافي سوق دُومةِ الجندل في موسمِها، قادمةً إليها من كلِّ أَوْبٍ، وأن تجَّارَ الشام والعراق كانوا أيضاً يَشْهَدُونَها[1]. . ويبدو أن السوق كانت تحفِلُ في موسمها بجيرانها من قبائل كلب، وجَدِيلَة طيِّىء[2]، وبوُفُودٍ من قبائل قريش وتميم وهُذَيْل والخزرج، فهؤلاء جميعاً كانوا يُشَاركون بني عوف بن عُذْرة في عبادة «ودّ»، وكان يَشْهَدُها كذلك بعضُ قبائل الحجازِ، والمناطق الشماليَّة والغربيَّة من نَجْد[3]، وتأتيها جماعاتٌ من عرب الشام، لما كان بين بني كلب في الدومة، وقبائِلِ الشام من أواصر القُربىٰ، وتَقْصِدُها بنو لَخْم وسائرُ عربِ العراق، لما كان بين الحيرة وملوك الدومة من علائقَ وثيقةٍ. . ولم تكن السوقُ تخلو عادةً من التجَّار الأجانب، القادمين إليها من بلاد الفرس والروم والحبشة وغيرها، للمتاجرة بها، أو للراحة والامتيار والتزوُّدِ بأزْوادِ الطريق، ذلك أن موضعَ دومة الجندل كان، كما لاحظنا، مَفْرِقاً خطيراً من مَفَارِق الطرُق في بلاد العرب، يقصدهُ أصحابُ القوافل في كل أيام السنة، وليس في موسم السوق فقط.

---

(١) الأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦١.

(٢) المحبَّر: ٢٦٣.

(٣) المفصَّل: ٧/ ٣٧٢، ٣٧٣.

المطلب الرابع ـ الأمنُ والحكومة:

ما من شَكٍّ في أن الأمنَ كان مُتَوافِراً في دُومة الجندلِ وسُوقِها، يَضْمَنُه لها أنها حِصْنٌ منيعٌ، وراءَ سُورٍ ضخمٍ، في أرضِ مملكةٍ، أمْرُها مُحْكَمٌ، أحْكَمَهُ رؤساؤها أو ملوكُها، وقد رأينا أنها امتنعت على الغُزاةِ قبل الإسلام، فرجعوا عنها. . وكان القادمونَ إليها آمِنينَ كذلك على أنْفُسِهم وأموالهم، في الطُرق التي يسلكونها عادةً لِبُلوغِها، لأن الأحلافَ المعقودةَ بين القبائل الضارِبَة في البادية كفلت لهم ذلك، ولأن بطونَ بني كلب كانت منتشرةً في أرضين واسعة من بادية السَّمَاوَة وأطرافِ الشام[1]، فكانت كلبٌ وجَدِيلةُ طَيِّىء جيرانَها، أي حُمَاتها مِن حَوْلها، يدفعون عنها، ويُجِيرون من مَرَّ بهم قاصداً إليها. . ويُفهم مما ذكره أهلُ الأخبار، أن قبائلَ مُضَرِ بنِ نزارٍ عامّةً، لم تكن تعرضُ بأذىً للتجّار الذين تنتهي أنسابُهم إلى مُضَر، إذا مَرُّوا في بلادها، أو سَلَكُوا طرُقَها، ولم يكن يُؤذيهم كذلك حليفٌ لها من القبائل الأخرى غيرِ المُضَرِيَّة، وكان ذلك معروفاً، ومُتَّفَقاً عليه بينهم. فكان تُجَّارُ قريشٍ، مَثَلاً، إذا خرجوا من مكة يريدون دُومَةَ الجَنْدل، لم يتخفَّروا بأحدٍ من العرب، ومِثْلُهم أيضاً بنو هُذَيْل بن مدركة، أو بنو تميم بن مُرّ، وغيرُهم من أبناء مُضَر بن نزار. ذلك أنهم إذا أخذوا طريقَهم على الحَزْنِ[2]، فثمَّةَ بلادُ يربوع بن حنظلة، من تميم[3]، وهم من مُضَر، ولا يَهيجُ مُضَريٌّ

---

(١) معجم قبائل العرب: ٩٩١، والأعلام: ٥/ ٢٣٠، والمفصَّل: ٤/ ٢٤٠.

(٢) الحَزْنُ: ما ارتفع من الأرض، والحُزُونُ المشهورةُ في بلاد العرب ثلاثة، حَزْنُ بني يربوع بن حنظلة، وهو أطيبُ البادية مَرْعى، وحَزْنُ غاضِرَة، وهم من بني أسد بن خزيمة، وحَزْنُ جَعْدَة من بني عامر بن صعصعة.

(٣) معجم البلدان: ٢/ ٢٥٤.

مُضَرِيّاً، فإذا مَرُّوا بديار بني كلب، من قضاعة، لم يَعْرِضْ لهم أحدٌ بأذىً، لأن بني كلب حُلَفاءُ تميم، ولا يؤذي حليفٌ لتميم مُضَرِيّاً، فإذا وردوا ديارَ بني أسد بن خزيمة، كانوا آمنين، لأن هؤلاء، مُضَريُّون، فإذا وصلوا إلى ديار طيِّىء، قَدَّمتْ إليهم طيِّىءُ كلَّ معونةٍ، ودَلَّتْهم على كل ما يحتاجون إليه، لأن طيِّئاً حلفاءُ بني أسد بن خزيمة، وأَسَدُ عمُّ قريش. وأمَّا إذا أخذوا على طريق العراق، فكانوا يتخفَّرون ببني عمرو بنِ مَرْثَد[1]، من ربيعة بن نزار، فتُجِيزُ لهم ذلك قبائلُ ربيعةَ كلُّها. وكان تجَّارُ اليمن يتخفَّرون بقريش، فيأمَنُون ما داموا في بلاد مُضَر[2].

وفوق ذلك، حدَّثتْنا الأخبارُ، التي أُثِرَتْ عن المرحلة الأخيرة من عصر الجاهلية، بأن ملك الدومة أُكَيْدرَ بنَ عبد الملك كانت له شهرةٌ مُسْتَفيضةٌ في قبائل العرب، وكانت له عُقودٌ ومعاهداتٌ معها، تأميناً للطُرق المُوصِلَة إلى الدومة، وتسهيلاً على مَن يرغبُ من أبنائها وتُجَّارها في شُهودِ السوق أيامَ انعقاد موسمها، للامْتِيَارِ، أو لبيع ما يحملونه معهم من التجارات[3]. وقد عَدَّهُ الجاحظُ من القدماء في الحِكْمة والخطابة والرِّيَاسَةِ[4]. مثلما عُدَّ أخوه بِشرُ بنُ عبد الملك من أشراف المعلِّمين وقُدَمائهم[5]، وكان تعلَّم الكتابة بالحيرة، ثم طَفِق يُعَلِّمُها، وقَدِمَ مكةَ فتزوَّج الصَّهْباءَ بنتَ حرب، أختَ أبي

---

(١) عمرو بن مَرْثَد: من بني قيس بن ثعلبة، يُضرب المثلُ به في كَرم مَن أنجب من السادة الفُرسان، وقيسُ بن ثعلبة، من بني بكر بن وائل، جَدٌّ عربيٌّ قديم، ينتهي نسبه إلى ربيعة بن نزار، من صُلْبه بطونٌ كثيرةٌ، أشهرُها: سَعْدٌ وتَيْم وعباد وضُبَيْعة.

(٢) المحبَّر: ٢٦٤ ـ ٢٦٥، والأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٢.

(٣) المفصَّل: ٤/ ٢٣٣ ـ ٢٣٤.

(٤) البيان والتبيين: ١/ ٢٨٢.

(٥) المحبَّر: ٤٧٥.

سفيان[1].

وبذلك كانت الحكومةُ صاحبةُ الأمر والسلطان، وأحكامُ الجِوار، ومعاهداتُ الحلف بين القبائل، ضامِنَةً كلُّها للأمن والسلام، في سوق الدومة، وفي الطرُق المُوصِلةِ إليها على السواء. ولولا أن الأمن كان غالباً عليها، لما شَهِدَها أحدٌ من غير أهلها، على ما كان فيها من إغراءٍ بما يمكن أن يَجْنيه زائرُها من الفوائد والأرباح، أو يَنْعَمَ به من اللهو والملذَّات.

وقد ذكر أهلُ الأخبار أن رياسَة السُّوق، كانت في الحقبة الأخيرة بين أُكَيْدِر السَّكُونيّ وقُنَافَةَ الكلبيّ، يتنافَسَانِ عليها بشكل طريفٍ جدّاً، فكانا يَتَحاجَيَانِ قُبَيْل انعقاد الموسم، وأَيُّهما غَلب صاحِبَه في فَهْم ما يُلقَىٰ عليه من الأحاجي والألغاز[2]، كانت إليه الولايةُ على السوق، يصنعُ فيها ما يشاء، ولم يَبِعْ بها أحدٌ من التجّار شيئاً إلا بإذْنِه، وحتى يبيعَ كلَّ ما أراد بَيْعَهُ في ذلك الموسم، مع ما كان إليه من مَكْسِها أو عُشُورها[3].

ولا بُدَّ لنا، في هذا المقطع من الكلام، أن نُذكِّر بما ذهب إليه جواد علي من أنّ قُنَافةَ الكلبيَّ كان، وقتَ ظهورِ الإسلام، يُنازِعُ أُكيْدِرَ السَّكونيَّ المُلْكَ على دومة الجندل، فذلك غلطٌ منه أيضاً، لأن القوم، كما تبيَّن لنا

---

(١) جمهرة أنساب العرب: ٤٢٧.

(٢) سبق أن ذكرنا أن التحاجي كان غرضاً من الأغراض في الأسواق الموسميَّة، فكان الرجلُ يقول للآخَر مثلاً: أُحَاجِيكَ على كذا، ما معنى قول الشاعر:

ولمَّــا رأيــتُ النَّسْــرَ عَــزَّ ابْــنَ دَأْيَــةٍ ... وعَشَّشَ في وَكْرَيْه، جاشت له نفسي؟

ذلك أن الشاعر قال كلاماً يخالف معناهُ ألفاظَه، فقد أراد بالنَّسْرِ الشيبَ، شبَّههُ به لبياضه، وشبَّه الشبابَ بابن دَأْية، وهو الغرابُ الأسود، لأن شعر الشباب أسود.

(٣) المحبَّر: ٢٦٣ ـ ٢٦٤، والأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦١ ـ ١٦٢، وتاريخ اليعقوبي: ١/ ٢٧٠.

مما قدَّمناهُ، كانوا يتنافَسُونَ على رياسة السوق التي تقومُ في الدومة كلَّ عام، للاضطلاع بشؤونها، وجباية ضرائبها، والسَّبْقِ إلى المتاجرة فيها، وليس على رياسة الدومة نفسِها، أو على مُلْكها. . . ولا غَزْوَ، فبنو كلب كانوا أكثر سُكان الدومة، ومن حقِّ شُيوخِهم، أو رؤسائهم أن ينتفعوا بما يُحقِّقُه موسمُ السوق من الفوائد والأرباح. . . فلم يكن هنالك إذن نزاعٌ، ولا مَن يتنازعون، ولا «تطاحُنٌ» كما زعم الأفغانيُّ[1]، وإنما كان بينهم تنافُسٌ وُدِّيٌّ لطيفٌ، يقوم على اختبار طريفٍ للحِذْق في فهم الألغاز والأحاجي! وهنالك نصٌّ للتوحيديّ في كلامه على مواسم العرب يؤيِّد ما ذهبتُ إليه، يقول فيه عن دومة الجندل: «وكان ينزلُها الناسُ أوَّل يوم من شهر ربيع الأول، فيقيمون أسواقهم بالبيع والشراء، والأخذ والعطاء، وكان يَعْشُرهم أكيدرُ دُومَة، وربما غلبتْ على السوق بنو كلب، فيعشرهم بعضُ رؤساء كلب، وتقومُ سوقُهم إلى آخر الشهر»[2]. . وقوله: «بعضُ رؤساء كلب» دليلٌ على أنه لم يكن هنالك منهم مَلِكٌ مُعيَّنٌ يُنازع أكيدرَ المُلْكَ على دومة الجندل، وإنما هنالك بعضُ الأشراف السَّادَة ينازعونَه الاستفادةَ من عُشُورِ السوق وفوائدها فقط.

يبقى أن نشير إلى أننا لا نعرف عن قُنَافَةَ الكلبيّ شيئاً، سوى أنه من بني كلب، وأُرجِّحُ أن يكون من سادَةِ بني زهير بن جَنَاب، من ذُرِيَّة دُجَانة بن قُنافة، مَلِكِ الدومة قبل أُكيدر، أو قبل تمليك بني السَّكُون على دومة الجندل.

المطلب الخامس ـ أغراض السوق:

كانت دومة الجندل تُقصَدُ في مواسمها للمتاجَرة، ويُوافيها العربُ

---

(١) أسواق العرب: ٢٣٨.

(٢) الإمتاع والمؤانسة: ١/ ٨٤.

وتُجَّارُ العراق والشام، فيبيعون بها ما يُمْكنهم بيعُه، ويشترون منها ما يحتاجون إليه، من عُروض التجارة وسِلَعِها. وكانت تُقصَدُ أيضاً لما اشتُهِرتْ به من فنون اللهو والمرَحِ والمُتَع. . ولا أريد أن أقول المزيدَ، إلا في أمرين، أحَدُهما: ما قيل عن طريقة المبايعة في هذه السوق، والآخَرُ: القِنُّ الذي كان بها لبني كلب[1].

١ ـ طريقة المبايعة:

ذكر ابنُ حبيب والمرزوقي أن المبايعة فيها كانت بإلقاء الحجارة، وذلك «أن يجتمع النَّفَرُ منهم على السِّلْعة، يُسَاوِمُون بها صاحِبَها، فأيُّهم رضيَ أَلْقَىٰ حَجَرهُ. وربما اتفق في السلعة الرَّهْطُ، فلا يجدون بُدّاً من أن يشتركوا فيها، وهم كارهون. وربما اتفقوا، فألْقَوا الحجارةَ جميعاً إذا كانوا عدداً، على أمرٍ بينهم، فَوكَسُوا صاحبَ السلعة إذا تظاهروا عليه»[2].

وإذا نظرنا في هذا النصّ، وجدنا أنه من ثلاثة أقسام، تفترضُ كلُّها اجتماعَ نَفَرٍ من الناس، على سلعة معيَّنةٍ واحدة، وكلُّ واحدٍ منهم يريدُ شراءَها لنفسه، والبائعُ يُغَالي من أجل ذلك في الثمن، وهذه هي المساومة. ففي القسم **الأول** يَرضَىٰ أحدُهم بالثمن، فيُلقي حَجَرهُ عليها، إيذاناً بقَطع الخِيَارِ ووُجُوبِ البَيْع، فتكون السلعةُ له دون غيره. وفي القسم **الثاني** يتَّفِقُ أن يرضَى عَدَدٌ منهم بالثمن، فيُلْقُون حجارَتَهم معاً على السلعة، فيكون ذلك

---

(١) **القِنُّ**: العبدُ الذي وُلد عندك، ولا يستطيع أن يخرج عنك. وقيل: عَبدٌ مُلِكَ هو وأبواه، وهو بلفظٍ واحد للمذكَّر والمؤنَّث والمفرد والجمع.

(٢) المحبَّر: ٢٦٤، والأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٢، **النَّفَرُ**، **والرَّهْطُ**: الجماعة من الرجال، من ثلاثة إلى عشرة. **المُسَاومة**: المغالاة في ثمن السلعة، والمجاذَبةُ بين البائع والمشتري في فصل الثمن. **الوكْسُ**: النقص، وهي هنا خسارةُ البائع في تجارته، ونقصُ مالِهِ.

مُوجِباً للبيع، ومُلْزِماً لهم في الوقت نفسه أن يكونوا شركاءَ فيها، على كُرْهٍ منهم، وعندئذٍ، إذا كانت السلعةُ مما لا يصحُّ اقْتِسامُه، يُسَاوِمُ بعضُهم بعضاً بثمنٍ أكبر، ليختصَّ بها أَحَدُهم دون الآخرين. وفي القسم الثالث يتوافق المجتمعون على السلعة، أن لا يَسُومَ أَحَدُهم على سَوْمِ الآخَر[1]، وإنما هو سَوْمٌ واحدٌ للسلعة، فإذا ذكر البائعُ ثمنَها، أَلْقَوا حجارتَهم جميعاً فوَجَبَ البيعُ، ووُكِسَ البائعُ، لأن امتناعَهم من السَّوْمِ، قطع عليه طريق المُغَالاةِ في الثمن... وهو بيعٌ شبيهٌ في جُملته ببَيْع المزايدة، حيث تَثْبتُ السلعةُ للزائدِ الأخير، ولكن الراغبين في شرائها هنا، هم الذين يَتَزايدون في ثمنها، خلافاً للبيع بإلقاء الحَجَر، فهنالك يُغَالي البائعُ في ثَمنِها، كلَّما سامَهُ أَحَدٌ من المجتمعين في شرائها. ولذلك جاء في الحديث أنه، عليه السلام، «نَهَىٰ أن يَسُومَ الرجُلُ على سَوْمِ أخيه»، والمَنْهِيُّ عنه أن يَتَساوَمَ المتبايعان في السلعة، ويتقاربَ الانعقادُ، فيجيءُ رجلٌ آخَرُ يريدُ أن يشتريَ تلك السلعةَ، ويُخْرِجَها من يد المُشْتري الأول، بزيادةٍ على ما اسْتقرَّ الأمرُ عليه بين المُتَسَاوِمَيْن، ورضِيَا به قبل الانعقاد، فذلك ممنوعٌ عند المُقَارَبَةِ، لما فيه من الإفْسَادِ، ومُبَاحٌ في أول العَرضِ والمُسَاوَمة[2].

هذا هو مقدارُ فَهْمي لطريقة البيع بإلْقاءِ الحجارة في الدُّومَة، فكأن إلقاءَ الحجر إيذانٌ بانتهاءِ الخِيَار ووجوبِ البيع، وبَدَلٌ من تبادُلِ القبول والإيجاب، وهو لا يكون إلا بعد المساومة بين المتبايعين. والعِلَّةُ في النهْي عنه بعدئذٍ انتهازُ البائعِ رغبةَ المُشْترين في سِلْعةٍ واحدةٍ، ومُغَالاتُه في ثمنها من غير حقّ.

---

(١) السَّوْمُ: من المشتري سؤالُهُ البائعَ ثمنَ السلعة وطَلَبُها، ومن البائع ذكرُ الثمن والمغالاةُ فيه.
(٢) لسان العرب: ١٢/ ٣١٠ (سوم).

وقد عَرَض الآلوسيُّ لهذه المبايعة، وقال: إنها «بَيْعُ الحَصَاة، وهو من بُيُوع الجاهلية التي أبطلها الإسلام»[1]، وكذلك فعل الأفغاني[2]، وقدَّما لها سِتَّ صُوَرٍ، يتصل معظمُها ببَيْع الغَرَر، لما فيها من الجهالة، وهي، كما قلنا في الجزء الأول من الكتاب[3]، أقربُ إلى أن تكون أنواعاً من القمار، يُراد بها اللهو والعبث، كقول البائع للمشتري: ما وقعت عليه حَصَاتُك، إذا رميتَ بها، فهو لكَ بدرهم، أو بعتُك من السلع ما تقع عليه حَصَاتُك، أو بِعتُك من الأرض إلى حيث تنتهي حصاتك[4]. . وهذه لا يمكن أن تكون طرائقَ للبيع في أسواقٍ موسميَّةٍ، تُقام فيأتيها التجارُ وأصحابُ القوافل بتجاراتهم لِيَشْهَدوا موسمها، والقولُ بذلك جهلٌ، أو رَمْيٌ للعرب بالجهل. . .

٢ ـ حوانيتُ القِنّ:

ذكر المرزوقي أنه كان لبني كلب، في سوق دومة الجندل، «قِنٌّ كثيرٌ، في حوانيتَ من شَعَرٍ، وكانوا يُكرهون فتياتهم على البغاء، فكانوا أكثَر العربِ قِنّاً»[5]. . وكان من عادة العرب أن يفخروا بكثرة ما يملكون من العبيد والإماء.

والمقصودُ بهذا الكلام أن بني كلب كانوا أكثر العرب عبيداً وإمَاءً، لأنهم كانوا يُقيمون في المواسم حوانيتَ من شَعَر، ويجعلون فيها إماءَهم، ويُكْرِهونهنَّ على البَغَاءِ، فكانوا يستفيدون مما كَسَبْنَ، ومما حَمَلْنَ في

(١) بلوغ الأرب: ١/ ٢٦٤.
(٢) أسواق العرب: ٤٦ ـ ٤٨.
(٣) انظر المطلب الرابع من الفصل الثاني في الباب الأول من الجزء الأول.
(٤) لسان العرب: ١٤/ ١٨٣ (حصى).
(٥) الأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٢.

بُطونهنَّ، فقد كانت الأُمم جميعاً يومئذٍ تَعُدُّ العبدَ وما مَلَكَ، أو ما وَلَدَ، أو ما كَسَبَ ملكـاً لصاحبه. ويبدو من نصِّ المرزوقي أن الإكْراهَ هنا غايتُهُ الزيادةُ في عدد العبيـد. وكان الرقيقُ تجـارةً رائجةً مُرْبحـةً، وكان التجّارُ يشترونه من الأسواق الخارجية، ويأتون به إلى بلاد العرب، لبيعه في الأسواق الموسمية[1].

وانظرْ كيف جاء هذا الخبرُ عند ابن حبيب: «وكان لكلبٍ فيها قِنٌّ كثيرٌ، في بيوت شَعَر، فكانوا يُكرهون فتياتهم على البغاء، وكانوا أكثر العرب»[2]. . . فقولُه: «فكانوا يُكرهون فتياتهم على البغاء، وكانوا أكثَر العربِ»، وإسْقاطُه «قِنّاً»، يُفهم منه أن بني كلب كانوا يُجْبِرون بناتِهم على البغاء، وبذلك كانوا أكثَر العربِ، وأنَّ ما تَلِدُ بناتُ العرب عربٌ! وهذا افتراءٌ واضحٌ، لا نعتقد أن يكون من ابن حبيب، بل ممن حقَّق كتابَهُ. وقد سُمِّيَ العبدُ فتىً، والأَمَةُ فتاةً في الإسلام، امتثالاً لقوله عليه السلام: لا يقُولَنَّ أحـدُكـم عبـدي وأَمَتـي، ولكـن ليقُـلْ فَتَـايَ وفتـاتـي. . فـالفَتَيـاتُ الإمَـاءُ، والمُحْصَنَاتُ الحرائرُ من نساء العرب[3]. .

ويبدو أن اضطرابَ النصّ عند ابن حبيب دفع «د. صلاح الدين المنجد» إلى التعسُّفِ في القول، فزعم أن «العرب كانوا يَزْنُونَ بابْنتِهم»[4]، بينما كانت العربُ، كما ثبت في أخبار الجاهلية، «لا تَنكَحُ البناتِ، ولا

---

(١) انظر المطلب السادس من الفصل الثاني في الباب الأول من الجزء الأول من الكتاب.

(٢) المحبَّر: ٢٦٤.

(٣) لسان العرب: ١٥/١٤٧ (فتو).

(٤) الحياة الجنسية عند العرب: ١٤.

الأُمَّهاتِ، ولا الأخواتِ، ولا الخالاتِ، ولا العَمَّات»[1]. وقد عُرِف الزِنا بالإبنة عند الفُرس.. والمؤسفُ أن المنَجِّد لم يقفْ عند ذلك، بل اندفع إلى القول أيضاً بأن «اللواطَ كان معروفاً، وإن كانت الأخبارُ عنه قليلةً»[2]... والعجيبُ في أمره أنه، على ما يبدو، كان ساعياً إلى الشهرة، أكثر من سعْيِهِ إلى التحقيق العلميّ، ذلك أنه أقام زعمه على خبر ضعيف، مَصْنُوعٍ، فقال: «إن أبا سفيان بنَ حرب كان يعتمدُ أُسْتَهُ على حَجَرٍ، أو عصاً، فيَحكُّهُ ويقولُ: لا واللَّهِ، ما يَقْرَبُك أحدٌ! ولمّا كان يومُ بَدْرٍ، قال عتبةُ بن ربيعة لأبي سفيان: يا مُصَفِّرَ أُسْتِهِ! وكان أبو سفيان نُسِبَ إلى التخنُّثِ والتأنُّثِ، وهو ما أراده عتبةُ بقوله يا مُصَفِّرَ أُسْتِهِ»[3]..

ولم يثبتْ في خبر واحد على الأقلّ أن اللواط كان معروفاً عند العرب، بل كان ثابتاً أنه منتشرٌ في بلاد فارس، حيث كانوا يجعلون الغِلمان كالبنات، والبنات كالغِلمان. ومع ذلك فالرواية التي استند إليها المُنجِّدُ في زَعمه غيرُ صحيحةٍ، وعُتْبةُ بن ربيعة لم يقل ذلك في أبي سفيان، بل قاله في أبي جهل، عمرو بن هشام، يوم بَدْر، إذ بلغه قولُه فيه: انتفخ واللَّهِ سَحْرُ عُتْبَةَ، فقال: سيعلَمُ مُصَفِّرُ أسْتِهِ مَن انتفَخَ سَحْرُهُ[4]، أنا أم هو!.. ويقول السُهَيْليُّ[5]: «مُصَفِّرُ أُسْتِهِ كلمةٌ لم يخترعْها عتبةُ، بل قيلت في الملك قابوس بن المنذر

---

(١) المحبَّر: ٣٢٥.

(٢) الحياة الجنسية عند العرب: ١٥.

(٣) المرجع نفسه.

(٤) السَّحْرُ: الرئة وما حولها مما يَعْلق بالحُلْقوم من فوق السُّرَّة، وما كان تحت السرَّة فهو القُصْب.

(٥) السُّهَيْليُّ: أبو القاسم، عبد الرحمن بن عبد الله الخَثْعَميُّ، السُّهَيْليُّ، الأندلسيُّ، صاحبُ الروض الأُنُف، وهو كتابٌ جليلٌ جَوَّدَ فيه، مَوْلدُه ووفاتُه: (٥٠٨ ـ ٥٨١ هـ).

(٥٦٩ ـ ٥٧٩ م)، لأنه كان مُرَفَّهاً، لا يغزو في الحروب، وأُرِيدَ بها صُفْرَةُ الخَلُوقِ والطيب[١]، وقد قالها أيضاً قيسُ بن زهير العبسيُّ في حُذَيْفة بن بدر الفزاريّ يومَ الهباءَة، ولم يقل أحدٌ يومئذٍ إن حُذَيفة كان مَسْتوهاً! ولا يصحُّ إذن قولُ من قال في أبي جهل إنه كان مستوهاً، وسادةُ العرب لا تستعملُ الخَلُوقَ والطيبَ إلا في الدَّعَة والخَفْضِ، وتَعيبُه في الحرب أشدَّ العيب، وأحسبُ أن أبا جهل تَبخَّرَ وتطيَّب يوم موقعة بدر لمّا علم بأن عِيرَ أبي سفيان وصلت سالمةً إلى مكة، وقوله: مُصَفِّرُ أسْتِهِ، إنما أراد به مُصَفِّرَ بَدَنه، ولكنه قَصَدَ المبالغة في الذمِّ، فخَصَّ بالذكر ما يسوءُ أن يُذْكر»[٢].

وقد حرصنا على سِيَاقَةِ هذا الكلام، استطراداً، لما كان بين أبي سفيان بن حرب وبشر بن عبد الملك السَّكونيّ من صِهْرٍ، وما كان من علائق تجاريةٍ ودينيَّةٍ وثيقةٍ بين بني كلب وقريش، وما كان لدومة الجندل وسُوقها من شهرةٍ مُسْتفيضةٍ بحانات الخَمَّارين، وحوانيت الإمَاءِ ذوات الرايات، وبصنوفٍ أُخرى من اللهو والعبث، ولأننا أردنا دَفْعَ الشُّبْهةِ أن تُصِيبَ أحَدَ مواسمِ العربِ القديمة الكبرى، موسمَ سوق دومةِ الجندل، أو أن تنالَ من سُمْعَةِ آبائنا وأجدادنا.



(١) الخَلُوق: ضربٌ من الطيب، أعظمُ أجزائه الزعفران، ومن الزعفران تكون الصُّفْرةُ.

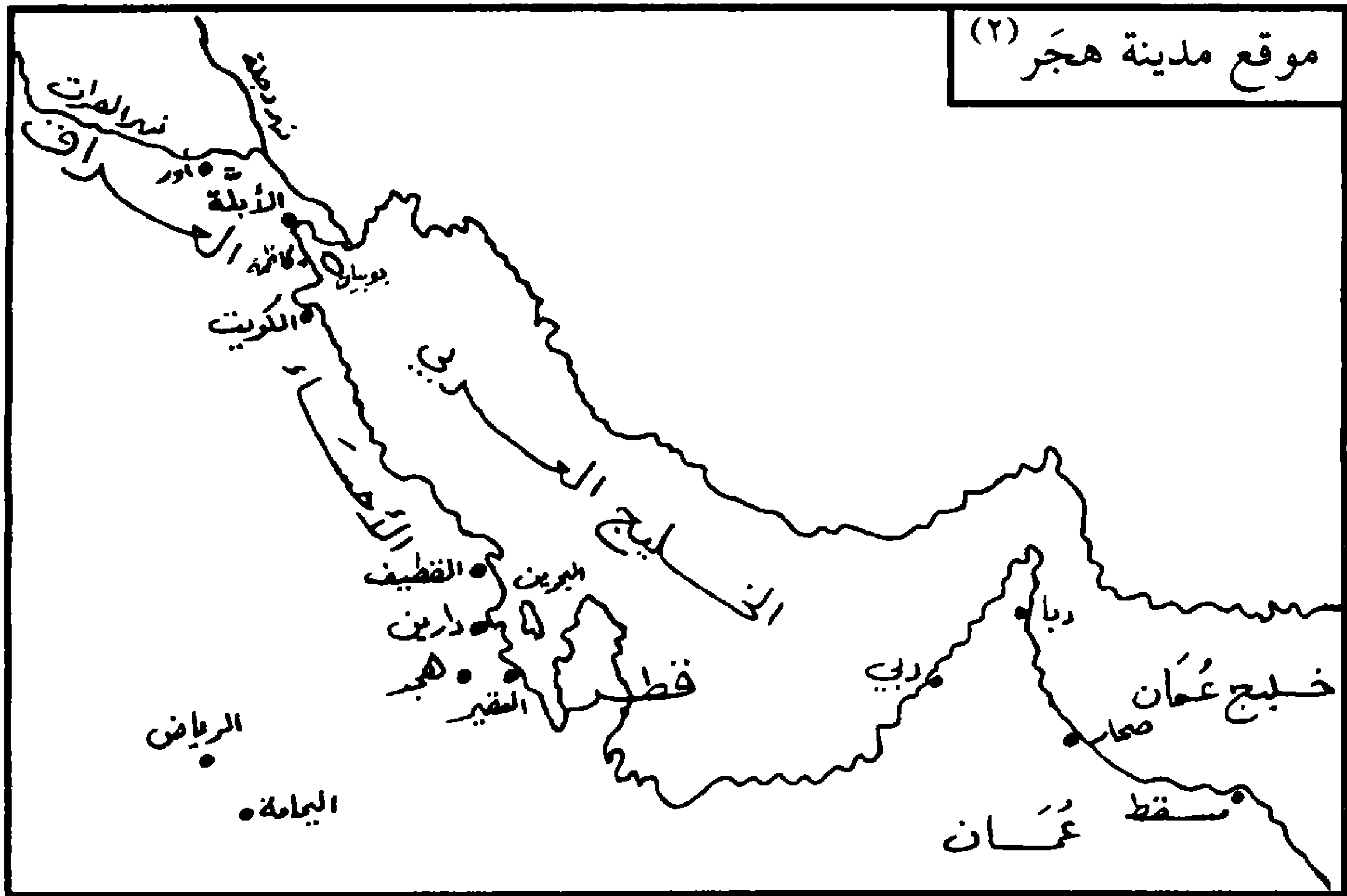
(٢) السيرة لابن هشام: ١/ ٦٢٤ (ح)، ولعلّ للمُنَجِّدِ عُذْرَهُ فيما افترى، ذلك أن كتابه ظهر سنة (١٩٥٨ م) وكان إذ ذاك في أوار غرائزه، وأعتقد أنه ندم بعد ذلك على ما كان منه في ذلك الكتاب! ثم إن قول أبي سفيانَ ما قال دليلٌ على كراهته اللواطَ، وليس على أن اللواط كان معروفاً عند العرب.

الفصل الرابع

موسمُ سُوقِ المُشَقَّرِ بهَجَر

المطلب الأول ـ موقع السوق:

كانت السوقُ تقوم في حِصْن المُشَقَّرِ، وهو حصنٌ عربيٌّ قديم، وثيقُ البُنْيَانِ، لبني عبد القيس بن أَفْصَى(١)، من بني ربيعة بن نزار. وهو يَلي حِصْناً



---

(١) **عبد القيس بن أَفْصَى**: جدٌّ جاهليٌّ من بني أسد بن ربيعة، بَنُوهُ بطونٌ كثيرةٌ، كانت ديارهم بتهامة، ثم استوطنوا البحرين والقسم الشرقي من جزيرة العرب.

(٢) المرجع: الأطلس التاريخي للدولة السعودية.

آخَرَ لهم يُسمَّى الصَّفَا، وهما معاً قاعدةُ مدينةِ هَجَر[1]، وقَصَبَتُها. . وكان بينهما نهرٌ جارٍ يُسمَّىٰ العَيْنَ، أو عَيْنَ مُحلّم، وهي عينٌ فوَّارةٌ مشهورةٌ، تسقي نخيل قُرَيَّاتٍ من قُرى هجر، منها جُوَاثَىٰ، وهي حصنٌ أيضاً لبني عبد القيس، كان قاعِدةَ الخطّ، والخَطُّ مدينةٌ قديمةٌ، من حديثها أن هُزَيْزَ بنَ شَنّ بن أَفْصَى كان أول من ثقَّفَ القَنَا بالخَطِّ[2]، وإليه تُنْسَبُ الرِّماحُ الهُزَيْزيَّة[3]، وإلى الخطِّ تُنْسَبُ الرمَاحُ الخَطّيَّةُ، وهي أحسنُ أنواع الرماحِ خِفَّةً وصلابةً وتَثْقيفاً[4]. . ويُقال إن حِصْنَ المُشَقَّرِ كان عاصمةَ هَجَرٍ وحاضِرَتَها، وأن مدينةَ هَجَر كانت قاعِدةَ الإقليم المُمْتدِّ ما بين الأُبُلَّةِ وعُمَان، وقَصَبَتَهُ وأكبرَ مُدُنِه، وكانت بهذا الإقليم قُرىً كثيرةٌ عامِرةٌ، أشهَرُها: هَجَر، والقطيفُ، ودارين، والخطُّ، وقَطَرُ، والعُقَيْرُ، وبَيْنُونَةُ، والزَّارَةُ، وقد غَلَبَ عليها جميعاً إسمُ البحرين، وربما غلب عليها أحياناً إسمُ هَجَر، وهو أمرٌ مَعْهودٌ في حَواضِرَ كثيرةٍ، غلبتْ أسماؤها على جُمْلَةِ البلادِ التي تكون بها[5]. . . ومن الراجح أن جزيرة البحرين، كما يُشير تاريخُها القديمُ، كانت قاعدةَ هذا الإقليم،

---

(١) هَجَر: الهَجَرُ في لغة الجنوب العربي معناها المدينة، وهي تُضاف عادةً إلى اسمٍ آخَر، كقولهم هَجَر نجران، وهَجَر تَيْماء، والمشهور منها هَجَرُ البحرين بالأحْسَاء.

(٢) ثَقَّفَ الرُّمْحَ: قوَّمَهُ وسَوَّاهُ، وثقَّف الولدَ: هذَّبَهُ وعلَّمه فتهذَّب وتعلَّم فهو مُثقَّف، وهذا مُسْتعارٌ من ثقَّف الرمح. والقنا: ج قناة، وهي العودُ الذي يُصنع منه الرمح، ويقال إن الخَطَّ لم تكن مَنْبتاً للقَنا، وإنما كانت مَرْفأً تُحمل إليه القَنَا من الهند، فتُسَوَّىٰ به.

(٣) جمهرة أنساب العرب: ٢٩٩، وتاج العروس: ١٥/ ٣٨٧ (هزز)، والأعلام: ٨/ ٨٤.

(٤) آثار البلاد وأخبار العباد: ٦٠.

(٥) معجم البلدان: ١/ ٣٧٤ (البحرين)، و٢/ ١٧٤ (جواثاء)، و٢/ ٣٧٨ (الخط)، و٣/ ١٢٦ (الزارة)، و٣/ ٤١١ (الصفا)، و٤/ ١٧٩ (عين محلّم)، و٥/ ١٣٤ (المشقَّر)، و٥/ ٣٩٣ (هجر)، ولسان العرب: ٤/ ٤٢٢، ٤٢٣ (شقر)، و٥/ ٢٥٧ (هجر)، و٧/ ٢٩٠ (خطط)، وتاج العروس: ٥/ ٢٠٠ (جوث)، و١٢/ ٢٢٢ (شقر)، ومعجم قبائل العرب: ٧٢٦.

وجُزْءٌ منه، وعاصمتَه، فغَلَب اسمُها عليه، وعُرِفَ به عند الأخباريّين، وإنما هو في الحقيقة منطقة الأحْسَاءِ المعروفة في الأجزاء الشرقية من جزيرة العرب، على شواطىء الخليج العربيّ، وما اتصل بها في الشمال والجنوب والغرب. والحِسْيُ: الرملُ المتراكمُ فوق أرض صَلْدَة، فإذا مُطِرَ الرَّمْلُ، شرِبَ الحِسْيُ ماءَ المطرِ، فإذا انتهى الماءُ إلى الأرضِ الصَّلْدَةِ أَمْسَكَتْهُ، ثم مَنَعَ الرملُ حرَّ الشمس أن يُنَشِّفَهُ، فإذا اشتدَّ الحَرُّ، نُبِشَ وجهُ الرمْلِ عن ذلك الماء، فنَبَع بارداً عَذْباً، وقد اشتُهرت تلك المنطقة بأحْسَاءٍ كثيرةٍ على هذه الصفة، منها أحْسَاءُ بني سعد بن زيد مناة التميميّ بحذاءِ هَجَر وقريةِ يَبْرين، وأحْسَاءُ خِرْشَاف لبني جذيمة بن عوف من عبد القيس، بالبيضاء، وهي قُرَيَّات على سيف الخليج قُربَ القطيف، وأحْسَاءُ القطيفِ وغيرُها[1]. .

وكان بنو عبد القيس بن أفْصَى يَتَوطَّنُون تهامةَ الحجاز، ولمّا انفردت قبائلُ مُضَر برياسَة مكةَ، وتَبَحْبحتْ تهامةَ والحجازَ ونَجْداً، نزحت بطونُ عبد القيس إلى الأحساء، وكان بها خَلْقٌ كثيرٌ من بطون بكر بن وائل، وتميم بن مُرّ، فنزلت بجوارهم، ثم قاسَمَتْهم ديارهم، واستقرَّت بها، ولعلَّ ذلك كان في نحو القرن الرابع للميلاد[2]. . ثم تكاثروا حتى صاروا جُلَّ أهلِ تلك الديار، ولكن الأخبار تُشير إلى أن الإمْرَةَ فيها كانت لبني تميم. . .

وقد أثبتتِ الآثارُ المكتشَفةُ حديثاً أن أرضَ «دِلْمون»، التي جاء ذكرُها في النصوص السَّوْمريَّة والأكاديَّة والآشُوريَّة، هي جزيرةُ البحرين، وقد غَلَبَ اسمُها على الساحل المُقَابل لها من شرق جزيرة العرب، أي إقليم الأحساء، فأُطلِق عليها جميعاً اسمُ دِلْمُونَ، واسمُ البحرين، ويبدو أنها كانت منطقةً

---

(١) لسان العرب: ١٤/١٧٧ (حسا)، ومعجم البلدان: ١/١١٢، ٥٣٠، و٢/٧٠، ٣٥٩، ومعجم قبائل العرب: ١٧٦، ٥١٤.

(٢) معجم قبائل العرب: ٥٣، ٧٢٦.

حَيَوِيَّةً غنيَّةً، وكانت مشهورةً بتُمورها وأخشابها ومَعادِنها كالذهب والبرونز والنحاس، وحجارتها التي تُصْنعُ منها التماثيلُ، وتُبنَى منها المعابدُ فيما بين النهرين، كما اشتُهرت أيضاً بالسَّمَكِ واللؤلؤ... ولعلَّ طائفةً من هذه البضائع كانت تُحمل إليها من الهند وإيران وبلاد الشام وغيرها، فقد كان أهلُها تجّاراً مَهَرَةً، يَجُوبُون بسفُنِهم البحرَ يبيعون ويشترون، وكانت التجارةُ بين «دِلْمون» وأُور في العراق مُتَّصلةً مُستمرَّةً، وكان الاتصالُ الثقافيُّ والدينيُّ قَويّاً متيناً بين هذه المنطقةِ وشُعوبِ ما بين النهرين كالبابليين والكلدانيين والآشوريين، وذُكر أنها خضعت للآشوريين لمّا احتلُّوا بابِلَ، وضَمَّها البابليُّون إلى أملاكهم، ونَصَبُوا حاكماً بابليّاً عليها نحو سنة (٦٠٠ ق.م). ويُقال إن السَّوْمريين قَدِمُوا منها إلى العراق نحو سنة (٣١٠٠ ق.م)، ويُقال إنها كانت إلى ذلك موضعاً خطيراً، تنزلُه القبائلُ العربيةُ المهاجِرةُ من جنوب شبه الجزيرة إلى الشمال، في طريقها إلى العراق أو بلاد الشام. والرأيُ الغالبُ عند العلماء أن منطقة البحرين كانت الموطنَ القديمَ للفينيقيين، قبل استقرارهم في لبنان والساحل السوري، وأنها كانت أيضاً، في نحو القرن السابع ق.م. موطنَ الكلدانيين الذين سكنوا فيما بعد المناطق الجنوبية من العراق[١].

ثم تعاقبت على تلك الأَرضينَ، في الجانب الشرقيّ من جزيرة العرب، قبائلُ كثيرة، إلى أن حَلَّتْ بها قبائلُ عبدِ القيس وبكرِ بن وائل وتميم، واستقرُّوا بها[٢]، وكان البابليُّون أطلقوا عليها اسْمَ الفردوس «پرديسو»[٣]، لما كان بها من القُرى والمرافق والثروات الزراعية والبحريَّة والتجارية وغيرها، فكان من

---

(١) المفصَّل: ١/ ٥٦٢، ٥٦٤ـ ٥٦٦، ٥٦٨ ـ ٥٦٩، ٦٢٠.

(٢) معجم البلدان: ١/ ٣٤٧.

(٣) المفصَّل: ١/ ٥٦٣.

الطبيعي أن تكون أرضُها مُعجبةً، لا يراها أحدٌ إلا تَعلَّق بها. . ثم غَلَب عليها جميعاً اسمُ البحرين، فعُرِفتْ به زمناً من الدهر، كانت حاضِرتَها فيه مدينةُ هَجَر، إلى أن عاد هذا الإسْمُ، كما كان، للدلالة على جُملة الجُزُر الواقعة في منتصف الخليج العربي، إلى الشرق من ساحل الأَحْسَاء في جزيرة العرب.

قدَّمتُ ذلك كلَّه وأنا أرمي إلى إبراز خَطَرِ هذه المنطقة من بلاد العرب، واحتمالِ أن تكون كلُّ مدينةٍ من مُدُنها عرفت سوقاً موسميَّةً، وأن تكون جزيرةُ البحرين مَوْضعاً لقيام أكبر تلك المواسم، وأوْسَعِها، بما تكشَّفَ عنه تاريخُها من أطلالٍ عُمرانيَّةٍ قديمة كانت بها. غير أن الأخباريين لم يذكروا إلا موسماً واحداً كان يقوم بحصن المشقَّر في مدينة هَجَر، بالجانب الشرقيّ من جزيرة العرب، على ساحل الخليج العربي. وهو ما أشرتُ إليه في أول هذا الحديث، وما كنتُ انتهيتُ إليه في كلامي على مواسم العرب في الباب الأول من هذا الجزء، بعد التحقيق الدقيق في أقوال القدماء والمحدَثين. وهذا لا ينفي أن يكون بهَجَر سوقٌ خاصَّةٌ بها، وهي التي عَنَاها الهمدانيُّ بقوله: «وهَجَرُ سوقٌ من أسواق الجاهليَّة، يؤمُّها بنو مُحارب من عبد القيس»[1]. ولكن هذه السوق، كما يبدو من النص، لم تكن موسميةً عامّةً، بل خاصَّة ببني مُحارب بن عمرو. . وهنالك إشارةٌ تاريخيَّةٌ أخرى، ذكرت أن مدينة «دارين» كانت سوقاً من أسواق العرب في الجاهلية، ومَرْفأً كبيراً، يقعُ في الطرف الجنوبي من جزيرة «تاروت»[2] في الخليج

---

(١) المفصَّل: ٤/ ٢١١.

(٢) **تاروت**: تقع بالقرب من القطيف، على نحو ستة أكيال، ويُعتقد أن اسمها عشتاروت، وكان فيها معبدٌ للفينيقيين قبل نزوحهم إلى الساحل السوري.

العربي[1]، وقد اشتُهرت بصناعةِ المِسْكِ وتجارته، حتى نُسِبَ إليها، فكانوا يقولون: مِسْكُ دارين! وزعموا أنها كانت تستوردهُ من الهند[2]... وعَدَّ الأستاذ «خليل إبراهيم الفزيع»[3] سوق دارين من المواسم الأدبيَّة والتجاريَّة عند العرب، وجعل قيامها في شهر رجب من كل سنة، وعدَّ معها أسواقاً أخرى منها: الزَّارَةُ والجرعاء[4].. غير أني لا أعلم شيئاً عن سَنَدِه فيما ذهب إليه، ولا سيما قوله بأن موسم دارين كان ينعقد في شهر رجب، وإن كنتُ لا أنفي أن يكون في دارينَ سوقٌ يجتمع إليها التجارُ، ويذكرها الشعراءُ في شِعْرهم. ومن ذلك قولُ أحدهم:

إذا التـاجـرُ الـداريُّ جـاء بفـأرةٍ   من المسك، راحت في مفارقها تجري

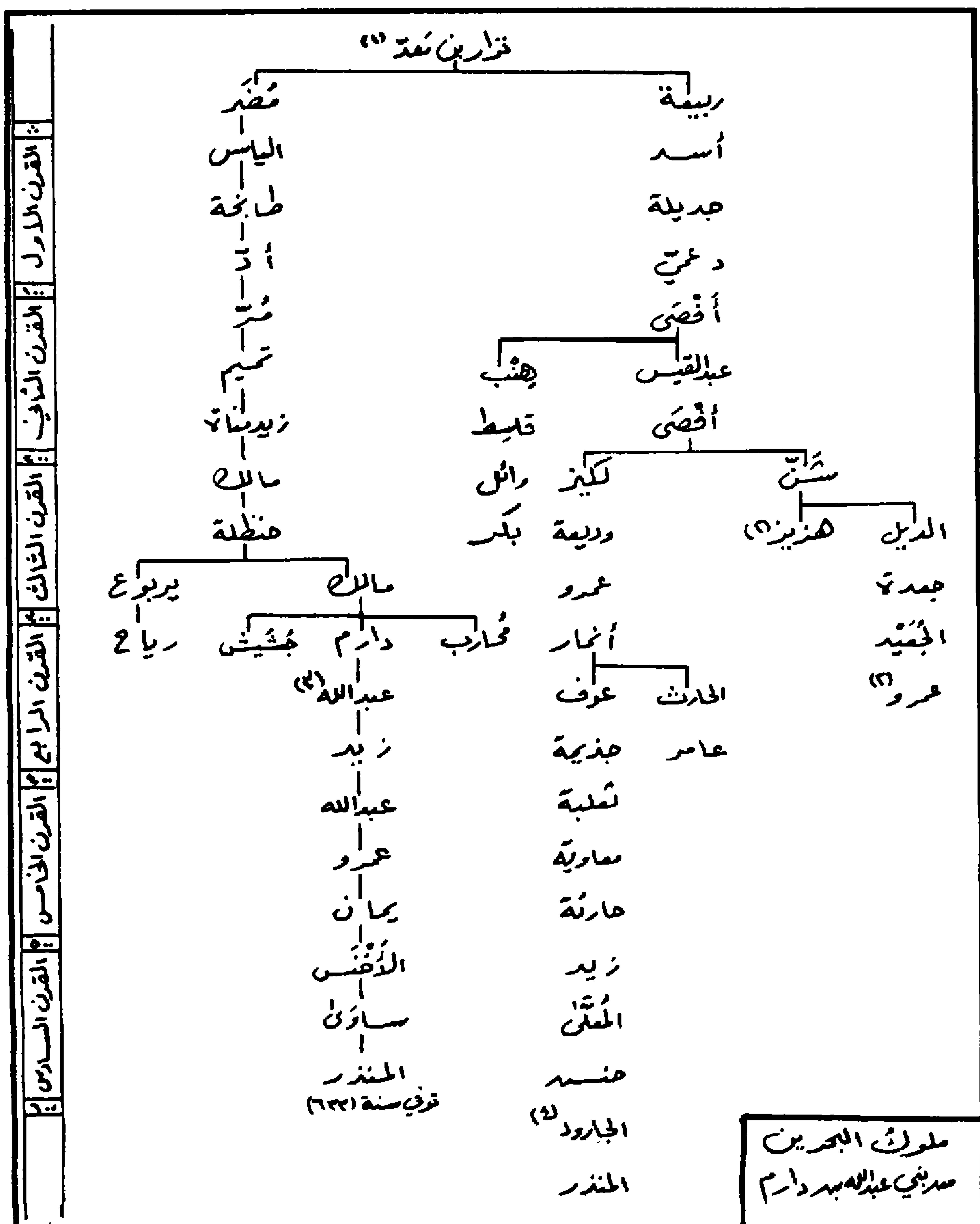
والداريُّ: العطَّارُ، نُسِب إلى دارِين، ذكر ابنُ منظور أنها موضعٌ في البحرين يُؤتى منه بالطيب، وفيها سوقٌ كان يُحمل إليها مسْك من ناحية الهند. وفي الحديث: مَثَلُ الجليس الصالح مَثَلُ الداريّ، إن لم يُحْذِك، أي يُعْطِكَ، من عطره عَلِقَك من ريحه[5].

وعلى ذلك حَسْبُنا أن نتحدَّث عن موسم سوق المشقَّر، وقد كان ينعقدُ بمدينة هَجَر، التي تقعُ إلى الجنوبِ من القطيف، والشمالِ الشرقيّ من اليمامة، والغربِ من قَطَر والعُقَيْرِ على ساحل الخليج العربي. وتقعُ العُقَيْرُ على شاطىء البحر بحذاءِ هَجَر، وقَطَرُ بينها وبين عُمَان. وبين هجرٍ واليمامة

---

(١) مجلة العربي: ص ٧٨ من العدد رقم ١٨٠ نوفمبر ـ تشرين الثاني ١٩٧٣.
(٢) معجم البلدان: ٢/ ٤٣٢، ولسان العرب: ٧/ ٢٩٠ (خطط).
(٣) أديب سعوديّ، كان رئيساً لتحرير جريدة اليوم السعودية التي تصْدرُ بالدمَّام.
(٤) مجلة أهلاً وسهلاً السعودية: ٥٤ من العدد الثالث، مارس ـ آذار ١٩٩٤.
(٥) لسان العرب: ٤/ ٢٩٩ ـ ٣٠٠ (دور).

مسيرةُ عشرةِ أيامٍ على الإبِلِ، أي نحو مئتين وخمسين ميلاً، وبينها وبين الأُبلَّة خمسة عشر يوماً، وبينها وبين عُمَانَ شَهرٌ(١).



(١) معجم البلدان: ١/٣٤٧، و٥/٣٩٣.

(١) المراجع: جمهرة أنساب العرب: ٢٢٧، ٢٣٢، ٢٩٥ ـ ٢٩٦، ٢٩٩، والأعلام: ٢/ ٥٥، و٧/ ٢٩٢، و٨/ ٨٤، ومعجم البلدان: ٢/ ٣٥٩، و٤/ ٣٧٨، ومعجم قبائل العرب: ١٧٦، ٥١٤، ٧٠٦، ٧٣٢، وتاج العروس: ٤/ ٤٠٥ (هنب)، و١٥/ ٣٨٦ ـ ٣٨٧ (هزز)، و١٧/ ١٠٦ (جشش)، والمعارف: ٦٥١، ونهاية الأرب: ٣٣٩.

(٢) **عمرو بن الجعيد**: قيل إنه أَوَّلُ من سار ببُطونِ عبد القيس من تهامة إلى الخليج العربي، وقيل أيضاً إن هُزَيْزَ بنَ شنّ هو أَوَّلُ من ثقف القَنَا بمدينة الخَطِّ على ساحل الخليج، فتكون عبدُ القيس بذلك موجودةً في الخليج قبل عمرو بن الجعيد.

(٣) **عبد الله بن دارم**: كان بَنُوهُ ملوكَ البحرين، وقاعدةُ مُلْكهم مدينةُ هَجَر، وقد توفي آخِرُهم المنذر بن ساوَىٰ العَبْديُّ سنة (٦٣٣ م)، وهو دليلُ على صواب تقديرنا للأزمنة في جدول النَّسب.

(٤) **الجارودُ بنُ حَنَش**: أسْلَمَ، وكانت له صحبة، وكان سيِّدَ عبد القيس في زمانه، توفي سنة (٦٤١ م)، وتولَّىٰ إبنُه المنذر ولايةَ السِّنْد، وتُوفي هنالك نحو سنة (٦٨٤ م).. وهو ما يؤكدُ أيضاً صوابَ تقديرنا للأزمنة في جدول النسب.

وقد اشتُهِرت هَجَرُ بوفرةِ المياهِ والينابيع، وكثرةِ النبات والنخيل، وتَنوَّعَت مياهُ ينابيعُها بين ماءٍ بارد وماءٍ حارٍّ، وآخَرَ مَعْدَنيّ، وتعدَّدَتْ فَواكِهُها بين ليمون وخوخ ومشمش ورُمَّانٍ وعنبٍ وتين، إلى ما كان بها من نباتٍ كالأرز والحبوب، ولكنَّ شهرتَها قامت على ما كان بها من أشجار النخيل وأنواع التمر، فهي مَعْدِنُ التَّمْرِ، وفيها أطيَبُهُ وأكثرهُ جودةً، حتى ضُرِبَ به المثَلُ، كقولهم: كمُبضِعِ تَمْرٍ إلى هَجَر، وكَجَالبِ التَّمْرِ إلى هَجَر[1]. . وما من عجبٍ في ذلك، فالأخبارُ المأثورةُ عنها مُطْبِقَةٌ على أنها والأَحْسَاءَ المُطيفة بها، كانت من أخصبِ بلاد العرب تربةً، وأكثرِها غِنىً وثروةً ورخاءً، وأوْسَعِها إنتاجاً لأنواع التَّمْر. . . ومن ذلك حديثُ رجُلٍ من بني عُذْرة، حضَر وليمةً لعبد الملك بن مروان، عَجز الفُصَحاءُ عن وصفِ ما حوَتْ من الأَطَايِب، فقيل له: هل رأيتَ أطيبَ من هذا أو أكثَر؟ فقال العُذْريُّ: أمَّا أكثَرُ فلا، وأمَّا أطيبُ فنعَم، فقد واللَّهِ خرجتُ زائراً لأَخْوالٍ لي بهجَر، فأكلتُ هنالك طعاماً أطيبَ منه، مَصْنُوعاً من التمر، ثم جعل يَصِفُهُ، فوافقه عبدُ الملك وقال له: لقد أكلتَ طعاماً طيِّباً[2]. . . وذكر المرزوقي أن أرض هجر «كانت أرضاً مُعْجِبةً، لا يراها أحَدٌ فيصبر عنها، وكانت لا تَقْدَمُها قافلةٌ إلا تَخلَّفَ بها منهم ناسٌ، فمن ذلك صار بهَجَرٍ من كل حيٍّ من العرب وغيرِهم»[3].

وإذا كان التمرُ أعْظَمَ غَلاَّتِ هجر، لكنه لم يكن كلَّ تجاراتها، فقد اشتُهِرت أيضاً باللؤلؤ، وحياكةِ نسيجٍ تُصنعُ منه الأثوابُ الهجريَّة[4]، وتَثْقِيفِ

---

(١) مجمع الأمثال: ٢/ ١٢٩، ولسان العرب: ٥/ ٢٥٧ (هجر).

(٢) الأغاني: ٨/ ٣٨ ـ ٤٠، والبخلاء: ٢٢١ ـ ٢٢٢.

(٣) الأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٣.

(٤) الطبقات الكبرى: ١/ ٢٦٢.

الرماح[1]، والقِلاَلِ الهَجَرِيَّة، أي الجِرَارِ العظيمةِ والأكْوازِ الصغيرة، كانت تُجلَبُ من هجر إلى المدينة[2]، وتُباع في سوقها الثيابُ الظَّهْرانيَّةُ، وكانت تُصنَعُ بالظهران إحدى قُرى هَجَر[3]، ومثلُها الثيابُ القَطريَّةُ والنجائبُ القَطَرِيَّةُ[4]، ومِسْكُ دارين، وأشياءُ أخرى كثيرة تَجِلُّ عن الحصر، يدخلُ فيها ما كانت تحمله إلى مَرْفَئِها السفُنُ القادمةُ من الهند وإيران وإفريقية، فقد كانت بحُكم موقعها على اتصالٍ مُستمرٍّ بهذه البلاد، وكذلك بالحيرة، والشام، واليمامةِ وعُمَان وسائرِ بلدان العرب، فمَعَاشُ أهلها كان قائماً على التجارة. ويبدو أن مَرْفَأها على الخليج العربي كان قرية العُقَيْر، وأعتقد أن العُقَيْر كانت في أوَّلِ أمرها قصراً صغيراً، أو منزلاً من منازل أهل هجر، ذلك أن العُقَيْر تَصْغِيرُ العَقْرِ أو العُقْرِ، بمعنى القَصْر أو البِناءِ على أيِّ حالٍ كان، ومنه يتبيَّنُ أن أهل هَجَر كانوا يبنون البيتَ أو القصرَ، ويُسَمُّونَه العَقْرَ، وفيه يقول لبيدُ بنُ ربيعة العامِريُّ، أحدُ أصحاب المعلَّقات:

كعَقْــرِ الهــاجِــرِيّ إذا بَنَــاهُ ... بأشْبَاهٍ حُذِينَ على مِثَالِ[5]

فانظرْ كيف وصف لنا بيوتَ أهل هجر، تُبنَى على نَسَقٍ واحد، مُتَشابهات، بعضُها بإزاءِ الآخَر مُتحاذِيات...

* * *

أمَّا المُشَقَّرُ، فقد كان قاعدةَ هَجَرٍ، والحِصْنَ المتينَ الَّذي يتَّخِذُ منه

---

(١) معجم البلدان: ٢/٣٧٨.
(٢) المرجع نفسه: ٥/٣٩٣.
(٣) المرجع نفسه: ٤/٦٣.
(٤) المرجع نفسه: ٤/٣٧٣، ومهد العرب: ٨٨.
(٥) لسان العرب: ٤/٥٩٨، وتاج العروس: ١٣/١٠٨ (عقر).

ملوكُها مركزاً للحكومة، ويأوي إليه الناسُ إذا دَهَمهم عَدُوٌّ، وفيه كان ينعقدُ موسمُ السوق كلَّما أَزِفَ موعدُه، وكانت له شهرةٌ في العرب مُسْتَفيضةٌ، مما أغْرَى بعضَ رُواةِ الأخبار في عصر التدوين أن يُضِيفُوا أَمْرَ بنائه إلى كسرى أنوشروان تارةً (٥٣١ ـ ٥٧٩ م)، وإلى كسرى ابرويز (٥٨٩ ـ ٦٢٨ م) تارةً أخرى، وهو مذهبٌ تَكلَّفوهُ للحطِّ من شأن العرب. وفي بعض الروايات التي نقلها الطبريُّ: أن الَّذي بَنَىٰ المشقَّرَ رجلٌ من أَسَاوِرَة كسرىٰ، أي من قادته أو فُرسَانِه، وإذ كان الفَعَلةُ، الَّذين اسْتَقدمهم إلى هجرٍ لبنائه، لا يُقِيمون، ولا يُتمُّون البناءَ إلا أن تكون لهم نسَاءٌ، والعربُ تكرهُ أن تُزوِّجَ نساءَها من الأعاجم، فقد نَقَلَ لأولئك الفَعَلَةِ الفَواجِرَ من نساء الأحْوازِ والسَّوادِ، فتناكحوا وتَوالدوا، وصاروا جُلَّ أهلِ هَجَر، وتعلَّموا العربيَّةَ، وطلبوا من بني عبد القيس إلْحَاقَهم بهم، فأبَوْا عليهم ذلك، لأنهم يعرفون أَصْلَهم وأوَّلَهم، فكانوا يَعُدُّونَهم من مواليهم، أي عبيدهم(١).

ومن شأن هذه الرواية أن تؤكد لنا، أن الفرس الذين كانوا بهَجَرٍ وسائر مدُنِ الخليج، إنما قَدِمُوا، أو استُقْدِموا في الأصل، للعمل في الأرض وفِلاحَتِها، أو في البناءِ، وحيث كان العربيُّ يأنَفُ القيامَ به من الأعمال(٢).. وهؤلاء هم الجاليةُ التي كانت في تلك المنطقة لمَّا فَتَحها المسلمون، وكلُّ ما ذُكر عن وقوعها في سُلطانِ الأكاسِرَة، أو وجودِ جيشٍ فارسيّ بها يحكمُ العربَ، غيرُ صحيح، باستثناء الفترة القصيرة التي كانت بين مقتلِ النعمان بن المنذر، ملكِ العرب، سنة (٦٠٤ م)، وموقعةِ ذي قار نحو سنة (٦٠٦ م)، وقد مُنِيَ بها جيشُ كسرى أبرويز بهزيمةٍ مُنْكَرةٍ على أيدي بضع قبائلَ من

(١) تاريخ الطبري: ٢/ ١٧٠.
(٢) يبدو اليوم أن هذه المُعْضِلَةَ عادت إلى الظهور مرةً أخرى، بعدما جرى في الحِقَبِ المُنْصَرِمَة استقدامُ عددٍ كبير من الأعاجم للعمل في مُدُن الخليج حيث لا يعملُ أهلُ الخليج!

العرب، انتقاماً لمقتل النعمان غدراً على يديْ أبرويز، ولم تَسْتقِم الأمورُ بعدئذٍ بين العرب والفُرس، لا في الحيرة، ولا في مُدُن الخليج حيث كانت قبائلُ العرب تدين للملوك من بني لَخْم غالباً، وليس للفُرس. .

وفي حديثه عن خُطوطِ أهل الجاهلية وكتابتهم، ذكر الجاحظُ أن الكتابة إذا كانت تاريخاً لأمر جسيم، كانوا يجعلونها حَفْراً في الصخور، كما كتبوا على قُبَّةِ غُمْدانَ، ورُكْنِ المُشَقَّر، وعلى الأَبْلَق الفَرْدِ[1]. . . ولو كان المشقَّرُ فارسيّاً لكتبوا عليه بالفارسيَّة، لا بالعربية! والواقعُ أن المشقَّر حصنٌ قديمٌ، له ذِكْرٌ في أشعار العرب، يعودُ إلى ما قبل أنُوشُروان وأبرويز. . وإذا صحَّ أن بانيه هو معاويةُ بنُ الحارثِ بن معاوية، الملكُ الكِنْديُّ[2]، فبناؤه يعود إلى أوائل القرن الرابع للميلاد تقريباً. . . ومن أقوال الشعراء في متانة الصخور التي بُني منها المشقَّر قولُ أبي ذُؤيب الهُذَليّ في مَرْثِيَّتِه لبنيه، يصفُ ما نزل به من نوائب الدهر:

حتى كـأنّـيَ للحـوادث مَـرْوَةٌ بصَفَا المشقَّرِ كلَّ يومٍ تُقْرَعُ

والمَرْوَةُ الحجرُ الصوَّانُ الصُّلْبُ، والصَّفا الحجارةُ الصَّلْدَةُ الضخمة، واحدتُها صَفَاة. . . وقولُ لبيد بن ربيعة العامريِّ يصفُ فِعْلَ بنات الدَّهْر:

وأَنْزَلْنَ بالدُّوميِّ من رأس حِصْنِهِ وأنـزلْـنَ بـالأسبـابِ ربَّ المُشَقَّـرِ

أراد بالدُّوميِّ أكيدرَ بنَ عبد الملك صاحب حصن دومة الجندل[3].

---

(١) الحيوان: ١/ ٣١١ ـ ٣١٣، والمحاسن والأضداد: ٥.
(٢) المفصَّل: ١/ ٣٣٩، و٤/ ٢٠٤، و٨/ ٥١١.
(٣) لسان العرب: ٤/ ٤٢٢ ـ ٤٢٣ (شقر).

وقولُ الأعشى الكبير، من بني بكر بن وائل، يذكر المشقَّرَ والصَّفا، ويشير إلى كثرة ما كان بهما من غَلَّات النخيل:

فإن تَمنَعُوا منا المشقَّر والصَّفَا فإنَّا وجَدْنا الخَطَّ جَمّاً نخيلُها[1]

أراد أن مدينة الخَطّ كانت أيضاً كثيرة النخيل، كالمشقَّرِ والصَّفا.

* * *

المطلب الثاني ـ الموسم والحكومة:

خَلُصنا من تحقيقنا، في مواسم الأسواق بين القدماء والمُحْدَثين، إلى أن الأخباريين لم يذكروا لإقليم هَجَر إلا موسماً واحداً فقط، هو موسمُ السوقِ العامَّةِ، التي كانت تقومُ بحِصْن المشقَّرِ، كلَّ سنةٍ، في اليوم الأول من شهر جُمادَى الآخرة، ثم تَنْفَضُّ بانقضائه[2]. وفي اعتقادي أن هذا الموعد كان يُوافِقُ شهرَ آذار (مارس) من السنة الشمسيَّة، بالتقويم العربيّ السريانيّ.

وقد سمَّىٰ القَلْقَشَنديُّ هذا الموسمَ سوق هَجَر[3]، ولم يذكرِ المشقَّرَ كموْضِعٍ لِقيَامِهِ، فوَهِمَ الآلوسيُّ، وحَسِبهُ موسماً آخَرَ غيرَ موسم المشقَّر، وحَسِبَ موعدَ ارتحال الناسِ، في شهر ربيعِ الآخِرِ، من دُومة الجندل إلى مدينة هَجَر، موعداً لقيام موسم هجر[4]، فجعل بذلك مسيرةَ ما بينهما يوماً، بينما هي في الحقيقة أكثر من شهر! على أن التوحيديَّ، وهو من نَقَل عنه القلقشنديُّ، تَنَبَّه للأمر فقال: «ثم ينتقلون إلى سوق هَجَر، وهو المشقَّرُ، في

(١) معجم البلدان: ٢/ ٣٧٨.

(٢) المحبَّر: ٢٦٥، والأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٢، وخزانة الأدب: ٤/ ٣٦٠.

(٣) صبح الأعشى: ١/ ٤٦٨.

(٤) بلوغ الأرب: ١/ ٢٦٥.

شهر ربيع الآخِر»[١]. . ثم وَهِمَ الأفغانيُّ كذلك، فتابَعَ الآلوسيَّ على مذهبه، وجعل سوق هَجَر غيرَ سوقِ المشقَّر، ولمَّا أراد الكلامَ عليهما، كرَّرَ الأقوالَ نفسَها في كليْهما[٢]. . . وهذا كلُّه مُسْتَوْفىً في الباب الأول من هذا الجزء، ولا ضرورة لتكراره هنا، ونكتفي بالتأكيد على أن سوق هجر، وسوق المشقَّر إسمان لمُسَمّىً واحدٍ هو موسمُ سوق المشقَّر.

ويبدو أن موسم المشقَّر كان، كسائر المواسم، دينيّاً وتجاريّاً واجتماعيّاً في آن معاً. . فقد ذكر الأخباريُّون أنه كان بالمشقَّر صنمٌ لبني عبد القيس، إسمُهُ «ذو الْلِبَا»، سَدَنَتُه منهم بنو عامر بن الحارث[٣]. ولعلَّهم كانوا، إذا انعقد موسمُ السوق، يَنْسُكُونَ لهذا الصَّنَم، ويطوفون به، فِعْلَ العربِ في سائر المواسم الأُخرى، وأكادُ أُرجِّحُ أن نُسكَهم كان يُباشَرُ عند انْفِضَاضِ السوق، ذلك أن موعد انْفِضَاضِها يتّفقُ غالباً مع موعد عيد الفِصح، أو يكون قريباً منه، وكانت كثرةٌ من أهلِ هَجَر على النصرانيَّة يومئذٍ.

ولكن الطريف في نُسْكِهم أن تلبيتهم كانت: «لبَّيْكَ اللهمَّ لبَّيْك، لبيك ربِّ فاصْرِفَنْ عنّا مُضَر، وسَلِّمنْ لنا هذا السَّفَر، إن عمّا فيهمُ لَمُزْدَجَرْ، واكْفِنَا اللهمَّ أربابَ هَجَر»[٤]. . فانظرْ إلى هذا النصّ كيف يُبيِّنُ لنا أن السلطانَ على بلادِ هَجَر وسائرِ ما كان يُسمَّىٰ بإقليم البحرين كان لبني تميم من مُضَر بن نزار، فكان بنو عبد القيس، وهم من ربيعة بن نزار، يدعون الله أن يَصْرِفَ عنهم بني مُضَر، ويَكْفيَهم أربابَ هَجَر، أي ملوكَها، وكانوا من تميم، من

---

(١) الإمتاع والمؤانسة: ١/ ٨٤.
(٢) أسواق العرب: ٢٤٠ ـ ٢٥١.
(٣) جمهرة أنساب العرب: ٤٩٣، والمحبَّر: ٣١٧.
(٤) المحبَّر: ٣١٤.

بني عبد الله بن زَيْد، قَومِ المنذرِ بن ساوَىٰ مَلكِ هَجَر وسائر مُدُنِ الخليج، عند ظهور الإسلام. وكان هؤلاء حُكَّامَ سوقِ المشقَّر، يسيرون فيه بسيرة الملوك في دُومَة الجُنْدَل[1]، فيبيعون ويشترون ما شاؤوا من التجارات قبل الناس جميعاً، وتُجْبَىٰ إليهم العُشُورُ من التجَّار.

وعلى ذلك فإن وُلاةَ موسم المشقَّر هم أنفُسُهم ملوكُ هَجَر، وكان آخِرَهم المنذرُ بن ساوَىٰ بن الأَخْنَسِ العَبْديّ، وقد زعم ابنُ الكلبيّ أنه من بني عبد القيس، وهو غَلَطٌ منه، أشار إليه العَسْقلانيُّ، وأَوْضَحَ أنه عَبْدِيٌّ نسبةً إلى جَدِّه عبد الله بن دارم، وأن رسولَ الله، عليه السلامُ، كتَب إليه فأسلم، وظلَّ على عمله لم يَعْزِلْهُ عنه[2]. وقيل إنه جعل معه على البحرين وقتئذٍ العَلاءَ بنَ الحضرميّ، وهو صحابيٌّ أصلُه من حضرموت، وُلِدَ ونشأ بمكة[3]، ووَلاَّهُ جبايةَ الصَّدَقة من بعض مَن تَجِبُ عليهم، ولعلَّ ذلك كان في القطيف فقط، بدليل أنه كتب إليه بعدئذٍ يأمرُهُ أن يبعثَ ما اجتمع عنده من الصَّدَقةِ، ويُخْبِرُهُ بأنه بعث إلى المنذر مَن يقبضُ منه ما اجتمع عنده منها[4].

ولكن أهل الأخبار ذكروا ههنا أشياء لا بدَّ أن نتوقَّفَ عندها قليلاً لمناقشتها والتعليق عليها. فالمعلومُ أن جُلَّ سُكَّانِ البحرين كانوا من بني عبد القيس وبكر بن وائل وتميم، وهم بين وَثَنيَّةٍ ونصرانيَّةٍ، إلى شَراذِمَ من

---

(١) المحبَّر: ٢٦٥، والأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٢، وصبح الأعشى: ١/ ٤٦٨، ونهاية الأرب: ٤٦٤. وتاريخ اليعقوبي: ١/ ٢٧٠.

(٢) الإصابة: ٤/ ٤٣٩ (ت: ٨٢١٨)، والطبقات: ١/ ٢٦٣، وجمهرة أنساب العرب: ٢٣٢.

(٣) السيرة لابن هشام: ٢/ ٥٧٦.

(٤) الأعلام: ٤/ ٢٤٥، والطبقات: ١/ ٢٦٣، ٢٧٦، ومعجم البلدان: ١/ ٣٤٨، وتاريخ الطبري: ٣/ ١٣٧، والكامل: ٢/ ٣٠١.

مَجُوسٍ ويهود[1]، وكانت هنالك جاليةٌ من الأعاجم تُستخدم في زراعةِ الأرض والأعمالِ المختلفةِ، مُعْظَمُها من فارسَ، وفيها من الهند والسِّنْد، وهي التي رفض أكثَرُها الدخولَ في الإسلام، ففُرِضَت عليها الجزيَةُ، وكان أَحَدُ مُقَدَّميها أو رؤسائها، واسْمُهُ «سِيبُخْت»، كتب إلى رسول الله، عليه الصلاةُ والسلام، يطلبُ الشفاعة لقومه، فَشَفَّعَهُ فيهم، وسمَّاهُم بني عبد الله[2]. . ثم زعم الأخباريون بعد ذلك أن رسول الله كتب إلى سِيبُخْت «مَرْزُبَانِ هَجَر»[3]، أو السِّيبُخْتِ «صاحبِ هَجَرٍ»[4]، مع أن الرجلَ لم يكن رئيسَ هَجَرٍ ولا صاحِبَها، وإنما كان رئيسَ جالية توطَّنَتِ البحرين، واستعربت، ثم أرادت من بني عبد القيس إلحاقَها بأنسابهم، فأَبَوْا عليها ذلك، وكانوا يَعُدُّونها من مواليهم لا أكثر[5]. . . وزعم الأخباريون كذلك أن رسول الله كتب إلى «الهلال صاحبِ البحرين»[6]، فمن هذا الهلالُ الذي ظهر فُجاءَةً وجُعِلَ صاحبَ البحرين؟ وكيف يكون مَلكَ البحرين ولا يُعْرفُ له أَبٌ أو جَدٌّ أو نَسَبٌ إلى قبيلة من قبائل العرب؟ والجواب واضح طبعاً، فالرجلُ لم يكن غيرَ ترجُمانٍ بين المسلمين والجالية الفارسية، واشتُهِر باسم

---

(١) المفصَّل: ٤/ ٢٠٣، ٢١٠.

(٢) الطبقات: ٢٧٥.

(٣) معجم البلدان: ١/ ٣٤٨.

(٤) الطبقات: ١/ ٢٧٥.

(٥) إن الصُّلْحَ، الذي أمضاهُ المنذرُ بن ساوى والعلاءُ بنُ الحضرميّ لمن رفضوا الدخولَ في الإسلام، من سكان البحرين، سمَّاهُم «أهلَ الأرض من المجوس واليهود والنصارى»، أي مَن كانوا يَتَعَهَّدُون الأرض بالفِلَاحة والزراعة، بدليل قوله: «على أن يكْفُونا العملَ ويُقَاسِمُونا الثمر»، وهذه إشارةٌ إلى أن معظم هؤلاء كان من الأعاجم المستوطنين. (معجم البلدان: ١/ ٣٤٨، والكامل: ٢/ ٢١٥).

(٦) الطبقات: ١/ ٢٧٥.

هلالٍ الهَجَرِيّ[1]، أي أنه لم يكن عربيّاً، ولو كان كذلك لَنُسِبَ إلى آبائه، والأمرُ كلُّه مَحْضُ افتراءٍ وتَزْوير، اخترعوهُ حُجّةً تُبرِّرُ زعمهم بأن ملوكَ العرب من بني عبد الله بن زيد كانوا عُمَّالاً للفُرس على هَجَرٍ والخليج العربيّ، وأن هذا الإقليم كان في مملكة الفُرسِ عندما فتحه المسلمون، وأن المنذرَ بنَ ساوى كان من قِبَل الفُرس[2].

وهذا كلُّه زعمٌ غيرُ صحيح قطعاً، تَدْحضُه وقائعُ التاريخ، إذا ما أُحْسِنَ استقراؤها، فضلاً عن افتقاره إلى دليلٍ تاريخيّ واحدٍ على الأقلّ يُؤيِّدُ شيئاً ممَّا جاء فيه[3]، أو يُشير، من قريبٍ أو بعيد، إلى وجودِ كتيبةٍ أو جيشٍ للفُرس بالبحرين، أو في الخليج العربيّ، سواء في الجاهلية أو عند ظهور الإسلام. وكنتُ، في مناقشتي لدعوى القائلين بسُلْطان الفُرس على بعض بلاد العرب، أو أسواقِهم، تحدَّثتُ حديثاً مُسْهَباً، مُؤيِّداً بالأَدِلَّة التاريخيّة[4]، برهنتُ فيه على أن هذا المذهبَ باطِلٌ، وأنه دعوى لَفَّقَها بعضُ أهل الأخبار من الغُلاَةِ، للتهوين من شأن العرب، وإعلاءِ شأنِ الفُرس، والإيحَاءِ بأن أرضَ الخليج جزءٌ من أرضهم، مع أن قبائل العرب كانت وقتئذٍ مُتَوطِّنَةً شاطِئَيْ الخليج معاً، وكانت في الشاطىء الشرقيّ تنتشِرُ ما بين مَيْسَانَ وكَرْمان... وأُحبُّ أن أضيف هنا دليلاً آخَر، فقد كتب رسولُ الله، عليه السلام، في نحو السنة السادسة للهجرة إلى كسرى أبرويز يحضُّه على الإسلام، فغضب ومزَّق الكتابَ، وكتب إلى باذانَ الفارسيّ باليمن يأمره أن يأتيه

---

(١) المفصَّل: ٤/٢١١، ٢٢٧.

(٢) المحبَّر: ٢٦٥، ومعجم البلدان: ١/٣٤٧، والأزمنة والأمكنة: ٢/١٦٢، والسيرة لابن هشام: ٢/٦٠٧.

(٣) المفصَّل: ٢/٦٣٨ ـ ٦٣٩، و٢/٦٤٧، و٤/٤٨٦.

(٤) أنظر المطلبَ الثاني من الفصل الرابع في الباب الخامس من الجزء الأول من هذا الكتاب.

برسول الله عليه الصلاةُ والسلام[1] . . فما بالُه لم يكتبِ إلى مَن زعموا أنه عامِلُهُ على هَجَر؟ هذه واحدة، والأُخرى: كتب رسولُ الله في الوقت نفسه إلى المنذر بن ساوَىٰ صاحبِ هَجَر وسائرِ إقليم البحرين أو الخليج، ودعَاهُ بدعوة الإسلام، فأجاب، وأسْلَم معه جميعُ العربِ هناك وبعضُ العجم[2] . . ولم يَرِدْ في الأخبار ما يُشير إلى أن المنذرَ شاوَرَ الفُرسَ أو مَلِكَهم في هذا الأمر، وإنما ورد أنه فَرضَ الجزيةَ على من رفض الدخولَ في الإسلام، وهذا معناه أنه كان صاحبَ الأمر في ذلك الإقليم من بلاد العرب، ومعناهُ كذلك أنه لا صحَّة لما زعمه الأفغانيُّ عن رُضُوخ ملوك المشقَّر إلى ملوك فارس، بالنصيب الأَوْفَىٰ من العُشُور التي يحصلون عليها في موسم قِيَام السوق[3]، ولا معنى لقوله بأن فارسَ كانت تبسطُ سلطانَها على سواحل الخليج وبَحْرِ اليمن[4] . . .

على أن هنالك أخباراً تُشِيرُ إلى أن نفوذَ «عمرو بن هند» ملكِ الحيرة (٥٥٤ ـ ٥٦٩ م)، اتَّسع حتى صارت جبايةُ كلٍّ ما بين الحيرة واليمامة تعودُ إليه، ويُشير بعضُها إلى وجود عُمَّالٍ له، تارةً على البحرين[5]، وتارةً على عُمَان والبحرين، وتارةً أخرى على البحرين وهجر[6]. ويتبيَّنُ من التحقيق في هذه الأخبار، أن إقليم البحرين كان تابعاً، في تلك الحقبة، إلى ملك الحيرة، وأن حاكمه كان عاملاً لعمرو بن هند، ويبدو أنه كان ربيعةَ بنَ الحارثِ العَبْديّ، ثم اعْتَزَلَ، فاستعملَ مكانَه المُعَلَّى بن حَنَش العبديّ الذي

---

(١) تاريخ الطبري: ٢/ ٦٥٤ ـ ٦٥٥.

(٢) معجم البلدان: ١/ ٣٤٨.

(٣) أسواق العرب: ٢٤٢ ـ ٢٤٤.

(٤) المرجع نفسه: ٢٥٤.

(٥) المفضَّل: ٣/ ٢٤٣ ـ ٢٤٤، ٢٤٦، ٢٤٨، والشعر والشعراء: ١٧٩، ١٨١، ١٨٦، ١٨٩.

(٦) شرح القصائد السبع: ١١٦، ١٢٣.

لُقِّبَ بالمُكَعْبِر لقَتْلِه طَرَفَةَ بنَ العَبْد[1]، بعدما قطع يَدَيْه ورِجْلَيه، بأمرٍ من الملك[2]. . .

ولا شك في أن لهذه الأخبار دَلاَلاتٍ أُخريَاتٍ غيرَ التي تحدَّثنا عنها، أوَّلُها أن إقليم البحرين كانت له تَبَاعَةٌ أحياناً إلى ملوك العرب بالحيرة حينما يَعْظم شأنُهم، وليس إلى ملوك فارس. وثانيها أن حُكَّامه لم يكونوا دائماً من بني عبد الله بن زيد، من تميم، فربيعةُ بنُ الحارث، والمُعَلَّى بنُ حَنَش ربما كانا من عبد القيس، ولعلَّ ذلك كان في زمن عمرو بن هند فقط. ذلك أن الأخباريين مُتَّفقون على أن مُلوك هَجَر كانوا من بني تميم، من بني عبد الله بن زيد[3]، وأن عبدَ الله بنَ زيدٍ هذا هو الأَسْبَذِيُّ، نُسِبَ إلى «الأسْبَذِ»، وهي قريةٌ بهَجَر[4]، ثم غلبتْ هذه النسبة على أبنائه. ولكن هنالك من يقول إنه كان من الأَسْبَذِيِّينَ، وهم قومٌ كانوا يعبدون الخَيْلَ بالبحرين في رأيٍ، أو قومٌ من المجوس كانوا مَسْلَحةً لحصن المشقَّر في رأيٍ آخَر، إلى زَعْمٍ بأن الأَسْبَذَ إسْمُ مَلِكٍ من الفُرس ولاَّهُ كسرى على البحرين، فأَذَلَّهم واسْتَعبدهم. . وقائلُ هذا فَسَّرَ بنَزْعةٍ فارسيّةٍ قولَ طَرَفة بن العبد يعتب على قومه:

---

(١) طرفَةُ بنُ العَبْد البكريُّ الوائليُّ: أبو عمرو، شاعر جاهليٌّ من الطبقة الأولى، وُلد في بادية البحرين، وتنقَّل في بقاع نجد، واتصل بالملك عمرو بن هند، فجعله في نُدَمائه، ثم وَجَد عليه إذ بلغه أنه هجاه، فأرسله بكتابٍ إلى ربيعة بن الحارث عاملِه على البحرين، أوْهَمَهُ فيه بأنه أمَرَ له بجائزة كبيرة، وهو إنما أمر بقتله، وكان ربيعةُ من أقارب طَرَفة، فلم يفعل واعتزل عمله، فنَصب عمرو مكانَه المكعْبِرَ، فقتله نحو سنة (٥٦٤ م)، وكان ما يزال شابّاً في العِشْرينات.

(٢) المفضَّل: ٣/ ٢٤٤ ـ ٢٤٥، والأعلام: ٣/ ٢٢٥، والشعر والشعراء: ١٨٦.

(٣) المحبَّر: ٢٦٥، والأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٢، وتاريخ اليعقوبي: ١/ ٢٧٠. . .

(٤) جمهرة أنساب العرب: ٢٣٢، ومعجم البلدان: ١/ ٣٤٧.

خذُوا حِذْرَكم، أهلَ المُشَقَّرِ والصَّفا عَبِيدَ «اسْبَذٍ»، والقَرْضُ يُجْزَىٰ من القَرضِ[1]

والأقربُ أن يُقال إن «الأَسْبذَ»، بدلالة هذا البيت، لم يكن اسم قريةٍ، بل إسماً أو لقَباً فارسيّاً لرجُلٍ عربيّ، لعلَّه عبدُ الله بنُ دارم[2]، وكان ذلك مألوفاً في بلاد البحرين، وقد عُرِفَ أن فريقاً من بني تميم كانوا على المجوسيّة، وأن بعضَهم كان يُسمِّي أولادَهُ بأسماءٍ فارسيّةٍ. . والأَسْبَذُ تعريبٌ لكلمة «أسبيذ» ومعناها: الأبيضُ، والمُضيء، وربما الميمونُ والمُبَارَكُ وربما كانت تعريباً لكلمة «أسْبْ بازي» ومعناها: الفارسُ والفروسية[3]. وذهب جواد علي إلى أن «الأَسْبَذِيَّة» يُراد بها الفُروسية، وهي درجة من الشرف والرفعة في الجيش الفارسي[4]. أي أنه ردَّها إلى كلمة «إسپاهْبُد» ومعناها أمير الجيش، أو قائدُ الجند، أمَّا الفُروسيّة فيقابلُها في الفارسية كلمةُ «أسْبْ بازي»، وكلمة «أسْبَ» تعني الجوادَ أو الفَرسَ[5]، ومن هنا مذهبُ من زعم أن الأسْبَذِيّين كانوا يعبدون الفَرَسَ، وهو تفسير غير صحيح كما يَتَّضِحُ من السِّيَاق. فالأسْبَذِيُّون هم أبناءُ عبدِ الله بن زيد، أوَّلِ من نُسِبَ إلى الأَسْبذِ، أي الفارس، أو المَيْمون المبارك، وكانوا حكَّامَ البحرين، ومقامُهم حصنُ المشقَّر بهَجَر لا يبرحونه، وفي ذلك قال مالكُ بن نُوَيْرة التميمي:

---

(١) تاج العروس: ٩/ ٤١٧، ولسان العرب: ٣/ ٤٩٣ (سبذ)، والمفصَّل: ٤/ ٢٠٣، ومعجم البلدان: ١/ ١٧١ ـ ١٧٢. والقَرْضُ: ما يَتَجازَىٰ به الناسُ بينهم ويَتَقَاضَوْنَه، وهو ما أَسْلَفَهُ أَحَدُهم من إحسانٍ ومن إساءة.

(٢) عبدُ الله بنُ دارم: جَدُّ عبدِ الله بنِ زيد أوَّلِ الأَسَابِذَةِ أو الأَسْبَذِيّين من بني تميم.

(٣) المعجم الذهبي: ٦٥، ٦٦، ٣٧٧، ومن ذلك قولهم: دِرَمْنَه إسْپيذ، وهو نبتٌ جبليٌّ يَبْيضُّ إذا يبس (تهذيب الصحاح: ٧١٦ ـ ٧١٧)، والمعجم الذهبي: ٢٩٤.

(٤) المفصَّل: ٦/ ٦٩٤.

(٥) المعجم الذهبي: ٦٥.

أَبَىٰ أن يَريمَ الدهر وَسْطَ بيوتكم   كما لا يَريمُ الأَسْبَذِيُّ المُشَقَّرا[1]

* * *

المطلب الثالث ـ شُهود الموسم:

كان يقصدُ سوق المشقَّرِ في موسمها تُجَّارٌ من مختلف أنحاء جزيرة العرب، يأتُونَها على ما كان في الطريق إليها من مشقَّةٍ وخَطَرٍ. وفي حديث أمير المؤمنين عمر بن الخطاب: عَجِبتُ لتاجِرِ هَجَر وراكبِ البحر[2].. أي أن التاجِرَ القاصِدَ إليها بَرّاً وراكبَ البحرِ سواءٌ في الخَطَرِ.. وكان تُجَّارُ فارسَ يَقْطَعُون البحرَ إليها ببِيَاعَاتِهم، ثم يَنْقَشِعُون عنها إلى مِثلها من قابِلٍ[3]. ومن الطبيعي أن تنزلَ السوقَ أحياءٌ من بني عبد القيس، وتميم، وبكر بن وائل، وأن يَقْدَمَها تُجَّارُ مُدُنِ الخليج بما تَوافَرَ لهم من العُروضِ والغَلَّات والصناعات، يبيعونها من الراغبين فيها، ويشترون ما كانوا بحاجة إليه.

وكانت قبائل عبدِ القيسِ وتميمٍ جيرانَها، أي أنها كانت تقومُ بحمايتهم، وجِوَارِهم، وخفارتهم، ذلك أن جميعَ مَن كان يأتيها مِن التجَّار، لا يستطيع الوصولَ إليها إلا بخُفَارةٍ، ومن كان يأتيها من بلاد مُضَر، يَتَخفَّرُ ببعض قبائلِ مُضَر، فيُجيرُه سائِرُها أينما كانوا على طريقه. ومن كان يأتيها من بلاد ربيعة، يَتَخفَّرُ ببعض قبائلها، وكانت ربيعةُ منتشرةً بين العراق والخليج العربي واليمامة، وكانت مُضَرُ أهلَ الكثرة والغَلَبَةِ في نجد والحجاز وتهامة، وكانت كلب وقضاعة في بادِيَتَيْ الشام والسَّمَاوَةَ، وتَرْبطها أحلافٌ

---

(١) معجم البلدان: ١/ ١٧٢، والرَّيْمُ: البَراحُ، ورامَ أي بَرِحَ.

(٢) تاج العروس: ١٤/ ٤٠٦، ولسان العرب: ٥/ ٢٥٧ (هجر).

(٣) المحبَّر: ٢٦٥، والأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٢ ـ ١٦٣، والمفصَّل: ٧/ ٣٧٣.

مع ربيعة ومُضَر. . وعلى ذلك يمكن القولُ بأن الأَمْنَ كان غالباً على طرُق التجارة إلى هَجَر، وإن كانت طُرُقاً وَعرةً مُتْعِبَةً.

* * *

المطلب الرابع ـ طرائق البيع:

زعم الأخباريون أن بَيْعَهم في سوق المشقَّر كان بإحدىٰ طرائقَ ثلاثٍ: بيع المُلامَسَةِ، وبيع الهَمْهَمَةِ، وبيع الإيماء. فأمَّا المُلامَسَةُ فأكثَرُ صُوَرِها وضُوحاً أن يُجعَلَ لمسُ السلعةِ بيد المشتري قاطعاً للخِيَار، ومُوجِباً للبيع، من غير صيغة كلام. وأما الهَمْهَمَةُ فهي تَرديدُ الصوت في الصَّدْرِ من غير بيان، لكيلا يحلفَ أحدُهم على كـذبٍ، إن زعم المشتري أنه قد بدا له. وأمَّا الإيماءُ فهو الإشارة بالرأس، أو باليد، أو بالعين، علامةً على وجوب البيع، فكان بعضُهم يُومىءُ إلى بعضٍ، ولا يتكلَّمون، فيتبايَعُون ويَتَراضَون إيماءً[1]. . وقد حرَّم الإسلامُ بيعَ المُلامسة لأن الشكليَّةَ تطغى عليه. وكنت رجَّحتُ، في كلامي على خصائص الأسواق الموسميَّة[2]، أنَّ هذه البيوعَ، إن صحَّ أنها كانت مُتَّبعةً في المواسم الكبرى، فما ذلك إلا بسببِ الجهل، وهو جَهلُ الأعاجم لغةَ العرب، أو بسبب اللبْس، وهو لَبْسٌ لاختلاف لهجات العرب وتبايُنِها في النُطق والدلالة. ومن الطبيعي أن هذه البيوعَ كانت تُسْبَقُ قطعاً بشكل من أشكال المُسَاوَمة بين المتبايعين، وإلا فإن اتِّبَاعَها إنما كان بقصد اللهو والمقامرة، إلى جانب الطريقة الطبيعية القائمة على المساومة الحرَّة بين المتبايعين.

* * *

---

(١) المحبَّر: ٢٦٥، والأزمنة والأمكنة: ٢/١٦٣، وبلوغ الأرب: ١/٢٦٥ ـ ٢٦٦، ولسان العرب: ١٢/٦٢٢ (همم)، و١٥/٤١٥ (ومى)، و٦/٢١٠ (لمس).

(٢) انظر المطلب الرابع من الفصل الثاني في الباب الأول من الجزء الأول.

الفصل الخامس

موسمُ سوقِ حُباشة

الحُبَاشَةُ الجَماعةُ من الناس، ويُقال: في المجلس حُبَاشَاتٌ من الناس، أي ناسٌ ليْسُوا من قبيلةٍ واحدة، وكذلك الأحابيش(١). وحُبَاشَة اسمُ قريةٍ بتهامة، واسمُ سوقها القديمة(٢). ولعلّ القريةَ سُمِّيتْ بذلك لأن أهلها لم يكونوا من قبيلةٍ واحدة، بل خليطاً من بطونٍ أو قبائلَ مختلفة، وإن كانت أخبارُ السوق تُشِيرُ إلى أنها كانت للأَزْدِ(٣)... وحُبَاشَةُ أيضاً كانت سوقاً أخرى لبني قَيْنُقَاعَ في الجاهلية(٤).

والطريفُ في لَفْظِ حُبَاشَة أنه كان السبَبَ في تأليف ياقوتَ كتابَهُ المعجمَ في أسماء البلدان، فقد ذكر في مُقَدّمته أنه سئل في مجلسٍ بمَرْو، عاصمةِ خُراسانَ، عن حُبَاشَة، إن كانت بضمِّ الحاء أو بفتحها، فأجاب أنها بالضمِّ قياساً على أصل اللغة، لأن الحُبَاشَةَ الجماعةُ من الناس، من قبائل

---

(١) لسان العرب: ٦/ ٢٧٩ (حبش).

(٢) تاج العروس: ١٧/ ١٢٢ (حبش).

(٣) الأَزْدُ: من أكبر قبائل العرب، تنتسبُ إلى الأَزْدِ بن الغوث، من عرب اليمن. وقد تَفَرَّقتْ ثلاثَ فِرَقٍ كبرى: أَزْدِ عُمَانَ، وأَزْدِ سَراةِ اليمن، وأَزْدِ شنوءة نزلوا تِهامةَ عَسِير بجوار خَثْعَم بن أنمار، وأشهرُ بطونهم: دَوْسُ بنُ عُدْثان، وبارِقُ، وهو سعدُ بن عدي، وغامدُ بن عبد الله. ومن سلالة الأزد: قبائلُ غسَّانَ والأَوْسِ والخَزْرَجِ وغيرُها.

(٤) تاج العروس: ١٧/ ١٢٢.

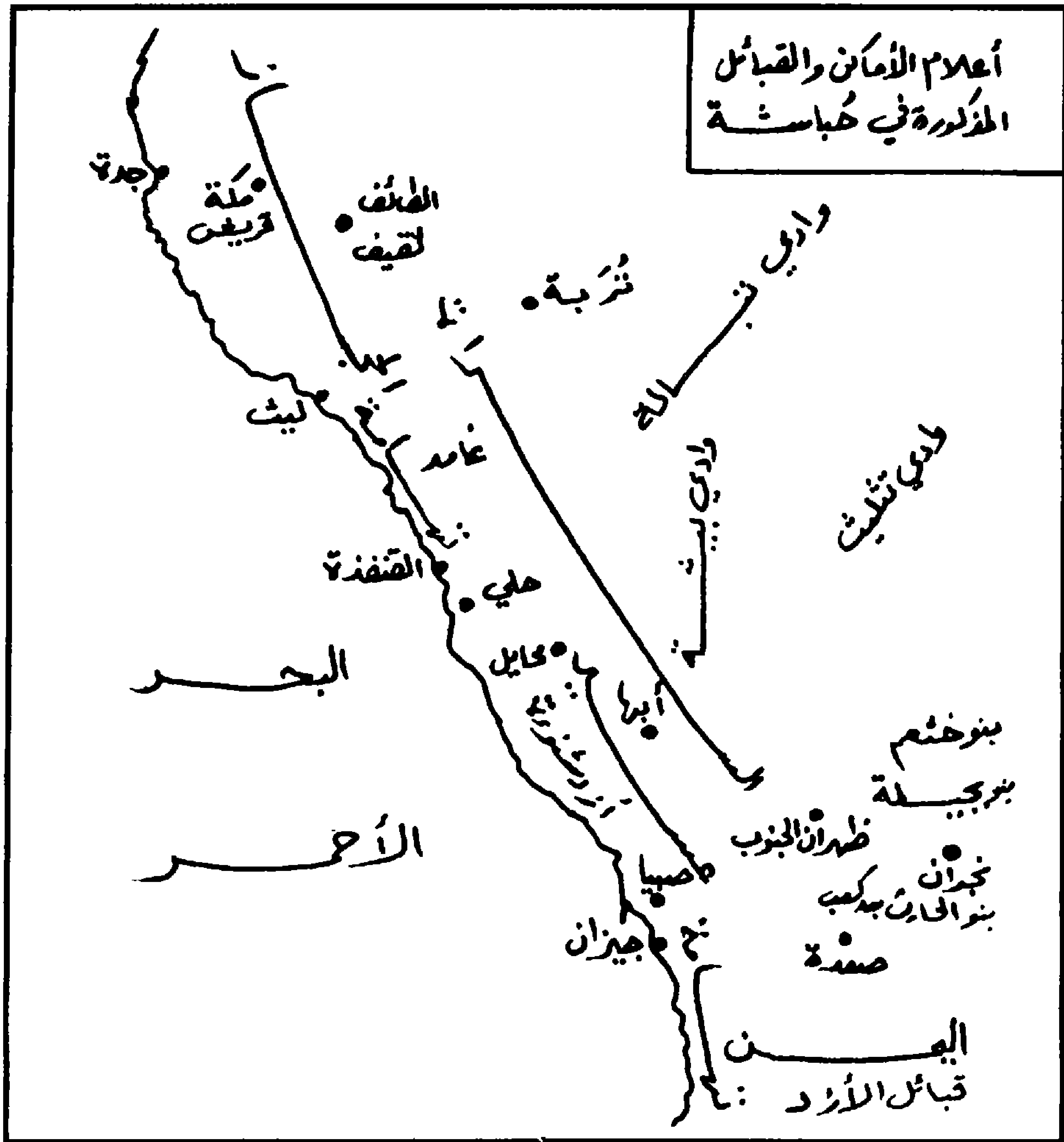
شتَّى، وهي موضع سوق من أسواق العرب في الجاهلية، فانبَرىٰ له رجُلٌ من المجلس، وقـال: إنما هي حَبَاشَة، بالفتح، وصَمَّمَ على ذلك، وكابَرَ من غير حُجَّة. . فأُلْقِيَ في رُوعِ ياقوت يومئذٍ افْتِقَارُ الناس إلى كتابٍ مُتْقَنٍ، يضبطُ أسماءَ الأمكنة، فكان لفظُ حُبَاشَة أوَّلَ البواعِث لجمع هذا الكتاب وتأليفه[1]. . . ومع ذلك فإننا لم نظفر منه بطائلٍ عن موقع هذه السوق، ومَوْضع قيامها، إلا قوله إنها كانت بتهامة[2]، وتِهامَةُ غَوْرٌ على ساحل البحر الأحمر، يمتدُّ من عدن إلى شمال جُدَّة، وتمتدُّ في شرقها جبالُ السراة من أقصى اليمن حتى تتَّصِلَ بالشام.

غير أن الأزرقيَّ ذكر عن سوق حُبَاشَة ما هو أكثَرُ دِقَّةً ودلالةً، فعَيَّنَ موقعها، وحدَّد موعدَ قيامها، وذلك عندما نصَّ أنها كانت سوق الأَزْدِ، تقومُ في قرية **الأَوْصَام** من ديار بارق، بأوَّل وادي قَنَوْنَىٰ وحَلْيٍ من ناحية اليمن. وتقعُ من مكة على ستِّ ليالٍ، أي مسيرة نحو مئة وخمسين ميلاً على الإبل، وهي آخِرُ سوق خربت من أسواق الجاهلية، وكان والي مكة في الإسلام يستعملُ عليها عاملاً، يخرجُ إليها بجُنْدٍ، فيُقيمون بها ثلاثةَ أيام، من أوَّل رجب، مُتَوالية، حتى قتلتِ الأزْدُ عاملاً عليها من بني غنيّ، سنة (١٩٧ هـ)، فأشار فقهاءُ أهلِ مكة على داود بن عيسى، والي مكة (١٩٣ ـ ١٩٩ هـ)، بتخريبها، فخربها، وتُرِكت إلى اليوم[3]، أي إلى أيام الأزرقي.

وتوضيحاً لبعض ما جاء في النص من أعلام الأماكن، نقول: إن بني خَثْعَم بن أنمار كانوا ينزلون، مع إخوتهم من بني بَجِيلةَ بن أنمار، في جبال

---

(١) معجم البلدان: ١/ ١٠.
(٢) المرجع نفسه: ٢/ ٢١٠ ـ ٢١١.
(٣) أخبار مكة: ١/ ١٩١ ـ ١٩٢.



السَّراة، سراةِ عَسِير بين الحجاز واليمن[1]. ولمّا تفرَّقت قبائلُ الأزد، نزلت أزْدُ شنوءَة، وهم بنو دَوْسٍ، وبنو غَامِد، وبنو بارق. من سَراةَ عَسِير إلى تِهامَة على البحر، وبارقُ هو سعدُ بن عديّ، غَلَبَ عليه اسمُ بارق، وهو جبلٌ هناك، يتصلُ به وادٍ واسعٌ عظيم، ينحدرُ إلى تِهامَة عَسير، وهي سهلٌ كبيرٌ خصبٌ، كثيرُ الخيرات، يمتدُّ على ساحل البحر الأحمر، وميناؤه القُنْفُذَة.

---

(١) نهاية الأرب: ٢٤٣.

والأَوْصَام هي التي ذكرها الزبيديُّ باسم «الوَصْم»، وهي قرية بأوّلِ «قَنَوْنَىٰ»، وهو وادٍ من أودية السراة، يمتدُّ من جبال خَثْعَم إلى القنفذة، عند حدود أرض اليمن للقادم من مكة[1]. . . وإذا علمنا أن الوَصْمَ من معانيه العَيْبُ في الحسَب[2]، رَجَح لدينا أن القرية إنما سُمِّيت بذلك لأن أهلها لم يكونوا من أصل واحد، أو من نَسبٍ واحد، وهذا يُفسِّرُ تَسميتها فيما بعد بالحُبَاشَة. وعلى ذلك فإن موقعَ حُبَاشَة هو قريةُ الوَصْم عند أوّل وادي قَنَوْنَىٰ من ديار بارق.



وكان في هذه السوق مثلُ ما كان في سائر المواسم: تجارةٌ، وفداءُ أسرى، والبحثُ عن الوَاتِرِينَ طلباً للثأر منهم، وبيعُ رقيق، إلى ما هنالك من أغراض مختلفة. . . وقد تاجَرَ فيها رسولُ الله، عليه السلامُ، وجاء في حديث ذلك، أنه لمّا اسْتَوىٰ وبلغَ أَشُدَّهُ، وليس له كثيرُ مالٍ، استأجرتْهُ خديجةُ بنتُ خُوَيْلد إلى سوق حباشة، وهي سوقٌ بتِهَامة، واستأجرتْ معه رجُلاً آخَرَ من قريش، فكان من قول الرسول عليه السلام، وهو يُحدِّثُ عنها: ما رأيتُ من صاحبةِ أجيرٍ خيراً من خديجة، ما كنا نرجعُ أنا وصاحبي، إلا وجدنا عندها تحفةً من طعام تُخبِّئُهُ لنا[3].

وكان الشاعرُ الشَّنْفَرىٰ يُغِيرُ على منازل الأزد بتهامة، مع بعض بني فَهْم، ثم إنه قتل رجلاً منهم، فتَعقَّبُوهُ حتى رآهُ أحدُهم في سوق حُبَاشة،

---

(1) معجم البلدان: ١/ ٣١٩، و٢/ ٢٩٧، و٤/ ٤٠٩، وجمهرة أنساب العرب: ٤٧٣، وأخبار مكة: ١/ ١٩١ ـ الحواشي: ٧، ٨، و١/ ٣٨٢.

(2) لسان العرب: ١٢/ ٦٣٩ (وصم).

(3) معجم البلدان: ٢/ ٢١٠ ـ ٢١١.

فأسْرَعَ إلى قومه يُنبِئُهم بالأمر، فكمَنُوا له في بعض الطريق، ينتظرون مُنْصَرفَهُ من السوق. فلما انقضى الموسم، خرج الشَّنْفَرىٰ من السوق في جَوْفِ الليل، وقد خَلَعَ نَعْلاً، وأَبْقَىٰ على الأُخرى في قَدَمِه. ليُخْفِيَ وطْأَهُ على الأرض، وكان من زعماء الصعاليك العَدَّائين، فجعل يَعْدُو في كلِّ عَدْوَةٍ ما يَعْدِلُ عشرين خطوةً، أو نحوَها، ولكنهم مع ذلك أحَسُّوا به، فوثبوا عليه، وأخذوهُ، ثم انطلقوا به إلى قوم القتيل فقتلوه به[1].

* * *

(١) الأغاني: ٢١/٢٠٧ ـ ٢٠٩.

إقليم عُمَـــان



الفصل السادس

مواسم عُمَان

يقعُ إقليمُ عُمَانَ في أقصى الجنوبِ الشرقيّ من جزيرة العرب، وهو في شَرْقِيِّهَا كاليمن في غَرْبِيِّهَا، ويضُمُّ بُلداناً وقُرى ومرافىءَ كثيرةً، اشتُهِرَ منها: دَبَا، وصُحَار، ودَمَا، وتُؤام، ومسقطُ، ونَزْوَىٰ وغيرها[1]. . وهو في جُمْلَتِهِ إقليمٌ جَبَليٌّ خصيب، ينحدر إلى سواحِلَ على البحر شديدةِ الحرارة، وأهْلُهُ مَلاَّحُونَ مَهَرَةٌ، خَبِرُوا البحارَ، وعَرفُوا أسْفارَهَا منذ آمَادٍ بعيدة[2]. . تكْثُر فيه المناطقُ المزروعةُ بالنخيل، وأشجارِ الفواكهِ، كالموزِ والتِّينِ والرمَّانِ، وغيرِها من الزروع. أعظمُ جباله الجبلُ الأخضرُ، ويمتاز بكثرة ما فيه من الينابيع العظيمة، وقد أَحْسَنَ أهلُه توزيعَ المياه، وتصريفَها، والانتفاعَ بها.

وعلى ذلك كانت بعُمَانَ مَعَايِشُ وافِرَةٌ، ومَتَاجِرُ كثيرةٌ، وذَخَائِرُ مُتَنوِّعَةٌ، ومَعَادِنُ جَيِّدةٌ، وغَلاَّتٌ طيِّبَةٌ. . وإليها يُنسَبُ العَنْبرُ العُمَانيُّ المشهور، كان يُستَخرَجُ ويُحَضَّرُ بها، وكانت تُصنع بها أنواعٌ من النسيج، ويُحْمَلُ إليها الوَرْسُ من اليمن لاستعماله في صبغ الثيابِ المصنوعةِ من نَسْجِها، وجاء في الحديث أنه، عليه السلام، كان يَلبسُ إزاراً من نَسْج عُمَان[3]، وأنه كانت عليه حُلَّةٌ من

---

(١) معجم البلدان: ٤/ ١٥٠.

(٢) مهد العرب: ١١٤.

(٣) الطبقات: ١/ ٢٥٠.

نسج عُمَان[١]. . . وكان يجري في أسواقها عرضُ البضائع وتبادُلُها بين تُجَّارِ اليمن وحضرموت والشِحْر والحجاز والشام والحبشة والهند وفارس وغيرها، فكان أهلُها يَجْمعون إلى تَفَوُّقهم في الزراعة والصناعة، نجاحاً في التجارة جعلهم في العرب من كبار المُوسِرينَ وأصحاب الثروات.

وكان معظمُ سكانِ عُمَانَ من قبيلة الأَزْدِ الكبرى، ويُشاركهم سُكْنَاها بطونٌ من قبائلَ عربيَّةٍ أُخَر، وجالِيَةٌ من الفَعَلَةِ الأعاجم، مُعْظَمُها من الفُرسِ والبُلُوش، قَدِمُوا إليها بالبحر، واستقرَّ بعضُهم في المناطق الزراعية للعمل في الحَرْثِ والزَّرْع، ونزل الآخرون في ضواحي بعض القرى الساحلية للعمل في المرافق العامَّة. ولكن مُلُوكَها والحكَّامَ فيها كانوا من الأَزْد، ولمَّا ظهر الإسلامُ كان عليها مَلِكانِ، هما جَيْفرُ، وعَبَّادُ، إبنا الجُلَنْدَىٰ بن كركر من بني المُسْتكبر، من الأزد[٢]، ويبدو أن أحدهما كان على الإقليم الذي يلي الجَبَلَ، والآخَرَ على المناطق التي تلي الساحِلَ، وهنالك من يقول إن جَيْفَرَ بن الجُلَنْدَى كان أَسَنَّ من أخيه عبَّاد، فكان هو الملك على كل عُمَانَ[٣]. وقد كتب إليهما رسولُ الله، عليه السلام، فأَسْلَما وأَسْلَم معهما كلُّ العربِ في عُمَان، وأَبىٰ الفُرسُ إلا أن يَظلُّوا على مَجُوسِيَّتهم، فقاتلهم المسلمون، وقتلوا «مسكانَ» رأسَهم، وفريقاً معه، فتحصَّنَ مَن بقيَ منهم في

---

(١) المرجع نفسه: ١/ ٣٢٧.

(٢) **الجُلَنْدَى، أو الجُلَنداء**: قيل إنه ليس إسماً، بل هو لقبٌ بمعنى الملك أو القَيْلِ في لهجة أهل عُمَان. ويبدو لي أن أصله فارسي مُعَرَّب، من مَقْطعين: كُلاه، ومعناهُ التاج، وآنْدَىٰ، ومعناهُ الأملُ أو الثناء، فيكون معنى الكلمة: تاج الأمل أو تاج الثناء. أنظر المعجم الذهبي: ٥٣٦، ٢١١، ٧٩، ٨١.

(٣) المفصَّل: ٤/ ٢٠٠.

ضاحيةٍ لهم قربَ مدينة «صُحَار»، تُسمَّى «دَسْتَجِرْد»[1]، فحاصَرَهم العربُ حتى اسْتَسْلَمُوا، ثم أبْحَرُوا عائدين إلى حيث كانوا من بلاد فارس[2].. ولا شك في أن هذه الجالية خلَّفتْ وراءَها بعضَ الآثار والعاداتِ الإجتماعية، وعدداً من المفرداتِ الأعجميةِ أَخَذَتْها العربُ عنهم، وتصرَّفَتْ بها، وهو ما جعل بعضَ مَن لا يُحْسِنُ قراءةَ التاريخ، أن يُصدِّق مَن نقلوا عن الموارد الفارسية، أن ملوك فارس كانت تستعملُ بني المستكبر ولاةً على عُمَان[3]، وأن يَعْتَقِدَ خَطَأً بأن وجود تلك الجالية بعُمان إنما كان سلطاناً فارسيّاً عليها، وأن دَسْتَجِرْدَ كانت عاصمةَ الفُرسِ بعُمان، وأن قلعةَ الرُّسْتَاقِ، وقلعةَ بَهْلاءَ كانتا من آثارهم[4]، مع أن التحقيق التاريخي لم يتوصَّل بعد إلى الزمن الذي بُنِيَتا فيه، وإذا كانت كلمةُ الرُّسْتَاق فارسيَّةَ الأصل، فإن معناها البيوتُ المُجْتَمِعة[5]، فما الدافعُ إلى تسمية القلعة بهذا الإسم، إن لم يكن محلُّها في الأصل بيوتاً كانت للفَعَلَةِ الفُرس، قبل إجلائهم عنها إلى مَوَاطِنهم بفارس، ثم دَرَسَتْ، ولمّا أُقيمت بموضعها هذه القلعةُ، غَلَب عليها اسمُ الرُّسْتاق، وهذا أمرٌ طبيعيٌّ.. أمَّا بَهْلاء، فقال ياقوتُ إنها بلدٌ قديم على ساحل عُمَان[6]، والمعروفُ اليومَ أن قلعة بَهْلاءَ تبعدُ عن مدينة نَزْوَىٰ نحو ثلاثين كِيلاً، وفي غيابِ كلِّ دليلٍ تاريخيّ، ليس هنالك ما يمنع أن تكون هذه القلعةُ بعضَ آثار ذلك البلد القديم، أو أن تكون بُنِيَتْ على أطلالها.. أمَّا الافْتِراضُ

---

(١) دَسْتَجِرْد: الدَّستُ الصحراءُ (لسان العرب: ٢/ ٣٣)، وهي فارسيةٌ أو اتفاق وقع بين اللغتين بحُكم الجوار. وجِرْدُ أصلُها كِرْدُ، ومعناها قريةٌ أو مدينةٌ، فتكون الكلمة: قرية الصحراء.

(٢) عُمَان والإمارات السبع: ١٢ ـ ١٣، ١٤، ٦٩.

(٣) المحبَّر: ٢٦٥، والأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٢.

(٤) مجلة العربي: العدد (٢٨٠) آذار ـ مارس ١٩٨٢، ص (١٠٠).

(٥) لسان العرب: ١٠/ ١١٦.

(٦) معجم البلدان: ١/ ٥١٦.

بأنها ربما بُنِيت أيامَ حُكم الفُرسِ لِعُمان[1]، فهو مما لا يصحُّ قطعاً، لأن الفُرسَ لم يحكُموا عُمَانَ قط، وليس في مراجع التاريخ، الغربيّة والشرقيّة على السواء، أيُّ ذِكرٍ مُؤكَّدٍ لسُلطانٍ كان لملوكِ فارسَ على عُمَان، إلا ما أضافه بعضُ الأخباريين الغُلاَة إلى الجالية الفارسيَّة فيها، فزعم أنها كانت جيشاً فارسيّاً يحكمُ قائدُهُ عُمَانَ باسم ملوك فارس، وهو كلامٌ غير صحيح، مَرَدُّهُ، كما حقَّق جواد علي، إلى رأيٍ افْتَرضَ فيه أَحَدُ الكتَبَة أن ساحِلَ عُمَانَ ربما خَضَع للفُرسِ أيَّامَ حُكْم أردشير (٢٢٤ ـ ٢٤٠ م)، بعد قضائه على مُقَاومة قبائل العرب، التي كانت تستوطن المناطقَ الجنوبيَّةَ من فارس، على الساحل الشرقي من الخليج العربي[2]، وهو رأيٌ باطلٌ مُؤَسَّسٌ على افتراضٍ من غير دليل.

وخلاصةُ القول أن عُمَان كانت إقليماً عربيّاً خالصاً بسَواحِلِه وجباله، تَتوطَّنُهُ قبائلُ الأَزْدِ الكبرى، وإلى جانبها بُطونٌ مختلفةٌ من قبائلَ عربيةٍ شَتَّىٰ، وكانت الحكومةُ فيه إلى مُلوكٍ من بني الأَزْدِ، في الأزمنة التي ظلَّتْ أخبارُها محفوظةً عند مَن دوَّنُوا الأخبارَ والتواريخَ في عصر التدوين.



ولا شك في أن بلاداً كعُمَانَ عَرفتْ في تاريخها القديم كثيراً من المواسم العامَّة، في كُبْريَاتِ المدُنِ والمرافىء، ولكن الأخباريين والمؤرِّخين، كما خَلُصْنَا في تحقيقنا بمواسم العرب عند القدماء والمتأخِّرين[3]، لم يثبت أنهم ذكروا لنا غير مَوسميْنِ في عُمَان، كان الأوَّلُ

(١) مجلة العربي: المرجع نفسه.

(٢) المفصَّل: ٢/ ٦٣٤، ٦٣٨، ٦٤٧، و٣/ ٥٢٧.

(٣) انظر كلامنا على مواسم العرب عند المُحدَثين في الفصل الثاني من الباب الأول.

منهما يقوم في مدينة «صُحَار»، والثاني في مدينة «دَبَا»، على خِلافٍ بينهم في تعيين مَوْعِدَيْهِما. . . غير أن ياقوت أضاف إليهما سوقَ «دَمَا»، وذكر أنها كانت أيضاً سوقاً من أسواق العرب المشهورة بعُمَان[١]، وعيَّنَ موقعَها في أوَّلِ بلاد عُمَان من جهة الشمال[٢]، ولعلَّها كانت بالقُربِ من «بَيْنُونَة» إلى الجنوب من قَطَر[٣]، ولم يذكر لنا شيئاً عن موعد قيامها. .

وأمَّا ما سَمَّاهُ الآلوسيُّ، ثم الأفغانيُّ، من الباحثين المُحْدَثين، بسُوقِ عُمَانَ[٤]، فليس له أيُّ سَنَدٍ من أخبار المؤرِّخين، ولم يكن أكثر من تَوَهُّم، وذلك أن القَلْقشنديَّ، خلافاً لمن سبقه، أَمْسَكَ لِعِلَّةٍ مّا عن التصريح بمَوْسِمَيْ صُحَار ودَبَا، وكَنىٰ عنهما بقوله: إن التجار كانوا يرتحلون من هَجَرِ نحو عُمَانَ، فتقومُ سوقُهم بها[٥]. . . وربما أراد صُحَارَ، وهي الحاضرةُ القديمةُ لعُمَان، وكانت تُسمَّىٰ عُمَانَ باسم الإقليم كلِّه[٦]. والغريبُ أن القلقشنديَّ لم يُعيِّن موعداً لقيام السوق، فاخترع له الآلوسيُّ موعداً شَهْرَ جُمادىٰ الأولى، ثم تابعه على ذلك الأفغانيُّ من بعدُ، وهو غلطٌ منهما يُضاف إلى التَّوَهُّم.

* * *

---

(١) معجم البلدان: ٢/ ٤٦١.

(٢) المرجع نفسه: ٥/٤٤٨.

(٣) المرجع نفسه: ١/ ٥٣٦، و٥/ ٤٤٧.

(٤) بلوغ الأرب: ١/ ٢٦٥، وأسواق العرب: ٢٥٦.

(٥) صبح الأعشى: ١/ ٤٦٨، ونهاية الأرب: ٤٦٤.

(٦) مهد العرب: ١١٤.

المطلب الأول ـ موسمُ صُحَار:

صُحَارُ مدينةٌ على بحر عُمَان، تقع إلى الشمال والغرب من مسقط، كانت قَصَبَةَ عُمَان، وحاضِرَتَها القديمةَ ممّا يلي الجبلَ باتجاه الساحل، وكانت «تُؤَامُ» قَصَبتَها مِمّا يلي الساحِلَ نحوَ الداخِل، ويُنْسَبُ إليها الدُّرُّ التُّؤَامِيُّ، ومنه قولُ الشاعر يصفُ امرأةً:

كـالتُّـؤامِيَّـةِ إنْ بـاشَـرْتَهـا قَرَّتِ العينُ وطابَ المُضْطَجَعْ[1]

وصُحَارُ مدينةٌ طيِّبةُ الهواءِ والخيرات والفواكه، دُورُها شاهقةٌ نَفِيسَةٌ، مَبْنيَّةٌ بالآجُرِّ وخشَب السَّاج[2]، واسعةٌ كبيرة، لم يكن على ساحل البحر أَجَلُّ منها أو مثلُها، عامِرَةٌ، آهِلَةٌ، نَزِهَةٌ، وهي أكثَرُ مُدُن عُمَانَ تجارةً وأموالاً، فيها أسواقٌ عجيبة، ومياهٌ غزيرة، ويَنَابيعُ عَذْبة، وأهْلُها في سعَةٍ من كلِّ شيء، وقد وُصِفَتْ قديماً بأنها كانت دهليزَ الصين، وخزانةَ الشرق والعراق ومغوثةَ اليمن، بها متاجِرُ البحر، وإليها قصدُ المراكب، ولم تُعرف على شاطىء البحر وقتئذٍ مدينةٌ كانت أكثر عمارةً ويسَاراً ومصانعَ من صُحَار[3]. . وتُنسَبُ إليها الثيابُ الصُّحَارِيَّةُ، وهي مما كان يُنسَجُ ويُصْنَعُ بها، وفي الحديثِ أن رسول الله، عليه السلام، كُفِّن في ثَوْبَيْنِ صُحَارِيَّيْن[4].

وذكر ابنُ حبيب أن سوقَ صُحَار كانت تقومُ أوَّلَ يوم من رجب، خمسَ

---

(١) المفضليات: ١٩٦ (٤٨/ ٤٠). **التُّؤَاميّة**: الدرَّةُ المنسوبة إلى تُؤَام، شبَّه بها المرأة لحسْنها وبياضها. **والتؤام**: ج توأم. والشعر لسُوَيْد بن أبي كاهل اليشكري.

(٢) **السَّاجُ**: نوع جيِّد صلبٌ من أنواع الخشب

(٣) معجم البلدان: ٣/ ٣٩٣ ـ ٣٩٤.

(٤) لسان العرب: ٤/ ٤٤٥ (صحر)، والمفصَّل: ٧/ ٣٧٦.

ليالٍ. وكان يعشر الناسَ فيها الجُلَنْدَىٰ بنُ المستكبر[1].. وفي هذا الموعد الذي عيَّنَهُ لقيامها نَظَرٌ، فإذا كانت سوقُ المشقَّرِ تنفضُّ آخرَ يوم من جُمادَى الآخِرة، فكيف يمكن للتجار أن يَصِلُوا من هَجَرٍ إلى صُحَار في ليلةٍ واحدة، مع طُولِ الطريق ووعورته؟ وهو يقتضي سَفَراً على الإبل أو بالبحر أكثر من خمسة عشر يوماً! ومن هنا كان نصُّ المرزوقي أقربَ إلى الصواب، لمَّا قال: ثم يرتحلون من المشقَّر إلى صُحَار، أوَّلَ يوم من رجب، في غير خفارةٍ، فيَقْدَمونَها لعشرين يوماً تمضي من رجب، فيُوافيهم بها مَنْ لم يشهدْ ما قبلها من الأسواق، ومَنْ شُغِلَ بحاجَةٍ ولم يكن له أَرَبٌ فيما يُباعُ في الأسواق التي قبلها، فَيَشْتَرون من بَزِّها وبِيَاعَاتها، ويبيعون بها، خمسَ ليالٍ، وكان الجُلَنْدَىٰ يَعْشُرهم فيها[2].. وهذا معناه أن التجار كانوا يرتحلون من المشقَّر في اليوم الأول من رجب، وهو شهرٌ حَرامٌ، لا يحتاجون فيه إلى خفارة أو حمايةٍ، فيصلون إلى صُحار بانقضاء عشرين يوماً من رجب، فتقوم سُوقُهم بالبيع والشراء، في الواحد والعشرين من رجَبٍ، وتنفضُّ بانقضاءِ خمسة أيام، فيرتحلون عنها يوم السادس والعشرين، قاصِدِينَ إلى مدينة «دبا»، لِشُهودِ موسمها... وهذا هو الموعدُ الصحيحُ لموسم صُحَار، ولا يُعْتَدُّ بما ذهب إليه بعضُ الباحثين المتأخِّرين[3].

والواضح من النص كذلك أن مُلوكَ عُمَان من بني الأزْد، كانت إليهم العُشُورُ التي تُجْبَى من التجار، الَّذين كانوا يَشْهَدُون موسمَ صُحَار للمتاجرة فيه، وكانت سيرةُ أولئك الملوك في هذه السوق سِيرةَ الملوك في سائر

---

(١) المحبَّر: ٢٦٥.

(٢) الأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٣.

(٣) بلوغ الأرب: ١/ ٢٦٦، وأسواق العرب: ٢٦٢، والمفصَّل: ٤/ ٢٠٣...

الأسواق، فكانوا يَفْتتحون الموسمَ في وقته، ويبيعون كلَّ ما أرادوا بيعَه من البضائع قبل الناس جميعاً، وعند انتهاء أحدهم من المتاجرة، يأخذ التجَّارُ بالبيع والشراء، وحينما ينتهي أَجَلُ الموسم يُعلن الملك انْفِضَاضَه إلى مِثْله من قابِلٍ.

ولست أُحْصي مَن مِن تُجَّارِ العرب كان يشهدُ هذه السوق، ولكنني أفترضُ أن تجَّار الأحْساءِ والبحرين والعراق واليمامة كانوا من شُهودِها، فضلاً عن تُجَّارِ قُرى عُمَان، والتجَّارِ الأعاجم. وأظنُّ أن تجَّار قريش كانوا يشتركون في موسم صُحَار، وربما دَبَا أيضاً، لأن إخوانهم، من بني سامة بن لؤيّ بن غالب[١]، كانوا يسكنون بعُمان، وكانوا حُلَفاءَ الأزد فيها[٢].



المطلب الثاني ـ موسمُ دَبا:

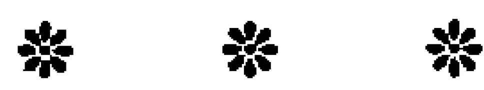
دَبَا مدينةٌ عربيَّةٌ قديمةٌ مشهورةٌ من مُدُنِ عُمَان، لها ذِكْرٌ في أيَّامِ العرب، وأخبارِهم، وأشعارهم، تقع على ساحل البحر، إلى الشمال من صُحَار، بمَيْلٍ قليلٍ نحو الغرب، وكانت قديماً قَصَبةَ عُمَان، قبل أن تَحْتلَّ محلَّها مدينةُ صُحَار، وهي أحَدُ مَرَافِىء العرب الكبرى[٣]، يجتمعُ بها من التجار من لا يكون في غيرها، من أهل المشرق والمغرب، ويأتيها تجارُ الهندِ والسِّنْدِ والصِّين، ويرتحلُ إليها من شَهِدُوا سوق صحار، وهي على

(١) غالب بن فهر بن مالك بن النَّضْر، وهو قريش، ابن كنانة.
(٢) المحبَّر: ١٦٨.
(٣) معجم البلدان: ٢/ ٤٣٥.

مسيرة أربعة أيَّام منها[١]، أي نحو مئة ميل، فيَبْلُغونَها في التاسع والعشرين من رجَبٍ، فيقومُ موسمُ سُوقِها آخِرَ يوم من رجَب، يوماً واحداً، فيشتري الأعاجمُ بِيَاعَاتِ العرب، ويبيعون منهم أمتعةَ بلادهم، ثم يسيرون بكلِّ ما فيها، ومَن فيها من تُجَّار البَرِّ والبحر لِيَشْهَدوا موسمَ سوق الشِّحْر[٢].

ويبدو لي أن قيامَها يوماً واحداً في الثلاثين من رجب، إنما هو مَوْعدٌ يلتقي فيه تُجَّارُ البرِّ بتُجَّارِ البحر القادمين من الهند والسِّند والصين، في طريقهم إلى مرافىء الشِحر وعَدَن، فكانوا يُتَاجِرون في هذا اليوم مع تُجَّارِ البَرِّ من أهل تلك النواحي وما اتصل بها، قبل أن تُبْحِرَ بهم السفُنُ في الأوَّلِ من شعبان، ومعهم من تجَّار العرب من أراد مُتَابَعةَ السَّفَرِ لِشُهودِ المواسمِ التالية.

وكان يَعْشُرُ التجَّارَ في هذه السوق ملوكُ عُمَان من بني المستكبر، من الأَزْد، وكان بَيْعُهم فيها بالمُسَاوَمَة[٣].



---

(١) الكامل: ٨/ ٦٤٧ (وقد وقع تصحيف على كلمة «دبا»، فصارت «دما»، وهذه، كما عيَّن موقعها ياقوتُ، على الحدود الشمالية لعُمان).

(٢) المحبَّر: ٢٦٥ ـ ٢٦٦، والأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٣.

(٣) المرجع نفسه.

الفصل السابع

موسمُ سوقِ الشِّحْر

المطلب الأول ـ موقع السوق:

إتفق الأخباريُّون أن تجَّار البحر والبَرِّ، كانوا ينتقلون، في الأول من شعبان، من مرفأ دَبَا، بالسفُنِ إلى سوق الشحْرِ، شِحْر مَهْرَة، فتقومُ السوقُ تحت ظلِّ الجبل الذي عليه قبرُ النبيّ هُودٍ عليه السلام[1]. ولكن التوحيديَّ أَحْسَنَ صُنْعاً إذ تفرَّد بالنصِّ أنهم كانوا ينزلون مدينةَ «إرَمٍ» من قُرى الشحر، فتقوم أسواقُهم بها[2].. وأما الباحثونَ المتأخِّرون في مواسم العرب، فإنك لا تكاد تجدُ عندهم في تعيين موقع هذه السوق أكثر من قولهم: إنها كانت في شِحْر مَهْرَةَ، بين عُمَانَ وعَدَن! وأين عَدَنُ من عُمَانَ، وبينهما نحوُ شهرين[3]..؟

وعلى ذلك قمتُ بالتحقيق في هذا الموقع، وتتبَّعتُ المسألةَ من بدايتها، عسى أن أُوَفَّق فيما أَخفَق به الآخَرُون... والشِّحْر هو الشَّطُّ، أو الساحِلُ في لغة عرب الجنوب، وشِحْرُ مَهْرَةَ صُقْعٌ على ساحل البحر، في جنوب جزيرة العرب، نَزَلته قبيلةُ مَهْرَة بن حَيْدان، من بني قضاعة، فأُضِيفَتْ

(١) المحبَّر: ٢٦٦، والأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٣، وتاريخ اليعقوبي: ١/ ٢٧٠.
(٢) الإمتاع والمؤانسة: ١/ ٨٤.
(٣) معجم البلدان: ٥/ ٢٣٤، وبلوغ الأرب: ١/ ١٨٦، وقلائد الجمان: ١٧ ـ ١٨.

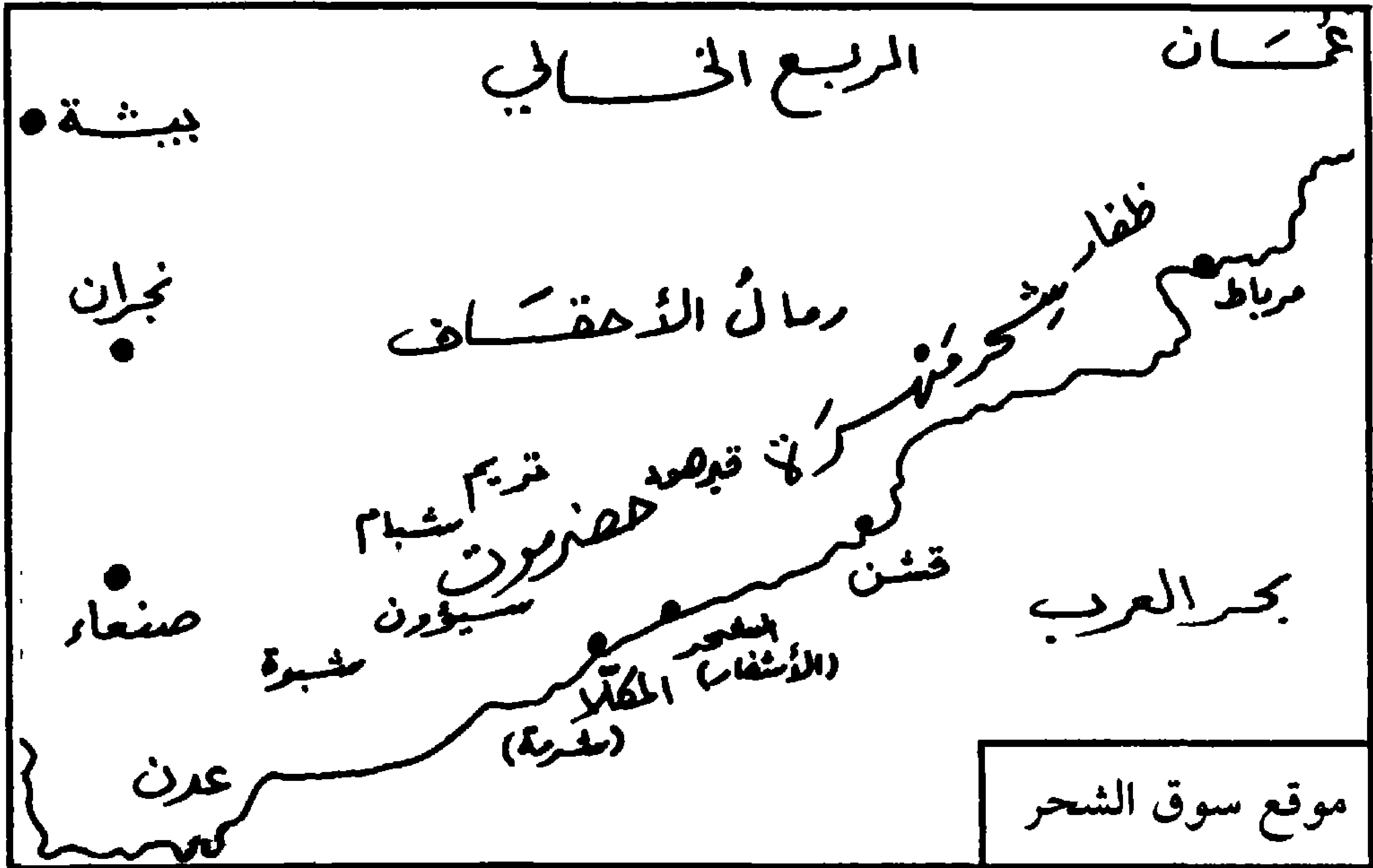
إليه، وسُمِّيَ بها، وهي قبيلةٌ من كُبْريَاتِ قبائل العرب[1]. تُنسب إليهم النجائبُ المَهْرِيَّةُ من الإبل، وكذلك العِيدِيَّةُ، وهي إبِلٌ مَوْصُوفةٌ بالنَّجابَة، منسوبةٌ إلى بني العِيد من قبيلة مَهْرَة، وفيها قال الشاعر:

ظلَّتْ تجوبُ بها البلدانَ ناجِيَةً عيديَّةً أُرْهِنَتْ فيها الدنانيرُ[2]

وكانت بلادُ مَهْرة مُتَّصِلةً ببلادِ قَوم عادٍ، أهلِ الأحقاف، فقد رُوِيَ أن عليَّ بن أبي طالب، رضي الله عنه، سأل رجُلاً أتى إليه: مِمَّن أنت؟ قال: من مَهْرَةَ! فقال: **﴿واذْكُرْ أخَا عادٍ إذ أنْذَرَ قومَهُ بالأَحْقَاف﴾**[3]، وأَخُو عادٍ هو نبيُّ الله هودٌ، وقد نقل ابنُ عبد ربه أن قَبْرَهُ في بلاد مَهْرَة[4].

ونحن نعلم من القرآن الكريم أن هُوداً بُعِثَ إلى قوم عادٍ بالأَحْقَاف، أَهْلِ مدينةِ «إرَمَ» ذاتِ العماد، التي لم يُخْلَق مثلُها في البلاد[5].. وتبيَّن لنا بالتحقيق أن شِحْر مَهْرَةَ يقعُ على بحر العرب، بين عُمَانَ في الشرق، وحضرموتَ في الغرب، والأَحْقافِ في الشمال. وحَدُّهُ من جهة الشرق مِرْباطُ وظَفَارُ، فأما ظَفَارُ فكانت تقعُ على خَوْرٍ، خرج من بحر العرب، وطَعَنَ في البَرِّ شمالاً نحو مئة ميلٍ، وهي مدينةُ بلادِ الشِحْرِ، وحاضِرتُها. وأمَّا مِرْبَاطُ فكانت مَرْفأَ ظَفَار، وهي بُلَيْدةٌ على ساحل ذلك الخَوْر، تقعُ في الجنوب الشرقيّ من ظَفَار، بينهما نحوُ خمسة عشر ميلاً، وقبرُ هُودٍ على خمسة أيام منها[6]، أي

(١) معجم البلدان: ٣/ ٣٢٧.
(٢) لسان العرب: ١٣/ ١٩٠ (رهن).
(٣) سورة الأحقاف، الآية: ٢١.
(٤) العقد الفريد: ٣/ ٣٣٥.
(٥) لسان العرب: ١٢/ ١٥ (أرم)، ومعجم البلدان: ١/ ١٥٥، وآثار البلاد وأخبار العباد: ٩ ـ ١٠.
(٦) صبح الأعشى: ٥/ ١٠ و١٤، ومعجم البلدان: ٤/ ٦٠، و٥/ ٩٧.



نحو مئة وعشرين ميلاً، ويُقال إن الجبلَ الذي دُفِنَ بأعْلاهُ هُودٌ «جبلٌ قُربَ ظَفَارِ المَهْرَة»[1] . . . وحَدُّ الشِحْرِ من جهة الغرب بلادُ حَضرموت إلى مَرْفأ المُكلاَّ على البحر، وكانوا يُسَمُّونه قديماً: شُرْمَة[2]، ويُسَمُّون البلدةَ الواقعةَ في شَرْقِهِ: الأشْفَارَ، وهي التي غَلب عليها إسمُ الشّحْرِ بعدئذٍ، وظنَّ الباحثون أنها حاضِرةُ بلادِ المَهْرَةِ، والموضِعُ الذي كانت تُقام به سوقُ الشِحْر، وهو غلطٌ، فالشحرُ المعروفةُ اليومَ بناها الملكُ المظفَّرُ صاحبُ اليمن سنةَ (٦٧٠ هـ)[3]، في موضع الأشْفَارِ، وقد صارت من قرى

---

(١) المدخل إلى تاريخ الإسلام: ٤١.

(٢) الشُرْمَةُ: موضعٌ في البحر، أو خليجٌ منه، وهي أيضاً الشقُّ في الأرض.

(٣) الشريف عبد الرحمن بن محمد ـ شمس الظهيرة: ١/ ٧٣ ـ ٧٤ (تحقيق محمد ضياء شهاب). والأشْفَارُ: بَلَدٌ من أرضِ مَهْرة قُربَ حضرموت بأقصى اليمن (معجم البلدان: ١/ ١٩٨)، ولعله كان على الحدود بين مهرة وحضرموت، فالأشفارُ هي الحدودُ، جمعُ شُفر، أي الحَدّ، هكذا ضَبطها ياقوتُ بالفاء، وقيل هي «الأسْعَاءُ»، بالسين والعَيْن، في كتاب أدوار التاريخ الحضرميّ (٦٦ ـ ٦٧)، وأراهُ تصحيفاً، إذ لم أجِدْ لها ذِكراً أو معنى عند أحَدٍ بهذا اللفظ.

حضرموت ومَرافِئها، وطفِقَتْ تقومُ بها سوقٌ لأهلِ حضرموتَ، بعدما أضيف إليهم أهلُ المهرة وشِحْرُهم في العصور الإسلامية.

وعلى ذلك يمكن القولُ بأن مدينةَ «إرَم» كانت موضَعَ سوق الشِحْر، وكانت تقعُ في سَفح الجبل المُشْرفِ على ظَفَار، ذلك الجبل الذي عليه قبرُ النبيّ هُودٍ عليه السلام، ولذلك سمَّاها التوحيديُّ سوق إرَم.

وكانت بلادُ الشِحْرِ مَشهورةً بالإبِلِ النُّجْبِ، التي تَفْضُلُ في السَّيْر سائرَ أنواع الإبِل، وإليها يُنْسَبُ العَنْبرُ الشِحْريُّ، وكان يُسْتخرجُ من سواحلها، ويُصنَعُ بها صناعةً جَيّدةً، كانت لها شُهْرةٌ مُسْتَفيضةٌ في مختلف البلدان، إلى ما كان بها من أشجار اللبَانِ والمُرِّ والصَّبِرِ والدُّخْنِ وغيرها، وما كان يُستخرج منها من الأدوية التي تُحْمَلُ إلى أنحاءِ العالم[1].

المطلب الثاني ـ موسم السوق:

ذكر الأخباريون أن سوق إرَم، أو الشحْر، كانت تنعقدُ في النصف من شهر شعبان، ولم يذكروا موعداً لانفِضَاضها أو مُدَّةً مُعيَّنةً لقيامها[2]، إلا التوحيدي حيث قال: فتقوم أسواقُهم بها أياماً[3]. . ولا أعتقدُ أنها كانت تزيدُ على خمسةٍ، لأن الطريق بعدها إلى عدن طويلةٌ[4]، وإن كنتُ أُرَجّح أنهم كانوا ينتقلون إليها بالبحر، ليشهدوا افتتاح موسم عدن في الأول من رمضان.

ويبدو لي أنه كان لموسم هذه السوق علاقةٌ وثيقةٌ بموسمٍ دينيّ، كان

---

(١) آثار البلاد وأخبار العباد: ٣١، ٣٧، ومهد العرب: ١١٢.

(٢) المحبَّر: ٢٦٦، والأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٤.

(٣) الإمتاع والمؤانسة: ١/ ٨٤.

(٤) معجم البلدان: ٥/ ١٨٨.

يُقامُ للنبيّ هُود، في الوقتِ نفسه، أو قُبَيل ذلك ببضعة أيام.. فقد نَقَل صاحبُ الأعلام عن مفتي حضرموت عبد الرحمن بن عبيد الله قوله: «.. ولا يزال أهلُ حضرموت يزورون قبرَ النبيّ هُود إلى اليوم، في شعبان من كلّ سنة، وكان السابقون يروْن كمالَ الزيارةِ بالحضُور ليلةَ النصفِ من شعبان، وهي العادةُ التي كانوا عليها في الجاهلية»، وذكر أن بعضَهم كان يأتي للزيارة في التاسع، ويَنْفِرُ في الحادي عشر من شعبان[1].. فإذا كان الأمرُ كذلك، وكان قبرُ هودٍ، كما مرَّ بنا، على بُعْدِ نحو خمسة أيام من مرْباط، ولعلَّها أربعةٌ من ظَفَار، فالناسُ تكون في السوق يوم انعقادها للبيع والشراء في الخامس عشر من شعبان، كما جاء في مَراجع أهل الأخبار.

ومن الطبيعيّ أن التجَّارَ القادمين إلى سوق الشِحْر من البُلْدانِ الأُخَر، كانوا يبيعون فيها ما حملوه معهم من العُروض والسِّلَع، التي يحتاجُ أهلُ الشحر إليها، ويشترون بأثمانها الإبِلَ المَهْريَّةَ، والعنبرَ الشِحْريَّ، وغَلَّاتِ ما يُجْنَىٰ من الأشجار التي لا تنبتُ إلا في الشحْر، كاللبان والمُرِّ وغيرها. وكانت السوقُ منطقةً تجاريّةً حُرَّةً، لا تُجْبَىٰ فيها عُشُورٌ، أو ضرائبُ، من التجَّار، لأنها لم تكن بأرضِ مملكةٍ، وكان جميعُ مَن يختلفُ إليها من العرب للمتاجرة في مواسمها، يَتَخفَّرُ ببني مُحارِبِ بن هَرَب، من قبيلة مَهْرَة[2].

وحين ينقضي موسمُ السوق بالشِحْر، يرتحلُ التجَّارُ منها إلى عَدَن لِشُهود موسمها، إلا تُجَّارَ البحرِ، فإنه لا يرتحلُ منهم إليها إلا مَن بقيَ معه فَضْلٌ من بضائِعه، ولم يَبِعْهُ[3]. أمَّا من باع منهم كلَّ ما كان حَمَلَهُ معه من

(١) الأعلام: ٨/ ١٠١ ـ ١٠٢، والمفصَّل: ١/ ٣١٢.
(٢) المحبَّر: ٢٦٦، والأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٣ ـ ١٦٤.
(٣) الأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٤.

البضائع إلى سوق الشِحْر، فإنه، كما يُفهم من نصّ المرزوقي، يَقْفِلُ عائداً من هناك بالبحر إلى بلاده، في الهند أو السند أو الصين أو غيرها. وفي ذلك إشارةٌ جيِّدةٌ إلى أن مواسم العرب، وإن كانت تقومُ تِباعاً، لم يكن من اللازم أن يَشْهَدَها التجّارُ، أو الناسُ عامّةً، موسماً بعد موسم، بل كان أحدُهم يختارُ ما له أَرَبٌ في شُهوده، فَيَشْهدهُ.. ولا شك في أن الأمر يختلفُ بين تجّار البحر وتجّارِ البرِّ، فتجّارُ البحر غالباً من الأجانب، وتجّارُ البرِّ غالباً من العرب، وطرُقُ البحرِ لها مرافىءُ ومواقيتُ مُعيَّنةٌ للوصول إليها أو السفَرِ منها، وطرُقُ البرِّ لها محطَّاتٌ كذلك ومواقيتُ مُعيَّنةٌ، وكلاهما مختلفٌ عن الآخَر.

● **تعقيب: علاقةُ موسم سوقِ إرَمِ الشِحْرِ بموسم زيارة النبي هود:**

من الواضح أننا رجَّحنا وجودَ علاقةٍ سَبَبِيَّةٍ بين موسم سوقِ إرَمٍ، أو الشحْرِ، في بلادِ مَهَرة، وبين موسم زيارة قبرِ النبيّ هُودٍ، إذ هما يقومان في موعدٍ واحدٍ هو النصفُ من شعبان، وأكثَرُ الأخباريين على أن السوق كانت تقومُ تحت ظلِّ الجبل الذي عليه قبرُ النبي هود، وأن قبرهُ كان ببلادِ مَهَرة، على جبلٍ قُربَ ظَفَارِ المهَرة.

ويبدو لي أن بعض إخواننا المؤرِّخينَ من أهلِ حضرموت، بعدما دُمجتْ ظفارُ وسائرُ بلادِ المهرة في حضرموت[1]، صاروا يميلون إلى القول بأن هُوداً مات بحضرموت، وأن قبرهُ معروف هناك، «وكانت تقامُ سوقٌ سنويَّةٌ في الجاهليَّة، في شعبان، في المنطقة التي بها قَبْرُهُ بشرقِ حضرموت، قربَ بئرِ بَرَهُوت الشهيرة، وهي، كما وصفها بعضُ المستشرقين، كهفٌ

---

(١) محمد بن أحمد الشاطري ـ أدوار التاريخ الحضرميّ ـ منشورات عالم المعرفة، (جُدَّةَ ١٩٨٣): ١٤، ٣٧٩.

عظيمٌ مُظلمٌ، ذو تعاريجَ وتقاطيع»[1]، وقد ظلَّ الحضارمةُ في الإسلام يتردَّدُونَ إلى هذا الموضع، حتى تأسَّستْ له زيارةٌ عامَّةٌ في القرن التاسع الهجريّ، في شهر شعبانَ من كل سنة، وصارت موسماً من المواسم العامَّة بحضرموت، وحُدِّدَ موضعُ القبر هناك، وبُنِيتْ قريةٌ حولَهُ في سفح الجبل الذي عليه القبرُ، ولكنها لم تكن تُسْكنُ إلا في أيام موسم الزيارة، وتظلُّ خاليةً سائرَ أيام السنة، شأنُها في ذلك شأنُ مِنىً بالحجاز. وتُعْقَدُ في يومين من أيام الزيارة مجالسُ عامَّةٌ حولَ القبرِ، لقراءةِ القرآن والدعاءِ والذِكْرِ، وذلك بعد شروق الشمس، وبعد الظهر، وفي الليل، ويتصدَّرُها جميعاً شيوخٌ من حَفَدةِ الإمام عليّ بن أبي طالب، رضي الله عنه، من أهل حضرموت، ويَشْهدُها الرجالُ، دون النساءِ، وجميعُهم على مذهب الإمام الشافعيّ، فليس في هذه الزيارة اختلاطٌ بين الرجال والنساء، على نحوِ ما يقعُ في الزيارات العامَّة بحضرموت وغيرها من بلاد المسلمين. وتُقامُ كذلك في أيام الزيارة أفراحٌ ومهرجاناتٌ شعبيَّةٌ لأهل كلِّ ناحيةٍ لَدُنْ دُخولهم شِعْبَ الجبلِ الذي عليه القبر، ثم عند عودتهم منه إلى أوطانهم[2].

ويبدو في خريطةٍ مُلْحقةٍ بالكتاب، أن الشاطريَّ عيَّنَ موقعَ قبرِ هُودٍ على طريقٍ قديمةٍ تصلُ حضرموتِ بظَفَارِ المَهرة، ولكنه بعيدٌ من ظَفَار، وقريبٌ من شَرْقِ تَرِيم، إحدى مدينتَيْ حضرموت، والأُخْرى شبام. وتقعُ على هذه الطريق قريةُ تِنْعَة[3]، عند وادي بَرَهُوت، وبَرَهُوتُ بئرٌ بحضرموت، أو بالقُربِ منها، وقيل هو اسمٌ للبلد الذي فيه هذه البئرُ، وهي بئرٌ في فَلَاةٍ

---

(١) أدوار التاريخ الحضرمي: ٣٧، (وقد ذكر عبد الوهاب النجار في كتابه «قصص الأنبياء: ٥٣» أن هُوداً سكن حضرموت ومات بها، ودُفن في شرقيِّها على نحو مرحلتين من مدينة تريم قرب وادي برهوت، وعزا كلامَه إلى ما يقوله أهلُ حضرموت).

(٢) المرجع نفسه: ٣٧ ـ ٣٨.

(٣) المرجع نفسه: ٦٧.

وادٍ مُظْلم[1]. وكيفما كان الأمر، فإذا كان موقعُ قبر هُودٍ بعيداً من ظَفَارٍ، في غَربها، نَحْوَ مئةِ ميلٍ أو أكثرَ قليلاً، وقريباً من تَرِيم، في شرقها، نحوَ خمسين ميلاً، وكانت الطريقُ بين ظفار وتريم نحو مئةٍ وخمسينَ ميلاً، فما قاله الشاطريُّ في موقع القبر هو الصواب، لأنه يتفّق مع كل الأقوال التي عرضناها، ويكون موقعُ قيام سوق «إرم» في ظلِّ ذلك الجبل الَّذي عليه القبرُ مطابقاً لما ذكره القدماء.

ولعله من المفيد أن نُضيف في الختام ما ذكره الشاطريُّ عن آل باعبَّاد، وهم من أعرق القبائل الحضرميَّة في العصور الإسلامية الأُولى، وعن وِلايتهم الحِفاظَ على التقاليد والعادات في آدابِ زيارة نبيّ الله هود، فأشار إلى وجود مسجدٍ وأوْقافٍ هنالك وقَفَها بعضُ أجدادهم، وتركوا لهم حقَّ تَوارُثِ الإشراف عليها[2]..

كما ذكر في موضعٍ آخَر، أن الإمام عبد الله بن علوي الحداد (١٠٤٤ ـ ١١٣٢ هـ)، وهو من حَفَدةِ الإمام عليّ، كان يتمنَّى لو ربَطَ موعدَ زيارة نبيّ الله هود بالتوقيت الشمسي، ولكنه لم يفعلْ تأدُّباً مع من سبقه من السَّلَفِ الصالح[3]... وهذه إشارةٌ قَيِّمةٌ إلى أن الإمام كان مُقتنعاً بأن شهور العرب لم تكن تدورُ في الفصول، وإنما بدأت بالدوران بعد ذلك في الإسلام.

* * *

---

(١) معجم البلدان: ١/٤٠٥، و٢/٤٩.

(٢) أدوار التاريخ الحضرمي: ٣٨١.

(٣) المرجع نفسه: ٣٢٣.

الفصل الثامن

موسم سوق الرابية

الرابيَةُ مدينةٌ كانت تقعُ بوادي العَيْن في حضرموت، وهي مع شَبْوَة، وتريم، وشبام، ودَمُّون، والنُّجَيْر، وتِنْعَة، ومشطة، وسَيؤون، وشَبْوَة، وغيرِها من مُدُن حضرموت، كانت مَسَاكنَ أهْلِها، ومراكزَ حضَارتهم، وفيها، وفيما اتَّصَل بها من الأَوْدية والجبال والأَزْياف، كانت تَنعقِدُ مجالسُ سَمَرِهم، ومجامِعُ أنْدِيتهم، ومُبَارَيَاتُ فُرسَانِهم، وتقومُ أيضاً مواسمُ أسواقِهم العامَّةُ، فتأتيها قبائلُ العرب من المواضِع البعيدةِ والقريبةِ، لِتُشَارِكَ في أنْشِطَتها التجاريَّة والثقافية، وكان أكثَر تلك المواسم شهرةً سوقُ الرابية بوادي العَيْن، وسوقُ الأشْفَارِ، والأَشْفارُ هي بلدةُ الشِحْر[(١)]، وتقعُ إلى الشرق من المُكلاَّ، مَرْفَأ حضرموتَ الشهيرِ، وهي غيرُ شِحْرِ مَهْرَة وسُوقِهِ بمدينة إرَم.

وحضرموتُ إقليم واسعٌ، حَدُّهُ من الشرق عُمَانُ وشِحْرُ مَهْرَة، ومن الشمال رمالُ الأحقاف، ومن الغرب صنعاءُ وعَدَن، ويقطعه من الغرب إلى الشرق وادي القصر، وتقوم هنالك أكبرُ مُدُنِ حضرموت، مثل شبام وتريم[(٢)]. وأرضُه خصبةٌ، وأهَمُّ غَلاَّتِه: الذُّرَةُ، والدُّخْنُ، والقمحُ،

---

(١) أدوار التاريخ الحضرمي: ٦٧، (ولا بُدَّ من الإشارة إلى أن بلدة الأشفار ضُبِطت عنده (بالسين والعين) أي: الأسْعَاء، وهو غلطٌ كما ذكرنا من قبلُ).

(٢) معجم البلدان: ٢/ ٢٧٠، ومهد العرب: ١١١.

والسمسمُ، والقطنُ، وأكثرُها وَفْرةً التمرُ، وهو الغذاءُ الرئيسُ لأهل حضرموت، وكانت فلسطينُ وبلادُ الشام تستوردُ كثيراً من هذه السِّلع[1].

وقد اكتُشِفَت في التنقيب عن آثاره القديمة، معالمُ مُدُنٍ خَرِبَةٍ، عليها كتاباتٌ بالخطِّ المُسْنَدِ، تُشير إلى ما كان لأهلها من شأن كبير. ويظهرُ من آثارِ الحصُونِ والقِلاَعِ الباقية فيها، أن مملكة حضرموت كانت تحمي حدودها بحُصُونٍ، تقيم عليها حامِيَاتٍ عسكريَّةً، تردُّ عنها الغُزاةَ الطامعين فيها، وتحافظ على أمن السُّكَّانِ في الداخل أيضاً، وتُوفِّرُ لهم الطمأنينةَ[2]... ويبدو من حُسْنِ اختيارهم للمواقع، التي أقاموا عليها الحصونَ، في قمم الجبال، ومَضَايِق الأوْدِيَة، ومُرْتفعات التِّلاَل، أنهم كانوا على درجةٍ عاليةٍ من الخبرة القِتَاليَّة والتنظيم. وهو ما يجعلنا نقِرُّ بأنَّ الأمنَ كان مكفولاً في هذه البلاد، للمواسم التي تقومُ بها، وللناس الذين يأتُونَها على السواء، وكأن الأرضَ التي كانت تقومُ عليها هنالك سوقُ الرابية أرضُ مملكةٍ وأمْرٍ مُحْكَمٍ، وإن لم تكن حضرموتُ مملكةً واحدةً عند ظهور الإسلام! ودليلُ ذلك أن رسول الله، عليه السلام، كتب إلى وائل بن حُجْر[3]: «من محمد رسول الله إلى الأَقْيَالِ العَبَاهِلَةِ من أهل حضرموت»[4]، والأَقْيَالُ: الملوكُ، والعَبَاهِلَةُ: مَن ظَلُّوا على مُلكهم لا يُزالون عنه، كما أشرنا آنفاً... ومن شأن هذا كله أن يُوضحَ ما نقله ابنُ حبيب عن ابن الكلبيّ في نصٍّ مُضْطَرِبٍ، ثم تابَعَهُ عليه المرزوقيُّ في نصٍّ أكثَرَ إبَانَةً، وأصْوَبَ عبارةً، جاء فيه:

---

(١) المفصَّل: ١/ ٦٤٨.

(٢) المفصَّل: ٢/ ١٦٥.

(٣) هو وائلُ بنُ حُجرْ بن سعيد بن مسروق بن وائل الحضرميُّ، أسلم وكانت له صُحبة.

(٤) لسان العرب: ١١/ ٤٢٢ (عبهل).

«فأمَّا الرابِيَةُ فلم يكن يصلُ إليها أحدٌ إلا بخُفَارةٍ، لأنها لم تكن أرضَ مملكة، وكان مَن عَزَّ فيها بَزَّ صاحِبَهُ[1]، فكانت قريشٌ تَتخفَّرُ ببني آكِلِ المرار من كندة[2]، وسائرُ الناس يتخفَّرون بآل مسروق بن وائل الحضرميّ، فكانت تلك الخُفَارَةُ مَكْرُمَةً لأهل البيتَيْن جميعاً، وكان فضلُ أحَدِهما على الآخَر، كفَضْلِ قريشٍ على سائر العرب»[3].

ويجب أن يُفهم من هذا النصّ، أن الطريق إلى حضرموت، لا سوق الرابية، هو الذي كان خَطِراً، غير آمِنٍ، فكان لا بُدَّ لمن يُريدُ أن يَشْهَدَ موسمَ السوق، أن يَلْتَمِسَ إذْناً بالمرور، أو خُفَارةً من زُعَماءِ إحدى قَبيلتَيْن: بني كِنْدَة، أو آلِ مَسْروق بن وائل، فيجوزَ الطريقَ حينئذٍ آمِناً، لا يعترضُ سبيلَهُ أحَدٌ. . فالخَطَرُ لم يَحِقْ بالطريق إذن لأن حضرموت لم تكن مملكةً، بل لأن الطريق إليها، شأن كلِّ الطرُق، كان طويلاً وَعراً، ومن الصعب ضمانُ الأمن فيه بقوّة الدولة، بينما يَسْهُلُ ضمانُه بما كان بين القبائل من أحلافٍ وذِمَمٍ ومعاهداتٍ تُوفِّرُ الحمايَةَ لمن يتخفَّرُ بها. . وهذا يتفق أصلاً وما نقله المرزوقيُّ عن ابن دُرَيْد، أنه لم يكن أحَدٌ يصل إلى الأسواق إلا بخَفِير، ولا يرجعُ إلا بخفير[4]. فقد أراد خَطَرَ الطرُق، لأن الأمن في الأسواق كان مكفولاً، والخُفَارةُ هنا لا تعني إصْحابَ القوافل بالخُفَراء والحَرَسِ، فهذا أمرٌ

---

(١) العِزُّ: في الأصل القوَّةُ والشدَّة والامتناعُ، والعِزَّةُ: حالةٌ إذا حصلت للإنسان تمنعُه من أن يُغلب، وتُمكِّنُه من بَزِّ صاحبه، أي غَلَبتِه وانتزاعِ ما معه.

(٢) آكِلُ المرار: حُجْرُ بن عمرو بن معاوية، أوّلُ مُلوك بني كندة، مَلَّكَهُ أخوه «حسَّانُ بن أسعد أبي كرب» ملكُ اليمن، على قبائل مَعَدّ بن عدنان، فدانت له نحو سنة (٤٢٥ م)، قيل إنه كان في سَفَرٍ، فأصابه جوعٌ، فأكل من المُرار حتى شبع، فنجا من الموت، فلُقِّب بآكل المرار.

(٣) الأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٥، والمحبَّر: ٢٦٦ ـ ٢٦٧.

(٤) الأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦١.

طبيعيٌ لا بُدَّ منه في كل الأحوال، وإنما تعني الدُّخُولَ في ذِمَّةِ القبائلِ التي تمرُّ الطرُق في بلادها، أو بلادِ من يُحالِفُها.

وعلى ذلك جعل قبائلُ العرب لبني حُجْر بن عمرو الكنديّ، وبني مَسْروق بن وائل الحضرميّ، مَكْرُمَةً، فأجارتْ، أو خَفَرَتْ كلَّ مَن أجَارُوهُ، أو خَفَرُوهُ في مَقْدَمِهِ إلى بلادهم لشُهود مواسمهم. وليس ببعيدٍ أن تكون خُفَارَةُ هذيْن الحَيَّيْنِ لقوافل التجارة موردَ رزقٍ لهما، كانا يَجْنِيان منه أموالاً ومنافِعَ كثيرةً. . . ذلك أن سوق الرابية لم تكن به عُشورٌ تُفْرضُ على بُيوع التجار، فكأنه كان منطقةً حُرَّةً مُعْفاةً من الضرائب، ولكن القوافل التي تأتيه، كانت تُؤدّي إلى مَنْ يَضْمَنُها ويخفرها جُعالةً، هي من بعض لوازم الزعامة والرياسة.

وكان موسمُ سوق الرابية يقوم في النصف من ذي القعدة، ويظلُّ قائماً إلى آخر الشهر(١)، فيَنْفَضُّ الناسُ عنه إلى مثله من السنة المقبلة. ويبدو من النصِّ أن تجَّار قريش كانوا يحرصون على شُهودِه، والإشتراكِ فيه، مع أن سوق عكاظ يكون منعقداً في هذا الوقت، ويعقبهُ سوقُ المجنَّة. . ومن الواضح أن موسم الرابية ينعقدُ في شهر حرام، وذلك يؤكد ما ذهبنا إليه من توافُرِ الأَمْن في السوق وفي الطريق المُوصِلة إليها معاً(٢).

---

(١) المحبَّر: ٢٦٧.

(٢) أنظرْ كلامنا على قواعد الأمن في الباب الخامس من الجزء الأول، وكلامنا على العُشُور في المطلب الثالث من الفصل الأول في الباب الأول من الجزء الأول.

الفصل التاسع

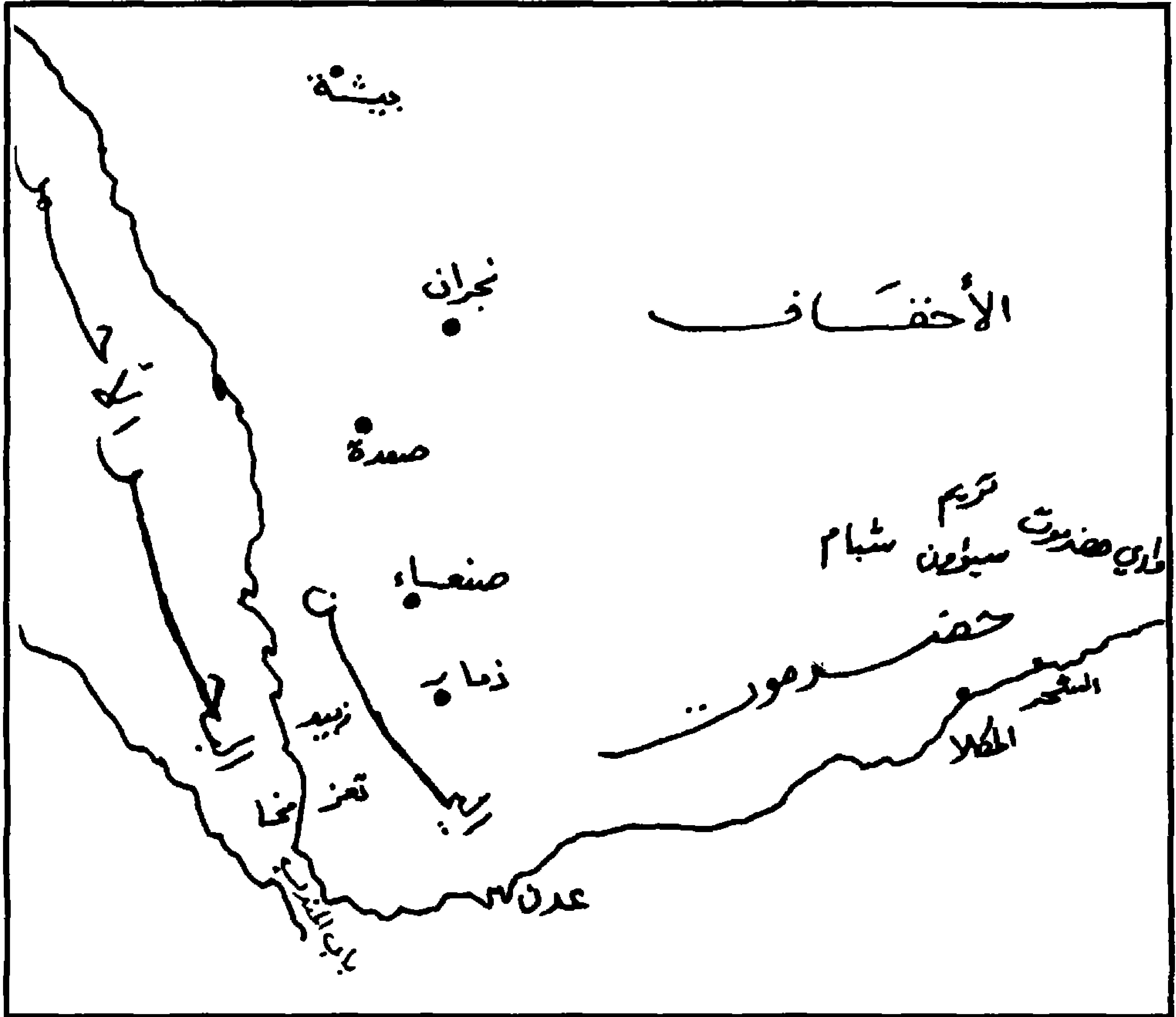
مواسم أسواق اليمن

في كلامنا على الأسواق الموسميَّة عند العرب، لم يُفْضِ بنا التحقيقُ في أخبار القدماء إلا إلى خمسة أسواق، ذكر أهلُ الأخبار أنها كانت تقوم باليمن، وهي: عَدن، وصَنعاءُ، ونَجْرانُ، والأَسْقَىٰ، والجَنَد.. وتبيَّن لنا بالبحث أن «الجَنَدَ» كانت من مُدُنِ اليمن الكبرى، تقعُ بين عَدَنٍ وتَعِزَّ، ولكننا لم نجدْ عند أحدٍ ذِكْراً لموسمها متى كان قِيَامُه، ومَن كان يَشْهَدُهُ من الناس، إلى غير ذلك من المعلومات... كما تبيَّن لنا أيضاً أن «الأَسْقَىٰ» كانت مدينةً يمانيَّةً قديمة، تقعُ إلى الجنوب من نجران، جاء ذِكرُها في إحدى الحملات الرومانيَّة على جزيرة العرب، أواخِرَ القرن الميلادي الأول، وليس هنالك شيءٌ آخَرُ فوق ذلك.. أمّا الأسواق الثلاثُ الأُخْرَيات، فلديْنا من المعلومات ما يسمحُ لنا بالحديث عنها في هذا الفصل.

المطلب الأول ـ موسمُ سُوق عَدَن:

تقع عَدَنُ في أقصى الجنوبِ والغربِ من جزيرة العرب، في القسم الجنوبي من تهامة اليمن، وهي في الأصل ساحلٌ، يكتَنِفُه جبلٌ من ورائه، يَحْجبُه عن البرِّ، ولم يكن به لها طريقٌ إلى البرِّ، حتى قُطِعَ في الجبل بابٌ، فصار طريقاً بين الساحل والداخِل، وتُعَدُّ سوقُ عَدَن أقدمَ أسواقِ العرب، وكانت عَدَنُ إذ ذاك مرفأَ المراكبِ القادمةِ من الهندِ، والصين، ومصر،

أسواق اليمن(١)



---

(١) يعتقد بعضُ الناس أن عَدَنَ تقع عند مدخل البحر الأحمر، على باب المندب، وهو اعتقادٌ خاطِىءٌ، لأن عَدَنَ تقعُ على مسافة مئة ميل، إلى الشرق من باب المندب، ومساحتُها في الأصل ضَيِّقةٌ، تتألَّفُ من رأسين بُرْكانيَّيْنِ، يُطْبِقَانِ على خليج صغير، عرضه سبعةُ أميال، هو خليج عدن، وتقع مدينةُ عدن القديمة في الرأس الشرقي من الخليج، وتتَّصل بالأرض الأُمّ عن طريق «خور مَكْسَر».

والحبشة، وكان التجّارُ يجتمعون في مواسمها من أجل ذلك، لأنها بلدةٌ للتجارةِ ليس غير[1]. وقد حقق «علوي بن طاهر الحداد» في نصوص صِينيَّةٍ، كُتبت في القرن الثالث للميلاد، فتبيَّن منها أن: «المدينة التي لعبت دوراً هامّاً، في العلاقة التجارية بين مصر والهند والصين، وسائر بلاد المشرق، في القرون الأولى للميلاد، هي مدينةُ عَدَن»[2].. ويُذكر في المراجع التاريخيَّة أن الرومان احتلُّوا مَرْفأَ عَدَن، وظَلُّوا فيه زَمَناً، لأنه خيرُ موضعٍ للوصول منه إلى سواحل إفريقية، والهند، وبلاد العرب الجنوبية، فكانت فيه دائماً جالِيَةٌ كبيرةٌ من التجّارِ الأجانب والعربِ، وأصحابِ المراكب، وكان له بذلك شأنٌ خطيرٌ في التجارة العالميَّة[3]، لما كان يُحمَلُ إليه من ثمينِ العُروض والسِّلَع، وما كان يجري فيه من تبادُلٍ للمتاجِر بين التجّار. ومن هنا قولُ المرزوقي: فكان يُوافي السوق بعَدَن، «مَن بقي معه من تُجّارِ البحر شيءٌ، ومَن لم يكن شَهِدَ الأسواق التي كانت قبلَها... وكان طِيبُ الخَلْق جميعاً يُعَبَّأُ بها، ولم يكن أحدٌ يُحْسِنُ صُنْعَهُ من غير العرب، حتى أن تُجّارَ البحر لتَرجعُ بالطيب المعمول بعَدَن، تَفخَرُ به في السِّند والهند، وترتحلُ به تجّارُ البرِّ إلى بلاد فارسَ والروم»[4]، وكانت أرضُ اليمن وحضرموت والشِحْرِ تُسمَّى عند اليونان والرومان أرضَ الطيب واللبَانِ والمُرِّ والبخُور[5]، ويُقال إنه لم يكن في العالم أكثَرُ طيباً، ولا أحْذَقُ صُنَّاعاً للطيب من عدن[6]، وكان يُحمل منها

---

(١) معجم البلدان: ٤/ ٨٩.

(٢) المدخل إلى تاريخ الإسلام في الشرق الأقصى: ٤٣.

(٣) المفصَّل: ٢/ ٦٠ ـ ٦٣.

(٤) الأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٤.

(٥) المفصَّل: ٢/ ٥٨ ـ ٥٩.

(٦) الإمتاع والمؤانسة: ١/ ٨٤.

إلى سائر الآفاق[1].

وكانت السوقُ تقومُ أوَّلَ يوم من شهر رمضان، إلى عَشْرِ ليالٍ يَمْضِينَ منه، أي ما بين أواخر أيار ـ مايو، وأوائل حزيران ـ يونيه، ثم يتفرَّقُ الناسُ عنها إلى مثلها من قابِلٍ. وكانوا في مَقْدَمهم إليها لا يَتَخفَّرون بأحَدٍ من قبائل العرب، لأنها تقومُ بأرضِ مملكةٍ، وأَمْرٍ مُحْكَمٍ. وكانت عُشُورُها تُجبَىٰ من التجَّار إلى ملوك اليمن، وآخِرُ مَن كانت إليه عُشُورُها الأبناءُ[2]، أبناءُ من صَحِبَ الملكَ سيفَ بن ذي يزن من الفُرس، في قتاله الأحباش، ولم تكن الأبناءُ تملكُ حقَّ المتاجرة بالسوق، كما جرت بذلك عادةُ الملوك، وإنما جُعِلت لهم العُشُورُ فقط منفعةً وكرَماً.

المطلب الثاني ـ مَوسِمُ سُوق صنعاء:

صنعاءُ قَصَبةُ بلادِ اليمن، وأحْسَنُ مُدُنها بناءً، وأَصَحُّها هواءً، وأعْذَبُها ماءً، وأطيَبُها تربةً، وأَقلُّها أمراضاً، وكان من عجائبها قصرُ غُمدانَ ذو الطبقات العشرين، والسقفِ البِلَّوْريّ[3]. وكانت صنعاءُ تُشَبَّهُ بدمشق في كثرة فواكِهها، وتَدَفُّقِ مياهها، ولم يكن في جميع بلاد اليمن أكثَرُ منها مَرافِقَ وسُكَّاناً، طيِّبَةُ الهواءِ في الصيف والشتاء، وكأنها إحدى جِنَان الأرض[4].

وكان موسمُ السوق يقوم في النصف من شهر رمضان إلى آخِره، ثم يَنْقشِعُ الناسُ منها إلى مِثْلها من السنة المُقبِلة[5]، وكانت تُباعُ بها عُروضٌ

(١) تاريخ اليعقوبي: ١/ ٢٧٠، ونهاية الأرب: ٤٦٤.

(٢) المحبَّر: ٢٦٦، والأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٤.

(٣) آثار البلاد وأخبار العباد: ٣٣.

(٤) معجم البلدان: ٣/ ٤٢٦.

(٥) الأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٤، والمحبَّر: ٢٦٦.

كثيرةٌ مُتَنوِّعَةٌ، منها: القطنُ، والأَدَمُ، والبُرودُ، والزعفران، والأَصْبَاغُ، وآلَةُ الخَرَزِ، والحِبَرُ، والبَزُّ، والحريرُ، وأشياءُ أُخَر[1]. .

وقيل إن السوق كانت تُقامُ بوادي صنعاء، في أصل جَبَلِ «نُقُم»، وهو جبلٌ مُطِلٌّ على صنعاء، بالقرب من قصر غُمدان[2]. .

وذُكر أن «الجَسَّ» كان طريقةَ البيع في هذه السوق، وهو جَسُّ الأيدي[3]، ومعناها: إذا تَمَّتِ المساومةُ بين المتابعين، جَسَّ أحَدُهما يَدَ الآخَرِ علامةً على وُجوبِ البيع، وانتهاءِ الخِيَار[4]، وقيل بل هي جَسُّ السلعةِ بيَدِ المشتري.

وذكر ابنُ حبيب أن «الأبناء» كانت تعشرُ التجَّار في موسم صنعاء[5]. . وأريد هنا أن أقول قولاً في أمر الأبناء، أو فيمن كان يتولَّىٰ رياستَهم، فأنا أرى أن تَعْشِيرَ التجار إنما جُعل لهم، إكراماً لآبائهم الَّذين قاتلوا الأحباشَ مع الملك سيف، بينما مُنِعَت عنهم المتاجرةُ، كما رأينا، لأنها تُعَدُّ في المواسم العامَّة من امتيازات الملوك إذا اجتمعت إلى التعشِير، وهو ما يُشير إلى أنهم لم يكونوا حُكَّاماً لليمن حقّاً، وإنما كان لهم نوعٌ من النفوذ الأدبيّ، لعلَّه لم يتجاوز عَدَن وصنعاء إلا قليلاً. . وإني لأعتقدُ أن الوُلاةَ من أبناء الفُرس على صنعاء، وكان «باذانُ» آخِرَهم، لم يكونوا في الواقع أكثر من وكلاءَ لبعض ملوك فارس، يَرعَوْن لهم مصالحهم التجاريَّة في اليمن. فقد جرت عادة

---

(١) الإمتاع والمؤانسة: ١/ ٨٥، ونهاية الأرب: ٤٦٤، والأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٤.
(٢) أسواق العرب: ٢٧٣، ومعجم البلدان: ٥/ ٣٠٠.
(٣) المحبر: ٢٦٦، والأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٤.
(٤) المفصَّل: ٧/ ٣٩٤.
(٥) المحبَّر: ٢٦٦.

أولئك الملوك أن يُسَيِّروا القوافِلَ إلى أسواق العرب للمتاجرة، فكانت تبيع ما تحمله معها، وتشتري به ما يحتاج إليه الملوكُ من غَلَّاتِ العرب وحاصلاتهم، وكانوا يتَّفِقُون مع أشراف العرب على حماية قوافلهم، ويُؤَدُّون إليهم جُعلاً كبيراً أجْراً على ذلك[1]. . ولو كان ادِّعاؤُهم السيطرةَ على اليمنِ وعُمَانَ وهَجَرٍ واليمامةِ صحيحاً، لما احتاجوا إلى من يحمي قوافلهم، لأن ذلك معناهُ أنهم كانوا يسيطرون على الطريق الشرقيّ للقوافل بكامله في بلاد العرب. وهو ما كنا فصَّلنا الكلام عليه لمَّا تحدَّثنا عن الأمن عند العرب، وهذا ما يجعلنا في شكٍّ من أمر ولاية أبنائهم على جميع اليمن، ولا سيما أن رسول الله، عليه السلام، لمَّا كتب إلى «باذان» بصَنْعَاءَ، كتب في الوقت نفسه إلى مُلوك اليمن على مختلف مُدُنِه أو أقاليمه، إذ كان لكلِّ قبيلةٍ في مِخْلافِها مَلِكٌ عليها من أهلها، منذ قُتِل الملكُ سيفُ بنُ ذي يزَن، وتفرَّق مُلْكُ دولةِ حِمْيَر باليمنِ من بعده، وكان أولئك الملوكُ يُسَمَّوْنَ: العَبَاهِلَةَ، أي الذين أُقِرُّوا على مُلْكِهم لا يُزَالُونَ عنه[2].



المطلب الثالث ـ موسم سوق نَجْرانَ:

عَدَّ الهمدانيُّ سوقَ نجرانَ في مَواسمِ العربِ، من غير أن يُضيف إلى ذلك شيئاً يَهْدِينا إلى موقعِ قيام تلك السوق، أو زمانِ موسمها. والمعروفُ أن نجرانَ مدينةٌ قديمةٌ مشهورةٌ، تقع إلى الشمال من صنعاء، في منتصف الطريق إلى بِيشَة، وكانت محطةً من المحطَّات الكبرى على طريق القوافل

(١) المفصَّل: ١/ ٦٣٢ ـ ٦٣٣.
(٢) لسان العرب: ١١/ ٤٢٢ (عبهل).

الغربيّ. وهي منزلُ حَكَم العرب القديم «الأفعى بن الحُصَيْن» الجُرْهميّ، الذي حكم بين أبناء نزار بن مَعَدّ، في ميراثهم من أبيهم، ومن نَسْله: السيِّدُ والعاقبُ، أسقفا نجران، وكانا في الوفد الذي أراد مُباهَلَةَ رسول الله، عليه السلام[1].

وذكر ياقوتُ في كلامه على نجران ما يؤكد أن معظم أهلها كانوا من بني الحارث بن كعب، وهو جَدٌّ جاهليٌّ قديم، يمانيٌّ من قبيلة مَذْحج[2]، وكان لهم موسمٌ ينعقدُ بنَجران كلَّ سنةٍ، عند حُلول عيدٍ مُعيَّن لهم.. وذلك أن أهل نجرانَ كانوا في الجاهليَّة على دين العرب، وكانوا يتعبَّدون نخلةً عظيمةً، لها عندهم عيدٌ في كل سنة مَرَّةً، فإذا كان ذلك العيدُ، عَلَّقوا عليها كلَّ ثوبٍ حَسَنٍ وَجدوهُ، وزَيَّنُوها بالحُليّ، وجرى بينهم أثناءَ احْتِفالهم بَيعٌ وشراء.. ولمَّا تَنَصَّروا، أقاموا عليها كعبةً، سُمِّيتْ كعبةَ نجران، بَنَاها لهم بنو عبد المدان بن الديَّان، من بني الحارث بن كعب، وجعلوها على هَيْأَةِ كعبة مكّة، مُضَاهاةً لها، وعَظَّموها، فكان إذا جاءها الخائفُ أَمِنَ، أو طالبُ حاجَةٍ قُضِيتْ حاجَتُهُ، أو مُسْتَرفِدٌ أُرْفِدَ[3]، وكان موقعُها على نهرٍ بنجران[4]... وليس ببعيدٍ أن تكون كعبةُ نجران موضعَ «يَغُوث» أيضاً، وكان صَنَمَ مَذْحجَ كلِّها، وقد نقله بعضُ بني مُراد إلى نجران، وأَقَرُّوهُ عند قومٍ من بني الحارث بن كعب، ثم اجتمعوا عليه جميعاً[5].

---

(١) المحبَّر: ١٣٢، والأعلام: ٢/ ٥.

(٢) الأعلام: ٢/ ١٥٧.

(٣) اسْتَرفَدَ: طلب المعونةَ أو العطاء.

(٤) معجم البلدان: ٥/ ٢٦٦، ٢٦٨.

(٥) المحبَّر: ٣١٧.

ويبدو لي، من هذه الأخبار، أن سوق نجرانَ، التي أشار إليها الهمدانيُّ، كان موسمُها في عيد النخلة، ومن المعقول أنها صارت تقوم بعد ذلك في موسم العبادة، حِيَالَ كعبة نجران لمَّا أُقيمت للنصارى.

* * *

● تعقيب على موسم سوق نجران:

ذكر ياقوتُ في موضعٍ آخَر من كتابه أن «دَيْرَ نَجْرانَ» كان باليمن لآلِ عبدِ المُدانِ بن الديَّان، من بني الحارث بن كعب، ومنه جاء القومُ الَّذين أرادوا مُبَاهَلَة النبيّ عليه السلام. وكان بنو عبد المدان بن الديَّان بَنَوْا هذا الدَّيْرَ مُرَبَّعاً، مُسْتَوِيَ الأضلاع والأقطار، مُرْتفِعاً من الأرض، يُصْعَدُ إليه بدرجةٍ على مِثَالِ بناء الكعبة، فكانوا يحجُّون إليه هُم وطوائفُ من العرب، مِمَّن لا يعتقدون بحُرْمة الشهور الحرُم، ولا يحجُّون إلى كعبة مكة، وكان يحجُّ إلى الدَّيْر قبيلةُ خَثْعَم قاطبةً!.. وكان أهلُ ثلاثةِ بُيوتاتٍ يتبارون في البِيَعِ وإصْلاحِها للنصَارى: المَنَاذِرةُ بالحيرة، والغَسَاسنةُ بالشام، وبنو الحارث بن كعب بنَجْران، ويَبْنُونَ دِيَاراتِهم في المواضع النَّزِهَةِ عادةً، الكثيرةِ الشجرِ والرِيَاضِ والغُدْرانِ، ويجعلون في حيطانها الفُسيْفُسَاءَ، وفي سُقُوفها الذَّهَبَ والصُّوَرَ... وكان بنو الحارث على ذلك إلى أن جاء الإسلامُ، فقَدِم على النبيِّ، العاقِبُ والسيِّدُ، وإيليا أُسْقفُ نجرانَ، للمُبَاهَلَةِ، ثم اسْتَعفوهُ منها قبل أن تتمَّ. وكانوا يركبون إلى الدَّيْر في كل يوم أَحَد، وفي أيام أعيادهم، وعليهم الدِيباجُ المُذهبُ، والزنانيرُ المحلاَّةُ بالذهب، فإذا قضَوْا صلاتَهم انصرفوا إلى نُزَهِهم. وكان يقصدهم الوفودُ والشعراءُ من قبائل العرب، فيشربون، ويستمعون إلى الغناء، ويَلْهُونَ، ويمرحون[1]...

---

(١) معجم البلدان: ٢/ ٥٣٨.

وههنا ليَ ملاحظتان، **الأولى**: أن ياقوت أطْلَعنا في سِيَاق كلامه على دير نجران، أن نصارى العرب من المناذرة والغساسنة وبني الحارث بن كعب كانوا يتنافسون في بناء البِيَع والأَدْيِرَة، في العراق والشام واليمن. والملاحظة **الثانية**: أن دير نجران هو ما كان يُسمَّى عند العرب كعبةَ نجران، وأن مواسمه كانت أيامَ أعيادِ المسيحيين، وهي كثيرةٌ، ولعلَّ موسم السوق الذي أشار إليه المؤرِّخون كان يقومُ في واحدٍ منها، إن لم يكن حقيقةً في عيد النخلة كما كنا رجَّحْنَا، وقد رأينا قبلُ أن معظمَ أعْيادِ النصارى أصلُها أعيادٌ زراعيّةٌ أو وثنية.

أمَّا قولُ ياقوتَ بأن من كانوا يحجُّون إلى دير نجران من العرب، لم يكونوا يؤمنون بحرمة الشهور المحرَّمة، ولا يحجُّون إلى مكة، فقَولٌ فيه نظرٌ!.. ذلك أن قبيلة خَثْعَم، التي خصَّها بالذكر، هي التي تصدَّتْ للدفاع عن كعبة مكة[1]، من دون العرب جميعاً، لمَّا حَمَل عليها أبْرَهَة الحبشيُّ يبتغي هَدْمَها، وهو ما كنا فَصَّلنا فيه الكلامَ آنفاً لمّا تحدَّثنا عن المُحلِّين والمحرِّمين في الجاهلية، فأوْضَحْنا أن قبيلةَ خَثْعَم، وإن كانت من طائفة الحِلَّة، ليست من المحلِّين للحرمات الدينية، ذلك أن مذهب الحِلَّة في التديُّن إنما هو تقاليدُ مُخففَّةٌ، في مقابل تقاليدَ مُشدَّدةٍ لطائفة الحُمْس. أما قصدُ بني خَثْعَم ديْرَ نجرانَ للحجِّ إليه، فهو في اعتقادي قائمٌ على مَيْل العرب وقتئذٍ إلى أن تكون ديانتهُم جُملةً مُختارةً من الشعائرِ والمعتقَداتِ المُنْتَقاةِ من مختلف المِلَلِ والنِحَل، على سبيل المُشاركَة والمُقارَبَة. وقد ذكر ياقوتُ في غير موضع من كتابه أن قبائل لخم وغسَّانَ وكندة وملوكَ حِميَر كانت تحجُّ إلى مكة، ومثلُها قُضاعة، على نصرانيَّةِ مُعْظمها.

---

(١) السيرة لابن هشام: ١/ ٤٦.

الفصل العاشر

موسم سوق بَدْر

ذكرتُ من قبلُ أن أقْدمَ إشارةٍ إلى موسم بدرٍ قولُ ابن إسحاق: «وكان بَدْرٌ موسماً من مواسم العرب، يجتمع لهم به سوقٌ كلَّ عام..»[1]، وذلك في كلامه على غزوة بدر الكبرى، من غير أن يُعيِّن لنا موعداً لانعقاده، أو مُدَّةً لِقِيَامه، أو شيئاً عن موقعه. ثم جاء هذا الخبر في مُعْظم كتُب أهل الأخبار والسِّيرة[2]، وكان الاتفاق فيها قائماً على أن رسول الله، عليه السلام، خرج من المدينة لثلاثِ ليالٍ مضَتْ من رمضان[3]، يَتَرصَّدُ لقافلة أبي سفيان القادمة من الشام، وفيها أموالُ قريش[4]، وكان مُقدَّراً وصولُها إلى بَدْر في ذلك الوقت. ولكن أبا سفيان كان يَتَحسَّسُ الأخبار قُبَيل مَقْدَمه، تخوُّفاً على أموال الناس أن يعترضَها المسلمون[5]، فتأخَّر أياماً عن موعد وصوله، ثم أخَذ طريقَ الساحل، مبتعداً عن موضع بَدْرٍ، ومضى بالقافلة سالماً إلى مكة.

---

(١) السيرة لابن هشام: ١/٦١٨.

(٢) تاريخ الطبري: ٢/٤٣٨، والكامل: ٢/١٢١، والطبقات الكبرى: ٢/١٣، والأغاني: ٤/١٨٦ ـ ١٨٧، وصفة جزيرة العرب: ١٧٩..

(٣) تاريخ الطبري: ٢/٤٣١.

(٤) الكامل: ٢/١١٨، والمحبَّر: ١١١.

(٥) تاريخ الطبري: ٢/٤٢٧.

وكان موضعُ بدْرٍ «طريقَ رُكْبان قريش، مَنْ أخذ منهم طريق الساحل إلى الشام. . »[1]، ومنزلاً تنزلُه القوافلُ للتجارة والعبادة والراحة والتزوُّدِ بالماء، يقع بين مكة والمدينة، أسفلَ وادي الصفراء، وهو إلى المدينة أقربُ، بينه وبين مرفأ «الجار»[2] مسيرُ يومٍ وليلةٍ[3]، وبينه وبين المدينة ثمانيةُ بُرُدٍ تقريباً[4]، أو مسيرُ نحوِ أربعة أيام[5]. .

وقد ذكر ابنُ إسحاق في كلامه على غزوة بدر الصغرى[6]، أن الرسول، عليه السلامُ، خرج إليها في شهر شعبان، وتابَعَه على هذا القول سائرُ أهل الأخبار والمؤرخين[7]، إلا ابنَ سعد[8]، زعم أنها كانت في ذي القعدة، ولعله خلط بين غزوة السَّوِيق وغزوة بدر الموعد، وأضاف أن المسلمين خرجوا إليها ببضائعَ وتجاراتٍ، حتى انتهوا إلى «بَدْر الصفراء»[9]. .

---

(١) تاريخ الطبري: ٢/ ٤٢٢.

(٢) **الجَارُ**: مدينة على ساحل بحر القُلْزم، الأحمر، وهي مرفأ يثرب، كانت تَرْفَأُ إليها السفُنُ من مصر والحبشة وعدن والصين والهند، وتُسمَّى اليوم: «يَنبُع».

(٣) معجم البلدان: ١/ ٣٥٧، و٢/ ٩٢.

(٤) الطبقات الكبرى: ٢/ ١٣، ومعجم البلدان: ١/ ٣٥٨.

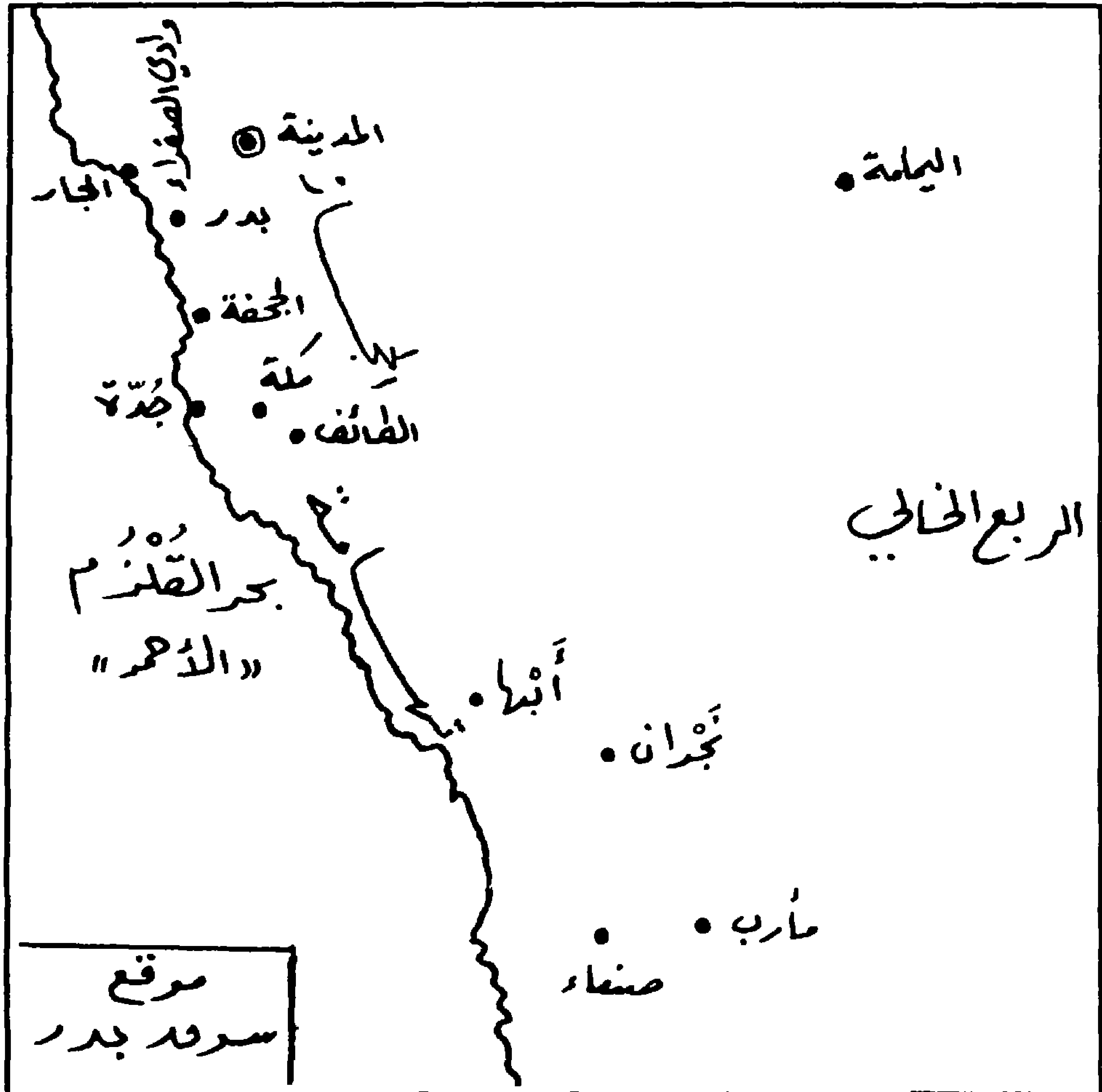
(٥) **البريد**: إثنا عشر ميلاً، **والمرحلةُ**: أربعة وعشرون، وهي مسافة كان المسافر يقطعها في يوم واحد، أي ليلةٍ. **والفَرسَخُ**: ثلاثة أميال (كرّرْتُ ذكرها هنا للتذكير بها).

(٦) **بدر الصغرى**: الغزوةُ التي سُمِّيت: **بدرَ الموعد**، لأن الرسول خرج فيها إلى بدر لميعاد أبي سفيان، ولم يكن فيها قتال، ويُقال لها أيضاً: **بدر الصفراء**.

(٧) السيرة: ٢/ ٢٠٩، وتاريخ الطبري: ٢/ ٥٥٩، والمحبَّر: ١١٣، والكامل: ٢/ ١٧٥، والبداية والنهاية: ٣/ ٩١. . .

(٨) سبقت ترجمته.

(٩) الطبقات الكبرى: ٢/ ٥٩ ـ ٦٠.


وادي الصفراء
المدينة
الجار
بدر
اليمامة
الجحفة
مكة
جدة
الطائف
الربع الخالي
بحر القلزم
"الأحمر"
أبها
نجران
مأرب
صنعاء
موقع
سوق بدر

والصفراءُ قريةٌ من نواحي بدر، كثيرةُ النخل والمزارع، وماؤها عُيُونٌ كلُّه، وكانت لِبني جُهَينة وفِهْر والأَوْسِ والخَزْرجِ وغيرهم[١]. ويبدو أنها كانت موضعَ السوق التي كان العرب يُقيمونها فيها أيام الجاهلية، وكانوا يجتمعون إليها في موسمها كل عامٍ ثمانيةَ أيام[٢]، ويقصدُها الناسُ من يثرب ومكة والجار وجُدَّة والجُحْفَة وغيرها من المواضع القريبة والمجاورة. . .

ذلك أن وصول المسلمين إليها وافَق قيامَ موسم السوق فيها، وكان: كما ذكر المؤرخون، موسماً عظيماً باع فيه المسلمون كلَّ ما خرجوا به معهم من التجارات، وأصابوا ربْحاً حَسَناً، ثم انصرفوا بعد أن أقاموا بها ثمانية أيام، ولم يَلْقَوا عَدُوّاً[٣]. . وقد تفرَّدَ ابنُ حبيب بالإشارة إلى أن الرسول، عليه السلامُ، خرج إلى «بَدْرِ الموعد، مُسْتَهلَّ شعبان، ورجَعَ لِعَشْرٍ بقين منه»[٤]، فأعاننا بذلك على تَعْيينِ اليوم الذي كان ينعقدُ فيه موسمُ بدر، ولا سيما بعدما عرفنا أن قيامه كان ثمانيةَ أيامٍ في كل عام.

والعربُ تقولُ: أَهَلَّ الشهرُ، واسْتهلَّ، إذا ظهر هلالُه، ويظلُّ الشهرُ في مُسْتَهلِّه ثلاثَ ليالٍ[٥]، أو حتى يتبيَّنَ ضوءُ الهلال، وهذا لا يكون إلا في الليلة السابعة[٦]. . فإذا قدَّرْنا أن الرسول خرج من المدينة في اليوم الرابع من شعبان، لزم من ذلك أن يكون وصولُه إلى مَوْضع الصَّفراء في اليوم السابع، بعد مسيرة أربعة أيام تقريباً، وأن يكون انعقادُ موسم السوق في اليوم الثامن،

---

(١) معجم البلدان: ٣/ ٤١٢.

(٢) تاريخ الطبري: ٢/ ٥٦١.

(٣) تاريخ اليعقوبي: ٢/ ٦٧.

(٤) المحبَّر: ١١٣.

(٥) صبح الأعشى: ٢/ ٣٩٦.

(٦) لسان العرب: ١١/ ٧٠٢ (هلل)، و١١/ ٦٧٣ (نفل)، والأزمنة والأنواء: ٣٥.

وقيامُه حتى الخامس عشر من شعبان. وإذا كان الرسولُ قَفَلَ عائداً إلى المدينة في السادس عشر، فإنه يكون قد وصل إليها في التاسع عشر، وقد بقيَ من الشهر، كما قال ابنُ حبيب، عشرةُ أيام، والمعروف أن عِدَّة أيام شعبان تسعةٌ وعشرون على رسْم أهل الحساب.

موقع سوق بدر وموسمه:

نَخلُص، من التحقيق الذي قدَّمناهُ، إلى أن موسم سوق بدر، كان موقعُه قريةَ الصفراء، أسفلَ الوادي بين المدينة والجار، إلى الجنوب منهما. وكان يقوم في اليوم الثامن من شهر شعبان، ثمانية أيام، ويَنْفضُّ في الخامس عشر. ويبدو من بعض الأخبار أنه كان مَوْضِعاً من المواضع المقدَّسة عند العرب، جعلوا فيه وَثَناً، أو صَنَماً مُقدَّساً[1]، يلتقون في موسمه للتجارة والعبادة، واللهْوِ واللعب والمرَح، فيَنْحرون الجُزُرَ، ويطعمون الطعام، ويسقون الخمر، وتَعْزفُ عليهم القِيَان[2].

---

(١) المفصَّل: ٧/ ٣٧٧.

(٢) تاريخ الطبري: ٢/ ٤٣٨.

الباب الرابع

مواسم أسواق بلاد الشام

الفصل الأول: حديث أسواق الشام

١ ـ أبو علي المرزوقي

٢ ـ زكريا القزويني

٣ ـ الخلاصة

الفصل الثاني: مواسمُ الأسواقِ المعروفةُ في الشام

● الأمن، والعشور

● أذرعات ـ توماء ـ الأردن ـ فلسطين ـ دير أيوب ـ بصرى ـ عمّان ـ منبج ـ موسم النبط ـ عيد تدمر.

الفصل الأول

حديث أسواق الشام

المطلب الأول ـ أبو علي المرزوقي:

يبدو فيما نُشِرَ من كتُب التُراثِ، حتى اليوم، أن المرزوقيَّ كان أوَّلَ من نقل إلينا حديثَ الأسواق الموسميَّة، التي كانت تنعقدُ بالشام أيَّامَ الجاهلية، وظلَّت على ذلك رَدحاً طويلاً في الإسلام. فقال:

«قال ابنُ كُنَاسَة:

١ ـ إذا غابت الثريَّا مع غُيُوبِ الشمسِ، لم تَرَها أربعين يوماً، فذلك أُفُولُها. وأهلُ الشام يُطْلِعُونَها لخمسٍ وعشرينَ ليلةً، من غير أن تَطْلُعَ، أو يَرَوْها، فيُقيمون أسواقهم.

٢ ـ فتقومُ سوق دَيْر أيُّوب، وهي أوَّلُ أسواقهم.

٣ ـ فإذا انفضَّتْ، اعْتَدُّوا سبعين يوماً، ثم أقاموا سوقَ بُصْرى. قال: وأدْرَكتُها تقومُ خمساً وعشرينَ ليلةً، وأُخْبِرتُ أنها كانت تقومُ بولاية بني أميَّة ثلاثينَ إلى أربعين ليلةً.

٤ ـ فإذا انفضَّتْ، اعْتَدُّوا سبعين ليلةً، ثم أقاموا سوقَ أذْرِعَات، وهي اليومَ أطْولُها قياماً، وربما لقيتُ الناسَ صادِرينَ منها، وأنا وارِدٌ إليها. . »[1].

---

(١) الأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦٩ ـ ١٧٠.

ولكي نفهمَ هذا النصَّ، علينا أولاً أن نَحُلَّ لُغزَ المقْطَعِ الأوَّلِ منه، وأن نفهم مَدْلُولَه ومعناهُ، فنتوصَّلُ بذلك إلى معرفة المواعيد التي كانت تقوم بها مواسمُ أسواق الشام، أو موعد سوق دير أيوب على الأقل.

١ ـ الثريَّا نجمٌ من ثمانية وعشرين نجماً هي منازلُ القمر[١]، وهي تطلعُ من أُفُق المشرق مرَّةً في السنة، فتظلُّ طالعةً تُرى في السماء ستةَ أشهُرٍ، ثم تسقط في أُفُق المغرب ستةَ أشهُرٍ أيضاً، فتظلُّ تُبصَرُ بالعَشِيَّاتِ فقط حتى تأفُلَ. وأُفُولُها أن تدخُلَ في شُعاع الشمس، فتخفَىٰ عن الأبصار مُدَّةً، تُرَىٰ بعدَها طالعةً من أُفُق المشرق. ذلك أن الشمس تنزلُ منازِلَ القمر، فتُقيم بكل واحد منها ثلاثةَ عَشَرَ يوماً، وكلما حَلَّتْ منزلةً سَتَرَتْها، وسَتَرتْ منزلةً قبلَها، ومنزلةً بعدَها، فلا تزال ثلاثُ منازِلَ منها مَحْجوبةً عن الأبصار بشُعاع الشمس، أي آفِلَةً لا تراها العينُ أربعين يوماً. على خلافٍ في وقت ابتداءِ الأُفُول، فالقائلون بوقوع الإعتدال الربيعي في الخامس عشر من آذار (مارس)، يُقدِّرون أُفُولَ الثريَّا في التاسع والعشرين منه، والقائلون بوقوعه في الواحد والعشرين من آذار (مارس)، يُقدِّرونه في نحو الثالث من نيسان (أبريل)[٢]. ويبدو أن أهل الشام كانوا يأخذون بالتقدير الأوَّل، ويجعلون ابتداءَ أُفُول الثريَّا في التاسع والعشرين من آذار (مارس). . ذلك أن العرب كانت تقولُ بطُلوع الثريَّا في العَشْر الأوسط من أيار (مايو)، أو في نحو الثالث عشر منه[٣]، والثريَّا من الكواكب الشاميَّة فهي تطلع بالشام قبل

---

(١) انظر جدول منازل القمر في الفصل الأول من الباب السادس في الجزء الأول من الكتاب.

(٢) الأزمنة والأنواء: ٩٥ ـ ٩٦، ١٠٨، ١٥٠، ١٥٣، ١٥٤، ١٥٧، ١٥٩، ١٦١، والأزمنة والأمكنة: ١/ ١٨٠، ١٨٣، وصبح الأعشى: ٢/ ٣٧٧ ـ ٣٧٨.

(٣) لسان العرب: ١٢/ ٥٧٠ (نجم)، والأزمنة والأنواء: ١٦١، والأنواء: ٢٦، وعجائب المخلوقات: ٧٧، ٧٨.

طلوعها في اليمن والحجاز[1]، ويراها أهلُ الشام قبل أن يراها أهلُ اليمن والحجاز ببضعة أيام، وعلى ذلك يكون طلوعُها في الشام نحو السابع من شهر أيّار، أي بعد أُفُولها أربعينَ يوماً.

أمّا قولُ ابنِ كنَاسة بأن أهل الشام يُطلعون الثريّا، أي يَعُدُّونها طالعةً من غير أن تطلع، وذلك بانقضاء خمسٍ وعشرين ليلةً على أُفُولها، فهو قولٌ غير دقيق، وصَوابُهُ أن أهل الشام كانوا يُقيمون موسمَ دير أيُّوب حينما تنقضي خمسٌ وعشرون ليلةً على أُفُول الثريّا، وذلك لعِلَّةٍ سنبيِّنُها في كلامنا على هذا الموسم، وليس لاعتقادهم بأنها طَلَعتْ وانتهى أُفولُها.

٢ ـ إذا كان ابتداءُ أُفُولِ الثريّا في التاسع والعشرين من شهر آذار (مارس)، حينما تَحِلُّ بها الشمسُ، فقيامُ موسم دير أيوب يكون في الثالث والعشرين من نيسان (أبريل).. وقولُه إنه أوَّلُ أسواقهم، لأن السنة كانت تُفتتح إذ ذاك في شهر نيسان (أبريل)، وكانت تُفتتح عند العرب قديماً في شهر رجب.

٣ ـ نلاحظ أنه لم يُعيِّن أَجَلاً لانْقِضَاءِ موسم دير أيوب، ولذلك تَعذَّر علينا أن نُعيِّنَ موعدَ قيام موسم سوق بُصْرى، وإن علمنا أن مُدَّة قيامه كانت خمساً وعشرين ليلةً في زمَنِ ابنِ كناسَة وما قبله.

٤ ـ وقد تعذَّرَ علينا أيضاً أن نعرفَ، من كلام ابن كناسة، موعدَ قيام سوق أذْرِعات وانقضائها، وإن ذكر أنها كانت أطولَ أسواق الشام قِيَاماً. فلْنَنظُرْ إذن فيما قاله القزويني، لعلَّنا نجد فيه ما نريد معرفته..

* * *

---

(١) الأزمنة والأمكنة: ١٩٨/١، ٢٠١، والأنواء: ١٠، ١١، والأزمنة والأنواء: ٦٢.

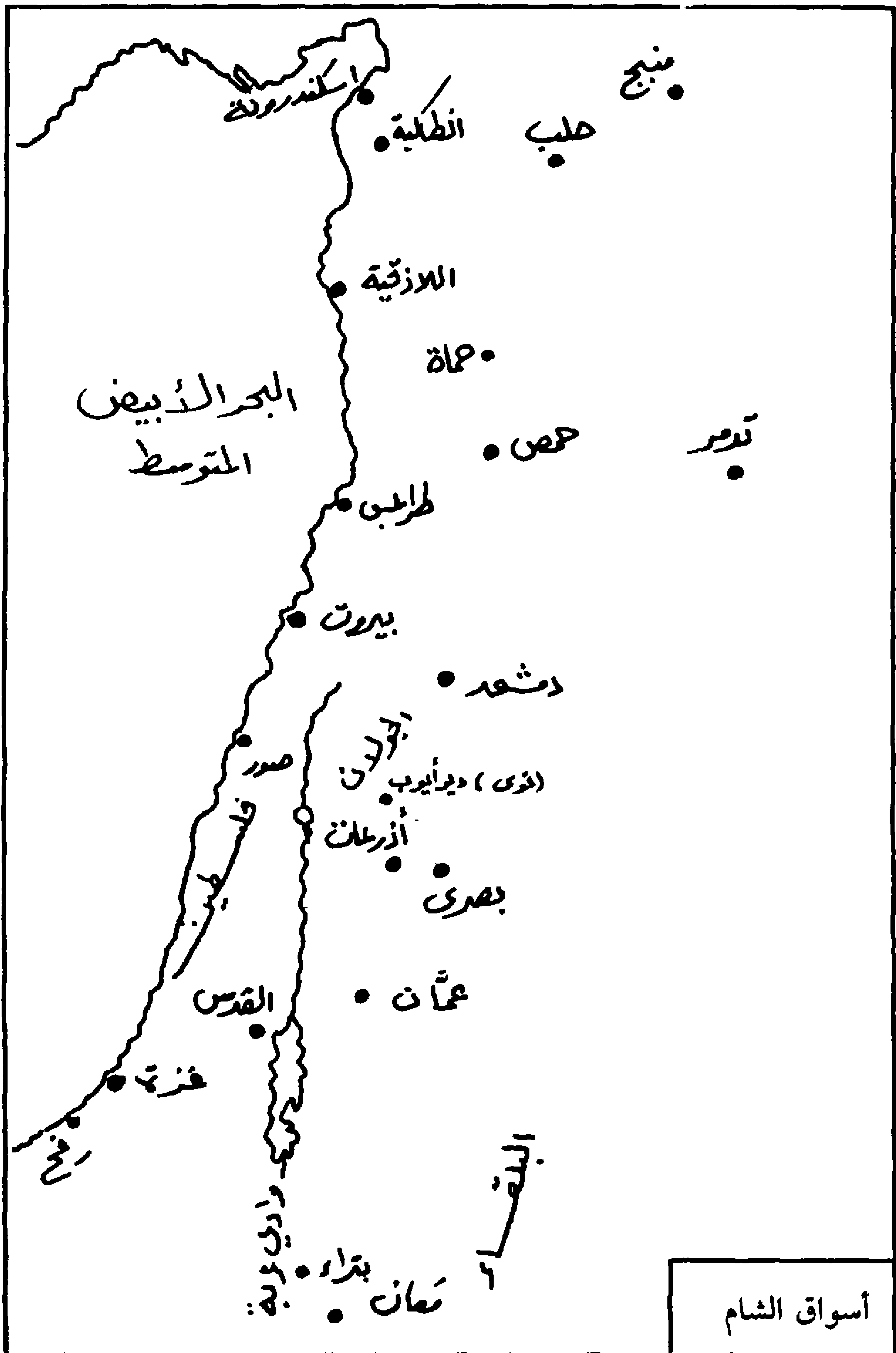
المطلب الثاني ـ زكريا بن محمد القزويني:

لئن كان حديثُ المرزوقي عن مواسم أسواق الشام جاء في نصٍّ خاصٍّ بها، فإن حديث القزويني عنها إنما هو بضعُ إشارات إليها، جاءت في أثناء كلامه على طبيعة كلِّ شهرٍ من شهور السنة الشمسيَّة، وما يتكرَّرُ وقوعُه فيها كلَّ سنة، ابتداءً من شهر تشرين الأول (أكتوبر)، إذ كان في أيامه رأسَ السنة الشمسيَّة، مثلما كان شهرُ صَفَرٍ الأوَّل (المحرَّم) رأسَ السنةِ عند العرب، ولكنَّ الجانبَ الجيِّدَ في حديث القزويني، ذِكْرُهُ مواعيدَ قيام تلك المواسم...

ذلك أنه لمَّا تحدَّث عن شهر تشرين الأول (أكتوبر)، وما كان يقع في أيامه من فَوران المياه، واضطراب البحر، واشتداد الريح، وبدءِ البرد، ذكر أن سوق «أذْرِعات» تقومُ في الثالث عَشَر منه[1].

ثم تحدَّث عن شهر كانون الأول (ديسمبر)، فذكر أن سوق «تُومَا» بدمشق تقومُ في اليوم الأول منه، وأن سوق «الأُرْدُنّ» تقومُ في الحادي عَشَرَ منه[2]. ثم أشار في كلامه على شهر نَيْسَانَ (أبريل)، أن سوق «فلسطين» تقومُ في الحادي والعشرين منه، وأن «موسم دير أيُّوب» بالشام يقوم في الثالث والعشرين منه[3]، وهو الموعدُ نفسُه الذي توصَّلنا إلى معرفته بالتحقيق في نصِّ المرزوقي... ولمّا تحدَّث عن شهر تموز (يوليو)، ذكر أن سوق «بُصْرى» تقوم في العاشر منه[4]. ثم تحدَّث عن شهر آب (أغسطس)، فذكر

(١) عجائب المخلوقات: ١١٥.
(٢) المرجع نفسه: ١١٦.
(٣) المرجع نفسه: ١١٨.
(٤) المرجع نفسه: ١١٩.


منبج
اسكندرونة
حلب
اللاذقية
حماة
البحر الأبيض المتوسط
حمص
تدمر
طرابلس
بيروت
دمشق
الجولان
صور
(نوى) دير أيوب
أذرعات
بصرى
فلسطين
عمان
القدس
غزة
رفح
بتراء
معان

أسواق الشام

أن سوق «عَمَّانَ» تقومُ في العاشر منه[1]. وأخيراً أشار إلى أن سوق «منبج» تقوم في الأول من شهر أيلول (سبتمبر)، وقال، مؤكداً على مَوْسِمِيَّة ما ذكره في هذا الفصل: «.. فهذه أمورٌ تتكرَّرُ في كلِّ سنة، على رأي أصحاب التجارب، في الأوقات المذكورة»[2].

فأسواق الشام إذن كانت ثمانيةً: أذرعات، تُوما، الأردنّ، فلسطين، دير أيوب، بصرى، عَمَّان، منبج.. ولكن القزويني لم يُحدِّثنا بشيءٍ عمَّا كان يجري فيها، ولم يُخْبرنا بمدَّة قيام كلٍّ منها! إلا أننا، بما حقَّقْناهُ من المعلومات في نصِّ المرزوقي، نستطيع أن نعرف المزيدَ عن مُدَّة قيام موسم دَيْر أيوب، وأن نَفْتَرِضَ مُدَّةً لقيام سوق أذرعات. وقد تَبيَّنَتْ لنا المطابقةُ التامَّةُ، بين الموعد الذي عيَّنَهُ القزوينيُّ لقيام موسم دَيْر أيوب في الثالث والعشرين من نيسان (أبريل)، والموعدِ الذي نقله المرزوقي لقيام الموسم نفسه بانقضاء خمس وعشرين ليلةً على أُفُول الثريَّا. فإذا كان بين ابتداءِ سوق بُصْرىٰ في العاشر من تَمُّوز، وانتهاءِ موسم دير أيُّوب، سبعون يوماً، فذلك يعني أن موسم دير أيُّوب يَنْفَضُّ في الثلاثين من نيسان (أبريل)، وأن مُدَّةَ قيامه ثمانيةُ أيَّام. وإذا كان موسم بُصْرى يقومُ خمسةً وعشرين يوماً، فإنه ينفضُّ في الثالث من شهر آب (أغسطس)، وبين الرابع من آب (أغسطس) والثاني عشر من تشرين الأول (أكتوبر) سبعون يوماً، وذلك يؤكد صِحَّةَ قيام سوق أَذْرِعات في الثالث عشر من تشرين الأول (أكتوبر)، وإذا كانت أطولَ الأسواق قياماً، فلعلَّها كانت تنفضُّ قُبيل انعقاد سوق توماء بدمشق في الأول من شهر كانون الأول (ديسمبر)، بعد قيامها نحو أربعين يوماً أو أكثر قليلاً.

* * *

(١) المرجع نفسه.

(٢) المرجع نفسه: ١٢٠.

المطلب الثالث ـ خلاصة التحقيق في حديث أسواق الشام:

يبدو من الواضح أن تحقيقَنا، في كلام كلٍّ من المرزوقي والقزويني، قد انتهى بنا إلى الكشفِ عن ثمانيةٍ من مواسم الأسواق، التي كانت تقومُ في بلاد الشام، وإلى معرفة مواعيد انعقادها جميعاً، إلا ثلاثةَ مواسمَ حَقَّقْنا مواعيدَ انْعِقادِها وانْقِضائها ومدَّةَ قيام كلٍّ منها، وهي:

١ ـ **سوق أذرعات**: وقيامُها في الثالث عشر من شهر تشرين الأول (أكتوبر)، نحو أربعين يوماً. ويقع هذا الموعدُ في شهر صفر الأول (المحرَّم) عند عرب الحجاز، أي في الخريف.

٢ ـ **موسم دير أيُّوب**: وقيامُه في الثالث والعشرين من شهر نيسان (أبريل)، ثمانيةَ أيامٍ، وانْقِضَاضُه في آخر الشهر. ويُوافِقُ هذا الموعدُ عند عربِ الحجاز شهرَ رَجَبٍ في أواخره، وأوائل شهر أيار (مايو) على التقريب، أي أواخر الربيع.

٣ ـ **سوق بُصْرَىٰ**: وقيامُها في العاشر من شهر تَمُّوز، خمسةً وعشرين يوماً، وانْقِضَاؤها في الثالث من شهر آب (أغسطس). ويقع هذا الموعدُ في شهر شوَّال إلى أيامٍ من أوائل ذي القعدة تقريباً، أي في فصل القَيْظ. وهو يُذكِّرنا برحلة قُريش في الصيف بتجاراتها إلى الشام[1].

---

(١) يجب أن نلاحظ أن الأستاذ الفاضل سعيد الأفغاني قد غلط لمَّا توهَّم أن أسواق دير أيوب وبصرى وأذرعات تقوم بعد مواسم عكاظ ومجنَّة وذي المجاز (أسواق العرب: ٣٦٣)، أي ابتداءً من شهر صفر الأول المحرَّم، لأن بين أذرعات وبصرى نحواً من ثمانية شهور، وبين دير أيوب وأذرعات ستة شهور، والواضح أنه عيَّنَ الموعدَ من غير أن يعرف شيئاً عن غياب الثريَّا ومُدَّة أفولها.

ومن الطبيعي أن نقول: إن هذه المواسم لم تكن كلَّ ما عرفه أهلُ الشام، بل هي ما ذكره بعضُ المؤرِّخين، فهنالك مثلاً موضعٌ، يقعُ إلىٰ الشمال من دمشق، ما يزال حتى اليوم يحملُ إسمَ «سوق وادي بَرَدَىٰ»، ولعلَّه كان مَحلاً لسوقٍ موسمِّيةٍ عند أهل دمشق... وهنالك أيضاً مدينةُ «البتراء»، عاصمةُ الأنباط في بلاد الشام الجنوبية، ولا شيءَ يمنعُ من الافْتِراضِ بأنها عرفتْ مواسمَ دينيَّةً وتجاريَّةً كبرى، كسائر بلاد العرب، ولا سيما، كما مرَّ بنا، أن مَقْدَمَ الأنباط بِغَلَّاتِ الشام إلى المدينة، كان يُقَامُ له موسمٌ ثابتٌ كلَّ عام يَشْهدُهُ أهلُ الحجاز. وإلى ذلك ذكر جواد علي أن الأنباط كانوا يقيمون موسماً دينيّاً كبيراً، سنتحدَّثُ عنه في الفصل التالي، في كلامنا على المواسم المعروفة ببلاد الشام، ونتكلَّم بعد ذلك على موسم العيد بتَدْمُر...

وأخيراً، إذا كان المرزوقيُّ نقل حديثَ أسواق الشام عن ابن كُنَاسَة، الذي أدرك بعضَها، وشَهِدَ مواسمَهُ، فإنه أطْلَعنا بذلك على أن تلك المواسم كانت ما تزالُ تقومُ حتى زمنِ ابنِ كناسة، المتوفَّىٰ سنة (٢٠٧ هـ = ٨٢٣ م)، وأنها ظلَّت تنعقدُ مواسمُها بعد ذلك، بدليل ما ذكره القزويني عنها، وقد تُوفِّي نحو (٦٨٢ هـ = ١٢٨٣ م)، مع أنه لم يذكر شُهودَهُ شيئاً منها، ولكنَّ قولَهُ: «فهذه أمورٌ تتكرَّرُ في كلّ سنةٍ على رأي أصحاب التجارب»، دليلٌ على أنها كانت ما تزال معروفةً عند الناس، وأنها من التقاليد الأَصِيلةِ عند أهل الشام... وبذلك يمكن القولُ بأن أسواق الشام ظلَّت تنعقدُ، في مواسِمِها المُعيَّنَةِ، نحواً من تسعة قرون، إذا افترضنا أنها بدأت في القرن الخامس للميلاد، مع أن بعضها ربما رجع إلى زمنٍ أبْعَدَ من ذلك.

هذا عن عَمَارتِها، وأمَّا من جانبٍ آخَرَ فأنا أعتقد بأن الأسواق الثلاثة:

أذْرِعات ودير أيُّوب وبُصرى، التي اجْتَزَأ المرزوقيُّ بذكرها، إنما كانت الأسواقَ الأكْثَر شُهرةً عند العرب، ولعلّها المحطَّاتُ الأخيرةُ التي وصلت إليها قوافلُ أهل الحجاز أيّامَ الجاهلية، فكان رُوَاتُهم يتناقلون أخبارها، وشعراؤهم يُكثِرون من ذِكْرها، والإشادَةِ بخُمورِها في أشعارهم، وإن كانت في الحقيقة مَواضِعَ لتبادُلِ صُنُوفٍ كثيرةٍ مُتَنوِّعَةٍ من العُروض والسِّلَع والغَلَّات، تُحمل إليها من مختلف البُلدان والبِقَاع..

وإلى ذلك فقد جاء في أخبار الجاهلية، أن تُجّار العرب كانوا يقصدون دمشق للاتِّجار بها، وربما للتصيُّفِ، أو لزيارة بعضِ أمراء بني غسّان، ممّن اتَّخَذُوا بها قصوراً... غير أن بعض أولئك التجّار كان يقفُ عند بُصْرى، فيتَّجِرُ في سوقها، ثم يعود منها إلى بلده، ومنهم من كان يتوجَّهُ إلى غَزَّة، حيث يكون بها تُجَّارٌ جاؤوها من سواحل البحر المتوسط يحملون معهم بضائعَ من مُدُنها[1].

* * *

(١) المفصَّل: ٧/ ٣٤٧ ـ ٣٤٨.

سوق وادي بردى

دمشق

الغوطة

كسوة

نهر الليطاني

بانياس

الجولان

الحولة

صنمين

فلسطين

نوى
(دير أيوب)

طبرية

فيق

جدرة

حوران

أذرعات
(درعا)

بصرى

نهر الأردن

بيسان

أم الجمال

جرش

سورية الجنوبية

الفصل الثاني

مواسم الأسواق المعروفة في الشام

● **الأمنُ والعُشُور:**

كان العربُ يَتَوطَّنُون بلادَ الشام، منذ ما قبل الميلاد بزمنٍ طويل، وكانت طوائفُ منهم تشتغلُ هنالك بالزراعة، وآخَرُون يَتَولَّوْنَ حمايةَ طرُق التجارة، وخُفَارةَ القوافل[1]. وكانت سياسةُ الرومانِ، ثم الرومِ البيزنطيين من بعدهم، تقومُ على التحالُفِ مع العرب، لأنهم أَقْدَرُ على حمايةِ المواضع التي تَتَّصِلُ تُخُومُها بالبوادي الواسعة، والصحارى الشاسعة، وأكثَرُ خِبْرةً وحِيلةً في صَدِّ هجماتِ الغُزاةِ عنها، سواء أكانوا من الأعراب، أو من العرب المتحالفين مع إيران[2]، أي قبائل الحيرة.

وفي أخبار الروم بالشام، أنه كان من الصعب عليهم أيضاً اسْتِيفاءُ العُشُورِ من التجار العرب، في مَقْدَمهم إلى حُدودِ الشام من جزيرة العرب، فكانوا يَكِلُونَ أَمْرَ الجباية إلى أمراءِ القبائل وساداتها، ممَّن لهم حِلْفٌ معهم، وتقفُ وَراءَهم قبائلُ قَوِيَّةٌ تَدْعَمُهم، ويَخْشَاها أصحابُ الغَزْو والغاراتِ غالباً[3]. وكان التجارُ العربُ إذا دَخَلُوا الشام عَشَّرَهُم رجالُ المكْسِ على

---

(١) المفصَّل: ٢/ ٣٨.

(٢) المرجع نفسه: ٢/ ٤٠.

(٣) المرجع نفسه: ٥/ ٣٠٩.

الحدود، وإذا تاجروا في أسواق الشام عَشَّرَهُم وُلاةُ هذه الأسواق[1]. وقد اشتُهرتْ قبيلةُ جُذَام بن عديّ، بقيام سادتها على تَعْشِير تُجَّار العرب في مَشَارفِ الشام، أواخِرَ عصر الجاهلية، ويبدو أن مُلوك الغَساسِنَة وأُمَراءَهم، كانوا يستعملونهم على هذا الأمر، وعُرِف منهم «زِنْباعُ بنُ رَوْح بن سَلامة» الجذاميُّ، وكان ينزلُ مَشارِفَ الشام، ويَعْشُرُ من مَرَّ به من التجَّار، عامِلاً للحارث بن أبي شَمِر الغَسَّاني.. وفي أخبار أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، أنه خرج تاجراً في الجاهلية مع نَفَرٍ من قريش، فلما وصلوا إلى فلسطين، قيل لهم: إن زِنْباعَ بنَ رَوْح بن سَلاَمة الجذاميَّ يَعْشُرُ من يمرُّ به للحارث بن أبي شَمِر، فعَمَدُوا إلى ما معهم من الذهب، فألْقَمُوهُ ناقَةً لهم، حتى إذا مَضَوْا إلى الشام، نَحَروها، وسَلِمَ لهم ذَهَبُهم. فلمَّا مَرُّوا على زِنْباع قال: فَتِّشُوهم! ففتَّشُوهم، فلم يجدُوا معهم إلا شيئاً يَسِيراً. فقال: اعْرِضُوا عليَّ إبِلَهم، فمرَّتْ به الناقَةُ نفسُها، فنظر إليها تذرفُ عيناها، فقال: إنحروها، إنَّ لها لشَأناً! فقال عمر: لأيّ شيء؟ قال: إن كان في بطنها ذهب، وإلا فَلَكَ ناقةٌ غيرها، وكُلْ هذه.. فشَقُّوا بطنَها، فسال الذهبُ، فأغْلَظَ عليهم زِنْباعُ في العُشْرِ، ونال من عُمَر، فتوعَّدَهُ عمرُ، وقال:

متى أَلْقَ زِنْبَاعَ بنَ رَوْحٍ ببلدةٍ لِيَ النصْفُ منها، يَقْرعِ السِّنَّ من نَدمْ[2]

وذُكر كذلك أن فَرْوَةَ بنَ عمرو الجذاميَّ كان عاملاً لقيصر الروم على عَمَّان، من أرض البلقاء، وكان رئيسَ جُذَام، وقد كتب إلى رسول الله، عليه السلامُ، بدُخُولِهِ في الإسلام[3]... وكان سلامَةُ بنُ رَوْح بن زِنْباع أَحَدَ من

---

(١) المفصَّل: ٧/ ٤٧٩.
(٢) الإصابة: ١/ ٥٣٣ (ت: ٢٨١٧)، ولسان العرب: ١/ ٢٦٤ (قرع).
(٣) تاريخ اليعقوبي: ٢/ ٧٩، والطبقات: ١/ ٢٦٢، ٢٨١.

تَولَّوْا جبايةَ العُشُور على مشارفِ الشام، وقد هجاهُ حسَّانُ بنُ ثابت، ووصفه بأنه دميةٌ وبئسَ الخفير[١]. وأكَّد ابنُ حزم أن رياسة معان وفلسطين كانت لبني جذام، وأن ضِبْعَانَ بن رَوْح الجذاميَّ وليَ الأُرْدُنَّ[٢].. وفي الإسلام كان رَوْحُ بنُ زِنْباع الجُذَاميُّ أمير فلسطين، وسيِّدَ اليمانيَّةِ في بلاد الشام، وقائدَهم[٣]... وكانت منازلُ بني جُذَام بن عَدِيّ تمتدُّ من مِدْيَنَ إلى تَبُوك، وإلى طبريَّة من أرض الأردن[٤].. وكانوا يحكُمونَ، من موقعهم هذا، طريقَ القوافل إلى أسواق الشام، وكانوا يفعلون ذلك بالإتفاق مع ملوك بني غسَّانَ، لأن عهدهم قريبٌ من زمن هؤلاء، ولعلَّ الأمر من قبلُ كان بأيدي الأنباط، أصحاب الدولة العربية المُتَقدِّمة، التي امتدَّتْ من شمالِ جزيرة العرب، إلى الأجزاء الجنوبية والشرقيَّة من فلسطين، وإلى حوران وبُصْرى ودمشق وسهلِ البقاع. فكانت في زمنها تحكُم طُرُقَ القوافل، وتَعْشُرُ من يمرُّ بها من التجَّار، كما تحكُمُ الأسواق التي تقومُ بولايتها في مَشَارفِ الشام حتى دمشق، وتَعْشُرُ المُتَاجِرين فيها. وقد ظلَّ تُجَّارُها، بالرغم من قضاء الرومان على دَوْلتهم سنة (١٠٦ م)، يَجُوبُون المُدُنَ القريبةَ والبعيدةَ بمتاجرهم، ويُقيمون الأسواق فيها عِدَّةَ قرونٍ بعد ذلك[٥]. ولمَّا قُسِمتْ فلسطين في عهد الروم البيزنطيين، أواخر القرن الرابع للميلاد، كانت البتراءُ، عاصمةُ الأنباط، المدينةَ الرئيسةَ في القسم الجنوبيّ منها[٦]... وعلى ذلك فالتَّعْشِيرُ في مَشَارفِ الشام وأسواقِها كان غالباً بأيدي العرب.

---

(١) المفصَّل: ٥/٣٠٩.

(٢) جمهرة أنساب العرب: ٤٢٠.

(٣) الأعلام: ٣/٣٤.

(٤) معجم قبائل العرب: ١٧٤.

(٥) المفصَّل: ٣/٤٩ ـ ٥٠.

(٦) تاريخ سورية ولبنان وفلسطين: ١/٣٨٩.

ويَحْسُنُ بي أخيراً أن أؤكِّدَ ما سبق لي الحديثُ عنه، في كلامي على قواعد الأمن عند العرب، من أن الأمن كان غالباً على أسواق الشام، وقوافلِ التجّارِ القادمين إليها، إذ كانت الإدارةُ فيها على العُموم قويّةً مُنظَّمةً، والأحوالُ مُستقرَّةً، والتَّدابِيرُ مُحْكَمةً، وبذلك كانت التجارةُ مُزْدَهرةً في جميع مُدُن الشام.

وننتقلُ، بعد هذا التمهيد، إلى الكلام على مَواضِع الأسواق التي تَوصَّلْنا إلى الكشف عنها في بلاد الشام، ثم نتحدَّثُ بعد ذلك عن موسم الأنباط، ونُتْبِعهُ بحديث آخر عن موسم العيد السنويّ بتَدْمُر.

المطلب الأول ـ سوقُ أَذْرِعَات:

أَذْرِعَاتٌ مدينةٌ في طَرَفِ الشام، تُسمَّىٰ اليومَ درعا. والنِّسْبَةُ إليها أَذْرَعِيٌّ[١]. تقعُ إلى الجنوب من دمشق، بجِوار أرض البَلْقَاءِ، غربيِّ حوران.. كان يحكمها في الجاهلية عُمّالٌ تَبَعٌ للروم، ولمّا ظهر الإسلامُ، طلب صاحبُها من المسلمين الصُّلْحَ، فَصُولح على ما صولح عليه أهلُ بُصْرى، ونال أهلُها عهداً بالأمان لأنْفُسِهم وبلدهم[٢].. وما تزال بادية فيها آثارُ طرُقٍ وحَوَانيتَ وموضعِ سوق كانت بها قديماً، ربما من أيّام الرومان، كما عُثِر في خَرائِبها على نقودٍ رومانيةٍ وبيزنطيّةٍ ونبطيّة، ضُرِبتْ بها[٣].

ويبدو لي أنها كانت تمتاز عند العرب بثلاثة أشياء، فهي أَدْنَىٰ بلاد الشام إلى الحجاز، ومُفْتَرَقُ الطرُق إلى بُصْرى ودمشق وفلسطين وعمَّان،

---

(١) لسان العرب: ٨/ ٩٧ (ذرع).

(٢) فتوح البلدان: ١٣٢.

(٣) المفصَّل: ٣/ ٦٠ ـ ٦١.

واشتهارُها بصناعة الخمر، إلى ما كانوا يجدونه فيها من أصناف الحبوب، التي تنبتُ بحوران، ثم تُحمل إلى سوقها.

ومثَالُ ذلك ما نقله الطبريُّ في بعض الأخبار، من أن الفُرسَ قاتَلُوا الرومَ بأذْرِعاتٍ وبُصْرىٰ، فغَلَبُوهم نحو سنة (٦١٥ م)، وكان النبيُّ عليه السلامُ يكرهُ أن يظهرَ الأُمِّيُّون من المجوس، على أهل الكتاب من الروم، فنزل في ذلك قولُه تعالى: ﴿**ألم غُلِبَتِ الرومُ في أَدْنىٰ الأرض وهم من بعد غَلَبِهم سيَغْلِبون..**﴾(١)، وأَدْنَى الأرض إلى بلاد العرب يومئذٍ أذرعاتٌ وبُصْرى(٢).

ومثالُه أيضاً أن طريق أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، في مَقْدَمِه الشامَ، سنة (١٥ هـ)، كان على أذرعات، ليُمْضيَ صُلْحَ أبي عبيدة مع أهل إيلياء بفلسطين، فلقِيَهُ هنالك المُقَلِّسُونَ، من أهل أذْرِعَاتٍ، بالسيوف والرَّيْحَانِ، فقال عمرُ: مَهْ، إمنعوهم! فقال أبو عبيدة: يا أمير المؤمنين هذه سُنَّتُهم، وإنك إن منعتَهم منها يَرَوْا أن في نفسك نقضاً لعهدهم. فقال: دَعُوهم(٣)..

ولأَذْرِعـاتٍ، مثـلُ مـا لخمـرهـا، ذِكْـرٌ مُسْتفيـضٌ فـي أشعـار العـرب وأخبارهم، جعل ياقوتُ عِلَّتَهُ في أن أذرعات بلدٌ يُنسَبُ إليه الخمرُ، ولم يَزَلْ من بلاد العرب في الإسلام وقبله. كقول امرىء القيس:

ومثْلِـكِ بيضـاءِ العَـوارضِ طَفْلَـةٍ لَعُوبٍ تُنَسِّيني، إذا قمتُ، سِرْبَالي

---

(١) سورة الروم، الآيات: ١ ـ ٣.

(٢) تاريخ الطبري: ٢/ ١٨٤ ـ ١٨٥.

(٣) فتوح البلدان: ١٤٥. **والتقْليسُ**: الضربُ بالدُّفِّ والغناءُ، واستقبالُ الولاة عند قدومهم بالرقص وأصناف اللهو، وهو أيضاً وضعُ اليدين على الصدر علامة الخضوع في العبادة.

تنــوَّرْتُهــا مــن أذْرعــاتِ، وأهلُهــا   بيثْـربَ أدْنَـى دارِهـا نظـرٌ عـالـي[1]

وقولِ أبي ذؤيب الهذليّ:

فمــا إنْ رحيــقٌ سبَتْهــا التِّجَــا   رُ مــن أذرعــاتٍ فَــوادي جَـدَرْ[2]

وقولِ بِشْر بن أبي خازم الأسَديّ:

كــأنَّ مُــدامَــةً مــن أذرعــاتٍ   كُمَيْتـاً، لَـوْنُهـا لـونُ الـرُّعَـافِ[3]

وذلك إلى أقوالٍ أُخَر كثيرةٍ، يطولُ الكلامُ إذا ما تقصَّيْناها جميعاً، وهي في جُملتها تُشِير إلى ما كان لمواسم سوق أذرعات من الإهتمام عند العرب.

* * *

المطلب الثاني ـ سوقُ تُوماء:

كلُّ ما نعرفُه أن تُوماءَ اليومَ حيٌّ في الناحية الشرقية من دمشق، وكانت قديماً قريةً من قُرى غوطة دمشق، يُنْسَبُ إليها بابُ تُوماء، أحَدُ أبوابِ دمشق[4]. ويبدو أن السوق كانت تقومُ بها، في اليوم الأول من شهر كانون الأوَّل (ديسمبر)، أي في أواخر الخريف. وأعتقد أنه كان يُبَاعُ فيها كلُّ ما اشتُهرت به دمشقُ من الصناعات كالنسيج والآنِيَةِ، وما تطرحه أشجار الغوطة ونباتُها في فصل الخريف.

* * *

---

(١) معجم البلدان: ١/ ١٣٠ ـ ١٣١. السِّرْبَالُ: القميصُ أو كلُّ ما يُلبَس. تَنوَّرَ: أبْصَر من بعيد.

(٢) لسان العرب: ٨/ ٩٧ (ذرع).

(٣) ديوان بشر بن أبي خازم: ١٤٣ ـ ١٤٤. المُدَامُ والمُدامَةُ: الخمرُ، والكُمَيْتُ: ما كان لونا بين الأحمر والأسود.

(٤) معجم البلدان: ١/ ٥٩.

المطلب الثالث ـ سوق الأردن:

لا نعلم بالتحديد أين كان مَوضعُ قيام هذه السوق من مُدُنِ الأُرْدُنّ وقُراه، وكانت كثيرةً مشهورة[1]. غير أنني أُرجِّحُ قيامها بمدينة «جَرَش»، فقد كانت من مُدُن القوافل ومراكز التجارة الكبرى. وهي تقع على بُعد اثنين وثلاثين ميلاً إلى الجنوب والشرق من «جَدَرَه»، وما تزال بها إلى اليوم آثارٌ رومانيَّةٌ تُشير إلى خَطَر مَوْقعها[2].



المطلب الرابع ـ سوق فلسطين:

وهذه السوقُ أيضاً نجهلُ موضعَ قيامها من مُدُنِ فلسطين، وأظنُّ أنها كانت تقوم بمدينة «غَزَّة»، إحدى مُدُن القوافل الكبرى، ومَقْصد كثير من العرب، وغير العرب، ومَرْفأ السفُنِ القادمة من بلاد الروم، وإيطالية، ومصر، ولبنان، فتُفْرِغُ فيه ما تنقلُه من العروض والسِّلَع المتنوِّعَة، وتحمل منه ما تحتاج إليه من بضائع غَزَّةَ وما يُجلبُ إليها من بلاد العرب، ولذلك كانت محطةً ضَرُوريَّةً ولازمةً عند أهل الحجاز[3]، وإليها كان مَتْجَرُ قريش، وفيها مات هاشم بن عبد مناف، وبها قَبرهُ. . وممَّا ذكره ياقوتُ عنها أنها مدينةٌ في أقصى الشام، على حُدودِ مصر، وهي من مُدُنِ فلسطين، تقع إلى الغرب من عَسْقَلان. وقد اشتُهرت عند العرب بجَوْدَةِ ما يُصْنَع فيها من الخمر، فذكرها شعراؤهم[4]، مَثَلُها في ذلك كمثَلِ أذرعاتٍ وبُصْرىٰ. . يقول

---

(١) المرجع نفسه: ١/١٤٨ ـ ١٤٩.

(٢) تاريخ سورية ولبنان وفلسطين: ١/٣٢٨ ـ ٣٢٩، ٣٥١.

(٣) المفصَّل: ٢/٦٥٣.

(٤) معجم البلدان: ٤/٢٠٢.

أبو ذؤيب الهُذَليُّ:

فما فَضْلَةٌ من أذرعاتٍ هَوَتْ بها مُـذَكَّـرةٌ عَنْـسٌ كهَـادِيَـةِ الضَّحْـلِ
تَـزَوَّدهـا مـن أهـل بُصْـرىٰ وغَـزَّةٍ على جَسْرةٍ مرفوعةِ الذَّيْل والكِفْلِ
بأطيبَ مِن فيها، إذا جئتُ طارقاً ولم يتبيَّنْ صادقُ الأُفُق المُجْلي(١)

* * *

المطلب الخامس ـ موسم دير أيوب:

أَيُّوبُ نبيٌّ قديم من أنبياء العرب، قيل إنه من بني عيسو بن إسحاق، وليس من بني إسرائيل، كان يسكن بين شرقيّ فلسطين وحَوْرَان. وكان غنيّاً، صاحبَ أموال عظيمة، فابتلاهُ اللَّهُ بأن أذْهَبَ أمواله حتى عاد فقيراً، وابتلاهُ في جَسَده بأن أصابه الجذام حتى تساقَطَ لحمه، فبقي مَرْمِيّاً على مَزْبلةٍ لا يُطيق أحدٌ رائحتَه ثماني عشرةَ سنةً، ولكنه ظلَّ على عبادة الله، وشُكْره، صَابراً حتى مَلَّتْهُ الناسُ إلا امرأته، فقالت له يوماً: لو دعوتَ الله! فقال لها: كم كانت مُدَّةُ الرَّخاء؟ قالت: ثمانين سنة، فقال: أنا أسْتَحيي من الله أن أدعوه، وما بلغتْ مُدَّةُ بلائي مُدَّةَ رخائي.. ثم إن الله عافَاهُ، ورزقه، وكثَّر أهْلَهُ(٢).

وسِفْرُ أَيُّوب في التوراة عربيُّ الأَصل، تُرجم من العربية إلى العبرية، بدليل ما فيه من أسماء للناس والأمكنة والنبات والحيوان، إلا إسمين غير معروفين زادهما المترجِمُ ليجعله عبرياً، ولكن أدباء الغرب وبعضَ المستشرقين

---

(١) **الفَضْلةُ**: الخمرُ، سُمِّيتْ بذلك لأن صَمِيمها هو الذي بقيَ وفَضل. **المذكَّرةُ العَنْسُ**: الناقةُ القويّةُ الشابّة. **هادِيَةُ الضَّحْل**: صخرة ملساءُ تنبت بالماء. **الجَسْرةُ**: الناقة العظيمة. أراد أن خُمورَ غَزَّة وبُصْرى وأذرعات، على طِيبِها، ليست بأطْيبَ من ريق حبيبته إذا جاءَها ليلاً.

(٢) مختصر تاريخ البشر: ١/١٦.

يؤكدون على عروبة هذا السِّفْر، ويَعُدُّون أيُّوبَ أوّلَ من ابتدع شعرَ الفواجع «DRAMA»[1].

وثمَّة إطباقٌ على أن منزله كان في «نَوَىٰ»، وهي قريةٌ من نواحي حوران، تقع إلى الجنوبِ والغربِ من دمشق، والشرقِ من طَبَرِيَّة، والشمالِ من درعا، وهي بلدةٌ قديمةٌ معروفةٌ، فيها قبرهُ، وعينُ الماء التي ركَضَها برِجْله، واغتسل منها كما أَمَرهُ اللَّهُ، والحِجْرُ الذي كان يأوي إليه في مرضه[2].

ويبدو أن عمرو بنَ جَفْنة، أوّلَ ملوكِ بني غسَّانَ في بادية الشام، أوائلَ القرن الثاني للميلاد[3]، أقام على قَبر أيُّوب دَيْراً[4]، فاشتُهِرت البلدةُ كلُّها بإسْم «دَيْرِ أيُّوب»، وذكرها ياقوتُ بمثل ما ذكرهُ عن «نَوَى»[5]. غير أن الأفغاني ذهب إلى أن دير أيُّوب في قرية «شيخ سعد» بحوران[6]، ولا أدري إن كانت هذه القريةُ هي نفسُها «نَوَىٰ» أو قريةً أُخرى.

ومن هنا نفهم أن موسمَ سوقِ دير أيوب، إنما هو في الأصل موسمٌ دينيٌّ، **يُقام بانقضاء خمسةٍ وعشرين يوماً على أفُول الثريَّا**، ويزورون خلاله قبر النبيّ أيُّوب، ثم يُقيمونَ سوقهم بالدَّيْر، أو بموضعٍ آخَر في البلدة. وهذه هي العِلَّةُ التي جعلتِ ابنَ كُنَاسَة يَرْبَكُ في فَهْم ما أرادَهُ أهلُ الشام بتعيينهم

---

(١) الأعلام: ١/ ٣٦ ـ ٣٧.
(٢) معجم البلدان: ٥/٣٠٦، وصبح الأعشى: ٤/١٠٨، وآثار البلاد وأخبار العباد: ١٣١، ومروج الذهب: ١/ ٦٠. .
(٣) الأعلام: ٥/ ٧٥.
(٤) المفصَّل: ٣/ ٤٠٠.
(٥) معجم البلدان: ٢/ ٤٩٩.
(٦) أسواق العرب: ٣٦٢.

ذلك الموعدَ لقيام موسم دَيْر أيُّوب، فتوهَّم أنهم كانوا يجهلون أُفُولَ الثريَّا أربعين يوماً قبل طلوعها، ولم يفطن إلى أن الموعدَ المعيَّنَ لا علاقةَ له بطُلوع الثريَّا، بل بابتداء أُفُولها فقط.

وقد أثْبَتَ الزركليُّ كلاماً للنَّوَوِيِّ[1]، ذكر فيه أنه كان بعَصْرِهِ قبرٌ في «نَوَىٰ»، يُعْتَقَدُ أنه قبرُ أيُّوب، فبنَىٰ عليه أهلُ نَوَىٰ مَشْهداً ومسجداً[2]... وهنالك أيضاً نصٌّ ذكر فيه ابنُ تَيميَّة: أن موسم دير أيُّوب كان عيداً بالشام، يشْهَدُهُ المسلمون، ويَشْهدون الأسواقَ التي تُقامُ فيه، ويجلبون إليه الأنعامَ والبُرَّ والشَّعيرَ والدقيقَ وغيرَها من صُنوفِ التجارات[3]. ويمكنُ أن نَسْتنتجَ من كلِّ هذا، أن موسمَ دَيْر أيوب كان ما يزال يقومُ في عصر القزويني والنَّوَوِي، أي في القرن السابع الهجري، والثالث عشر الميلادي، وأنه ظلَّ على ذلك حتى زمن ابن تيمية في القرن الثامن للهجرة، والرابع عشر للميلاد، ولكنَّ في نصِّ ابن تيميَّة ما يُشِير إلى أن الموسمَ كان ينعقدُ بدَيْرٍ أو بِيعَةٍ للنصارى، وأن المسلمين كانوا يَشْهدونَه، ويشهدون السُّوقَ أيضاً، وكان ذلك في الثالث والعشرين من شهر (نيسان ـ أبريل)، ثمانيةَ أيام، وانقضاؤه في آخر الشهر من كل سنة.

* * *

(١) مُحيي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف: (١٢٣٣ ـ ١٢٧٧ م)، ومن أهل القرن السابع الهجري، اشتُهِر بجمع الأحاديث وشرحها، له الأربعون النَوَوِيَّة، حَوَتْ قواعدَ الدين الأساسية.

(٢) الأعلام: ١/٣٧.

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم: ٢٠٢، ٢٢٧ ـ ٢٢٨.

المطلب السادس ـ سوقُ بُصْرى:

بُصْرىٰ مدينةٌ تاريخيَّةٌ عريقة، تقعُ في الجنوب الشرقي من إقليم حَوْران، في مَشَارفِ الشام، تِلْقَاءَ جزيرة العرب. وكانت من كُبْرَيَاتِ مدائن الشام، وهي من أكثَرِهنَّ آثاراً شاهدةً على ما كان بها من العُمْرانِ والمرافق الحسنة، وما كان لها من المجد والخَطَرِ في الأزمنة القديمة.. وإنَّا لنجدُ لها ذِكْراً في أخبار العرب، وأشعارهم، في الجاهلية والإسلام، ما لا نجِدُ مثلَه لدمشق نفسها، على ما كان بين أهل الشام عامّةً، وأهل الحجاز من علائق مُتَواصِلَةٍ، وذلك لأن بُصْرى، كما يبدو، كانت محطةً رئيسةً يَحُطُّ بها تجَّارُ العرب رِحَالَهُم، يحملون إليها حاصِلات الحبشة والهند واليمن والشحْر وحضرموت، ثم يعودون منها بما تَشْتهيه نفوسُ العرب من العُروض والسِّلَع التي اشتُهِرتْ بها، ولا سيما الخمر.

كانت بُصْرى في عهد الأنباط مركزاً كبيراً من مراكز التجارة والعِبَادة، وقد أقاموا فيها عدداً من الهَيَاكل والقُصور، لم يُبْقِ منها الدَّهْرُ إلا القليلَ، يُنْبِىءُ بما كانوا عليه من الحضارة والإرتقاء. ولمَّا قضى الرومانُ على دولةِ الأنباط (١٠٦ م)، أُلْحقَتْ بُصْرى بالولاية العربية الجنوبية، التابِعَة للأمبراطورية الرومانية، واتخذها بعضُ ملوكِ الأنباط مَقَرّاً لهم، بعدما تضاءل شأنُ عاصمتهم البتراء. ثم جُعلتْ بعدئذٍ عاصمةَ الولاية، وقَصبتَها العُظْمىٰ.. وقد وسَّعها الرومان، وشادوا بها كثيراً من المباني الرائعة، وأقاموا حولها سُوراً منيعاً، وجعلوا منها مَعْقلاً حَصِيناً من مَعَاقِلهم في وجه الصحراء، وما يمكن أن يأتيهم منها.. وما تزال آثارهم تُحدِّثُ بما كانت عليه في زمنهم من الفَخامة والعظَمة، ومن ذلك: الشارعُ الرئيسُ للمدينة، وبابُها في الطَرفِ الغربيّ منها، وعددٌ من الأعمدةِ، والأَرْوِقَةِ، وأقواسِ

النصر، وبقايا قُصورٍ وهياكلَ وحَمَّاماتٍ وقَنَواتِ مياه، وسوقٌ تجاريةٌ مَسْقُوفةٌ، وكاتدرائيةٌ كبرى، ومَسْرَحٌ يُعَدُّ من أكبر المسارح الرومانية الباقية، ومن أجْملها وأكْمَلِها، يتَّسِعُ لنحو أربعةَ عشَر ألفِ مُشَاهِدٍ، وقد جعله العربُ بعد الفتح الإسلامي قلعةً، ويقوم في جنوب المسرح ملعبٌ كبير، كانت تجري فيه ألعابٌ كالألعابِ الأُلِمْبِيَّة، ينعقد موسمُها كلَّ أربع سنين. وهنالك بقيَّةٌ من مَبْنى قديمٍ، يُقالُ إنه منزلُ الراهبِ «بحيرا»، الذي بَشَّرَ رسولَ الله ﷺ بالنبوَّة، ومَسْجدٌ بُنِيَ، في العصر الإسلامي، على الموضع الذي بَرَكَتْ به ناقةُ رسول الله، لمّا قَدِمَ بُصْرى بتجارةٍ للسيدة خديجة بنت خُوَيْلد، وهو أحَدُ مسَاجدِ المدينة، أُقيمتْ له مِئْذَنَةٌ عالية، مُربَّعةُ الشكل، في القرن الثاني عشر، وإلى جانبه مدرسةٌ تُعَدُّ من أقدم مدارس الشام.

ولمَّا اعْتَلىٰ عرشَ الإمبراطورية الرومانيَّةِ الإمْبراطورُ فيليب العربيُّ، أحدُ أبناءِ بُصْرى، زاد في مبانيها ومَرافِقِها، حتى بلغت في عهده (٢٤٤ ـ ٢٤٩ م) مرتبةَ المـدُنِ الكبرى، وسُمِّيَتْ «بصرى متروپوليس». . وإلى ذلك كانت تَصِلُها بسائر المـدن السورية طرُقٌ مُبَلَّطـةٌ بالحجارة المرصوفـة، نُصِبتْ على مراحلها علاماتٌ لهداية المسافرين، وصـارت تُعَدُّ واحدةً من أكبر مُدُن القوافل بعد سقوط البتراء وتدمر، وأَضْحَتْ تلتقي فيها، وتَصْدُرُ عنها جُملةُ الطرُقِ القديمةِ المعروفةِ للقوافل التجارية، فتربطُها بالحجاز والأُردنّ وفلسطين ومصر ودمشق، ومُدُنِ المتوسط والبحر الأحمر والخليج العربي. ثم ظلَّت مزدهـرةً حتى فتحها المسلمون سنـة (٦٣٤ م)، وكانت أوَّلَ مدينة بالشام تسقط بيد خالد بن الوليـد، ويومئذ قال قَوْلتَه الشهيرة مُعْجَباً بها: بُصْرى مِينَاءُ الشام والعراق. . . ولم تبلغ بعد ذلك من الإزدهار، ما بلغتْه في عهد الرومان، مع عناية الأُمَويِّين بها، وتَوفُّرِهم على رعاية

مواسمها[1].



نخلُصُ مما قدَّمْنَا إلى أن شهرة بُصْرى كانت قائمةً قديماً على موقعها الجغرافيِّ الجيِّد، ومركزِها السياسيّ والتجاريّ المُتَميِّزِ، فكانت سوقُها الموسميَّةُ بذلك أكثَرَ أسواق الشام خَطراً عند تُجَّار العرب، وأَشَدَّها اجْتِذاباً لأَهلِ الحجاز، ولعلَّها آخِرُ مَوْضعٍ كان تُجَّارُ مكة يصلون إليه بقوافلهم وتجاراتهم، فيبيعون فيه ويشترون، ويُؤَدُّون العُشُورَ إلى وُلاةِ السوق عن مُتَاجرتهم فيها، ثم يعودون بما اشْتَرَوْهُ من مَتَاجِر الشام والطُّرَفِ المصنوعةِ فيه، أو المستوردةِ إليه من بلاد الروم وبعضِ مُدُن أوروبة، بما في ذلك الرقيق الذي كان يُجْلَبُ إلى سوق بُصْرى من مختلف البلدان[2]. وكانت تُصْنَعُ في بُصْرى أنواعٌ جِيَادٌ من السيوف، وتُنسَبُ إليها السيوفُ البُصْريَّةُ، وصَفَائحُ بُصْرىٰ، وهي السيوفُ العريضةُ التي أخْلَصَتْ صُنْعَها قُيُونُ بُصْرى، فجاءتْ بها خالصةً من العُيُوب.. والقَيْنُ: الحدَّادُ، وكلُّ صانعٍ ماهرٍ بيده قَيْنٌ[3].. ولا يَقلُّ اشْتهارُ بُصْرى بصناعة السيوف عن شُهْرتها بصُنْع الخمر، التي كان العربُ يَسْتَطيبونها، ويُقْبِلونَ على شرائها، ونَقْلِها معهم إلى بلادهم، كما تبيَّن لنا من إشادة شعرائهم بذكرها في قصائدهم. ولا شك في

---

(١) المراجع: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين: ١/ ٣٢٣، ٣٢٤، ٣٢٩، وسورية ـ قضايا حفظ المواقع الأثرية: ٣٨ ـ ٣٩ (مطبوعات الأونيسكو ومديرية الآثار بدمشق ١٩٥٥)، والمفصَّل: ٣/ ٤٨ ـ ٤٩، ٦٢ ـ ٦٣، ٦٩، و٧/ ٢٧٨، ورحلة ابن بطوطة: ١١١ (دار صادر ١٩٦٤ م، بيروت)، ومعالم الحضارات: ١٣٥ ـ ١٣٦، وخريطة أثر روما في بادية الشام (١٩٨٠ م) تدقيق محمد علي مادون، وتاريخ اليعقوبي: ٢/ ١٣٤.

(٢) المفصَّل: ٢/ ٦٣٢، و٢/ ٦٥٢، و٣/ ٦٣، و٥/ ٤٢٣، و٧/ ٢٩٢.

(٣) لسان العرب: ٤/ ٦٨ (بصر)، والمفضَّليات: ٦٦.

أن رحلة قريش في الصيف، التي ذكرها القرآنُ الكريم، كانت إلى سوق بُصْرى، فالسوقُ كانت تقومُ، كما رأينا، في العاشر من شهر تموز (يوليو)، أي في نحو السابع عشر من شهر شَوَّال، مع تحرُّكِ هذا الموعد في التقويم القمريّ ضمنَ مُدَّةِ ثلاثةٍ وثلاثينَ يوماً، مُتأخِّراً فيها عن موعده في التقويم الشمسيّ، ثم يَعودُ بعدها إلى مثل ما كان عليه.. أي أنه يكون أولاً في السابع عشر من شوَّال، ثم يأتي ثانياً في الثامن والعشرين منه، ثم يأتي أحياناً في العاشر من ذي القعدة، ثم يعود من جديد إلى ما ابتدأ منه أولاً، وذلك لِقُصُور السنة القمريَّة أحَدَ عَشَر يوماً عن الشمسيَّة، وهذا كلُّه من باب التقريب لا أكثر[1].



وقد جاء في ذِكر بصرى ومَوسمِها عند العرب من الأخبار ما يؤكِّدُ أنها كانت مدينةً عربيَّةً... وفي أخبار السيرة أن رسول الله، عليه السلام، ارتحل إلى بُصرى مرَّتيْن، الأُولى لمَّا كان في الثانية عشْرةَ من عمره، خَرج به إليها عَمُّه أبو طالب، في تجارةٍ لقُريش، ونزلوا هنالك بالراهب بحيرا، فصنع لهم طعاماً، ودعا إليه جميع من كانوا في العِير مِن قريش. والثانية لمَّا كان في الخامسة والعشرين، خرج في عِير قريشٍ، بتجارةٍ للسيدة خديجة بنت خويلد، حتى قدم بصرى، فحضَر السوق، فباع سلْعتَهُ التي جاء بها، واشترى بثمنها غيرها، ورجع إلى مكة، فأضْعَفَتْ له خديجةُ ضِعْفَ ما سمَّتْ له من الأجْر، لأنها ربحت ضِعْفَ ما كانت تربحُ عادةً[2]...

---

(١) قَدَّرنا هذه المواعيد على ما سبق أن حقَّقناه في حديث المواسم والأزمنة، وعلى افتراض أن الأول من تشرين الأول ـ أكتوبر، يقع وقتئذٍ في الأول من المحرَّم.

(٢) الطبقات الكبرى: ١/ ١٢١، ١٢٩ ـ ١٣٠، ١٥٦، و٨/ ١٦.

ولمَّا كتب رسولُ الله ﷺ إلى قيصر الروم، يدعوه إلى الإسلام، بعث دِحْيَةَ بنَ خليفة الكلبيّ بكتابه، إلى والي بُصْرى ليدفعَ الكتابَ إلى قيصر، وكان يومئذٍ بحمص[١]. . وهذا دليل على أن بُصرى كانت غالباً آخِرَ ما يَصِلون إليه.

وذكر الواقديُّ في إسنادٍ له، أن طلحةَ بنَ عبيد الله قال: حضرتُ سوق بصرى، فإذا راهبٌ في صَوْمعته يقول: سَلُوا أهلَ الموسم، أَفِيهم رجلٌ من أهل الحرَم؟ فقلتُ: نعم، أنا. فقال: هل ظهر أحمدُ بعدُ؟ قلتُ: ومَن أحمد؟ قال: ابنُ عبد الله بن عبد المطلب، هذا شَهْرُهُ الذي يخرج فيه، وهو آخِرُ الأنبياء في مخرجِه من الحرم، ومهاجِرُهُ إلى نخلٍ وحَرَّةٍ وسِبَاخٍ، فإيَّاكَ أن تُسبق إليه. ! قال طلحة: فوقع في قلبي ما قال، فخرجتُ سريعاً حتى قدمتُ مكة، فسألتُ: هل كان من جديد؟ قالوا: نعم، محمد بن عبد الله الأمينُ قد تنبَّأ، واتَّبَعَهُ أبو بكر بن أبي قُحَافَة. قال: فخرجتُ حتى قدمتُ على أبي بكر، فقلتُ: أتَبِعتَ هذا الرجلَ؟ قال: نعم، فانْطَلِقْ إليه، فادْخُلْ عليه، فاتَّبِعْهُ، فإنه يدعو إلى الحق. . فأخْبَرَهُ طلحةُ بما قال الراهب في موسم بصرى، فخرج أبو بكر بطلحةَ ودخل به على محمد، فأسْلم، وأخْبَرَ النبيَّ بما قاله الراهب، فسُرَّ بذلك[٢].

وجاء في بعض الأخبار الطريفة أن أبا بكر الصدِّيق خرج في تجارة إلى بُصْرى، ومعه سُوَيْبِطُ بنُ حَرْملة[٣]، وكان مَزَّاحاً، وخرج معهم نُعَيْمانُ

---

(١) الطبقات الكبرى: ١/ ٢٥٩.

(٢) البداية والنهاية: ٣/ ٢٨.

(٣) **سُوَيبط بن حرملة**: من بني عبد الدار بن قصيّ، كان من مُهاجِرةِ الحبشة، ثم شهد بدراً وأُحُداً.

الأنصاريُّ[1]، وكان مَزَّاحاً أيضاً، وكان في الرحلة مُوكَلاً بالزَّادِ، فسأله سُوَيْبِطُ في بعض الطريق أن يُطعمه، فقال: حتى يجيءَ أبو بكر! فكتمها في نفسه منه وقال له: أمَا والله لأَغِيظَنَّكَ.. ثم مَرُّوا بقومٍ، فانْتَحى بهم سويبط، وقال لهم: أتشترون مني عبداً؟ قالوا: نعم. فقال: إنه عبدٌ له كلام، وسيقول لكم: إني حُرٌّ، فإن كنتم إذا قال لكم هذه المقالة تركتموه، فلا تُفسِدوا عليَّ عبدي.. قالوا: بل نشتريه منك. فاشتروهُ بعَشْرِ قلائص[2]. ثم جاؤوا، فوضعوا في عُنُق نُعيمانَ حبلاً، وأخبروه بأنهم اشْتَرَوْهُ، فقال لهم: إن هذا يَسْتهزِىءُ بكم، وإني حُرٌّ. فقالوا: قد عرفنا خَبَرك! وانطلقوا به، فلما جاء أبو بكر أخبروه بذلك، فاتَّبَعَ القومَ، وردَّ عليهم القلائصَ، وأخذهُ منهم.. فلما قَدِمُوا على النبيّ، أخبروه، فضحك هو وأصحابُه من ذلك حَوْلاً[3]...

وفي أشعار العرب ذِكْرُ بُصْرى، ومَنْ حلَّ بها من الأَحِبَّة، أو ارتحل عنها[4]، كالذي قاله شاعرٌ من أهل نَجْد، يَحِنُّ إلى بلده، وهو نازلٌ ببُصْرى:

أيا رِفْقةً من آل بُصرى تحمَّلوا ... رسالتَنا، لُقِّيتِ من رِفْقَةٍ رُشْدا
إذا ما وصلتُم سالمينَ، فبَلِّغُوا ... تحيّةَ من قد ظنَّ أن لا يَرىٰ نَجْدا

---

(١) **نُعَيْمانُ بن عمرو الأنصاري**: صحابي، شهد بدراً وأُحُداً والخندق. كان مَزَّاحاً يُضْحِكُ النبيَّ، عليه السلام، وله في ذلك أخبار كثيرة. تُوفي بُعَيْد (٤١ هـ = ٦٦١ م).

(٢) **القلائص**: مفردها قَلُوص، وهي الناقة الشَّابَّةُ، الطويلةُ القوائم.

(٣) أخبار الظراف والمتماجنين لابن الجوزي: ٤٧ ـ ٤٨، طبعة دار الشورى، بيروت ـ ١٩٨٣ م.

(٤) معجم البلدان: ١/ ٤٤١.

وكقَوْلِ الصِمَّة بن عبد الله القُشَيريّ[١]:

نظرتُ، وطَرْفُ العينِ يتّبعُ الهوى بشَـرْقـيِّ بُصْـرى، نظـرةَ المُتَطـاوِلِ
لأُبْصِـرَ نـاراً أُوقِـدَتْ بعـد هَجْعَـةٍ لِرَيّا، بذاتِ الرِّمْثِ من بطن حائلِ[٢]

وقَولِ الرمَّاح بِن ميَّادة[٣]، يذكرُ خشيتَه من الفراق، إذا بلغت حَبيبتُهُ بُصرى، حيث يسكنُ أهلُها، وغُلِّقَتْ من دونها أبوابُ قصرها:

إذا هَبَطـتْ بُصْـرى تَقطَّـعَ وَصْلُهـا وأَغْلَـقَ بَـوَّابـانِ مـن دونهـا قَصْـرا
فـلا وَصْـلَ، إلا أن تُقَـارِبَ بيننـا قلائِصُ يَحْسِرْنَ الطريقَ بنا حَسْرا
فيـا ليـتَ شعـري هـل يَحِلَّـنَّ أهلُهـا وأهْلِيَ رَوْضاتٍ ببطنِ اللِّوَىٰ خُضْرا[٤]

وقد ذُكر أن الشاعر المُتَلَمِّسَ، جرير بن عبد المسيح، كان نديماً للملك عمرو بن هند بالحيرة، فلما غضب عليه، وأمر بقتله، فرَّ إلى الشام، وسكن بُصرى، ثم مات بها[٥].

فهذه جُملةٌ من الأخبار والأشعار إن كان لها أن تَدُلَّ على شيءٍ، فعلى وَثاقَةِ عَلائق العرب بمدينة بُصْرى، في الجاهلية والإسلام، واطِّرادِ انتقالهم

---

(١) الصِمَّةُ بن عبد الله: من بني قُشَيْر، من عامر بن صعصعة، شاعر بدويٌّ غَزِلٌ، من شعراء العصر الأمويّ، ومن العُشَّاق المُتيَّمين. توفي نحو (٩٥ هـ = ٧١٤ م).

(٢) حائل: موضعٌ واسعٌ بأرض اليمامة، لبني قُشَير، وهو وادٍ أصلُه من الدَّهْناء. وذاتُ الرِّمْث: موضعٌ هناك.

(٣) الرَّمَّاحُ بن يزيد: وميَّادةُ أمُّه، وهو من بني مُرَّة بن عوف، من ذبيان، وكان فصيحاً يُحتجُّ بشعره، توفي نحو (١٤٩ هـ = ٧٦٦ م).

(٤) حَسَرَ: كشَفَ. اللِّوَىٰ: موضع ببلاد غطفان، وهو يتمنَّىٰ أن يرجع أهلُها وأهلُه للارْتباع في بطنِ اللوى، حيث كان يلقاها في مواسم الربيع.

(٥) الشعر والشعراء: ١٨٢، والأعلام: ٢/١١٩.

إليها، وإقامتهم بها، وشُهودِهم مواسمَ سوقها، ومُتَاجرتهم فيها، وقد لاحظنا من قبلُ، أن موسمها كان في الجاهلية يقوم خمسةً وعشرين يوماً، فصار في أيام بني أُميَّة يقوم ثلاثين إلى أربعين يوماً. . وما من شك في أن معظم أهلها كانوا عَرَباً، ذكر المؤرخون منهم بني مُرَّة وبني فزارة، من قبائل قيس بن عيلان[1]، وذكروا أن طوائفَ منهم كانت من العرب المُتَنصِّرة. أمَّا نزولُ الرومان، ثم الروم بها، فأمرٌ طارىءٌ، ولكنه يُرَجِّحُ عندنا إحْسَانَ العربِ في بُصْرى لغةَ الروم إلى جانبِ العربيَّة، وتأثُّرَهم بجوانبَ من حضارتهم، ولا سيما العمران ووسائل العَيْش، وأكثرُ العربِ تأثُّراً بذلك الأنباطُ والغساسنةُ.



المطلب السابع ـ سوقُ عَمَّان:

مدينةُ عمَّان عاصمةُ الأُردنّ، مَوْضعُ سُوق عمَّانَ الموسمية، مدينةٌ قديمة جدّاً ببلاد الشام، ذكر ياقوتُ أنها كانت قَصبةَ أرضِ البلقاء، على سِيفِ البادية، وربما كان الكهفُ والرقيمُ بالقُرب منها، وكانت بها مَزارِعُ وأنهارٌ وأَرْحِيَةٌ يُدِيرها الماءُ، وهي مَعْدِنُ الحبوبِ والأنعام[2].

ويذكر المؤرخون أن عمَّانَ هي مدينةُ «رَبَّةِ عَمُّون» عاصمة العَمُّونيين، وقد جُدِّدَ بناؤها، وأُعِيدَ عمرانُها في عهد الإمبراطور فيلادلفوس اليوناني (٢٨٥ ـ ٢٤٧ ق.م)، وتكريماً له سُمِّيت «فيلادلفيا»، ثم صارت من المدن المشهورة، التابعة للرومان في بلاد الشام، وكان يمرُّ بها طريقان قديمان،

---

(١) المفصَّل: ٣/ ٦٣.

(٢) معجم البلدان: ٤/ ١٥١، ٣/ ٦٠، ٦١.

أحدهما يمتدُّ من بلاد الشام إلى بصرى، ثم إلى فيلادلفيا، وينتهي عند البحر الأحمر، والثاني من فيلادلفيا إلى جرش، فبُصْرى. وكانت من المدُنِ ذات الحصون القويَّة، والقِلاع المنيعةِ في أيام الرومان، وتدلُّ بعضُ الآثارِ المكتشَفَةِ فيها، أنها كانت بأيدي الأنباط سنة (٦٥ ق.م)، وما تزال بها آثارٌ مختلفةٌ رائعة، منها هيكلٌ، ومَعْبدٌ، ومَسرحٌ رومانيٌّ، وقلعةٌ على جبلٍ يُقال إنها قلعةُ جَالُوتَ الفلسطينيّ، الذي كان جبَّاراً قويّاً، لم يَقْوَ عليه أحدٌ من بني إسرائيل، إلا داود النبيّ، نازَلَهُ، وتمكَّنَ منه فقتله.. ويقعُ قصرُ القَسْطل، على عشرين ميلاً إلى الجنوب من عمَّان، وهو من بناء الملك الغسَّانيّ الحارثِ بن جَبَلة، وقيل بل هو من بناء الخليفة الأُمويّ الوليد الثاني بن يزيد.. وكان فتحُ عمَّانَ في الإسلام سنة (٦٣٥ م)، فتحها يزيدُ بن أبي سفيان[1]. وقد مرَّ بنا أن موسم سوقها كان يقومُ في العاشر من شهر آب (أغسطس)، ولا نعرف شيئاً عن مُدَّة قيامه، ولكننا نعرف أن أكثَرَ ما كان يتوافَرُ فيه من المحصولِ المحلِّيّ الحبوبُ والعَسَلُ والأنعام.

وأُحِبُّ أخيراً ألاَّ أُخْفِيَ مَيْليَ إلى الظنّ بأن موسمَ سُوقِ عَمَّان، ربما كان من مواسم الأنباط، إذا تذكَّرنا أن البتراءَ، أو الرَّقيمَ عاصمتَهم، قريبةٌ من عمَّان، وأن التجارة في تلك المناطق ظلَّت بأيدي تجَّارهم حتى ظهور الإسلام.

* * *

(١) المفصَّل: ٣/٥٨، ٣/٦٨ ـ ٦٩، وتاريخ سورية ولبنان وفلسطين: ١/٢٧٧، ٣٩٥، و٢/١٢٥، ٢٠٢.

المطلب الثامن ـ سوق مَنْبِج:

تقعُ مدينةُ مَنْبج في الشمال الشرقيّ من مدينة حلب بالشام، على طريق رئيسَةٍ، تمتدُّ من أنطاكيةَ حتى حلب، وتمرُّ بمنبجٍ، حيث تَصْدُرُ عنها طُرُقٌ فَرْعيَّةٌ إلى عدد من النواحي[1]. وهي مدينةٌ قديمة، سمَّاها الآشوريُّون «نامبيجي»، واليونان «بامْبِيسه ـ BAMBYCE»، والرومان «هيرابولس ـ HIERAPOLIS» أي المدينة المقدَّسة، ذلك أنها كانت المركزَ الأكبر لعبادة الإله «حَدَد»، وكان بها أعظمُ معبدٍ له، وكانت عبادتُه في سورية منتشرةً بين الزُّرَّاع خاصَّةً، لأنه يَرمزُ عندهم إلى البرق والرعْدِ والزوابع، تَثُور فتأتي بالمطر، فتُخْصِبُ الأرض[2]. . ويمكن أن نلاحظَ هنا علاقةً، ربما كانت بين هذا الإعتقادِ، وإقامةِ موسم مَنْبج في الأول من شهر أيلول ـ سبتمبر، وهو موعدُ قدوم الخريف.

هذا، وتأتي كلمةُ «نَبَجَ» بالآراميَّةِ، والسريانيَّة، بمعنى نَبَعَ، ولعلَّ منبج كانت قائمةً في الأصل على عُيون ماء! وقد وصفها ياقوتُ بأنها مدينةٌ كبيرةٌ واسعة، ذاتُ خَيْراتٍ كثيرة، وأرزاقٍ كبيرة، تقوم على فضاءٍ من الأرض، وحولها سُورٌ مبنيٌّ بالحجارة، مُحْكَمٌ، يشربُ أهلُها من قُنِيٍّ تَسِيحُ على وجه الأرض، وفي دُورِهم آبارٌ مِيَاهُها عَذْبَة[3].

وفي عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فتح المسلمون مَنْبج، بعثَ أبو عبيدة بنُ الجرَّاح عِيَاضَ بنَ غنم إليها، ففتحها صُلحاً سنة (١٦ هـ =

---

(١) خريطة أثر روما في بادية الشام.

(٢) تاريخ سورية ولبنان وفلسطين: ١/١٨٦، و٢/٢٢.

(٣) معجم البلدان: ٥/٢٠٦.

٦٣٨ م)، وقيل إن عمرو بنَ العاص هو الذي فتحها[١]. وفي زمان يزيد بن معاوية جُعِلت منبجُ مع أنطاكية وقِنَّسْرين جنداً واحداً، فلما استُخلِفَ الرشيدُ كان أوَّلَ مَن أَفْرَدَ منبج، وجَعَلَها مدينةَ العَواصِم، أي حِصْناً منيعاً، يعتصمون بها، فتَعصِمُهم، وتمنعُهم من العدوِّ إذا غزاهم[٢].. ومنبج بلدُ الشاعرِ البحتريّ[٣]، بها مولدهُ ووفاتُه[٤]، ومنزلُ الشاعرِ أبي فراس الحمداني[٥]، كان أميراً عليها لابن عمه سيف الدولة[٦].. وإيَّاها أراد المتنبي بقوله:

قَيْلٌ بمنبجَ مَثْواهُ ونائِلُهُ   في الأُفْق يسألُ عمَّن غيرُه سألا

وإليها يُنسَبُ الكسَاءُ المَنْبِجانيُّ[٧].

* * *

المطلب التاسع ـ موسم الأنباط:

نذكرُ، من غير شك، أننا في تحقيقنا المواسمَ العامَّةَ للأسواق في بلاد

---

(١) البداية والنهاية: ٧/ ٧٥، وفتوح البلدان: ١٥٥.

(٢) معجم البلدان: ٤/ ١٦٥.

(٣) أبو عُبَادة البحتري: الوليد بن عبيد الطائي، (٢٠٦ ـ ٢٨٤ هـ)، شاعر كبير، يقال لشعره «سلاسل الذهب»، وكان مع أبي تمام والمتنبي أشعر أهل زمانهم.

(٤) الأعلام: ٨/ ١٢١.

(٥) أبو فراس الحمداني: الحارث بن سعيد التغلبي: (٣٢٠ ـ ٣٥٧ هـ)، شاعر، أمير، شجاع من القادة، أسره الروم في معركة، ثم فداهُ سيف الدولة بأموال عظيمة. كانت له منبج وحرَّان، مات مقتولاً.

(٦) الأعلام: ٢/ ١٥٥.

(٧) معجم البلدان: ٥/ ٢٠٦.

الشام، لم نجد عند القدماء سوى إشارةٍ إلى سوقٍ للأنباط[1]، كان موسمُها ينعقدُ كلَّ سنة مرَّةً، حينما يصِلُ تُجَّارُهم إلى المدينة بالحجاز، وقد شَهِدَها هاشمُ بن عبد مناف أواخِرَ القرن الخامس للميلاد، لمَّا خرج في عِيرٍ لقريش، وكان طريقُهم على المدينة، فنزلوا بسوق النَّبَط، فصادفوا سوقاً تقوم بها في السنة، يحشدون لها، فباعوا واشْتَروا.

فإذا كانت جِيئَةُ تُجَّار الأنباط إلى المدينة موسماً، يُقام فيه سوقٌ، يبيعون فيها ويشترون، حتى سُمِّيَ موضعُ نزولهم بالمدينة سوق النَّبَط، فما الذي يمنع من الإفتراض بأن يكون للأنباط سوقٌ موسميَّةٌ كبرى، كانت تقومُ في عاصمة بلادهم البتراء، ويَشْهَدُها العربُ وغيرُ العرب؟ ذلك أن مدينة البتراء كانت مركزاً حَيَوِيّاً وتجاريّاً خطيراً على طرُق القوافل، تُسَيْطرُ من موقعها على الطرُق المؤدِّيَةِ إلى مرفأ غَزَّة على البحر المتوسط، وأيْلَة على البحر الأحمر، وبُصْرى ودمشق في بلاد الشام، وتَبُوك ويثرب في بلاد العرب، فكان لا بُدَّ للقوافل أن تَنزلَ بها، للتجارة، أو للراحة والزَّادِ، واستبدال الإبِلِ المُتْعَبَة.

---

(١) **الأنباطُ والنَّبَطُ**: على وزن الأحباش والحَبَش، والأعراب والعرب. **والنَّبَطُ** في الأصل: الماءُ يَنْبُطُ من قعر البئر إذا حُفِرَتْ، **واسْتَنْبَطَ الماءَ**: اسْتخرَجه، واسْتَنبط منه العلمَ: تلقَّاهُ وأخرَجَهُ. ويبدو أن العرب اعتادتْ تسميةَ أهل القُرى بالنَّبَطِ والأنباط، لأنهم كانوا يُحْسِنُونَ اسْتِزْراعَ الأرض، واستخراج غَلاَّتها، واستنباطَ المياه، وجباية المال.. وفي حديث عُمَر، رضي الله عنه: لا تَنَبَّطُوا في المدائن.. أي لا تَشَبَّهوا بالنَّبَطِ في سُكْنَاها، واتخاذِ العَقَارِ والمِلْكِ. وكانوا يُسَمُّون عَرَبَ السَّوادِ بالعراق نَبَطاً وأنباطاً. ومثلُه حديثُ عمرو بن معد يكرب، سأله عمرُ عن سعد بن أبي وقاص فقال: أعرابيٌّ في حِبْوَته، نَبَطيٌّ في جِبْوَته! أراد أنه في جباية الخراج وعمارة الأرض كالنَّبَطِ حِذْقاً ومهارةً بها، لأنهم كانوا سكانَ العراق وأرْبَابَها.

ويُرَجِّح هذا الإفتراضَ أنه كان فيها مَعْبدٌ دينيٌّ، نُصِبَ فيه صَنَمُهم «ذو الشَّرَى» على قاعدةٍ كُسِيَتْ ذَهَباً، في بيتٍ مُوَشَّى بالذهب أيضاً، يُسَمُّونه «بيتَ الربِّ، أو بيتَ ربِّ الأرْباب»، وكان الناسُ، في موسم مُعيَّنٍ من السنة، يَحجُّون إليه من أَمَاكنَ بعيدةٍ، وينحرون عندهُ الذَّبَائحَ قُرْباناً له، ثم يعودون إلى بلادهم بعد قيامهم بالمناسك وانقضاء الموسم. وكان «ذو الشَّرَىٰ» يرمزُ إلى الإله الشمس[1]، الذي يفرق بين الليل والنهار، ولم يكن خاصّاً بالأنباط فقط، بل كانت تُشَاركهم الحجَّ إليه في موسمه، والتعبُّدَ له، قبيلةُ الأَوْسِ وبعضُ قبائل العرب[2]. . .

وقد ذكر جواد علي أن هذا الموسم كان يقوم في الخامس والعشرين من شهر كانون الأول (ديسمبر) من كل سنة[3]. . غير أنني أشكُّ في صواب هذا الموعد، لأن الموسمَ قديمٌ جدّاً، وكانونُ الأوَّل (ديسمبر) كان الشهرَ العاشِرَ في السنة القديمة، وهو ما يدلُّ عليه إسْمُه (ديسمبر)[4]، قبل أن يُنقل في التقويم الغريغوري إلى الشهر الثاني عشر، وذلك نحو سنة (١٥٨٢ م). . . هذا، والأنباطُ كانوا يأخذون في حساب الأزمنة بالتقويم السرياني، وهو بابليٌّ في أساسه، وكان شهرُ تشرين الأول (أكتوبر) مُخصَّصاً عند البابليين بعبادة الإله الشمس، وكان مُحرَّماً عندهم، وهو الشهرُ الأوَّلُ في السنة المدنيَّة. وعلى ذلك، فأنا أُرجِّح أن موعدَ هذا الموسم كان في الخامس والعشرين من شهر تشرين الأول (أكتوبر)، أي أواخِرَ شهر صفر الأوَّل (المحرَّم) في

---

(١) تاريخ سورية ولبنان وفلسطين: ١/٤١٨، ٤٢٨، وتاريخ العرب: ١١٠.

(٢) تدمر والتدمريون: ٢٩٧، ومحيط المحيط: ٤٦٤.

(٣) المفصَّل: ٦/٤١٥ ـ ٤١٦.

(٤) البادئة «DECA» معناها عشرة.

التقويم العربي القمري، ولعلهم كانوا يُقيمون خِلالَه سُوقاً لتجاراتهم وتجاراتِ مَن كانوا يأتُونَهم في الموسم.

* * *

وهنالك رواية تاريخيَّةٌ أُخرى، أَشَدُّ خَطراً، نقلها جواد علي عن بعض المؤرِّخين القدماء، ذكرت أن الأنباط كانت لهم غابَةٌ من أشجار النخيل، في ركنٍ على البحر الأحمر، يُقدِّسُونَ أرضَها. وكان لهم بها مَعْبدٌ دينيٌّ، مَبْنيٌّ بالحجارة، عليه سَدَنَةٌ وحَجَبَةٌ، وكانوا يحجُّونَ إليه، ويَنْحرون عندهُ الأنعام، يتقرَّبُونَ بها إلى الآلهة. وجاء في إحدى الروايات، أن الحجَّ إلى هذا البيت، كان مرَّتَيْن في السنة، إحداهما في الشهر الأول منها، والأُخْرى في نهاية الصيف، مُدَّتُها شهرانِ، وكانت الشهورُ الثلاثةُ مُحرَّمةً، يَعُمُّ فيها الأمنُ والسلامُ. . وكانوا في عودتهم من الحجِّ، يحملون معهم ما تَيَسَّرَ لهم من مياه المعبد، تَبرُّكاً وإيماناً بأنها تمنَحُ شارِبَها الصحة والشفاءَ، وذلك على شاكلة الحُجَّاج إلى مكة في تبرُّكهم بمياه بئر زَمْزَم، واسْتِقَائهم منها، وحَمْلِ شيءٍ منها في رحلة العودة. ولولا تعيينُ المؤرِّخين موقعَ ذلك المعبدِ على البحر الأحمر، في غابةٍ من النخيل، لحسبناه بمكة، لما بين المعبديْنِ وشعائرِ الحجِّ فيهما من مُشَابَهةٍ! ثم أضاف جوادُ عليّ إلى ذلك قوله: «. . ويُلاحَظُ أن النَّبَط كانوا يعقدون في أثناء هذه الأشْهُرِ الحرُم سُوقاً، تُذكِّرُنا بسوق عكاظ، التي كان يَعْقدُها أهلُ الحجاز. . . »[1].

ومن المعلوم أن الشهر الأوَّلَ في السنة الدينية عند السِّرْيان والبابليين كان يقع في نيسان (أبريل)، وهو الشهر السابعُ في السنة المدنيَّة التي تبدأ في

---

(١) المفصَّل: ٦/٣٩٦.

تشرين الأول (أكتوبر)[١]. أمَّا الشهرانِ اللذان يأتِيَان في آخِرِ الصيف فَهُما آبٌ (أغسطس)، وأيلول (سبتمبر)، وفي اعتقادي أن ذلك كان مُمَاثلاً تماماً لما عند العرب في الحجاز، فشهر رجب كان الشهر الأوَّلَ في السنة العربية، ثم صار السابعَ في تعديل لاحق، وشهرا ذي القعدة وذي الحجة آخِرُ الصيف، والشهورُ الثلاثةُ مُحرَّمةٌ، ثم حُرِّمَ معها شهرُ صَفَر الأوَّل، لمَّا نُقِل إليه رأسُ السنة العربية في تطوُّرٍ لاحِقٍ... وإذا صَحَّتْ هذه المعلوماتُ، نكون قد كشفنا عن موسمين كبيرين للعرب الأنباط، أحَدُهما كان في البتراء، والآخَرُ ربما كان بمِدْيَنَ على البحر الأحمر، حيث كانت حدود مملكتهم.

* * *

المطْلَبُ العاشر ـ موسم العيد السنَويّ في تدمر:

وكان يقعُ في اليوم السادس من شهر نَيْسَان (ابريل) في كل سنة، وكان موسماً عظيماً، يُضْفُونَ عليه كثيراً من الجَلال والقدسيَّة، ففي مثل هذا اليوم تمَّ تكريسُ معبد «بل»[٢]، وهو أكبرُ معابِد تدمُر، وبيتُ أربابها، ووُجِدَتْ فيه كتابةٌ باليونانية تُسمِّي هذا اليومَ باليوم الطيِّبِ، أو المُبَارك.. وكان الإحتفالُ بعيد السادس من نيْسان يجري في هذا المعبد، وكان الإلهُ «بل» من أرباب بلاد الرافديْن، فكان بناةُ بيته، وأكثَرُ الناسِ حماسةً لعبادته من قبائل العرب المقيمةِ في تلك البلاد، وكانت الطقوسُ المتَّبَعَةُ في النُّسُكِ له، كالطَّوَافِ والموْكبِ والقُرْبَان، عربيَّةً خالصةً، معروفةً عند العرب من أيام الوثنيَّة الأولى.

---

(١) أسماء الأشهر: ٢٩.

(٢) بِلْ: هو نفسُه «بَعْلٌ» الربُّ المعروفُ عند الساميِّين.

وكان للمعبد صحنٌ تبلغ مساحتُه أربعين ألف متر مُربَّع، وكانت أعمدتُه وأبوابُه ومَبَاخِرهُ وكؤوسُه وصَوَانيه كلُّها من الذهب، وكانت قبائلُ العرب، كلما أَزِفَ موعدُ قيامه، تُوافيه من كلِّ الجهات، وتدخل تحت أَرْوَقتِه الواسعة، التي تتَّسِعُ لعشرات الألوف من المتعبِّدين، وقد ارتدَوْا أَفْخرَ ما عندهم من الثياب، وتطيَّبُوا بأذكىٰ ما يملكون من الطيُوب، والرجالُ رَجَّلُوا شُعورهم، وأخذوا من لحَاهم، والنساءُ ازيَّنَتْ بأَحْلى زينةٍ وأبهاها! وتجمَّعَ عند كلِّ مدخلٍ وزاويةٍ باعَةُ العُروضِ والسِّلَعِ المتنوِّعَةِ، من طيُوبٍ وإيقوناتٍ وزهور ومطاعِمَ وغير ذلك..

وكانت النُّذُورُ من الأنعام تُسَاقُ إلى المذبح الكبير بالمعبد حيث يُقدِّمها أصحابُها قرابينَ، ورائحةُ البخُورِ والندِّ والآسِ وغيرها من صنوف الطيب، تصَّاعَدُ من المبَاخِرِ والمذابحِ وتملؤُ جَوَّ المعبد بالروائح العطرة. وإلى جانب ذلك كانت الخمورُ الممزوجةُ بالعَسَل تُراق على اسْم الربِّ، وأواني الطقوسِ وآلاتُها تُغْسَلُ في الحوضِ المقدَّس.

وقد عُثِر على صورةٍ للطواف، حُفِرَتْ في جِسْرٍ حجريّ كبيرٍ كان في سقفِ رُوَاقٍ بالمعبد، وهي تُمثِّل جَمَلاً، عليه قبَّةٌ حمراءُ، يقودُه سادنٌ من سَدَنة المعبد، وأمامه وخَلْفَه رجالٌ يرفعون أيديهم... وكان من عادتهم في هذا اليوم، أن يَنْزِلوا بصَنَم «بل» من محرابه، ويحملوهُ على سرير مذهب، ويتَّجِهون به إلى مُنْحدَرِ الهيكل في الباحة الكبرى، ثم يجعلونه على جَمَلٍ كريمٍ، ويطوفون به حول الهيكل، ووراءَهُ نساءٌ مُحجَّبَاتٌ وسَدَنَة.

ولا شك في أن هذه الطقوسَ حينما تنتهي، يَعْقُبها لَهْوٌ ولعبٌ ورقصٌ وشرابٌ على نحو ما يكون في الأعياد غالباً. ويجب أن نذكر أنَّ الأضحيات التي كانت تُذبح بأيدي كَهَنَةٍ، مُغْتَسِلينَ، مُتطهِّرين، يحملون سكاكينَ نظيفةً

خاصّةً، كانت تُولَمُ عليها وليمةٌ مُقدَّسةٌ في غرفةٍ مُعَدَّةٍ لذلك، ولا يدخلُها إلاّ كِبَارُ الكهنة وعِلْيَةُ القوم. وفي غرفة الوليمة كان المدعوُّونَ يَسْتلقُون فيها على طنَافِسَ، وُضِعتْ فوق مقاعِدَ حجريَّةٍ إزاءَ الجدران، جُعِلَتْ بشكلٍ نصْفِ دائري، فَتْحَتُهُ حِيَالَ الباب، وفي الصدر يجلس رئيسُ المائدة، واسمه عندهم: «رَبُّ مَرْزَحا»، والمَرْزَحُ في العربية: المطمئنُّ من الأرض، ولعلّها في التدمرية تعني القاعةَ. وفي القاعة عددٌ من المبَاخِر والمذابح من الحجَرِ والمعدن، وفي أحد أركانه جرنٌ حجريٌّ، إسمُهُ في التدمرية: جباتا، وفي العربية: جابية، وهو حَوْضٌ يُجْبىٰ فيه الماءُ أو الخمر، وكان في تدمُرَ يُمْلَؤُ خمراً، فيَغْرفَ منها المدعوُّون بأكْوابٍ ضِخَام، ويتناولون الأطعمة التي أُعدَّتْ لهم في هذه المناسبة[1].

(١) تدمر والتدمريون: ١٩٩ ـ ٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٣.

الباب الخامس

مواسم أسواق العراق

● حديث أسواق العراق

الفصل الأول: موسم سوق الحيرة

الفصل الثاني: سوق الخنافس

موسم دير الخنافس

الفصل الثالث: سوق الكبَاث

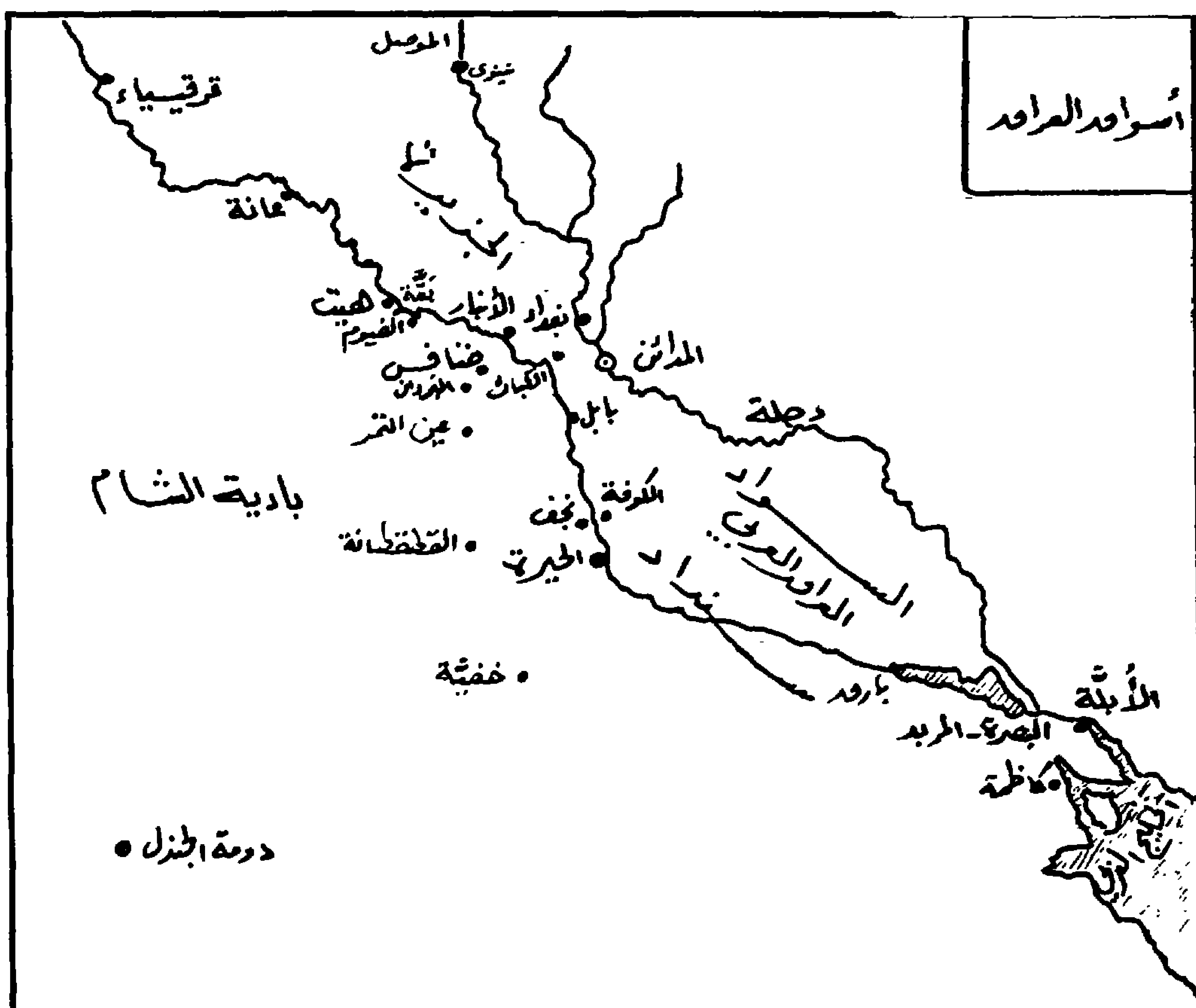
الفصل الرابع: مواسم أعياد بعض الأديرة بالعراق

الفصل الخامس: سوق المِرْبَد بالبصرة

حديث أسواق العراق

لم نجدْ في حديث المواسم العامَّة الكبرى عند العرب، ذِكْراً صريحاً، ومُفَصَّلاً، للمواسم التي كانت تقومُ بالعراق في عصر الجاهلية، وفي اعتقادنا أنها كانت كثيرةً، لما كان للحيرة يومئذٍ من خَطَرِ الموقع والمكانة. وكلُّ ما وجدناهُ في هذا الصَّدَدِ أربعُ إشاراتٍ فقط، إلى سَتِّ أسواقٍ كانت تُقامُ هناك، على ضِفَافِ الفُراتِ، بين السَّوادِ والجزيرة، في مواسِمَ مجهولةٍ، تَذْكُرُ إحداها موسمَ سوقِ الحِيرة، والثانيةُ موسمَ سوقِ الكَبَاثِ، والثالثةُ موسمَ سوقِ الخنافِس، والرابعةُ أسواقاً كانت في بَقَّةَ والأَنْبارِ والأُبُلَّةِ بين دُورِ العرب ودُورِ العجم.. ولم يكن وراءَ هذه الإشاراتِ أخبارٌ كافيةٌ عمَّا كان يجري فيها، غير التجارة، وهو ما جعلَنا نَجْتزِىءُ بثلاثِ أسواقٍ منها يمكننا التحقيقُ في مواقعها، والبحثُ عن مواعيدها، والإستعانةُ بما تَيَسَّرَ لنا من أخبارها، على قِلَّتِهِ، لمعرفة بعض ما كان يجري فيها.

وقد اضْمَحلَّتْ تلك الأسواقُ الثلاثُ بالفتح الإسلامي لبلاد العراق، ونشأتْ بعد ذلك في طَرَفِ البصرة، بالمِرْبَدِ، حيثُ سوقُ الإبِلِ، سوقٌ دائمةٌ، عامَّةٌ، غيرُ موسميّة، كان للعرب منها مثلُ ما كان لهم من عكاظ في عصر الجاهلية، فكان فيها سياسةٌ، وخطابة، وشِعْرٌ، ومفاخراتٌ، ومُنَافَرات، ونَحْوٌ وبلاغةٌ، وكان فيها أيضاً مُتَنَزَّهاتٌ يُرَوِّحُون بها عن أنفُسهم.



وكنتُ ذكرتُ آنفاً أن المتاجرة ببلاد العراق كانت، كما في بلاد الشام، تُسْتَوفىٰ عنها ضريبةٌ مُعيَّنةٌ، غير أننا نلاحظُ في العراق أسلوباً مختلفاً في مِقْدارِ الضريبة، وكأنه لم تكن هنالك عُشُورٌ، أي اسْتِيفَاءُ العُشْرِ من قيمة السلعة، بل ضريبةٌ مقطوعة، دليلُها قولُ الشاعر:

وفــي كــلِّ أســواقِ العــراق إتَــاوَةٌ ... وفي كلِّ ما باع امْرُؤٌ مَكْسُ دِرْهَمِ[1]

والمكْسُ لفظةٌ آراميةُ الأصل، معناها الضريبةُ التي يستوفيها الماكِسُ

(١) المفضَّليات: ٢١١، والمفصَّل: ٧/ ٤٧٢، ٤٧٣، و٨/ ٧٢٢.

من بائعي السِّلَع، وهي هنا كما يبدو درهمٌ واحدٌ عن كلِّ سلعةٍ يبيعها التاجِرُ، ويَسْتوي في ذلك كلُّ أسواقِ العراق، وقد عَدَّها الشاعِرُ إتَاوَةً لأنها خَراجٌ، يجبُ على التاجر إخراجُه من ماله إذا تاجَرَ في هذه الأسواق، وأداؤُهُ إلى الوُلاَةِ. وبينما كانت حكوماتُ الشام تُوَلِّي من يَعْشُرُ التجّارَ، على الطريق، لدُنْ دُخُولهم حُدودَها، فإن حكومةَ العراق كانت تجعلُ هذه الضريبةَ أحياناً طُعْمةً لبعض القبائل، على سبيل المُقَارَبة والتألُّفِ، أو بسبب المصاهرة، ومثَالُه أن النعمان بنَ المنذر جعل رَيْعَ الطريق طُعْمةً لبني لأمِ بنِ عمرو، من بني طَيِّىءٍ، إذ كانوا أصْهارَه[1]، فكانوا بهذا التدبير يَسْتَوفُون ضريبة الطريق من التجّار لأنفُسِهم، وليس للحكومة..

ويبدو أن أرضَ السوق، إذا كانت مِلْكاً لقبيلةٍ، أو لفَرْدٍ واحد، فإن من حَقِّهِ أن يستوفيَ الخَراجَ من التجّار إذا تاجَرُوا فوقها، ومن حقِّه كذلك أن يَضَعَ عنهم هذا الخرَاج، وهو ما يُفهم من خبرٍ ساقَهُ ابنُ حبيب، ذكر فيه أن عبد الله بن عامر بن كُرَيْز، من بني عبد شمس بن عبد مناف، كانت له حِيَاضُ عَرَفات، وكذلك سوقُ البصرة، اشْتراهُ من ماله، ووَهَبَهُ لأَهلِه، فلا خَراجَ عليهم فيه[2].

ولا شك في أن التجارات التي كانت تُعْرضُ في أسواق العراق، هي ما كان يُعْرَضُ في سائر أسواق العرب، وتشملُ ما ينبتُ أو يُصْنع في العراق، وما يُنقل إليه من عُروض بلادِ العرب، والشرقِ الأقصى والهند وإيران وغيرها من البلدان المجاورة. وقد اشتُهرتِ الحيرةُ بعدد من الصناعات،

---

(١) الأغاني: ١٧/ ٢٨٣. والأَصْهَارُ: أهلُ بيتِ المرأة، والأَخْتَانُ: أهلُ بيت الرجُل، وربما سُمِّي بها أهلُ المرأة أيضاً.

(٢) المحبَّر: ١٥٠.

منها: الخمرُ، والآنِيَةُ، والفُرُشُ الفاخِرةُ من الوَشْي والخَزِّ[١]، ومنها: الإثْمِدُ المنسوبُ إليها، وهو كحل للعيون، قال فيه الشاعر:

كــأنَّ الإثْمِــدَ الحــارِيَّ منهــا ... يُسَـفُّ بحيـث تَبْتَـدِرُ الـدمـوعُ[٢]

ومنها أيضاً: الرِّحالُ الحارِيَّةُ، التي تُطرح على ظُهور الإبل والأفراس، والأَنْماطُ الحارِيَّةُ، وهي ضربٌ من البُسُط لها خملٌ رقيق، تُصنَعُ من الصوف، ويكون لونُها الأحمر أو الأخضر أو الأصفر، فإن كان الأبيضَ فلا يُقال لها أنماط، وإلى ذلك تُنسب إليها السيوفُ الحاريَّةُ[٣]. كما اشتهرت الحيرةُ بتربية الإبل النجائب، ومنها عَصَافيرُ المنذر، وعَصَافيرُ النعمان، والعَصْفُوريُّ جَمَلٌ ذو سَنَامَيْن[٤]. . ولا شك أنَّ في العراق أشياءَ أُخَرَ غيرُ ما ذكرنا، لعلَّ أظْهَرَها مواسمُ الأعياد في أَدْيرَةِ النصارى، وسنذكر طَرَفاً منها. . .

(١) الأغاني: ٢/ ٣١١.

(٢) معجم البلدان: ٢/ ٣٢٨.

(٣) لسان العرب: ٤/ ٢٢٥ (حير)، و٧/ ٤١٧ (نمط).

(٤) تاج العروس: ١٣/ ٧٧ (عصفر).

الفصل الأول

موسمُ سُوقِ الحِيرة

المطلب الأول ـ مملكة الحيرة:

الحيرةُ مدينةٌ قديمة مشهورة، كانت على ثلاثة أميال جنوبيَّ الكوفة، على مَوْضعٍ بين بحيرة النَّجَفِ وتُخُوم البادية. أرضُها خصبةٌ، تسقيها فروعٌ من نهر الفرات، ثم تَصُبُّ في النَّجَفِ. وكانوا يقولون لها الحيرةُ الرَّوْحاءُ، لِسَعَتِها. والنِّسْبةُ إليها حارِيٌّ، على غير قياس، وحِيرِيٌّ على القياس[١]. عُرِفَت عند العرب بالمُنَاخِ الجيِّد، والطبيعةِ الطيِّبَةِ، فأحَبُّوها، وتَغَنَّى بها شعراؤهم، وكَثُرت فيها المَلاذُّ والملاهي والقَيْنَاتُ والحانات، فصارت مَقْصِفَ العرب، ومَهْوَىٰ أفئدتهم، ومَطْرَحَ آمالهم. وكان بها قصرُ الخَوَرْنَقِ، على مِيلٍ منها في شرقيِّها، وقصرُ السَّدِيرِ، في وسط البادية بينها وبين الشام. وكانت منزلَ مُلوكِ العرب، في الجاهلية، من بني لخم[٢].

وقد كان العربُ بالحيرة منذ أيام الملك البابليِّ بخت نصر (٦٠٥ ـ ٥٦١ ق.م)، أي قبل قيام قورش بإيران بنحو خمسين سنةً، وكانت الحيرةُ

---

(١) معجم البلدان: ٢/٣٢٨.

(٢) لخم: هو مالك بن عديّ، جدٌّ جاهليٌّ، وأبو قبيلة هاجرت من اليمن، واستقرَّت في العراق، ثم أنشأت بالحيرة دولةَ المناذرة، أنشأها بنو نصر بن ربيعة، من بني نمارة بن لخم، ويقال لها أيضاً دولة بني نصر.

والأنبارُ بُنِيَتا في زمنِ بخت نصر[1]، ولمَّا مات انضمَّ عربُ الحيرة إلى أهل الأنبار، فخَرِبَتِ الحيرةُ لتحوُّلِ أهلها عنها، إلى أن نزلها عمرو بنُ عديّ بن نصر، واتَّخَذَها عاصمةً لمُلْكِ بني لَخْم، فعُمِرَتْ وازدَهَرتْ.

وكان أوَّلَ من تَملَّك على العرب بأرض العراق مالكُ بن فَهْم الأزديّ، ولمّا هَلَكَ، خَلَفَهُ إبنُه جذيمةُ بنُ مالك، الشهيرُ بالوضَّاح، وبالأبْرشِ، لِبَرصٍ كان به، ثم مات، فانتقل المُلْكُ من بعده إلى ابن أخته، عمرو بن عديّ، فكان أوَّلَ مُلوكِ بني لَخْم بالعراق، وهم الذين عُرِفوا باللخميِّين، وبالمناذرة أيضاً، ويُخْطىءُ من يحسبُ مملكتَهم إنما هي مدينةُ الحيرة فقط، لأنها كانت في الحقيقة دولةً كبيرةً، حاضِرتُها الحيرةُ، ومن نواحيها الأُبُلَّةُ، وخَفِيَّة، وبارقُ، وسِنْدادُ، والنَجَفُ، والأَنْبارُ، وبَقَّةُ، والفَيُّومُ، وهيتُ، وعينُ التمر، والقُطْقُطانةُ، ومعظمُ الضفَّةِ الغربيةِ للفرات إلى أطراف البادية. وكان سُكَّانُها بُطوناً كثيرةً من مُعْظم قبائل العرب، أَشْهَرُها: بنو لخم، وكندةُ، وقُضاعةُ، وإيَادُ، وربيعةُ، ومُضَرُ، وبكرُ بنُ وائل، وتميمٌ، وطيِّىءٌ، وكلبٌ، والسَّكُون، والعِبَادُ، وغيرُها[2]... فكان فيها من كلِّ العربِ تقريباً، وكانت الحيرةُ واسِطةَ العِقْد.

المطلب الثاني ـ التجارةُ والعمران في الحيرة:

يُعَدُّ مَوْقعُ مدينةِ الحيرة موقعاً حَسَناً للتجارة وقوافِلها، ومَوْضعاً طيِّباً لِراحَةِ التجَّارِ والمسافرين، لما كانوا يجدونه فيها من المنافع والمرافق، إلى ما فيها من رفَاهَةِ العيش ولذَّاته.

---

(١) تاريخ الطبري: ٢/ ٤٣.

(٢) تاريخ الطبري: ١/ ٦٠٩ ـ ٦١٠، ٦١٢ ـ ٦١٣، ٦٢٧، و٢/ ٤٢ ـ ٤٣، والكامل: ١/ ٣٤٠، ومعجم البلدان: ٢/ ٣٣٠ ـ ٣٣١. أنظر خريطة أسواق العراق.

وكانت بضائعُ الشرق الأقصى والهند تُنقل إليها عبر ثَغْرِ الأُبُلَّة على الخليج العربي، ثم تُنقل منها مع عُروضِ إيرانَ، وما اشتُهِرت به الحيرةُ من الصناعات، إلى سوريَّة، وشواطىء البحر الأبيض. وكانت القُطقُطانة طريق من أراد التوجُّه إلى أذْرِعاتٍ فدمشق، وكانت عينُ التمر، فالخَفِيَّةُ، طريق من أراد بُصْرى[1]. وكان ملوكُ الحيرة يُجهِّزُون القوافِلَ بالتجارات النَّفِيسة، ويُرسِلونها إلى أسواق العرب، فتُباع فيها، ويُشْتَرىٰ لهم بأثْمانِها ما يحتاجون إليه من أنواع الأَدَم والحرير والبُرودِ وغيرها. . وكان بين أهلِ الحيرة وأهلِ مكة علائقُ تجاريَّةٌ وَثيقةٌ، بل ثَقَافيَّةٌ أيضاً[2]، فقد كان لأهل مكة والطائفِ رحلاتٌ تَتكَرَّرُ إلى الحيرة، فتعلَّموا خلالها الكتابةَ من أهلها، وحَمَلُوا منها الخطَّ العربيَّ إلى مكة[3]. . ويُقال إن أهل الحيرة أخذوا الخَطَّ عن أهل الأنبار، وحين نَزَلَ خالدُ بنُ الوليدِ الأنْبارَ رأى أبناءَها يكتبون العربيةَ ويتعلَّمُونَها، وذكروا له أنهم أخذوا ذلك عن بني إياد[4].

وكان لتُجَّارِ الحيرة أَحْلافٌ من تُجَّارِ مكة، فكان أَحَدُهم إذا قَدِم مكةَ، نَزَلَ فيها على حَليفِه، فباع واشترى، ثم عاد إلى الحيرة سالماً غانماً. وكان تُجَّارٌ من الحيرة ومكة يُقيمون بينهم شركةً، تُتاجِر في البَلَدَيْن، وربما في مواضِعَ أُخَر، ثم تجري المحاسبةُ بينهم، فيقتسمون الأرباح، أو يحتملون الخسائرَ، وفاقاً لما اتفقوا عليه[5]. وكان لبعض الحِيريِّين وكلاءُ من قريش، يَكِلُونَ إليهم أمرَ التجارة في أسواق مكة نِيَابةً عنهم، وكان لبعض تُجَّار قريش

---

(١) المفصَّل: ٧/ ٣٣٢ ـ ٣٣٣.

(٢) المرجع نفسه: ٧/ ٣٣٥.

(٣) مقدمة ابن خلدون: ٤١٨.

(٤) تاريخ الطبري: ٣/ ٣٧٥، ومصادر الشعر الجاهلي: ٢٤.

(٥) المفصَّل: ٧/ ٢٩٧، ٤٠٨.

وكلاءُ أيضاً من الحِيريِّين، يَتَولَّوْنَ لهم أمر المتاجرة في أسواق الحيرة[١].

وهنالك أخبار تاريخيَّة تُشير إلى قوافل تجاريةٍ، كانت تُسَيَّرُ من الحجاز إلى الحيرة، وجاء في بعضها أن أبا سفيان بن حرب كانت له علائقُ طيِّبةٌ بتُجَّارِ الحيرة ورؤسائها، وحتى بملوكها، وكان يُهادِيهم ويُهادُونَه الألْطافَ والتُحَفَ، وقد عُرِفَ عنه تَرَدُّدُهُ إلى الحيرة، بقوافِلَ تحملُ عُروضَ الحجاز واليمن، وتعودُ بما في سوق الحيرة من تجاراتٍ يرغبُ فيها أهلُ الحجاز واليمن[٢]. وذُكر أيضاً أن مُسَافِرَ بن أبي عمرو بن أمية القُرَشيَّ، وهو من رجال مكة المعْدُودِينَ جُوداً وشِعراً وجمالاً، كان ممن يُتاجِرون في الحيرة، وقيل إنه كان ينزلُ فيها ضيفاً على الملك النعمان بن المنذر، فتُضْربُ له قُبَّةٌ حمراءُ من أدَمٍ تكريماً، بجوار الملك، وكان موتُه في الحيرة[٣].

وقد اشتُهِرَ أهلُ الحيرة عامَّةً بنشاطهم إلى المتاجرة، فكانوا يجوبون البلادَ القريبة والبعيدةَ، ويُتاجرون في أسواق العرب وغيرها، حتى قيل فيهم: إنك لن تجدَ في الأرض بلداً ليس فيه حِيريٌّ! ومن هنا صارت الحيرةُ نفسُها سوقاً معروفةً، ومطلوبةً، يأتيها التجَّارُ من مختلف الأمكنة للبيع والشراء. كما عُرِف عن الحِيريّينَ أيضاً حِذْقُهمُ الصِّرافَةَ، وهي بيعُ الفُلوسِ بالفُلوس، ويُحكى أن أحدهم، وكان يتعاطى الطبَّ، سئل: ما لأهلِ الحيرةِ والطبّ؟ عليكَ ببيْع الفُلوس في الطريق[٤]..

وكان أهلُ الحيرة، على العُموم، أكثرَ ارْتقاءَ وحضارةً من عرب

(١) المفصَّل: ٤/ ١١٤.
(٢) المرجع: ٧/ ٢٩٤.
(٣) المرجع: ٧/ ٢٩٥.
(٤) المرجع: ٧/ ٢٩٦.

الحجاز، ولم يكن ذلك لمجاورتهم إيرانَ، بل لأنهم كانوا وَرَثَةَ الحضارات البابلية واليونانيَّة، شأنُهم في ذلك كشأن الفُرس أنفُسِهم.. وكانت النصرانيةُ تغلبُ على كثير منهم، فكان بعضُهم يخرجُ مُبشِّراً بها، وداعياً الناسَ إليها، وعُرِفَ عن عَددٍ من مُلوكها ورؤسائها تَوفُّرهم على بناء الأَدْيرة الكبرى، كالمنذرِ الأوَّلِ بن النعمان الأول، صاحبِ قصر الخَوَرْنَق، وباني «دير حنّه»، وهندٍ بنتِ الملك النعمان الثالث صاحبةِ «دير هند»[1]. . . وكانت في الحيرة قصورٌ كبيرةٌ، أقامها أشرافُها، واتخذوا منها بُيوتاً لهم، وحُصوناً يأْوُون إليها كلما دَهَمهم خطرٌ[2]. وقد ذكر البلاذريُّ أنه تبيَّن، من الصُّحُفِ المكتوبة، المكتشَفةِ فيما هُدِم من قصور المناذرة بالحيرة، أن المسجدَ الجامعَ بالكوفة بُنِيَ ببعضِ حجارتها، فحُسِبَتْ لأهل الحيرة قيمةُ ذلك من جِزْيتهم[3]. . . ولو كانوا أَبْقَوا على تلك القصورِ لأَفَدْنا منها إذن علماً كثيراً!

وإلى ذلك كان ملوكُ الحيرة يقيمون مجالسَ الأدبِ والشعرِ والغناءِ في

---

(1) فجر الإسلام: ١٨، ٢١، ٢٥، ٢٨، والأعلام: ٧/ ٢٩٥، و٨/ ٩٨ ـ ٩٩. **هند الصغرى** بنت النعمان بن المنذر: نبيلةٌ، فصيحة، وُلدتْ ونشأت في بيت الملك بالحيرة، ولمَّا قتل كسرى أباها، بَنَتْ لنفْسِها ديراً بين الحيرة والكوفة، وأقامت به مُتَنَسِّكةً. ولمَّا دخل خالدُ بن الوليد الحيرةَ زارها، وعرض عليها الإسلام، فاعتذرت بكبر سنِّها عن تغيير دينها، فأمر لها بمعونةٍ وكسوة، فقالت: ما لي إلى شيءٍ من هذا حاجة، لي عبدانِ يزرعان مزرعةً لي، أَتَقوَّتُ منها! ودَعَتْ له. ولمَّا خرج، جاءها النصارى، فسألوها عمَّا صنع بها، فقالت:

صـان لـي ذِمَّتـي، وأكـرم وجهـي إنمـا يُكـرِمُ الكـريـمَ الكـريـمُ

ثم عاشت طويلاً، وعميت. وكان ممن زارها المغيرةُ بنُ شعبة، وأُعجِبَ بحديثها كثيراً، وعبيدُ الله بنُ زياد، وهانيءُ بنُ قبيصة، ثم الحجَّاجُ لمَّا قدم الكوفة سنة (٧٤ هـ = ٦٩٣ م). وماتت في ديرها نحو تلك الأيام.

(2) المفصَّل: ٨/ ٣٤.

(3) فتوح البلدان: ٢٨٤.

قصورهم، وكان شعراءُ العرب يذهبون إليهم، ويمدحونهم بالقصائد الطِوالِ، تَسيرُ في أنحاء الجزيرة، وتطيرُ لهم بها شهرةٌ واسعة، فكانوا يتألَّفونَ الشعراءَ بالهدايا والألطاف، ومن هؤلاء النابغةُ والأعشى وحسَّانُ بن ثابت.

وكانت حياةُ التَّرفِ، وما اتصل بها من أسباب الحضارة، بلغت شَأْواً بعيداً في قصور الحيرة، وحاناتها، حتى صارت تموجُ بالقِيَانِ والشراب، وكانت «إبنةُ عَفْرز» قَيْنَةً تملكُ أشهَرَ حانةٍ بالحيرة، فكان مَن وَفَدَ على النعمان إذا أَتَوهُ لَهَوْا بها[1].

المطلب الثالث ـ الحيرةُ مَقْصَفُ العَرب:

فُتحت الحيرةُ في الإسلام سنة (٦٣٣ م)، فتحها خالدُ بن الوليد صلحاً، فما لبثت حتى تضاءَلَ شأنُها التجاريُّ، لانصراف العرب إلى الفُتوح، ولكنها ظلَّت تفتنُ الشبَّانَ بحاناتها وخمرها ومَنَازِهها وأديارها وقِيَانِها، وما انقضى القرنُ الأولُ للهجرة، حتى صرنا «لا نجدُ ذِكْراً للحيرة إلا حيث مجلسُ شرابٍ، وجماعةُ قَصْفٍ وبَذخٍ، وخليفةٌ يخرجُ للترويح عن النفس، وفتيانٌ سئموا حياة الجِدِّ فخرجوا إلى الحيرة، فنزلوا أحدَ أَدْيرتها، أو إحدى حاناتها، فنَحَرُوا وطَعِمُوا وشَربوا وغَنَّوا وأنشدوا. وأثْرىٰ أصحابُ الحاناتِ من وراءِ ذلك إثراءً عظيماً، فصاروا يتنافَسُون بتجويد الخمر، وجَذْبِ الزائرين، حتى كثُر الذين ذهبت ثرواتُهم، وفَدَحَهم الدَّيْنُ من جرَّاءِ خمرة الحيرة»[2].

---

(١) القيان والغناء في العصر الجاهلي: ٤٤ ـ ٤٥، ٦٧.

(٢) أسواق العرب: ٣٨١.

ولعلَّ أكثرَ أخبارِ مُعَاقَرةِ الخمر طرافةً أخبارُ «بكر بن خارجة»، وهو مَوْلى لبني أسد، كان ورَّاقاً، ضَيِّق العيشِ، شاعراً، وكان مُعاقِراً للشراب في منازل الخمَّارين وحاناتهم بالحيرة، ويُحكى أن بعض أمراءِ الكوفة حرَّم بيعَ الخمرِ على خَمَّاري الحيرة، وركب إليهم فكسر قِلالَ نَبيذِهم، وصَبَّهُ في الرِّحَابِ والطرُق، فجاء بكرُ بنُ خارجة ليشربَ عندهم كعادته، فرآه مَصْبُوباً في الأرض، فبكى طويلاً، ثم أنشأ يقول:

يـا لقـومـي لِمَـا جَنَـى السلطـانُ لا يكـونَـنْ لمـا أهـانَ الهـوانُ
صَبَّها في التراب من حَلَبِ الكرْ مِ عُقَـاراً كـأنهـا الـزَّعْفَـرانُ
صَبَّهـا فـي مكـانِ سـوءٍ، لقـد صـادفَ سعـدَ السعـودِ ذاك المكـانُ
مِـن كُميْـتٍ يُبـدي المـزاجُ لهـا لـؤلـؤَ نَظْـمٍ، والفصـلُ منهـا جُمَـانُ
كيف صبري عن بعض نفسي، وهل يصـبرُ عن بعض نَفْسِه الإنسانُ؟

وقد أُنْشِدَ الجاحظُ هذا الشعر، فقال: إن من حقِّ الفُتوَّةِ أن أكتب هذه الأبيات قائماً[1]...

وقد عُرِف عن أهل الحيرة شِدَّةُ تَعصُّبِهم لها، وتعلُّقِهم بها، «وكان بعضُ وُلاة الكوفة يَذُمُّ الحيرةَ في أيام بني أُميَّة، فقال له رجلٌ من أهلها، وكان عاقلاً ظريفاً: أتَعِيبُ بلدةً بها يُضْربُ المثَلُ في الجاهلية والإسلام؟ قال: وبماذا تُمدح؟ قال: بصحَّةِ هوائها، وطيبِ مائها، ونُزْهةِ ظاهِرها، تصلح للخُفِّ والظِلْف[2]، سهلٌ وجبل، وباديةٌ وبستان، وبَرٌّ وبحرٌ، محلُّ الملوك ومَزارُهم، ومَسكنُهم ومَثْواهم، وقد قَدِمتَها أصلحك اللَّهُ مُخِفّاً،

---

(١) الأغاني: ٢٣/ ٦٧ ـ ٦٨.

(٢) **الخُفُّ**: للإبل، و**الظِلفُ**: للبقر.

فرجعتَ مُثْقِلاً، ووَرِدْتَها مُقِلاًّ فأصارتْك مُكْثراً. . قال: فكيف نعرفُ ما وصفتَها به من الفضل؟ قال: بأن تَصِيرَ إليَّ، ثم ادْعُ ما شئتَ من لذَّاتِ العيش، فوالله لا أجُوزُ بك الحيرةَ فيه! قال: فاصنعْ لنا صنيعاً واخرُجْ من قولك. قال: أفعل. .

فصنَعَ لهم طعاماً، وأطعمهم من خُبزها، وسَمَكها، وما صِيدَ من وَحْشِها: من ظِباءٍ ونَعامٍ وأرانِبَ وحُبَارى[1]، وسقاهم ماءَها في قِلالِها، وخمرَها في آنيتها، وأجْلسهم على رَقْمها[2]، وكان يُتَّخَذُ بها من الفُرُشِ أشياءُ ظريفة، ولم يستخدم لهم حُرّاً ولا عبداً إلا من مُوَلَّدِيها ومُوَلَّداتها من خَدَمٍ ووَصَائفَ[3]، كأنهم اللؤلؤ، لغتُهم لغةُ أهلها، ثم غنَّاهم حُنَيْنٌ[4]، وأصحابُه، في شعر عَديّ بن زيد شاعرِهم، وأعشى همدان[5]، لم يتجاوَزْهما، وحيَّاهم برياحينها، ونقَّلَهم على خمرها[6]، وقد شربوا بفواكهها. . ثم قال له: هل رأيتَني استعنتُ على شيءٍ مما رأيتَ وأكلتَ

---

(١) **الحُبَارى**: للذكر والأنثى والواحد والجمع، طائرٌ طويل العنُق والمنقار، رماديُّ اللون.

(٢) **الرَّقم**: فراش من الوَشْي أو الخزِّ.

(٣) **الوصائف**: ج وصيفة، وهي الجارية البالغة حدَّ الخدمة.

(٤) **حنين بن بَلْوَع الحيري**: ويكنى أبا كعب، كان شاعراً، مُغنياً فحلاً من فحول المغنين، وله صنعة في الغناء فاضلة متقدّمة، وكان يسكن الحيرة، ويكري الجمال إلى الشام، وهو نصراني. توفي نحو (١١٠ هـ = ٧٢٨ م). وقيل إنه عاش أكثر من مئة سنة، ولم يكن بالحيرة مذكورٌ في الغناء سواه.

(٥) **أعشى همدان**: هو عبد الرحمن بن عبد الله، أبو المصبح. شاعر كوفي فصيح، من شعراء الدولة الأموية. وكان أحد الفقهاء القُرَّاء، ولكنه ترك ذلك وقال الشعر. خرج مع ابن الأشعث في ثورته ضد الحجاج، فأُتي به إلى الحجاج أسيراً بعد معركة يوم الجماجم، وقُتل بعد ذلك نحو سنة (٨٣ هـ = ٧٠٢ م).

(٦) **نَقَّل**: أطعم النَّقْلَ، وهو ما يُتَنَقَّلُ به على الشراب من فستق وتفاح ونحوهما.

وشربتَ وافترشتَ وشَمَمْتَ وسمعتَ بغير ما في الحيرة؟ قال: لا والله، ولقد أحسنتَ صفةَ بلدك. ونَصَرْتَه فأحسنتَ نُصْرتَه والخروجَ مما تَضَمَّنْتَهُ، فبارك الله لكم في بلدكم»[1].

* * *

ويُحكىٰ أن «عُبيد الله بن سُرَيْج»[2] أشهرَ المُغنِّين بمكة في صدر الإسلام، قَدِمَ الحيرةَ، ومعه ثلاثُ مئة دينار، في ولاية بشر بن مروان الكوفةَ (٧١ هـ)، فأتَى منزلَ حنين بن بَلْوَع، مُغنِّي الحيرة، ولم يكن أحدُهما رأى الآخَر، فقال له: أنا رجلٌ من أهل مكة، بلغني طيبُ الحيرة، وجَوْدةُ خمرها، وحسنُ غنائكَ، فخرجتُ بهذه الدنانير، لأُنْفقَها عندك حتى تَنفَدَ، وأنصرف إلى منزلي. فسأله عن اسمه، فاستبدل به إسماً آخَر، وانتسب إلى بني مخزوم، فأخذ حنينٌ المالَ منه، وقال: مُوَفَّرٌ مالُكَ عليك، ولكَ عندنا كلُّ ما يحتاجُ إليه مثلُكَ ما نَشِطتَ للمُقَام عندنا، فإذا دَعَتْك نفسُك إلى بلدك، جَهَّزناكَ إليه، ورددْنا عليك مالَك، وفَوْقهُ نفقةُ مجيئك إلينا من مكة.. ثم أسكنه داراً كان ينفردُ بها، فمكث شهرين لا يعلم أحدٌ أنه يُغنّي، حتى انصرف حُنين من دارِ بشْرِ بن مروانَ في يومٍ صائف، فصار إلى مسكن ابن سُرَيج، فوجده مُغْلقاً، فدقَّ البابَ، فلم يُفتح، ولم يُجِبْه أحد، فارتاب في الأمر، فصار إلى دار الحريم، فلم يجد فيها ابنتَه ولا جواريه، ورأى ما بين دارِ الحريم ومَسْكنِ ابن سُريج مفتوحاً، فانتضى سيفه ودخل الدار،

---

(١) الأغاني: ٢/ ٣١٠ ـ ٣١١.

(٢) عبيد الله بنُ سريج: أبو يحيى، مولى بني نوفل بن عبد مناف، من أشهر المغنين في صدر الإسلام، كان يرتجل الغناء فيأتي باللحن المبتكر، وهو أول من ضرب بمكة على العود بالغناء العربي. توفي (٩٨ هـ = ٧١٦ م).

فوجد ابنته وجَوارِيَهُ وقوفاً على باب السِّرْداب، وهُنَّ يُومِينَ إليه بالسكوت، فلم يلتفت إلى إشارتهنَّ لما تداخَلُه من الريبة، إلى أن سمع تَرَنُّمَ ابنِ سُرَيج بالغناء، فألقى السيفَ من يده، وصاح به، وقد عرفه من طريقته في الغناء: أبا يحيى، جُعلتُ فداءَك، أَتَيْتَنا بثلاث مئة دينار لتُنفِقَها عندنا في حِيرَتنا! فَوَحقِّ المسيحِ لا خرجتَ منها إلا ومعك تسعُ مئة دينار فوق ما جئتَ به معك. ثم دخل إليه فعانقه، ورحَّب به، ولَقِيَهُ بخِلافِ ما كان يلقاه به، وسأله عن الصوت الذي كان يُغنِّيه، فأخبره أنه صاغَهُ من فَوْرِه، فصار معه إلى بشر بن مروان، فوصله بعشرة آلاف درهم أَوَّلَ مرَّة، ثم وصَلهُ بعد ذلك بمثلها. فلما أراد الخروج، ردَّ عليه حنينٌ مالَه، وجَهَّزَهُ، ووَصَله بمقدار ما أنفق من مكة إلى الحيرة[1].



المطلب الرابع ـ سوقُ الحيرة:

لاحظنا أن للحيرة وسُوقها ذكراً مُسْتَفيضاً، وأخباراً كثيرة في كتُبِ المؤرِّخين وأهل الأخبار، غير أن هؤلاء جميعاً، إلا الأصفهانيَّ، لم يُشِيروا إلى سوق موسميَّةٍ كانت تقومُ بها في السنة، وإنما ذكروا سوقاً بالحيرة يقصدها التجّارُ، وهذا ليس بشيء، إذ أن لكل مدينة، أو قرية، سوقاً أو أسواقاً تظلُّ عادةً قائمةً بها على مدار السنة، ونحن إنما نُعْنَى بالأسواق الموسمية التي تقوم مرةً في السنة. أياماً معدودات، لما كان يُلازِمُ التجارةَ فيها من نُسْلٍ، وشعر، وخطابة، ومفاخرة، ومماجدة، كما في سائر مواسم العرب.

---

(١) الأغاني: ٢/٣١٣ ـ ٣١٤.

فقد ذكر القالي في أحد أخباره، أن أعرابيّاً أدْخَلَ قرداً إلى سوق الحيرة ليبيعَهُ[1]. . فهذا الخبرُ يحتملُ أن الرجُلَ شَهِدَ موسمَ سوق الحيرة، أو أنه إنما دخل إلى سوق الحيرة الدائم! وهو كالخبر الذي ذكر فيه الأصفهانيُّ، أن الشاعر الأعشى ميمون، أتى الحيرةَ فباع فيها وعاءً من جلدٍ مملوءاً عنبراً بثلاثِ مئةِ ناقةٍ حمراءَ[2]. . أما روايته التي ساقَها في أخبار حاتم بن عبد الله الطائيّ، فإنه ذكر فيها موسمَ الحيرة صراحةً، فقال: «وكان بالحيرة سوقٌ يجتمع إليها العرب كلَّ سنة. .»، وسنجِدُ في الرواية بعد ذلك دليلاً على أنه كان في موسم الحيرة فخرٌ ومُمَاجَدَةٌ وشعرٌ ومجامعُ للعرب، كما كان في عكاظ.

صفوةُ هذه الرواية أن «الحكمَ بن أبي العاص بن أمية» خرج من مكة، ومعه عِطرٌ يريدُ الحيرةَ، وكان بالحيرة سوق يجتمع إليها العربُ كلَّ سنة، فمرَّ في الطريق بحاتم الطائيّ، فسأله الجِوارَ في أرض طيِّىء، حتى يصيرَ إلى الحيرة، فأجارَهُ. ثم أمر حاتمٌ بجَزُورٍ فنُحِرتْ وطُبخت، فأكلوا، ولمّا فرغوا من الطعام، طَيَّبهم الحكَمُ من عطره، واسْتأنَفُوا المسِيرَ، فمرَّ حاتمٌ بسعد بن حارثة بن لأم، وكان النعمانُ جعلَ ريْعَ الطريق طُعْمةً لبني لأم لأنهم أصهارُه، فأتاهُ سعدٌ ببني لأم، فوضَعَ حاتمٌ سُفْرتَه، وقال: إطْعَمُوا حيَّاكمُ الله، فقالوا: مَن هؤلاء معك يا حاتم؟ قال: هؤلاء جِيراني. فقال له سعد: فأنتَ تُجِيرُ علينا في بلادنا؟ قال: أنا ابنُ عمِّكم، وأحَقُّ مَن لم تَخْفِروا ذِمَّتَه[3]. فأنكروا عليه ذلك، وتناول أحدُهم حاتِماً، فأهْوىٰ له حاتمٌ

---

(١) الأمالي: ٢/ ٤٤.

(٢) الأغاني: ٩/ ١٢١.

(٣) خَفَر الذمَّةَ: نقضَ العهد، ووفَىٰ به أيضاً، وهي من الأضداد.

بالسيف، فأطار أَرْنَبَةَ أنفِهِ، ووقع الشرُّ حتى تحاجَزُوا[1]. . فقالوا لحاتم: بيننا وبينك سوقُ الحيرة فنُماجِدُكَ، ونضَعُ الرُّهُنَ!

ففعلوا، ووضعوا تسعة أفْراس رهناً على يدي امرىء القيس بن عدي، من بني جَنَاب الكلبي، وهو جَدُّ سكينة بنت الحسين، ووضع حاتمٌ فرسَهُ. ثم خرجوا حتى انتهوا إلى الحيرة، وسمع بذلك إياس بن قبيصة الطائيّ[2]، فخاف أن يُعِينَهم النعمانُ بن المنذر، ويُقوِّيهم بمالِه وسُلطانِه، للصِّهْرِ الذي بينهم وبينه، فجمع إياس رهطَهُ من بني حيَّة، وقال: يا بني حَيَّة، إن هؤلاء القوم قد أرادوا أن يفضحوا ابنَ عمّكم في جَارِه، بِمُمَاجَدَتِه. . فقال أحدُهم: عندي مئة ناقةٍ سوداء، ومئة ناقةٍ حمراءَ أدْمَاءَ، وقام آخَرُ فقال: عندي عشرةُ حُصُنٍ، على كلِّ حصانٍ منها فارسٌ مُدَجَّج لا يُرَى منه إلا عيناه، وقال حسان بن جَبَلة الخير: قد علمتم أن أبي مات وترك مالاً كثيراً، فعَلَيَّ كلُّ خمرٍ أو لحمٍ أو طعامٍ ما أقاموا في سوق الحيرة. . ثم قام إياس فقال: عليَّ مثلُ جميعِ ما أعطيتُم كلُّكم. .

وكان حاتم لا يعلم بشيءٍ مما فعلوا، وذهب إلى مالك بن جبار، وهو ابنُ عمٍّ له بالحيرة، كثيرُ المال، فقال: يا ابن عمّ، أعِنِّي على مُفَاخَرتي. فقال له مالك: ما كنتُ لأُعطيك مالي وأتركَ نفسي وعِيالي بدون شيء! ثم أتى حاتم ابنَ عمٍّ له آخر، يُقال له: وَهْمُ بنُ عمرو، وكان حاتم يومئذٍ مُصَارِماً له لا يُكلِّمه، فقالت له امرأته: أيْ وَهْمُ، هذا واللَّهِ أبو سَفَّانة حاتمٌ قد طلع. فقال: ما لنا ولحاتم؟ أَثْبتي النظرَ، فقالت: هو حاتم. . قال:

---

(١) **تحاجزوا**: تمانعوا.

(٢) **إياس بن قبيصة الطائي**: من بني حيَّة بن سعنة من طيِّىء. فصيح، شريف، شجاع، تولَّى الحيرة بعد مقتل النعمان بن المنذر نحو سنة (٦٠٥ م)، وفي أيامه وقعت معركة ذي قار.

ويحك هو لا يُكلِّمني، فما جاء به إليَّ؟.. فنزل حتى سلَّم عليه، فردَّ سلامَهُ وحَيَّاه، ثم قال له: ما جاء بك يا حاتم؟ قال: خاطَرْتُ على حَسَبِك وحَسَبي. قال: في الرَّحْبِ والسَّعَة، هذا ما لي، وهو تسعُ مئة بعير، فخُذْها مئةً مئةً، حتى تَذهبَ الإبلُ، أو تُصيبَ ما تريد... فقالت امرأتُه: يا حاتم أنتَ تُخْرِجُنا من مالنا، وتفضحُ زوجي! فقال: إذهبي عني، فواللَّهِ ما كان الذي غَمَّكِ لِيَرُدَّني عمَّا قِبَلي.

ثم إن إياس بن قبيصة قال: احملوني إلى الملك، وكان به نِقْرِسٌ، فحُمِلَ حتى أُدْخِلَ عليه، فقال: أنعمْ صباحاً أبيتَ اللعنَ! فقال النعمانُ: وحيَّاكَ إلهُك! فقال إياس: أتَمِدُّ أصهارك بالمال والخيل، وجعلتَ بني ثُعَل في قعر الكنانة[1]؟ أظَنَّ أصهارُكَ أن يصنعوا بحاتم كما صنعوا بعامر بن جُوَيْن[2]، ولم يشعروا أن بني حيَّةَ بالبلد؟ فإن شئتَ واللَّهِ ناجزناك حتى يَسفَحَ الوادي دماً، فلْيَحضُروا مِجَادَهم غداً بمجمع العرب! فعرف النعمانُ الغضبَ في وجهه، فقال له: يا أحْلَمَنا لا تَغْضبْ فإني سأكفيك.

وأرسل النعمانُ بعدئذٍ إلى سعد بن حارثة، وإلى أصحابه: أنْظُروا ابنَ عمِّكم حاتماً، فأَرْضُوه، فواللَّهِ ما أنا بالذي أُعطيكم مالي تُبذِّرونَه، وما لي طاقةٌ ببني حيَّة... فخرج بنو لأم إلى حاتم فقالوا له: أَعْرِضْ عن هذا المِجَادِ نَدَعْ أَرْشَ أَنفِ ابنِ عمِّنا[3]. قال: لا والله لا أفعلُ حتى تتركوا أفراسَكم، ويُغْلَبَ مِجَادُكم.. ففعلوا، فعَمَدَ حاتم إلى أفراسهم فعَقَرها، وأطعمها

---

(١) بنو ثُعَل: بطن كبير من قبيلة طيِّىء.

(٢) ذكرتُ، في كلامي على رايات الغدر ورايات الوفاء بعكاظ، قصة عامر بن جُوَيْن الطائي وغدره بامرىء القيس الشاعر، وما كان بينه وبين ثُعَل.

(٣) الأَرْشُ: دِيَةُ الأنف.

الناسَ، وسقاهم الخمر[1]. . .

* * *

كانت هنالك إذن سوقٌ موسميَّةٌ كبرى بالحيرة، تقوم فيها مجامِعُ للعرب على نَحْوِ ما كان بعكاظ، ويجري فيها تفاخُرٌ، ومُماجَدَةٌ، ومجالسُ شِعْرٍ ولَهْوٍ وخمرٍ وغناءٍ، وتجارةٌ، وربما نُسكٌ أيضاً على عادة العرب في التعبُّدِ أو الحجِّ، قبل أو بعد التجارة واللعب. ويبقى أن نحاولَ بالاسْتِدلالِ معرفةَ موعدِ قيامِ هذه السوقِ، ومَوْضعِها من الحيرة.

ويَدلُّ قولُ حسَّانَ بنِ جَبَلة لابن عمِّه حاتم: «. . فعَلَيَّ كلُّ خمرٍ، أو لَحْمٍ، أو طعامٍ، ما أقاموا في سوق الحيرة»، أي مدَّةَ شُهودِ الناسِ تلك المُمَاجَدَةَ مهما طالتْ، على أن مُدَّةَ قيام السوق لم تكن قصيرةً، لأن الكرَمَ مع طُول المدَّةِ أَدْعَىٰ إلى زيادةٍ في المجدِ والفَخْرِ، ولعلها كانت نحواً من خمسةَ عَشَر يوماً. . ومن باب الترجيح أرى أن السوق كانت تقومُ بانقضاء عشرة أيام من شهر ربيعِ الآخِر، وذلك أن بين انقضاءِ موسم دُومَةِ الجندل، آخِرَ شهرِ ربيع الأول، وانعقادِ موسم المشقَّر بهَجَر أوَّلَ جُمادَىٰ الآخِرة، شَهريْن هما ربيعُ الآخِرُ وجُمادَى الأولى. وكان طريقُ تجَّار قريش إلى الحيرة يمرُّ غالباً على دومة الجندل، ويَتَخفَّرون خلاله بقبيلة طيِّىء[2]، والمرتحِلُ عن دُومة الجندل إلى هَجَر لم يكن له بُدٌّ من قصْدِ الحيرة أولاً، لأن الطريق إليها كانت أسهلَ الطرُقِ المعروفة يومئذٍ[3]، وهي تقعُ على مسيرة عشرة أيام من الدومة[4]. . أي أنه يصل إلى الحيرة في العاشر من شهر ربيع الآخِر،

(١) الأغاني: ١٧/ ٢٨٣ ـ ٢٨٦.

(٢) المحبَّر: ٢٦٤.

(٣) تاريخ العرب: ٢٠٥.

(٤) الأزمنة والأمكنة: ٢/ ١٦١.

فيلبث فيها مدَّةَ قيام سُوقها إلى آخِر الشهر تقريباً، ثم يرتحلُ إلى هَجَر، فَيَبْلُغُها في نحو شهرٍ[١]، أي مع انعقاد موسم المشقَّر في الأول من جُمادَى الآخِرة، وإذا شاء رجع من الحيرة إلى مكة من طريق الدومة ثم يثرب.

هذا عن موعد قيامها، وأمَّا عن مَوْضِعها فإنني أميلُ إلى الإعتقاد بأنه كان في ريف الحيرة، وليس في المدينة نفسها، فهنالك أرْحَبُ لاستيعابِ التجَّارِ والزُّوَّار، وضَرْبِ القباب والخِيَام، وتسريح الأنعام... وإذا كانت مواسمُ الأسواق، في أصل نشأتها، مُرْتبطةً بالمواسم الدينيَّة، ومرَاسِم الحجِّ إلى بيوت العبادة، فمن المُرَجَّح وجودُ علاقةٍ بين سوق الحيرة وموسم الحجِّ إلى «كعبة سنداد» بالعراق، وهي بيتٌ، أو قصرٌ للعبادة، اتَّخَذَتْهُ قبائلُ إيَادٍ لمّا نزلت سنداد، وشاركتْها في التعبُّد له قبائلُ ربيعة وبكر وتغلب[٢]، وكانت العربُ تحجُّ إليه[٣]، وهو من المعابد المشهورة عندهم، قيل إن بني إياد جعلوا فيه صنماً يقال له: ذو الكعبات[٤].

وكانت منازلُ إياد في سنداد وبارق والحيرة والخَوَرْنقِ والسَّدِير[٥]، وذلك قولُ الأسود بن يَعْفُر النهشَليّ، وهو شاعر جاهليٌّ من بني تميم:

ماذا أُؤَمِّلُ بعد آلِ مُحرِّقٍ ... تركوا منازِلَهم، وبعد إيادِ
أهل الخَوَرْنقِ والسديرِ وبارقٍ ... والقصرِ ذي الشُّرُفاتِ من سندادِ[٦]

---

(١) معجم البلدان: ١/ ٣٤٧، ٥/ ٣٩٣، وبلوغ الأرب: ١/ ١٨٦، وقلائد الجُمان: ١٧ ـ ١٨.
(٢) جمهرة أنساب العرب: ٤٩٤، وتاج العروس: ٤/ ١٥٣ (كعب)، والمفصَّل: ٦/ ٤١٥ ـ ٤١٧ ـ ٤٤٦ ـ ٤٤٧.
(٣) تاج العروس: ٨/ ٢٢١ (سند).
(٤) الأعلام: ٢/ ٣٢.
(٥) معجم البلدان: ٣/ ٢٦٦، وتاريخ اليعقوبي: ١/ ٢٢٥، والأغاني: ٢٢/ ٣٩٣ ـ ٣٩٤.
(٦) الشعر والشعراء: ٢٥٥ ـ ٢٥٦.

وكان يقال لكعبة سنداد: القصرُ ذو الشُّرفَاتِ.. ومن المعلوم أن الحيرة تقعُ على ثلاثة أميال من جنوب الكوفة، على بحيرة النجف، ويقعُ الخورنقُ شرقيَّ الحيرة على بُعد ميلٍ منها، والسَّدِيرُ في غَرْبِيِّها، وسنداد ريفٌ واسعٌ، ونهرٌ يمتدُّ من شمال الكوفة إلى الأُبلَّة[1]، فهي داخلةٌ بذلك في ريف الحيرة[2]. ولعلّ موضعَ سوق الحيرة كان بها، قريباً من الحيرة، وموسم السوق كان أيام الحجِّ إلى القصر ذي الشُّرُفَاتِ.

* * *

---

(1) تاج العروس: ١١/ ١٢٠ (حير).

(2) معجم البلدان: ٣/ ٢٦٦.

الفصل الثاني

سوق الخنافس

الخَنَافِسُ أرضٌ للعرب، في طَرفِ العراق، قربَ الأنبار، في الجهة الغربية من نهر الفرات، من ناحية البَرِدَان، كانت تُقام فيها سوقٌ للعرب[1]. . . وجاء في موارد الأخبار أن بعض أهل الأنبار أخبروا «المثنَّى بنَ حارثة الشيبانيَّ»[2]، بعد فراغِه من معركة البُوَيْبِ[3]، عن سوقٍ للعرب، تُقامُ مرةً كلَّ سنة بالخنافس، على شاطىء الفرات، وتجتمع بها أحياءٌ من العرب، من بكر بن وائل وقُضَاعة وكلب، بحمايةٍ من قَبِيلتيْ ربيعة وقضاعة، وأن تلك الأيامَ موعدُ قيام موسمها، فإن غزاها أصاب فيها مالاً كثيراً، يَقْوَىٰ به المسلمون على عَدوِّهم.

---

(١) معجم البلدان: ٢/ ٣٩١، وتاج العروس: ١٦/ ٤٠ (خنفس)، وخَنْفَسَ: الرجلُ عن القوم، إذا كرههم وعَدَلَ عنهم إلى غيرهم. والخُنْفَسُ والخُنْفَسَاءُ: حشرة سوداءُ مُنتِنَةُ الريح.

(٢) **المثنَّى بنُ حارثة الشيباني**: صحابي فاتح، من كبار القادة الشجعان. أسلم سنة (٩ هـ)، وغزا بلاد الفرس في خلافة أبي بكر، وهو أوَّل من صنع ذلك من العرب المسلمين، وقد أَمَدَّهُ أبو بكر بخالد بن الوليد، فكان ذلك بدء تحرير العراق من فارس. ثم أمدَّه عمر بن الخطاب بأبي عبيد، ثم بجيشٍ كبير يقوده سعد بن أبي وقّاص. وقد توفي سنة (١٤ هـ) متأثّراً بجراح أصابته في معركة الجسر.

(٣) **البُوَيْبُ**: نهر بالعراق في موضع الكوفة، يأخذ من الفرات. كانت عنده وقعةٌ بين المسلمين والفُرس، أيام أبي بكر.

أعَدَّ المثنَّى خطَّتَهُ، ثم أغار على السوق يوم قيامه، وكان يخفر الناسَ فيه فرسانٌ من ربيعة بقيادة السَّليل بن قيس، وفرسانٌ من قضاعة بقيادة ابن وَبرة، فجرَّدَهم من سلاحهم، ودخل السوق، ففرَّ الناسُ مذعورين، وتركوا أموالهم، فأخذ كلَّ ما كان بالسوق من الذَّهَبِ والفضَّة، وكلَّ ما خفَّ حملُه وغلا ثمنُه، وعاد من هذه الغزاة سالماً غانماً، وفيها يقول:

صَبَحْنا بالخَنَافِس جَمْعَ بَكْرٍ   وحَيّاً من قُضَاعَةَ غير مِيلِ
نَسَفْنا سُوقَهُمْ والخيلُ رُودٌ   من التَّطْوافِ والشُّرْبِ البخيلِ[1]

وإذا شئنا أن نعرفَ موعدَ قيام سوق الخنافس من كل سنة، وجَبَ علينا الاستدلالُ ببعض الحوادث التاريخية المعلومة، التي سبقت غَزْوَ السوق! ونحن نعلم أن المثنَّى بن حارثة عاد من المدينة إلى الحيرة، بُعَيْد أيامٍ من وفاة أبي بكر الصدِّيق، رضي الله عنه، وكانت في الثاني والعشرين من جُمادَىٰ الآخِرة، سنة (١٣ هـ)[2]، ويُوافق هذا اليومُ، في تقديرنا، يومَ التاسع عشر من شهر آذار ـ مارس، سنة (٦٣٥ م). فإذا كان ترك المدينةَ في الخامس والعشرين، اقتضاهُ السَّفَرُ عشرين يوماً لبُلوغ الحيرة[3]، ومعنى ذلك أنه وصل إليها منتصفَ رجَبٍ تقريباً، فأقام نحو شهر حتى وصل جيشُ أبي

---

(١) تاريخ الطبري: ٣/ ٤٧٣، والكامل: ٢/ ٤٤٥، وفتوح البلدان: ٢٤٧، ومعجم البلدان: ٢/ ٣٩١، (رُود: رادَ رَوْداً ورَوَدَاناً أي تحرّك تحركاً خفيفاً. والرَّوْدُ: ريح ليِّنةُ الهبوب. والأرْوَدُ: المتمهّل في عمله. ورُوَيْد: مصغّر رَوْد، وسار رُوَيْداً أي برفق وتُؤدة. ورُوَيْدَكَ: أي تمهّلْ. والخيلُ الرُّودُ: التي تمشي على مهل من التعب والعطش).
(٢) تاريخ الطبري: ٣/ ٤٢٠.
(٣) معجم البلدان: ٤/ ٤٩٣.

عُبيد بن مسعود الثقفي[1]، الذي أرسله أميرُ المؤمنين عمر بن الخطاب مَدَداً له. فما لبث أبو عبيد أن أنْشَبَ القتالَ مع الفُرس، فقُتل في معركة الجسر أواخرَ شعبان، وانتقم له المثنَّى بانتصاره على الفرس في معركة البُوَيْبِ منتصفَ رمضان[2]. . ثم كان غَزْوُهُ سوقَ الخنافس.

وعلى ذلك نُقدِّرُ أن موعد السوق كان في تلك السنة، أواخرَ رمضان أو مطلعَ شوَّال، وإذا تذكرنا أن عربَ العراق يأخذون بالتقويم الشمسي، أو بالقمريّ مع الكبْسِ لإلحاقه بالشمسي، عرفنا أن موعدَ السوق في الأصل يكون قريباً من أواخر حزيران (يونيو) وأوائل تموز (يوليو) من كل سنة، وذلك على افتراض أن الأول من شهر المحرَّم سنة عَشْرٍ للهجرة، وقع في الأول من تشرين الأول ـ أكتوبر سنة (٦٣٢ م).

تعقيب على موقع سوق الخنافس:

إن تعيينَ ياقوتَ موقعَ سوق الخنافس قربَ الأنبار، من ناحية «البَرَدان»، يقتضينا الإشارة إلى أن البَرَدانَ إسمٌ لمواضِعَ كثيرة، ولكنه فيما قدَّمْنا كان إسماً لموضعٍ بالكوفة، ينزلُ به «وبرة بنُ رومانُس» الكلبيُّ القضاعيُّ، من بني عُذْرة بن زيد اللات، وهو أخو النعمانَ بنِ المنذر اللخميِّ، من أمِّه. . وهذا ما يؤكّدُه قيامُ ابن وبرة على فرسان قضاعة لحماية السوق أيام انعقاده.

---

(١) أبو عبيد بن مسعود الثقفي: قائد من الشجعان. أمَّره عمر بن الخطاب على الجيش الزاحف إلى العراق لقتال الفرس، وأوصاه ألاّ يكون عجولاً، لأن الحرب لا يصلحها إلا الرجل الرزين، ولكنه اسْتَقْتَل، فقُتِل رحمه الله في معركة الجسر (سنة ١٣ هـ). وهو والد المختار الثقفي.

(٢) تاريخ الطبري: ٣/ ٤٧٠.

أما موسمُ دَيْرِ قُوطا الراهبِ، وهو مار سرجس، الذي كان يقومُ في البَرَدان، في اليوم السابع من تشرين الأول (أكتوبر)، إن كان أَوَّلَهُ يومُ الأحد، وإن لم يكن، فيُقام في الأحَدِ الذي يأتي بعد السابع، فإنَّ مَوْضعَ البَرَدانِ هذا يقعُ إلى الشمال من بغداد، على يسَارِ دجلة، وهو من الأماكنِ الحسَنةِ، والبقاعِ النَّزِهَة، وكان كثيرَ الطُّرَّاق والمتنزِّهين في أيام موسمه، لما كان يتوافَرُ به من كلِّ ما يطلبُه أو يَشْتهيهِ أهلُ البطالةِ والخَلاعَةِ، من الوُجوه الحِسَانِ، والشراب اللذيذ، والحانات الكثيرة[١].



موسمُ ديْر الخنافِس

ويبدو أن الخَنَافِسَ كان إسماً لِغَير موضعٍ بالعراق، وكان لهذا الموضع موسمٌ خاصٌّ به، لا علاقة له بموسم سوق الخنافس! فقد ذكر الشَّابُشْتيُّ[٢]، صاحبُ كتاب الدِّيَاراتِ، أن هنالك موسماً دينياً للمسيحيين بالعراق، كان يقومُ في موضعٍ يُقال له: دَيْرُ الخنافس، وهو دَيْرٌ كثيرُ الرُّهْبان، يقعُ بين مدينتَيْ الموْصِل وبَلَد، له يومٌ في السنة، يجتمع الناسُ إليه من كل موضع، فتظهر فيه الخنافسُ ذلك اليومَ، حتى تُغَطي حيطانَهُ وسُقوفَه وأرضَه، ويَسْودُّ جميعُه منها، فإذا كان اليومُ الثاني، وهو عيدُ الديْر، اجتمعوا إلى الهيكل

---

(١) الديارات: ٦٢ ـ ٦٣ (لأبي الحسن علي بن محمد المعروف بالشابشتي)، تحقيق كوركيس عوَّاد، دار الرائد العربي ـ بيروت، (الطبعة الثالثة ١٩٨٦ م).

(٢) الشابُشتيُّ: أبو الحسن، علي بن محمد، المعروف بالشابشتي، والمتوفَّىٰ بمصر سنة (٣٨٨ هـ = ٩٩٨ م). كان أديباً فاضلاً، حلو المحاورة، لطيف المعاشرة، له مُصنَّفات حسنة، منها كتاب الديَارات الذي وصف فيه بعضَ أديرة النصارى في العراق والشام ومصر، وما كان يكون بها من المواسم والأعياد.

فقدَّسُوا، وتقرَّبُوا، ثم انصرفوا وقد غابتِ الخنافِسُ حتى لا يُرَىٰ منها شيءٌ إلى مثل ذلك الوقت من قابِل[1].

وعلّق «كوركيس عوّاد»، مُحقِّقُ كتابِ الدِّيَارات، بأن الموقع الذي عيَّنَهُ الشابُشتيُّ غير صحيح، والصوابُ أن دَيْر الخنافس يقعُ شرقَ الموصل إلى يَسارِ دجلة، ذلك أن قرية بَلَدٍ تقعُ شمالَ الموصلِ إلى يمين دجلة[2]. . وذكر أيضاً أن الدَّيْر لم يكن كبيراً، وأنه رأى أطلاله، وهي تُشيرُ إلى أنه كان ديراً صغيراً[3]. . .

وتكلَّم ياقوت الحموي على دير الخنافس، وعيَّن موقعَه إلى الغرب من دجْلةَ، على قمَّة جبل شامخ، ووصفه بأنه ديرٌ صغير، لا يَسْكنه أكثر من راهبيْن، وأنه نَزِهٌ لعُلُوِّهِ على الضِّيَاع، وإشرافِهِ على أنهار نِينَوىٰ والمرج، وذكر أن له عيداً يقصدُهُ أهلُ الضِّيَاعِ في كلِّ سنةٍ مرَّةً، وأكَّدَ مجيءَ الخنافس إليه ثلاثةَ أيام من السنة، فإذا انقضَتْ، ذَهبتْ عنه ولم يبق منها واحدةٌ[4]. . .

وحقَّق البطريرك العَلاَّمةُ «مار اغناطيوس أفرام الأول برصوم» في أمر هذا الدير، وانتهى إلى أنه كان يقع على هضبة في شرق الموصل، بالقرب من قرية «بَرْطُلَّىٰ»، وهي من أعمال نينوى، وإنما سُمِّي بدير الخنافس، لأن خنافِسَ صغيرةً تَظهرُ به، في موسم عيده من كل سنة، الموافق للعشرين من شهر تشرين الأول (أكتوبر)، مُدَّةَ ثلاثة أيَّام، ثم تختفي[5]. . . وقد ذكر

---

(١) الديارات: ٣٠٠.

(٢) المرجع نفسه: الحاشية رقم ١.

(٣) المرجع نفسه: ح/ ٢.

(٤) معجم البلدان: ٢/ ٥٠٨.

(٥) الديارات: ٤١٢/ تذييل رقم ٢٥.

ياقوت أن «بَرْطُلَّىٰ» قريةٌ كالمدينة في شرقيّ دجلة الموصل، من أعمال نينوى، وأنها كانت كثيرةَ الخيراتِ والأسواقِ والبيع والشراء، وأن الغالبَ على أهلها دينُ المسيح عليه السلام[1].

* * *

---

(١) معجم البلدان: ١/ ٣٨٥.

الفصل الثالث

سوقُ الكبَاث

وقال قومٌ من أهل الحيرة للمثنَّىٰ: ألا نَدُلُّكَ على قريةٍ يأتيها تُجَّارُ المدائن، وتُجَّارُ السَّوادِ وأهلُ الأحْوازِ، يجتمعون بها مرَّةً في كل سنة، ومعهم من الأموال ما يكون غَناءً للمسلمين إذا أصبْتَه؟ فقال لهم: ما هي؟ قالوا: بغداد، يقومُ موسمُ سوقها بعد أيامٍ من سوق الخنافس[1].

وبغداد يومئذٍ قريةٌ للأعاجم، تقع على الشاطىء الشرقيّ لنهر دجلة، على نحو خمسة وعشرين ميلاً من المدائن، ومئةٍ وخمسينَ ميلاً من الحيرة، والسوقُ فيها عند قرن الصَّراة[2]. وكان صُنَّاعُ إيران اشتُهروا بصناعة السُّنْدُسِ الحريري، وحياكةِ البُسُطِ الصوفية، وإنتاجِ الذهبِ والفضةِ والنحاسِ والبِلَّوْرِ الصخريّ، وكثيرٍ من الأدوات الثمينة[3].

وقد سأل المثنَّى: كم بين مدائنِ كسرى وبغداد، فقيل: بعضُ يومٍ أو عامَّتُه، فعرج على الأنبار، وأخذ معه دليلاً، ثم انطلق بجيشه نحوَها، فعَبَروا دجلةَ، وطلعوا على بغدادَ وسُوقِها، مع أوَّل ضوءِ النهار، فبُغِتَ أهلُ السوقِ، فَهَرب مَن هَرب، وقُتِل مَن قُتِل، وقال المثنَّى لجُنْده: لا تأخذوا إلا

(١) تاريخ الطبري: ٣/ ٤٧٣.

(٢) معجم البلدان: ١/ ٤٥٧.

(٣) الطريق إلى المدائن ـ أحمد عادل كمال: ٤٤٩ (دار النفائس ـ بيروت ١٩٧٧).

الذهبَ والفضَّةَ، ولا تأخذوا من المتَاع إلا ما يَقْدرُ الرجلُ منكم على حمله، فملأ المسلمون أيديهم من الصفراء والبيضاء، والحُرِّ من كل شيء. ثم رجعوا من بغداد إلى الأنبار[١].

ويبدو أن المثنَّى لم يشَأْ، بعد الخنافس وبغداد، أن يعودَ إلى الحيرة، قبل أن يَسْتكملَ غاراته على شمال العراق، فأمَرَ وهو بالأنبار بغَزْوِ بني تغلب في «الكباث»[٢]، وهو مَوْضعٌ بالجزيرة الفراتية، لبني تغلب[٣]، ولعله كان قريباً من الأنبار على الضفَّةِ الشرقية للفرات، وكانوا يُقيمون عليه في الجاهلية سوقاً للعرب، فلما غزاهُ المسلمون، كان أهلُه قد ارْفَضُّوا وأَخْلوا السوق، فلم يظفروا بشيء[٤]. . .

ولا شك في أن موسمَ الكَبَاثِ كان يقوم بعد موسم الخنافس بأيام معدودات، ولذلك لم يُدْرِكْهُ المسلمون قائماً، ومعنى هذا أن موسمه في تلك السنة كان في شهر شوَّال.



(١) تاريخ الطبري: ٣/ ٤٧٤.

(٢) الكَبَاثُ: يُقال لثمر الأَراك إذا أَدْرَكَ ونَضَج الكَبَاثُ، ويكونُ ثمرُ الأراك على شكل العناقيد، ويُقال لعُنْقود الكَبَاث: المُلَّاح، سُمِّي به لِطَعْمه، فكأن فيه من حرارته ملحاً. ويبدو أن السوق كانت تُقام بموضع يُجنَى فيه الكَبَاثُ أو يُباع، فغلب عليه.

(٣) معجم البلدان: ٤/ ٤٣٣.

(٤) تاريخ الطبري: ٣/ ٤٧٥، والكامل: ٢/ ٤٤٦.

الفصل الرابع

مواسمُ الأعياد في بعض أديرة النصارى بالعراق

● **الخليفةُ المأمون يشهدُ عيد الشعانين بالموصل:**

من الأعيادِ المسيحيَّة المشهورة عيدُ الشعانين، ويقال له أيضاً: يومُ السعانين، ويُعرف عند العرب بيوم السَّبَاسِبِ، وجاء في الحديث «إن الله أبْدَلكم بيوم السباسب يومَ العيد»، وكان يومُ السباسب عيداً تُعيِّدُه العربُ، وعليه قولُ النابغة الذبياني يمدحُ مُلوكَ بني غسَّانَ، وكانوا من نصارى العرب:

رِقَـاقُ النِعَـالِ، طيِّـبٌ حُجُـزاتُهـم   يُحيَّوْنَ بالريْحَانِ يومَ السَّبَاسِبِ[1]

وهو يقع في يوم الأحد الذي يسبق عيد الفِصْح من كلِّ سنة، فهو من الأعياد المنُوطةِ بالأهِلَّة، وإن كان موعدُه لا يتحوَّلُ أكثر من مُدَّةٍ معروفةٍ، في زَمَنٍ معروفٍ من فُصول السنة لا يتجاوزه.

والشعانينُ كلمة عبرانيَّةٌ أصلُها: «هُوشعنا، أو هُوشِعَه نا»، أي خَلِّصنا

(١) تاج العروس: ٣/٤١، ولسان العرب: ١/٤٦٠ (سبسب)، والمفضَّل: ٦/٦٦٠. وكانت العربُ تَمدَحُ بِرِقَّةِ النِعَال، وتجعلُها من لباس الملوك، وقد أشار الشاعر بذلك إلى طيب عَيْشهم ورَفَاهته، وقولُه: طيِّبٌ حُجُزاتُهم، كنايةٌ عن العفَّة، فالحُجُزَةُ مَعْقِدُ الإزار على البطن، ثم ذكر أن الناس كانت تُحيِّيهم بطاقات الريْحان في يوم الشعانين تعبيراً عن مكانتهم ومحبَّتهم في أنفسهم.

أو أنقَذَنا، ومنها اشتُقَّ إسمُ «يسوع»، ومعناه المخلِّص.. والطريف أن من معاني السُّعْنَة في العربية: «المظلَّة، والرقصُ واللعب»[1]، وهي بذلك تُعبِّرُ عمَّا كان يكون في العيد!

وقد رُوِيَ أن الخليفة المأمون العباسيَّ شَهِدَ هذا العيدَ في موسمه، بإحدى السنين، وذلك في دَيْرِ الأعْلَىٰ بالموصل.. ويقعُ هذا الديرُ على جبل فوق دجلة، ويُضْربُ به المثَلُ في رِقَّة الهواء، وحُسْن المُسْتَشْرَفِ، ويقال إنه ليس للنصارى ديْرٌ مثلُه في العراق، لما كان فيه من أناجيلهم ومُتعبَّداتهم. وكانت فيه صَوامِعُ كثيرةٌ للرُّهْبان، وله دَرَجاتٌ مَنْقوراتٌ في الجبل، عليها نحوُ مئةِ مِرْقَاةٍ تُفْضي إلى دجلة هُبُوطاً، ويُسْتَقَىٰ عليها الماءُ منه. وتحت الديْر عينُ ماءٍ غزيرةٌ تصبُّ إلى دجلة، ولها وقتٌ من السنة يقصدها الناسُ فيَسْتحمُّون فيها، ويعتقدون أنها تُبْرِىءُ من الحكَّة والجَربِ، وتنفعُ المقعَدين والزَّمْنَى، أي ذوي العاهات.

وكان الشعانين في هذا الديْر حَسَناً، يخرجُ الناسُ إليه، فيقيمون فيه أياماً يشربون ويتنزَّهُون، وكلُّ من اجتاز بالموصل من الولاة كان ينزلُ به. وقد اجتاز المأمونُ بهذا الدَّيْر في خروجه إلى دمشق، فأقام عندهُ أياماً، ووافق نزولُه عيدَ الشعانين، رَوَى ذلك أحمد بنُ صدقة[2]، فقال: خرجنا مع المأمون، فنزلنا الدير الأعْلىٰ بالموصل لِطيبِه ونَزاهتِه، وجاء عيدُ الشعانين، فجلس المأمونُ في موضعٍ منه حَسَنٍ، مُشْرفٍ على دجلةَ والصحراء والبساتين، ويُبصِرُ منه كلَّ من يأتي إلى الديْر. وزُيِّنَ الديرُ في ذلك اليوم بأجمل زينةٍ،

---

(١) معجم متن اللغة: ١٥٨.

(٢) أحمد بن صدقة: طنبوري حاذق، له غناء كثير معروف، نشأ في الحجاز، وزار الشام، ثم أقام ببغداد، واتصل بالمأمون وغنَّى له. مات نحو (٢١٠ هـ = ٨٢٥ م).

وأحسن زيّ، وخرج رُهبانُهُ وقسَّانُهُ إلى المذبح، وحَوْلَهم فتيانُهم، بأيديهم المجامِرُ، قد تقلَّدُوا الصُّلْبَانَ، وتَوَشَّحُوا بالمناديل المنقوشة، فرأى المأمونُ ذلك، فاستحسنه. ثم انصرف القومُ إلى صَوامِعِهم وقرابينهم، وعَطَفَ إلى المأمون من كان معهم من الجواري والغلمان، بيَدِ كلِّ واحدٍ منهم تُحفَةٌ من الرياحين، وبأيدي طائفةٍ منهم كؤوسٌ فيها أنواعُ الشراب، فأدْنَاهم، وجعل يأخذُ من هذا تُحفةً ومن هذه تُحفة، وشُغِف بما رآهُ منهم، وما فينا إلا مَن هذه حالُه، وهو في أثناء ذلك يشربُ، والغناءُ يرتفع، ثم أمَر بإخْراج مَن كان يَصْحَبُه مِن وصَائِفه المُزَنَّرات، فأُخْرِجَتْ إليه عشرون وصيفةً كأنهنَّ البُدورُ، عليهنَّ ثيابُ الديباج، وفي أعْنَاقِهنَّ صُلْبانٌ من الذهب، وبأيديهنَّ الخوصُ والزيتون، فقال: يا أحمد! قد قلتُ في هؤلاء أبياتاً فغنِّني بها، وهي:

ظِبَـاءٌ كـالـدنـانيـرِ ... مِـلاَحٌ فـي المقـاصيـرِ
جَـلاهُـنَّ الشعـانيـنُ ... علينـا فـي الـزنـانيـر
وقـد زَرْفَـنَّ أصـداغـاً ... كـأذنـاب الـزرَازيـر[1]
وأقْبلْـنَ بـأوسـاطٍ ... كـأوسـاط الـزنـابيـرِ

ثم أخرج نُعْماً جاريتَه، وكانت وصيفةً، فغنَّتْهُ:

وزعَمـتِ أنـي ظـالـمٌ فهجـرتِنـي ... ورَميْـتِ فـي كبـدي بسهـمٍ نـافـذِ
فَنَعَمْ ظلمتُكِ، فاصْفَحي وتجاوزي ... هـذا مقـامُ المستجيـرِ العَـائـذِ

فطَرِب وشرب، واستعاد الغناءَ مرَّاتٍ، ثم قال: أرأيتَ أحسنَ مما نحن فيه؟ فقلتُ: نعم يا أمير المؤمنين! أن نشكرَ من خَوَّلكَ، فيَزِيدَك منه ويحفظَهُ عليك. قال: بارك اللَّهُ فيك، فلقد ذَكَّرتَ في موضع الذكرى... ثم أمر له

---

(١) زَرْفَنَّ: زَرْفَنَ شعرَ صدغَيْه، أي جعله كالزَّرافِين، أي الحَلَق، واحِدُها زُرْفين.

بثلاثين ألف درهم[1]!..

* * *

● موسم عيد الصليب في دير قُنَّى:

يقعُ ديْرُ قُنَّى على نحو خمسين ميلاً من بغداد، مُنْحدِراً في الجانب الشرقي، بالقُرب من دجلة. وهو دَيْرٌ حَسَنٌ، نَزِهٌ، عامِرٌ. وموسمه الذي يجتمع فيه الناسُ إليه، هو عيد الصليب، ويُوافق اليومَ الرابعَ عَشَرَ من شهر أيلول (سبتمبر) من كل سنة. وفي الديْر مئةُ صَوْمعةٍ لرُهْبانِه، وكانوا يتبايعون هذه الصوامِعَ بما تُغِلُّه بساتينُها، إذ كان لكلِّ صومعةٍ حولَها بستانٌ، فيه من جميع الثمار والنخيل والزيتون. ويُطيف بالديْر سورٌ عظيم، وفي وسطه نهرٌ جارٍ. وقد وصَفَهُ الشعراءُ أحسنَ وصفٍ وأجْمَلَه، وذكروا أيامَ لَهْوهم فيه.. ومن ذلك قولُ أحدهم:

وكم وقفةٍ في دَيْر قُنَّى وقَفتُها ... أُغازِلُ فيه فاتنَ الطرْفِ أحْوَرا
وكم فَتْكةٍ لي فيه لم أَنْسَ طِيبَها ... أَمَتُّ بها عُرْفاً، وأحْيَيْتُ مُنْكرا
أغازِلُ فيه شادِناً أو غَزالةً ... وأَشربُ فيه مُشْرقَ اللونِ أحمرا

وكان إلى جانب هذا الدير قريةٌ كبيرةٌ تُعرف أيضاً بقرية دير قُنَّى، وقد خَرج منها عددٌ من مشاهير الكتَّاب والوزراء. ويبدو أن هذا الدير كان خَرِباً في القرن الثامن الهجري[2].

* * *

---

(١) الديارات: ١٧٧ ـ ١٧٩، ومعجم البلدان: ٢/٤٩٨.

(٢) معجم البلدان: ٢/٥٢٨، والديارات: ٢٦٥ ـ ٢٦٦، ٣٩٦.

ومن طريف ما قيل في هذا الديْر أيضاً من الشعر، وهو يدلُّ على ما كان به من اللهو والطرب والمرح:

يـا مَنـزلَ اللهـو بـديْـرِ قُنَّـا ... قلبـي إلـى تلـك الـرُّبَـى قـد حَنَّـا
سُقْيـاً لأيّـامـكَ لمّـا كُنَّـا ... نَحْتَـارُ منـك لـذَّةً وحُسْنـا
أيـامَ لا أنْعَـمَ عيـشٍ منّـا ... إذا انْتَشيْنـا وصَحَـوْنـا عُـدْنـا
وإنْ فَنَـىٰ دَنٌّ بَـزَلْنـا دَنَّـا ... حتـى يُظَـنَّ أننـا جُنِنَّـا
ومُسْعِـدٍ فـي كـل مـا أردْنـا ... يحكي لنا الغُصنَ الرطيبَ اللَّدْنا
أحسـنَ خَلْـقِ اللّـهِ أدّى لحنـا ... وجَـسَّ زيـرَ عُـودِهِ وغَنَّـى
بـاللّـه، يـا قسّيـسَ ديْـرِ قُنّـا ... متـى رأيـتَ الـرشَـأَ الأَغَنَّـا
متـى رأيـتَ فِتْنتـي يُـوحنّـا ... آهٍ إذا مـا مَـاسَ أو تَثَنَّـى
يـا مُنْيـةَ القلـبِ إذا تمنَّـى ... فَتَكْـتَ بـالصـبِّ بـك المُعَنَّـىٰ
ثـم قَلَبـتَ فـي الهـوى المِجَنَّـا[1] ... عـذّبتَـه بـالحـبّ فنّـاً فنَّـا
وصـارت الأرضُ عليـه سِجْنـا ... فمـا يُـلاقـي الجفـنُ منـه جَفْنـا
أفْـدِيـكَ لا تهجـرُ صَبّـاً مُضْنَـى ... قـد كـان مـن غـدرك مُطمئنَّـا
أسـأت إذا أحسنـتُ فيـك الظنَّـا ... وصـار قلبـي فـي يـديـك رهنـا[2]

وأخيراً، إنني أجْتَزِىءُ بالكلام على مَوسِميْ هذين العيدَيْن فقط عند نصارى العرب في العراق، عن الخوْضِ في الكلام على مواسِمَ أُخَرَ مثلِها كثيرةٍ، لأن ما كان بالعراق من الأَدْيَرة يُعَدُّ بالعشرات، ولكلٍّ ديْرٍ منها عِيدٌ خاصٌّ به، يقعُ في موسمٍ دينيّ مُعيَّن، وموعدٍ معروف.. ولأن الأخبار لم

(١) يقال: قَلَبَ له ظهْر المِجَنّ، لمن كان لصاحبه على مَودَّةٍ ووئام ثم انقلب عليه وتحوَّل عن عهده.

(٢) الديارات: ٢٦٥ ـ ٢٦٦.

تُشِرْ إلى أنْشِطةٍ مُتنوِّعَةٍ كانت تجري بها، على نحو ما كان في المواسم العربية الأُخَر، وإنْ أشارت إلى أنَّ مناطقها جميعاً كانت في أيام الأعياد مُتَنَزَّهاتٍ للبطَّالين، وحاناتٍ للخمَّارين، ومَقَاصِفَ للخُلَعاءِ ومحبِّي الشراب والأكل واللهو، وكانت كذلك حافزاً للشعراء المتماجنين على قول أشعار الغزل، والتغنِّي بالنساء الحِسَانِ، والخمور الجِيَادِ، مما لو جُمع بعضُه في ديوانٍ، لَوَقَع في عدد من المجلَّدات!

* * *

الفصل الخامس

سوقُ المِربَد

المِرْبَدُ في اللغة مَحْبِسُ الإبِلِ، أو الموضعُ الذي تُحبَسُ به الإبِلُ والبَقَرُ والغَنَم.. والموضعُ الذي يُنْشَرُ فيه التمرُ لِيَيْبَسَ(١). والمِرْبَدُ ضاحيةٌ من ضواحي البَصْرَةِ، في الجهة الغربية منها، ممَّا يلي البادية، وإنما سُمِّيتْ مِرْبَداً لأنها كانت قديماً موضعَ سُوقِ الإبل(٢).

والبصرةُ أولُ مدينةٍ اختُطَّت في الإسلام، ومُصِّرتْ في أيام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، اختَطَّها وبنَاها سنةَ (١٧ هـ) عُتْبةُ بنُ غزوان(٣)، على أرضٍ هي بعضُ أرضِ الأُبُلَّة، والأُبُلَّةُ يومئذٍ مَوْطِنٌ قديمٌ للعرب وإخوانِهم من أنباط السَّواد، شاركَهم فيه أقوامٌ من الهند واليونان والفُرس، وهي مرفأٌ على شَطِّ العرب، تَرْسُو فيه السفُنُ القادمةُ ببضائع الشرق الأقصى والهند، وكانت العربُ تُسمِّيه «ثَغْرَ الهند». وتَبعدُ الأُبُلَّةُ عن الموضع الذي اختُطَّتْ به مدينةُ البصرة نحو اثنيْ عَشَر ميلاً(٤)، ويُعَدُّ الوادي الذي يمرُّ به نهرُ الأُبلَّةِ من جِنَانِ الأرض، لكثرة ما فيه من أشجار النخيل،

---

(١) لسان العرب: ٣/ ١٧١ (ربد).

(٢) معجم البلدان: ٥/ ٩٨.

(٣) عتبة بن غزوان: (٥٨٤ ـ ٦٣٨ م)، صحابي، فاتح، شهد بدراً والقادسية وفتح مَيْسانَ. وجَّهَهُ عمرُ إلى أرض البصرة والياً عليها، فاختطَّها ومصَّرها.

(٤) معجم البلدان: ١/ ٤٣٦، وفيه أنها أربعة فراسخ، والفرسخ ثلاثة أميال.

والأترُجّ، والنارنجِ، وصُنُوفِ الخضرةِ والزُّرُوعِ، ولحُسْن ما عليه من القصور المتناظرة، والأبنية الساحرة. . . ثم ما لبثت البصرةُ حتى اتَّسعتْ وحَلَّتْ محلَّ الأُبُلَّة[1].

والبَصْرةُ في الأصل حِجارةٌ رِخْوَةٌ بيضاءُ، وبها سُمِّيتِ البصرةُ التي بُنِيَتْ بالمِرْبَدِ، والبصرةُ والكذَّانُ كلاهما الحجارةُ الرِخْوَةُ، التي ليست بصُلْبةٍ[2]، ولمَّا مرَّ عتبةُ بنُ غزوانَ بموضع المِرْبَدِ، ووجد فيه الكَذَّانَ الغليظَ قال: هذه البَصْرةُ، فانْزِلُوا باسم الله! ويومئذٍ اخْتُطَّتِ البَصْرةُ، وبُنِيتْ على جانبٍ من مِرْبَدِ الإبِل[3]، وقد كان هناك، كما يبدو، منذ عصر الجاهلية، ولم يكن له من الخَطَر إذ ذاك ما يجعلُه يُذْكر، أو تُنْقَلُ أخبارُهُ. . وإنما كان خَطَرُهُ بعدما استوطن العربُ البصرة، وتَبَحْبَحُوا أرضَ السَّوادِ، ومُدُنَ العراق، ثم بعد أن كان مِرْبَداً للإبل، وصار لهم سُوقاً للتجارة، «ليكونَ أوَّلَ ما ينزلون إذا قَصَدُوا البصرةَ، وآخِرَ ما يَتْركون إذا رحَلُوا عنها، ليقْضُوا فيه مَتاعاً لهم، ومَرافِقَ يَتَبلَّغُون بها، في ظَعْنِهم وإقامتهم»[4].

وكانت البصرةُ في نشأتها بلدةً رقيقةَ الحال، فقيرةً، وظلَّت على ذلك إلى أن انقضَى عهدُ الفِتَنِ، واستقرَّ الأمرُ في العراق لبني أميَّة، بمثل زيادٍ وابنِهِ والحجَّاج، فانصرف أهلُها إلى شؤونهم، وعكفوا على الأرض يَشُقُّون فيها الأنهار، ويزرعونها، فانتعشوا، واستفاضت لهم بها زُروعٌ ونخيلٌ وتجاراتٌ، فما زالت تزدهِرُ، ويَطَّرِدُ نُموُّها، ويزدادُ عمرانُها، ويُثْري أهلُها،

---

(١) المفصَّل: ٧/ ٣٣٣ ـ ٣٣٤.

(٢) تاج العروس: ١٠/ ٢٠٣ (بصر).

(٣) عيون الأخبار: ١/ ٢١٧، ولسان العرب: ٤/ ٦٧ (بَصَر)، و١٣/ ٣٥٧ (كذن).

(٤) أسواق العرب: ٤٠٧.

ويَنْبغُ أبناؤها، حتى عُدّتْ من أكبر ثُغور الإسلام قاطبةً، وحتى غدت كما قيل فيها: قبّةَ الإسلام، وخزانةَ العرب[1]، وموطنَ السادةِ والقادةِ والعلماءِ.

وقد امتدَّ العمرانُ من البصرة إلى المربد، فبُنيت فيه الدُّورُ والقُصُور، وأُقيمتِ المُتَنَزَّهاتُ والمرافِقُ، وصار ما بينهما كلُّه عامِراً، نَضِراً، حتى قيل يومئذٍ: العراقُ عينُ الدنيا، والبصرةُ عينُ العراق، والمِرْبَدُ عينُ البصرة[2]... ذلك أن المربدَ لم يَعُدْ سوقاً للتجارة وحسب، بل سوقاً للدعوات السياسيَّة، وسوقاً للشعر والأدب، وسوقاً لعُلوم العربية من نَحْوٍ وصَرْفٍ وبلاغة، وأصبح مجتمعاً عامّاً للعرب، يخرجون إليه كلَّ يومٍ، ويَنْضمُّ كلُّ امرىءٍ منهم إلى قومه، أو فريقه، أو حِزْبِه، فتَتَعدَّدُ المجالسُ، وتَتَنوَّعُ الحلقاتُ، ويَتَنقَّلُ بينها الشعراءُ والرُّوَاةُ والنُّحَاةُ، ويكون هنالك مديحٌ وهجاء، ومُفاخَرات ومُنافَرات، وخُطبٌ ومُنَاظَراتٌ، وكأنما أراد البَصْرِيُّون أن يكون لهم من المِرْبَدِ، مثلُ ما كان لعرب الجاهلية من عكاظ، مع ما كان بينهما من تبايُنٍ في المكان والزمان، فسوق عكاظ قامت في قلب الجزيرة العربية، ومَعْقِلِ العرب، ينزلُها أشرافُهم وخطباؤهم وشعراؤهم، وكلُّهم فصيحٌ بليغٌ، لا عُجْمةَ في لغته، ولا أثَرَ لأعجميّ، فكان دَوْرُها توحيدَ لهجات العرب في لغة مِثاليَّةٍ واحدة، تَنزَّلَ بها القرآنُ الكريم.. والمِرْبَدُ قام في أقصى جزيرة العرب، وأدناها من حُدودِ الأعاجم، فكان ذلك مع الفُتُوحِ، وامتزاجِ العربِ بغيرهم من الأُمم، سبباً في شُيُوعِ اللَحْنِ، وفُشُوِّ العُجْمَة، وانتشارِ اللُكْنَةِ في العربية... وقد غَشِيَ هذا الفسادُ في اللغةِ، حتى مجالسَ الخاصَّةِ من العرب، فأزْرَىٰ بلهجات بعضِ الفُصَحاء، وصار بعضُ الولاة يَلْحَنُ على

---

(١) تاج العروس: ١٠/ ٢٠٢ (بصر).

(٢) عيون الأخبار: ١/ ٢٢٢، ومعجم البلدان: ٥/ ٩٨.

المِنبَر وهو يخطبُ الناسَ في المواسم، فكان دورُ المِرْبد تقويمَ الألْسِنة، وتَعْوِيدَها النطقَ السليمَ بالعربية الفصيحة، إلى ما كان له من أدْوارٍ أُخَر كثيرةٍ، يُمكن إجمالُها في جوانب التجارة، والسياسة، والأدب. أما التجارةُ فليس من هَمِّنا في شيءٍ أن نَعْرضَ لها في هذا المقام، وأما السياسةُ والأدبُ، فكلاهما كان مُرْتبطاً أحَدُهما بالآخَر. ذلك أن الأحزابَ والشِّيَعَ، إنما كانت تُنتج أَدَباً، إذا شَعَرَ شعراؤها، أو خَطَب خطباؤها، أو تَحاوَرَ زعماؤها. ومَثَلُهم في ذلك كمثَل القبائل، يتبارَىٰ شعراؤها في الفخر والهجاء، ويتنافَسُ خطباؤها في ذِكرِ الأمجادِ، ومآثِرِ الآباءِ والأجداد.. إلى ما كان يعجُّ به المربَدُ من أعلام اللغة والنحو والشعر، يتسابقون إلى تَلقِّي فُصَحاءِ أهل البادية، ليأخذوا عنهم الصِّحَاحَ من مفردات العربية وقواعدها.

وحَسْبُنا في مُتابعة هذا الأمر، أن ننقلَ شيئاً مما ذكره أحمد أمين عن تطوُّرِ المربد في العصور الثلاثة: عصر الخلفاء الراشدين، وعصر بني أميَّة، وعصر العباسيين[1].. وشيئاً مما ذكره أيضاً سعيد الأفغاني في كلامه على المربد[2].



(١) مجلة الرسالة: العددان ١٥ و١٦ لسنة ١٩٣٣، وضحى الإسلام: ٢/ ٨٠ ـ ٨٢.

(٢) أسواق العرب: ٤١٢ ـ ٤١٣، ٤٢٣ ـ ٤٢٤.

المطلب الأول ـ المِرْبَدُ في عصر الخلفاء الراشدين:

أَبْرَزُ أخبار المِرْبَدِ في ذلك العصر، ما كان بعد قتل أمير المؤمنين عثمان بن عفَّان، ذلك أن المربد انتقل وقتئذٍ من سوق تجارية إلى مَجمعٍ عامّ، حفل بالأحزاب السياسية، التي نشأت ممن يُطالبُ بدم عثمان، ومَن يُنكر عليهم هذا الحقَّ، ويُحاول كلُّ فريق أن يُؤيِّدَ دعواهُ بالخُطَبِ البليغة، يَسُوق فيها الأَدِلَّةَ والبراهينَ على صواب رأيه أو مذهبه. ولكن هذا الحوارَ لم ينفع، بل تطوَّر إلى قتالٍ، وكان المربدُ ساحةَ ذلك القتال.. ولئن شَهِدَ عكاظُ قِتَالاً بين قبيلتين في الجاهليَّة، لقد شهد المِربدُ أكبر فتنةٍ، وأشدَّ قتالٍ، وقف فيه المسلمُ في وجه أخيه المسلم يُكافحُه بسَيْفه، ويَشْرَعُ إليه رُمْحَه.



فقد خرجت يومئذٍ عائشة أمُّ المؤمنين إلى المربد، فنزلت به، ومعها مشيخةٌ من أصحاب الرسول عليه السلام، مُهاجِرينَ وأنصاراً، فيهم الزبيرُ بن العوَّام وطلحةُ بن عبيد الله، يطالبون بقَتَلةِ عثمان، ناقمين على أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب، رضي الله عنه، أنه لم يَقْتصَّ من قَتَلةِ عثمان، فخرج إليهم من البصرة مَن كان يرى رأيهم، ووقف معهم في ميمنة المربد. وخرج أيضاً عثمانُ بنُ حنيف عامِلُ عليٍّ على البصرة فيمن يُؤيِّده، ووقفوا في مَيْسرة المربد.. ثم تكلم طلحة، فأنْصَتَ الناسُ له، فحمد الله وأثنى عليه، وذكر عثمانَ وفَضْلَه، وما استُحِلَّ منه، ودعاهم إلى الطلب بدمه، وحثَّهم عليه. وتكلَّم الزبيرُ بعده بمثل ما قال، فصاح مَن في ميمنة المربد: صَدَقا وبَرَّا، وقال من في مَيْسَرته: فَجَرا وغَدَرا وأَمَرا بالباطل، فقد بايَعَا عَلِيّاً، ثم جاءا يقولان ما قالا..

فتكلمت عائشة، وكانت جَهْوَرِيَّةَ الصوت، فحمدتِ الله وأَثْنَتْ عليه، وقالت: إن قَتَلَةَ عثمان فَجَرَةٌ غَدَرَةٌ كَذَبَةٌ، اقتحموا عليه داره، واستحلُّوا الدم الحرام بلا تِرَةٍ ولا عُذْرٍ، وإنَّ ممّا ينبغي، ولا ينبغي لكم غيرُه، أَخْذُ قَتَلةِ عثمان، وإقامةُ كتاب الله عزَّ وجلَّ[1] . . .

فأثَّر كلامُها في أهل الميسرة، وانقسموا فريقين، أحدهما يقول: صَدَقتْ، وبرَّتْ، وقالتِ الحقَّ، وأمَرَتْ بالحقِّ، والثاني يقول: كذبوا والله ما نعرفُ ما يقولون، ثم قام خطباؤهم يَرِدُّون، فتَحاثَىٰ الناسُ، وتحاصَبُوا، وأَرْهَجُوا. . وكاد الأمرُ يقفُ عند هذا، فإن أصحابَ عائشة ما أرادوا قتالاً، ولكن طائفةً في أصحاب ابن حنيف، ولعلَّ أكثرهم ممن اشترك في دَم الخليفة الشهيد، تعجَّلوا الحوادثَ، وأَقْبَلُوا يُنْشِبُون القتالَ، فأَشْرَعَ أصحابُ عائشة رماحَهم، وأَمْسَكُوا لِيُمْسِكَ أصحابُ ابن حنيف ويَكُفُّوا، ولكنهم لم يكفُّوا، بل هجموا وأعملوا القتلَ في حزب أم المؤمنين. . ثم كان ما كان من تلك الحرب، التي اشتُهرت بموقعة الجمل، وانتهت بانْدِحَارِ أصحاب عائشة، ومقتل طلحة والزبير، وهي أوَّلُ حربٍ فرَّقَتْ كلمة المسلمين، وجعلت بأسهم بينهم شديداً.

* * *

المطلب الثاني ـ المِرْبَدُ في عصر بني أُميّة:

اتَّسَعَ المربدُ في أيام الأمويين، وكثُر قاصدوهُ من الأطراف، وازدهت

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/٤٦٣ وما بعدها، والكامل: ٣/٢١٢ ـ ٢١٣، وفيهما ما جرى بالتفصيل. . .

سوقُه «بالشعراء والأدباء والعلماء ووفود القبائل، مما لم يكن في العهد الأول، لانْشِغَالِ الناس آنئذٍ بالجهاد والفتوح، وعدم فَراغِهم لهذه الألوان من الأدب، التي لا تَغْزرُ وتَـتَهَيَّءُ إلا بعد اسْتِتْبابِ حال الدولة، ولم نَعْهَدْ حركةً أدبيةً نشأت إبَّانَ الفُتوح حين تَتَأسَّسُ الدول. وازْدان هذا العهدُ بأفْحَلِ رُجَّازٍ وشعراءَ أخرجهم العهدُ الأموي، ويُخَصُّ بالذكر منهم جريرٌ والفَرزْدَقُ والأخْطَلُ والبَعِيثُ وراعي الإبلِ وذو الرِمَّةِ، ومن الرُّجَّازِ رُؤْبَةُ وأبوه العجَّاجُ وأبو النجم العجليُّ»[1] . . .

وتحوَّلَ المِرْبَدُ، وسط هذه الحركة الأدبية، إلى مَسْرحٍ يأتيه الشعراءُ من البصرة والكوفة والبادية، ليُنْشِدوا الناسَ خير ما صاغُوه من أشعار. واستطـاع جريـرٌ والفرزدق أن يتقدَّما في سوق المربد بفن الهجاء القديم، وأن يجعلا منه فناً مُتطوِّراً، يقوم على الحِوَارِ والمناظرة في حقائق العَشيرة، فكان جريرٌ ينتصر لقبائل قيس، والفَرزدق لتميم، في أسلوبٍ جَدَليّ رائع، جعل كثيراً من الشعـراء يقتدون به في شعرهـم، وكان النـاسُ يتجمَّعُـون حول أولئك الشعراء، يستمعون إليهـم، ويُصَفِّقُون لهم علامة الرضا والإعجاب[2]. وقد أنتج هذا الفنُّ الجديدُ في التهاجي، قصائدَ النقائض المشهورة، التي صدرت كَثْرتُها عن المِرْبد، وعُرِفَت بنقائض جرير والفرزدق والأخطل. وكان لكلِّ شاعر من هؤلاء الشعراء حلقةٌ معروفةٌ بالمِرْبَدِ، يجلسُ فيها، فيجتمعُ الناسُ إليه، وذكر الأصفهانيُّ أنه «كان لراعي الإبل[3]،

---

(١) أسواق العرب: ٤١٩.

(٢) البلاغة تطور وتاريخ: ١٦.

(٣) راعي الإبل: أبو جندل، عُبَيد بنُ حُصَين، من بني نُمَيْر، من هوازن. وكان من فحول الشعراء، ومن جِلَّةِ قومه، وهم أهل بيت وسؤدد. لُقِّب بالراعي لكثرة وصفه الإبل. عاصر جريراً والفرزدق. توفي نحو (٩٠ هـ = ٧٠٩ م).

والفرزدق[١]، وجُلَسائهما حَلقةٌ بأعْلَىٰ المِرْبَدِ بالبصرة يجلسون فيها»[٢]، وكان راعي الإبل يقضي للفرزدق على جرير، ويُفَضِّلُه. فخرج جريرٌ يوماً إلى المربد يتعرَّضُ له، ليلقاهُ حين يمرُّ مُنْصرِفاً من مجلسه، ولمّا رآهُ اسْتَوقَفَهُ وقال: يا أبا جندل، إن قولَك يُستَمعُ، وإنك تُفَضِّل الفرزدق عليَّ تفضيلاً قبيحاً، وأنا أمدحُ قومَكَ، وهو يهجوهم، ويكفيك من ذاك إذا ذُكرنا، أن تقول كلاهما شاعرٌ كريمٌ، ولا تحتملُ مني ولا منه لائمةً! فلم يلتفتِ الراعي إليه، فانصرف جريرٌ غضبانَ إلى منزله، وجعل يُعِدُّ قصيدةً في هجائه، فما زال يُهَمْهِمُ بها حتى كان السَّحَرُ، وإذا هو يُكبِّرُ قد قالها ثمانين بيتاً في بني نُمير، ولمَّا خَتَمها بقوله:

فغُضَّ الطَّرْفَ إنك من نُمَيْرٍ فـلا كعْبـاً بلَغـتَ ولا كِـلاَبَـا

كبَّر وقال: أَخْزَيتُه وربِّ الكعبة! ثم أصبح، حتى إذا عرفَ أن الناسَ قد جَلَسُوا في مجالسِهم بالمِربَد، قصد مجلسَ الفرزدق والراعي، ثم اندفع في قصيدته يُنْشِدُها، فنكَسَ الفرزدقُ والراعي، وسكتَ الناسُ، حتى إذا فرغ منها سَارَ، وثَبَتَ الراعي ساعةً، ثم ركب وخَلَّىٰ المجلسَ، وهو يقولُ لقومه: فَضَحكُم واللَّهِ جريرٌ، فليس لكم ها هنا مُقَامٌ[٣].

ويبدو أن جريراً كان أَقْذَعَ مُعَارِضيه هجاءً، وأَقْدَرَهم على امتلاكِ

---

(١) الفرزدق: همَّام بنُ غالب من بني دارم، من تميم، أبو فراس. شاعر من النبلاء، من أهل البصرة، عظيم الأثر في العربية، كان يُقال: لولا شعرُ الفرزدقِ لذَهَبَ ثُلُثُ لغةِ العرب، ولولاهُ لذهب أيضاً نصفُ أخبار الناس. أخباره مع جرير والأخطل أشهرُ من أن تذكر، توفي (١١٠ هـ = ٧٢٨ م).

(٢) الأغاني: ٨/ ٢٨.

(٣) المرجع نفسه: ٨/ ٢٨ ـ ٣٠.

ناصية القول، وأبْرَعَهم اقتناصاً للمعنى وتَوْليده، وأعْذَبَهم أسلوباً، وأكثَرهم تهكُّماً واسْتِهزاءً، يرمي خَصْمَهُ بما يُضْحِكَ الناس، ويَحُطُّ من شأن قبيلته، ويهتكُ الحرُماتِ والأعراض، فكان الناسُ يخشَوْنَ شِرَّةَ لسانه، والبيتُ الذي قاله في بني نُمير يُعَدُّ من أشَدِّ الهجاء، لما فيه من التفضيل[1]. .

وكتُبُ الأدب، ودواوين الشعر مَلأَىٰ بكثيرٍ من قصائد هذا النوعِ من الهجاءِ، وهو فنٌّ جديدٌ قام على الحِوار والمناظرة والتحدِّي، يَنْظِمُ الشاعِرُ فيه قصيدةً، فيُبادِرُ مُقارِعُهُ فينقُضُ هذه القصيدةَ بأُخرىٰ تجري مع الأُولى في وَزْنها وقافيتها، ويحاول أن يُظهِرَ فيها مقدرتَه وتفوُّقَهُ. . وتُعَدُّ النقائضُ، التي قيل معظمُها في المِرْبَد، من الوثائق التاريخيَّةِ الجامعةِ للحوادثِ والأيام، والأحْسَابِ والأنْسابِ، والمَنَاقِبِ والمثَالب، وأخبارِ العرب في جاهليتها وصَدْرِ الإسلام، وأشهرُها نقائضُ جريرٍ والفَرزدق والأخْطَلِ التغلبي. وقد أذْكىٰ نيرانَ هذا الفنِّ، في العصر الأمويّ، انْبعَاثُ العصبيَّة القبليَّة مُجدَّداً بين العرب، بعدما خَبَتْ نارُها ورَقَدَتْ بظهور الإسلام. وكان الأمويُّون يُعْنَوْن بهذه العصبيَّة لتأييد دولتهم، وقد تمثَّلتْ بأجْلَى صُوَرِها في مجتمعات العرب بالبصرة، فسَاعدوا على إحيائها، وأرادوا أن يكون لهم من سوق المِرْبَد بالبصرة، مثلُ ما كان لهم ولآبائهم من سُوق عكاظ بنَجْدٍ، فأدركوا بُغْيَتَهم، وبَلَغُوا ما أرادوا، فكانت تنعقد لهم بالمِرْبَدِ مجامِعُ للتفاخُر بالأحساب، والتنافُرِ بعِزَّةِ الآباء، والتماجُدِ بالكرم، وإنهابِ المالِ اكتساباً للثناءِ والحمد والشرف بين العرب.

وأخبارُ ذلك كثيرةٌ يطولُ بنا الكلامُ لو مضينا وراءَها بالمتابعة والذِّكْرِ، ولكننا نكتفي بالمثَلِ. . كان الرجلُ في الجاهلية، إذا أراد أن يسير في العرب

(١) محمد إبراهيم جمعة ـ جرير: ٥٢ ـ ٥٣، دار المعارف بمصر.

ذِكْرُهُ بالكرم والشرف، جاء سوقَ عكاظ بمالِهِ، ثم دعا الناسَ إلى انْتهابِهِ. . .

ويُحكىٰ أن زياد بنَ أبي سفيان نَهىٰ، في ولايته البصرةَ، أن يُنْهِبَ أحَدٌ مالهُ، ثم إن الفرزدق بَعَثَهُ أبوهُ، غالبُ بن صعصعة الدارميُّ، في إبِلٍ وجَلَبٍ ليبيعَها، ويشتريَ بثمنها أكْسِيَةً وميرةً لأهله. فباعها في المِرْبَدِ، وأخذ ثمنَها فجعله بين ثيابه، وعقد عليه مِطْرَفَ خَزٍّ، فعَرَض له رجلٌ فقال: لشَدَّ ما تَسْتَوْثق منها! أمَا لو كان مكانَكَ غالبُ بنُ صعصعة لما صَبَر عليها. . فدعا الفرزدقُ أهلَ المِرْبَدِ، فقال لهم: دُونَكُمُوها، ومَن أخذ شيئاً فهو له. فقال له أحدُهم: فألْقِ رداءَك يا ابنَ غالب! فألْقَاهُ، وقال آخَرُ: ألْقِ عمامتك! فألقاها، وقال ثالث: ألْقِ قميصَكَ! فألقاه له، حتى بقيَ في إزَارٍ، فقالوا: ألْقِ إزارَكَ! فقال: لن أُلْقِيَهُ وأمشيَ مُجرَّداً، ويَحسَبُني الناسُ مجنوناً، ولستُ بمجنون. . . فبلغ الخبرُ زياداً، فأرسل إلى المربد من يأتيه بالفرزدق، فجاء رجلٌ من قومه على فَرس، وقال له: أُتِيتَ فالنَّجاءَ، وأرْدَفَهُ خلفَهُ، وركَضَ حتى تَغيَّب. ووصل رجالُ زياد فلم يجدوا الفرزدق، فأخَذَ زياد عَمَّيْنِ له كانا معه فحَبَسهما، فقيل لزياد: شَيْخَانِ سَامِعَان مُطِيعَان، ليس لهما ذنبٌ فيما صنعه الفرزدق، فخلَّىٰ عنهما. فأتَيَا إلى الفرزدق فقالا: أخْبِرنا بجميع ما أَمَرَكَ به أبوك من ميرةٍ أو كسوة، فأخبرهما، فاشْتَرَيَاهُ من مالهما، وانطلق به إلى أبيه، فوجَدَهُ على علمٍ بما صنع، راضياً عنه أنه يُحْسِنُ مِثلَ ذلك[1].

وكان ذو الرُّمَّةِ[2]، يذهب أيضاً إلى المِرْبَد، ويقفُ فيه مُنْشِداً شعره،

---

(١) تاريخ الطبري: ٥/٢٤١ ـ ٢٤٢.

(٢) ذو الرُّمَّة: أبو الحارث، غيلان بن عقبة العَدَويُّ المُضَريُّ، (٧٧ ـ ١١٧ هـ = ٦٩٦ ـ ٧٣٥ م)، صاحب ميَّة المِنْقَريَّة. شاعر بدويٌّ، من فحول الطبقة الثانية من الشعراء في عصره. أكثرُ شعره تَشْبيبٌ وبكاءُ أطلال، وكان مجيداً في التشبيه.

والناسُ مُجتمِعةٌ إليه. ولمّا أنشدهم قصيدتَه البائيَّةَ، ودُموعه تجري على وجهه:

ما بالُ عَيْنِكَ منها الماءُ يَنْسَكِبُ   كأنه من كُلَىً مَفْرِيَّةٍ سَرِبُ[1]

قال جرير: لو خَرِسَ ذو الرُّمَّةِ بعد هذه القصيدة لكان أشعَرَ الناس! وبَيْنا هو قائمٌ بين الناس يوماً، عليه بُرْدٌ ثمينٌ، يُنشِدُهم بعضَ قصائده، تصدَّى له رَجُلٌ فنَقَدَهُ نقداً شديداً، وأخَذَ عليه سوءَ تَشْبيهاته، فآلىٰ ذو الرمَّة على نفسه ألاَّ يأتيَ إلى المِرْبَد بعدها، أو يموتَ ذاك الرجل[2].

واشتُهِر بالمِرْبَدِ، في أيام بني أميَّة، إلى جانب أولئك الفُحول من الشعراء، طائفةٌ أخرى من كِبَارِ الرُّجَّازِ، أبرزُهم: أبو النجم، الفضلُ بنُ قدامة العِجْلي، من بني بكر بن وائل، وأبو الشَّعْثَاء، عبدُ الله بن رؤبة العجَّاج السعديُّ، من بني تميم، وإبنُه أبو الجَحَّاف، رُؤْبة بنُ عبد الله العجَّاج... وكانوا يخرجون إلى المربد، وتجتمع الناس إليهم، تستمعُ إلى أَراجِيزهم، وكانوا فُصَحاءَ مَشْهورينَ، أَخَذَ عنهم أعْيانُ أهلِ اللغة[3].

وبفَضْلِ هؤلاء الرجّاز، وأولئك الشعراء، خَلَّفَ المِرْبَدُ في عصر بني أميَّة، هذا المحصولَ الواسعَ من الرَّجَزِ، والشِّعْرِ، والطُرَفِ الأدبيَّةِ، ومَلأَ بها أُمَّهاتِ كتُبِ الأدب، ففَاق في ذلك مَحصُولَ عكاظٍ كَثْرةَ إنتاجٍ، وعَدَدَ شعراء ورُجَّازٍ.

* * *

---

(١) الكُلَى: ج الكُلْيَة، وكُلْيَةُ المزَادَة أو الرَّاوِيَة: جُلَيْدَةٌ مستديرةٌ، مشدودةُ العُروة، قد خُرِزَت مع الأديم، تحت عروة المزادة. المَفْرِيَّة: المشقوقة. السَّرِبُ: السائل. شبَّه انسكاب الدمع من عينه، بانبجاس الماء من راوية مشقوقة أو مثقوبة.

(٢) الأغاني: ١٧/ ٣٢٥ ـ ٣٢٦.

(٣) الأغاني: ١٠/ ١٥٧ ـ ١٦٠، والأعلام: ٣/ ٣٤، و٤/ ٨٦، و٥/ ١٥١.

المطلب الثالث ـ المربدُ في العصر العَبَّاسيّ:

ظلَّ المِرْبَدُ قائماً في العصر العباسيّ، ولكنه كان إذ ذاك يُؤدِّي غرضاً آخَرَ، غير الذي كان يُؤدِّيه في العصر الأمويّ. ذلك أن العصبيَّةَ القبليَّةَ، بل القوميَّةَ، أخذتْ تَضْعُفُ بتَغْليبِ العباسيِّينَ العنصرَ الفارسيَّ على العرب، في مرافق الدولة ومجتمعاتها كافةً. فأحسَّ العربُ بالخَطَر يُوشِكُ أن يَدْهَمَهُم جميعاً، سواء أكانوا من الشمال أو من الجنوب، ولكنهم لم يستطيعوا التصدِّيَ له، لما كان من رُؤوس الأعاجم من نفوذ في قصور بني العبَّاس.. ثم ما لبثَ أن فَشَتْ في العرب وانتشرتْ عاداتُهم، وأخلاقُهم، وطرائقُ معيشتهم، وجعل الناسُ في المدُن، كالبصرة والكوفة وبغداد، يَحْيَوْنَ حياةً اجتماعيةً، هي أقربُ إلى حياة الفُرس منها إلى حياة العرب، وتقاليدهم، وعاداتهم.. كما انصرف، في الوقت نفسِه، الخلفاءُ والأمراءُ والكِبَارُ عن مثل ذلك النزاعِ الذي كان بين جرير والفرزدق والأخطل والراعي وغيرهم، وطَفِقَتِ العلومُ تُزَاحِمُ الشعرَ والأدبَ، وفشَا اللحْنُ في العربية بكثرة العبيد والإِمَاءِ في بيوت العرب، وبِدُخُولِ الأجانب في الإسلام، من الموالي وغيرهم، فأفْسَدُوا، حتى على العرب الخالصةِ لغتَهم، وحينئذٍ تحوَّل المِرْبَدُ يُؤدِّي غَرَضاً آخَرَ يتَّفِقُ وهذه الحياةَ الجديدةَ.

وهكذا أصبح الشعراءُ يقصدون المِرْبَدَ، لا لِيَتَهاجَوْا أو يَتَفاخَروا، وإنما ليأخذوا عن أهل البادية مَلَكَةَ الشِّعْر، وليكْتَسِبُوا منهم فصاحةَ المفردات، وبلاغةَ العِبَاراتِ، وقد عُرِفَ أن بشَّار بنَ بُرْد، وأبا نُواس[1]،

(١) أبو نواس: الحسَنُ بن هانىء (١٤٦ ـ ١٩٨ هـ = ٧٦٣ ـ ٨١٤ م)، شاعر العراق في زمنه، ولد في الأحواز، ونشأ بالبصرة. أول من نهج للشعر طريقته الحَضَريَّةَ، وأخرجه من اللهجة البدوية، قال الجاحظ: ما رأيتُ رجلاً أعْلَمَ باللغة، ولا أفْصَحَ لهجةً من أبي نواس.

وأمثالَهما كانوا يخرجون إلى المربد، ويُخالطونَ البُدَاةَ من العرب ليتعلَّموا منهم أساليبَ الشعر، ويكتسبوا مَلَكَتَهُ.

ولمّا اشتدَّ الخِلافُ بين مَدرستَيْ البصرة والكوفة، وتَعصَّبَ كلٌّ منهما لمذهبه في اللغة والنحو، كان النُّحَاةُ وأهلُ اللغة يقصدون المِرْبَدَ ليأخذوا عنه ما يُقَوِّمُ ألْسِنَتَهم، ويُصَوِّبُ قواعدَ اللغة عندهم، أو ما يُؤَيِّدُ مَذَاهِبَهم... فكان المِرْبَدُ أعظمَ مَوْرِدٍ اسْتمدَّتْ منه مدرسةُ البصرة دعائم مذهبها في النحو واللغة والشعر.. ذكر القالي أن الأصمعيَّ قال: جئتُ إلى أبي عمرو بن العلاء، فقال لي: من أين أقبلتَ يا أصمعيُّ؟ قلت: جئتُ من المِرْبَدِ. قال: هاتِ ما معك.. فقرأتُ عليه ما كتبتُ في ألْواحي، فمرَّت به ستةُ أحْرُفٍ ـ أي كلمات ـ لم يَعْرِفْها، فخرج يعدو في الدرجَة، ويقول: شَمَّرتَ في الغريب، أيْ غَلَبتَني فيه[1].. ومن هذا نعلم أن اللغويين كانوا يخرجون إلى المِرْبَدِ، ليأخذوا عن أهله، وأنهم كانوا يُدَوِّنون ما يسمعون في صُحُفِهم.. ونجد في تراجم النُّحَاةِ أن كثيراً منهم كان، في ذلك العصر، يخرج إلى المِرْبَدِ ليأخذَ عن أهله قواعدَ النَّحْوِ والصَّرْفِ، شأنُهم في ذلك شأنُ الأدباء، فقد كان هؤلاء يخرجون أيضاً إلى المِرْبَدِ، ليطَّلِعُوا على ما خَلَّفَهُ العربُ من تراثٍ في الشعر والخُطَب والحِكَم والأمثال وأيّام العرب. ويُذكر أن الجاحظ مثلاً أخذ النَّحْوَ عن الأخفش[2]، والكلامَ عن النظَّام[3]، وتَلقَّفَ الفصاحةَ شفاهاً من

---

(١) الأمالي ـ النوادر: ٣/ ١٨٢ ـ ١٨٣.

(٢) الأخفش: لقب ثلاثة من مشاهير النحاة، الأخفش الأكبر، توفي (١٧٧ هـ = ٧٩٣ م)، والأخفش الأوسط (٢١٥ هـ = ٨٣٠ م)، والأخفش الأصغر (٣٠٨ هـ = ٩٢٠ م)، وتوفي الجاحظ (٢٥٤ هـ = ٨٦٨ م).

(٣) النظّام: إبراهيم بن سيّار، أبو إسحاق، نشأ في البصرة، وهو من المعتزلة. مكانته عظيمة في الفكر الإسلامي، لأنه بادر إلى التصدّي للمذاهب الفلسفية المانيّة (نِسبةً إلى ماني) واليونانية. توفي (٢٢٠ هـ = ٨٣٥ م).

العرب بالمِرْبَد[1]. . . فكان إقبالُ العلماء والنُحاة والشعراء والأدباء على المِرْبَد، في هذا العصر، من العوامل التي أعانَتِ العربيةَ على الثبات في وجه الهجمة الشعوبية، وما كانت تَنقلُه معها، أو تَدَّعيه لنفسِها من الحضارة والتقدُّم. ومن هنا كان سُكانُ البصرة أعْرَقَ في الفصاحة من سائر العرب.

* * *

ولعلّ خير مثالٍ نَسُوقُه عمَّا كان عليه المِرْبَدُ في ذلك العصر من المُسْتَوىٰ الثقافي، حِوَارٌ فلسفيٌّ بين ابنِ المقفَّعِ[2]، وطائفةٍ من الأدباءِ بالمِرْبَد، يُفَاضِلُونَ بين الأُمم، أيُّها أعْقَل. . .

«قال شبيبُ بن شَيْبَة[3]: إنَّا وقوفٌ بالمربد، وكان المربَدُ مَألَفَ الأشراف، ومجتمعَ الأعيان، وقد حضر أعْيَانُ البصْرة، إذ طلع ابنُ المقفَّع، فما فينا أحدٌ إلا هَشَّ له، وبدأناهُ بالسلام، فقال: ما يَقِفُكم على مُتُونِ دَوَابِّكم في هذا الموضع؟ فوالله لو بَعَثَ الخليفةُ إلى أهل الأرض يبتغي مِثْلكم ما أصاب أحداً سواكم، فهل لكم بمجلسٍ في ظِلٍّ مَمْدُودٍ، ووَاقِيَةٍ من الشمسِ، واستقبالٍ من الشَّمَالِ، وتَرْويحٍ للدَّوَابِّ والغِلمان، ونَتَمهَّدُ الأرضَ، فإنها خيرُ بِسَاطٍ وأَوْطَؤُهُ، ويسمعُ بعضُنا من بعض، فهو أَمَدُّ للمجلس، وأَدَرُّ

---

(١) ضحى الإسلام: ٢/ ٨٠ ـ ٨٢.

(٢) عبد الله بن المقفَّع: (١٠٦ ـ ١٤٢ هـ = ٧٢٤ ـ ٧٥٩ م)، من أئمَّة كُتَّابِ العربية، أصله مجوسيٌّ فارسي ثم أسلم. عُني بترجمة كتب أرسطو في المنطق، وكتاب كليلة ودمنة عن السريانية، وله رسائلُ في غاية الإبداع، منها: الأدبُ الصغير، والأدبُ الكبير. اتُّهِم بالزندقة، فقتله أمير البصرة.

(٣) شبيب بن شَيْبَة التميميُّ: أبو معمر، شريفٌ، أديبٌ، كان يُقال له: الخطيبُ، لفصاحته، نديمُ الملوك، وجليسُ الفقراء، وأخو المساكين، من أهل البصرة، وإليه كان يَفْزَعُ أبناءُ قومه في حوائجهم.

للحديث؟.. فسارعنا إلى ذلك، ونزلنا عن دَوَابِّنا في تلك الدار، نَتَنَسَّمُ الشَّمَالَ، أي ريحَ الشمال.. فلما استقرَّ بنا المكانُ، قال لنا: أيُّ الأُمَم أعْقَلُ؟ فَظَنَّنَا أنه يُريد الفُرسَ، فقُلنا: فارسُ أعْقَلُ الأُمم! نقصدُ مُقَاربتَه، ونَتَوخَّى مُصَانَعتَه. فقال: كلاَّ، ليس ذلك لها، ولا فيها، هم قومٌ عُلِّمُوا فَتَعلَّمُوا، ومُثِّلَ لهم فامْتَثَلُوا واقْتَدَوا، وبُدِئُوا بأمرٍ فصاروا إلى اتِّبَاعِه، ليس لهم اسْتِنْباطٌ، ولا اسْتِخْراج... فقُلنا له: الرُّومُ.. فقال: ليس ذلك عندها، بل لهم أبْدانٌ وَثيقةٌ، وهم أصحابُ بناءٍ وهندسة، لا يعرفون سواهما، ولا يُحْسِنُون غيرهما... قلنا: فالصِّينُ.. قال: أصحابُ أَثَاثٍ وصَنْعَةٍ، لا فِكْرَ لهم ولا رَوِيَّة... قلنا: فالتُرْكُ.. قال: سِبَاعٌ للهِرَاشِ... قلنا: فالهند.. قال: أصحابُ وَهْمٍ، ومَخْرَقَةٍ، وشَعْبَذَةٍ، وحيلة... قلنا: فالزَّنْجُ.. قال: بهائمُ هامِلَة...

فَرَدَدْنا الأمرَ إليه، فقال: العربُ... فتَلاحَظْنَا، وهَمَسَ بعضُنا إلى بعض، فغَاظَهُ ذلك منا، وامْتُقِعَ لونُه، ثم قال: كأنكم تظنُّون فيَّ مُقَارَبتَكم، فواللَّهِ لَودِدْتُ أن الأمر ليس لكم، ولا فيكم، ولكن كرِهْتُ إن فاتني الأمرُ أن يفوتَني الصواب، ولكن لا أَدَعُكم حتى أُبيِّن لكم لمَ قلتُ ذلك!. لأَخْرُجَ من ظِنَّةِ المداراة، وتَوَهُّم المصانعة.. إن العربَ ليس لها أوَّلٌ تَؤُمُّه، ولا كتابٌ يَدُلُّها، أهلُ بلدٍ قَفْرٍ، ووَحْشَةٍ من الإنس، احتاج كلُّ واحدٍ منهم في وَحْدته إلى فِكْرِهِ وعقله، وعلموا أن معاشَهم من نبات الأرض، فوَسَمُوا كلَّ شيءٍ بسِمَتِهِ، ونَسَبوه إلى جِنْسه، وعرفوا مصلحةَ ذلك في رَطبِه ويابِسِه، وأوقاته وأزْمِنَتِهِ، وما يَصْلُحُ منه في الشاةِ والبعير، ثم نظروا إلى الزمان واختلافه، فجعلوه ربيعيّاً، وصَيْفيّاً، وقَيْظِيّاً، وشتويّاً، ثم علموا أن شربهم من السماء، فوصفوا لذلك الأنواء، وعرفوا تَغَيُّرَ الزمان، فجعلوا له منازله من السَّنَة، واحتاجوا إلى الانتشار في الأرض، فجعلوا نجومَ السماءِ أَدِلَّةً على أطراف

الأرض وأقطارها، فسَلكُوا بها البلاد، وجعلوا بينهم شيئاً ينتهون به عن المُنْكَر، ويُرغِّبُهم في الجميل، ويَحضُّهم على المكارم، حتى إن الرجُلَ منهم وهو في فجٍّ من الأرض يصفُ المكارِمَ فما يُبْقي من نعْتِها شيئاً، ويُسْرِفُ في ذمِّ المساوِىء فلا يُقَصِّر، ليس لهم كلامٌ إلا وهم يُحَاضُّونَ به على اصطناع المعروف، ثم حِفْظِ الجار، وبَذْلِ المال، وابْتِنَاءِ المحامِد، كلٌّ واحدٍ منهم يُصيبُ ذلك بعقله، ويستخرجُه بفِطْنَتِهِ وفكرته، فلا يتعلَّمونَ، ولا يتأدَّبُون، بل نحائِزُ مُؤَدَّبةٌ[1]، وعقولٌ عارفةٌ، فلذلك قلتُ لكم: إنهم أعقلُ الأُمَم، لِصِحَّةِ الفطرة، واعتدال البِنْيَة، وصَوابِ الفِكر، وذكاء الفهم[2]. . .



كان المِربَدُ مدرسةً علميَّةً، اختلف مَنْهجُها في العصر العباسي عمَّا كان عليه في العصر الأُمَويِّ، وأدَّت فيه رسالةً مختلفةً عن رسالتها في ذلك العصر. وإلى ذلك كان المربدُ «منشرةً للمحامد والمساوىء، مَسَرَّةَ الصديق، وغيظَ العَدُوِّ، فكلُّ من أراد أن يكْبِتَ خصماً، أو يَحْقِرَ قبيلةً، أو يَشْهَرَ مَحْمَدَةً، طلب لها المِرْبَدَ يجعلُها فيه، لتكون أشْيَعَ، وأسْيَرَ، وأبْلَغَ في الإرضاء والإغاظة. وقد كان المربدُ مسرحاً لدعوات سياسيةٍ، ودينيَّةٍ، واسْتِغَاثاتٍ، وشكوى، ورثاءٍ، وفَخْرٍ، كما كانت عكاظ، وأحْفَلَ ما كان المربَدُ، في النصف الثاني من عهد الأمويين، والثُلُثِ الأول لعهد العباسيين»[3]، وتفرَّدَ المربدُ بأمرٍ علميّ لم يكن له في عكاظ مَثِيلٌ، فقد كان يُهْرَعُ إليه طُلَّابُ الفصاحةِ من كلِّ وجْهٍ، يلتمسونَها في رِحَابِه، عند أهلِه

---

(١) النحائز: الطبائع والعادات، الواحدةُ نَحِيزَة.

(٢) الإمتاع والمؤانسة: ١/ ٧١ ـ ٧٣، والعقد الفريد: ٣/ ٣٢٤.

(٣) أسواق العرب: ٤٢٤.

وجيرانِه من البادِيَة، حتى نَبَغَ منهم عددٌ غير قليل. . كما أنه أرْفَدَ اللغةَ بمادَّةٍ كثيرةٍ، عليها أسَّسَ النُّحَاةُ قواعِدَهم وأصلحوها، وذلك بما كانوا يقصدون له فُصَحاءَ الأعراب يسألونهم فيما هم فيه مختلفون، ويأخذون عنهم مستفيدين ومُتعلِّمين. . . ومن المربد، وعلى هامشه، غُذِّيَ الأدبُ بقصصٍ وأساطيرَ، كما غُذِّيَ التاريخُ بأخبَارِ ما وقع، ووَضَعَ مَن وضَع من الرواة والأخباريين أحاديثَ حاكُوا بها ما وقع، وفي مجالسِه وحَلقاته اضْطَرعَتِ الأهواءُ المتبايِنَةُ، والنزعاتُ المختلفةُ، اسْتغلَّها الشعوبيُّون والغُلَاةُ والمنافحون عن الحقِّ على السواء[1].

صفوةُ القول أن المِرْبدَ كان بحقٍّ مفخرةَ البَصْرِيِّينَ خاصةً، والعربِ عامَّةً، لما كان له من آثارٍ عميقةٍ بارزةٍ في حياتهم العقلية والأدبية واللغوية.



المطلب الرابع ـ آخِرُ العهد بالمربد:

لعلَّ أعظمَ مُصيبةٍ أصابتِ المِرْبَدَ، كانت سنة (٢٥٧ هـ = ٨٧٠ م) أيَّامَ هاجَمَ البصرةَ جماعةُ الزَّنْج، وهم جيلٌ من السُّودان، اسْتُقدِمُوا من شرقيّ أفريقية إلى البصرة، لِكَسْحِ السِّبَاخ، أي لِكَنْسِ الطَحالِبِ ونحوِها، في نواحي الفرات الجنوبية[2]، تَزعَّمَهم عليُّ بنُ محمد الورزنيني[3]، فجاؤوها من

(١) أسواق العرب: ٤١٢.

(٢) تاريخ العرب: ٥٤٣.

(٣) **علي بن محمد الورزنيني**: الملقَّبُ بصاحب الزَّنج، وبالخبيث، كان من كبار أصحاب الفتن في العهد العباسي، وفتنتُه عُرفت بثورة الزَّنْج، لأن أكثر أنصاره كان من سُودان أهل البصرة، وكان يدَّعي الإنتسابَ إلى العَلَويين، وقد استفحل أمره، حتى ظفر به الموفَّق بالله العباسي سنة (٢٧٠ هـ)، في أيام الخليفة المعتمد (٢٢٩ ـ ٢٧٩ هـ)، فقتله وبعث برأسه إلى بغداد.

ثلاثِ نَواحٍ: المِرْبَد، والخُرَيْبَة، وبني سعد[1]، فأحرقوا الدُّورَ، وسَلَبُوا ما كان فيها، وأقاموا يقتلون الناسَ هنالك، ولا يُبْقون على أحد.. وجاء في حديث الطبريّ، عن ذلك اليوم المشؤوم، روايةٌ قال فيها محمد بن سمعان الكاتب: «فإني يومئذٍ لفي المسجد الجامع، إذ ارتفعت نِيرانٌ ثلاثٌ، من ثلاثة أَوْجُهٍ: المِرْبَد وزهران وبني حِمَّانَ[2]، في وقتٍ واحدٍ، كأن مُوقِديها كانوا على ميعاد، وذلك صدرَ يوم الجمعة، وجَلَّ الخَطْبُ، وأيْقَنَ أهلُ البصرة بالهلاك...»[3]، ثم عَمَّتْهُمُ الفاجِعةُ بالخرابِ والدَّمَارِ، وذهابِ الأنْفُسِ والأموال.

ويبدو أن ذلك لم يكن آخِرَ حريقٍ أتى على المِرْبَد، فشاعِرُ البصرة نَصْر بن أحمد، قال شعراً في حريقٍ وقع بالمربد، في زمنٍ لاحق قطعاً، لأن الشاعر توفي نحو سنة (٣٢٧ هـ = ٩٣٩ م)، أي بعد الحريق الأول بسبعين سنةً! وقد ذكر ياقوتُ أن نَصْرَ بنَ أحمد سُئِل عمَّا قاله في حريق المربد، فقال: ما قلتُ شيئاً.. فقالوا: وهل يَحْسُنُ بكَ وأنتَ شاعِرُ البصرة، والمربَدُ من أَجَلِّ شوارعها، وسُوقُه من أجَلِّ أسواقها، ولا تقولُ فيه شيئاً؟ فقال: ما قلتُ، ولكني أقول! ثم ارْتَجَل هذه الأبيات[4]:

أَتَتْكُـــم شهـــودُ الهـــوىٰ تَشْهـــدُ　　　فمـــا تستطيعـــون أن تَجْحَـــدُوا
فيَـــا مِـــرْبَـــديُّـــون نـــاشَـــدْتُكـــم　　　علـــى أننـــي مَعَكُـــم مُجْهَـــدُ

---

(١) الخُرَيْبَة: موضع بالبصرة، وعندها كانت وقعة الجمل. وبنو سعد: ناحية بالبصرة.
(٢) حِمَّان: محلَّةٌ بالبصرة، سُمِّيت ببني حمَّان بن سعد، من تميم. وزهران: محلَّة بالبصرة.
(٣) تاريخ الطبري: ٩/ ٤٨٣ ـ ٤٨٥.
(٤) عزا الدكتور أحمد أمين هذه الأبيات إلى أبي الحسين بن المثنى، وسمَّاهُ أبا الحصين، وذلك كلُّه غلط، والصواب ما أثبتناه.

جَرَىٰ نَفَسي صُعُداً نحوكم فمن أجله احترق المِرْبَدُ
وهاجت رِيَاحُ حَنيني لَكُم وظلَّتْ به نارُكم تُوقَدُ
ولولا دموعي جرت لم يكن حَرِيقُكم أبَداً يخمدُ[1]

والشاعِرُ، صاحبُ هذه الأبيات، أبو القاسم، نَصْرُ بنُ أحمد بن نصر، كان شاعراً غَزِلاً، من أهل المِرْبَد، عَلَتْ له شهرةٌ في الشعر، مع أنه لم يكن يُحسِنُ القراءةَ والكتابةَ، وكان له دُكَّانٌ بالمِرْبَد يَخْبزُ فيه خُبزَ الأَرُزِّ، ويُنْشِدُ أشعارَهُ في الغَزَل، فيزدحم الناسُ عليه، ويَتَطرَّفُون بالاسْتماع إليه، ويتعَجَّبون من حاله وأمره، ويبدو أنه لما وقع الحريقُ بالمربد، انتقل إلى بغداد فسكنها دهراً طويلاً[2].

وكان إسماعيلُ بن أرسلانجيق، وهو من السَّلاجِقَة، استقلَّ بولاية البصرة، في أيام العباسيين، سنة (٤٨٦ هـ)، فحاصَرهُ بها سيفُ الدولة صَدَقة بنُ منصور الأسديُّ، صاحِبُ الحِلَّة، وهي مدينةٌ كبيرة بين الكوفة وبغداد، فوقعت بينهما معركة، نُهِبَتْ فيها البصرةُ، ولم يَسْلَمْ منها إلا المحلَّةُ المجاورة لقبر طلحة، والمِرْبَدُ، لأن جيش العباسيين دخل المدرسةَ النظاميةَ، وامتنعوا بها، وحَمُوا المِرْبَد، واستولى سيفُ الدولة على البصرة سنة (٤٩٩ هـ)، وكانت المصيبة عَمَّتِ البلد[3]. . ثم نُهِبَتِ البصرةُ مرةً أخرى، أواخِرَ العام نفسه، وأُحْرِقتْ أسواقُها، ودُورُهَا الحِسَانُ، وظلَّ المُخرِّبُونَ يُضْرِمُونَ النيران فيها أكثر من شهر[4].

---

(١) معجم البلدان: ٥/ ٩٨.
(٢) وفيات الأعيان: ٥/ ٣٧٦ (ت: ٧٦٠)، وشذرات الذهب: ٢/ ٢٧٦، والأعلام: ٨/ ٢١.
(٣) الكامل: ١٠/ ٤٠٣ ـ ٤٠٤.
(٤) المرجع نفسه: ١٠/ ٤١١.

وبينما كان المربدُ مَحلَّةً عظيمةً، تَنتشِرُ فيها الدُّورُ والقُصُور، وتزينها المُتَنَزَّهاتُ الحِسَانُ، وينزلُها أشرافُ العرب، وأَعْيَانُ الناس، وتقوم فيها مَجامِعُ العلماء، ومجالسُ الخطباء، ومحاورات البُلَغَاءِ والفُصَحَاءِ، ومُباريات الشعراء. . . يُطالِعُنَا ياقوتُ، المتوفَّىٰ سنة (٦٢٦ هـ = ١٢٢٨ م) بقوله عن المربد: «وهو الآن بائنٌ عن البصرة، بينهما نحوُ ثلاثة أميالٍ، وكان ما بين ذلك كله عامراً، وهو الآن خراب، وصار المربدُ كالبلدةِ المُفْرَدةِ في وسط البرِّيَّة»[1]. .

لقد كانت تلك الأميالُ الثلاثةُ، التي تَصِلُ بين المربد والبصرة، عُمراناً مُتَّصِلاً، فأمست خراباً يباباً، أَفْرَدَ المِرْبَدَ من البصرة، وجَعلهُ قريةً بائنةً لا خَطَرَ لها، بعدما كان من أعظم أسواقها ومَحَالِّها. . وهكذا عَفَا أثَرُ المِرْبد، ولم نَعُدْ نسمعُ له بعد ذلك ذِكْراً يُؤْثَر.

* * *

---

(١) معجم البلدان: ٥/ ٩٨.

كلمة الختام...

وبعدُ، فإني نظرتُ إلى العربِ في تاريخهم القديم، فراعَتْني فيه ظاهرةُ المواسم العامَّة، التي كانت تَنعقِدُ في مُجتمعاتِهم على مَدَارِ السنة، لكلّ موسمٍ منها موعدٌ مُعيَّنٌ معلومٌ، فيأتُونَها من كلّ فجٍّ عميق، لِيَقْضُوا فيها حاجاتٍ مختلفاتٍ، ويَنَالُوا منها مآرِبَ شَتَّى من التجارة، أو الاجتماع، أو الحجِّ والأعياد. . .

ونظرتُ ثانيةً، فوجدتُ أن هذه الظاهرةَ نَجَمتْ في الحجاز ونَجْد، وفي اليمن وعُمَانَ وبلادِ حَضرموت والشِحْرِ ومُدُنِ الخليج العربي، مثلما نَجَمتْ في بلاد الشام والعراق، بالنظام نفسِه، وعلى النَسَقِ عَيْنِه، وتجلَّىٰ أكثرُ صُوَرِها بهاءَ وألَقاً، وأشدُّ آثارها خَطَراً وعُمقاً وخُلوداً، في مواسم سوق عكاظ. . .

ثم نظرتُ من بعد ذلك كَرَّةً أخرى، فَتحقَّقْتُ وراء هذه الظاهرةِ القديمةِ، نظاماً حضَاريّاً قديماً، قائماً على قواعِدَ مكينةٍ، يَشُدُّ بعضُها أَزْرَ بعض، فمضيْتُ وراءَ تلك القواعد أَسْتكشِفُها، وفي يَديَّ ما استطعتُ بُلوغَه من أدَواتِ البحث، وكلُّ ما قَدِرتُ على استقصائه من مراجع التحقيق، وما زلتُ على ذلك حتى استوى لديَّ موضوعٌ كبيرٌ واحِدٌ، مُتجانِسٌ، مُتَشاكلٌ، يُؤرِّخ لتلك الظاهرةِ الحضاريَّةِ الخطيرة في تاريخ العرب القديم، وإن كانت فُروع هذا الموضوع، أو عناصِرُه، تُوهِمُ المرْءَ أحياناً بأنه حِيَالَ موضوعاتٍ

مُتفرِّقاتٍ، أو مَسائلَ مُتبايناتٍ، إذا حاول أن ينظر إلى كلّ واحدةٍ منها في مَعْزِلٍ عن الأُخْرَيَات. . . وقد جعلتُ فروع هذا الموضوع في جُزْءَيْن كبيرَيْن.

* * *

١ ـ أمّا الجزء الأوّلُ فقد أَقَمتُه على ثلاثةِ أركان، دخلتُ إليها من ستة أبواب، بابٌ إلى الركن الأول، جعلتُه مدخلاً واسعاً إلى التعريف بمعاني المواسم العامَّة، ودلالاتها، وخصائصها، وأنواعها من طبيعية وتجاريَّة واجتماعيَّة ودينيَّة، ووضَعْتُها حيث يجب أن تكون في مَوْضِعها من جوانب الحضارة والارْتقاءِ. . وإذ كان بينها وبين أسواق التجارة أحياناً مُشَابَهةٌ في كثير من الوجوه، وعلائقُ سَبَبِيَّةٌ في بعض الأنواع، فقد عقدتُ فصلاً كبيراً بيَّنتُ فيه فَرْقَ ما بين الطائفتَيْن، وامتيازَ مواسم الأسواق العامَّة على الأسواق التجاريَّة الدائمة بكثير من الخصائص والآثار والأغراض، وأتبعتُ ذلك بفصلٍ تَقصَّيْتُ فيه القواعدَ المشتركةَ، التي كان بعضُها أو كلُّها وراءَ نشوءِ المواسم العامَّة وازدهارِها واستمرار انعقادها في مواعيدها. . . وكنتُ في كلامي على عناصر هذا الركنِ أُفَصِّلُ الحديثَ حيث أرى وجوباً للتفصيل، وأُوجِزُهُ حيث أجدُ لُزوماً للإيجاز.

ثم انتقلت إلى الركن الثاني في هذا الجزء، وجعلتُه وقْفاً على الحديث عن عوامل نشوء المواسم العامَّة، حديثاً مُفصَّلاً، قسمتُه على ثلاثة أبواب، بحثتُ في الباب الأول الحالةَ التجاريَّةَ في بلاد العرب قديماً، وتكلَّمتُ على مُدُنِ القوافل ومَحَطَّاتها فيها، وعلى تعلُّق العرب بالتجارة، وتعلُّقِ التجارة بالعرب، في مختلفِ دُوَلَهم ومَمالِكهم ومُدُنِهم. . وقد بَرَزَتْ مكةُ في عصر الجاهلية كأعظم محطَّةٍ تجاريَّةٍ في تاريخ العرب، ورثتْ مراكزَ اليمن والنَّبَطِ وتَدمُرَ وبُصرى، وصارت عاصمةَ العرب القوميّة والدينيَّة، ولذلك فإنني

عمدتُ إلى تاريخها منذ انتهاء عهدِ جُرْهُمَ بها وحتى ظهور الإسلام، فأعَدْتُ تحقيقَهُ بنزاهةٍ وإخلاص، وحاولتُ إزالةَ ما عَلِق به من الأَوْهام والشوائب، فجاء أقربَ إلى العقل والمنطق والصواب... ونظرتُ فوجدتُ أن المواسمَ الكبرى لا يمكن أن تنشأ، ثم تنمو وتزدهر، حينما تكونُ عامَّةً لكلِّ الناس، إلا إذا كانت في بيئةٍ دينيَّةٍ مُميَّزةٍ! فبحثتُ في الباب الثاني الحالةَ الدينيةَ في بلاد العرب، وتبين لي أن العرب عرفوا مختلفَ الدياناتِ القديمةِ المعروفة، ولكنهم لم يتعصَّبوا لديانةٍ على أخرى، بل أقاموا عقائدهم على عنصرين، أحدُهما المشاركةُ بين أصحاب المِلَلِ المختلفة في كثير من الشعائر والعبادات، على سبيل المُقَارَبة والتطوُّع، والآخَرُ الحريَّةُ المُطْلَقَة في اختيار المرء ما يُؤمنُ به من الديانات، ولذلك كانت البيئةُ الدينيَّةُ في بلادهم مُميَّزةً، وصالحةً لأن تقوم بها تلك المواسمُ الكبرى العامَّة... وما نزال نذكر أن التعصُّبَ اليهوديَّ، لمَّا ظهر في بعض اليمن، قضَى على الدولة ومواسمها وتجاراتها، ثم أعْقَبهُ التعصُّبُ المسيحيُّ، فأقام كنيسةَ القُلَّيْسِ بصنعاء، وأراد صَرْفَ العربِ عن كعبةِ مكَّةَ إليها، فانتهى إلى الفشَل، لأن مكة كانت تُمثِّل العربَ كافةً، في جُملة مأثوراتهم ومعبوداتهم، ولأن الأمر فيها كان قائماً على التعميم دون التخصيص في مسائل الإعتقاد والديانة، ولذلك ظلَّت مواسمُها الكبرى، مثلُ عُكاظ ومجنَّة وذي المجاز وغيرِها، تقومُ في مواعيدها حتى ظهور الإسلام... وبحثتُ في الباب الثالث من هذا الركن الحالةَ الإجتماعيَّة التي كانت عليها بلادُ العرب، والمجتَمعاتِ التي كانت تَتوزَّعُ أهلَها، ذلك أن المواسم العامَّةَ حالةٌ من حالات الحضارة والإرتقاءِ، والمعروفُ أن المؤرِّخين تحاملوا على العرب، اتّهمُوا مُعظمهم بالجفاءِ والميْلِ إلى الغَزْو والسَّلْبِ وقطع الطرق! فكيف يتَّفِقُ أن تقوم تلك المواسمُ في مجتمعاتِ أقوامٍ كانت على هذه الأحوال؟

وقد تبين لي بالتحقيق أن العلَّة الكبرى وراءَ تحامُل المؤرخين، خَلْطُهم مجتمعاتِ العربِ بالأعراب في كيانٍ واحد، وتأوُّلُهم مُفْرَداتِ العربيةِ على غير معانيها الحقيقية، وتوسُّعُهم في استعمال اسْمِ الصعاليك ليشملَ أكبر فريق من العرب، وفَهْمُهم أيّامَ العرب على غير حقائقها، وتفسيرُهم الجاهليةَ بالجهل والتخلُّف، ونَفْيُهم المعرفةَ بالكتابة والحساب عن عامَّةِ العرب وخاصَّتِهم... وقد انتهيتُ من البحث في ذلك كلِّه، إلى ما اعتقدتُه أقربَ إلى الحقّ والصواب في أمر الحياة الإجتماعية عند العرب، وجَدارَتِها بأن تقومَ في مُدُنِها وقُراها وأريافها تلك المواسمُ العامَّةُ الكبرى..

وأمَّا الركنُ الثالثُ من هذا الجزءِ، فكان مَنَاطُ البحثِ والتحقيق فيه يدورُ على القواعدِ والشروط، التي لم يكن منها بُدٌّ، لانعقادِ المواسم وازْتحالِ الناسِ إليها في أمْنٍ وسلامٍ، وفي مَواعيدِها المعيَّنةِ لقيامها من غير تقديم أو تأخير.. وإني لأكادُ أقْطعُ بأنها المرَّةُ الأولى يُحقَّقُ فيها هذا الموضوعُ تحقيقاً تاريخياً دقيقاً، ينتهي به إلى نتائجَ لم نَألَفْها في كتُب التاريخ على اختلافها.. وقد جاء هذا الركنُ في بابَيْن كبيريْن، تَقَصَّيْتُ في الأوَّل منهما قواعدَ الأمن التي كانت مُتوافرةً في مجتمعات العرب بالجاهلية، وأثْبَتُّ بالأدِلَّة والنصوص التاريخية أن الشروط المطلوبةَ، لاعتبار الأمن غالباً على بلاد العرب، كانت مُتَوافِرَةً، ومَرْعيَّةً، ونافِذَةً.. وكانت تَتَجلَّىٰ في رعاية الحرُمات، ولا سيما الشهور المحرَّمة، والأمكنة المحرَّمة، وفي كثير من التقاليد الدينيَّة الموروثة، وفي الأَحْلاف والمواثيق، وأحكام الجِوار، والخفارة، والمصاهرة وما إليها.. وأَبْطلتُ في الوقت نفسِه زعْمَ من قالوا بوجود حمايةٍ فارسيَّةٍ لبعض أسواق العرب، كما وضعتُ مسألةَ الصعاليك ضمن إطارِها الطبيعيّ، وبيَّنتُ أن فلسفتَهم وأشعارهم وشجاعتَهم وسَّعَتْ من دائرة شُهرتهم، وأدَّتْ إلى المبالغة في تقدير خَطرهم، حتى حُسِبَ معظمُ

العرب في عِدَادِ الصعاليك... وفي الباب الثاني أكَّدْتُ أن الأساسَ في المواسم الكبرى أن تكونَ مواعيدُها مُعَيَّنةً في أزمنةٍ ثابتةٍ، لا تَتَحرَّكُ إلا ضمن مُدَّةٍ معروفةٍ، مُحدَّدَةٍ، لإلْحاقِ شُهورِ القمرِ بسَنَةِ الشمس، وبَرْهَنتُ، من خلال التفسير الدقيق لمعاني شهور العرب، على أنهم كانوا يتَّبِعُون تقويماً قمرياً في الشهور، وشمسياً في السنين، وأنهم كانوا يَعْتَدُّون في حساب السنين بمنازل القمر، وهي كالبُروج للشمس. كما بحثتُ في مسألة النسيء عند العرب، وبيَّنْتُ أنه إنما كان لمساواة سنة القمر بسنة الشمس، وليس لإباحة الغزو والغارات كما زعم بعضُ المفسِّرين، وأن إبْطالَهُ بالقرآن الكريم إنما كان لجعْلِه السنةَ القمريَّةَ أحياناً ثلاثةَ عَشَرَ شهراً، لإلْحاقِها بسنة الشمس، ومقدارُ السنة، كما هو في كتاب الله، إثنا عشر شهراً. وكذلك لاعتباره تحريمَ الشهورِ أيضاً يقعُ على عَدَدٍ مُعيَّنٍ منها، وليس على أشْهُرٍ مُعَيَّنةً بأسمائها ومواقعها...

وبذلك نكون قد اسْتوفَيْنا الكلامَ على الأركان الثلاثة للجزء الأول من الكتاب: خصائص المواسم العامَّة، ثم عوامل نشوئها، ثم قواعدِ ازدهارِها واسْتمرارِها.



٢ ـ وأمَّا الجزءُ الثاني من الكتاب فإني أَقَمتُهُ على خمسة أبواب، أحْصَيتُ فيها كلَّ ما كان معروفاً في بلاد العرب من مواسم الأسواق والحجِّ والأعياد، فأثْبَتُّهُ ذِكْراً وعَدّاً ومَوْقعاً ووقائِعَ وتأريخاً.

وبدأتُ، في الباب الأول، بتحقيق دقيقٍ في موارد القدماء عن المواسم التي جاؤوا على ذِكرها في مُصَنَّفاتهم قَصْداً، أو جاءتْ بالإتِّفاق والإشارة، وانتهيتُ من كلٍّ هذا إلى خلاصةٍ واضحةٍ، وافيةٍ بأسماء تلك المواسم،

ومواعيدها، ومَواضِعِ قيامها. . ثم ما لبثتُ حتى أَقَمْتُ مُوازنةً دقيقةً بين ما خَلُصْتُ إليه، وما عَرَضَهُ أو أشار إليه عددٌ من الباحثين والكُتّابِ المتأخِّرين عن أسواق العرب الموسميَّة، وعَمَدْتُ إلى كتاباتِ فريقٍ منهم، كالآلوسيّ، والأفغاني، وجواد علي، وحسين هيكل، فتناولتُها بالعَرْضِ المفصَّل أولاً، ثم بالنقد المُركَّزِ ثانياً، مُبيِّناً مقدارَ ما بها من الصواب، أو من الأغاليط التي وقعت غالباً نتيجة التعسُّفِ في استقراء نصوص القُدماء، أو في فَهْمِها والاسْتِدلال بها، أو في عَرْضِها كما يجب أن تُعْرضَ. . .

ثم عَمَدْتُ في الباب الثاني من هذا الجزء إلى الكلام المفصَّل على سُوق عكاظَ ومَواسمِ الحجِّ، فلم أُغادِرْ كبيرةً، ولا صغيرةً لها علاقةٌ بهذا الموضوع، إلا أحْصَيْتُها، وحقَّقتُ فيها تحقيقاً تناولتُ به مختلف وُجوهها، حتى اسْتَوىٰ لديَّ من كل ذلك ما أستطيعُ أن أَعُدَّهُ تاريخاً وافياً لسوق عكاظ، وسائرِ مواسم الحجِّ، لم أُسْبَق إليه. . فقد تَتَبَّعْتُ الخصائصَ العامَّةَ لسوق عكاظ، وعَرَضْتُ مذاهبَ المؤرِّخين في موضعها ومعالِمه، وحَدَّدْتُ هذا الموضعَ بالاستنادِ إلى ما حقَّقَهُ فيه بعضُ العلماء المتأخِّرين، ووصفتُ طبيعةَ المكان، وما عَسَاها أن تكونَ عليه يوم كانت تنعقدُ مواسمُ السوق، وذكرتُ أسماءَ القبائلِ صاحبةِ الأرضِ والسوق، وقَدَّمتُ بياناً مُسْتَفيضاً عن أئمَّة العربِ وقُضاتِهم بالسوق، وكانوا من بني تميم، وصَوَّبْتُ الغَلَطَ الذي يخلطُ بين مواسمِ الحجِّ في مِنىً وعَرَفَة والمزدلفة، ووُلاَتِها، وموسمِ عكاظ وقُضَاتِه وأئمَّتِه، وتناولتُ بالشرح عُروضَ التجارة، ونظامَ المتاجرة بعكاظ، وطرائقَ البُيوعِ والتعامُل، وما كان به عادةً من كَتَبَةٍ تفرَّغُوا لكتابة الصكوك بين الناس، ونقلتُ أكثر من أربعين واقعةً، أو خبراً مما كان يقعُ بعكاظ في مواسمه، لأُصَوِّرَ الحياة الإجتماعية للعرب في السوق كيف كانت، وعقَّبتُ على ذلك

بما كان في السوق من تنافُسٍ بين الشعراء في قول الشعر، وتقاضيهم إلى قاضٍ يجلس للحُكْم بينهم، وأوضحتُ أن نهضةَ الشعر العربي في الجاهلية مَدِينةٌ لسوق عكاظ ومَجامِعِ العربِ فيه، وأن الدوْرَ العُكاظيَّ في تهذيبِ العربية، وتوحيدِها، كان من أحوال الحضارة عند العرب، أَسْهمتْ فيه كلُّ القبائل التي اشتُهرت بالفصاحة، وختمتُ ذلك ببيانِ الصورة الطبيعية لسوق عكاظ، وتقديرِ بداياتها في نحو القرن الثاني للميلاد، وقيام مواسمها حتى انْتهابها سنة (١٢٩ هـ = ٧٤٧ م).

ولمَّا اسْتَوفَيْتُ الحديثَ عن سوق عكاظ، تحدَّثْتُ عن سُوقِ مجنَّة، ثم عن سوق ذي المجاز، وكانتا في الجاهلية من مواسم الحجّ، وبعدما قلتُ فيهما كلَّ ما أردتُ قولَه، انتقلتُ إلى الحديث عن موسم الحجّ إلى مكة كما كان في الجاهلية، ثم كيف هذَّبَهُ الإسلامُ، وسَنَّ له السننَ القويمةَ، وقدَّمتُ صُوراً طريفةً بعد ذلك من أخبار الشعراء في موسم الحجِّ.

وانتقلتُ بعد ذلك إلى الباب الثالث من هذا الجزء، فتحدَّثتُ فيه حديث المؤرِّخ المحقِّق عن سائر الأسواق الموسميَّة في جزيرة العرب، وهي: حَجْرُ اليمَامَة، ونَطَاةُ خَيبر، ودومةُ الجنْدَل، والمشقَّرُ، وحُبَاشَةُ، وصُحَار، ودَبَا، وإرَمُ بالشِحْر، وعَدَنُ، وصنعاءُ، ونَجْرانُ، والرابيةُ بحضرموت، وبَدْرٌ بالحجاز. وكان حديثي عن دومة الجندل والمشقَّر وصُحَار ودَبَا وبَدْر وإرَم والرابية حديثاً وافياً، حقَّقْتُ فيه أُمُوراً جَديدةً، لها خَطَرٌ بيِّنٌ في تاريخ المواسم الكبرى عند العرب، وأمّا سائرُ الأسواق فكان حديثي عنها على قَدْرِ ما تَوافَر عندي من الأخبار... وتحدَّثتُ في الباب الرابع عن مواسم الأسواق المعروفة في الشام، حديثاً طيِّباً، قدَّمتُ له بمقدِّمةٍ حقَّقْتُ فيها مواعيدَها مُوَثَّقةً بالمطابقة بين مَن عَيَّنَها بحركة منازل القمر، ومَن

عَيَّنها بحركة الشمس في البُروج، كما أَتْبعتُ ذلك بحديثٍ وافٍ عن توافُر الأمن فيها، وفيْ الطُرق المُوصِلَةِ إليها، وعن نظام العُشُورِ بها، ثم ذكرتُ ما تَيسَّر لي من المعلومات عن أسواق: أَذْرِعات، وتُومَاءَ، والأُرْدُنّ، وفلسطين، ودَيْر أيوب، وبُصْرى، وعمَّان، ومَنْبج، وأتبعتُ ذلك كلَّه بالكلام على موسم النَّبَطِ، كلاماً حاولتُ أن أحقِّق به جديداً في حديثِ المواسم الكبرى عند العرب، ثم خَتَمتُ هذا البابَ بحديث طريفٍ عن موسم العيد الذي كان يُقام بتَدمُرَ كلَّ سنةٍ... وأخيراً تحدَّثت في الباب الخامس عن الأسواق التي عرفناها للعراق، واكتفَيْتُ بالتحقيق في ثلاثٍ منها في الجاهلية، وهي الحيرةُ والخنافِسُ والكَبَاث، وتكلَّمتُ بعد ذلك على مواسم الأعياد في بعض أَدْيِرَة العراق، ثم انتقلتُ إلى الحديث عن سوق المِرْبَد بالبصرة، وكانت قد حلَّت في الإسلام محلَّ سوق عكاظ في الجاهلية، وجاء كلامي عليها مُحيطاً بنشأتها وتطوُّرها وازدهارِها، وبما شَهِدتْهُ من إقْبالِ الشعراء وعُلَماءِ اللغة والنُّحَاةِ عليها، وبما كان يجري في مجامع العرب بها ومُنْتَدياتهم من الأنشطة السياسية والفكرية والإجتماعية، وذلك منذ قيامها في عصر الخلفاء الراشدين إلى خَرابِها في نحو القرن السابع للهجرة...

وقد زَوَّدْتُ مَوَاضيعَ الكتاب بكثير من الخرائط الجغرافية، للاسْتِعانَةِ بها على تحديد الأمكنة، وبيان المواقع والمعالم، كما أَلْحقْتُ بها عدداً من الجداول المُحقَّقة، تُبيِّنُ أنسابَ بعض القبائل وأبنائها، للاستعانة بها على تعيين الأزمنة، ومعرفة التواريخ والأعلام... وترجمتُ في هوامش الكتاب كثيراً من أعلام الرجال والنساء والأماكن، وشرحتُ الألفاظَ والعباراتِ والمصطلحاتِ، التي وجدتُ في شَرْحِها ما يزيدُ من فائدة الكتابِ، ويُعْلي من شأنِه، ويجعلُه في جُمْلَتِه موسوعةً تاريخيَّةً وأدبيّةً، تُبرِزُ جوانِبَ رائعةً من

حضارة العرب في عصر الجاهلية، فجاء وكأنه عِدَّةُ كتُبٍ في كتابٍ واحد..
ولعلِّي لا أكون مُبَالِغاً إنِ ادَّعَيْتُ بأن ما بُذِلَ فيه من الجهد والعناءِ والمُصَابرة يجعلُ منه كتاباً لم يُكتَبْ، ولن يُكتَبَ في بابه مِثْلُه...

* * *

المراجع والفهارس

١ ـ ثَبَتُ المراجع والموارد.

٢ ـ بيان الخرائط الجغرافية.

٣ ـ جداول أسماء الشهور ومنازل القمر والمواسم.

٤ ـ جداولُ الأنسابِ وأئمَّةِ عكاظ والنَّسَأة.

٥ ـ الفهرس التفصيلي لمحتويات الكتاب.

ثبت المَراجِع والموارد

١ ـ الآثار الباقية عن القرون الخالية:
أبو الريحان، محمد بن أحمد البيروني ـ طبعة ليبزيغ (١٨٧٨ م)، ألمانيا.

٢ ـ آثار البلاد وأخبار العباد:
زكريا بن محمد الأنصاريُّ القزوينيُّ ـ طبعة فردينان وستنفليد ـ ليدن (١٨٤٨ م)، نسخة محفوظة بمكتبة الجامعة الأميركية في بيروت.

٣ ـ ابن خلدون ـ حياته وتراثه الفكري:
محمد عبد الله عنان ـ الطبعة الثانية (١٩٥٣ م)، القاهرة.

٤ ـ إبراهيم أبو الأنبياء:
عباس محمود العقاد ـ طبعة دار الهلال بمصر.

٥ ـ أثر العرب في الحضارة الأوروبية:
عباس محمود العقاد ـ دار المعارف بمصر، الطبعة الثانية (١٩٦٢ م).

٦ ـ أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار:
أبو الوليد محمد بن عبد الله الأزرقي ـ طبعة دار الأندلس (١٣٨٥ هـ = ١٩٦٥ م)، بيروت، عن نسخة حقَّقها ونشرها بمكة رشدي الصالح ملحس، سنة (١٣٥٢ هـ = ١٩٣٣ م).

٧ ـ أدبيات اللغة العربية:
محمد عاطف، ومحمد نصار، وأحمد إبراهيم، وعبد الجواد عبد المتعال، تحقيق الشيخ حمزة فتح الله ـ المطبعة الأميرية بمصر (١٩٠٩ م).

٨ ـ الأزمنة والأمكنة:
الشيخ أبو علي، أحمد بن محمد المرزوقي الأصفهاني ـ مطبعة دائرة المعارف بحيدر أباد الدكن (١٣٣٢ هـ) الهند.

٩ ـ الأزمنة والأنواء:
ابن الأجدابي، أبو إسحاق، إبراهيم بن إسماعيل ـ تحقيق د. عزة حسن، طبعة وزارة الثقافة والإرشاد القومي بدمشق (١٩٦٤ م).

١٠ ـ أسباب نزول القرآن:
أبو الحسن، علي بن أحمد

الواحدي ـ طبعة دار الكتب العلمية (١٩٩١ م)، بيروت.
١١ ـ **الإسلام ومستقبل الحضارة:**
د. **صبحي الصالح** ـ دار الشورى، بيروت (١٩٨٢ م)، الطبعة الأولى.
١٢ ـ **أسماء الأشهر في العربية ومعانيها:**
د. **أنيس فريحة** ـ دار العلم للملايين، بيروت (١٩٥٢ م).
١٣ ـ **أسماء جبال تهامة:**
عرام بن الأصبغ السُلَمي ـ تحقيق د. محمد صالح شناوي ـ دار الكتب العلمية (١٩٩٠ م) بيروت.
١٤ ـ **أسواق العرب:**
عرفان محمد حمّور ـ دار الشورى، الطبعة الأولى ١٩٧٩، والثانية ١٩٨١ ـ بيروت.
١٥ ـ **أسواق العرب في الجاهلية والإسلام:**
سعيد الأفغاني ـ دار الفكر، الطبعة الثانية (١٣٧٩ هـ = ١٩٦٠ م) دمشق.
١٦ ـ **الإصابة في تمييز الصحابة:**
ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل، أحمد شهاب الدين بن علي ـ وفي حاشيته: الإستيعاب في أسماء الأصحاب، للقرطبي المالكي ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت.
١٧ ـ **الإشتقاق:**
ابن دريد، أبو بكر، محمد بن الحسن ـ تحقيق عبد السلام محمد هارون ـ طبعة مصر (١٩٥٨ م).
١٨ ـ **إصلاح المنطق:**
ابن السِكِّيت، أبو يوسف، يعقوب بن إسحاق ـ تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون ـ دار المعارف بمصر (١٩٥٦ م).
١٩ ـ **الأصمعيّات:**
أبو سعيد، عبد الملك بن قريب الأصمعي ـ تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون ـ دار المعارف بمصر (١٩٦٤ م).
٢٠ ـ **الأصنام:**
ابن الكلبي، هشام بن محمد ـ طبع مصر (١٣٤٣ هـ).
٢١ ـ **الأطلس التاريخي للدولة السعودية:**
مطبوعات دارة الملك عبد العزيز ـ الرياض (١٣٩٨ هـ = ١٩٧٧ م).
٢٢ ـ **إعجاز القرآن:**
أبو بكر، محمد بن الطيب الباقلاني ـ تحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف بمصر (١٩٦٤ م).
٢٣ ـ **الأعلام:**
خير الدين الزركلي ـ دار العلم

للملايين ـ بيروت (١٩٧٩ م).
٢٤ ـ **الأغاني:**
أبو الفرج، علي بن الحسين الأصفهاني ـ دار الثقافة ـ بيروت (١٩٥٧ م).
٢٥ ـ **الإفصاح في فقه اللغة:**
عبد الفتاح الصعيدي وحسين يوسف موسى ـ دار الكتب المصرية (١٩٢٩ م).
٢٦ ـ **إقتضاء الصراط المستقيم:**
تقي الدين أحمد بن تيميّة ـ تحقيق محمد حامد الفقي، دار المعرفة ـ بيروت.
٢٧ ـ **الأم:**
الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي ـ دار الشعب (١٩٦٨ م) القاهرة.
٢٨ ـ **الأمالي:**
أبو علي، إسماعيل بن القاسم القالي البغدادي ـ المكتب التجاري، بيروت، عن نسخة دار الكتب المصريَّة.
٢٩ ـ **الإمتاع والمؤانسة:**
أبو حيَّان التوحيدي، علي بن محمد. نشرة أحمد أمين وأحمد الزين بالقاهرة (١٩٣٩ ـ ١٩٤٤ م)، منشورات دار مكتبة الحياة ـ بيروت.
٣٠ ـ **أنساب الأشراف:**
أحمد بن يحيى البلاذري ـ الجزء الأول، تحقيق د. محمد حميد الله. دار المعارف ومعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية، القاهرة (١٩٥٩ م).
٣١ ـ **الأنواء:**
ابن قتيبة، أبو محمد، عبد الله بن مسلم ـ طبعة حيدر أباد ـ الهند (١٩٥٦ م).
٣٢ ـ **أيام العرب في الجاهلية:**
محمد أحمد جاد المولى، وعلي البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم ـ المكتبة العصرية ـ بيروت وصيدا، عن طبعة (١٩٤٢ م).
٣٣ ـ **إيبلا، مُنعطف التاريخ:**
د. عمر الدقاق ـ منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي بدمشق (١٩٧٩ م).
٣٤ ـ **البداية والنهاية:**
ابن كثير، أبو الفداء، عماد الدين اسماعيل بن كثير الدمشقي ـ دار الكتب العلمية، طبعة (١٩٨٩ م) بيروت.
٣٥ ـ **البدو والبادية:**
د. جبرائيل سليمان جبور ـ الطبعة الأولى (١٩٨٨ م)، دار العلم

للملايين، بيروت.

٣٦ ـ **البلاغة تطوُّرٌ وتاريخ:**
د. شوقي ضيف ـ دار المعارف بمصر (١٩٦٥ م).

٣٧ ـ **بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب:**
محمود شكري الآلوسي ـ شرح محمد بهجة الأثري ـ دار الكتاب العربي بمصر، الطبعة الثالثة.

٣٨ ـ **البيان والتبيين:**
أبو عثمان، عمرو بن بحر الجاحظ ـ المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة (١٩٣٢)، تحقيق حسن السندوبي.

٣٩ ـ **التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول (كتاب الصيام):**
الشيخ منصور علي ناصف ـ الطبعة الثالثة (١٩٦١ م)، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت عن طبعة دار إحياء الكتب العربية (١٣٥١ هـ).

٤٠ ـ **تاريخ آداب العرب:**
مصطفى صادق الرافعي ـ طبعة مصر.

٤١ ـ **تاريخ الأدب العربي:**
كارل بروكلمان ـ دار المعارف بمصر، الطبعة الثانية (١٩٦٨)، ترجمة د. عبد الحليم النجار (الأجزاء: ١ و٢ و٣).

٤٢ ـ **تاريخ الأدب العربي:**
حنا فاخوري ـ المطبعة البولسيَّة، بيروت (١٩٥٣ م).

٤٣ ـ **تاريخ الأمم الإسلامية:**
الشيخ محمد الخضري ـ محاضرات (الدولة الأموية) ـ المكتبة التجارية الكبرى بمصر (١٩٦٩).

٤٤ ـ **تاريخ الأمم القديمة:**
أنور الرفاعي ـ المطبعة الهاشمية بدمشق (١٩٤٨ م).

٤٥ ـ **تاريخ أوربا في العصور الوسطى:**
هـ. ا. ل. فِشر ـ تعريب محمد مصطفى زيادة والسيد الباز العريني ـ دار المعارف بمصر (١٩٥٠ م).

٤٦ ـ **تاريخ التمدن الإسلامي:**
جرجي زيدان ـ منشورات دار مكتبة الحياة ـ بيروت.

٤٧ ـ **تاريخ الجنس العربي:**
محمد عزة دروزة ـ المكتبة العصرية (صيدا ـ بيروت)، طبعة (١٩٥٩ م).

٤٨ ـ **تاريخ الحضارة العربية:**
د. جورج حداد، وراتب الحسامي ـ مكتبة العلوم والآداب للطباعة والنشر بدمشق (١٩٥٢ م).

٤٩ ـ **تاريخ سورية ولبنان وفلسطين:**
د. فيليب حتي ـ ترجمة د. جورج حداد وعبد الكريم رافق ـ دار الثقافة (١٩٥٨ م) بيروت.

٥٠ ـ تاريخ الشرق الأدنى القديم:
د. أبو المحاسن عصفور ـ دار النهضة العربية (١٩٨٤ م) بيروت.

٥١ ـ تاريخ الشعر العربي:
نجيب محمد البهبيتي ـ مطبعة دار المكتب المصرية (١٩٥٠ م).

٥٢ ـ تاريخ الشعوب الإسلامية:
كارل بروكلمان ـ ترجمة نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي ـ دار العلم للملايين (١٩٧٩ م) بيروت.

٥٣ ـ تاريخ صدر الإسلام:
د. عمر فَرُّوخ ـ دار العلم للملايين (١٩٨١ م) بيروت.

٥٤ ـ تاريخ الطبري:
أبو جعفر، محمد بن جرير الطبري ـ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ دار المعارف (١٩٦٠ م) القاهرة.

٥٥ ـ تاريخ العرب:
د. فيليب حتي، وإِدْوَرْدُ جرجي وجبرائيل جبور ـ دار غندور (١٩٨٦ م) بيروت.

٥٦ ـ تاريخ العصور القديمة:
د. كامل عيّاد، ود. جورج حداد، ود. نظيم الموصلي ـ وزارة المعارف السورية (١٩٥٣ م) دمشق.

٥٧ ـ تاريخ الكعبة:
د. علي حسني الخربوطلي ـ دار الجيل (١٩٧٦ م) بيروت.

٥٨ ـ تاريخ اليعقوبي:
ابن واضح، أبو يعقوب، أحمد بن إسحاق ـ دار بيروت (١٤٠٠ هـ = ١٩٨٠ م).

٥٩ ـ تدمر والتدمريون:
د. عدنان البني ـ وزارة الثقافة والإرشاد القومي بدمشق (١٩٧٨ م).

٦٠ ـ تفسير القرآن العظيم:
الإمام عماد الدين، أبو الفداء، إسماعيل بن كثير الدمشقي ـ دار الأندلس ـ بيروت.

٦١ ـ تفسير القرآن الكريم:
محمد محمود حمزة، حسن علوان، محمد أحمد برانق ـ دار المعارف (١٩٥٨ م) مصر ـ القاهرة.

٦٢ ـ التقويم الهادي:
د. محمد صالح البنداق ـ دار الآفاق الجديدة (١٤٠٠ هـ = ١٩٨٠ م) بيروت.

٦٣ ـ التنبُّؤ بالغيب قديماً وحديثاً:
أحمد الشنتناوي ـ دار المعارف بمصر (١٩٥٩ م).

٦٤ ـ تهذيب الصحاح:
محمود بن أحمد الزنجاني ـ تحقيق عبد السلام هارون وأحمد عبد الغفور عطار ـ دار المعارف بمصر (١٩٥٢ م).

٦٥ ـ جمهرة أنساب العرب:
ابن حزم، أبو محمد، علي بن أحمد ـ تحقيق وتعليق عبد السلام محمد هارون ـ دار المعارف بمصر (١٩٦٢ م).

٦٦ ـ حسان بن ثابت:
د. محمد طاهر درويش ـ دار المعارف بمصر.

٦٧ ـ حضارات العالم في العصور القديمة:
منير البعلبكي ورفاقه ـ دار العلم للملايين (١٩٨٤) بيروت.

٦٨ ـ الحوليات الأثريَّة السورية:
المجلد (٣٢) لسنة (١٩٨٢) ـ مديرية الآثار بدمشق.

٦٩ ـ حياة محمد:
د. محمد حسين هيكل ـ دار المعارف بمصر، الطبعة السادسة عشرة (١٩٨١ م).

٧٠ ـ الحيوان:
أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ـ طبعة وزارة الثقافة والإرشاد القومي بدمشق (١٩٧٩ م).

٧١ ـ خزانة الأدب:
عبد القادر بن عمر البغدادي ـ المطبعة السلفية بمصر (١٢٩٩ هـ).

٧٢ ـ الخنساء:
د. عائشة عبد الرحمن، بنت الشاطىء ـ دار المعارف بمصر (١٩٥٧ م).

٧٣ ـ دائرة معارف القرن العشرين:
محمد فريد وجدي، دار المعرفة، بيروت (١٩٧١ م) ـ الطبعة الثالثة.

٧٤ ـ دراسات عن مقدمة ابن خلدون:
ساطع الحصري ـ دار العلم للملايين، بيروت.

٧٥ ـ دراسات في فقه اللغة:
د. صبحي الصالح ـ دار العلم للملايين، الطبعة التاسعة (١٩٨١ م) بيروت.

٧٦ ـ ديوان بشر بن أبي خازم:
تحقيق د. عزة حسن ـ وزارة الثقافة والإرشاد القومي بدمشق (١٩٦٠ م).

٧٧ ـ ديوان الطرِمَّاح:
تحقيق د. عزة حسن ـ وزارة الثقافة والإرشاد القومي بدمشق (١٩٦٨ م).

٧٨ ـ ديوان النابغة الذبياني:
تحقيق وشرح كرم البستاني ـ مكتبة صادر (١٩٥٣ م) بيروت.

٧٩ ـ سيد قريش:
معروف الأرناؤوط ـ مطبعة فتى العرب (١٣٥٠ هـ = ١٩٣١ م) دمشق.
٨٠ ـ السيرة العطرة:
عبد العزيز خير الدين ـ دار الفكر العربي (١٩٦٩ م) مصر.
٨١ ـ السيرة النبويّة:
ابنُ هشام، محمد بن عبد الملك المعافري ـ تحقيق مصطفى السقا، وإبراهيم الابياري، وعبد الحفيظ شلبي ـ دار الكنوز الأدبية.
٨٢ ـ السيرة النبويّة:
أبو الحسن، علي الندوي ـ دار الشروق، الطبعة السابعة (١٩٨٧ م) جُدَّة ـ بيروت.
٨٣ ـ شرح ديوان الأعشى:
دار الكاتب العربي ـ بيروت (١٩٦٨ م).
٨٤ ـ شرح ديوان كعب بن زهير:
الإمام أبو سعيد الحسن بن الحسين السكري ـ الدار القومية للطباعة والنشر، عن طبعة دار الكتب المصرية ـ القاهرة (١٩٥٠ م).
٨٥ ـ شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب:
الإمام جمال الدين، ابن هشام الأنصاري ـ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد (١٩٥١ م) مصر.
٨٦ ـ شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات:
أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري ـ تحقيق عبد السلام محمد هارون ـ دار المعارف بمصر (١٩٦٣ م).
٨٧ ـ الشعر والشعراء:
ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم ـ تحقيق أحمد محمد شاكر ـ دار المعارف بمصر (١٩٦٦ م).
٨٨ ـ الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي:
د. يوسف خليف ـ دار المعارف بمصر (١٩٥٩ م) الطبعة الأولى.
٨٩ ـ صبح الأعشى في صناعة الإنشا:
القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي ـ دار الكتب العلمية، بيروت (١٩٨٧ م).
٩٠ ـ صحيح البخاري (باب المناقب):
أبو عبد الله، محمد بن اسماعيل البخاري ـ دار ومطابع الشعب بالقاهرة.
٩١ ـ الصدِّيق أبو بكر:
د. محمد حسين هيكل ـ دار المعارف بمصر، الطبعة الثامنة (١٩٧٩ م).

٩٢ ـ الصعلكة والفتوّة:
د. أحمد أمين ـ دار المعارف بمصر (١٩٥٢ م).
٩٣ ـ ضحى الإسلام:
د. أحمد أمين ـ مكتبة النهضة المصرية، الطبعة السادسة (١٩٦١ م) القاهرة.
٩٤ ـ الطبقات الكبرى:
محمد بن سعد بن منيع الزهري ـ دار صادر، بيروت (١٩٦٨ م).
٩٥ ـ عبقرية الإسلام في أصول الحكم:
د. منير العجلاني ـ دار الكتاب الجديد، الطبعة الثانية، بيروت (١٩٦٥ م).
٩٦ ـ عبقرية عمر بن الخطاب:
عباس محمود العقاد ـ دار الهلال بمصر.
٩٧ ـ عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات:
زكريا القزويني ـ دار الآفاق الجديده، الطبعة الأولى، بيروت (١٩٧٣ م).
٩٨ ـ عجائب المخلوقات:
الأبشيهي، محمد بن أحمد ـ منشورات المتوسط (١٩٨١) بيروت.
٩٩ ـ العرب والإسلام في حوض المتوسط:
د. عمر فرّوخ ـ منشورات المكتب التجاري (١٩٥٨) بيروت.
١٠٠ ـ العرب في التاريخ:
برنارد لويس ـ ترجمة نبيه أمين فارس ومحمود يوسف زايد، دار العلم للملايين (١٩٥٤) بيروت.
١٠١ ـ العرب قبل الإسلام:
جرجي زيدان ـ دار مكتبة الحياة، بيروت (١٩٧٩).
١٠٢ ـ العشاق الثلاثة:
د. زكي مبارك ـ دار المعارف بمصر (١٩٤٥ م).
١٠٣ ـ العصور القديمة:
جيمس هنري برستد ـ ترجمة داود قربان، مؤسسة عز الدين ـ بيروت (١٩٨٣ م).
١٠٤ ـ العقد الفريد:
ابن عبد ربه، أحمد بن محمد الأندلسي ـ شرح أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الابياري، دار الكتاب العربي ـ لبنان (١٩٨٢ م).
١٠٥ ـ عُمَان والإمارات السبع:
عبد القادر زَلُّوم ـ منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت (١٣٨٣ هـ = ١٩٦٣ م).
١٠٦ ـ عيون الأخبار:
ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت، عن طبعة

دار الكتب المصرية (١٩٢٥ م) القاهرة.
١٠٧ ـ **الفاروق عمر بن الخطاب:**
د. محمد حسين هيكل ـ دار المعارف بمصر، الطبعة السابعة (١٩٨١ م).
١٠٨ ـ **فتوح البلدان:**
البلاذري، أبو الحسن، أحمد بن يحيى ـ دار الكتب العلمية، بيروت (١٩٩١ م).
١٠٩ ـ **فتوح الشام:**
الواقدي، أبو عبد الله محمد ـ مطبعة شقرون بمصر (١٣٤٧ هـ).
١١٠ ـ **فجر الإسلام:**
د. أحمد أمين ـ مكتبة النهضة المصرية (١٩٦١ م) القاهرة.
١١١ ـ **فقه السنَّة:**
سيد سابق ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت.
١١٢ ـ **فقه اللغة:**
الإمام أبو منصور اسماعيل الثعالبي ـ دار الكتب العلمية، بيروت.
١١٣ ـ **الفن ومذاهبه في الشعر العربي:**
د. شوقي ضيف ـ دار المعارف بمصر (١٩٦٠ م).
١١٤ ـ **في الأدب الجاهلي:**
د. طه حسين ـ دار المعارف بمصر (١٩٥٢ م).
١١٥ ـ **في منزل الوحي:**
د. محمد حسين هيكل ـ مطبعة دار الكتب المصرية (١٣٥٦ هـ = ١٩٣٧ م) القاهرة.
١١٦ ـ **قلائد الجُمَان في التعريف بقبائل عرب الزمان:**
القلقشندي، أبو العباس ـ تحقيق ابراهيم الابياري ـ دار الكتب الحديثة بمصر (١٣٨٣ هـ = ١٩٦٣ م).
١١٧ ـ **القيان والغناء في العصر الجاهلي:**
د. ناصر الدين الأسد ـ دار المعارف بمصر (١٩٦٨ م).
١١٨ ـ **قيم جديدة للأدب العربي:**
د. عائشة عبد الرحمن ـ دار المعارف بمصر (١٩٧٠ م).
١١٩ ـ **الكامل في التاريخ:**
ابن الأثير، أبو الحسن علي بن محمد ـ دار صادر ـ بيروت (١٩٧٩ م).
١٢٠ ـ **كل شيء عن الصحراء:**
سام وبريل أبشتين ـ ترجمة مصطفى بدران ـ دار المعارف بمصر (١٩٦١ م).
١٢١ ـ **كلمات القرآن: تفسير وبيان.**
الشيخ حسنين محمد مخلوف ـ دار المطبوعات الحديثة ـ جُدَّة

(١٩٥٦ م).
١٢٢ ـ لسان العرب:
ابن منظور الأفريقي المصري، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ـ دار صادر ـ بيروت.
١٢٣ ـ مجالس ثعلب:
أبو العباس، أحمد بن يحيى ثعلب ـ شرح وتحقيق عبد السلام محمد هارون ـ دار المعارف بمصر (١٩٦٠ م).
١٢٤ ـ المجتمعات الإسلامية في القرن الأول:
د. شكري فيصل ـ مكتبة الخانجي بمصر والمثنى ببغداد (١٩٥٢ م).
١٢٥ ـ مجلة التراث الشعبي ـ بغداد (١٩٧٥) ـ أصول بابلية لكلمات عربية: يوسف داود عبد القادر.
١٢٦ ـ مجلة العربي ـ الكويت (تموز ١٩٨٠) ـ قصة الألعاب الألمبية القديمة: عادل شرف.
١٢٧ ـ مجلة قافلة الزيت ـ جُدَّة (ذو الحجة ١٣٩٠) ـ في رحاب البيت العتيق.
١٢٨ ـ مجلة الكتاب ـ دار المعارف بمصر (المجلد: ١١، لعام ١٩٥٢) ـ ابن خلدون والعرب: سلامة موسى.
١٢٩ ـ مجلة المسلمون ـ دمشق (المجلد: ٤، العدد الثالث أيار ١٩٥٥) ـ حديث العيد: علي الطنطاوي.
١٣٠ ـ مجمع الأمثال:
الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري ـ دار مكتبة الحياة، بيروت (١٩٦١).
١٣١ ـ المحبَّر:
أبو جعفر، محمد بن حبيب البغدادي ـ دار الآفاق الجديدة، بيروت، عن نسخة مطبعة حيدر أباد الدكن (١٣٦١ هـ = ١٩٤٢ م) تحقيق د. إيلزة ليختن شتيتر، ومراجعة د. محمد حميد الله.
١٣٢ ـ مخارج الحروف وصفاتها:
إبن الطحان، أبو الأصبغ السُّماني الاشبيلي ـ تحقيق د. محمد يعقوب تركستاني، مكة (١٩٨٤).
١٣٣ ـ مختصر تاريخ العرب:
د. سيد أمير علي ـ ترجمة عفيف البعلبكي ـ دار العلم للملايين، بيروت (١٩٨١).
١٣٤ ـ المختصر في أخبار البشر:
أبو الفداء، الملك المؤيِّد عماد الدين اسماعيل ـ المطبعة الحسينية المصرية ـ الطبعة الأولى (١٣٢٥ هـ).
١٣٥ ـ المدخل إلى تاريخ الإسلام في الشرق الأقصى:
علوي بن طاهر الحداد ـ تحقيق

محمد ضياء شهاب ـ عالم المعرفة، جُدَّة (١٩٨٥ م).
١٣٦ ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر:
المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين ـ دار الأندلس، بيروت (١٩٧٨ م).
١٣٧ ـ المستطرف في كل فن مستظرف:
الأبشيهي، شهاب الدين محمد بن أحمد ـ دار مكتبة الحياة، بيروت (١٩٨٦ م).
١٣٨ ـ مصادر الشعر الجاهلي:
د. ناصر الدين الأسد ـ دار المعارف بمصر (١٩٥٦ م).
١٣٩ ـ مصارع العشاق:
أبو محمد، جعفر بن أحمد السرَّاج القارىء ـ دار بيروت ودار صادر، بيروت (١٩٥٨).
١٤٠ ـ مطلع النور:
عباس محمود العقاد ـ دار الهلال بمصر.
١٤١ ـ المعارف:
ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم ـ تحقيق د. ثروت عكاشة ـ دار المعارف بمصر (١٩٦٩).
١٤٢ ـ معجم ألفاظ القرآن الكريم:
مجمع اللغة العربية بمصر ـ دار الشروق، القاهرة وبيروت (١٤٠١ هـ = ١٩٨١ م).
١٤٣ ـ معجم البلدان:
أبو عبد الله، شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي ـ دار صادر، بيروت (١٩٧٧ م).
١٤٤ ـ معجم تاج العروس من جواهر القاموس:
محمد مرتضى الزبيدي ـ طبعة مصر بالمطبعة الخيرية (١٣٠٦ هـ)، وطبعة الكويت.
١٤٥ ـ معجم قبائل العرب:
عمر رضا كحالة ـ مؤسسة الرسالة، بيروت (١٩٧٨ م).
١٤٦ ـ معجم متن اللغة:
الشيخ أحمد رضا ـ دار مكتبة الحياة، بيروت (١٩٥٨ م).
١٤٧ ـ معجم محيط المحيط:
المعلم بطرس البستاني ـ مكتبة لبنان، بيروت (١٩٧٧).
١٤٨ ـ المفصَّل في تاريخ العرب قبل الإسلام:
د. جواد علي ـ دار العلم للملايين في بيروت ومكتبة النهضة ببغداد (١٩٧٨ م).
١٤٩ ـ المفضَّليات:
المفضَّل الضبِّي ـ تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون ـ دار المعارف بمصر (١٩٦٤ م).

١٥٠ ـ مقدمة ابن خلدون:
ابن خلدون ـ المكتبة التجارية الكبرى بمصر.
١٥١ ـ مقدمة القصيدة العربية في العصر الجاهلي:
د. حسين عطوان ـ دار المعارف بمصر (١٩٧٠ م).
١٥٢ ـ مهد العرب:
د. عبد الوهاب عزام ـ دار المعارف بمصر (١٩٤٦ م).
١٥٣ ـ موسوعة تاريخ العالم:
وليم لانجر ـ الترجمة العربية ـ مكتبة النهضة بمصر.
١٥٤ ـ الموسوعة الميسَّرة في الأديان والمذاهب المعاصرة:
الندوة العالمية للشباب الإسلامي ـ الرياض (١٩٨٩ م).
١٥٥ ـ موقع عكاظ:
د. عبد الوهاب عزام، وحمد الجاسر، ومحمد بن بليهد ـ دار المعارف بمصر (١٩٥٠ م).
١٥٦ ـ النابغة الذبياني:
د. محمد زكي العشماوي ـ دار المعارف بمصر (١٩٦٠ م).
١٥٧ ـ نظرات في العلاقات بين لغات الشرق الأدنى القديم:
د. عبد الحميد زايد: مجلة عالم الفكر، الكويت، المجلد الثاني ـ العدد الثالث لسنة (١٩٧١)، والعدد الرابع لسنة (١٩٧٢ م).
١٥٨ ـ نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب:
القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي ـ تحقيق إبراهيم الابياري ـ دار الكتب الإسلامية بالقاهرة وبيروت، الطبعة الثانية (١٩٨٠ م).
١٥٩ ـ وفَيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان:
ابن خلكان، أبو العباس أحمد بن محمد ـ دار صادر، بيروت.

بيان الخرائط الجغرافية

جداول أسماء الشهور ومنازل القمر والمواسم



جداول الأنساب وأئمة عكاظ والنسأة

الفهرس التفصيلي لمحتويات الكتاب

والمغرب. جُلُّ اعتماد اليونان والروم وإيران ومصر والحبشة والشام والعراق فيما كانوا يحتاجون إليه من المَتاجرِ، على العرب. كان البخُور الذي اشتُهرت به بلادُ العرب على رأس المتاجر الثمينة التي يسعى إليها الملوك ورجالُ الدين والأثرياء في العالم القديم.

- كانت إيران تُصدِّر عُطور العرب إلى الصين تحت إسم «بضائع پرسي» أي فارس.
- أربعة أشياء مَلأت الدنيا ولا تكون إلا في بلاد العرب: الوَرْسُ واللُّبان والخِطْر والعَقيق.
- كلُّ إقليم من بلاد العرب الجنوبية وساحل تهامة وخليج العرب اشتُهر ببعض أنواع العُروض والسلع والصناعات والغَلّات.
- كانت الخمر من أشهر ما اتّجر به العرب.
- يعود بعضُ العلَّة في اعتماد أُمم العالم على العرب في توفير ما تحتاج إليه من المتاجر، إلى توسُّط جزيرة العرب بُلدانَ العالم القديم.

- كانت جزيرة العرب الممرَّ البرّيَّ الوحيد قديماً لتبادل المتاجر.
- وكان بها طريقان رئيسَان للقوافل شرقيٌّ وغربيٌّ، ينطلقان من مدينة «ظفَار المَهَرة» في جنوب الجزيرة.
- وكانت بها طُرق داخليّةٌ كثيرة تصلُ بين القُرى والمدُن والأسواق.
- أحاط العربُ طرُق البرِّ وقوافلَ التجارة بكثير من الرعاية والأمن، وأقاموا عليها محطّاتٍ ما لبثت حتى صار معظمُها قُرى ومُدُناً.
- كانت القافلةُ من قوافلهم كالجيش، وقد بلغ بعضُها ألفَيْن وخمسَ مئة بعير. وكانت قيادةُ القافلة تُناط بالشجعانِ

الجزء الثاني

مواسم الأسواق والحجّ والأعياد في بلاد العرب

الباب الأول

مواسم الأسواق بين القدماء والمُحْدَثين

الباب الثاني

الباب الثالث

ARAB'S ANCIENT SEASONS AND FESTIVALS

BY

IRFAN M. HAMMOUR

Al-Rihab Modern Establishment
Telephone: 03-359788
P.O. Box: 11/3847
Beirut - Lebanon